مكتبة نوبل

1905

24.9.2018

#14

هنريك شنكوفيتش

كوفاديس

ترجمة: نافع معلا



هنريك شنكوفيتش

كــو فــاديــس

إلى أيــن

ترجمة: نافع معلا




كـوفـاديس



المؤلف: هنريك شنكوفيتش
عنوان الكتاب: كـو فـاديـس
ترجمة: نافع معلا
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2016

Author: **henryk sienkiewicz**
Title: **quo vadis**
Translator: **Nafi Mualla**
cover designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C. : **Al-Mada**
First Edition: **2016**

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

١

استيقظ بترونيوس حوالي الظهيرة. وكعادته دائماً، كان الآن منهكًا، شديد الإحساس بالوهن. ورغم أن صحته قد بدأت تتدهور منذ مدة، إلا أنه أمضى ليلته في مأدبة دعا إليها نيرون دامت حتى الفجر.

وكان اعترافا شخصيًّا منه حين جاء على لسانه أنه بات ينهض محطّم الجسـد، مشتت الذهن كل صباح، و لم يعد يقـوى على لملمة أفكاره. لكـن الحمّام الصباحي، ومن بعده المساجـات الناجعة التي يخصه بها الأرقّاء بأناملهم الماهرة، قد أنعشته تدريجيا، وأعادت اليه نشاطه مبددة الخمول في دورتـه الدمويّة، حتى أنها قد صحته، و أرجعته إلى نفسه، وزودتـه بطاقة أنعشت روحه، فبدا فتيـاً مؤتلق العينين، مفعماً بالحياة. وبكامل أناقته، كأنما قد بعث بعثا جديدا،غادر قاعة الحمام الأخيرة في حالـة من التأنق لا يجاريه فيها حتى أوتـو بالذات، فاستحق في الواقع لقب " ملك الذوق "..

لم يكن يوم أي حمّام من حمّامات المدينة إلا فيما ندر، وفي مناسبات خاصة. منها على سبيل المثال، قدوم خطيب بليغ ذاع صيته في المدينة، أو في عيـد الشبيبـة لحضـور نـزالات في المصارعة يتعـذر أن تقام في مناسبات أخرى. وعلى أيّة حال، كان له في منزله الفسيح المنفرد حمام خاص أشرف صديقه الشهيرسيلير على توسيعه، وترميمه، وتجهيزه له، فقال عنه نيرون بذات نفسه إنه يضاهي الحمّامات القيصريّة، وإن كانـت حمامات أرحب وأفخم تجهيزا بما لا يقاس.

إذن، بعد تلك المأدبة التي تجادل فيها نيرون، و لوكانوس، وسينيكا حول طرح فاتينوس " هل للمرأة روح " أفاق بترونيوس باكراً، وأخذ حمامـه المعتاد. مدده عبدان ضخمان فـوق طاولة من خشب السرو، فرشـت بالكتان المصري الابيض، وعكفا علـى تمسيد جسده المتناسق بأكفهمـا المدهونـة بالزيت العطـري الفواح، فيمـا راح يتابع مغمض العينـين كيـف يتسـرب دفء الحمام البخـاري، ومعـه سخونة أكف المدلكين إلى جسده، وينتزعان التعب من داخله.

وسرعان مـا فتح عينيه، ونطق مستعلما عـن الطقس، وعما إذا ما كان الجواهرجـي إدرومينوسـ قد وفى بوعـده، وأرسل تلك الجواهر لرؤيتهـا. فتوصل إلى أن الطقس جميـل، وأن رياحاً لطيفة تهب فوق جبال الألب، لكن الجواهر لم تصل بعد.

وحين أطبـق بترونيوس عينيـه ثانيّة، مدّ عبد آخـر رأسه من خلف الستـارة ليخـبره أن الشـاب ماركوسـ فينيكوسـ، القـادم مـن آسيا الصغرى، قد جاء لزيارته.

قاد بترونيوس ضيفه إلى البركة الفاترة، وألقى بنفسه فيها. فينكوس هـذا هو ابن عمـة بترونيوس التي تزوجت قنصـلا في تيبريوس. ولقد شـارك تحت قيادة كوربولو في الحـرب التي دارت في هذه الاونة ضد البارثـوك. وبانقضاء الحرب عـاد إلى المدينـة. و ماركورس هذا نقطة ضعـف بترونيوس، وفتاه المدلل، وقد تعلق به لأنه وجد فيه أن تشكيله الجسمـاني يؤهله لألعاب القوى. كان شابا وسيما يحتفظ حتى في هذه الازمنـة الفاسدة بقـدر من الجمال الجسماني يحبـذه بترونيوس كثيرا، ويفضله على ما عداه

ـ مرحبا يا بترونيوس!

حياه الفتى وهو يتقدم بخطواته المرنة نحو البركة، ثم تابع قائلاً:

- الا فلتبارك الالهة عزيمتنا، وبخاصة الالهة اسكولبيوس و سيبروس لأن مباركتهما معا تحقق لنا الامان، وتدفع عنا كل مكروه.

فرد بترونيوس فاتحا يديه من تحت دثاره :

- أهلا بك في رومـا. وأتمنى لك طيب المقام، والراحة بعد الحرب. ما الاخبار في أرمينيا؟ هل عرجت على بيثينيا في أثناء عبورك آسيا؟

كان بترونيوس حاكم بيثينيا ذات يوم. لا بل قد وصل به الأمر أبعد مـن ذلك، فقد اتصف حكمه لها آنـذاك بالمرونة، والعدل، فكان أمرا مستغربـا يتناقض مع صيته الذائـع بولعه بالنسـاء، و نشدانه الملذات. لكـم أحب استرجاع تلك الايام الغابرة. وذكرياته هناك إشارة إلى يده الطولى، و إلى ما كان بمقدوره أن يفعله لنفسه هناك لو شاء ذلك.

أجاب ماركوس :

- وصلت حتى هيراكلي، حيث أرسلني كوربولو في مهمة للمساندة العسكريّة.

- آه هيراكلـي ! عرفت هنالك فتاة كولخوزيّة لا تضاهيها كل النساء هنـا، حتى بوبا. لكن هذا من الماضي. من الافضل ان تحدثني ما أخبار البارشـين؟ لكم صرت أمقت كل ما هو ثولوجيسوس، و تيريداتس، و تغرانيس، وكل ذلك العا لم البربري الذي كما يعبر الفتى أرولانوس يمشي على أربع، ويتظاهر أمامنا أنـه إنسان. صاروا حديث الناس في روما، ولو بدافع تجنب الاحاديث في أمور أخرى تنطوي على خطورة.

- هذه الحرب تسير إلى الاسوأ. ولولا كوربولو لا نتهت بنا إلى هزيمة سهلة.

- كوربولو! اله الحرب الحقيقي. القائد الحربي العظيم. مثال الصرامة والشرف والحماقة والغضب في الان ذاته. ويكفي ان يخافه نيرون حتى أحبه.

- ولكن كوربولو ليس أحمقا.

- قد تكون محقا. لكن الأمر سيان. الحماقة كما يقول نيرون ليست أسوأ من الحكمة في شيء، ولا فرق بينهما إطلاقا.

واسترسل ماركوس يتحدث عن الحرب، حتى لاحظ ان بترونيوس قد أغمض عينيه، فغير مادة الحديث، متسائلا بشيء من الحرص يطمئن عن صحة ابن خاله الاكبر.

صحته !... لا. لم يشعر أنه في صحة جيدة. صحيح ان حالته لم تتدهور كحالة الفتى سيسينا الذي فقد أحاسيسه، فسألهم حين أقعدوه صباحا في الحمام : " هل أنا جالس "؟ لكن صحته غير جيدة. نصحه فينيكوس بان يلجأ إلى شفاعة اسكولابيوس، و سيبريس، ولكنه لا يؤمن باسكولابيوس، خاصة وان اسكولابيوس هذا لا يعرف ابن من يكون. هل هو إبن ارسينو، أم كورونيس. فإن كان غير موثوق الام فيكف سيكون موثوق الاب؟

واسترسل بترونيوس في الضحك وتابع كلامه :

- منذ سنتين أرسلت إلى مدينة أبيداوروس حيث مكان العلاج الشهير لأسكولابيوس، ثلاث دزينات من الافاعي الحيّة، وكوزا من

الذهـــب، أتدري لماذا؟ قلت لنفسي قد ينفــع، وإن لم ينفع فإنه لا يضر. إن كان البشر في هذا العا لم ما يزالون يضحون للالهة، فأظنهم يعتقدون بمثل ما أعتقد. جميعهم، باستثناء سائقي البغال الذين يتجمهرون حول بورتاكابينــا بانتظار ان يقدموا خدماتهــم للمسافرين. في العام المنصرم حدثــت معي حادثة حــين عانيت من بثور جلديّــة. دع اسكولابيوس جانبــا، لكن أجــرى الاسكولابيوسيون طقوس العــلاج على أنفسهم بــدلا من إن يجربوها علي. عرفت أنهم مخادعون. لكنني قلت لنفسي: وما ضير ذلك علي ما دام العا لم يقوم على الخداع. الحياة خائبة، ومثلها الروح. وليس على الانسان الا أن يتمتع بقدر من العقل يمكنه من التفريق بين الخيبات الخبيثة، والخيبات الحميدة، أنا استخدم في حمامي خشب الصنوبــر، والسرو، والعنبر للتسخــين، لأني أحب روائحها الطيبة أكثر مــن غيرها. لكن فيما يخص سيبريســ التي نذرت لها لترعاني وتشفع لي، مــا زلت حتى الان أشعر بــالام سهامها في رجلــي اليمنى. لكن، وبغض النظر عن ذلك، فهي الهة صالحة. آمل منك عاجلا ام آجلا، أن تتوجه بحماماتك البيضاء إلى مذبحها.

فأجاب فينيكوس :

ـ فعــلا، سهام البارثين لم تصــل، لكن سهام آمور تصل حتى حدود المدينة.

فصرخ بترونيوس :

ـ يــا ركــب الكاريســات البيضــاء! ستحدثني عن ذلــك في فرصة سانحة أخرى.

وتابع ماركوس فينيكوس :

ـ ما قصدتك الا لالتمس منك النصيحة.

وفي هذه اللحظة إنتقلا إلى الخدم الحلاقين الذين سارعوا إلى العنايّة بـ بترونيوس.

أمـا فينيكوس وبعدما دعاه بترونيوسـ إلى الحمام، فقد خلع ردائه، ونزل إلى المياه الساخنة.

علّق بترونيوس وهو يرنو إلى جسم الفتى الأشبه بتمثال :

ـ لـن أسالك إن كانـوا قد أعادوا اليك حبيبتك. لـو رآك ليسيبوس لكنت الآن تزيّن مدخل البالا تينوس بدلاً من تمثال هيركوليس.

ندّت عن الشاب ابتسامة رضا، ثم غطس في الحوض، وراح يعبث بالماء الساخن، فينداح فوق الموزاييك الموشى بصورة هيرا وهي تهدهد زيوس لينام. كان بترونيوس خلالها يشاهد ما يفعله الشاب، ويرنو اليه بعين فنيّة متمحصة.

وحـين انتهـى، واستسلم توًّا لعنايّـة الحلاقين، دخـل عليه القارئ يحمل صندوقا برونزيا بداخله لفائف من أوراق البردى.

ـ هل تريد أن تسمع؟ سأل بترونيوس

ـ إن كانت من مؤلفاتك، أجل. وإلا فالأفضل أن نتحدّث. الشعراء هذه الأيام يجتذبون الناس عند كل منعطف في الشوارع.

ـ حقـا! أنت لا ترتـاد مبنى، أو كنيسـة، أو حمّامـاً، أو مكتبة، أو حانوتـا " للكتب، الا وتلتقي شاعرا يلو ح، ويومئ كالقردة. حين عاد أغريـا إلى وطنه قادما من الشرق، ظن هـم ممسوسين. إننا نعيش أزمنة

كهـذه. القيصر يكتـب الشعر، فعلى الجميـع إذن أن يقلدوه، شرط الا تضاهـي أشعارهم شعره. لهذا السبب قلقت علـى لكانوس... أما أنا فأكتـب النثر، ولا أقدم ما أكتبه للآخريـن، ولا حتى لنفسي، ولو ترك الأمر للقارئ لقرأ توصيات فابريكوس فينتو المسكين.

- ولماذا المسكين؟

- لأنه قد نفي، ويلعب الان دور أوديسيوس، ولن يتسنى له الرجوع إلى عائلتـه الا بصـدور مراسيم جديدة. إن رحلتـه الاوديسيّة ستكون أسهل بكثـير من رحلة أوديسيوس القديمة، لأن زوجته ليست بنلوب، ومـا من داع لأقـول أن فعلتهم هذه حماقة كـبرى، ولكن لا أحد هنا ينظـر إلى الامور بطريقة مختلفة عما يراها أولئـك هناك فوق. الكتاب رديء، وممـل لدرجـة كبيرة، و لم يقـرأ جيدا " الا عندمـا أبعد المؤلف إلى منفـاه.و الان صار يـردّد في كل مـكان: " سكاندالا،سكاندالا " أمـن الجائز أن يكون فينتو نفسه قد ابتـدع هذه الفكرة أو تلك، لكني أنـا الخبير بأسيادنا وسيداتنا أؤكد لـك أن ما يحتويه الكتاب أوهى من الحقيقة. بات الجميـع الان يبحثون في الكتاب عن أنفسهم ومعارفهم الاخريـن، وهم يتزاحمـون ويتدافعون بتلهف. ففـي مكتبة أفيرنوس يقـوم مئة من الناسخين بنسخ الكتاب وراء مـن يمليه عليهم، والنجاح مضمون.

- الا يأتي فيه ذكر أي من أفكارك السابقة؟

- بلـى. لكن المؤلف ضيـع الفكرة، أو موه عليهـا، لأني أكثر سوءا مـن جهة، وصريحا ومنبسطا بالقدر الذي قدمني فيه من جهة أخرى. أترى كم صرنا لا ندرك الفرق بين ما يمتاز بالجدارة، وبين نقيضه. لكن أزعم مـن جهتي أن لا فـرق بينهما، وإن كان سينيـكا، و موسينيوس

و ثراسيا يدعون أنهم يرون ذلك الفرق الأمر عندي سيان. أما عن هيركوليس فأقول ما يجول في ذهني، مع احتفاظي بميزة أنني أدرك ما القبيح، وما الجميل، الأمر الذي لا يدركه شاعرنا صاحب اللحيّة الحمراء، وقائد العربة، والمغني، والراقص، والممثل.

أسفي على فابريسيوس. يا له من ساذج.

ـ كان هداما، يعبد التخريب. الجميع شكك به. لكن أحدا لم يعرف أمرا مؤكدا عنه. وصار شخصا لا يحتمل، يصرخ في السر، أينما حل. هل سمعت بسيرة روفينوس؟

ـ لا

ـ دعنا إذن نذهب إلى حوض الماء البارد، نبترد قليلا، وسأرويها لك.

عبرا إلى الحوض البارد. في وسطه نافورة ترش ماء وردياً يفوح بعبير البنفسج. جلسا فيه يتردان كل إلى جانب جدار موسد بالحرير. صمتا لحظة. كان فينيكوس خلالها يتأمل اله الحقول فونت البرونزي الذي يلامس بشفتيه الشبقتين فم حوريّة الغابات نيمفا المنثنيّة إلى الوراء على ذراعه. ثم قال:

ـ إنه محق. إنها أفضل شيء في الحياة تقريبا! لكنك تحب الحرب كذلك. أما أنا فأمقتها. على أيّة حال الامزجة تختلف من شخص لأخر. صاحب اللحيّة الحمراء يفضل الغناء، وغناءه الخاص بالمقام الاول. أما سكاوروس العجوز فيفضل الفاز الكورنثي الذي ينتصب قرب سريره. فإن انتابه الارق ليلا، و لم يستطيع النوم، يأخذ بتقبيله، حتى باتت حوافه متآكلة تماماً، من كثرة التقبيل. قل لي ا لم تحاول أن تكتب الشعر؟

ـ لا. لم أقدم أبدا على نظم أي سداسيّة.

ـ ولا تعزف على العود، ولا تغني؟

ـ لا؟

ـ ولا تقود عربة؟

ـ فيما مضى شاركت في السباقات دون أن أحقق فوزا.

ـ أنـا إذن مطمئن عليك. وفي مضمار سبـاق الخيل، إلى أي حزب تنتمي؟

ـ إلى الخضر

ـ لقـد ازداد اطمئنـاني عليـك. خاصـة لأنـك، وإن كنـت تتمتع بشخصيّة كبيرة، لست بـثراء بالاس أو سينيكا، وكما ترى، شيء جيد عندنا هذه الايـام، ان يكون المرء يكتب الشعر، أو يغني بصحبة قيثار، أو يلعب في السيرك. لكن من الافضل، والاقل خطرا، إن كان لا يكتب الشعر، ولا يعزف على القيثار، ولا يغني، ولا يلعب في السيرك ولكن أفضـل الامـور أن يقتصر المرء علـى الاعجاب بهـذه النشاطات حين يؤديها صاحب اللحيّة الحمـراء. أنت شاب وسيم، وهكذا فإن أقصى ما يهـددك من خطورة أن تقع بوبيا في غرامـك. لكنها على قدر أكبر من الخبرة بحيث لا يمكن أن تفعل ذلك. حسبها في الحب، ما قاسته من زوجيها الاولـين، وهي تصبو إلى شيء آخر في زوجها الثالث. أتدري أن الاحمـق أوتـو متي م بها حتى اليوم؟ وهـو الان يعكف على تسلق الصخـور، ويتأوه. ولقد تخل ى عـن عاداته السابقـة، وأهمل نفسه لدرجـة أنه لا يضي ع أكثر من ثـلاث ساعات في اليوم لتسريح شعره. من كان يظن أن مثل ذلك قد يحدث مع أوتو خاصة؟

ـ أنـا افهمه أجـاب فينيكوس لكني لو كنت مكانـه، لفعلت أمورا أخرى.

ـ وما هي؟

ـ كنت أشكل فيالق مخلصة لي. الايبريون جنود مستقيمون.

ـ فينيكوس! فينيكوس! أجرؤ علـى الزعم أنك لا تستطيع أن تقوم بذلك أتـدري ما السبب؟ لأن بوسع المـرء أن يفعلها شرط الا يتحدث عن ذلك، وإن كان علـى سبيل الفرضية. لو كنت مكانه لسخرت من بوبيا، وسخرت من صاحب اللحيّة الحمراء، ونظمت لنفسي فيالق من النساء، لا من الرجـال. وأقصى ما كنت أفكر فيه الكتابات الساخرة، دون أن أقرأها على أحد كما فعل المسكين روفينوس.

ـ قلت إنك ستروي لي قصته.

ـ سأرويها لك بعد قليل في ركن الدهن بالزيت.

لكـن ما شد انتبـاه فينيكوس في ركن التعطـير بالزيوت شيء آخر. الخادمات الفاتنـات في انتظار المستحمين. من بينهـن إثنتان مغربيتان أشبـه بتمثالـين بديعـين مـن خشـب الابنوس. همـا من قامتـا بدهن جسديهمـا بالعطور العربيّة الفاخـرة. وعند العنايّة بالشعـر أمام مرآة فولاذيّـة صقيلـة، أشرفت على التسريحـة فتاتان فريجي تـان إمتازت أيديهما بطراوة ومرونة افعوانيّة خبيرة. وأما في ركن الملابس، فكانت هنالك فتاتان يونانيتان من جزيرة كوش. الهتان حقيقيتان كانتا تترقبان اللحظة للعنايّة برداءي سيديهما.

صرخ ماركوس فينيكوس:

ـ يا جوبيتر الراعد ! أي اختيار هذا !

فأجاب بترونيوس :

ـ أفضــل الانتقاء على الكــثرة. هنا في روما، لا يزيــد مجموع أفراد عائلتــي مع خدمهم عن أربعمئة. الاجيال الجديدة منهم تحتاج إلى عدد أكبر لخدمتها الشخصيّة.

فعلق فينيكوس قائلاً :

ـ ليس لصاحب اللحيّة الحمراء حتى الان فتيات أجمل أجسادا.

فقال بترونيوس متودّداً :

ـ أنت قريبي. حتى أنا لست بذلك المتشدد في اختياراتي كما يفعل باوسوس، ولا مدققا في التفاصيل الصغيرة حتى درجة الوسواس، كما يفعل أولوش بلاونيوس.

لكــن فينيكوس بسماعه الاسم الاخير، تناسى للحظة أمر الفتيات، وتوجه بالسؤال قابضا على رأسه :

ـ كيــف خطر لك اولوش بلاوتيوس؟ أتــدري أن يدي قد كسرت أمــام المدينة، وأمضيت أكثر من عشرة أيــام في منزله؟ حين حصلت لي الحادثــة، كان يعبر للتــو بعربته من هناك، ورأى كم أعــاني، فأقلني إلى خادمه الطبيب مريون وعالجني، وهذا ما كنت أنوي أن أحدثك عنه.

ـ لمــاذا؟ لا تقــل لي أنك وقعت في حب بومبونيــا مصادفة؟ إن كان الأمــر كذلــك فأنا أشفق عليــك. لم تعد شابــا، ولا فاضلا على درجة كبيرة. وليس بمقدوري أن أتصور شيئاً أسوأ من هاتين الميزتين.

ليس في حب بومبونيا بتاتا.

- في حب من إذن؟

- لـو كنت أدري في حب من. لا أدري حتـى الان ما إسمها. ليفيا أم كالينـا. في البلد يسمونها ليفيا لأنهـا تنحدر من أصل ليغوي. لكن أسمهـا البربري كالينا. منـزل بلاوتيوس منزل غريـب، يعج بالناس، وبالهـدوء الشديد في أرجائه من الداخل، وفي حدائقه. أكثر من عشرة أيام و لم أعلم أن الوهيّة تقطن هناك، حتى لمحتها ذات فجر باكر و هي تغتسـل قرب نافورة في الحديقة. وأقسم أننـي قد لمحت هنالك ضبابا ولـدت منه أفروديت، حتى أن أشعـة شمس الفجر قد عبرت جسدها تمامـاً. ظننت للوهلة الاولى ان الشمس بدأت تشرق وتذوب في حمرة الفجـر. رأيتها مرتين بعد ذلك. ومن يومها لا أعرف طعم السكينة. لا التمس رغبة، ولا أحفل بكل ما تمنحه لي المدينة، لا النساء، ولا الذهب، ولا النحاس الكورنثي، ولا حتى اللبلاب والاحجار الكريمة، واللؤلؤ، والنبيـذ، والمـآدب. ليفيا وحسـب. أصدقك القول يـا بترونيوس. أنا أتلهف اليها طوال النهار والليل.

- إن كانت من العبيد، تزوجها !

- ليست من العبيد.

- من تكون إذن؟ هل هي معتوقة بلاوتيوس؟

- إن لم تكن عبدة في يوم، فكيف تكون معتوقة؟

- من هي إذن؟

ـ إن لم تكن ملكة، فهي تشبه الملكات.

–تجعلني فضوليا يا فينيكوس

ـ إن أردت أن تسمعنـي، سأشفي فضولـك. القصة ليست طويلة. لعلـك تعرف شخصيًا فانيوس ملك سويفوس الـذي نفي من وطنه، وأقـام طويـلاً في روما، وحقـق صيتا ذائعـا في السباقـات. والقيصر دروسوس أعاد له اولوش. كان فانيوس شخصا ماهرا، وفق في الحكم منـذ البدايّة وقـاد حروبا ناجحة، حتى بدأ فيمـا بعد،يجور حتى على أقاربه، وأفراد عائلته. هذا ما جعل فانغيو، و سيدو، وهما ابنا فيبلوس، وملـك هرمودوس، يعقدان العزم على خلعه ليعود إلى روما، ويجرب حظه بمغامرة أخرى.

ـ أذكر ذلك. ليس قديما في زمن كلاوديوس.

ـ تمامـاً. اندلعت الحـرب، وطلب فينوس مساعـدة اليازيغ، فقام ابن عمه بطلـب مساعدة الليغوس، وقد لبـى الطرفان الدعوة أملا في الغنائـم، فالتحقوا بحشود لا تحصى جعلـت القيصر كلاوديوس نفسه خائفـا على حـدوده. لم يرغب كلاوديوس في خوض معركة البربر، فكتـب إلى التيوس هيسـتر آخر الليغوسـ إلى ضفـاف الدانوب، ان يتابـع وقائع الحـرب ومجرياتها أولا بأول، ولا يسمـح بتأثيره على أمن بلادنـا. فاشترط هيستر على الليغويين أن يعـدوه بعدم تجاوز حدودنا، ففعلـوا أبعد من ذلك، حتى أنهم قد سلموهم ضمانات. وكان من بين أماناتهـم زوجة قائدهم، وابنته كذلـك. فالبربر كما تعلم، يصطحبون زوجاتهم، وأبناءهم في الحروب... وفتاتي ليفيا هي ابنة ذلك القائد.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ قالهـا أولوسـ بلاوتينوسـ نفســه. الليغوس لم يتخطـوا حدودنا فعلا. لكـن البربر كمـا يجيئون يتعـدون كهبـوب العاصفة. كذلك تخلـى الليغوسـ أيضاً عـن مواقفهم فمحقـوا أتباع فينوسـ، وسقط ملكهم جريحـا، ورجعوا هم بالغنائم. أمـا الامانات فبقيت في قبضة هيسـتر. وبعد مدة ماتت الام، وحار هيستر في أمر الفتاة، فأرسلها إلى بومبونيوسـ حاكم جرمانيا بأسرهـا آنذاك. وبعد انتهاء الحرب عاد إلى الوطـن. ودخل روما في موكب نصر كمـا تعلم، بإذن من كلاوديوس جائـت الفتاة معه وبما أن الرهينة لا تعتبر من العبيد، لم يدر بومبونيوس مـاذا يفعل بها، فأعطاهـا لأخته الصغرى غراسينـا زوجة بلاوتيوس. بلغـت سن البلوغ في ذلك المنـزل، حيث جميع قاطنيه، بدءا من الملك حتى الديكة في الخم، فاضلون. لكن للأسف، حتى هي فتاة فاضلة مثل غراسينـا ذاتها. ومن العجيب أنه حتى بوبيا مقارنة بها، ليست الا مثل شجرة تين خريفيّة إلى جانب تفاحة من تفاحات الهسبرديات الالهات اللواتي يحرسن شجرة التفاح الذهبيّة. وأنا أبوح لك بما يعتمل في قلبي من أشـواق، لا تنس ان الثوب الابقع غالباً ما يخفي جروحا اليمة ولا بـد أن أقول لك أيضاً أننـي، بعودتي من آسيا، قد امضيت ليلة في معبد العـراف موبسوس بن أبوللو، عسى أن أرى حلمـا ينبئني بما هو آتٍ. فجـاءني موبسوس نفســه في المنام ليقول لي بأن حبـي سيحدث تغييرا كبيراً في حياتي.

ـ سمعته حين قال بلنيوس إنه لا يؤمن بالالهة، لكن بالأحلام نعم. قد يكون محقا. أنا أفرح فقط، لكنني أحيانا أعتقد أن هنالك الوهة خالدة، مبدعـة تسير كل شيء، هـي فينوس جنتريكس الهـة الحب مبدع كل شيء. هي التي تقبض على الارواح، والاجساد، والمادة. إيروس انتشل العالم من الهيولى، مـن العماء، فهل فعل ما فعل على نحو حسن، هذه

مسألــة أخرى. ولكن بما أن ذلك قد حصل، علينا أن نعترف بسلطانه، دون أن نكون ملزمين بتمجيده.

- آه يــا بترونيوس ! أسهــل لنا أن نتفلسف، مــن أن نسدي نصيحة ناجعة.

- قل ماذا تريد بالضبط.

- ليفيــا. أريــد لذراعــي اللذيــن يعانقان هــواء الخــلاء أن يعانقاها، ويضماهــا إلى صدري. أريــد أن استنشق أنفاسها لتصــل إلى أعماقي. لــو كانت عبدة لأعطيت أولوس لقاءها، مئة فتاة دبقات الارجل دلالة على أنهن في السوق لأول مرة. أرغب في أن تبقي معي في منزل حتى يكسوني المشيب كقمة شوراكتا شتاء.

- ليســت من العبيد لكنها في النهايّة واحــدة من شعب بلاوتيوس. وبما أنها طفل مشرد، يمكن اعتبارها لقيطا وبالتالي باستطاعة بلاوتيوس أن يهبك إياها إن شاء ذلك.

- يبــدو أنك لا تعــرف بومبونيا غارسينــا أيضاً. كلاهمــا، على أيّة حال، متعلق بها، وكأنها ابنته تماماً.

- أعرف. بومبونيا شجرة سرو حقيقيّة. ولو لم تكن زوجة أولوس لأمكن اعتبارها ند ابة. منذ وفاة جوليا لم تخلع ثوبها الاسود المميز، كأنما خلال حياتها تعبر حقــولا من زنابق بيضاء. و إلى جانب ذلك فهي تلك المرأة من النساء الرومانيات الفاضلات اللواتي لم يتزوجن ســوى مــرة واحدة. إنها عنقاء خرافيّــة بين نسائنــا المطلقات للمرة الرابعة أو الخامسة. لكن... أسمعت أن طائر عنقاء قد ظهر في مصر العليا. وهي واقعة لا تحصل الا مرة واحدة كل خمسمئة عام.

ـ عزيزي بترونيوس دعنا نؤجل حديثنا عن العنقاء إلى وقت آخر.

ـ ولكــن ما الــذي يسعنــي أن أقوله لك يا ماركوســ؟ أنا أعرف أولوس بلاوتيوســ، وأعلم أنه، وإن كان يستنكر أسلوبي في الحياة، يكــن لي شيئاً مــن الود، بل يكن لي تقديرا أكــثر ممّاللآخرين، وذلك لعلمه أنني لست ثرثارا كأولئــك الغوغائيين من أتباع أفريد متيوس و تيفالنيوس، ومريدي صاحب اللحيّة الحمراء، و لم أبدِ ما يدل على أننــي رواقي، ومع ذلك فقــد وجهت انتقاداتي أربــع مرات لبعض تصرفــات نيرون التي تجاهلها سينيكا، و بورروس. فإن كنت ترى أن أتوسط لك عند أولوس، فأنا على أتم الاستعداد.

ـ أظن أنك تستطيع فعل الكثير. تأثيرك كبير عليه، فضلا عن أنك لا تضاهــى في إسدائــك للنصائح، آمل أن تتمعــن في الأمر، وتكلم بلاوتيوس.

ـ إنك تبالغ في تقديرك لتاثيري، وأفكاري. لكن إن كان هذا هو كل ما علي ان اقوم به، فسوف أكلمه لمجرد انتقالهم إلى المدينة.

ـ لقد انتقلوا منذ يومين.

ـ إذن سنذهــب إلى التريسيلينيــوم حيث ينتظرنــا طعام الافطار. نتزود بالقوة، ثم ننطلق إلى بلاوتيوس.

تنهد فينيكوس قائلاً:

ـ أحببتــك دائمــا. لكنني الان ســوف أنصب تمثالك بــين أكاليل الغار، وأقدم له القرابين.

والتفت ناحيّة مجموعة التماثيل التي تحتل أحد جدران الغرفة العطرة بالكامل، وأشار بإصبعه إلى أحدها الذي يصور بترونيوس في شكل هرمس، وفي يده الصولجان الذهبي، ثم استأنف قائلاً :

ـ يا لسطوع هليوس الهة الشمس ! إن كان باريس شبيها بك، فلن تدهشني هيلينا.

كان صدق فينيكوس ممتزجا بشيء من الممالاة، لان بترونيوس كان مسنا، ولا يتمتع بمثل ذلك الكمال الجسماني، ولو أنه أكثر وسامة من فينيكوس. لقد نال إعجاب النساء الرومانيات، ليس فقط لروحه الشفافة، وذوقه الرفيع اللذين منحاه لقب ملك الذوق، بل لجسمه أيضاً. بدا هذا الاعجاب واضحا على وجهي الفتاتين اليونانيتين. يونيكي، التي أغرقت به في سرها، وراحت ترمق عينيه بنظرات متوسلة توحي بافتتانها الشديد به.

لكنه، وكأنما لم يلاحظ ذلك، نظر إلى فينيكوس مبتسما، واستشهد، على سبيل الرد، بعبارة سينيكا :

ـ قلة حياء... الخ.

ثم لف كتف ضيفه، وقاده إلى غرفة الطعام.

عكفت الفتيات اليونانيتان، والمغربيتان على تنظيف ركن التزييت. في هذه اللحظة مد المستحمان رأسيهما وراء ستارة الحوض البارد وسمع عندها صوت " بس ت ت"، جعل إحدى اليونانيتين، مع الاثيوبيتين، يتسللن فجأة إلى هناك، ويختفين وراء الستارة. بدأ في الحمام اللهو والفسوق، دون أن يلقي الأمر مم انعه من المشرف العام الذي غالباً ما كان يشارك في مثل هذه التسليات.

خالج بترونيوس ظن فيما يجري. ولكنه بامتلاكه روحا متفهمة لا يحبذ التأثيم والقاء الذنوب على الاخرين، فقد تصرف كأنما لا يعلم شيئاً.

بقيت يونيكي وحدها في جناح التزييت. أصغت لوهلة إلى القهقهات، ووقع الاقدام المتجهة إلى المطعم، ثم رفعت الكرسي المشغولة بالعاج والكهرمان، التي جلس عليها بترونيوس منذ لحظات، ووضعتها أمام تمثال الرجل بعنايّة.

كان ركن التزييت يشعشع مضاء بأشعة الشمس، وبالالوان القزحيّة التي تعكسها المحتويات الرخاميّة.

وقفت يونيكي على الكرسي، وحين صارت على ارتفاع التمثال، مدت ذراعها حول عنقه، ثم ردت شعرها الاشقر إلى الوراء، والتصقت بجسدها الوردي إلى الرخام الابيض، ثم بكل ما امتلكت من عنف ضغطت بفمها على شفتي بترونيوس.

٢

بعـد أن طلب طعام الافطار، الذي جلس اليه الصديفان الحميمان، حـين أنهى عامة الناس طعام الظهيرة،اقـترح بترونيوس قيلولة قصيرة. كان رأيـه أن الوقت مازال باكـرا للزيارة. هنالك آخرون يبدأون زيارة معارفهـم عند شروق الشمس، وهي عـادة رومانيّة قديمة،لكنه يعتبرها عادة بربريّـة. ساعات العصر، في رأيه، أفضـل أوقات الزيارات، لكن قبـل أن تميل الشمس ناحيّة معبد جوبتير، وتنشر خيط أشعتها النحاسيّة على الفـوروم أهم ساحات روما، حيث كانت تجري الحياة السياسيّة. ما يزال الطقـس دافئا في الخريف، ويفضل الناس أن يلجأوا بعد تناول الطعـام إلى النوم على خرير نافورة المـاء في الأتريوم أهم أجنحة المنزل الرومـاني، وأن يأخذوا بعـد نزهتهم المحتومة قيلولـة تقيهم في أثنائها الستائرُ الارجوانيّة ضوء الشمس المائل إلى الاحمرار.

وافقه فينيكوس، وانطلقا في نزهة تحدثا خلالها عما يدور من أخبار في البلاتينوسـ والمدينة، دون أن يخلو حديثهما من شيء من التفلسف في الحياة. بعدما توجه بترونيوس إلى غرفة النوم، وغفا في الحال.

وبعد نصف ساعة خرج. تناول بيده زيت زهر رعي الحمام، شمه، ثم دهن يديه وصدغه، وعلـق قائلاً

- لا تتصور كم هو منعش، ومنشط. أنا الان جاهز.

كان الهـودج وحاملوه بالانتظار منذ وقـت طويل. جلسا داخله، وانطلقا إلى شارع بترونيوس حيث منزل أولوس.

كان يمكن لطريقهما أن تؤدي إلى الفوروم، ولكن بما أن بترونيوس أراد أن يعرج على الصائغ،فقد تدبر الأمر مع الحم الين، لكي يُقل هما عــبر الابولونيس باتجاه شارع سكالاراتوس الذي تكتظ ناصيته بخيام المعابد النقالة.

رفع المغاربة العمالقة الهودج، وانطلقوا يتقدمهم عبيد يشقون لهم الطريق. لــزم بترونيوس الصمــت لفترة قصيرة، رافعا يــده العطرة إلى أنفه، كما لو كان يفكر في أمر ما، ثم قال :

ـ يخطــر لي الان، إن لم تكــن الهتك من العبيــد، بوسعها أن تغادر منــزل بلاوتيوس، وتجيئــك للإقامة عندك، وتغمرهــا بحبك، وتغدق عليها بالثراء، مثلما فعلت أنــا مع معبودتي كريسوسميس التي لبقائها بيننا، قد سئمتها بالقدر الذي سئمتني به.

هز ماركوس رأسه فسأله بترونيوس :

ـ اليس كذلك؟ في أسوأ الاحوال تصل القضيّة إلى القيصر، ثم تقوم أنت بالاستيضاح عما إذا كان صاحب اللحيّة الحمراء يقف إلى جانبك أم لا

أنت لا تعرف ليفيا.

ـ إسمــح لي إذن ان أسالــك : هل تعرفها على نحو آخر، سوى أنك قد أبصرتها؟ هل تحدثت اليها؟ هل بحت لها بحبك؟

ـ رأيتهــا للمرة الاولى قرب نافورة المــاء، وبعد ذلك مرتين. لا تنسَ إنني في أثناء وجودي لدى أولوس، كنت أقيم في فيلا جانبيّة للضيوف. وبمــا أن ذراعي مخلوعة، لم أشاطرهم الطعام مطلقــا. أطلت، والتقيتها عصرا قبل ليلة رحيلي، و لم أتمكن من النطق أمامها. كان علي أن أصغي

إلى أولوس وهو يروي قصص انتصاراته في بريطانيا، وخضوع الممالك الايطاليّـة الصغيرة له، تلك الممالك التي مـازال ليسنيوس ستولو يبذل جهـدا كبيراً لصد ها. لا أظن أولوس يجيد الحديث عن شيء آخر. ولا يأخذنـك الظن أن باستطاعتنا تفادي ذلك حتـى إن كنا نرفض سماع أي شيء عن هشاشة عصرنا. إنهم يربون الطواويس ولا يأكلونها، لأن مبدأهـم أن أي طاووس يؤكل يقرب من سقـوط روما. ورأيتها للمرة الثانيّة، جانب بركـة الحديقة، وبيدها عود طري من القصب، وتسقي السوسنـات. أنظر إلى ركبتي. أقسم بترس هيركوليس أنهما لم ترتجفا حتى حين هجم علينا البارثيون كالغمام يسبقهم الصراخ نحو جيوشنا، لكنهمـا قرب البركة ارتجفتا وكادتـا لا تقويان على حملي. إضطربت كطفل روماني مازال يحتفظ بميداليته الذهبيّة حول عنقه. بقيت طويلاً أعجـز من أن تقوى شفتاي علـى النطق بكلمة واحدة لكن عيني كانتا تتوسلان الرحمة والرجاء.

رمقه بترونيوس بنظرة غيور، وقال متنهدا:

ـ مـا أسعدهـا من مخلوق. حتى لـو انحدر العـالم إلى أسوأ حالاته، سيبقى الشباب ساكنا فيها.

وسأله بعد مدة وجيزة :

ـ ولم تكلمها أبدا؟

ـ بلى تمالكت نفسي، وقلت لها : حين رجعت إلى الوطن قادما من آسيـا، خلعت يدي أمـام المدينة، وعانيت الكثير، لكننـي بعد أن صار لزامـا علي مغادرة هذا المنزل المضياف، أرى أن المعاناة والا لم أثمن هنا من الفرح والسعادة في مكان آخر، وأن المرض هنا أفضل من الصحة.

حين كنت أتكلم، كانت مطرقة في الأرض تصغي إلى ما أقول، ورسمت بعود القصب شيئاً فوق الرمل. ثم رفعت عينيها وأطرقت ثانيّة. ثم كأنما أرادت أن تسألني شيئاً، التفتت نحوي.. لكنها فرت من أمامي بسرعة كعذارى الغابات أمام الهة الحقول الحمقى.

ـ لا بد أنها تتمتع بعينين جميلتين.

ـ عينان بحريتان، جعلتاني أغرق في غوريهما كما في بحر. صدقني إذا ما قلت لك أن زرقتهما أعمق من الزرقة الارخبيليّة. وبعد قليل هرولت نحو بلاوتيوس الصغير، وسألته شيئاً، لكني لم أفهم ماذا أرادت.

ـ يا أثينا.! صرخ بترونيوس أزح عن عيني هذا الطفل المنديل الذي عقده إيروس، والا سيهشم رأسه على عامود معبد فينوس.

ثم التفتت إلى فينيكوس

ـ أوو. إنك برعم ربيعي فوق شجرة الحياة، والتفتح الاول لحقل الكرمة. علي ان الحقك بمدرسة الأطفال الذين لم يعلموا شيئاً عن الحياة بعد.

ـ ماذا تقصد؟

ـ ما الذي رسمته الفتاة فوق الرمل؟ هل خطت إسم آمور؟ هل رسمت قلبا يخترقه سهم؟ أم كان شيئاً يمكن ان يوحي اليك بما توشوشه الهة الشبق عن أسرار الحياة في آذان عذراوات الاشجار؟

فأجاب فينيكوس :

ـ قبل أن يأتي أولوس الصغير القيت نظرة على ما رسمته. أعلم ان الفتيات في بلاد اليونان و روما غالباً ما يكتبن فوق الرمال خواطرهن التي لا ترغب شفاههن ان تبوح بها... خم ن ماذا رسمت؟

ـ إن لم يكن ما قد خطر لي، فلن اعرف.

ـ سمكة.

ـ ماذا؟

ـ قلت لك :سمكة. أرادت أن تعبر بها لك عن ان دما باردا مازال حتى الان يجري في عروقها. لكنك وأنت الذي سميتني البرعم الربيعي على شجرة الحياة، أدرى مني في أمور كهذه.

ـ يا كاريس ! اسال بلينوس عن مثل ذلك. فهو يفهم بالاسماك جيدا. لو كان الشيخ أبيسيوس حيا لما قال شيئاً عن هذا، لأنه خلال حياته قد أكل من السمك أكثر ممّايسع خليج نابولس.

إنتهت المحادثة هنا بعد أن بلغا شوارع فيها من الازدحام والضجيج ما يفسد محادثة كهذه.

وبعد أن عبرا شارع أبولونيوس، إنعطفا نحو الفوروم حيث هنالك، في مثل أيام الصحو هذه، يلتقي الاهالي قبل غروب الشمس، ويتمشون بين صفوف العمدان، يتناقلون ما في جعبهم من أخبار خاصة، وغيرها من الاخبار المستجدة. وحيث يشاهدون هوادج الاشراف، ويتفرجون،أو يعرجون في نهايّة مطافهم على كشوك السباكة، والمكتبات، وحوانيت الصرافة، والمتاجر، وورش الادوات النحاسيّة، وشتى أنواع المحلات المنتشرة في ابنيّة الجهة العليا من

الفوروم. ينتشر ما يقرب من نصف مساحة الفوروم في كنف الاشجار المحيطة بالقلعة، وتظلله تماماً. على العكس من ذلك، فقد كانت عمدان المعابد في الجهة العليا ترهج بالضوء الذهبي تحت السماء الزرقاء الصافيّة. وفي العمق كانت صفوف العمدان تمد ظلالها المتطاولة فوق البسط الرخاميّة، حتى امتلأ المكان بالظلال المتقاطعة على نحو يجعل البصر يتوه بينها كما في غابة، ويجعل الابنيّة والعمدان تبدو مكتظة لا يتسع لها المكان إلى جانب بعضها البعض. تتبرج إحداها شاهقة فوق الاخرى، وتستطيل يمنة ويسرة، وتتعربش على التلال ممتدة حتى جدار القلعة أحيانا، وملاصقة لبعضها أحيانا أرى، مثل كثير من جذوع الاشجار الصغيرة والكبيرة، الثخينة والرفيعة، الذهبيّة والبيضاء التي تتفرع هنا تحت قناطر العمدان إلى أكاليل وعرائش من أزهار الاكانثوس. وتنفتل وتتقرن هناك، وتنتهي في أماكن اخرى على شكل مربعات على الطراز الدوري. وفوق هذه الغابة التمعت البروزات المستطيلة الملونة، وتماثيل الالهة الحجريّة، والعربات الذهبيّة المجنحة على أهبة الطيران في الفضاء الازرق فوق المدينة المكتظة بالمعابد. إزدحم وسط الفوروم، كما أطرافه، بحشود الزوار، منها من تنزه تحت أقواس كاتدرائيّة يوليوس قيصر، ومنها من اقتعد مدرجات كاستور و بولوكس، او تمشى حول كنيسة فيستا، ومثل أولئك من كان في الساحة الرخاميّة الواسعة، كالفراشات والاسماك من كل لون. في الاعلى، من فوق معبد جوبتير الجبار الارحم، تدفقت أمواج جديدة من البشر منحدرة فوق المدارج الضخمة. في القرب من منصة الخطابة طلعت أصوات الخطباء، وباعة الفاكهة والنبيذ، وشراب التين، وسمعت أصوات المشعوذين الذين يروّجون لأدويتهم العجائبيّة، والمنجمين والسحرة الذين يقتفون مكامن الكنوز الخبيئة، ومفسري الأحلام الذين يعرضون علومهم. وصدحت هنا وهناك أنغام السيتروم

الموسيقيّة المصريّـة، والنايات الإغريقيّة. وفي أنحاء اخرى كان المرضى والمتدينون، وأصحاب النفوس المعذبة يقصدون المعابد بقرابينهم.

وبين كل هذه الحشود المتنوعـة من البشر، كانت مجموعات الحمام تبـدو فوق الحجارة المرصوفـة بقعا قائمة أو رقطـاء متحركة وهي تنقر الحـب بنهم، وترفـرف خفاقة في الاعـالي، ثم تغط في أماكـن خاليّة أخـرى. وبين الفينـة والاخرى كانت حشود تتباعـد مفسحة الطريق أمـام هودج برز منه وجه سيدة نبيلة جمدت تقاسيمه وجع ده أو أبلاه رفـاه الحياة الرغيدة، وقد يكون وجه سيناتور أو فارس فيتطرق سكان المدينـة، بلكنات من مختلف اللغات، إلى ذكـر أسمائهم وشهرتهم وما خطـر على البال من تعليقـات معيبة أو مفاخـر. ولا يخلو الأمر، بين حـين وآخر، أن يخترق هذه الحشود البشريّة العشوائيّة فصيل من الجند أو خفـر الشوارع بخطواته ذات الوقع المنتظـم الرتيب. وكانت اللغة اليونانيّة تتع إلى بكثافة لا تقل عن اللغة اللاتينيّة.

كان قـد مضـى زمن طويـل، دون ان يؤم فينيكوس المدينة، فراح يراقب بفضـول خاص جموع الناس، وهذا المنتـدى الروماني فوروم رومانوم، الـذي بسط سيطرته على أمواج العـالم، لكن أمواج العالم، قـد طغت عليـه، واغرقته في بحرها، لدرجة جعلـت بترونيوس، وقد اكتشـف مـا يدور في بـال صاحبه، يقـول معلقاً : عش الرومان بلا رومـان. والحقيقـة أن العنصر المحلـي مفقود في وسط هـذه الجموع المتشعبة المشارب. كان هنالك الاثيوبيون، والعمالقة الشقر من أقصى الشمـال، والبريطانيـون، والغال، والالمـان، والصينيـون ذوو العيون المائلـة، والفراتـي ون، والهنـود، والسوريـون ذوو الطلعـة الوديعة، وسـكان الصحـارى العربيّة الهزيلون حتى بـرزت عظامهم، واليهود ذو الصدور المنبعجة، والمصريون ذو الابتسامة الدائمة على وجوههم،

والافارقـة، والإغريق الذين بحكمتهم وفنهـم، ومعرفتهم، وحيلتهم، يشاطرون الرومان السيطرة على المدينة.

كان هنا إغريق ينحدرون مـن الجزر، ومن آسيا الصغرى، و إغريق مصريـون، وإيطاليون. و لم تخلُ جموع العبيد ذوي الاذان المثقوبة من الأحـرار العاطلين عن العمل الذين وفر لهم القيصـر التسليّة، ومد هم بالغـذاء و اللباس. وكان هنالك أيضاً الوافدون الجـدد الأحرار الذين خدعتهم سهولـة الحياة والالهة فورتونا فقصدوا هذه المدينة العملاقة. وكان الباعـة، وكهنة يتبعـون الاله المصري سيرابيس يحملون سعف النخيـل، وكهنة يتبعـون إيزيس الذي خص مذبحـه بعدد من القرابين يفوق ما خص مذبح جوبيتر، وكهنة سيبل اله آسيا الصغرى، وبأيديهم مناجـل الـرز المذهبـة، وكهنة جوّالـون لعديـد من الآلهـة الاخرى، وراقصات شرقيات مبهرجات، وسحـرة الافاعي، والمجوس، وأخيرا كثـير من البشر ممن لا يعملون شيئـاً، ولكنهم يظهرون هنا كل أسبوع، بينهـم من يرتـادون مخازن الحبوب علـى ضفاف التيبر لشـراء القمح، وآخـرون يتشاجـرون قرب ملاعـب السيرك من أجـل الحصول على بطاقات اليانصيب، ويمضون لياليهـم على الضفة الاخرى لنهر التيبر، في العوامـات المائيّة المتمايلة، بينما يقضون نهاراتهم الرتيبة الحارة، في مطاعم الازقـة الرومانيّة، والحانات القـذرة، أو على جسر ميلفيوس، أو أمام مـآدب الأغنياء الذين يرمونهم بين الحين والاخر،.بما تبقى على موائد العبيد من فتات الطعام.

كان بتوونيوس ذائـع الصيـت، ومعروفا لدى هـذه الحشود، فلم تنقطـع عبارة "هذا هـو" طارقة سمع فينيكوس كانـوا يحبونه لكرمه، لكـن شعبيتـه قد ازدادت منـذ أن رفع صوته أمام القيصـر مدينا حكم الاعدام الذي الحق بحق واحد من العبيد. وغالباً ما عبر بترونيوس علنا

أن المسالــة لا تعنيه، ولا تمسه بضرر، ولكنــه كان يكلم القيصر كوسيط مستقل، قد مس حكم الاعدام مشاعره الاخلاقيّة، واصفًا إياه بالجريمة البربريّــة التي قد يرتكبهــا السكيتان، ولكنها لا تليــق بالرومان. ومن يومها يحبونه.

غير أنه لا يكترث لهذا الأمر كثيرًا، خاصة وأنه يعلم ان هذا الشعب يحب أيضاً كلا من بريتا نيكوس الذي سُمم، و أغريبينا التي أغتيلت، و أكتافيا التي قضي عليها خنقا في جزيرة بانداتاريا بعد ان أوهنت قواها بالبخــار الحار. وكل أولئك على يد القيصر. هــذا الشعب يحب أيضاً بلاوتوســ المنفي، و تراس الذي كان ينتظر حكم الاعدام في أيّة لحظة. محبة الشعب في نظره فال سيء، إضافة إلى أنه شعب ينقاد وراء الخرافة. ناهيك عن أنه ينظر إلى العامة من الناس نظرة لا تخلو من ازدراء لسببين اثنــين: أولهما، كأرستقراطي، وثانيهما كفنان. ففي نظره إن المرء التي تنبعــث منه الرائحة النتنة لما تحويه جيوبه مــن فاصولياء مطبوخة، وتعر قه نتيجة مكوثة الدائم في نواحي الشوارع، والحدائق، ولعب القمار، هو غير جدير بصفة إنسان.

حتــى أنه لم يرد على التصفيق، ولا على القبلات التي انهالت عليه مــن هنا وهناك في الهــواء، وكأن شيئاً لم يكــن، فاستمر بترونيوس في قص حوادثه لماركوســ مزدريا خلال ذلك تقلب هذه الغوغاء من ابناء الشوارع الذين صفقوا في اليوم التالي لنيرون حين الهب حماستهم في معبد جوبتير.

لكنــه أوقف الهــودج أمام مكتبــة أفيرنوس. خرج منهــا، وابتاع مخطوطا مزركشا، وناوله للشاب قائلاً له :

- هذه هديّة لك.

ـ شكـرا أجابـه فينكوس، ثم سـال بعد أن القى نظـرة على عنوان المخطوط:

ـ ساتيريكون؟ لا بد أنها شيء جديد لكاتبها.

ـ أنـا من كتبها. لكنـي لا أريد أن أخطو على أثـار أقدام روفينوس الـذي مازلت أدين لك بروايّة قصتـه. وهكذا لا أحد يعلم بهذا الأمر، فلا تحدث عنه أحدا.

وعلّق فينيكوس وهو يقلب المخطوط :

ـ قلـت إنـك لا تكتب الشعـر، لكني أرى أنه نثر موشـى بالأشعار بكثافة.

ـ عندمـا تقـرأه دقق على مأدبة تريمالثيو. أما مـا يخص الاشعار فأنا أقرفها منذ أن كتب نيرون شعر الحماسة والبطولات. لو أراد فيتليوس أن يصيبـه إسهال في أمعائه فإنه يسعـى إلى تناول مسحوق عظم الفيلة مخلوطا بالباليسكا. اما أنـا فأقرأ أشعار نيرون للغرض نفسه. فكان من نتيجـة ذلك ان صارت محط تبجيلـي الشديد مدفوعا بنقاوة المعدة، إن لم يكن بنقاوة الضمير.

حين أنهى كلامه أوقف الهودج أمام ورشة الصائغ أدومينيوس.

وبعد أن تدبر أمر الجواهر، انطلق إلى منزل أولوس مباشرة.

ـ سأروي لـك في الطريق قصة روفينيوس، كدليل على معنى عبادة المبدع.

ولكـن قبل أن يبدأ القصة، كانا قد أنعطفـا عبر فيكوس بتريركوس

وسرعان ما كانا أمام منزل أولوس. قام أحد الفتيان بفتح الباب المؤدي إلى الصالون حيث حياهما ببغاء قائلاً بصوت مرتفع سالفي. حين عبرا الصالون الثاني إلى الأتريوم، قال فينيكوس :

ـ ألم تلتفت إلى أن الواقف عند الباب غير مقيّد بالسلاسل.

فأجاب بترونيوس هامسا :

ـ منزل غريب هذا. لا بد أنك تعلم أنهم قد اتهموا بومبونيا بأنها من أنصار ذلك المعتقد الشرقي الذي يقوم على تقديس كريستوس.

أمّا التي وشت بها فهي كريستينيلا التي لا تطيق أن تمر ر لبومبونيا فكرتها القائلة بأن زوجا واحدا يكفي مدى الحياة...

ـ أنت محق. إنه منزل غريب. سأروي لك فيما بعد ما رأيته وما سمعته هنا.

في أثناء الحديث كانا قد بلغا الأتريوم الصالة المركزيّة، حيث قام العبد مشرف الصالة بإرسال معلن الاسماء للإعلام بقدوم الضيفين، في حين هرع بمجموعة من الأرقّاء لتقديم كراسي الجلوس. كان في تصور بترونيوس أن حزنا دائما يقيم في هذا المنزل، فامتنع عن القدوم اليه، و لم تطأه قدماه أبدا. والان راح ينظر حوله بشيء من الاندهاش مشوب بشيء من الخيبة، فقد كان جو الأتريوم أميل إلى البشاشة والاشراق منه إلى القتامة والحزن. عبرت أشعة الضوء خلل فتحة واسعة في الاعلى، فتناثرت الافا مؤلفة من الشرارات الضوئيّة عكستها مياه النافورة. توسطت النافورة بركة مربعة الشكل أحاطت بها الزنابق، ونبات الساتيلا، كانت وظيفتها في الاجواء الماطرة تجميع مياه المطر الهاطل عبر الفتحة العلويّة. لا بد أنهم قد أحبو الزنابق والالوان في

هـذا المنـزل. فهنالك الزنابق البيضـاء، والحمراء، إضافـة إلى السوسن الازرق، ومـا أضفت قطرات الماء من لون فضـي على بتلاته الناعمة، ومـا غطت الفطريـات المتعربشة الرطبـة، والاوراق الكثيفة من تماثيل ملائكـة صغـار، وعصافير نحاسيّـة، وذلك الايل البرونـزي في أحد الاركان مـادا رأسـه الموشى بصدأ مخضر نتيجة الرطوبـة، كأنما يريد أن ينهـل المـاء. كان للأتريوم أرضيّة مـن الموزاييك، وأجـزاء من جدرانه ملبسـة بصفائـح الرخـام الاحمر، وباقـي الاجزاء برسـوم الاشجار، والاسماك، والعصافير، وطائر الغرفين. كثافة من الاف الالوان تزحلق الابصـار. الابـواب المفضيّـة إلى الغـرف الجانبيّة مزخرفـة بالصدف والعـاج وعلى طول الجدران ما بين الابـواب توضعت تماثيل أولوس. الرخـاء والاستقـرار باديان في المـكان الأكثر نبلا وثقـة، والابعد عن التبذير والترف المجاني.

كان بيـت بترونيوس أكثر أرستقراطيّـة واعتبارا، لذا لم يجد هنا ما يخدش ذائقته. ولقد رغب لتـوه أن يعبر عن ذلك لفينيكوس، لولا أن أزاح العبـد الستارة الفاصلة بين الصالـون وغرفة العمل (التابلينوم)، فلمحا أولوس بلاوتيوس يقبل مسرعا نحوها.

كان قـد صـار في طور من العمر ينحدر نحـو المغيب. أشيب لكنه مليء بعنفوان الشباب. حيـوي الوجه، صغير الرأس، لكنه أشبه برأس نسر، الا أنه في الوقت نفسه قد عكس قليلا من الدهشة والقلق بسبب هذه الزيارة المفاجئة لصديقه نيرون وصاحبه، و واحد من ثقته.

لكن بترونيوس كان رجلا حاد الذكاء، ذائع الصيت، لا يعير اكتراثا لمثـل ذلك. فما أن أنهى التحيات الاوليّة المالوفة، حتى تخلّى عن حالة التوتـر المحتملة، وبادر إلى القول بأنه جاء كـي يعبر عن امتنانه على ما

لاقاه ابـن عمته من عنايّـة علاجيّة كريمة في هذا المنـزل، وأن الامتنان ولا شـيء غير الامتنان، هو دافعه الاوحد لهـذه الزيارة المستحقة التي تعرضها المعرفة القديمة بأولوس.

ولقد أكد أولوس من جهته أنه زائر عزيز ومرحب به في منزله، وأما ما يخص الامتنان، فالاجدر أن أولوس نفسه يدين بذلك لبترنيوس، رغم إن بترونيوس لم يخمن ما يدعو أولوس لهذا الامتنان.

وواقع الحال أن بترونيوس لم يخم ن شيئاً و لم يجده نفعا أنه شَخَصَ، وأدار حدقتيـه البنيتين وركز تفكيره ليتذكر أبسط الخَدمات التي خص بها أولوس أو حتى أي أحد غيره، فلم يخطر له شيء.

أجاب أولوس :

- كـم أحب وأقـدر فيسباسيانوس الذي أنقـذتَ حياته. عندما ساء خطه ذات مرة، والمت به نوبة نعاس جعلته يكبو في أثناء إنصاته لأشعار القيصر.

فقال بترونيوس :

- بـل من حسن حظه أنـه لم يستمع إلى تلك الاشعار. لكني لا أنكر أنهـا كبوة تفتح الباب مشرعا لدخول الحـظ السيء. لقد أصر صاحب اللحيّة الحمراء أن يرسل اليه كتيبة من مئة مقاتل لذبحه.

- ولكنك يا بترونيوس قد سخرت منه.

- تماماً لا بل على العكس من ذلك، فقد قلت له : إن كان أورفيوس قـد استطاع بالحانـه أن ينوّم الحيوانات الضاريّـة، يكفيكم فخرا أنكم

قد نجحتم في تنـويم فيسباسيانوس. من السهـل توبيخ صاحب اللحيّة الحمـراء شرط أن تمزج التوبيخ بكميّـة كافيّة من التملق والمداهنة. بوبيا التي تعشق أوغست الذي يخصنا نحن، تدرك ذلك جيداً.

أجاب أولوس :

ـ يؤسفنـي أننـا نعيشـ أزمنة كهذه. لقـد فقدت سنين مـن أسناني الاماميّـة. لهذا السبب أتحدث بشيء مـن الصفير. أحدهم في بريطانيا كسرها بحجر. ورغم ذلك فقد أمضيت أفضل أيام حياتي هناك.

فقاطعه فينيكوس قائلاً:

ـ لأنها كانت فترة الانتصارات.

لكـن بترونيوس، متفاديا أن يخوض القائـد الحربي العجوز حديثا عن حروبه الغابرة، عمد إلى تغيير الموضوع، فقال:

ـ في القـرب مـن برنسـت عثر الفلاحـون على جـرو ثعلب ميت برأسـين، وحين هبت العاصفة الاخيرة، دمـرت أحد أركان معبد لونا الهة القمر. وهذا يعتبر ظاهرة استثنائيّة، بالنظر إلى فترة أواخر الخريف. أحـد العرافين أخبره بذلـك، وأضاف إن كهنة المعبـد، قد نجموا، تبعا لذلـك أن المدينة، أو بناء ضخم على الاقـل سوف يلحق به الدمار ولا يمكن تجنب الكارثة الا بكثير من القرابين والاضاحي.

وشـدّد أولوس وهو يسمـع الحكايّة، أنه لا يجوز التقليل من أهميّة مثل هذه الظواهر، فالالهة قد تغضب لما هنالك من شرور هائلة، وتقوم بصـب جـام عصبيتها في كل مـكان. وفي مثل هـذه الظروف تكون القرابين هي الوسيلة المناسبة للتوسل اليها.

فأجاب بترونيوس :

ـ منزلـك ليس كبيراً رغم أن إنسانا رفيـع المكانة يقيم فيه. في حين أن منـزلي ضخم جدا بالنظـر إلى منزلة قاطنه، وإن كان صغيرا في واقع الحال. إن كان الأمر يعود إلى دمار مبنى يتميز بالضخامة، فهنالك مثلا دوموس ترانسيتوريا منزل نيرون أتراه يستحق أن نقدم القرابين لتفادي دماره.

لم يجب أولوس ولقد أزعج تحفظه هذا بترونيوس، فاضطر لتغيير الموضوع مجـدّداً، فأخذ يفخ م في منزل أولوس ممتدحا الذائقة الجماليّة الغالبة عليه.

فقال أولوس مفسرا الأمر :

ـ منزل قديم لم أسعَ منذ ان ورثته إلى أي تغيير عليه.

كان منـزلا مفتوحا على طوله منذ أن فتحـت الستارة الفاصلة بين الأتريـوم و التابلينـوم، فأمكن الاطلالة على الحديقـة التي بدت لوحة فاتحة ذات إطار قاتم. سمعت ضحكات أطفال قادمة من هناك.

قال بترونيوس :

ـ عفوا أيهـا القائد! دعنا نسمع عن كثب هذه الضحكات الصادقة النادرة هذه الايام.

والفقه بلاوتيوس، ونهض واقفا:

ـ قلبيا. صغيري أولوس يلعب الكرة مع ليفيا. أما ما يخص الضحك، يا بترونيوس، فأزعم أن حياتك كلها ضحك.

فرد بترونيوس :

ـ الحيـاة مضحكـة. فأنا إذن أضحك، لكن هـذه الضحكات شيء مختلف كليا.

وأضاف فينيكوس :

ـ على أيّة حال، بترونيوس لا يضحك خلال النهار، بل الليل بطوله.

وساروا يتحدثون، حتى بلغـوا الحديقة حيث تلعب ليفيا والصغير أولوسـ الكرة. كان هنالك مجموعة مـن العبيد توزعت لالتقاط الكرة وإعادتها مجـدّداً اليهما. اختلس بترونيوس نظرة سريعة إلى ليفيا. وفيما راح أولوسـ الصغير لمجرد رؤيتـه فينيكوس، يجري نحوه كي يحييه، أحنى الاخر رأسه للفتاة الفاتنة التي وقفت والكرة بيدها، لاهثة محمرّة خجلا أمامه.

لكـن بومبونيا غراسينا كانت في الحديقـة جالسة في ركنها المغطى باللبـلاب، والعريش البري، وشجيرات العسـل ذات الازهار المكتظة بالرحيـق، فانعطفوا عليها يحيونها. لم يكن بترونيوس يؤم هذا المنزل، لكنه كان يعرف بومبونيا، فقد كان يلتقيها عند أنتيستنال بنت روبلوس بلاوتوس، ثم عند عائلة سينيكا، وعند بوليو كذلك. لم يتمكن من كتم اندهاشـه النوعي الذي أثاره وجه المـرأة البهيج الحزين، وما يتبدى في هيئتهـا، وحركاتها، وكلماتها من نبـل. لقد سبق و شوشت هذه المرأة رأيه في النساء، وأثبتت له خطأه في التعميم.

والان حين عبر عن امتنانه بخصوص علاج فينيكوس صدرت منه بعض الكلمات الاسـرة التي لا تخطر له مثلا حين يتحدث إلى كالفيا، أو سكريبونيا، أو سولينا، أو إلى كبريات سيدات العا لم الاخريات. بعد

التحيّة راح يفصح عن شكواه من ندرة لقائه بومبونيا، سواء في السيرك أو الامغيتريوم، فيما كان رد المرأة وقد أراحت يدها فوق يد زوجها :

ـ لقد هزمنا، وصار كل منا يفضل الركون إلى الهدوء في المنزل.

كان بترونيوس راغبا في الرد، لولا أن استبقه أولوس مضيفا بصفير في صوته :

ـ صرنا نجد أنفسنا غريبين بين أولئك الناس الذي يخصون الهتهم الرومانيّة بأسماء إغريقيّة.

فعلق بترونيوس قائلاً:

ـ باتت الالهة، منذ فترة، الهة طنانة لا تملك الا إسمها. وبما أننا قد تعلمنا فن الخطابة، والبلاغة من الإغريق، فالاسهل حتى بالنسبة لي، أن أقول هيرا وليس يونو.

والتفت نحو بومبونيا، في إشارة منه إلى أنه يتعذر عليه ذكر الهة أخرى. ثم حاول أن يدحض ما قالته المرأة عن الشيخوخة والهرم :

ـ صحيح أن البشر سرعان ما يشيخون، لكن ذلك ينطبق على أولئك الذين يعيشون حياة مختلفة تماماً ولكن بغض النظر عن ذلك، هنالك وجوه يبدو أن ساتورنوس قد تناساها.

كان ما قاله بترونيوس ينطوي على قدر كبير من الصدق، لأن بومبونيا التي قررت العزوف إلى حياة الراحة، قد حافظت على صحة بشرتها. ونظرا لضالة حجم وجهها ورأسها فقد بدت إمرأة في عز شبابها على الرغم من لباسها القاتم، و رصانتها، وما يكتنفها من حزن.

كان أولوس الصغير قد وطـد صداقته بفينيكوس خلال إقامته هنا. تقـدم منـه الان، والح عليـه للعب معهـا. تبعته ليفيـا، وتوقفت تحت عريشة اللبلاب. ورهجت بقع ضوئيّة فوق وجهها، فبدت أكثر حسنا ممّارآهـا في المـرة الاولى حوريّة من حوريات الغابـات حقا. وبما أنه لم يـكل مها حتى هذه اللحظة، فقد نهض من مكانـه، وأحنى رأسه أمام الفتـاة. وبدلا من عبارات السلام المعتـادة ردد كلمات أوديسيوس في تحيّة ناوسيكا:

أتساءل يا سيدتي من تكونين؟

الهة؟ أم كائن أرضي فانٍ؟

إن كنت الهة من سكان السماء الواسعة

فأنت ابنة الاله زيوس.

وأنا أشبهك ب أراتميس إبداعا وهيئة.

وإن كنت كائنا فانيا يقطن الأرض

فأبوك سعيد أضعافا ثلاثة.

والسيدة أمك سعيدة

و إخوتك أيضاً أضعافا ثلاثة...

حتـى أن غزل الشاب الراقي قد لاقـى استحسانا من قبل بومبونيا، لكنـه كان سببـا في توهج وجه ليفيا بالإحمـرار، وهي تصغي مرتبكة إلى مـا يقـول، دون أن تجـرؤ علـى النظـر في وجهه. ولكـن ابتسامة ناعمـة بدأت ترسم شيئـاً فشيئاً على زاويتي فمهـا، وبدا على وجهها حياء أنثـوي مشوب برغبة منها في الرد وكان للأخيرة الغلبة. التقطت

أنفاسها، وأجابت على لسان ناوسيكا كما لو تستظهر درسا :

أيها الغريب الطيب

لست زائفا خسيسا

ولا فاقد العقل أحمق

ثم انتحت جانبا وجرت كطائر جافل.

حان الان دور انذهال بترونيوس. لم يساوره ظن بأنه سوف يسمع أشعارا لهرميروس من فم فتاة صغيرة. أخبره فينيكوس أنها من أصل بربري. التفت إلى بومبونيا بنظرة متسائلة. لكن المرأة لم يكن بوسعها أن تجيب، لأنها في هذه اللحظة، كانت تلتفت والبسمة على شفتيها لترى أي فخار ينعكس على وجه أولوس العجوز.

لكن أولوس لم يكن يحتمل أن يكتم سعادته. كان واضحا للجميع أنه يحب ليفيا وكأنها من صلبه، ويعتبرها قمة في التهذيب، بالرغم من النزعة الرومانيّة القديمة التي تدعو إلى محاربة اللغة الإغريقيّة، ومنع انتشارها. وقال ملتفتا نحو بترونيوس :

- في المنزل مربّ إغريقي يقوم بتعليم ولدنا بحضور الفتاة التي تستمع إلى الدروس كافة. لقد أحببناهما كثيرا.

القى بترونيوس نظرة نحو الحديقة عبر فروع العريش، فلمح اللاعبين الثلاثة. كان فينيكوس قد خلع ثوبه الروماني الخارجي مبقيا على سترته القصيرة، وراح يرمي بالكرة التي حاولت ليفيا المواجهة له أن تلتقطها بيديها. في بادئ الأمر، لم توقع الفتاة تأثيرا ملموسا في نفس بترونيوس، لانه رآها شديدة النحول. ولكنه حين أمعن النظر

فيها عن كثب، تخيل كيف يبدو أن تكون عند انبلاج الفجر، وأدرك، كفنـان، أنه ثمة شيئاً استثنائيا يكمن في قدها، وروحها. كل ما فيها قد أثار انتباهه، وثم نه عاليا : وجهها الوردي الشفاف. شفتاها النضيرتان كأنمـا تنطبقان على قبلـة. عيناها الزرقاوان كالبحـر. جبينها المرمري. ضفائرهـا الداكنة الكثيفة. حيدها الناعـم. كتفاها الرب انيان. قامتها المشوقة المتثنيّة. صباها النضير نضارة الازاهير المتبرعمة في شهر أيار. إستيقـظ فيه الفنان، وعابـد الجمال، وسرعان ما أوحـي اليه بأنه يمكن كتابـة الربيع أسفل تمثال هـذه الفتاة. وخطرت له فجـأة كريسوتميس فأطلـق ضحكة موحشـة، لأن حبيبته، بالرغم مـن النثار الذهبي فوق شعرهـا، وبالرغم من كحل رموشها الفاحـم، صارت تبدو مثل زهرة ذابلـة فقدت عبيرها، بعد أن كان محط حسـد روما بأسرها على الحبيبة كريسوتميس هـذه. وتذكر بوبيا أيضـاً، فلم يجد هذه المـرأة الشهيرة الذائعـة الصيـت، الا تمثالا شمعيا لا روح فيه أمـا هذه الفتاة فمخلوق يفـوح بالربيع، وتقيم فيها أيضاً بسيشة المشعة، فيشع جسدها الوردي نورا كنور المصابيح.

فكر في نفسه :

ـ فينيكوس محق. و كريسوتميس عجوز... عجوز... مثل تروِيا.

ثم التفت إلى بومبونيا، وقال مشيرا ناحيّة الحديقة.

ـ أدركت الان أن منزلكما بوجود هذين الطفلين، أحب اليكما من مآدب البلاتينوس، والسيرك.

فأجابت المرأة وقد أدارت وجهها نحو أولوس الصغير، و ليفيا :

ـ تماماً.

أمـا القائد العجوز فقد روى قصة ليفيا، وقصة الليغوس الشماليين، كما سمعها منذ سنوات على لسان أتليوهيستر.

وحـين أنهـى أولئك اللعـب، قاموا بنزهـة على الـدروب الرمليّة للحديقـة، فبدوا أشبـه بثلاثة تماثيل بيضـاء تنفصل عـن الخلفيّة القائمة لأشجار السرو، والاس. كانت ليفيا تمسك بأولوس الصغير، وتقوده.

بعـد النزهـة النوعيّة جلسـوا في وسـط الحديقة علـى مقعد قرب حديقـة الاسماك. وبعد لحظات قفز أولوس يعبث مع الاسماك في الماء الشفاف فيما استأنـف فينيكوس محادثته التي بدأها خلال النزهة. قال بصوت مرتعش عميق :

ـ هـذا ما حصل. ما إن خلعت ثياب الطفولة حتى التحقت بالفيلق الاسيوي. لم يتسن لي أن أتعرف على المدينة، والحياة، والحب. تعلمت بعض الاشعار الاناكرينيّـة، وشيئاً من الشعر الهوارسي، لكني لا أجيد القـاء الشعر مثـل بترونيوس، خاصة إذا ما أوقعنـي الذهول في ارتباك يمنعنـي من العثور على الكلمات. التحقـت بمدرسة موسونيوس الذي عـلـمني أن أساس السعـادة أن يريد الانسان ما تريـده الالهة : أي أن السعادة مرتبطة بإرادتنا. ولكنني أعتقد أن هنالك سعادة أعظم وأثمن، سعـادة أخرى غير مرتبطة بإرادتنـا، لا يمنحها سوى الحب. وهي التي ينشدهـا الالهـة أنفسهم. إذن يا ليفيـا أنا أيضـاً لم أذق طعم الحب إلى الان، وأنا كما الالهة أبحث عمن يمنحني هذه السعاده.

سكـت. ولفترة لم تسمع الا رقرقة المـاء بما يلقيه أولوس الصغير من حجـارة في البركة ليجفـل الاسماك. وبعد قليل تكلـم فينيكوس ثانيّة بصوت أكثر هدوءا وطراوة :

ـ هل تعرفين تيتوس بن فيسباسيانوس؟ يقال إنه ما إن بدأ سن البلوغ حتـى وقع في حب بيرنيس، وتيم فيها. وأنا كذلك، يا ليفيا أستطيع أن أحـب إلى درجة الهيام... الثراء، والشهـرة، والنفوذ، كل ذلك دخان لا قيمـة له. الـثري يجد من هو أكثر ثـراء منه، والشهـرة تطغى عليها شهرة الاخرين وتطفئ لمعانها. والسطوة والنفوذ يقهرهما سلطان أشد منهمـا. لكن هل بوسع القيصـر، أو حتى أي الـه كان، ان يكون أكثر سعـادة، أو أن يشعر بمتعـة تفوق متعته حين يقبل فم حبيبته؟ الحب إذن يجعلنا في مصاف الالهة.

آه يا ليفيا!

كانت الفتاة تصغي اليه بقلق مشوب بالدهشة، كأنما تصغي إلى ناي أو قيثـار إغريقي. شعرت ان فينيكوس يردد لحنا غريبا يخترق سمعها، وأن دوارا يسـرع نبضـات قلبها، وشيئاً من الخـوف، وسعادة غامضة تساورها رغم ذلك. وأحست أيضاً أن الشاب يتكلم بأمور كامنة فيها منذ مدة، لكنها لم تكتشفها أو تفصح عنها، و شعرت أن فينيكوس قد أيقـظ فيها ما كان نائما لديها، حتى جـاءت اللحظة، وانكشف الحلم الضبابي عن صورة أكثر وضوحا، وروعة، ولطافة.

في أثناء ذلك، كانت الشمس قد انزاحت من فوق التيبرس، فملأت أشعتهـا الحمراء الجو كله، وتوارت فوق غابة الصنوبر. وقد أفاقت من الحلم، رفعت ليفيا عينيها الزرقاوين نحو فينيكوس، فمال الشاب اليها بكل ما يرتعش في عينيه من ضراعة، ليراها في ضوء الغروب أجمل من البشر، ومن الهة الإغريق والرومان التي تزين تماثيلها واجهات المعابد.

أمسك فينيكوس بأصابعه ساعد الفتاة برفق، وسألها:

ـ ألم تكتشفي يا ليفيا لِمَ أقول لك كل ذلك؟

فأجابت الفتاة هامسة :

ـ لا.

لكنه لم يصدقها فجذب يدها نحوه بقوة. وكان يود لو يضعها عند موقع قلبه الذي بدأ يطرق كالمطرقة لشدة المشاعر التي تنتابه تجاه الفتاة، وتجلده. كان يتأهب للبوح بعبارات حارة، لولا أن أطل أولوس العجوز قادما في الممشى اللبلابي. واقترب منهما وقال:

ـ مالت الشمس للمغيب. إحترسا من برودة المساء ولا تمازحا ليبتنا الهة الموت.

فأجاب فينيكوس :

ـ لا. لم أرتدِ ردائي الخارجي حتى الان، ومع ذلك لم أشعر ببرودة الجو.

فأجاب المحارب العجوز :

ـ لا يبدو من قرص الشمس خلف الجبال سوى أقل من نصفه. الجو يشبه طقس سيسيليا اللطيف، حيث كل مساء يتجمهر الناس في ساحات الاسواق، للغناء معا مودعين فوبوس العائدة إلى مبيتها.

نسي أنه قد حذرهما من ليبتنا منذ قليل، فأخذ يحدثهما عن سيسيليا، وما يعود له فيها من أملاك، وكيف مارس هناك الزراعة التي عشقها كثيرا. وقال إنه فكر كثيرا أن يرجع إلى سيسيليا، ويمضي هنالك ما تبقى من حياته بسلام. حسب المرء ما ناله من قشرة جليديّة غطت رأسه في صقيع الشتاء. لم تتساقط أوراق الاشجار بعد، وما زالت

السماء صاحيّة تنشر رحمتها فوق المدينة. لكن متى اصفّرت الاشجار وسقـط الثلج فوق الجبال الالبانيّة، وأرسلت الآلهة عواصفها الشديدة في كامبانيا، من يدري حينـذاك إن كان السكان لن يهجروها راحلين إلى أعشاشهم في الارياف.

سأل فينيكوس مبديا قلقه المفاجئ :

- ولديك الرغبة في مغادرة روما، ورميها وراء ظهرك.

فأجاب أولوس :

- رغبتي قائمة منذ مدة طويلة. فالحب هنالك أكثر استقرارا وأمانا.

و راح من جديد يفخر بما يملك هنالك من أطيان، وقطعان، ومنزل في كنـف الاشجار، وخلايا نحـل تعجّ بها منحـدرات سفوحه المليئة بالزعـتر البري. لكن فينيكوس لم يكن مكترثـاَ بهذا الفيض من الملكيّة الرعويّـة، بل كان يفكر بأمـر وحيد يشغله : يمكن أن يفقد ليفيا، فكان يكثـف نظراته المتوسلة إلى بترونيوس آملا منه النجدة والعون.

خلال ذلـك، كان بترونيوس جالسا إلى جانـب بومبونيا، يستمتع بالشمس الغاربة، والحديقة، ومشهد الواقفين قرب بركة الاسماك التي كانـت ملابسهم البيضاء ترهـج ذهبيّة تحت أنوار المسـاء، أمام الخلفيّة الداكنـة لشجيرات الاس. بدأ وهج الغـروب يتخـذ في السماء لونه الارجواني، ثـم البنفسجي، ويتلألأ الأوبال بألوانه البديعة، إلى أن ساد في السماء لونها البنفسجـي في النهايّة. كانت خطوط السرو الداكنة، ما تـزال تبدو أكثر وضوحا، حتـى خيمت سكينة المسـاء على البشر، والاشجار، والحديقة.

لقد أذهل بترونيوس هذا الهدوء، والسكينة. وانعكس على وجوه

كل من بومبونيا، و الوس العجوز، والصبيين، و ليفيا، ما لم يلمحه من قبـل، على وجوه من يلتقيهـم أو يحيطون به كل ليلة، الذين يستمدون أضواءهـم وما يكتنفهـم من سكينة وبشاشة، من طبيعـة الحياة المعاشة هنا، وما لها عليهم بحكم الضرورة من تأثير.

وخطر له بشيء من الاستغراب : هل ثمة يا ترى جانب من الجمال والمتعـة لم يتذوقـه إلى الان، هو الذي نذر حياته كلهـا سعيا وراء المتعة والجمـال؟ لم يسعـه التكتم على ما لمـع في ذهنه، فالتفـت إلى بومونيا قائلاً :

ـ كنـت أوازن في نفسي، الفروق الكبيرة بين عالمكم، والعالم الذي يسيطر عليه نيرون.

رفعـت المـرأة وجهها الناعم نحـو وهج الغـروب، وأجابت بكل بساطة :

ـ ليس نيرون من يسيطر على العالم بل الله.

ساد سكون لحظي.

ثم سمعت خطوات القائد العجوز، و فينيكوس، و ليفيا، و أولوس الصغـير، تقترب نحوهما لكن بترونيوس، قبل وصولهم اليهما، توجه إلى بومبونيا زوجة الوس بلاوتيوس بالسؤال :

ـ أنت إذن تؤمنين بالالهة يا بومبونيا؟

ـ أنا أؤمن بالإله الواحد الحق الكلي القدرة.

٣

ـ تؤمن باله حق كلي القدرة.

كــرر بترونيوس وهو يجلس إلى جانــب فينيكوس في الهودج، ثم تابع يقول:

ـ إن كان إلهها كلّي القـدرة، هـو إذن سيد الحياة والمـوت، وإن كان حقـا، فالحاقه الموت بنا حـق كذلك. ولكن ماالسبب الذي يدعو بومبونيا تقيم الحداد على يوليا؟

إنها بحدادها على يوليـا إنما تدين الهها. أجدني مرغما على تكرار هـذا الاستنتاج أمام قردنـا صاحب اللحيّة الحمـراء. أزعم أنني لا أقل معرفـة في الديالكتيـك عن سقراط. مـا يخص النساء، أنـا أوافق على أن كل واحـدة منهن تملك ثلاثـة أزواج أو أربعة. لكنهـن يفتقرن إلى أيّـة روح عاقلـة. أي لوغوس تتمتع به بومبونيـا، سينيكا أو كورنوس؟ ويمكننـي أن أستشهـد بأخريات كثـيرات كذلك مثـل كسينوفانس، بارمانيوسـ، زينو، بلاتو اللواتـي تسأم أرواحهن أرجـاء العالم الاخر كالحساسـين في الاقفاص. كنت أريد أن أكلـم أولوس بأمر آخر تماماً. لكن لوكلمتهما مباشرة عـن سبب زيارتنا لهما، لجن جنونهما حسب ظني. لم أملك الشجاعة، يا فينيكوس. أتصدق أنني لم أجرؤ على هذه المفاتحـة؟ الطاووس طائر رائع، لكنه يصيـح على نحو مرعب. خفت مـن الصياح. أقدر خيـارك عاليا. فجـر" وردي الاصابع." أتدري بما

ذكرتني أيضاً؟ الربيع. لكن ليس ربيعنا في إيطاليا، حيث تغطي الازهار والبراعم أشجار التفاح، وتبقى أشجار الزيتون رماديّة،مثلما كانت قبل إزهارها. لكن ذلك الربيع الذي صادفته في هلفتيا. الربيع النضير، الطري، الكلي، الاخضرار. أنت تستأهل حتى سيلينا الهة القمر بذاتها، يا صديقي فينيكوس، لكن ليكن في علمك أنك تحب ديانا، وأن بوسع أولوس و بومبونيا أن يمز قاك إربا، كما قامت الكلاب بتمزيق اكتاون.

ظل فينيكوس يصغي مطرق الرأس حتى دفعه الشوق ليقول بصوت كسير:

ـ كنت مشتاقا اليها طوال الوقت، لكن اشتياقي صار الان على أشده. حين أمسكت يدها سرت النار عبر جسدي كله... ينبغي أن أفوز بها. لو كنت زيوس لعانقتها في صورة غيمة، كما عانق زيوس إيو، أو لهطلت عليها كالمطر،كما فعل زيوس مع دانا. بي رغبة أن أقبل فمها حتى أوجعها، وتتأوه الما وأن تصرخ بين ذراعي. أتمنى لو أقتل أولوس، و بومبونيا، ثم أحملها على ذراعي، وأمضي بها إلى المنزل. لن أنام هذه الليلة. سوف أجلد اليوم كل عبيدي لأسمع آهات توجعهم.

فقال بترونيوس :

ـ هدّئ من روعك! هدّئ من روعك !

ـ لا يهم. ينبغي أن أحظى بها. لجأت اليك بالمشورة، لكنك لا تستطيع أن تساندني. سوف أساند نفسي. أولوس يعتبر ليفيا ابنته فلماذا أنظر اليها كواحدة من الرقيق؟ إن اضطر الأمر سأتزوجها.

ـ هدّئ من روعك، أيّة عاقبة هذه ! نحن لا نوثق البرابرة ونجرهم وراء عرباتنا، لكي نتخذ من بناتهم زوجات لنا. حذار أن تتطرف في

سلـوكك. وابحث عن الوسائل البسيطة التي تلقـى قبولا. إمنحني ما يكفـي لي ولك من الوقت للتفكير. أنا كذلك حظيت ب كريسوتميس بنـت جوبيتر، لكنني لم أتخذها زوجة لي، كما لم يتخذ نيرون من أكتي زوجـة له، وإن كانـت ابنة الملك أتالوسـ. إهدأ... وفكـر أولا ما إذا كانـت هـذه العائلة يمكن أن تتخلـى عن الفتاة. واعلم تمـام العلم أنك لسـت وحدك الذي يحترق، إنما إيروس قد أشعل نار الحرقة في نفسها أيضـاً... أنا رأيتها... وعليك أن تثق بي... كن صبورا. لكل طريقته، وأنـا اليوم أوليت الأمـر أكثر ممّايستوجب من التفكـير. وقد أرهقت. لكنـي أعـدك بأنني سأفكر بحبك يوم غد من جديـد. بترونيوس ليس بترونيوس إن لم يجد طريقة مناسبة.

ورجعا إلى صمتهما.

بعدقليل قال فينيكوس بنبرة أكثر هدوءا:

ـ شكرا. وأرجو أن يكون فورتونا كريما معك.

ـ تجمل بالصبر.

ـ أين تأخذنا الان؟

ـ إلى كريسوتميس

ـ ماأسعدك، وحبيبتك هي لك.

ـ أنـا. أتـدري ما الذي يسلينـي أيضاً في كريسوتميسـ؟ خيانتها لي مـع معتوقي ثاوكليس المغني. تظن أننـي لا أعرف بالأمر. لقد أحببتها ذات يـوم، لكن ما يسليني الان افتراءاتها وحماقاتها. رافقني لزيارتها.

إن حاولـت مغازلتك، وراحـت تكتب على الطاولـة أحرفا بإصبعها المغمسة بالنبيذ، فلا يخطر لك أنني أغار.

وانطلقا إلى كريسوتميس.

لكن بترونيوس، ويده فوق كتف فينيكوس في الباحة، قال :

- أبشرْ ! أظنني أكتشف الطريقة.

- جازتك الالهة!

- أجل إنها طريقة مقبولة. أتدري ما هي يا عزيزي ماركوس؟

- أسمعك. يا أثيناي !

- بعد أيام سوف تستمتع ليفيا الرب انيّة في بيتك بحبات ديميتر الهه الزراعة في حفل الزفاف.

فصاح فينيكوس بحماسة:

- أنت أعظم من قيصر.

٤

ووفى بترونيوس بوعده.

في اليوم التالي لزيــارة كريسوتميس، نام طوال النهار، ثم في المساء قصــد البالاتينوس حيث كان لــه حديث مغلق مع نيرون. وسبب ذلك عائــد إلى ظهور أكثر مــن عشرة حراس قيصريــين، وقائدهم أمام منزل أولوس بلاوتيوس لليوم الثالث على التوالي.

كانــت أوقاتــا مضطربة عصيبــة. دوري ة متكررة مــن هذا النو ع تحمل معها أنباء الموت. وهكذا، إذن، عندما دق قائد المئة بالمطرقة باب منزل أولوس، وأبلغ ناظر الأتريوم أن هناك جندا في الباحة، دب الذعر الشديد، وملأ سائر أنحاء المنزل.

فالتمــت العائلة على الفور، وسرعان ما تحلقت حول العجوز، وقد أدركت أنه المستهدف الاول في هــذه الحملة التهديديّة.لفت بومبونيا عنــق زوجها، والتصقت به بكل ما لديها من قــوة، وشفتاها المزرقتان ترتجفــان ارتجافات متلاحقة سريعــة، وتتهدجان بــكلام خافت. فيما راحــت ليفيا الشاحبة الوجه، تكيل يــد بلاوتيوس بالقبلات. وتشبث أولوســ الصغــير بثــوب والــده.وفي الممرات،وغــرف الخادمات في الأعلــى، وفي جناح إقامــة الخدم، وسائــر أنحاء المنــزل، كان الجميع رقيقــا ورقيقات يرددون " ويلي، ويلي، ياللسوء الحظ ". هيو، هيو، مي ميسريوم. وانفجرت النسوة بالبكاء، وكان من بينهن من دفنت وجهها بيديها، وخرجت أخريات يغطين رؤوسهن بالمناديل.

وحده القائد الحربي العجوز من حافظ على رباطة جأشه، وبقي هادئا.

فهو الذي اعتاد عبر سنوات طويلة، أن يكون في مواجهة الموت. كل ما طرأ عليه أن رأسه الصقري الصغير قد قسا وتصلب كأنما قد نحت من الصخر. وبعد وقت قصير أخمد ما بدر من صراخ، وقام بتفريق الخدم، ثم قال :

ـ دعيني يا بومبونيا. إن كان هذا يعني نهايّة حياتي فسيكون لدينا الوقت الكافي للوداع.

وأبعدها عنه برفق، بينما قالت المرأة :

ـ أدعُ الله يا أولوس أن يجعل مصيرنا مشتركا.

ثم جثت على ركبتيها، وأخذت تصلي بمطلق إيمان يولده الخوف على شخص عزيز.

عبر أولوس إلى الأتريوم حيث قائد الدوريّة في انتظاره. كان غايوس هاستا العجوز الادنى رتبة من أولوس ورفيقه في الحروب البريطانيّة.

حياه قائلاً:

ـ تحيّاتي لك، أيها القائد ! أحمل لك من القيصر أمرا وتحيّة. جئتك باسمه، واليك هذه اللوائح الممهورة بالختم إثباتا لذلك.

فأجابه أولوس :

ـ أشكر القيصر على تحيّته لي. وأنا مستعد لتنفيذ أمره. شكرا لك يا هاستا.

قل لي ما مضمونه؟

بدأ هاستا بالكلام :

ـ لقد بلغ القيصر أن ابنة ملك اليغوس تقيم في منزلك. كان الملك قد أودعها لدى الرومانيين قبل أن يفارق الحياة، ضمانة لهم بعدم التعدي على الحدود الرومانيّة. و نيرون الرباني، أيها القائد، يخصك بالشكر على استضافتك الكريمة للفتاة في منزلك، طوال السنوات الفائتة ، وليس لديه الرغبة لتحميلك المزيد من أعبائها. وباعتبار الفتاة رهينة، فهي تحت رعايّة القيصر، ومجلس الشيوخ، وهو يأمرك بتسليمها لي.

كان أكثر ما يميز أولوس أنه كان عسكريا ورجلا مدربا عاتيا. فلم يكن إزاء أي أمر من الاوامر لينطق بما من شأنه فضح ألامه، أو ليهدر الكلام في شكوى لا فائدة منها. لكن تقطيبة قدار تسمت على جبينه في المقابل، نمّت عن الغضب والالم. وهي تقطيبة طالما القت الذعر في نفوس الخيّالة البريطانيين. ولقد تبدى هذا الذعر جليا الان فوق وجه هاستا. ورغم ذلك فقد شعر أولوس بعجزه الشديد إزاء الأمر القيصري. أمعن النظر باللوائح والختم، ثم رفع عينيه نحو القائد العجوز وقال بهدوء :

ـ انتظرني في الأتريوم يا هاستا، ريثما تستلم الرهينة.

ثم عبر إلى الجهة الاخرى من المنزل، ودخل إلى غرفة حيث كانت بومبونيا، و ليفيا، و أولوس الصغير، ينتظرونه بقلق وفراغ صبر.

ـ بادرهم بالقول :

ـ لا الموت، ولا النفي إلى الجزر النائيّة في وارد أن يهدد أحدا.

القيصر أرسل الينا بنبأ سيئ يخصك يا ليفيا.

فصرخت بومبونيا ذاهلة :

- ليفيا؟

فأجاب أولوس :

- أجل

ثم التفت إلى الفتاة وقال :

- ليفيا! لقد رعيناك وأنت طفلة. وأحببناك أنا و بومبونيا، كما لو كنت ابنتنا،لكنك تعلمين أنك لست ابنتنا نحن. أنت رهينة قدمها بلدكم لروما، وأنت من رعايا القيصر، وهو يستردّك الآن منا.

كان القائد يتكلم بغايّة الهدوء، لكن بصوت غريب غير مالوف. وكانت ليفيا تنصت اليه مطبقة عينيها نصف إطباقة، كأنما لاتفهم ما يقول. وشحب وجه بومبونيا. وفي نهايّة الممشى ظهرت النسوة مذعورات من جديد.

وجهر أولوس بقوله :

- علينا تنفيذ إرادة القيصر.

وصرخت بومبونيا ضامة الفتاة كأنما تريد حمايتها.

- أولوس ! الافضل لها أن تموت.

لكن ليفيا وقد التحمت بصدر بومبونيا، أخذت تردد :

" ياأمـــي، ياأمي "، مـرات ومرات لعجزها عن النطـق بأيّة عبارة أخرى.

وشى وجه أولوس بقسمات غاضبة أليمة، ثم قال متجهما :

ـ لو كنت وحيدا أحيا بدونك لما تخليت عن الفتاة وأنا حي ، ولكني لا أملك الحـق في أن أضحي بك وبطفلنا الذي تنتظره أزمنة قد تكون أكـثر سعادة. سأذهب اليـوم إلى القيصر، أتوسل اليه أن يلغي أمره هذا. فهل سيرضى؟ لا أدري حتى ذلك الوقت. أتمنى لك كل العافيّة يا ليفيا. ولاتنسي أنني و بومبونيا قد باركنا ذلك اليوم الذي وطئت فيه منزلنا.

ثـم وضع يده علـى رأس الفتاة. و لم يجده نفعـا أنه حاول بكل ما لديه من طاقة أن يحافظ على اتزانه فلم يقو على أن يتمالك نفسه، حين التفتـت اليه الفتاة بعينـين مغرورقتين بالدموع، ونطـق بنبرة الم أبوي عميق :

ـ السماء معك، يابهجة قلوبنا، وضوء عيوننا.

وخرج مسرعا إلى الأتريوم

في أثنـاء ذلك قـادت بومبونيا الفتـاة إلى الكوبيكولوم، وحاولت تهدئتها، ومواساتها، والشد مـن أزرها بعبارات مستخدمة على نحو خاص هنا، حيث مازال معبد المنـزل قائما في الجوار، ومازال أولوس بلاوتيوس المخلّص لعقيدة الاجـداد، يقدم فيه قرابينـه للالهة حاميّة المنزل. حان وقـت الاختبار، وبلغ الأمر محـكا مفصليا فيما مضى قام فرجينيوس بطعـن ابنته في قلبهـا كي يحررها مـن أبيوس ، وضحت لوكرتيـا بحياتها غسـلا لعارها. منزل القيصر مغـارة للعار، والشرور، والاثـم ، " لكنـنـا ندرك يا ليفيا، أنه ليس من حقنـا أن نرفع أيادينا ضد أنفسنا ".هذا هو واقع الحال".

والأكثر جدارة هو من يخرج من بؤرة الفساد بكامل نقائه. الأرض تشبه بؤرة فساد، والحياة عليها لحسن الحظ، مجرد غمضة عين، ولا يمكن الانبعاث إلا من القبر الذي لا سلطان عليه لنيرون، بل للقدرة الرؤوم التي تمنح السعادة والسرور بدلا من الألم والدموع.

ثم أخذت تتحدث عن نفسها، أجل إنها هادئة ومطمئنة، لكن فؤادها لا يخلو من الجراح الموجعة. كان في عينيها غشاوة، و لم يصب فيهما نبع النور بعد،حتى ابنها لا يجوز أن تقوم بتنشئته بقول الحقيقة له. لكن لابد أن تأتي اللحظة التي سينفصل فيها عنهما، وسيكون وقع الانفصال أشد مرارة ممّايعانونه الان، فليس بمقدورها أن تتصور كيف سيكون ابنها سعيدا بدونهما. لكم أمضت لياليها باكيّة، ولكم أمضت فترات منها تصلي. لكن أوجاعها هذه هبة منها في سبيل الله. إنها تنتظر وتؤمن، والان، وقد نالتها صدمة جديدة، وفعل الأمر القيصري فعله مع الفتاة الغاليّة التي سماها أولوس نور العينين، مازالت على إيمانها لأنها تعتقد بوجود قدرة أعظم من سلطان نيرون ورأفة أشد من شروره.

وضمت رأس الفتاة الصغيرة بحرقة إلى صدرها، وظلت وقتا طويلاً على هذه الحال، حتى قالت أخيرا:

- أنا آسفة يا أمي. آسفة يا أبي، ويا أخي الصغير. لكنني أعلم أن الاعتراض والمجابهة لا ينفعان في شيئ، بل يؤديان إلى فقدانكما.

لكنني أعد أنني لن أنسى، وأنا في منزل القيصر، ما قلته لي. ولفت ذراعها حول عنق بومبونيا، ثم اتجها إلى الغرفة حيث قامت بتوديع أولوس الصغير، والمعلم الإغريقي العجوز، والخادمة التي رعتها. ثم كل الأرقّاء في المنزل. أحد هؤلاء الأرقّاء ليغوي من قوم الفتاة، يطلق

عليـه في دياره إسم أورسوس، وهو من الذين قدمو في ذلك الوقت مع أم ليفيـا، ومجموعة الخـدم إلى معسكر الرومان. دفـع الان بنفسه أمام رجلي ليفيا، ومال نحو ركبتي بومبونيا يتوسل قائلاً:

ـ يا صاحبة السلطان ! دعوني أرافق سيدتي لأقوم بخدمتها، وأكون حارسها في منزل القيصر.

فأجابت بومبونيا :

ـ لسـت عبدنا، بل عبد ليفيا. فهـل سيسمح لك بالوصول إلى باب القيصر؟ وكيف ستكون حارسا لها؟

ـ لا أدري يا صاحبة السلطان. كل ما أعرفه أنني...

وصـل أولوس للتو، وحين علم بما يجري، لم يقف عند رفض رغبة أورسوس، بل قـال أن ليس من حقهمـا أن يحتفظا به هنـا. أما ليفيا الرهينة فإنهما يرسلانها بناء على أوامر القيصر. وهم ملزمون أن يرسلوا معها سائر أفراد طاقمها الذي ينضوي تحت حكم القيصر.

وهمس في أذن بومبونيا قائلاً لهـا أن ترسل مع ليفيا ما تراه مناسبا من الرقيقات لأن قائد الدوريّة لن يمانع.

كان في ذلـك مايواسي ليفيا، وماهومبعث سرور لبومبونيا، خاصة وأنهـا ستزودها بطاقم خدمي هـي التي تختاره لهـا. فأرسلت إضافة إلى أورسوس مربيتهـا الخاصة العجـوز. وخصتها للحمـام بإمرأتين جرمانيتـين، ولتسريح شعرهـا بفتاتين قبرصيتين ماهرتـين. لقد اقتصر اختيارهـا على أتباع التعاليم الجديدة. وبمـا أن أورسوس كان أيضاً من بـين أولئك الاتباع، فقد تسنى لبومبونيـا أن تعتمد على طاقم مشهود

بوفائه. والأمر الذي أسعدها أن بذور الحق سوق تنثر في منزل القيصر.

وكتبت أيضاً بعض الكلمات تضع فيها ليفيا تحت عنايّة أكتي معتوقة نيرون. لم تصادفها بومبونيا مرة في لقاءات أتباع التعاليم الجديدة، لكنها سمعت من أولئك أن أكتي لم ترفض لهم شيئاً، وأنها قارئة متحمسة لرسائل بولس الترسوسي.

وتعلم بومبونيا عنها أنها حرة نيرون الشابة تعاني حزنا شديدا وإنها فتاة تختلف كليا عن سائر أفراد منزل نيرون وأنها الروح الطيبة للقيصر.

وعد هاستا أن يقدم الرسالة شخصيًّا لأكتي، واعتبر أن الطاقم المرافق حالة طبيعيّة، فكيف لأميرة أن تكون دون حاشيّة.

حتى أنه قد استغرب قلة عدد المرافقين. لم يختلق هاستا معوقات إذن. كل ما هنالك انه استعجل الانطلاق لكي لا يتهم بأنه لا ينفذ الاوامر بتلك الحماسة.

حانت لحظة الفراق، اغرورقت عينا بومبونيا، وعينا ليفيا بالدمع.

وضع أولوس يده مرة أخرى على رأس الفتاة،قبل أن يصطحبها الجنود إلى منزل القيصر، وسط صراخ أولوس الصغير، وتهديداته قائد الدوريّة بقبضته الصغيرة.

لكن القائد الحربي العجوز طلب الهودج، وقال لبومبونيا:

اسمعي ماأقوله يا بومبونيا. أنا ذاهب إلى القيصر، وأعلم أن لاجدوى في الأمر، وأعلم أيضاً أن كلام سينيكا لايعني له شيئاً.

ورغم ذلك سأقصد سينيكا. في هذه الايام سوفرونيوس، و

تيغالينوســ، و بترونيوس هم الاهم. أمــا بالنسبة للقيصر، فقد يكون لم يسمع بالقوم الليغوس.

وإذا ما كان علــم أن ليفيا رهينة وطلبها على أساس ذلك، فلابد أن أحدا قد أخبره بأمرها. فمن يكون المخبر؟ ليس عسيرا معرفة ذلك.

رفعت المرأة رأسها نحوه قائلة:

ـ تماماً

ساد صمت آني. ثم تابع القائد يقول :

ـ أنظري نتيجــة ما يحصل عندما يدخل المرء إلى منزله شخصا قذرا عــديم الضمير. اللعنة على تلــك اللحظة التي اجتاز فيها فينيكوس عتبة منزلنــا. هو الذي أتى ببترونيوســ إلينا. هم لا يريدون ليفيا الرهينة، بل الخليلة.

اشتــد صفير صوته نتيجة مــا اجتاحه من موجات الغضب، والحنق وشدة الالم على ابنته. اصطرع في نفسه لبعض الوقت، وكانت قبضته المشدودة تقول:

ما أقساه من صراع!

قال:

ـ حتــى الان، كنت أحترم الالهة. في هــذه اللحظة أقول: لاوجود لها في هذه العالم.

هنالك فرد شرير،ورهيب، ومخبول إسمه نيرون.

صاحت بومبونيا:

ـ أولوس ! نيرون إذا ما قيس بالالهة ما هو الا قبضة تافهة من الغبار.

وراح الرجـل يخبط بخطـوات مديدة فوق بـلاط الموازييك. لقد شهـد خلال حياته كثيرا من الوقائع الجسيمة، ولكنه لم يالف أن يتخلل ها سوء فال ملحوظ لا يحسب له حساب أو خيبات كبرى ذات شأن.

كان الجندي العجوز أكثرتعلقا بـليفيا ممّا كان يظن.

والان، لم يقـو على احتمال فكرة أنـه يفقدها. شعر بوصمة العار، وأن يـدا يحتقرها قد تطاولـت عليه. وشعر في الوقـت نفسه أن قوته لاتساوي شيئاً مقارنة بقوى أولئك.

ولكنه بعد أن عبر عن غيظه الذي أربك أفكاره، قال:

ـ سأفترضـ أن بترونيوسـ لم يأخذها من أجـل القيصر تجنبا لغضب بوبيا عليه،فقد استرجعها منها إذن من أجل فينيكوس.

سأعرف ذاك هذا اليوم.

وبعـد قليل من الوقت أقلّه الهودج باتجـاه القصر. وبقيت بومبونيا وحدها، فأسرعت نحو أولوس الصغير الذي فاقم من بكائه على فراق أخته، ومن تهديداته للقيصر.

٥

كان أولوس محقًا حين ظن أنه لن يتمكن من المثول أمام نيرون.

كان رد هــم أن القيصر والحاشيّة في حفل غنائي خاص.بمن وجهت اليهم الدعوات. ومثل هذا الرد كان يعني أن يكف أولوس عن محاولاته المجيء إلى هنــا حتى فيما يلي من المناسبات. بينمــا كان سينيكا، رغم مرضــه وحمــاه، قــد استقبــل المحــارب العجوز،بما يليق مــن حفاوة واحترام، وقال له بعد أن عرف الغرض من قدومه:

ـ أنصحــك يا أولوس بلاوتيوس النبيل بــأن تتكتم أمام القيصر، فلا تفصــح له عن شعوري بوجعك، وأننــي أود مساعدتك. لأن القيصر، لو خالجــه بعض الظن بتعاطفي معك، لن يعيد ليفيا اليك، لسبب وحيد لا ثاني له هو معارضتي والوقوف ضدي.

كما حذره أيضاً من اللجوء إلى تيغالينوس أو فيتاليوس، أو فاتينيوس، حتــى إن كان الأمر يســو ى عندهم بالمال. لأنهــم في الغالــب، سوف يشون للقيصر،.بمقــدار أهميّة ليفيا بالنسبة لكل من أولوس و بومبونيا، وبمــدى حبهما لها، وعندئــذ سوف يضعف احتمــال إعادتها من بين يدي نيرون. ثم استأنف قائلاً:

ـ أنت سكــت يا عزيزي بلاوتيوس. لقد لزمت الصمت على مدى سنــوات طويلة. وقيصر لا يحــب أولئك الذين يسكتــون. كيف كان بمقــدورك أن لا تتحمّس لجماله وقوته، وغنائه، وأقواله، وفنه في قيادة

العربـات، وأشعاره؟ كيف كان بمقدورك ألا تمجّد موت بريتانيكوس، وألا تلقـي خطبة تمدح فيها قاتل أمه؟ والا تعبر عن رغبتك،وقبولك أن تخنـق أوكتافيا ألا تملك المقـدرة على النظر من حولـك، وترانا كيف نعيش سعداء في ظل البلاط، ونتمتع بقدر كبير من الكفايّة والرفاه.

ثـم أنزل الإبريق المعدني عن خصره، وغرف ماء من النافورة، وتابع يقول:

- نـيرون يتمتع بقلب فيه مسحة من الامتنان، يحبك لأنك خدمت رومـا، ونشرت إسمه في أنحاء الأرض، وهو يحبني لأني كنت معل مه في صبـاه. أنظر! أعرف أن هذا الماء ليسـ مسموما، وأنا أشربه مطمئنا لكـن حتى النبيـذ الذي في بيتي مشكـوك في أمره. فـإن كنت ظمآنا فاشرب من هذا الماء الـذي يأتينا في قنوات مائيّة من جبال الألب. فإن أرادوا تسميمنا عليهم أن يسمموا كل ينابيع روما. وكما ترى، بمقدور المـرء أن يحيـا بأمان في هذا العـالم، وأن يبلغ شيخوخـة آمنة مطمئنة. صحيح أنني مريض، لكن روحي هي المريضة، ليس جسدي.

وكان هذا صحيحا. لم يكـن لسينيكا تلك القوة الروحيّة التي تمتع بهـا كورنوتس أو تريسيا. لم تكن حياتـه إذن الا سلسلة من التنازلات أمام الخسـة. لقد أدرك تماماً أن من يتبع مبادئ زينو الكيتيوني، عليه أن يسلك دربا أخرى تذيقه المرارات.

لكن القائد الحربي قطع خيط تلك التأملات المزعجة قائلاً:

- أعلم أن القيصر كافأك على حمايتك له في صباه، لكن جد لنا الان طريقة لمقابلته، أو حدّد لنا من يشفع لنا عنده، إن كان هنالك خيط من صداقة قديمة مازال يربط بيننا.

فأجاب سينيكا:

ـ أنــا و بترونيوســ ننتمي إلى حلفين متضاديــن. ولا أدري ما الذي يمكــن أن نحصل عليه منه. لا أحــد يستطيع أن يؤثر عليه. وبالرغم من فســاده فهو أعلى مقدارا من أولئك الاوغــاد الذين يحيطون بالقيصر. لكــن إذا مــا كنت راغبا في التأكد من أنه قــد ارتكب فعلة شريرة، فهو أمر لا جدوى منه، ومضيعة للوقت. لقد فقد بترونيوس منذ فترة طويلة إحساســه بالفروق بين الصالح والطالح. أثبت له سوء تصرفه، وسوف يشعر بالخجل.

وإذا مــا التقيتــه سأقول له "هــذا التصرف لا يليــق إلّا بأحد المعاتيق ليقوم به." إن لم يكن كلامي مجديا فلا شيء سيجدي أبدا.

فأجاب القائد:

ـ أشكرك على هذا الأمر كذلك.

ثم انطلــق قاصدا فينيكوســ الذي كان يجري تدريبــا في المبارزة بالسيــف مــع المدرب. ركب أولوســ حنق شديد لمــرأى الشاب يقوم بتدريبــات المبارزة، بكل ما هنالك من اطمئنــان وبرود رغم عدوانيته على ليفيا. واستحــال حنقه إلى ملامة قاسيّة، وشتائــم. أما فينيكوس، وقــد علم للتو باختطاف ليفيا، فقــد اعتراه الشحوب والذعر من هول المفاجــأة، الأمر الذي أبعــد أولوس عن الشــك في أن يكون له يد في الإضرار بالفتاة. كان جبين الشاب يتصبّب عرقا.

تسارعت خفقات قلبه، وتوهج وجهه بحمرة دمويّة، وبرقت عيناه بالشرر، وارتجفت شفتاه بتساؤلات مرتبكة، وتناوبت عواصف الغيرة،

والغضب على تمزيقه. شعر أن ليفيا ما إن تتخطى عتبة القصر وتصير في داخله، حتى يفقدها إلى الابد.

وعندما ذكر أولوس اسم بترونيوس، ساوره بريق من شك في أن بترونيوس قد جعل منه مطيّة لاستغلاله عند القيصر. إما للفوز بمكاسب شخصيّة بتقديم ليفيا هديّة له، وإما لرغبته في أن يحظى بها هو شخصيًّا.

فما من أحد تقع عيناه على ليفيا إلا ورغب بها، أو شغلت باله.

قال بلهجة متعثرة:

ـ عد إلى المنزل يا سيدي القائد، وانتظرني... وتأكد إن كان لبترونيوس ضلع في الأمر، سأنتقم لها منه،عد إلى المنزل، وانتظرني، فلن تكون ليفيا لبترونيوس ولا القيصر.

ثم رفع قبضة يده نحو وجوه الشمع المصفوفة في الخزانة، وصرخ :

ـ أيتها الوجوه الميتة! سأقتله أولا ثم أقتل نفسي.

ونهض واقفا وكرر طلبه قائلاً لأولوس:

ـ انتظرني.

واندفع كالمجنون قاصدا بترونيوس.

ورجع أولوس يحمل شيئاً من الامل في داخله.

قال في نفسه : إن كان بترونيوس قد أقنع القيصر باختطاف ليفيا كي يمنحها لفينيكوس، لا مخافة من الأمر، لأن الشاب سوف يعيدها. وإن

لم يتمكن من ذلك فسوف يلجأ إلى قتلها غسلا لعارها.

كان واثقا أن فينيكوس سيفي بوعده. لقد لمس شدة الغضب الذي ألم به، وكان قد خبر ما يمتاز به قوم الشاب من حماسة واندفاع.

حتى هو نفسه الذي أحب ليفيا كأب ابنته، يفضل قتلها على أن تكون للقيصر، لولا أنه يضع في الاعتبار حالة ابنه الوحيد آخر وريث للعائلة.

كان أولوس جنديا فلم يسمع الكثير عن الرواقيين،لكنه ليس بمنأى عن تطلعاتهم،ومناحي فخارهم. الموت في نظرهم أقرب إلى أفكارهم وفخارهم من وصمة العار.

وحين وصل إلى المنزل طمئن بومبونيا، وكرس معها آماله، وانتظر كلاهما الاخبار الموعودة من فينيكوس بفارغ الصبر. أحيانا، حين يتناهى إلى الاسماع وقع أقدام أحد العبيد، كانا يظنان أن فينيكوس قد جاء بطفلتهما الحبيبة، وتهيأ المباركة بعضهما بحرارة. لكن الزمن كان يمضي، دون أن يصل أي نبأ. لكن في المساء دقت مطرقة الباب وبعد قليل، دخل رقيق، وسلّم أولوس رسالة. حاول القائد الحربي العجوز أن يتماسك، ويسيطر على نفسه، لكنه فشل في منع يده من الارتجاف حين مدها لاستلام الرسالة. وقرأها بنهم كأن مصير الجميع يتوقف عليها.

وبغتة تجهّم وجهه كأن غمامة قد ظلّلته.

- اقرأيها قال ملتفتا إلى بومبونيا.

أخذت بومبونيا الرسالة، وقرأت فيها ما يلي :

" ماركوس فينيكوس " يبعث تحياته إلى أولوس بلاوتيوس. ما حصل كان بإرادة من القيصر. وما عليكم أمام ذلك،الا أن تحنو رؤوسكم كما فعلنا أنا و بترونيوس.

ثم ساد صمت طويل.

٦

كان بترونيوس في المنزل. لم يجرؤ الحاجب أن يدخل فينيكوس المندفع كالعاصفة. لكن فينيكوس كان يعرف أنه سيجد سيد المنزل في المكتبة، فاندفع نحوها. وجده هناك منكبا على الكتابة. اختطف الريشة من يده وكسرها، ورماها على الأرض، ثم ضغط بكفّه على ذراع قريبه الأكبر، ومال مقتربا من وجهه يسأله بصوت أجش:

- أين هي؟ ما الذي فعلته بها؟

ما حصل شيء غريب. قبض بترونيوس المخنث النحيل بيد واحدة على ذراع الشاب الرياضيّة التي انغرزت أصابعها في ذراع بترونيوس، ملتقطا باليد نفسها الذراع الاخرى للشاب، وشدّ عليهما بقوة حديديّة، وقال:

- قواي واهنة عند الصباح فقط. لكنني سرعان ما أستعيد مرونتي مع اقتراب المساء. حاول أن تحرر نفسك. يبدو أن مدرّبك على الخفة كان حائكا لا علاقة له بالرياضة، وأن مدربك على اللباقة كان حدّاداً.

لم يبد، بعد، على وجهه أي أثر للغضب. لكن عينيه توهّجتا بالقوة والجسارة. أرخى ذراعي فينيكوس، ووقف الشاب أمامه خجلا ذليلا، دون أن يخفي حنقه. قال:

- لك ذراع حديديّة. لكني أقسم بكل آلهة العالم، إن كنت قد خنتني، سأطعن عنقك بمديتي، حتى أمام القيصر، وفي منزله.

فأجاب بترونيوس:

ـ دعنـا نتكلم بهـدوء. ترى أن الفـولاذ أقوى من الحديـد. وأنا لا أخافـك، بل أشفـق عليك لأنك أخـرق، وساذج. ولـو كان ما يزال بمقدوري أن أستهجن الجحود الانساني، لكنت استهجنته فيك بالذات.

ـ أين ليفيا؟

ـ في قصر القيصر

ـ بترونيوس !

ـ هـدّئ من روعك، واجلـس. توجهت إلى القيصـر بمطلبين، وقد وعـدني بتلبيتهمـا لي. أن يأتي بليفيا مـن منزل أولوس، وأن تأخذها أنت بعد ذلـك. والآن أليس من مدية تخفيها بـين ملابسك؟ انتشلها واطعنّي. أخشى أن تزج في السجن، وتسأم ليفيا نفسها في منزلك.

ساد صمت. تأمل فينيكوس بترونيوس قليلا، ثم قال:

ـ سامحني! أنا أحب ليفيا، وما حدث قد أربك مشاعري.

ـ تصـوّر يـا فينيكوس ، أمس الاول قلت للقيصـر : ابن عمتي واقع في حـب فتاة مسكينـة تترعرع في منزل أولوس في أجـواء من المعاناة والشكـوى، وأنت أيهـا القيصر، وأنـا ـ الخبيرين بالجمـال الحقيقي – لاندفع لأجلها حتى ألف سستريوم ، لكنها قد أخذت بلب الفتى حتى هام بها في النهايّة.

ـ بترونيوس !

ـ إن كنـت لا تصـدق، فسأثبت لك أنني قلـت الحقيقة. قمت أولاً بإقنـاع صاحب اللحيّة الحمراء أن محبـا للجمال مثله، لا يمكن أن يرى أثرا للجمال في هذه الفتاة. و نيرون الذي لم ينظر إلى الاشياء حتى الان الا بعينـي أنا، لن يراهـا. جميلة. ومادام لا يراهـا كذلك، فلن يرغب فيهـا. كنا في حاجـة لأن نحكم وثاق القرد لكي نأمـن جانبه. والان

ليس هو من سيعاين جمال ليفيا الحقيقي، بل بوبيا التي ستؤمن إبعادها مــن القصر بأسرع ما يمكن. لــك الحق في ذلك، لأن الفتــاة رهينة. إن تفعــل ذلك، ستوجــه صفعة لأولوس. وافق. لم يكــن لديه أدنى سبب للرفض، خاصــة وقــد منحتــه فرصة للثأر مــن الناســ الطيبين. سوف يوكلون اليــك مهمة الحارس الرسمي للرهينــة، وسيضعون بين يديك هذه الـثروة الليغويّة. وإنــك كحليف للمحاربــين الليغيويين، وخادم أمــين للقيصر في ذات الوقت، لن تفرط بهذه الـثروة، بل ستعمل على صونهــا، وترعى ذريتها. القيصر سيحتفظ بها بضعة أيام كغطاء شكلي على مرأى الآخرين، ثم يرسلها اليك أيها الشاب المحظوظ.

ـ أصحيح هذا؟ ألا يهددها شيء في منزل القيصر؟

ـ حتمــا لا. يعيش في القصر عشرة آلاف شخصــ. حتى أن القيصر لن يراها. خاصــة وأنه قد أوكلني بكل شيء، وأن قائد الدوريّة أخبرني بأنــه أودعها لدى أكتي. أكتي نفس طيبة. لهذا جعلتها بين يديها. كان لبومبونيــا الــرأي نفسه، فكتبت لها رسالة توصيّــة. تقام غدا مأدبة في القصر، وأنت من المدعوين. وقد حجزت لك مكانا إلى جانب ليفيا.

ـ عزيــزي. سامحني على ما يبــدر مني من سلوك عنيف. ظننت أنك قد تدبرت أمر اختطافها، من أجلك أو من أجل نيرون.

فردّ بترونيوس قائلاً:

ـ سلــوكك العنيف مصفوح عنــه. لكن تصرفك الريفــي الساذج، وصراخك الاخرق، وصوتك الذي يذكر بالمتسكعين، كلها أمور يشق الصفــح عنها، لأنها صفات لا أحبذها. حــذار يا فينيكوس! ليكن في علمــك أن قوادالقيصر هــو تيغالينوس. وليكن في علمــك أيضاً أنني لــو أردت ليفيا لنفســي لقلت لك بصريح العبارة: "سآخذ منك ليفيا يا فينيكوس، وستظل محظيتي حتى أملّها".

وأطلقــت عيناه البنيّتان نظرة حادة كادت تخترق عيني فينيكوس، وأوقعته بالحرج، فبادر إلى الاعتراف قائلاً:

ـ أنا المخطئ. وأنت شخص طيب نبيل النفس. أشكرك من أعماقي. لكني سأسالك سؤالا أخيرا،كيف لم ترسلها إلي مباشرة؟

ـ لأن القيصـر يحرص على المظاهر. سوف يتناقلون خبرها في سائر أنحـاء روما. وبما أنها رهينة، ستبقى في قصر القيصر مادام اللغط قائما، وبمجرد أن ينتهي سترسل اليك بكل هدوء، وتنتهي القصة تماماً. صاحب اللحيّة الحمراء كلب جبان، يعلم أن سلطانه بلا حدود. وعلى الرغم من ذلـك فهو يقيم اعتبارا لكل شاردة، ويضفي عليها الغطاء المناسب: هل هـدأ بالك، وصار بوسعنا أن نتفلسف قليلا؟ فكرت كثيرا أسال نفسي : مـا السبب أن الشر، كلمـا كان ضخما كالقيصر مثلا،ورغم ثقته بأنه سيبقى غير مدان، فإن يسعى إلى أن يضفي على نفسه صبغة من العدالة والحـق والفضيلة؟ لم كل هـذا العناء؟ إن قتـل الاخ، والام، والزوجة، أجدى أن يقوم به ملك أسيوي، لا القيصر. لو يحدث لي مثل هذا، فلن أكتـب رسالـة للسيناتور لإنقاذي. لكن نـيرون يكتب. نيرون يبحث عـن المظهـر لأنه جبان. أمـا تيبريوس فلم يكن جبانـا، ومع ذلك كان يحاول أن يجد تفسيرا لكل ما قام به من أفعال. لم تجري الامور هكذا؟ غريب هذا الولاء العفوي للشر في مواجهة الفضيلة.أتدري ما جوابي؟ لأن الشرقبيـح، والفضيلة جميلة.إن الفنان الحـق فاضل بالضرورة. أنا إنسـان فاضل.علي اليوم أن أضحي، وأهرق قليلا من النبيذ على روح كل مـن جورجيلس، و بروتاغوراس، و بروديكوس. أرى أننا نجني فائدة حتى من السفسطائـي. إسمعني فلدي مزيد من الكلام. أخذت ليفيا من منزل أولوس لأهديك إياها. حسنا لكن ليسيبوس قد ينحت لكمـا مجموعة رائعة من التماثيـل. كلاكما فائق الجمال، وهذا السبب يجعـل مـا قمت أنا به مـن أجلكما جميلا وبما أنه جميـل يستحيل أن

يكـون قبيحا أنظر يا ماركوس، أمامـك الان ترقد الفضيلة مالئة جسد بترونيوس ! لـو كان أريستيدس حيا لجـاء الي الان متوسلا لأحاضر له عن الفضيلة

لكـن فينيكوس كان همّه الحقيقة أكثر من المحاضرة حول الفضيلة، فقال : غداً سألتقي ليفيا وسوف تقيم في منزلي دوما حتى الممات.

ـ لـك ليفيا، ولي أولوس الذي سيظل يلاحقني بنقمة كل الهة العا لم السفلـي. لكـن على الاقل، قد يتلقـن ذلك البهيم درسـا في التهذيب واللباقة في الحديث. لا. لا. هو شخص لا يعرف إلّا أن يطلق الشتائم، مثل حاجبي الواقف عند بابي، لا يكف عن تعنيف زبائني، ولذا الحقته بالمركز التأديبي للعبيد في الريف.

ـ جاء إلي أولوس ووعدته بنبأ عن ليفيا.

ـ أكتب له إن إرادة القيصر الرباني من القوانين التي لايعلى عليها.

وقل لـه إن مولودكمـا الاول سيكون إسمه أولوس. لابد من فخ للعجوز.

أنـا مستعد لأطلب من صاحب اللحيّـة الحمراء أن يدعوه إلى مأدبة الغداء، ليراك جالسا قرب ليفيا.

ـ لا تفعل. أنا أشفق عليهما بومبونيا خاصة.

ثـم جلس ليكتب الرسالة التي جردت القائد الحربي من أخر آماله.

٧

كانـت أكتـي عشيقة نـيرون السابقـة. وكان ينحنـي أمامها كبار رجالات روما.

لكنهـا لم تكـن في ذلك الحـين، ترغـب في التدخـل في الشؤون العامـة. وإذا مـا صـادف آنذاك واستغلـت ما تتمتع به مـن تأثير على الحاكم الشاب، فقد كان ذلك من باب الشفاعة لأحدهم أمامه. كانت هادئة، ومتواضعة، إستحقت امتنـان الكثيرين، و لم تنشئ أعداء، حتى أكتافيـا لم تضمر لها الكراهيّـة. و لم يعتبرها الحساد بذات خطورة على الاطلاق. عرفوا عنها أنها مازالت تكن لنيرون حبا حزينا اليما، مفعماً بالذكريات لا بالأمال. حـين كان نيرون شخصا أفضل واصلح عرفوا أن روحها، وبالها، لا يستطيعان الانفصال عن تلك الذكريات، لكنها الان لم تعـد تنتظر شيئاً وبما أنهـا قد يئست من عودة القيصر اليها، فقد رأوا فيهـا مخلوقة عزلاء تماماً، فتركوهـا وشأنها. اعتبرتها بوبيا خادمتها البكماء المسالمة، فلم ترغب في إبعادها عن القصر.

ولكـن، بمـا أن القيصـر قد أحبهـا ذات يـوم، فقد انفصـل عنها بهـدوء، ودونما غضـب منها، حتى يمكن القول بـكل الود والصداقة. أطلـق نـيرون سراحها، ومنحهـا مسكنـا مستقلا في القصـر، وبعضا مـن الخدم، والخادمـات. وبمـا أن بالاسـ و نارسيزوسـ كان معتوقي كلاوديوس في ذلك الحين، فقد احتلا مكانيهما على مائدة كلاوديوس باعتبارهمـا وزيرين رفيعي المستوى، حق لهمـا أن يدعوا أكتي أحيانا

إلى مائـدة القيصر. لعل سبـب الدعوة جمالها الـذي يصلح أن يكون ديكـورا حقيقيـا في المأدبة. وعلـى أيّة حال، لم يكن انتقـاء النخبة من جلسـاء نيرون علـى المائدة، يخضـع لأي اعتبار. فـكان هنالك شتى المراتـب والشخصيّات الاعتباريّة، والسيناتـورات، لكنهم في الغالب ممن هم علـى استعداد ليلعبوا دور مجانين البـلاط. ويصادف بينهم من قصدوا المأدبة حبا بالـترف، أو طلبا للاستمتاع، واستقراطيون شبان، وشيوخ راغبون في العربدة واللهو. حضرت نساء بأسماء كبيرة، ورغم ذلـك لايتورعن كل مساء أن يضعن على رؤوسهن أرخص الباروكات المبتذلة، ويجلن ليلا في الشوارع المظلمة بحثا عن مغامرات تسليهن.

وكان هنالـك موظفـون ذوو مراتـب رفيعـة، وكهّـان إلى جانب كؤوسهـم المليئـة جلسوا يهـزؤون من الهتهـم، يحيط بهـم مغنون، وممثلـون، وعازفـون، وراقصـون، وراقصات، وحشود مـن الشعراء مـن بينهم مـن راح يلقي أشعارا في مديح أشعـار القيصر تكسبا لبعض المال، وفلاسفة معـوزون هزيلو الاجساد تتبعـوا بوجوه نهمة، المآكل المفروشة على الموائد، وقواد عربات ذو شهرة واسعة، ورجال أعمال، وفنانـون، وسحـرة، وحكواتيّة، وهزليّـون، ومتسكعـون، بمختلف الازيـاء والحماقات، من بينهم ذو الشعور الطويلة المنسدلة فوق الآذان لتخفي ثقوبها الدالة على عبوديتهم.

الفئـات الأرقـى توجّهـت إلى المائـدة مباشـرة. والفئـات الأدنى مرتبة راحت تسلّـي المدعوين بانتظار اللحظـة المناسبة ليقودهم طاقم الخـدم إلى الاطعمـة والمشروبات. مثـل هذه الفئة مـن الضيوف مثلها تيغالينوس و فيتيوس، و فاتينوس الذين غالباً مـا كان عليهم أن يرتدوا لباسـا لائقا بالمقام قبل الدخول إلى قاعـات القيصر. كان القيصر يحب مثل هذه الفئـات، لأنه يشعر أنه أقل توترا وأكـثر أريحيّة بين أفرادها.

لقـد أضفى الترف الذي يعـم البلاط، المرح والبهجـة على كل شيء، وغمـر بالاشراقة والغبطة كل من وفد إلى البلاط من عليّة القوم والعامة الذين يملأون شوارع المدينة،والفنانين الكبار،والمواهب المتسكعة ذات المشاعـر المقهورة، ليتحفوا أعينهم بالاحتفال" القمة" الذي يفوق كل تصـور إنساني، ولتسنح لهم الفرصة كي يشاهدوا عن كثب ذاك الذي بمقدوره أن يمنح كل شيء، الثروات والخيرات والشفاعات، ونزوة منه قد تنزل أي امرئ إلى أسفل السافلين، أو ترفعه إلى أعلى عليين.

في مثـل هذا اليوم، كان على ليفيـا أن تحضر الوليمة. لكن الخوف، وانعـدام الثقة،ولعبـة القدر المباغتـة، كانت أسبابـا أوقعتها في الدوار والحيرة.

لقد خافـت القيصر، خافـت الناس، خافت القصر الـذي أجفلتها ضوضـاؤه. خافـت المآدب التـي وصلتها الانبـاء من قبـل أولوس و بومبونيـا وأصدقائهما عن وضاعتها. ولكونها فتـاة في مقتبل العمر، لم تكـن الامـور على قدر كاف من الجلاء في ذهنهـا. خاصة وأنها في سنـي طفولتها، قـد أشبعت بسماع الامور الرديئـة. كان كل ما تعرفه أن مـا يجـري في هذا القصر مصـدر تهديد لها حذرتها منـه بومبونيا قبل الفراق. إذن، بمـا أن روحها روح طفلة لم يمسها فساد الدهر بعد، وبما أن أمها التي ربتها قد زودتها ببعض التعاليم الصارمة، فقد وعدت أمها،ونفسها، ومعل مها الالهي الذي لاتؤمن به فحسب بل تحبه كذلك لتعاليمه القيمة، وموته الاليم، وما قام به من ثورة مجيدة، و لقلب الطفل فيه. وفضلا عن أنها كانت واثقة تماماً في أن أولوس و بومبونيا لم يعودا مسؤولـين عن تصرفاتها. فهل من الاصلح لها إذن أن تمتنع عن حضور المأدبـة؟ أم العكس هـو الصحيح. إصطرعت بين خوفهـا وقلقها من جهـة، وبين رغبتها الشديدة في إثبات جرأتهـا، ورفضها واستعدادها

لتلقـي التعذيب والموت إذا ما اقتضـى الأمر كذلك. خاصة وأن المعلم الالهـي قد أمر بذلك، وقـدم نفسه مثالا حيًّا على مـا أمر به. وخاصة أيضـاً أن بومبونيـا قالت لهـا إن الأكثر حماساً وصلابـة من بين أخوة المعتقـد هم من تمتلـئ نفوسهم بالتوق نتيجة المعانـاة، وهذا ما يدفعهم للصلاة.

كانت ما تزال في منزل أولوس حين كان يراودها بين فترة وأخرى، تـوق لاهب كهذا التوق. رأت نفسها شهيدة ناصعة البياض ضرجت بالـدم والجراح، ذات جمال لا كالجمـال الأرضي، كما لو أن ملائكة بيضا يمضون بها نحو السماء الزرقاء.

بمثل هذه التخيلات والرؤى كانت متعتها. كانت تخيلات طفوليّة، لكن فيها نوعا من الزهو الذي استحقت عليه التوبيخ من قبل بومبونيا. والآن حـين كان يمكن للسلـوك الرافض لأمر القيصـر أن يواجه بأشد العقـاب، وللمعاناة الا تبقى محض تخيلات فقط، و تستحيل إلى واقع فعلي، فلقد انضاف إلى تلك الرؤى والرغبات الجميلة شيء من الاماني المشوبـة بالمخافة، ترى أي عقـاب سيلحق بهـا، وأي طرق للتعذيب ستمارس عليها؟

كانـت مازالت تتأرجح بـين الاحتمالين المصطرعـين في داخلها الطفـولي. ولما علمت أكتي باضطرابها هـذا، من خلال حديث الفتاة الهذيـاني معها، رمقتها بنظرات الاندهاش والاستغراب. كيف يمكن أن تخالـف إرادة القيصـر وتفسح المجال لنقمته منـذ اللحظة الاولى؟ لاريـب في أنـه سلوك لا يصدر إلا من طفلة لا تـدري ماذا تقول. وها هـو ذا حديث ليفيا يدل على أنها ليسـت رهينة، بل فتاة عاديّة تناست قومها، فما عاد بمقدور أي قانون حقوقي أن يحميها.

وحتى لو كان هنالك مـا يحامي عنها، فالقيصر على قدر من القوة والسلطان، إذا ما غضب، أن يطوّحها بين الأقدام. لقد أعجبت القيصر فكـرة أن يأتي بها، وتكـون في عهدته منذ اللحظة الاولى. صار مصير ليفيا رهن إشارة القيصر التي لاتعلوها إرادة في سائر الكون.

تابعت أكتي تقول:

ـ أجـل. أنا كذلك قرأت رسائـل بولس الترسوسي. وأعرف أن الله في السماء، وكذلك ابنه الذي قام من الموت، وأن لا وجود في الأرض الا لقيصـر. لا تنسـي هذا يا ليفيا. وأعرف أيضـاً أن معتقدك لا يسمح لك أن تكوني كما كنت أنا. أنتم مثل الستوكوسيين الذين حدثني عنهم أبيكتتوس، وإذا ما خي رتم مابين العـار، والموت، ستختارون الموت. لكـن هل أنت على يقـين بأن ما ينتظـرك هو الموت وليس العار. ألم تسمعي بمـا حل بابنة سيانوس العذراء التي بأمر من تيبريوس، وصمت بالعـار قبل موتها. وذلك مـن أجل ألّا يقفزوا من فـوق القانون الذي يحظر إعدام العذارى؟

لا تثـيري القيصـر يا ليفيـا ! إذا ما جائت اللحظـة الحاسمة، وكان عليك أن تختاري مابـين العار، أوالموت، فافعلي ما يأمر به وجدانك، لكـن لا تجري جريا وراء موتـك، ولا تبحثي عنه، ولا تثيري هذا الاله الأرضي الرجيم لأسباب تافهة.

كانت أكتي تتكلم بشديد الاسف والشفقة، وبما أن بصرها قد صار ضعيفـا منذ مدة، فقد قـر بت وجهها من ليفيا، كأنمـا أرادت أن تتبين مدى الوقع التي أحدثته كلماتها، في حين أتيح للفتاة أن تلف عنق أكتي بذراعها قائلة لها بثقة طفوليّة:

ـ أنت جد طيبة يا أكتي.

فما كان من أكتي الا أن ضمتها إلى صدرها وقالت:

ـ سعادتي، وابتهاجي، أودعتهما للماضي، لكني لست بالسيئة.

وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وكأنما كانت تحدث نفسها بدافع القنوط.

ـ أبدا، حتى هو لم يكن شيئاً. كان يظن أنه صالح، وأراد أن يكون صالحا. أنا من يعرف ذلك. ما حصل له، لم يحصل الا بعد أن صار لا يحبني... الاخرون هم الذين غيّروه إلى ما هو عليه الان...الاخرون، و بوبيا.

وامتلأت عيناها بالدموع. وكذلك فعلت عينا ليفيا الزرقاوان، ثم قالت:

ـ أتأسفين من أجله يا أكتي؟

ـ أجل

أجابت الإغريقيّة، واستأنفت تسير في الغرفة حائرة، ضامة قبضتيها بالم. فقالت ليفيا وجلة:

ـ أمازلت تحبينه يا أكتي؟

ـ أحبه

وأضافت بعد قليل:

ـ لا أحد يحبه سواي...

ساد صمت حاولت أكتي في أثنائه استعادة سكينتها التي أربكتها الذكرى. وحينما استردّ وجهها تعابير الحزن المألوف قالت من جديد:

ـ دعينا نتحدث عنك يا ليفيا. لا تفكّري بمعاكسة القيصر. جنون. الزمي الهدوء. أعرف هذا المنزل جيدا. أزعم أن لا شيء يهددك من قبل القيصر. لو كان نيرون قد اختطفك لأجله شخصيًّا لما أتوا بك إلى القيصر. بوبيا هي صاحبة النفوذ هنا. ومنذ أن أنجبت مولودها وكان بنتا، صار نيرون تحت سلطانها أكثر فأكثر. لا. صحيح أن نيرون هو من طلب أن تكوني في المأدبة، لكنه لم يشاهدك حتى الآن، و لم يسأل عنك. إذن فهو لا يهتم لأمرك. كل ما هنالك أنه غاضب من أولوس و بومبونيا، فأراد أن يعاقبهما. كتب لي بترونيوس أن أضعك تحت رعايتي. وأنت تعلمين أن بومبونيا كتبت لي لنفس الغرض. الأرجح أنهما متفقان على ذلك. لعل ما كتبه بترونيوس كان بناء على طلب بومبونيا. فإذا كان هذا ما قد حصل، فلا خوف عليك من شيء يهددك. لكن من يعلم إن كان نيرون لن يطلب إعادتك إلى منزل أولوس بناء على نصيحة من بترونيوس؟ لا أدري إن كان نيرون يحبه كل هذا الحب، لكن الأكيد أن من النادر أن يأخذ برأي أحد كرأيه.

أجابت ليفيا :

ـ آه، صحيح، يا أكتي. لقد كان بترونيوس عندنا قبل أن يأخذوني. وأمي واثقة أن نيرون طلبني بعد أن كلمه بأمري.

علقت أكتي قائلة:

ـ هذه مسالة شديدة السوء.

وتابعت بعد تفكير:

ـ ومـن المحتمل أيضاً أن يكـون بترونيوس قد ذكر أمام القيصر على العشـاء أنه رأى في منزل أولوس رهينـة ليغويّة، فطلبك القيصر حرصا علـى حكمه، لأن الرهائن تحت رعايته. إضافة إلى أنه لا يحب كلا من أولوس و بومبونيا. لا أظن أن بترونيوس سيلجأ إلى هذه الطريقة، لو أنه أراد أن يأخـذك من أولوس.لا أدري إن كان بترونيوس أفضل من كل حاشيّة القصر،غير أنه يختلف عنهم تماماً.وترقبي خيرا عسى أن تعثري على أحد سواه يرفع صوته لأجلك أمام القيصر.

الم تتعرفي في منزل أولوس على أحدما مقرب من القيصر؟

ـ أكثر من مرة رأيت فسبيانوس و تيوس هناك

ـ لا يحبهما القيصر.

ـ ورأيت سينيكا.

ـ أيّة نصيحة يقدمها سنيكا للقيصر يفعل نيرون ما يغايرها كليا.

كست الحمرة وجه ليفيا الابيض

ـ ورأيت فينيكوس...

ـ لا أعرف من يكون.

ـ قريب بترونيوس. عاد لتوه من أرمينينا

ـ أتظنين أن نيرون يحبه؟

ـ الجميع يحبون فينيكوس.

ـ وهل هو على استعداد لأن يتكلم من أجلك؟

ـ أجل.

ابتسمت أكتي بحنان، وقالت:

ـ إذن سوف تلتقينه حتماً في المأدبة.عليك بالحضور لسببين. أولاً لوجوب حضورك، ولا يخطر إلّا على بال طفل ما ينافي ذلك. ثم، إن كنت ترغبين في العودة إلى منزل أولوس !، تتوجهين بطلبك إلى كل من بترونيوس و فينيكوس. لوكانا الآن هنا لسمعت منهما أن من الخبل والجنون تشبثك بالرفض. قد لا يشعر القيصر بعدم حضورك، لكنه لو خطر له ذلك، واكتشف أمرك، فلا مناجاة لك. تعالي ياليفيا... أتسمعين كل هذا الصخب في المنزل؟ الشمس أشرفت على الغروب،وبدأ المدعوون يتجمعون.

أجابت ليفيا:

ـ أنت محقة يا أكتي. قبلت نصيحتك.

ولكن، في قرارها هذا، أي دور قد لعبته رغبتها في ملاقاة فينيكوس و بترونيوس، وكم كان فيه من الفضول النسائي لحضور مأدبة هو الاول من نوعه في حياتها، حيث يمكنها هناك أن ترى القيصر، والبلاط و بوبيا الشهيرة، وأموراً مدهشة أخرى، وتشاهد عن كثب هذا الاحتفال الأبهة الذي يقصّون عنه الأعاجيب في روما. أي دور لرغائبها في كل ذلك، هي نفسها لا تدري.لكن أكتي في كل الاحوال محقة،وهذا ما لمسته الفتاة جيداً. عليها إذن أن تكون في المأدبة.

وفي نهايّـة المطـاف إذن، حين تضافر الإرغام، واتـزان العقل على هزيمة الغوايّة الخفيّة، أغلقت فمها وركنت.

لقد فطر جمال الفتاة وبراءتها قلب أكتي، فاصطحبتها إلى جناحها الخاص لكـي تعطّرها، وتُلبسهـا الثياب. وبما أن منـزل القيصر يكتظ بالنساء العبدات، فقد كانت حاشيّة كثيرة العدد منهن في خدمة أكتي.

قـررت أن تلبس الفتـاة بنفسها. وسرعـان ما تبين أن هـذه الشابة الإغريقيّة تمتاز، إلى جانب ما يلفها من حزن ورصانة، بأنها قد اطلعت علـى رسائل بولس الترسوسي. وقرأتهـا. وبوافر من خصائص الروح الهيلينيّـة القديمـة التي يعنيها الجمـال الجسدي أكثر مـن أي شيء آخر في الكون، قامت بتعريّـة ليفيا، وحين لمست أعضاء جسدها الشفافة، لكن المكتنزة أيضاً، وكأنهـا أخرجت من بين اللآلئ والورود، لم يكن بمقدورهـا أن تكظـم دهشتها. صرخت ذاهلة، ثـم تراجعت قليلاً إلى الخلف، وراحت تتأمل هذه الظاهرة الربيعية الخارقة.

قالت أخيراً:

- ليفيا أنت أجمل من بوبيا بمئة مرة.

لكـن ليفيـا قد ترعرعـت في منـزل بومبونيا الصـارم، حيث كان التواضع ساريا إذا ما خلت النساء لبعضهن. وهاهي ذي تقف هنا الآن مذهلة إذهال حلم بديـع، ومتناغمة تناغم تمثال هو مثال في الكمال، وحلوة حـلاوة أغنيّة، لكنها مرتبكة، مطرقـة، مطبقة الجفون، تكسو وجههـا حمرة الحياء، وقد ألصقـت ركبتيها، وغطت صدرها بيديها. وأخيراً رفعت يديها بحركة خاطفة، وانتزعت دبّوس شعرها، وبحركة واحـدة من رأسها جعلته ينغمر بشـلال شعرها الذي انسدل كوشاح. اقتربت أكتي منها وقالت وهي تلمس شعرها الداكن:

ـ أوو. يالروعـة شعرك. لن أنـثر عليه بودرة ذهبيّـة. فاللون الذهبي يتـلالا في ثنايـاه. يكفي أن أضفـي عليه لمعة ذهبيّة خفيفـة هنا وهناك للتأنق فقط. لابد أن بلاد الليتوس بلاد رائعة تنجب فتيات من أمثالك.

فأجابت ليفيا:

ـ لا أذكر تلك البلاد. حدثني أرسوس قائلاً إنها محض غابة خضراء. غابة وراء غابة.

ـ وفي الغابـة تتفتح الأزهـار أضافت أكتي وقد غمسـت أصابعها بزيت الفيربينا، ورطّبت به شعر ليفيا.

وبعدئـذ دهنت برفق كامل جسدها بالزيـوت العربيّة الفو احة، ثم ألقـت عليه رداء خفيفا ذهبي اللون، بلا أكمام، والبستها فوقه ثوبا من البوبلـين الابيض. وجاء دور تسريح الشعر، فلفتها بصداريّة فضفاضة، وأجلستها علـى كرسي، وسل متها لوقت قصـير للخادمات العبدات لكي تتأمل هي بنفسها التسريحة عن بعد.

ثـم قامت عبدتان بإدخال قدميها بفردتـي البابوج الأبيض الموشى بالأرجـواني، وصالبـت شريطيـه الذهبيين حـول رسغيهـا المرمريين. ووضعت أكتي اللآلئ حول جيدها، ومسحت شعرها ببودرة الذهب. ثم أمرت أن تلبسها الخادمات الثياب على مرأى من عينيها.

وسرعـان ما صـارت جاهزة. ومـا إن بانت الهـوادج الأولى عند المدخـل الرئيسـي حتى كانت أكتـي و ليفيا قد دخلتا الـرواق السري المشـرف علـى المدخل والغالـيري الداخلـي، والباحـة ذات العمدان الرخاميّة.

وشيئاً فشيئاً بـدأ المدعوون يفدون عابرين من تحت قنطرة المدخل،

العاليّة التي تتربع فوقهـا مركبة ليسياس الثنائيّة الفخمة المتأهبة للطيران في الجـو علـى متنها أبولو و ديانـا. لقد أذهلت ليفيا أبّهــة هذا المشهد الذي لم يزودها منزل أولوس بأدنى فكرة عنه.

كانت الشمس تغرب لتوها، وتتلامع أشعتها الاخيرة ذهبيّة مشوبة باللـون الوردي، فـوق العمدان الرخاميّـة وتماثيل الالهـة والابطال، وحشـود البشر من إلى الرجال والنساء. كان أحد تماثيل هرقل العملاقة يراقـب الحشود من علٍ علوي سابـح في الضوء ونصف سفلي مغمور بالظل. دلّت أكتي ليفياً على السيناتورات ب الأرديّة الملّونة، والحواشي العريضة، والصنادل الموشاة بأشكال هلاليّة.وعلى الفرسان، والفنانين ذوي الشهـرة، والنساء الرومانيات بأزيائهـن الرومانيّة، أو الإغريقيّة، أو المقتبسـة من الفنتازيـا الشرقيّة، وقد وضعن فـوق شعورهن أزهاراً للزينـة، أو أبراجاً، أو أهرامـات، أو تركنها منسدلة كتماثيل الالهات. وقـد ذكرت أكتي العديد من أسماء الرجال والنساء، واختصرت بعض حوادثهـا الرهيبة التي أذهلت ليفيـا، وملأتها بالخوف.كان عالماً فريداً بالنسبـة لها،تلقفـت عيناها بنهم مـا فيه من جمال، لكـن عقل الفتاة الصغـيرة لم يتقبّـل خلاف ذلك. كان قسط كبير مـن السكينة يقبع في حمـرة الغروب السابحة في السماء، وبـين صفوف العمدان الطويلة، وفي هــذه التماثيـل البشريّة كأنما لا وجـود بينها الا لنصــف اله سعيد ومسا لم.لكـن أكتي كشفت أسرارا أخرى خبيئة تخص القيصر وهؤلاء البشـر. دم كاليغولا المقتول مازالت آثـاره حتى الان تبقع رخام أعمدة المركبة الثنائيّة وقاعدتها،إثر هجوم قام به كاسيوس وقتلت فيه زوجته، وسحـق رأس ابنه فـوق الحجارة. وهنالك في ذلـك الجناح سجن في القبـو زجّ داخله دروسوس الشاب، وكان يعض يديه جوعاً، وقتل فيه والـده العجوز،وانهـار غاميليوس تحت نوبات الهلـع والتشنج. وفي مكان ما في ذلك السجن لاقى كلاوديوس و جرمانيكوس أبشع أنواع

التعذيـب. كل هذه الجدران أصغت إلى أنـين المحتضرين وتوجعاتهم. وهـؤلاء الناس الذين ترينهم يتوافـدون إلى المأدبة بأفخـم الدروع، و الأرديّـة، ليسـوا في منأى عـن الخطر،وقد تصدر بحقهـم غداً عقوبة الإعـدام. ولعلّ الابتسامة المرتسمة فـوق وجوههم تخفي، فضلاً عما في قلوبهـم من خشيّة واضطـراب، كثيراً من مشاعـر القلق ليوم غد. ولعل هـؤلاء الأنصاف آلهة الذين يبدون سكينـة واطمئناناً ظاهرين، لا يبطـن قلوبهم الا الحسـد والجشع والحرقة. لم يكن بمقدور ليفيا التي أصابها الذعر أن تتابع ما تقوله أكتي. وبقدر ما كان هذا العالم العجيب يـزداد جاذبيّة أمام ناظريها، كان قلبهـا ينبض، ويشتد حنينها إلى منزل بومبونيـا و أولوس، حيث الامان والحب همـا السائدان هناك، وليس الحساب والعقاب.

تعاظمـت أمـواج الوافدين، واشتـدّت، وراء المدخـل، الضوضاء وضجيـج الاسياد ومرافقيهم، وعجت الباحة والعمدان بعبيد القيصر، وعبداتـه، وفتيانه، وحراسـ القصر الامبراطوريـين. وكان هنالك بين الوجـوه البرونزيّة، والبيضاء، بعض الوجوه الزنجيّة السوداء ذات الخوذ من الريش، وأقراط حلقيّة كبيرة في الاذان، حملت الأعواد والقيثارات، والزهور والمصابيح اليدويّة من الذهب والفضّة والنحاس.

اختلـط صخب الأحاديـث المتعاظم مع صوت انسـكاب الماء من النافورة على الأرض الرخاميّة.

كانت أكتي قد كفت عن حديثها، وظلت ليفيا تجول بنظرات حادة كأنما تبحث عن أحد ما في الجموع. احتقن وجهها فجأة بالحمرة ما إن لمحت بين العمدان كلا من بترونيوس و فينيكوس بلباس التوغا، وهما يتقدمان بتـؤدة مثل الهين أبيضـين واثقين نحـو التريسيلينيوم الكبير.

انزاحت صخرة كبيرة عن قلب ليفيا حين وقعت عيناها بين الحشد، ورأت هذين الوجهين الصديقين الانيسين، وخاصة فينيكوس. لم تعد تشعر أنها غريبة كل هذا الحد، وخفت وتيرة حنينها الشديد إلى منزل بومبونيا، وكف أن يكون حنينا له كل ذلك الايلام. استحوذت عليها فرصة أن ترى فينيكوس وتتحدّث إليه، وأزاحت كل ما عداها من أصوات في داخلها وأخمدت حتى ما قالته لها أكتي، وما طرق أذنيها من تخديرات بومبونيا، وما تردّد أمامها من أخبار، ورذائل البيت القيصري. وبالرغم من كل هذه الأقوال والتحذيرات، فقد باتت تشعر الآن أنها تخون كل تعاليم نقيّة قد نشأت عليها، وتخون بومبونيا، وتصل إلى حد خيانة نفسها أيضاً.

الخضوع للإكراه شيء، والابتهاج له شيء آخر. شعرت بالذنب والضعة، والضياع. ساورتها الحيرة، وودت لو تبكي. ولو كانت لوحدها الان لجثت على ركبتيها وراحت تضرب على صدرها مرددة " أنا مجرمة، مجرمة كبيرة ".

والآن أمسكت أكتي بيدها، وقادتها عبر الغرف الداخليّة نحو التريسيلينيوم الكبير، حيث يفترض أن تقام المأدبة. أما هي فحارت عيناها وطنّت أذناها من شدّة انفعالها الداخلي، وكادت انفاسها أن تتوقف من شدّة خفقان قلبها. وكأنما هي في حلم كانت تسمع نداء القيصر محييا الحضور. ورأت نفسها غارقة في الضباب. لقد أصمّها نداء القيصر، وذهبت الأنوار ببصرها، وأصابتها الروائح بالدوار، وفقدت ما تبقى من وعيها، فلم تتعرف إلّا بمشقة أكتي وهي تجلسها إلى الطاولة وتجلس إلى جانبها.

وبعد قليل جاء صوت عميق مألوف من الجهة الأخرى:

ـ لك التحيّة، يا أجمـل عذروات الأرض، ويا أجمل نجوم السماء، لك التحيّة يا كالينا الإلهيّة.

التفتـت ليفيـا فرأت فينيكوسـ إلى جانبها. لم يكـن يرتدي التوغا ، لأن العـادة تقتضي نـزع هذا الرداء في المـآدب، حرصاً على الراحة هناك. اكتفى بتونيكا قرمزيّة بلا أكمام، موشاة بشجرات نخيل فضيّة. وعلـى الطريقـة الشرقيّـة علق بذراعيـه العاريين فـوق المرفقين واقيين مذهبين للزينة.

كان مكتنز العضلات، حليق الساعدين الاملسين اللائقين، يحمل السيف والترس. تو ج رأسه إكليل من الورود. لقد بدا بحاجبيه الكثين، وعينيه الرائعتين،وشعر وجهه البني، جسدا مسبوكا بالفتوة والعزيمة

رأته ليفيا وسيماً إلى حد جعلها تتأنّى في الرد قائلة :

ـ تحيّة لك يا ماركوس.

فتابع الشاب:

ـ مـا أسعـد عينـي إذ رأتاك، ومـا أسعـد أذني إذ بمقدورهما سماع صوتـك الأعذب عنـدي من صوت الناي والقيثـارة. لو كان عليّ أن أختـار مـن سيجلس إلى جانبي في المأدبة، أنـت أم فينوس لاخترتك يا ليفيا الإلهيّة.

نظرت اليه كأنما تريد أن تلتهمه بعينيها، فذوّبته إعجاباً.

انزلقت نظراتها ملاطفـة، مستمتعة، معانقة، راشفة وجهه وعنقه، وساعديـه العاريـين، وعضلاتـه البديعـة. لكنهـا إلى جانب مـا تولّد

فيهــا من رغبة لم تستطــع كتمانها، فقد غمرها شعور عــارم بالسعادة والحب،والنشوة.

تابع الشاب :

ـ كنت أعرف أنني سأراك في منزل القيصر. وعلى الرغم من ذلك، حــين لمحتك اهتز كياني من فــرط السعادة، كأن سعــداً مباغتاً قد حطّ أمامي.

وحــين استعادت ليفيا وعيها،شعــرت أن هذا الشاب هو المخلوق الوحيد المقرّب منها من بين كل هذه الحشود هنا. انسجمت في حديثها معــه، وسألته عن كل ما دار في ذهنها ممّا لم تفهمه، أو يبعث في نفسها الخــوف والخشيّة. كيف عرف أنه سيلتقيهــا هنا في منزل القيصر؟ إنها خائفة هنا، وتريد العودة إلى بوميونيا، وإنها ستموت من شدة الشوق، والاضطــراب، لولا أملهــا بأن بترونيوس بالتعاون معــه سيفعلان شيئاً لدى القيصر.

أوضــح لها فينيكوس بأنه لم يعلم بأمرهــا إلّا من قبل أولوس، وأنه أبداً لا يدري سبب وجودها هنا. فالقيصر لا يناقش أحداً في توصياته، وأوامــره. طمأنها بألّا تخاف، وأنه سيبقــى إلى جانبها. الأجدر به أن يفقــد بصــره إن كان لن يراهــا، وأن يفقد حياتــه ولا يفقدها. وسوف يحرصــ على روح ليفيا حرصه على روحه. وسيعتبرها آلهته، وسيبني لهــا في منزله مذبحــاً يملؤه بالرياحــين، وفي الربيــع بالاكتينيا وأزهار التفــاح. أمــا إن كانت تخشى البقــاء في القصر، فإنه يعدهــا بألّا تبقى هناك. وأنه لن يرفض لها طلباً بعد الآن.

ربمــا تكلّم بشيء من المكر،وبالغ في حديثه، لكن نبرة صوته وشت

بصـدق مشاعـره. كان مواساة صادقـة منه دلت أنه يـذوب حبا لها. جمالها يستأثر بمشاعره، وهو راغب في أن يحظى بها، لكنه يشعر أنها عزيزة عليه إلى حد يستطيع حتى أن يعبدها كالهة. شعر بحاجة لا تقاوم لأن يبـوح عما يجول في نفسه، وأن يحدثهـا عن مدى جمالها، وأنه يعبدهـا عبادة. لكن ضجيج المأدبة كان قـد تعاظم، فاقترب فينيكوس من الفتاة، ووشوشها ببعض الكلمات الدافئة العذبة المنبثقة من أعماق النفسـ، فعلت فيهـا فعل النبيذ. ولقد أسكرتها فعـلا. شعرت ليفيا أن فينيكوسـ يزداد لطافـة وقربا إلى نفسها، من بين جميـع هؤلاء الغرباء الكـثر. وإنها تثـق به تماماً لأن الشاب متعلق بهـا. ولقد طمأنها واعدا إياهـا، أن يحررها من منزل القيصـر، والا يتخلى عنها، وأن يحقق لها كل ما ترغب فيه. وعلى عكس ما جرى حين تحادثا في منزل أولوس، حيـث كان حديثـه معها عن الحـب والسعادة، لكنـه الان يفصح لها مباشـرة بأنه يحبها، وأنها أغلى والطف مخلوق بالنسبة إليه. الآن تسمع للمرة الاولى من فم رجل مثل هذه الكلمات التي غمرتها بالسعادة إلى جانب الطمأنينة، وجعلتها تظن نفسها في حلم لا في يقظة. بدأ وجهها يتوهـج، وقلبها يخفـق بشدة،وتباعـدت شفتاها من كـثرة الذهول. ساورها الخوف لسماعها مثل هـذه الامور، لكنها مع ذلك لا تقايض كلمـة واحدة منها حتى بكل ثـروات الأرض. كانـت تغمض عينيها تـارة، وترفع وجهها نحو الشاب تارة أخـرى، لتبدي تعابير مرتعشة، مرتبكـة، عاجة بالتسـاؤلات، كأنما تريـد أن تقول"مزيـدا، مزيدا ". دوّخها الصخب والموسيقـا، وعبق الازهار، وروائح الابخرة العربيّة: جرت العادة في رومـا أن يضطجع المرء في المآدب جانب المائدة، فيما كان مـكان ليفيا في المنزل بين بومبونيا و أولوس الصغير. أما الآن فإلى جانبها فينيكوس الفتى القـوي المتوهج حبًّا، وهاهي ذي تشعر بالحياء المشوب باللذة، إزاء ما بدر من الشاب من حرارة متدفقة.

شعـرت بشيء لذيذ مـن الوهن والاسترخاء، والخفـة، كأنما شالها الحلم وطاربها.

أحسّ فينيكوسـس بأن قرب ليفيا منه بدأ يفرض تأثيره عليه،فشحب وجهـه، وتوسّع خيشوماه كحصان شرقي فحـل. ودلّ تسارع أنفاسه على ضربات قلبه الشديدة تحت الرداء القرمزي. وتعثّر نطقه بالكلمات. ولا غرابة في ذلك، مادام يشعر للمرة الاولى بقربه الشديد من ليفيا.

اضطربت أفـكاره، وأحس بسريان النار في عروقه، فلم يجده نفعاً احتسـاء النبيذ لإخمادهـا. ليس النبيذ ما أوقعـه في الثمالة، وفاقم من سكره، بل وجه ليفيـا البديع، وذراعاها العاريـان، وصدرها العذري المتموج تحت ردائها الذهبي، وسائر جسدها المتواري في ثنايا قميصها البوبلـين. وأخيراً أمسك بمعصمهـا، كما فعل مرة في منـزل أولوس، وجذبها نحوه، وهمس لها بشفتين ترتجفان :

ـ أحبك يا كالينا الالهيّة

ـ دعني أرجوك.

لكن الشاب لم يتوقف عن الكلام، وقد غلّفت عينيه غشاوة ضبابيّة :

ـ كالينا الالهيّة ! أحبيني أنت كذلك.

في هـذه اللحظة رنّ صوت أكتي المضطجعة في الجهة الاخرى من ليفيا :

ـ القيصر ينظر نحوكما.

فمـا كان من فينيكوس على حين غرة، إلّا أن ثار غضبا ضد القيصر و أكتـي. فما تفوهت به أكتي أفقده نشـوة السكرة. وإن كان كلامها وديًا، فقد اعتبره حتى هذه اللحظة عدائيًا، وشعر أن أكتي تتعمد تعكير صفو حديثه مع ليفيا.

رفـع رأسه، ومال مـن وراء كتف ليفيـا ليقـول للمعتوقـة الشابة بغضب :

ـ مضـى ذلـك الزمن حين كنـت تضطجعين في المأدبـة إلى جانب القيصر.

ويقال عنك أيضاً إنّ العمى يهددك، فكيف تلمحينه؟

فأجابت الفتاة حزينة:

ـ رغم ذلـك المحه... وهو أيضاً ضعيف البصـر، لكنه ينظر إليكما من خلال الزمرّدة.

مـا يفعلـه القيصر كان يولـد اليقظـة والاحتراس، حتـى في أضيق أوساطه. من هنـا نشأ قلق فينيكوس المشروع. هدأ واختلس النظرات نحـو القيصر. وكذلك فعلت ليفيا بفضـول، ووجل، رغم أنها لم تنظر ناحيته حتى الآن لانشغالها بالشاب وحديثه معها.

كانـت أكتـي تقول الحقيقـة. مال القيصـر فوق المائـدة، وأغمض إحـدى عينيه، ثم بإصبعين من أصابعه وضع المنظار الزمردي أمام عينه الثانيّـة وراح ينظر اليهما. كانت ليفيا أول مـن شاهدها، فانفطر قلبها مـن الذعر. تذكّرت تنانـين الحكايات في الطفولة. وأحسّـت أن تنّينًا أخضر العيون ينظر نحوها. ضغطت على يد فينيكوس كطفل مذعور،

وتلاحقت الخواطر المزعجة في رأسها. إذن هذا هو! الرهيب، القادر على كل شيء. لم تقع عيناها عليه حتى الان. كانت تتصوره على شاكلة أخرى، وجها مرعبا، وممكنا للشرور. لكن ما تراه الان ليس الا رأس ضخمة تعتلي عنقا ثخينا. صحيح أن المشهد كان مريعا، لكنه أيضاً مثير للضحك. لقد كان يبدو من بعيد برأسه هذه طفلا حقيقيا. رداؤه أرجواني اللون مشتق من لون الحجر الكريم الجمشت، ولا يجوز لأحد غيره من الفانين أن يرتدي مثيلا له. انعكس لونه على وجهه العريض القصير. شعر داكن حسب موضة أوثو بأربعة صفوف من البكرات. كان حليق الذقن بعد أن ضحى بلحيته لجوبيتر منذ وقت قريب، الأمر الذي لاقى استحساناً وحمداً ظاهريين في روما كلها، ولو أنهم قد اشاعوا في الخفاء، أن القيصر قد أقدم على هذه التضحيّة قبل أن يصبح صاحب لحيّة حمراء كسائر أفراد أسرته.

لكن السلالة الأولمبيّة كانت سمّة لا يمكن اللعب عليها، تبدت جليّة ببروز جبينه إلى أمام، وباتصال حاجبيه الموحي بالقدرة الكليّة. وأسفل هذا الجبين النصف الالهي امتد وجه قرد مضحك لواحد من الفاسقين الخليعين يوحي بمختلف الانفعالات والعواطف. كان وجها مكتنزا بدينا بدا عليه المرض رغم حداثة السن. قرأت فيه ليفيا عدوًّا، لكنها رأته منفّراً قبل أي اعتبار.

وبعد قليل أنزل نظارته الزمرديّة، و لم يعد ينظر ناحيّة الفتاة.

تمكنت ليفيا الان من رؤيّة عينيه الزرقاوين المنتفختين، وقد أغمضهما نصف إغماضة بفعل الاضواء المبهرة. كانت العينان زجاجيتين مطفأتين كأعين الموتى.

أما القيصر فقد التفت إلى بترونيوس ليقول له:

ـ أهذه هي الرهينة التي يحبها فينيكوس؟

ـ أجل

ـ ومن أي قوم؟

ـ من الليغوس

ـ وهل يجدها فينيكوس جميلة؟

ـ ضع أي رداء نسائي على جذع زيتونة عجفاء،سيراها فينيكوس جميلة. لكني استطعت من خلال تعابير وجهك، وأنت فنان لا يجارى في رفعة ذائقته، أن أقرأ رأيك فيها. فلا تتعب نفسك وتفصح عنه. طبعا. شديدة النحول! سقيمة! زهرة خشخاش حقيقيّة على ساق رفيعة. وأنت كخبير إلهيّ في الجمال تقوّم المرأة من خلال قدّها. وإنك لمحق في ذلك أضعافاً وأضعافاً. الوجه، منفرداً لا يعني شيئاً. لقد تعلّمت منك الكثير، لكني لم أصل إلى هذه الدرجة من النظرة الثاقبة، وصواب الرأي. أجرؤ أن أراهن إن كان أحد من كل هؤلاء المضطجعين في المأدبة، حتى توليوس، يستطيع أن يكوّن فكرة عن قدّها وهيئتها.لكني أجزم أنك تقول في قرارة نفسك "مؤخرتها أصغر ممّا يجب". فأجاب نيرون مغمضا عينيه نصف إغماضة :

- عجيزتها أصغر ممّا ينبغي

ارتسمت على فم بترونيوس ابتسامة لا تلاحظ. لكن توليوس الذي كان في هذه اللحظة يجادل فيستنوس، لا بل يشن هجومًا لاذعًا عليه، منتقصاً من قدر الأحلام التي يؤمن بها، التفت الآن نحو بترونيوس. وبما أنه لم يكن حتى ليخمّن مادّة الحديث الدائر قال:

ـ أنت مخطئ، وأنا رأيي من رأي القيصر.

فرد بترونيوس :

ـ حسنا. كنت أحاول أن أثبت أنك، رغم كل شيء، تمتلك قليلا من العقل. في حين كان القيصر يقول إنك حمار لا حيلة لتزويره.

ـ استحقها!

قال نيرون ضاحكا، وقلب إبهامه إلى أسفل، مثلما جرت العادة في السيرك، إشارة إلى أن المجالد قد جرح، وصار يستحق طعنة الرحمة.

أما فيستنوس فقد أكد أن الجدال كان يدور حول الأحلام، فقال:

ـ أنا أؤمن بالأحلام. و سينيكا أيضاً قد قال اليوم أنه يؤمن بها.

فمالت كالفيا على المائدة لتقول:

ـ حلمت ليلة أمس أنني صرت عذراء فيستا

صفق نيرون لهذا، وتبعه بالتصفيق آخرون. استمر التصفيق الصاخب لمدة، باعتبار أن كالفيا كريسبينلا امرأة طالق مرات عديدة، وقد اشتهرت في أرجاء روما بتسيبها الاخلاقي المتطرف. فلم تشعر بأي حرج، وتابعت تقول:

ـ وماذا بعد ! هؤلاء جميعا عجائز وقبيحون. روبريا الوحيد الذي يتمتع بسيماء إنسانيّة، وكان علينا أن نكون معا الان، لولا أن بثوراً تنفر في وجهه صيفا.

فقاطعها بترونيوس قائلاً :

- عذراً يا كالفيا العذراء. لكنك عذراء فيستا في منامك فقط.

- وإن أمر القيصر بذلك؟

- عندئذ سأؤمن أن أغرب الأحلام يمكن أن تتحقق.

فقال فيستنوس :

- تتحقق فعلا. أنا أتفهم أولئك الذين لا يؤمنون بالآلهة. لكني استغرب أن أحداً لا يؤمن بالأحلام.

فسأله نيرون :

- وماذا عن التنبؤات؟ تنبؤوا لي مرة أن روما ستمحى من الوجود، وأنني سأنصب حاكماً على الشرق كله.

علق فيستنوس قائلاً :

- التنبؤات والأحلام. هنالك علاقة تربطهما. ذات مرة قام أحد الحكام العسكريين، وهو من المتشككين الكبار، بإرسال رسالة مختومة إلى معبد موبسوس، محذرا حامل الرسالة أن يحاول فضها؟ أمضى العبد حامل الرسالة ليلته في المعبد لعل حالما يجيئه في المنام. ثم رجع إلى سيده. يقول :

جاءني في المنام شاب مضيئ كالشمس، وقال لي كلمة واحدة لاغير" أسود". شحب الحاكم لسماعة الكلمة، والتفت إلى ضيوفه المشككين من أمثاله وقال :

- أتعلمون ماذا كان في الرسالة؟

وقطع فيستنوس حديثه رافعا قدحه إلى شفتيه واجترع منه.

فسأله سينسيو :

ـ ماذا؟

ـ لقد سالت في رسالتي: أي عجل أختار للاضحية، أبيض أم أسود؟

لكـن التشويق الذي ولدتـه الحادثة في وجود الحضـور، قد أربكه فيتليوس الذي جاء المأدبة ثملا، وفرقع قهقهة فجائيّة لا سبب لها.

فسأله نيرون :

ـ و لم يضحك برميل الشحم هذا؟

فأجابه به بترونيوس :

ـ الضحـك يميز الانسان عن الحيوان، وهو لا إثبـات آخر لديه بأنه ليس خنزيراً.

كفّ فيتليوس عن الضحك. فغر شفتين لما عتين من الدهن والتبلة، وحـدق بالحضور مستغرباً، كأنه يراهم للمرة الاولى في حياته. ثم رفع كفّه المكتنزة، وقال بصوت أجش:

ـ سقط من إصبعي الخاتم الذي ورثته عن أبي.

وأضاف نيرون مكمّلاً العبارة:

ـ الذي كان اسكافيا.

لكـن فيتايوس كرّر قهقهته العاليّة، وبـدأ يفتش عن الخاتم في رداء كالفيا.

لكن نيجيديا العانس صديقة كالفيا علقت بصوت مرتفع :

- إنه يبحث عن شيء لم يفقده.

وعبّر الشاعر لوكانوس قائلاً :

- شيء لا فائدة منه حتى لو عثر عليه.

بلـغ جو المأدبة أوجه. جاء الخدم مـرة أخرى بأصناف جديدة من المآكل والشراب، وتساقطت الورود من الاعلى فوق الموائد والمدعوين والح بترونيوس راجيا نيرون أن يتحف حفل المأدبة بغنائه قبل أن يودي اجـتراع الشراب بالحضور، ويوصلهـم إلى الثمالة، فاستحقت الفكرة الدعـم من الجميع، لكن نيرون أبى ذلك معتذرا. ولا يعود اعتذاره إلى خشيته، وعدم جرأته على الغناء، بقدر ما يعود إلى رفضه الأمر لأسباب تتعلق بجودة صوته.

صحيـح أنـه لا يريد أن يتملص من هذه المهمة الموكلـة اليه خدمة للفن، خاصة وأن أبولو قد من عليه بقدر من الصوت الحسن،ولا يجوز له أن يضيّع، ولا أن يستهين بهذه النعمة التي منحتها الالهة. وهو يدرك أن ذلك لزام عليه أمام الحكومة، لكن صوته هذا اليوم أجش، ولا ينفع في الواقع للغناء.

في الليل وضع على صدره أثقالا من الرصاص، فلم تنفعه. حتى أنه فكر في السفر إلى الأنتيوم لاستنشـاق الهواء البحري. لكن لوكانوس الـح عليه أيما الحـاح باسم الفـن والانسانيّة. ما من أحـد الا ويعلم أن

الشاعـر، والمغني الملهم قد الـف في مديح فينوس نشيـدا إذا ما قورن بـه نشيـد لوكرتيوس كان الاخـير أشبه بعواء جرو ذئـب. فلتكن هذه المأدبـة عيدا حقيقيا. فمن غير المعقـول، ولا الجائز أن يقوم حاكم بهذا الصلاح، بتعذيب محكوميه لهذه الدرجة.

ـ لا تكن قاسيا يا قيصر!

فردد كل الجلساء هنا:

ـ لا تكن قاسيا

ففتح نيرون ذراعيه إشارة إلى أنه مرغم على القبول.

أبدت الوجوه علائم الامتنان، وتوجهت اليه كل الانظار.

كان القيصر قد أبلـغ بوبيا من قبل أنه سيغني، لكنه راح الان يشرح للحضـور أنها متوعّكة، و لم تـأت إلى المأدبة، رغم أن ما تستخدمه من علاجات طبيّة لم يكن يريد أن يحرمها من هذا الحفل.

لكن بوبيا سرعان ما حضرت.

كانـت بوبيا تسيطر على نيرون كل السيطـرة، كأنه أحد رعاياها. ولكنهـا، حفاظا علـى ما يمتلك مـن أحاسيس تجاه مواهبـه من شعر، وغنـاء، وقيادة عربات، رأت أن لا سبيل لمس هذه الأحاسيس بالأذى. فكان أن جـاءت إلى المأدبة بكل هذه الروعة، كالهة شقراء، في جيدها عقد من اللالئ الضخمة هو من غنائم الحرب في ماسينيا. وعلى الرغم من أنها امرأة طالق مرتين من رجلين آخرين، فقد بدت عذراويّة نضيرة الملامح.

" يا أوغستوس الالهي". عبارة صدحت عاليا ترحيبا بها.

لم تصدق ليفيا ما رأته عيناها من هذا الجمال الخارق، الذي لم تشهده له مثيلا من قبل، خاصة وأنها تعلم أن بوبيا إحدى أتفه و أرذل نساء الكون. لقد سمعت من بومبونيا أنها من حرضت القيصر لاغتيال أمه وزوجته. ولقد عرفتها أيضاً من خلال أحاديث ضيوف أولوس وخدمه.سمعت أن تماثيلها تحطم ليلا في المدينة. وسمعت المناشير التي كانت تشاهد كل صباح على جدران المدينة، تدينها بأقسى الاتهامات. وهاهي ذي الان وجها لوجه أمام بوبيا الذائعة الصيت، التي يعتبرها أتباع كريستوس المسيح تجسيدا للرذيلة. لكنها مع ذلك لم تطرف، و لم تغض البصر عنها، لأنها بكل بساطة، لم تقو على ذلك. وافترت شفتاها عفويا بالسؤال :

ـ ما الذي أراه يا فينيكوس؟ أيعقل هذا؟

لكن الشاب، قد أسكره شرب النبيذ، كأنما فقد بصره، وأزعجه أن محبوبته

تنشغل عنه وعن حديثه بأمر آخر، فأجاب:

ـ أجل إنها جميلة. لكنك أجمل بالف مرة. أنت لا تعرفين نفسك، ولو عرفتها لوقعت في غرام نفسك مثل كنارسيوس... هي تستحم بحليب الحمير، وأنت تستحمين بحليب فينوس نفسها يا نور عيني.

لا تنظري نحوها. خلي عينيك علي، يا ضوء عيني، ولامسي بشفتيك حافة القدح لتذوب شفتاي هناك.

وجر نفسه ليقترب أكثر فأكثر، فتراجعت ليفيا نحو أكتي. وفي هذه اللحظة أشير إلى الجميع أن يلتزم الصمت لأن القيصر انتصب واقفا.

ناولـه المغني ديودورس الة العـود المثلثيّة الشكل، بينمـا تقدم تربنوس بالتـه الوتريّة نابليوم ليرافق القيصـر بالعزف. أسند القيصـر التهه المثلثيّة علـى المائـدة، ورفع عينيه. وسـاد لمدة صمت لم يعكـره الا خشخشة الورود المتساقطة من الاعلـى دون انقطاع. وبصحبة الالتين الوتريتين بـدأ القيصر الغناء، ومن الافضل القول بدأ أداءه الغنائي الايقاعي لنشيد فينوس. لم يكن الصوت المشوب بشيء من البحة متصفا بأدنى حد من الـرداءة، وكذلك الشعر. فشعرت ليفيا مرة أخرى بتأنيب الضمير بعد أن وجـدت النشيد الذي يمجد فينوس الوثنيّـة رائعا. وكذلك القيصر، فقـد بدا بشمـوخ رأسه، والاكليل حول جبينه، أكـثر رفعة ورقيا، و لم يكن بتلك البشاعة التي ميزته في بدايّة المأدبة.

كان رد الحاضريـن بعاصفة من التصفيق. وسمعت هتافات جاءت من كل صوب " ياللصـوت السماوي ". ورفعت بعض النساء أياديهن عاليًـا تعبيرا عن إعجابهنّ الشديد، وبقين كذلك حتى بعد نهايّة الغناء. وراحت نساء أخريات يجففن دموعهن، فبدت الصالة خليّة نشطة من النحل.

أحنـت بوبيا الشقراء رأسهـا الصغير، ورفع نيرون يديـه إلى شفتيه وأبقاهما مرة هناك دون أن يتكلم. أما الشاب الإغريقي الفائق الوسامة والجمـال بيتاغوراس وهـو نفسه الذي نيرون النصـف مجنون، وبارك الفلامنكبـين.بما يستوجـب الطقوس كاملة فقد جثـا الان على ركبتيه أمام نيرون.

لكـن تبررونيوس التفت نحـو بترونيوس مشوقـا إلى إطرائه فكان رده:

ـ أمـا مـا يخص الموسيقا، فلابـد أن أولوس الآن شاحب من شدة

خجلـه، وكذلك لوكانوس الموجود هنا. أما عن الشعر فيؤسفني أنه وإن كان ليس أضعف من سواه من الشعر، لا أملك كلمات لامتداحه.

لم يغضب لوكانوس من استهدافه، وإثارة غيرته، بل كان منه أن رمق بترونيوس بنظرة امتنان، وغمغم بشيء من الانزعاج

ـ اللعنة على قدر حكم علي بأن أكون من أتراب شاعر عظيم. ولولا ذلك لأتيح له أن يبقى في الذاكرة الشعبيّة. ولكن قدره الان أن يصبح هامشيا كمشعل للنور إلى جانب الشمس.

واستشهد بترونيوس الذي يتمتع بذاكرة وقادة بمقاطع من النشيد مرددا بعض الابيات الشعريّة ليثني على أجمل العبارات فيها. أما لوكانوس، وكأنه قد تخلى عن إحساس الغيرة، بما أوقعته جماليّة الشعر من تأثير في نفسه، فقد تجاوز عبارات بترونيوس الاطرائيّة. وشع وجه نيرون بسيماء هي خليط لاقرار له من اللذة والزهو بلغا به حد البلاهة. ثم لفت الانتباه إلى أجمل الابيات في اعتباره. وواسى لوكانوس مشجعاً إيّاه الا يفقد حماسه، فليس بمقدور المرء أن يكون سوى ما قد ر له أن يكون، وإن القرابين إذا ماقدمت إلى جوبيتر لاتغني عن تقديمها إلى الهة أخرى كذلك.

قال ذلك ونهض واقفا ليرافق بوبيا التي كانت مريضة حقا، وأرادت أن تنسحب، طالباً من المدعوين المتبقين العودة إلى المأدبة لأنه سيرجع اليهم. وسرعان ما عاد ليستنشق ما يجود به المتملقون من عبق المديح، ويستمتع بما تبقى من البرنامج الذي أعده لهذه المأدبة بمشاركة كل من بترونيوس و تيغالينوس. وأنصتوا من جديد لما أنشده من شعر، وخاضوا في أمور غريبة بعيدة عن براعة الحديث. ثم جاء باريس أشهر الممثلين ولعب مغامرات ابنة إنا كوس. لم يالف الحاضرون، ومن بينهم

ليفيا خاصة، مثل هذه المشاهد التي بدت للجميع كأنها عجائب سحريّة.

كان باريس بارعاً في أداء حركات إيحائيّة يعجز الرقص أن يعبر عنها.

بحركات يديه شكل من الهواء سحابة كثيفة مبهجة أخّاذة، لها قابليّة الحركة والاهتزاز، راحت تعانق قدًّا أنثويًّا كان يرتعش تحت تأثير العناق. لم يكن العرض من النوع الراقص، بل مشهداً سحريًّا خليعاً في غاية الجمال، فشى أسرار الحب.

وبعد الانتهاء من اللوحة الايمائيّة الراقصة، دخلت جوقة سيبيل بالاتها الموسيقيّة من قيثارات، ونايات، وطبول، وصنوج، وأدت بمشاركة الفتيات السوريات رقصة باخوس، بكثير من الصياح والصخب. أحست ليفيا أن نيرانا حيّة ستندلع حالا، وتقوم بشيّها، وأن صاعقة ستجتاح هذا المنزل، ويتداعى سقفه فوق رؤوس المدعوين.

لكن لم يتساقط من الشبكة الذهبيّة المشدودة تحت السقف، غير الورود: خاطبها فينيكوس وقد انتشى سكرا :

ـ رأيتك قرب النافورة في منزل أولوس، وأحببتك. كان الوقت فجراً، وكنت تظنين أن لاأحد يراك. لكني رأيتك. ومازال طيفك، وأنت في قميصك، ماثلا أما عيني حتى الان. الالهة كما البشر ينشدون الحب جميعا. لا شيء في الحياة يفوق الحب. أسندي رأسك على صدري، وأغمضي عينيك.

شعرت الفتاة أن قواها تجتمع في قبضتها، وتنبض في صدغيها. كان شعورها أنها تهوي في هوة سحيقة. فينيكوس الغريب، الحميم، الثقة، الذي وجدت فيه منقذا، يشدها أكثر، ويدفعها إلى الهاويّة.

شعـرت بوطأته،وعبئه عليها، وساورتهـا الخشيّة منه، ومن المأدبة، وحتى من نفسها.

صـوت أشبه بصوت بومبونيا مـا يزال يصرخ في صميمها " اهربي يـا ليفيا". لكن شيئاً وشوشهـا قائلاً : لقد فات الاوان. ولا مناجاة لك بعد الان.

سـاءت حالها تماماً، وأحست بالغثيـان، وبأن شيئـاً مريعا سوف يحدث، كانت تعرف أنها ستثير غضب القيصر ضدها، إذا ما غادرت المكان قبل إعلانه انتهاء المأدبة. فلم تفعل، خاصة وأن قواها قد خارت.

لكن نهايّـة المأدبة كانت بعيدة. فالعبيد مازالوا يأتون بالاطايب من كل صنف، ويملؤون الاقداح الفارغة. وظهر أمام الموائد المصفوفة على شكل نضوي مصارعـان سرعان ما تشابكا لتسليّـة الضيوف. تلاحم جسداهما الضخمان الملتمعان بالزيـت، فاستمتع الجميع أيما استمتاع بالنزال الذي لم يدم طويلاً، لأن كروتون وهو أقوى مصارعي روما بلا منـازع، وقائد مدرسة من مدارس المجالدة مـا لبث أن أطاح بخصمه الـذي تسارعـت أنفاسه، وازرق وجهه، وانبثق الـدم من فمه، ثم خرّ أرضا.

لوقيـت نهاية المنازلة بعاصفة مـن التصفيق، في حين راح كروتون وقد وضع رجله فوق ظهـر خصمه، و صالب يديه فوق صدره يجيل النظر مزهوًا في أنحاء الصالة.

وبعـد ذلـك، جـاء دور الكوميديـين الذيـن يقلـدون الحيوانات والأصـوات الحيوانيّـة، والمهرجون، لكـن الضيـوف لم يلتفتوا اليهم كثيرا، لأن النبيـذ كان قد أزاغ أبصارهم. كانـت المأدبة قد استحالت شيئاً فشيئـاً إلى احتفال مخمور صاخب. فالفتيـات السوريات اللواتي

أدّيـن رقصـة باخوس توزعن بـين المدعويـين، واستحالـت موسيقا القيثـارات والاعواد، والصنوج الارمينيّـة، والالات المصريّة، إلى مجرد قرقعـة صاخبة. فإذا مـا رغب المدعوون بالتحادث اضطـروا أولاً إلى قذف الموسيقيين بالشتائم طالبين منهم المغادرة.

تطايرت الزهور في الهواء، وامتلأ الجو بعبق الزيوت العطريّة، التي لم ينقطـع الفتيّـة الصغار الجميلون عن رذها بـين المدعوين طوال فترة المأدبـة، فعبقت رائحـة الزعفران، واختلطت برائحـة الانفاس، حتى بات الجـو خانقاً، وأضحـت المصابيح تنشـر أنواراً باهتـة، وانزلقت الاكاليل على الجباه، وشحبت الوجوه، وتعفّن العرق فوقها.

هبط فتليوس تحـت الطاولة، وأسندت نيجيديـا المخمورة النصف عاريّـة رأسهـا الطفولي على صـدر لوكانوس المخمـور كذلك، فراح يطرد مسحوق الزينة الذهبي عن شعر المرأة، مبديا سعادة فائقة.

أمـا فيستنوس فقد كرر بدهـاء السكّـير، ردّ موبسوس على رسالة الحاكـم العسكري، ليجيبـه توليوس الشكاك بصـوت متقطع بفعل الحازوقة :

- إن كان سفيروزا دائريا، فباستطاعة المرء أن يدحرجه أمامه كبرميل.

لكن دوميتوس آفـر النمّام العجوز، فقد بلغ غضبه إثر هذا الحديث حـدا جعله يبلـل ملابسه بالنبيـذ الغالرنوسي. كان دائمـا من المؤمنين بالآلهة. يتناقـل الناس أن روما سوف تتدمر، وهنـاك من يقول أن هذا الدمار قد بدأ من الان. وهذه حقيقة...

لكـن لو حدث ذلك، فلن يحدث الا لأن جيل الشباب غير مؤمن. فلا قوة لأحد دون إيمان. حتى أنهم قد تخلوا عن الاخلاق الاصيلة.

ولايكترث أحد من بينهم بأن الابيقوريين لن يحموا البلاد من البرابرة. لا جدوى. لكم يؤسفه أنه يعيش أزمنة يلوذ فيها الناس بالمتع هروبا من المآسي التي تحيق بهم.

واجتذب إليه راقصة سوريّة مهيلاً بفمه الأدرد القبلات فوق عنقها وكتفيها. حين رآه القنصل ريغولوس انفجر ضاحكاً ثم قال وهو يضع الأكليل على رأسه :

ـ من يقول إن روما سيلحق بها الدمار؟ حماقة!... أنا كقنصل، أعرف أكثر من الجميع... ثلاثون فيلقا يتولون حمايّة روما.

ورفع قبضته صائحا ليسمع كل من في الصالة:

ـ ثلاثون فيلقا ! ثلاثون فيلقا ! على طول الحدود من بريطانيا حتى البارثيين!

ثم وضع سبابته على جبينه مستنكراً، وأردف يقول بصوت مرتفع :

لا أدري إن كانوا اثنين وثلاثين فيلقاً.

لكن هذا العدد من الفيالق والالويّة لم تطمئن دوميتوس ، وظل مصرا على أن روما ينالها الدمار في ظل غياب الايمان بالالهة، وفي ظل قساوة الاخلاق السائدة. لابد من دمار روما،رغم الخسارة الكبيرة الناجمة عنه،لأن الحياة جميلة، والقيصر صالح ورحيم، والنبيذ لذيذ...يا لها من خسارة كبرى !

ثم دس رأسه في حضن الفتاة السوريّة، وانفجر باكيًا يقول:

ـ ما الجدوى من الحياة الاتيّة؟ آخيل كان محقا بقوله: فقير تحت ضوء الشمس أفضل من حاكم في العا لم السفلي.

كان لوكانوس قد أزال كل المسحوق الذهبي عن شعر نيجيديا التي أكثرت من شرب الخمر، واستسلمت للنوم. أخرج غصون اللبلاب من إناء الزهر أمامه وغطى بها المرأة النائمة.

ـ أنا لست إنسانا، بل فاون اله حقول

لم يصل بترونيوس إلى حد السكر. أما نيرون الذي تحفظ منذ البدايّة حرصا على صفاء صوته السماوي، فلم يشرب الا القليل. حتى أنه أراد أن يتابع الغناء فحاول بالاشعار الإغريقيّة، لكنه لم يفلح لأنها غابت عن ذاكرته، فطلع عفويا بأغنيّة أنا كرونيّة رافقه بأدائها كل من فيثاغوراس، و ديودروس و تبرنبوس. وبما أنهم فشلوا جميعا فقد كفوا عن الغناء. أما نيرون الخبير، والفنان، فراح يثني على جمال فيثاغوراس ويقبل يدها. لقد رأى في السابق جمالا يمثل جمال هذه اليد... لكن أين؟ ويد من كانت؟

وضع يده على جبينه المتعرق مستفكرا، وسرعان ما شع وجهه بالخوف.

آها. آها. كانت يد أمه أكريبينا.

ودهمته بغتة صور قاتمة.غمغم:

ـ يقال ان روحها في الليالي المقمرة تطوف حول بايا و باولا... وكانها تبحث عن شيء ما. وكلما اقتربت من قارب للصيد نظرت داخله ثم تابعت التطواف. لكن كل من تراه من صيادي القوارب يموت في الحال.

فأوجز بترونيوس قائلاً :

ـ موضوع حديث ليس سيئا.

مد فيستنوس عنقه كمالك الحزين، وهمس خفيّة :

ـ أنا لا أؤمن بالالهة، لكني أؤمن بالارواح.

لم يكترث نيرون بذلك وتابع كلامه :

ـ إنني أبارك أعياد أرواح الموتى، وأقدس ذكراها. لم أشأ أن أراها. مضى خمس سنوات على موتها... كان علي ذلك، كان علي أن احكم عليها لأنها أرسلت من يقتلني. ولو لم أستبق الأمر، لما تسنى لكم الان أن تسمعوا غنائي.

فصاح دوميتوس أفر :

ـ حمدا لك يا قيصر باسم المدينة والعالم بأسره.

ـ هات النبيذ ولتقرع الطبول!

واندلع الضجيج مجدّداً، بينما راح لوكانوس يصرخ بأعلى صوته:

ـ أنا لست إنساناً بل فاون. الغابة مكاني.

وفي النهايّة انطفأ القيصر من السكر. ومثله سائر الرجال والنساء، وكذلك على الأقل كان حال فينيكوس، إضافة إلى ما تولّد فيه من رغبة في الشجار، كحاله على الدوام حين يتجاوز حدّه في الشرب.

بات وجهه أكثر شحوبًا، وتلعثم بالكلام حين قال بصوت آخر:

ـ هاتي فمك! اليوم أوغدا لا فرق! كفى من كل هذا. القيصر أتى بك من عند أولوس ليهديني إياك. أتدرين؟ غدا عند الغروب سأرسلهم من أجلك اتفهمين؟ لقد وعدني القيصر حتى قبل أن يأتي بك... ستكونين لي. هاتي فمك لا أريد الانتظار حتى الغد.

هاتي فمك هيا.

وعانقها. لكن أكتي استنفرت حالاً لحمايتها. وصدّته ليفيا بما لديها من قوة، لأنها شعرت أن الأرض ستبتلعها.

لكن محاولتها خابت، و لم يجدها نفعا كل ما بذلته من قوة صد متبقيّة لديها. خاب ذراعاها وهما يدفعان ذراعي الشاب الأملسين.

خاب صوتها المرتعش وهي تصدّه راجية إياه أن يرأف بها. صارت أنفاسه العابقة برائحة النبيذ تقترب من أنفاسها حتى لامس بوجهه وجهها. لم تعد الفتاة تراه ذلك الشاب اللطيف المقرّب إلى روحها، بل وجدت فيه سكّيراً شريراً ملأها بالقرف والرهبة.

وأشاحت بوجها محاولة تجنب القبلة، لأن الشاب كان قد نهض واجتذب رأسها بكلتا يديه نحو صدره، والصق فمه بشفتي ليفيا الشاحبتين المنكمشتين. وفي هذه اللحظة أحس بقوة هائلة تضغط على يديه، وتبعدها عن عنق ليفيا. ما الذي حصل؟ أدار فينيكوس عينيه الذاهلتين ليرى عملاقا إلى جانبه. كان أورسوس الليغوي الذي تعرّف به في منزل أولوس.

انتصب الليغوي هناك بكل هدوء، ولكنه رمق فينيكوس بنظرة مستغربة صدرت من عينيه الزرقاوين فجمد الدم في عروقه. لف الليغوي فتاته الملكيّة بذراعه،وغادر بها التريسيلينوم بخطوات ثابتة وخافتة.

تسمّر فينيكوس للحظة في مكانه. ثم قفز مندفعا نحو الباب.

- ليفيا ! ليفيا !

لكن مزيجا من الرغبة الحسيّة، والذهول، والغضب الوحشي والنبيذ قد أوهن قدميه، وصار يترنّح. وفيما بعد ضغط على ذراع المرأة الباخوسيّة وشالها.

- ما الذي حصل هنا؟

تناولت إبريقا من النبيذ، وقدمته له بعينين ضبابيتين باسمتين

- اشرب

أتى فينيكوس على مافي الإبريق وانطلق.

كانت الغالبيّة العظمى من الضيوف قد اضطجعت تحت الموائد، وقام آخرون بالتنقل بخطوات مترنحة في التريسلينوم، وغط سواهم في النوم على الديوانات قرب الموائد، فيما كانت الورود تنهال متساقطة من الشباكِ الذهبيّة المشدودة في السقف فوق المدعوين الثملين من قناصل، وسيناتورات، وفرسان، وشعراء، وفلاسفة، وراقصات. وفوق هذا العالم الذي مازال كلي القدرة، ولكنه بات عديم الروح ولو أنه مازال مزخرفا بالاكاليل.

وفي الخارج كان الفجر ينبلج.

٨

لم يقــف أحــد في طريق أرسوســ، و لم يوجّه له ســؤالاً عما يفعل. وأولئــك المدعــوون الذين لم يتمــدّدوا بعد تحت الطــاولات، لم يبقوا في أماكــن جلوسهــم. وعناصــر الخــدم، وقــد رأوا العمــلاق محتضنا الفتــاة الضيفة، ظنــوه واحداً من العبيد يأخذ سيدتــه الثملة من المأدبة. خاصــة وأن أكتي كانت برفقتهما، الأمر الــذي أبعد كل شك قد ينشأ بخصوصهما.

وهكذا فقــد خرجا متوجهين إلى الغرفة المجــاورة. بينما انعطفت أكتي وسلكت الممشى المؤدي إلى منزلها.

كانــت ليفيا خائرة القوى إلى حد أنهــا القت بثقلها كله على ذراع أرسوســ ، لكــن لفحة النسائــم الصباحيّة النقيّة المنعشــة جعلتها تفتح عينيهــا. كان الفجر قد انقشع في الخارج. سارا بمحاذاة صف العمدان المؤدي إلى حديقــة القصر، حيث كانت أشجار السرو قد لونتها حمرة الفجر.

كان هذا الجانب من البناء خاليا تماماً ، وضجيج الموسيقا والمدعوين قــد تخامد. شعــرت ليفيا أنهــا تخلصت من الجحيــم، وأصبحت في ملكــوت الله المشرق. ورغم ذلك، كان ثمة خــارج التريسلينيوم شيء يدعو إلى الاشمئزاز. السماء، شفق الفجر، الضوء، السكون. انفجرت الفتاة بالبكاء، واستجارت بالعملاق قائلة:

ـ إلى المنزل يا أرسوس، إلى المنزل، إلى عند أولوس.

ـ نحن ذاهبان إلى هناك.

لكنهما دخلا إلى غرفة من غرف منزل أكتي.

وهناك، أجلسها على مقعد رخامي قرب النافورة.

راحت أكتي تهدئ من روعها، وتقنعها بأن تستلقي، مؤكدة لها أن لاشيء يهددها حاليا، لان المدعوين الثملين باتوا جميعا يغطون في النوم. لكن ليفيا ظلت طويلاً مضطربة تضغط براحتيها على صدغها، وتقول كطفل صغير:

ـ إلى المنزل، إلى عند أولوس.

كان أرسوس مستعدا لذلك، وكان بإمكانه أن يعبر المداخل رغم وجود الحراس هناك. فالجنود لا شأن لهم بالمغادرين، ولا يمنعون أحدا من الخارج. ولقد ركن أمام المدخل الكثير من الهوادج. فبوسعهما إذن أن يخرجا من هذه الحشود المغادرة، ويتوجها إلى المنزل. وفي كل الاحوال لاهم في ذلك فما تأمر به السيدة الملكيّة، على الجميع أن يخضعوا له. ولهذا هي الان هنا.

أما ليفيا لم تكف عن الحاحها قائلة:

ـ هيا يا أرسوس، لنذهب

وكان على أكتي أن تستخدم ذكاءها

أجل كان خروجهما أمرا يسيرا، ولن يوقفهما أحد. لكن الهرب من منزل القيصر أمر غير جائز. ومن يقدم عليه يمحقه القيصر. أجل يخرجان، لكن قائد المئة سيتقدم على رأس دوريته، وبيده حكم الاعدام لكل من أولوس و بومبونيا. وسيعيد ليفيا إلى القصر.

وعندئذ لا منجاة لها حقا.

فتلت ليفيا راحتيها حائرة لا تدري ماذا تفعل. عليها أن تختار. إما عائلة أولوس أو ضياعها. لقد حضرت المأدبة بأمل أن تعود إلى بومبونيا بعد أن يطلبها بترونيوس و فينيكوس من القيصر.

لكــن النتيجة كانت عكس ذلك تماماً. لقد اقتادها القيصر من منزل أولوســ بناء على طلبها. ولا منجاة لهــا الان الا بأعجوبة،أو بعون من الله.

قالت ليفيا يملؤها القنوط:

ـ أكتــي! أسمعت ما قاله فينيكوس. القيصر سيقدمني هديه له. وأنه في المساء سيرسل من أجلي ليقتادوني إلى منزله.

ـ سمعته.

أجابــت أكتي ولزمت الصمت. فالحيرة التي تخللت كلام ليفيا، لم تلــق صدى في نفسها. ولهذا أسبابــه. الم تكن عشيقة نيرون؟ صحيح أنهــا طيبة القلب، لكنها لا تحتمــل أن تسترجع الخزي الذي الحقته بها هذه العلاقة.اليست في النتيجة فتاة من فئة العبيد؟

لقد الفت القوانين المتعلقة بالعبيد، ووضعت ذلك في حسبانها. ثم أنهــا مازالت حتى الان تحب نيرون. فإن مــا رغب القيصر في ان يعود إليها ستفتح له صدرها رحبا، وبمنتهى السعادة والفرح: فلم تتقبل إذن ما تلغو به ليفيا حائرة بــين أن تكون عشيقة فينيكوس الشاب الوسيم، وبين أن تضحي بنفسها، وبعائلة أولوس.

فقالت أخيراً :

ـ حتى في منزل القيصر لن تكوني بذلك الأمان

وخطـر لهـا: إن صح ما تقوله فإن كلامها يعنـي : " صوني قدرك، وكـوني عشيقـة فينيكوس ". لكن الفتاة كانت ما تـزال تشعر بقبلات الشاب الحيوانيّة الشبقة تكوي شفتيها كالجمر، ويحمر وجهها خجلا.

فانفجرت زاعقة :

ـ أبدا. لن أبقى هنا، ولن أذهب مع فينيكوس أبدا. أبدا.

استغربت أكتي تمردها هذا، فسالتها:

ـ الهذه الدرجة تكرهين فينيكوس؟

لكنهـا لم تقو علـى الاجابة، لأنهـا انفجرت ثانيّـة بالبكاء. وحين ضمتهـا أكتي إلى صدرها، هـدأت. ولم يكن من أرسوس إلا أن ضم قبضتيـه الضخمتين من شـدة غيظه، لأنه كان يكن للمـرأة الملكيّة حبا وفيا وفاء كلب لصاحبه. وقد شق عليه رؤيّة دموعها.

تملكـت قلبه الليغوي الساذج رغبة في أن يعـود إلى الصالة، ويقوم بخنـق فينيكوس، بل والقيصر كذلك، لكنـه لم يجرؤ على الجهر بهذا أمـام سيدته. أما أكتي وقد ضمـت ليفيا اليها، فتوجهت اليها بالسؤال ثانيّة :

ـ أتكرهين فينيكوس كل هذا الكره؟

فأجابت ليفيا :

- لا. لا يجوز أن أكن له الكره لأني مسيحيّة.

ـ أعلم يا ليفيا. وأعرف من خلال رسائل بولس الترسوسي أنه يحرم عليكـم الوقـوع في العار. وأنكم لا تخافون المـوت أكثر من الخطيئة. لكن قولي لي إذا ما كانت تعاليمكم تسمح لكم بالقتل.

ـ لا.

ـ إذن كيف لك أن تعرضي عائلة أولوس لنقمة القيصر؟

ساد صمـت لحظي. وانشقت أمام ليفيا مـن جديد هوة سحيقة لا قرار لها.

لكن المرأة الطليقة تابعت تقول:

ـ أسالـك حرصـا عليك،وإشفاقا علـى بومبونيا الطيبـة، وأولوس وطفلهما. أقيم في هذا المنزل منذ مدة طويلة، وأدرك أي خطر يهددك جـراء غضب القيصر. لا. لا يمكـن أن تسلموا بجلدكم. لم يبق أمامك سوى حل وحيد، هو أن تطلبي من فينيكوس أن يعيدك إلى بومبونيا.

لكـن ليفيا جثت راكعة تتضرع إلى أحـد آخر،وتبعها أرسوس بعد قليل.

وبدأ، عند الفجر، يصل يان هنا في منزل القيصر.

كانـت هذه المـرة الاولى التـي ترى فيهـا أكتي صلاة كهـذه. فلم تحتمـل أن تشيح بعينيها عن ليفيا الراكعة رافعة الرأس، فاتحة يديها نحو السمـاء، كأنما تنتظر منجاة تهبـط اليها من هناك. كان ضوء الفجر ينير شعرها الفاحـم، ورداءها الابيض، ويشع منعكسـا من عينيها، فبدت تحت النور كأنها هي النور.

وكان في هذا الوجه الشاحب، والفم الفاغر، والذراعين المرفوعين، والعينين المتسمرتين المحدقتين نحو الاعلى، شيء من الجذل والنشوة.

أدركـت أكتي الآن أن ليفيـا لا يمكن أن تكـون عشيقة أحد. كان نيرون امام عشيقته ستارة قاتمة حجبت عنها عالما آخر، غير الذي كانت تالفه. أذهلتها هذه الصلاة، هنا في منزل العار والخطيئة.

كانـت حتى الان، ما تـزال تعتقد أن لا خلاص أمـام ليفيا، لكنها بـدأت تـدرك الان أن أمـرا استثنائيا يمكن أن يحصـل، ويجيئها ذلك العـون الاعجازي الذي لا يـرد حتى بقوة القيصـر. جيش مجنح يهبط اليها مـن السماء. والشمس تفرش أشعتها تحتهـا، وتلتقطها صاعدة بهـا إلى السمـاء، لقد سمعت بالكثير مـن الأعاجيب التي حصلت في الأرجاء المسيحيّة. وبدأت الان تصدقها أمام مشهد الفتاة المتعبدة.

نهضـت ليفيا يشـع وجهها بالامـل. ونهض أرسوسـ كذلك، ثم جلس قرب مقعد صغير يترقب أوامر سيدته.

لكـن غشاوة كانـت تغلف عيني الفتاة، وانهمـرت منهما قطرتان كبيرتان من الدمع سالتا على وجهها. قالت:

ـ بـارك الله بومبونيا و أولوس. لا يحق لي أن الحق بهما الاذى. إذن لن تراهما عيناي بعد الان.

ثـم التفـت إلى أرسوسـ، وأوضحت له أنـه المتبقـي الوحيد لها، وسيكون من الآن فصاعدا، ولي أمرها وأباها في نفس الوقت.

وليسـ لهمـا بعد الان أن يلجـأا إلى أولوس و بومبونيـا تجنبا لنقمة القيصر. لكنها لن تبقى لا في منزل القيصر، ولا حتى في منزل فينيكوس.

وطلبت من أرسوس أن يخرجها من المدينة، وينأى بها بعيدا عن أنظار فينيكوس وخدمه. وهي على استعـداد للذهاب معه أينما يشاء خارج حـدود حكم القيصر، حتى إلى ما وراء البحار والجبال إلى حيث البربر الذيـن لم يسمعوا باسم روما والرومان، ولا يطالهما أحد. فليمض بها بعيدا وينقذها، لأن أرسوس المتبقي الوحيد لها.

كان الليغـوي جاهـزا للقيام بأي شيء. وللدلالـة على طاعته، فقد انحنـى يعانق قدمي الفتاة. أما أكتي التي كانت تنتظر حدوث معجزة، فقـد انعكست على وجهها ملامح الخيبـة. أهذا هو كل ما تستطيع أن تفعله هذه الصلاة؟ الهروب من منزل القيصر يعني ارتكاب إثم كبير هو تحدي الهيبة. وهذا فعل لا يمر دون نقمة. فإن تمكنت ليفيا من الاختفاء فـإن القيصر يفرغ نعمته في وجه عائلة أولوسـ. فإن أرادت أن تهرب فلتهـرب من منزل فينيكوسـ لأن القيصر لا يحـب أن ينشغل بقضايا الاخريـن، وقد لا يسانـد فينيكوس في ملاحقتهـا، لأن فعلتها هذه لا تمس جلالته في شيء.

وكان هـذا مـا فكرت به ليفيا أيضاً، إضافـة إلى أنها لن تخبر حتى أولوسـ و بومبونيا أين ستكون. ثم إنها لن تهرب من منزل فينيكوس، بل في أثناء توجهها إلى هناك. لقد أخبرها الشاب أنه سيرسل أرقاءه من أجلهـا مساء. وقد أخذت كلامه على محمـل الصدق مادام قد تلفظ به في حالة من الثمالة جعلته يبوح بمكنونات نفسه. قد يكون فينيكوس و بترونيوسـ سويًا قد قابلا القيصر قبل المأدبة، وحصلا على وعد منه بأن يطلـق سراحها في المساء، فإن أهملا أمرها هـذا اليوم، فلن ينسياه غدا بكل تأكيد.

لكن أرسوس سينقذها فيمـا بعد. ولكن ربما أن فينيكوس قد يعمد

إلى إرســال عدد كبير من رجاله الأرقّاء، فـإن أرسوس سيقصد الكاهن لينوس ويطلب منه النصح والعـون. وسيقوم الكاهـن بتلبيّة الطلـب، ولـن يدعها في قبضة فينيكوس، وسيـد ع المسيحيين يذهبون لمساعدة أرسوس. سيحررونها،ويسلمونهـا إلى أرسوس الـذي سيتمكن من إبعادها عن أنظار الحكم الروماني.

دهمتهـا موجة من الاحمـرار، وابتسمت. استردت الثقة، وكأن الامـل بالهروب قد استحال إلى أمر واقع. مدت نفسها إلى عنق أكتي، وضغطت بشفتيها الرائعتين فوق وجهها، ووشوشتها قائلة :

- لن تشي بنا يا أكتي اليس كذلك؟

فأجابتها أكتي:

- أقســم بطيف أمي أننــي لن أشي بكما. لكن توجهــي بالدعاء إلى ربك أن يتمكن أرسوس من تخليصك منهم.

وبرقــت عينا العملاق الزرقـاوان البريئتان مهللتــين فرحا وطاعة. سيــان عنــده متى سينفذ مـا يطلب منــه في الليل أوفي النهــار لا يهم. سيقصد الكاهن الذي تلهمه السماء.بما يجوز له أن يفعل. الا أن.بمقدوره أن يحشــد المسيحيــين، ولــو كان معارفه مــن الأرقّــاء، أو المجالدين، أو الأحــرار قلّة. لكنــه يستطيع أن يحشد ألفا بــل ألفين منهم، ويحرر سيدتــه، ويخرجها من المدينة، ويمضي بها إذا ما اضطر إلى ذلك، حتى نهايّة الكون، حيث لم يسمع أحد بروما.

تسمرت حدقتاه أمامه، وكأنه ينظر إلى شيء بعيد، وقال:

- إلى الغابة. يا لها من غابة. يا لها من غابة كثيفة.

لكنه سرعان ما استعاد وعيه.

أجـل سيذهـب حـالا إلى الكاهن، وفي المسـاء سيتجـه برفقة مئة مـن أتباعـه إلى الهودج، ولو كان يحيط به عـدد لا يحصى من الأرقّاء والحرس. وهناك لن يتحمل أحد قبضته الحديديّة.

لكن ليفيا رفعت سبابتها الطفوليّة الناعمة، وحذرته بلهجة صارمة.

ـ أرسوس! إياك والقتل!

مد الليغوي يده الصولجانيّة الضخمة، وراح يحك قفا رأسه، وهو يدمـدم شيئاً ما من شدة حنقه. ولكـي يجاهر بحماسه الشديد الطافح على وجهه انحنى قائلاً:

ـ أنا ذاهب إلى الكاهن.

أمـا أكتي فقد لفت عنق ليفيا، وانفجـرت باكيّة. أدركت مجدّداً أن ثمة عالما، حيث في ثنايا الألم ينطوي من السعادة أكثر ممّافي هذا القصر مـن أبّهة وترف. لقد انفتح أمامها باب النور الابدي. ولكنها في نفس الوقت أدركت أنها غير جديرة بعبوره.

٩

شعـرت ليفيا بالشفقـة إزاء بومبونيـا التي كنت لهـا، كما لجميع أفـراد منزل أولوس ودًّا عميقـا. لكنها في مقابل ذلك قد تحررت تماماً ممّـا استبد بها من قنوط. حتـى أنها شعرت بالفخـر والاعتزاز، لأنها تضحـي بالراحة والرفـاه فداء للحق، وتدفع بنفسهـا إلى حياة مجهولة المعالم. ولعلّ فضولاً طفوليًّا قد شاب مشاعرها: كيف ستكون حياتها في مـكان ما من البلدان القصيّة بين البرابرة والوحوش. لكن شعورها الطاغـي كان إيمانها العميق بـأن كل ما سوف تقوم به من سلوك، نابع من إرادة المعلم الالهي الذي سيرعاها مثلما يرعى ابنه المخلّص المطيع، فلا ضير عليهـا، ولا خوف إذن. وإذا ما شاء الرب أن يلحق بها سوءا فعليها أن ترضى بقدرها، باسمه. وحتى لو قدر لها أن تموت، فسوف يأخذهـا اليه حيـث ستلتقـي بومبونيا، ويجتمعـان سويا في ملكوت الابديّة.

في منـزل أولوس غالباً ما كان يدور في ذهنها الطفولي الغض أنه لم يكن بوسعها، وهي المسيحيّة، أن تفعل شيئاً من أجل المسيح المصلوب الذي حدثهـا عنه أرسوس بذلك الحماس. ولكـن اللحظة قد حانت الان.

شعـرت ليفيـا بالفرح،وباحـت عـن سعادتها تلـك لأكتي التي لم تستطع أن تتفهمها. تخليها عن المنـزل، والثراء، والمدينة، والبساتين، والمعابد، والـتركات، وكل متاع جميل. تخليها عـن البلاد المشمسة

والبشـر المقربين إلى قلبهـا. ومن أجل أي شيء؟ مـن أجل أن تهرب، وتتوارى عن أنظار حبيبها الفارس الشاب الوسيم.

أمـور لم تلق تجاوبا من أكتي. لم تتفهمها أبدا، ولو أنها كان تشعر أحيانـا أن فيها جانبـا من الاحقيّة، جانبا من السعـادة العامرة الخفيّة، لكنهـا لم تجـرؤ أن تصـارح نفسها بذلـك، خاصـة وأن ليفيا كانت تنتظرهـا مغامرة قد تفضي إلى نهاية سيئـة، وقد تكون نتيجتها فقدان حياتهـا. و بالنظر إلى طبيعة أكتي الحذرة المتخوفة كانت تفكر مرتعدة بمـا سيأتـي في المسـاء. لكنها لم تشـأ أن تفصح لليفيـا عما يجول في خاطرها من قلق. وبما أن النهار مازال مقيما، وضوء الشمس قد تسلل إلى الأتريـوم، فقـد طلبت من ليفيا أن تذهـب إلى سريرها وترتاح بعد ليلـة لم تذق فيها طعم النـوم. لم تمانع ليفيا، وعبرتا معا إلى جناح أكتي الشاسع الوثير منذ علاقتها الحميمة بنيرون.

استلقتـا جنبـا إلى جنب. وبرغم إرهاق أكتـي لم تستطع أن تغفو. كانت حزينة لا تعـرف طعما للسعادة منذ زمن بعيد. ولكن اضطرابا استثنائيًـا لا مثيل له مـن ذي قبل، قد راودهـا الآن. كانت حتى الان تشعر أن الحياة قاسيّة وقاتمة، وفجأة رأتها الآن تافهة لا قيمة لها.

تشوشـ ذهنها فجأة. كان الباب ينفتح وينغلق، وبانشقاقه ينسرب مـن خلاله ضوء شديد يمنعها أن تـرى بوضوح. الاحرى أن ظنونا قد ساورتها تقول أن في قلب هذا النور سعادة كبيرة لا حدود لها، بحيث تكـون كل الاشيـاء إلى جانبها عدما لا معنى لـه. فحتى لو قام القيصر بإبعاد بوبيا، وعاد إلى حبها هي بدلا منها، لما كان ذلك الا فعلا بائسا لا معنى له.

لوهلـة لمع في ذهنها أن القيصر الـذي أحبته، واعتبرته تلقائيا واحدا مـن أنصـاف الالهة، ما هـو إلا إنسان وضيـع تافه شأنه شـأن أي من هـؤلاء العبيد، وأن هذا القصر بكل مـا يحتويه من عمدان رخاميّة ليس أفضـل من ركام من الحجارة. مجمل تلك الاحاسيس التي لم تستطع أن تفهمها، قد أرهقتها في نهايّة المطاف. تمنت لو تغفو، لكن القلق اللعين أفقد عينيها نعمة الإغفاء.

وفي نهايّـة الأمر ظنـت أن ليفيا ليست نائمة نتيجـة ما ينتظرها من مصير مجهول، وما يتربص بها من خطر وشيك، فالتفتت اليها لتحدثها في شأن هروبها مساء

لكن ليفيا كانت مستسلمة للنوم. كانت أشعة النهار مشوبة بذرات الغبـار الذهبيّـة المرحة، تعـبر إلى الداخل خلل شقـوق الستارة. وهذا القـدر من الاضاءة أتـاح لأكتي أن تلمح وجه الفتـاة الناعم، وذراعها العاري تحـت رأسهـا، وعينيها المطبقتـين، وشفتيهـا المنشقتين قليلا. كانت أنفاسها منتظمة أشبه بأنفاس الحالمين.

ـ نائمة. تستطيع أن تنام! ما تزال طفلة!

وسرعـان ما خطر لها أن هذه الطفلة تفضل الهروب على أن يكون عشيقها فينيكوس، وحياة البؤس على أن توصم بالعار، والاختفاء على المنزل الفخم قـرب كارينا، أو الملابس الجميلـة، والجواهر، والمآدب، وأنغام الالات الموسيقيّة.

ـ لماذا؟

وعـادت تنظـر إلى ليفيا كأنما أرادت أن تقـرأ الجواب فوق وجهها

النائـم. رأت جبينها الخـالي من الكلف، وقوسـي حاجبيها الوديعين، ورمشيها القاتمين، وشفتيها المشقوقتين، وصدرها العذري المتموج من أنفاسها الهادئة، وفكرت من جديد قائلة :

ـ كم تختلف عني !

رأت فيهـا شيئـاً عجائبيا، ونوعا مـن الصـور الربانيّة.رأتها محبوبة الالهـة، وأجمل بكثير مـن كل أزهار حدائق القيصـر، ومن كل تماثيل القصـر. لكـن قلبها لم يعرف الغـيرة ولا الحسد، بل علـى العكس من ذلـك، فقد أترع بالشفقـة حين فكرت في حجم المخاطـر التي تهدد الفتـاة، واستيقظـت فيهـا مشاعر الامومـة. لم ترها مثـل حلم جميل وحسب، بـل كائنا واقعيا شديد اللطف أيضـاً. وقربت فمها من شعر الفتاة القاتم وغمرته بالقبلات.

كانـت ليفيا تنـام باطمئنـان كما لو كانـت في منـزل أمانها لدى بومبونيـا. واستغربت طويلاً في نومها. وانقضت الظهيرة حين فتحت عينيهـا مستغربة وجودها في المكان. من البديهي أن استغرابها ناتج عن كونهـا ليسـت في منزل أولوس. وحين لمحت وجه الفتـاة الإغريقيّة سالتها :

ـ هذه أنت يا أكتي؟

ـ أنا يا ليفيا.

ـ حل المساء؟

ـ لا يا بنيتي، لكن الظهيرة قد انقضت.

ـ الن يرجع أرسوس ثانيّة؟

ـ لم يقــل إنــه سيعود. كل ما قاله إنه بمساعــدة المسيحيين في المساء، سيتدبر أمر الهودج.

ـ صحيح

ثــم غادرتا المهجع نحو الحمــام، حيث قامت أكتــي بتحميم ليفيا. ثــم قادتها لتناول طعام الإفطار، وخرجتا بعــد ذلك إلى حديقة القصر، حيث ما من مخاطــر الآن للقاء أحد هناك، مادام القيصر ووجهاء البلاط مــا زالو نيامــا. كانت المــرة الاولى التي تشاهد فيها ليفيــا تلك الحديقة الفخمة المليئــة بأشجار الســرو والبلوط، والزيتــون، والاس، وحشود التماثيل فيما بينها، ومرايا بحيرات الاسماء، وشجيرات الورد الجوري حــول نوافير الماء، وعرائش الكرمة البريّة، واللبلاب التي تغطي مداخل المغائر السحريّة، والاوز العراقي يسبح في البحيرات، وغزلان الصحراء الافريقيّــة، تسرح بــين الاشجــار، والتماثيل، وكل ما يخطــر في البال مــن أنواع الطيــور المنوعة المنشــأ المزركشة. بمختلــف الالوان ترفرف مجموعات مجموعات.

كانــت الحديقــة خاليّــة، إلّا من عبيــد بأيديهم معــاول يعملون هنا وهنــاك، ويتحدثون بهدوء، ومن آخرين في فــترة استراحتهم يقتعدون قــرب ضفاف البحــيرات تحت ظلال البلوط المنقوشــة بثقوب مرتعشة لأشعّــة الشمس، ومن آخرين أيضــاً يقومون بسقايّة الــورود الجوريّة، وأزهار الزعفران.

تنزهــت أكتــي و ليفيا طويــلاً وشاهدتــا كل ما تحتويــه الحديقة من أعاجيــب. و لم تتمالــك ليفيــا أن تكتــم دهشتها وفضولهــا الطفولي، وذهولها لما كانت تقع عليه عيناها، حتى لقد خطر لها أن تقول: لو كان القيصر إنسانًا صالحاً لكان أسعد ما يكون في هذه القصر وهذه الحديقة.

أحستا بالتعب أخيراً، فجلستا فوق مقعد يكاد لا يرى بين أشجار السرو المتكاثف، وراحتا تتحدثان عن أشد ما يؤرقهما ويعتصر قلبيهما: هروب ليفيا مساء. وعلى النقيض من ليفيا لم تكن أكتي مطمئنة أساسا فيما يخص نجاح هذا الهروب، لا بل كانت على ثقة شبه تامة بأن هذا الهدف المجنون لن يتكلل بالنجاح. ازداد اشفاقها على ليفيا وخطر لها أن من الأكثر أماناً أن تحاولا كسب فينيكوس إلى جانبها. وبعد قليل سالتها:

ـ منذ متى تعرفين فينيكوس؟ وهل يمكن إقناعه بإعادتك إلى بومبونيا؟

لكن ليفيا هزت رأسها قائلة بحزن:

ـ لا. في منزل أولوس كان تصرف فينيكوس على نحو مختلف.

كان طيبا جدا. ولكنني منذ المأدبة صرت أخافه. الافضل لي أن أهرب إلى الليغوس.

سارعت أكتي تسألها :

ـ إذن كان لطيفا معك في منزل أولوس

فأجابت مطاطئة رأسها :

ـ أجل.

فعلّقت أكتي بعد تفكير نوعي:

ـ لأنك لست عبدة كحالي أنا. يمكن لفينيكوس أن يتخذك زوجة. أنت رهينة، وابنة ملك أولوس وزوجته يحبانك كابنهما. وأنا واثقة أنهما يقبلانك ابنة لهما. يجوز للشاب أن يتزوجك يا ليفيا.

لكن الفتاة أجابتها بخفوت وحزن أكبر :

- أنا أفضل اللجوء إلى الليغوس.

- ليفيا ! أتريدين أن أقصد فينيكوس حالا؟ سأوقظه إن كان نائما، وأقول له ما قلت لك الان أجل يا حبيبتي سأذهب اليه وأقول له : يا فينيكوس، إنها ابنة ملك، والطفلة المدللة لعائلة أولوس. فإن كنت تحبها حقا أرجعها إلى العائلة ثم تزوجها، وخذها معك.

لكن الفتاة أجابت بصوت خافت كما من ذي قبل

- الافضل أن أرحل إلى الليغوس.

ونزلت قطرتا دمع من جفنيها المسبلين.

لكن خطوات مقتربة قطعت الحديث. وقبل أن تتمكن أكتي من تيقن الشخص المقترب ظهرت سابينا بوبيا أمام المقعد بصحبة بعض الرقيقات. حملت رقيقتان منهن مروحة من ريش النعام المذّهب فوق رأسها، لتهويتها، ووقايتها من شمس الخريف التي مازالت تحتفظ بشدتها، بينما تقدمتها عبدة إثيوبيّة، شديدة السواد، منتفخة الثديين من اكتظاظهما بالحليب، حملت بين ذراعيها طفلا ملفوفا بثوب ارجواني مذهب.

نهضت أكتي و ليفيا واقفتين ظنا منهما أن بوبيا ستواصل سيرها دون أن تلتفت اليهما، لكنها توقفت وبادرت قائلة :

- أخطت الاجراس على الدميّة بشكل رديء. شد الطفل أحدها، ووضعه في فمه. ومن حسن الحظ أن ليليثا حضرت في الوقت المناسب.

- سامحيني أيتها الأوغستيّة؟

أجابــت أكتي وصالبــت ذراعيها فوق صدرها. لكــن بوبيا كانت الان تنظر نحو ليفيا، ثم سالت بعد قليل.

ـ من هذه الرقيقة؟

ـ ليســت رقيقة يا أوغستينا الربانيّة، ولكنها من تربت لدى بومبونيا غريسينيا وهي ابنة ملك الليغوس، وقد وضعها أبوها رهينة لدى روما.

وهل جاءت لزيارتك؟

ـ لا يا أوغستينا. إنها تقيم في القصر منذ أول أمس.

ـ وهل حضرت المأدبة ليلة البارحة؟

ـ أجل يا أوغستينا.

ـ بأمر ممّن؟

ـ بأمر من القيصر.

صارت بوبيا أكثر اكتراثــا بليفيا، التي انحنت أمامها مطأطئة دون أن تخفــي فضــول عينيها نحوهــا... وعلى حين غــرة ظهرت تقطيبة خفيفــة بين حاجبــي أوغستينا. كانت غيورا علــى سطوتها وجمالها. وعاشــت على الدوام في هلع وخوف من أن تأتي منافستها المحظوظة ذات يوم، وتتغلب عليها، وتنحيها جانبا كما فعلت هي بأكتافيا. لهذا السبب كان كل وجه جميل في القصر يولد فيها الظنون ويثير القلق في نفسها. وبعينين خبيرتين راحت تقيس قد الفتاة، وأدهشها كل تفصيل في وجهها فأصابتها الرعدة. قالت لنفسها:

ـ نيمفا حقيقيّة. أنجبتها فينوس.

ولمع في ذهنهـا الآن ما لم يخطر لها من قبل أمـام أي جمال آخر. إنهـا ـ بوبيا أكـبر سنا بكثـير! استيقظت في داخلها عبـادة الذات التي خدشـت الان، واهتـزت. دار في ذهنها شتى المخـاوف: لعل نيرون لم يرهـا. ولعله لمحها سريعـا دون أن يدقق في ملامحها. ولكن ما الذي يمكـن أن يحصل لو صادفها في وضـح النهار، ورآها بمثل هذا الجمال العجيـب؟ فضلًا عن أنها ليست من العبيد. ابنة ملك. صحيح أنها من البرابـرة، لكنها فتاة ملكيّة! آه أيتها الالهـة الخالدة. إنها جميلة مثلي، وأكثر شبابا مني.

تعمقت التقطيبة بين حاجبيها، وقدحت عيناها شرراً. لكنها التفتت إلى ليفيا وسألتها بهدوء مصطنع:

ـ هل تحدثت مع القيصر؟

ـ لا يا أوغستينا.

ـ لم تحبين الاقامة هنا أكثر من منزل أولوس

ـ لا أحـب هنا أكثر يا سيدتي. لكن بترونيوس كلم القيصر أن يأتي بي من منزل أولوس. وأنا هنا رغم إرادتي يا سيدتي.

ـ هل تحبين العودة إلى بومبونيا؟

طرحت بوبيا سؤالها الاخير بنبرة أكثر ارتياحا ووداعة، الأمر الذي أيقظ آمال ليفيا فجأة. فصرخت فاتحة يديها نحوها متضرعة:

ـ يا صاحبة الهيبة. القيصر وعد أن يهديني كجاريّة لفينيكوس.

احميني، وأعيديني إلى بومبونيا!

ـ إذن قام بترونيوس بالتحدث مع القيصر ليأتي بك من منزل أولوس

ويقدمك لفينيكوس

ـ أجل يا صاحبة السطوة. فينيكوس سيرسل من أجلي اليوم. ساعديني !

ثم انحنت وأمسكت طرف ثوب بوبيا منتظرة الرد بقلب خافق.

لكن بوبيا نظرت إليها بابتسامة ماكرة، وقالت بعد قليل :

ـ أعدك إذن أنك ستكونين اليوم عبدة فينيكوس.

وتوارت كشبح ماكر جميل.

دمعت عينا ليفيا، وقالت :

ـ لنعد أدراجنا. سنتقبل المساعدة من حيث يمكن أن تأتي.

وعادتا إلى الأتريوم. و لم يغادر المكان حتى المساء. وحين حلت الظلمة، وبدأ العبيد يُدخلون الفوانيس الرباعيّة، كانت كلتاهما شديدة الوهن، شاحبة، متلعثمة الكلام، واكتفتا باستراق السمع، بانتظار أن يصل أحدهم. ومع مرور الوقت كان حزن ليفيا يتفاقم وقد أوشكت ساعة الرحيل أن تحين. أرسوس ينتظر في ظلام الليل.

توترت واشتدت ضربات قلبها، بينما راحت أكتي تجمع على عجل كل ما عثرت عليه من مجوهرات، وعقدته في طراف الرداء، ورجت ليفيا ألّا ترد هذه الهديّة بالرفض. ساد صمت شديد جعلهما تسمعان كل نأمة صوت وهمس وراء الستارة، وبكاء طفل بعيد، ونباح كلب.

وسرعان ما فتحت الستارة، وظهرت في الأتريوم شبح تبين أنه رجل أسود طويل القامة، منمش، وسيم الوجه. عرفته ليفيا في الحال. أتاكينوس عبد فينيكوس ، المعتوق الذي غالباً ما كانت تصادفه في

منزل أولوس.

صرخت أكتي. لكن أتاكينوس قدم انحناءة عميقة، وقال :

ـ تحيّة لليفيـا الربانيّة من قبل ماركوس فينيكوس الذي ينتظرها على مأدبة في منزله المظلل بالاشجار.

شحبت شفتا الفتاة تماماً، وقالت:

ـ ذاهبة.

ثم عانقت أكتي مودعة.

١٠

كان منــزل فينيكوســ مزينا فعلا بأغصــان الآس واللبــلاب، التي توزّعــت حبــالًا مجدولة علــى الجدران، وفــوق الابــواب. وأحيطت عمدانه بجدائل مــن أغصان الكرمة البريّة. كانت الانوار تعم الأتريوم الذي غطت نوافذه ستائر أرجوانيّة من الصوف اتقاء لبرودة الليل.

كان ما أضــاء الأتريوم، وأضفى عليه إنارة كضــوء النهار، فوانيس ثمانيّــة الافــرع أو مدقوقــة من النحاســ، أو تماثيل لحيوانــات وطيور منحوتــة من الرخام. صحيــح أنها لم تكن بروعة فوانيســ معبد أبولو الشهــيرة التي اعتــاد أن يستخدمهــا القيصر، لكنها كانــت جميلة قام بصنعها مهنيون ذائعو الصيت. وكانت تعلوها مظلات حمراء، وزرقاء، وصفراء، وبنفسجيّــة من الزجاج الإسكندراني، أو من الاقمشة الهنديّة الشفافــة جعلت أشعــة الضوء الملونة تتــوزع أرجاء الأتريــوم الفائحة برائحــة عطــر الناردين الذي اعتــاد فينيكوس أن يحضــره من الشرق. وكان في المنزل المؤتلق بالانارة فتيان وفتيات من العبيد لا ينقطعون عن الحركة هنا وهنالــك في أقسامه الداخليّــة. وفي التريسيلينوم توضعت مائدة فرشت لأربعة أشخاص لأن بترونيوس و كريسوتميس إلى جانب فينيكوس و ليفيا كانا مدعوين لحضور المأدبة.

لقــد اتبع فينيكوس في كل أمر توصيات بترونيوس الذي نصحه أن لا يذهــب إلى ليفيــا بنفسه، بــل أن يرسل اليها أتاكينوســ بتفويض من القيصر، وما عليه هو الا أن يستقبلها في المنزل بغايّة اللطف والاحترام.

قال له بترونيوس :

ـ كنت ثملا ليلة أمس. رأيتك كيف تصرفت مع الفتاة كقاذف حجارة من فوق جبال الالب. لا تكن فظا واقتحاميا كل هذا القدر. ولا تنس أن النبيذ اللذيذ يحتسى بتمهل وحذر. واعلم كذلك أن من الحسن أن تكون راغبا، لكن الاحسن أن تكون مرغوبا.

كان لكريسوتميس رأيها المختلف تماماً في ذلك. لكن بترونيوس الذي دعاها بعذراء فيستا، وبالحمامة الصغيرة، أوضح لها الفرق بين المتمرس في قيادة العربة في السيرك، وبين الشاب الذي يجلس لأول مرة في الكدريجة ذات العجلتين التي تجرها أربعة أحصنة.

واستأنف حديثه قائلاً :

ـ نل ثقتها أولا، وحقق لها البهجة، وكن كريما واسع الصدر معها. لا أحب أن أرى مأدبة حزينة. اقسم لها بهاديس بأنك سوف تعيدها إلى بومبونيا. والباقي يتوقف عليك إن كان في اليوم التالي ستفضل البقاء عندك بدلا من العودة إلى منزل أولوس.

ثم أضاف مشيرا إلى كريسوتميس :

ـ أنا، يوما بعد يوم منذ خمس سنوات أتبع هذا السلوك مع عصفورتي الجبانة، ورغم ذلك لم أعان من سوء معاملتها لي.

لوّحت كريسوتميس بمروحة ريش الطاووس، وجاء ردّها :

ـ وكأني لم أمانعك أيها الشبق!

ـ فقط فيما سبق.

ـ وكأنك لم تركع أمام قدمي !

ـ لكي أضع خاتما في إصبعك.

نظـرت كريسوتميـس نحو قدميهـا، ولما رأت الحلـي تلمع حول أصابعها حقا، انفجرا ضاحكين،

لكن فينيكوس لم يكن ينصـت إلى حديثهما لأن قلبه كان مضطربا شديـد الخفقان تحـت الـرداء البابوي السـوري المرقش الـذي ارتداه لاستقبال ليفيا.

قال وكأنه يكلم نفسه :

ـ حانت لحظة الانطلاق من القصر.

فأجاب بترونيوس :

ـ حانـت. وحتى ذلك الوقت سأروي تنبؤات أبولونيوس أو حادثة روفينوس التي لا أدري كيف لم أكملها.

لكـن فينيكوسـ لم يكـن شغوفـا بالتنبـؤات، ولا مهتمـا بحادثة روفينوسـ. كانت أفكاره كلها تصـب عند ليفيا. وأحس لوهلة أن من الاجمـل أن يستقبلها هنا في منزله، لا أن يذهـب من أجلها إلى القصر على طريقـة السياسيين أصحاب المصلحة. ولكنـه، لوهلة أخرى، قد شعر بالندم لعدم ذهابـه اليها، لا شيء، الا ليعجل في رؤيتها، ويجلس إلى جانبها في العتمة في الهودج المخصص لراكبين.

في هـذه الاثنـاء كان الخـدم يأتـون إلى الداخل بأطبـاق الحملان الساخنة، ويرشون فوقها فلفل الناردين والطيب.

بادر فينيكوس إلى الكلام ثانيّة :

ـ الان ينعطفون نحو كارينا.

فعلّقت كريسوتميس قائلة :

ـ إنه لا يحتمل الأمر، وسيخرج لملاقاتها.

فابتسم فينيكوس قائلاً بهدوء :

ـ بل أحتمل.

واتسع خيشوماه، وأخذ يلهث، بينما هز بترونيوس كتفيه معلنا :

ـ لا يتمتع بأي قدر من مؤهلات الفيلسوف. لن أستطيع أن أنحت إنسانا من ابن مارس هذا.

لم يسمعه فينيكوس.

ـ لقد صاروا في كارينا.

كان اولئك قد انعطفوا باتجاه كارينا، يتقدمهم العبيد ممن يطلق عليهم حاملو الشعل، وكانت مرافقتهم تسير محيطة بالهودج من الجانبين. أما أتاكينوس فكان يحرس الهودج سائرا وراءه.

كانوا يتقدمون ببطء، لأن المصابيح لم تكن تضيئ على نحو كاف شوارع المدينة التي يلفها الظلام. إلى جانب ذلك كادت الشوارع المجاورة للقصر أن تكون خاليّة تماماً لولا مصباح يسير به أحد المارة هنا وهناك.

وكلما ابتعدت المسافة عن القصر كانت الحركة أكثر حيويّة وكثافة.

مـا من زقاق الا وبرز منه ثلاثة أشخاص، أو أربعة، وجميعهم بلا مشاعل، وبعباءات سود. بعضهم راح يسير ملازما الموكب مندمجا مع العبيد، وآخرون اقتربوا في مجموعات أكبر قادمين من الاتجاه المعاكس. وكان الجميع يترنحون كالسكارى. أحيانا كان التقدم إلى الامام متعثرا، الأمر الذي جعل حاملي الشعل يصيحون

ـ أفسحوا الطريق لموكب ماركوس فينيكوس.

كانت ليفيا ترى من وراء الستارة هذه الحشود القائمة متوترة يحدوها الامل من جهة، والخوف من جهة أخرى. فقالت بشفتين مرتعشتين :

ـ "إنه هو. أولوس والمسيحيون! ساعدني يا مسيح ! أنقذني يامسيح" !.

في بادئ الأمر لم يعر أتاكينوس اهتماماً لهذا الحراك الاستثنائي، لكنه سرعان ما أخذ يضطرب. أمر مختلف يحدث الان.

ازدادت صيحات حاملي المشاعل " أوسعوا الطريق لهودج الموكب النبيل ".

اقترب أشخاص مجهولون من جانبي الهودج، فأمر أتاكينوس مرافقته من العبيد أن يطردوهم بالعصي.

جاءت ضجة كبيرة من مقدمة الموكب، وبومضة عين أطفئت كافة المشاعل، ثم حصل تدافع وضجيج أفضيا إلى مشادة وشجار.

أدرك أتاكينوس : " هجوم سافر ".

كان معروفا أن هنالك مجموعات قطاع الطرق، وعصابات تتبع رجالات الحاشيّة القيصيريّة تمارس العبث والتسليّة والفوضى، وتقوم

بالضـرب والاذيّة على هواها في سوبورا، وسائـر أنحاء المدينة. وكان معروفا أيضاً أن من يحاول صد ها دفاعا عن النفس قد يلقى حتفه حتى لـو كان سيناتورا. كانت مواقع الخفراء غير بعيدة، ولكنهم في حالات كهذه يفضلون عدم التدخل، فيغمضون أعينهم، ويلزمون الصمت.

كان العراك يجري حـول الهودج. ولقد وصل حد الضرب المبرح حتى القتل، أو الاطاحـة أرضا. خطر لأتاكينوس أن الاهم إنقاذ ليفيا، وإنقـاذ نفسـه. أما الاخـرون فيترك أمرهـم للأقدار. التقـط ليفيا بين ذراعيه، وسعى إلى الخروج في الظلام.

لكن ليفيا صرخت مناديّة:

- أرسوس! أرسوس!

كانـت ثيابها بيضاء أمكن رؤيتها بسهولة. وحين حاول أتاكنيوس أن يغطيهـا بعباءته، شعر بقبضـة هائلة القوة تلف عنقه، ثم بكتلة رهيبة تحط كالصخرة فوق رأسه.

سقط أرضا كالذبيحة أمام مذبح جوبيتر. كانت الغالبيّة العظمى من العبيد ممدودة أرضا، أو تجرجر نفسها لصق الجدران في جنح الظلام.

و لم يبـق في المـكان سوى الهـودج المحطم. توجـه أرسوس بليفيا صـوب سوبورا، وكان أصحابه يلحقون به مبعثرين واحدا تلو الاخر. وحـين تجـم ع العبيد أمام منـزل فينيكوس راحـوا يتناقشـون قبل أن يجرؤوا على الدخول.

وبعـد نقاش قصير، عـادوا إلى موقع الهجوم حيـث وجدوا بعض الجثث. ومن بين القتلـى كان أتاكينوس. حملوه وعادوا به إلى المنزل، ووقفوا من جديد أمام المدخل. لابد أن يخبروا سيدهم بما حصل.

تهامس بعضهـم:

ـ لنـدع غولـو يخبره. وجهه مدمـي كوجوهنا. وسيدنـا يحبه. لا خطر عليه مثلنا.

غولـو عبد الماني عجوز. قام ذات يوم بتربيّة فينيكوس ثم ورثه عن أمه، وعن أخت بترونيوس الكبرى.

قال العجوز:

ـ أنا سأخبره. لكن دعونا ندخل معا لكي لا ينصب كل غضبه علي وحدي.

ولكـن فينيكوس كان نافـد الصبر حقـا. وكان بترونيوس و كريسوثميس يهزأان منه، وهو يزرع الأتريوم جيئة وذهابا ويردد:

ـ حان وقـت وصولهم... حان وقت وصولهـم. وأراد أن يذهب ولكنهما منعاه.

وفجأة سمع وقت خطوات. وسرعان ما صار العبيد داخل الأتريوم. واصطفّوا رافعي الايدي إلى جانب الحائط وهم يولولون:

ـ آآ....آ

قفز فينيكوس نحوهم وصرخ بهم :

ـ أين ليفيا؟

ـ آآ...

تقدّم غولو دامي الوجه وقدّم شكواه باكيا :

ـ انظــر إلى الدم يــا سيدي. لقد دافعنا بكل قوانــا، وهذا هو الدم يا سيدي... هذا هو الدم

لم يتمكــن من إنهاء كلامه لأن فينيكوســ كان قد قبض على حامل الشعــل البرونزي فقذف به جمجمة العبد. ثــم أمسكه برأسه، وشبك أصابعه بشعره، وتأو ه بصوت مجلجل:

ـ ويلي! ويلي !

أزرق وجهه، وغارت عينــاه، وزبد فمه. وزأر بصوت لا يصح أن يكون إنسانيا.

ـ الكرباج

فولول العبيد

ـ سيدي! آآ. أرأف بنا

أما بترونيوس فطفحت على وجهه تعابير الاشمئزاز فقال :

ـ هيــا يا كريسوثميس. ان كنت تريديــن أن تشاهدي لحما فلنذهب إلى محل الجزارة في كاريني. وخرج من الأتريوم. لكن المنزل الذي زيّن بالاســ واللبلاب استعــدادا للمأدبة، لم يسمع فيــه بعد قليل الا صوت الكرباج، والصرخات والتأوهات التي استمرت حتى الصباح.

١١

لم ينــم فينيكوس تلك الليلة. ولأن قيامــه بجلد العبيد بعد انصراف بترونيوســ بقليل، لم يشف غليله، و لم يخفف مــن الامه وغضبه، فقد استجمع عبيدا آخرين، وانطلق بهم آخر الليل للبحث عن ليفيا. جاب حــي اسكويلنوس ثــم سوبورا، و فيكوســ و سيكلاراتوســ، وسائر الارجــاء المجاورة. ثم دار في الكابوتوليوم، وعبر جسر فابريكوس إلى الجزيرة، ثم جاب أقصى أحياء المدينة في تيبريس.

لكنهــا كانت مطــاردة فاشلة لم يكن يأمل منهــا في الاساس العثور على ليفيا،

ولكنــه قام بها رغم كل شيئ لكي يمضــي ليلته الرهيبة هذه منشغلا بأمرها.

وفعلا، لم يعد أدراجه إلى المنزل الا عند الفجر، حين بدأت تظهر في المدينة عربات الخضراوات، وراح الخبــازون يفتحون محالهم. ولمجرد وصولــه أمر بدفن جثمان غولو الــذي لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه في غيابــه. وحكم على العبيد الذيــن كانت ليفيا في عهدتهم بالاشغال الشاقــة في الارغاستولــوم الريفي، وهو حكم أقســى بكثير من الحكم بالاعدام. ثم استلقى على مقعد في الأتريوم، واسغرق في التفكير ليجد طريقة يستعيد بها ليفيا.

التنازل عنها، وفقدانهــا إلى الابد، أمران مستحيلان. جن جنونه.

إنهــا المرة الاولى التي يواجه فيها الجندي الشاب بطبعه العنيف مقاومة وإرادة غريبــة قاهرة. و لم يرق له أن أحدا يجروٴ على الوقوف في طريق رغباتــه. كان أهون عليه دمار هــذه المدينة، والكون بأسره، ولا أن يبوء مرامــه بالفشل. سلبوه كأس المتعة من بين يديه، حين أوشك أن يلامس شفتيه.

وجد أن ما حصل كان أمرا فريدا يستحق النقمة على كافة تشريعات الالهة والبشر.

ولكنه، قبل كل شيئ، لم يحتمل، و لم يشأ أن يكترث بما فرضته عليه الاقــدار. لأنه لم يرغب في شيئ خــلال حياته، رغبته في ليفيا. شعر أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها. و لم يقدر أن يعطي حتى لنفسه إجابة عما يمكن أن يفعله بدونهــا، فيما يلي من أيام. ومرت لحظات شعر فيها أن نوبــات من الغيظ والغضب من ليفيا تتملكه. تمنى أن تكون له ليوسعها ضربــا، ويجرجرها من شعرهــا، ويشفي غليله منهــا. ومرت لحظات أخــرى أحس بشــوق لا يقــاوم إلى صوتها، وقدهــا، وعينيها. وشعر أنــه يستطيع أن يركع عند قدميهــا. ناجاها وهو يقضم أصابعه، ويفرك رأســه. وحاول بكل ما يملك من قــوة أن يفكر برويّة تمكنه من إعادتها والحصــول عليهــا، لكنه باء بالفشل. لمعــت في ذهنه الاف والاف من الافكار، وكل واحدة أكثر بلاهة وخبلا من الاخرى. حتى خطرت له أخــيرا فكرة تقول أن لا أحد يستطيــع أن يحرّرها سوى أرسوس وهو الوحيد العارف بمكانها.

وقفــز من مكانه يهم بالانطلاق إلى منــزل أولوس. فإن لم يسلموه إياهــا، و لم يستجيبوا لتهديداتــه، سوف يقصد القيصــر ويشي بالقائد العجــوز متهما إيــاه بالمروق، ويجعــل القيصر يحكم عليــه بالاعدام.

لكنــه سيسعى بــادئ الأمر أن يعرف منهم أين تقيــم ليفيا الان. وحتى لــو سلموه إياه من تلقاء ذاتهــم، فسيبقى ناقما عليهم. صحيح أنهم قد أحسنوا استقباله في منزلهم، وأحاطوه بالرعايّة،والعلاج، لكن سيان. فهم بفعلتهــم هذه يتسببون له بجرح بليغ يجعلــه في حل من الامتنان وراحــت روحه العارمــة بالبغضــاء والنقمة الان، تحلــق ملتذة بفكرة مــا الذي سيحــل ببومبونيا، وكــم سيلحق بها من قنــوط ويأس، حين يصــدر حكم بالاعــدام كان واثقا تمام الثقــة أن باستطاعتــه استصدار الحكم بالاعدام. وبدعم مــن بترونيوس كذلك. على أيّة حال، القيصر لا يرفضــ طلبا لأي مــن أصدقائه الاوغستيــان، إن كان الأمر لا يمس عاطفته الخاصة، ولا يتعارض مع ما قد يكنه من بغضاء تجاه أي كان.

وسرعــان ما راودتــه فكرة رهيبة: ماذا لو قــام القيصر بانتزاع ليفيا منه؟

بات معروفا للجميع، أن القيصر في لحظات سأمه، غالباً ما يروق له البحث عن سلواه في مغامرات ليليّة لصوصيّة يسميها هو" صيد اللؤلؤ ". وبمشاركة بترونيوس أيضاً. وفي كثير من الحالات في الاحياء الفقيرة ذات الكثافــة السكانيّة العاليّة مرتــع الصبا والجمال. إلى أن يتم السطو على النساء، ويجري تحويل " اللالئ الحقيقيّة" منهن إلى البلاتينوس، أو إلى واحــدة من فيلات القصر المنتشرة بكثرة في أرجاء المدينة. وقد يقوم القيصــر بتزويد أنصاره بهن هدايا لا يحلمون بها. لقد شاهدها القيصر في المأدبــة، وما من شك، بنظر فينيكوس، أنها أجمل من وقعت عليها عينــاه من بين النساء جميعا. لا احتمال آخــر إطلاقا. مادامت ليفيا قد زارت القصــر، كان بمقدور القيصــر أن يأخذها لنفسه علنا، لكنه بزعم بترونيوســ كان جبانا على القيام بذلــك. كان علني النيّة، ولكنه خفي الافعال. يدفعه إلى ذلك خوفه من بوبيا. خطر لفينيكوس الان أن عائلة

أولوس قد لا تجرؤ على اختطاف الفتاة التي أهداها القيصر له. ومن يجرؤ على القيام بمثل ذلك؟

لعله ذلك العبد الليغوي العملاق صاحب العينين الزرقاوين الذي تجرأ على اقتحام التريسيلنيوم، وأخذ ليفيا بين ذراعيه؟ لكن أين أخفاها؟ إلى أين ذهب بها؟ لا، لا يمكن لعبد أن يقوم بمثل ذلك. إذن لم يبق الا القيصر، ولا أحد سواه.

اسود الكون أمام عيني فينيكوس لهذه الخاطرة، وتعرق جبينه. ففي هذه الحالة يكون قد فقد ليفيا إلى أبد الابدين. فلو كانت لدى أي أحد آخر، لتمكن من انتزاعها، أما وهي لدى نيرون فمستحيل.

حق له الان أن يقول: في ميسيرو ميهي ما أسوأ حظي.

تخيل ليفيا بين ذراعي نيرون، واكتشف لأول مرة في حياته أن هنالك خواطر لا يتحمل وقعها. شعر الان كم يحبها. وكما يقوم الغريق في لحظة الغرق باستعراض شريط حياته، كذلك عبرت ليفيا أمام عينيه الان. رآها أمامه، وسمع كل ما قالته. رآها عند البركة، وفي بيت أولوس، وفي المأدبة. شعر بها قريبة منه، واشتم رائحة شعرها، وأحس بدفء جسدها، وروعة القبل المختلسة من شفتيها البريئتين. شعر الان، أكثر من أي وقت مضى، أنها أحلى وأجمل بكثير من سائر البشر الفانين، والهتهم. وإذا ما خطر له أن كل هذه الروعة التي تذيبه شوقا اليها، وتعلقا بها، ستكون من نصيب نيرون. شعر بحرقة لا تفوقها حرقة، وبا لم جسدي رهيب يدفعه إلى أن يفج رأسه بجدران الأتريوم. وأحس أن ذلك يقوده إلى الجنون. ولقد أوشك أن يجن لولا فكرة الانتقام التي راودته. ففي حين كان يشعر أنه لا يقوى على الحياة قبل استرجاع ليفيا، صار يشعر الان أن حياته مستحيلة بغير الانتقام. إنها

الفكـرة الوحيدة التـي هدأت قليلا من روعه " أنا لـك ". قالها مخاطبا نيرون. وبعد ذلك قبض على حفنة تراب من أصيص الزهور، وأقسم ب أريبوس و هيكاتي، ومقدسه المنزلي الخاص، أن لا رجعة عن الايفاء بقسمه.

ولقد هـدأ فعلا. صار هنالك على الاقل معنـى لحياته، يمضي أيامه ولياليـه بالانشغال بـه. ثم تخلى عن فكـرة ذهابه إلى منـزل أولوس، وانطلـق إلى البالاتينوس. وفي طريقـة إلى هنـاك فكر أنـه في حال لم يسمح له بمقابلة القيصر، أوفي حال قاموا هناك بتفتيشه بحثا عن سلاح يحمله، فمعنى ذلك أن القيصر هو من قام باختطاف ليفيا. كان يحمل سلاحـا، وكان في حقيقة الأمـر، خارجا عن طوره، لا تنقذه الا فكرة الثأر التي استحوذت عليه، وأرضخته.

لم يشـأ أن يهزم أمام الزمـن. وإضافة إلى ذلـك أراد أن يقابل أكتي لأنـه ظن أن الحقيقة عندها. وبـين الفينة والاخرى كانت ترادوه فكرة رؤيتـه ليفيا هناك. وكان يرتعد لذلك. ماذا لو كان القيصر قد اختطفها دون أن يـدري من تكـون وحين يخبره بأمرها يتراجـع عنها ويعيدها اليه. لكنه سرعان ما تخلى عن هذه الفرضيّة. لو أرادوا أن يعيدوها اليه لفعلوا ذلك منذ يوم أمس. الخبر اليقين عند أكتي.

لابد من لقائها أولا.

وحـين حسم أمـره، اهـاب بأرقائه أن يغـذوا المسـير، لكنه كان مشوشا في طريقـه، تتجاذبه ناران تضطرمان في كيانه. نار ليفيا، ونار الانتقام. سمع أن الكهنة المصريين يجلبون الأمراض لمن يريدون. وقرر أنـه سيسال عن هـذه الطريقة. كما سمـع أن لدى اليهـود في الشرق طريقتهـم في السحر تمكنهـم من نشر القروح فـوق أجساد أعدائهم.

وكان لديـه بعض من الأرقّاء اليهود، فقرر، لمجرد عودته إلى المنزل، أن يخضعهـم للجلد بالكرباج حتى يفشوا هـذه الاسرار. وبشديد التوق فكر باستخدام السيف الروماني القصير لمضائه الشديد في إسالة الدماء كسيـف كاليولا الـذي خلف آثـارا لا تمحى من الدماء فـوق عمدان الاروقة.

كان في هـذه اللحظة مستعدا لتدمير رومـا بأسرها، والقضاء على البشريّـة جمعـاء، ليبقى وحيدا مـع ليفيا. وأمـام المدخـل استعاد كل توازنـه، وحـين أصبح هناك فكر: لو أقدم هـؤلاء على أي سلوك يمنعه مـن الدخول، معنى ذلك أن ليفيـا في القصر، بإرادة القيصر. لكن قائد الحرس كان ودودا معه، وتقدم منه بضع خطوات باسما ليقول:

ـ تحيّـة لك أيها النبيل. إن كنت ترغب في المثـول أمام القيصر، فقد اخترت اللحظة غير المناسبة. لا أدري إن كان بمقدورك التحدث اليه.

فسأله فينيكوس :

ـ ما الذي حصل؟

ـ الاوغستينـا الربانيّة الصغـيرة تعرضت لمرض مفاجـئ. والقيصر و بوبيـا همـا إلى جوارها برفقة الاطباء الذين استدعـوا من سائر أنحاء المدينة.

كان حدثا في غايّـة الاهميّة. حين ولدت هذه الطفلة، كاد القيصر أن يجـن من الفـرح الذي فاق كل حدود الفـرح البشري. وقبل ذلك كان مجلـس الشيـوخ قد اجتمع ليقـدم بمراسم مهيبة، أمومـة بوبيا إلى الالهـة.. ذبحـت النذور، وأجريـت في الأنتيوم حيـث تمت الولادة، المبـارزات الكبرى، إضافـة إلى إشادة معبد تقديـرا للأثنين الالهيتين،

الام وابنتهـا. والقيصر الـذي لا يقيم اعتبارا ولا وزنـا لأي شيئ، فقد أحب هذه الطفلة بلا حدود. وكذلك بالنسبة لبوبيا، فقد كانت الطفلة محببـة إلى قلبها لسبب آخر أيضاً : لقد دعمت مقامها وثبتته في القصر، وجعلت تأثيرها داخله لا يقاوم

كان مصير الحكم بالكامل متعلقا بصحة الاوغستينا وحياتها. لكن فينيكوس الـذي لم يكن منشغـلا الا بشخصه هـو، وقضيته الخاصة، وحبه، لم يكترث لنبأ قائد الحرس وقال له:

ـ لا أريد أن التقي سوى أكتي.

ودخل

ولكن أكتي كانت منشغلة بالأطفال، فاضطر أن ينتظر طويلاً.

لم تأت اليه الا عند الظهيرة، وكانت مرهقة وشاحبة الوجه وبرؤيتها الشاب تفاقم شحوبها.

ـ أكتي.

ناداها وسحبها من يدها إلى وسط الأتريوم، ثم قال لها:

ـ أين ليفيا؟

فأجابت الفتاة بنظرات الملامة والعتاب:

ـ كنت أريد أن أسالك السؤال ذاته.

ولما كان قـد اتخذ قرارا باستجواب أكتي بكامـل الهدوء والرويّة فقد قبض على رأسه وتكلم بقسمات مشوبة بالالم والغضب.

ـ اختفت ! اختطفت في أثناء الطريق.

وسرعـان ما استجمـع قواه، وقـرب وجهه من وجـه أكتي وقال ضاغطا على أسنانه:

ـ أكتي... إن عزت عليـك حياتك، ولا ترغبين أن تكوني طرفا في حدوث أمر سيئ رهيب، أجيبيني بصدق : اليس القيصر من اختطفها؟

ـ قسمـا بطيف أمـي يا ماركوس، ليست في القصـر، وليس القيصر من اختطفها.

أمس مرضت الصغيرة، وظل القيصر ملازما لها.

تنفس فينيكوس الصعداء. ما وضعه في حسبانه على أنه أكثر الامور سوءا، لم يحصل. فقال مطبقا قبضته وهو يجلس على مقعد:

ـ إذن عائلة أولوس هي التي اختطفتها. يا ويلهم إن صح ذلك.

ـ كان أولوس هنا في الصبـاح. لم يتمكن من لقائي لأني كنت عند الصغيرة. لكنه سال عن ليفيا كبير الخدم، وخدما كثرا آخرين. وقال إنه سيعود في وقت آخر لمقابلتي.

ـ أراد أن يبعد الشبهات. لو لم يعرف ما الذي حصل لليفيا، لبحث عنها في منزلي.

ـ كتب قصاصة صغيرة يستشف منها أن كل ما يعرفه هو أن القيصر طلب ترحيلها من منزله بناء على رغبة بترونيوس ورغبتك. وبما أنه ظن انها عندك، ذهب اليك منذ الصباح، وهناك أخبروه بما حصل لها.

قالت أكتي ذلك ودخلت لتعود بالقصاصة.

قرأهـا فينيكوس ولزم الصمـت. وكأن أكتي قد قرأت على وجهه المتجهم ما يدور في نفسه من أفكار، فقالت بعد وقت قصير:

ـ لا يا ماركوس فينيكوس. لقد حصل ما كانت ليفيا راغبة فيه.

فانفجر قائلاً:

ـ وكنت على علم بأنها تريد أن تهرب!

لكن الفتاة القت نظرة صارمة في عينيه الضبابيتين.

ـ أعرف أنها لا تريد أن تكون ضجيعتك.

ـ وأنت ما الذي كنته طوال حياتك؟

ـ كنت عبدة قبل الان.

ظـل فينيكوس غاضبا. القيصر هو من أهداها ليفيا، فلا يهـم إذن من تكون، وسوف يجدها ولو كانت تحت الأرض، وسيفعل بها ما يشاء. أجـل! سوف تكـون ضجيعته. وسوف يظل يجلدهـا كلما رغب في ذلـك. وحين يسأمها سيرميها لأي من أرقائـه، أو سيرسلها إلى أي من أملاكه في أفريقيا، تدير الطواحـين اليدويّة. سيبدأ الان التفتيش عنها، وسوف يجلبها فقط كي يقوم بتحطيمها وإهانتها.

أفقده غضبه الصبر والرويّة، فلم يستطع الاجابة عن السؤال:

ما الداعي لياتي إلى أكتي؟ لم يعثر في البدايّة على جواب.

لقد جاء اليها لأنه أراد ذلك. لأنه ظن أنه سيعرف منها شيئاً. ولكنه في الحقيقة قد جاء لمقابلة القيصر، وحين لم يره، قصد أكتي. ثم أن ليفيا بهروبها تخالف إرادة القيصر. سيقـوم إذن بإخباره. وسيعطي القيصر أوامـر بالبحث عنها في المدينـة، وسائر أنحـاء الامبراطوريّة. وسوف يقوم بترونيوس بدعم طلبه من القيصر البحث عنها منذ اليوم، وحالا

أجابت أكتي :

ـ حذار أن تخسرها، إذا ما وجدوها بناء على أمر من القيصر.

قطب فينيكوس حاجبيه متسائلا :

ـ ما معنى ذلك؟

ـ اسمعني يا ماركوس! البارحة كنت مع ليفيا في الحديقة، وصادفنا بوبيـا هناك وكانت معها الصغيرة بين ذراعي ليليث. في المساء مرضت الطفلـة. زعمت ليليـث أن عين ليفيا قـد أصابتهـا. إذا شفيت الطفلة انقضى الأمر، والا ستتولى بوبيا بالذات محاسبتها على فعلتها. لا منجاة لها إذن.

ساد صمت قصير ثم قال فينيكوس :

ـ وهل فتنتها فعلا؟ لقد فتنتني كذلك.

ـ هـذه ما زعمته ليليـث. بدليل أن الطفلة سرعـان ما راحت تبكي حين عبرت من أمامنا هذا صحيح. لقد بكت. ربما كانت مريضة حين أخرجـت إلى الحديقة. فينيكوس! حـذار! ابحث عنها حيثما شئت، لكـن لا تتحـدث عنها مع القيصر، الا بعد شفـاء الطفلة، والا ستصب

بوبيا جام غضبها عليها. لقد بكت عيناها كفايّة بسببك. كانت الالهة في عونها.

فسألها فينيكوس جادا :

ـ هل تحبينها يا أكتي؟

ترقرقت الدموع في عيني أكتي :

ـ أجل. أحببتها كثيرا.

ـ لأنها لم تكن لك الكراهيّة كما تكن ها لي.

فرمقتــه أكتي كأنما تريــد أن تعــرف إذا كان صحيحا ما يقول. ثم قالت:

ـ مالك أيها الغضوب الأعمى! لقد أحبتك.

قفــز فينيكوســ كالممسوس. ليســ صحيحاً ! لقد كانــت تكن له البغضاء. كيف لأكتي أن تعرف؟ وكيف تصارحها بذلك فور تعارفهما خــلال يــوم واحــد؟ أي حب هذا الــذي يجعلهــا تفضــل الهروب، والبؤســ، والغد المجهول، بل حتى المــوت البائس، على المنزل المكلل بالغصون، حيث ينتظرها حبيبها على مأدبة ! الافضل عدم سماع مثل هذا الترهات لأنها مبعث على الخبل والجنون. تباً ! كان لا يبادل بهذه الفتــاة ثروات القصر كلها. ولكن... هاهي ذي الان تهرب. أي حب هــذه الذي يخاف المتعة، ويولّــد الألم؟ من بمقدوره احتمال ذلك؟ من بمقــدوره تفهم ذلك؟ لو كان لا يأمل أن يجدهــا لطعن نفسه بخنجر. العادة أن الحب يوهب ويعطى، لا يسلب، ويستغنى عنه. عندما قابلها

في منــزل أولوس مــرت لحظات آمن فيهــا بأن سعادتــه وشيكة. لكنه بــات الآن يــدرك أن ليفيا تكرهــه، ويكرهها، وسيمــوت وقلبه مترع بالكراهيّة.

لكــن أكتــي التي ظلت متزنــة حتى الان، انفجــرت غضبا. كيف أراد فينيكوســ أن يفوز ب بليفيا؟ فبدلا من أن يقوم بطلبها من أولوس و بومبونيــا بكل احــترام، حاول بوضاعــة أن يخطفها مــن أهلها، لا كزوجــة له بل كضجيعة فراشه. وهي ابنة الملك المدللة التي ترعرت في منــزل محترم. جاء بها إلى منزل العــار والخطيئة، وعاملها كفتاة شوارع رخيصة. لابــد أنه قد نسي منزل عائلة أولوس أي منزل يكون. ونسي مــن تكــون بومبونيا التي قامت بتربيّة ليفيا. لابــد أن عقله أشد قصورا مــن أن يدرك أنهمــا امرأتان غير نيجيدا أو كريسبيلينــا أو بوبيا، أوكل من التقاهن في منزل القيصر. حين وقعت عيناه على ليفيا لم ير أنها فتاة شريفة تفضل الموت على العار. من أين له أن يعرف بأي نوع من الالهة تؤمــن؟ وأن الهها أكثر نقاء، وصلاحا من فينوســ و إيريس الفاسقتين اللتــين تجل هما نساء روما الخليعــات. لا. ليفيا لم تبح لها بشيء، وكل ما قالته أنها تنتظر عونا من فينيكوس. وكانت تأمل منه أن يخرجها من عند القيصر لتتمكن من العودة إلى بيتها، وتسليمها لبومبونيا.

لقــد خفق قلبها لفينيكوس، لكن الاخير أخافها منه، وأذاها. والان سيحرصــ جنود القيصر على البحث عنها. لكن هل يعلم أنه لو حصل أي مكــروه للطفلة، ســوف تقع الشبهــات على ليفيا وهــذا يعني أنه سيفقدها حتما.

استجمع فينيكوس حماسا انضاف إلى غضبه والامه.

لقــد هز كيانه نبأ حب ليفيا له. وخطــر له ما دار بينهما من حديث

دافـئ في حديقـة منزل أولوس ، وشعر أن الفتـاة بدأت تحبه منذ ذلك الحين، فامتلأ بهجة تفوق حـدود رغباته، وشهواته، وآمن أنه كان من الممكـن أن يحظى بحبها، وتكون له طواعيّة من تلقاء ذاتها، ويسمعها تردد عبارة العروس في طقوس الزواج الرومانيّة :

" أنا غايا ، أكون حيث تكون أنت يا غايوس " وتصير له إلى الابد.

كيـف لم يتبع هذه السلـوك، وقد كان قادرا علـى اتباعه؟ ولكنها ليسـت هنا الان، وقد لا يجدها أبـدا. وإن وجدها فقد يفتقدها، وقد ترفضه هي وعائلة أولوس. استدعت فكرته هذه أن ينتصب شعر رأسه غضبـا ليس من عائلـة أولوس أو ليفيا، بل مـن بترونيوس. هو السبب في كل مـا حصل له. لولاه لما كان على ليفيا أن تتوارى، ولكانت الان خطيبتـه دون أخطـار تهدد حياتها الغاليّة. لكن مـا حصل قد حصل، وفات أوان إصلاح ما ساء من أمور.

ـ فات الاوان.

وشعـر أن الأرض انهارت تحت قدميه. لا يدري ماذا يفعل، وكيف يتصـرف، وأيـن يذهـب. رددت أكتـي كالصدى: " فـات الاوان ". وصـدرت العبارة من فمها كالحكم بالاعدام، لا يعرف الا شيئاً واحدا هو كيف يعثر على ليفيا. وفشله في ذلك يعني الطامة الكبرى.

حين لف رداءه الفضفاض حوله استعدادا للذهاب دون كلمة وداع ل أكتـي، انزاحت الستارة الفاصلة بـين الأتريوم والرواق، ليرى فجأة هيئة بومبونيا ماثلة أمامه.

كان قـد وصلها نبأ اختفـاء ليفيا. وكان التقديـر أن من الاسهل أن تقابـل أكتي. قصدت المـكان تستوضح النبأ نيابة عـن أولوس. وحين

لمحت فينيكوس أدارت وجهها الضئيل الشاحب نحوه، وعلقت قائلة :

ـ سامحك الله يا ماركوس على ما ألحقته بنا من أذيّة.

وقف الشاب كئيبا محني الرأس مغمورا بالندامة. لم يفهم أي اله سيسامحه، أو يمكن أن يسامحه. أليس الحري بها أن تتحدث عن الانتقام لا المسامحة.

اكتظ الرواق بجموع قلقة، امتزج فيها السيناتورات، والفرسان بأرقاء القصر، جاءت بقصد الاطمئنان عن صحة الاوغستينا الصغيرة. ولكي يقال إنهم قد حضروا، فقد وقفوا بين العبيد ليكون هؤلاء شهداء على حضورهم. سرعان ما ذاع نبأ مرض الإلهة، فلم تنقطع الوجوه الجديدة عن الوفود عبر المدخل، وتحتشد على طول الرواق. كان بعض الواصلين ممن رأى فينيكوس ينصرف، يسأله ما الاخبار، لكنه لم يرد على أسئلتهم، وتابع سيره، حتى مر قربه بترونيوس القادم أيضاً بهدف الاطمئنان.

كان له أن يهتاج غضبا لمرأى بترونيوس، ويرتكب معه حماقة داخل القصر، لو أنه لم يغادر أكتي وقد هدأت ثائرته، وخف غيظه. حاول أن يتجنب بترونيوس ويتابع المسير، لكن الاخير استوقفه عنوة وسأله:

ـ كيف حال الصغيرة الربانيّة؟

لكن هذه الاستيقاف العنيف أثار فينيكوس. فقال وهو يضغط على أسنانه :

ـ لتبتلعها نار جهنم، هي وكل هذا المنزل.

فما كان من بترونيوس الا أن ردعه محذرا، وهو ينظر حوله :

ـ اخرس أيها الخائب! إن كنت تريد أن تعرف شيئاً عن ليفيا رافقني.

لا. لـن أقول شيئاً هنا. تعـال معي. سأكلمك في الهودج عما أفكر فيه.

وأخذه من كتفيه خارجا به من القصر.

كان هذا أهم شيء بالنسبة اليه، بما أنه لا يعرف عن الأمر شيئاً. وبما أنه كان شخصا ناريا لا يؤجل أمرا. وأشفق على فينيكوس رغم فظاظته البارحـة. وأنـه مسؤول بطريقة مـا عن كل ما حصـل، كان قد اتخذ خطوات معينة، ما لبث أن أفصح عنها فور جلوسهما في الهودج.

ـ وزعـت عبيدي علـى كل المداخـل، ليراقبـوا، بعـد أن زودتهم بمعلومات دقيقـة عن الفتاة، وذلك العملاق الـذي أخرجها من مأدبة القصر. ما من شك في أنه هو من حرر ليفيا. اصغ جيدا. جائز أن لدى أولوس وزوجته رغبة في إخفائها في قريّة ما من قراهما. فإن صح ذلك سوف نعـرف أي وجهة اتخذتها في هروبها. وإن لم يرها الأرقّاء عند المداخـل، هذا يعني انها بقيت في المدينة، وسـوف نباشر البحث عنها هذه اليوم.

فأجاب فينيكوس :

ـ أولوس وزوجته لا يعرفان أين تكون.

ـ واثق من ذلك.

ـ التقيت بومبونيا. هما أيضاً يبحثان عنها.

- لم تغـادر المدينـة البارحـة، لأن كل المداخل تغلـق في الليل. لدي عند كل مدخل عبدان. مهمة أحدهما ملاحقة ليفيا والعملاق، ومهمة الاخر أن يأتي لإخباري. إن كانت في المدينة سنجدها. لأن من السهل التعـرف إلى العمـلاق لطـول قامته. لحسـن حظك ليس القيصر من اختطفها.

لكـن فينيكوس كان يكتوي الما وغيظا. فـراح يروي لبترورنيوس بصوت كسير ما سمعه من أكتي، وأيّة أخطار تهدد ليفيا. ثم لامه على النصائـح التي أسداها له، و لم يجد حرجا أن يقول : لولا ظهورك على السطـح لجرت الامور بطريقة أخرى.ولكانـت ليفيا في منزل أولوس الان. ولتمكـن مـن رؤيتها كل يـوم. وكان أسعد الناس، وحتى من القيصر.

أمـا بترونيوس الذي ضاع من حسبانه أن بمقـدور هذا الفتى أن يحـب كل هذا الحب، فقد قـال في نفسه بشيئ من الاستغراب بعد أن رأى دموع الحيرة في عيني الفتى:

" أوو، ياالهـة قبرص العظيمة،أنـت وحدك المهيمنـة على الالهة والبشر" !

١٢

حين خرجا من الهودج أمام منزل بترونيوس، أطلعه كبير الخدم أن العبيد اللذي أرسلوا إلى المدخل، لم يرجع أي منهم بعد. وقال إنه قد أرسل لهم الزاد، والتعليمات الجديدة الصارمة لاتخاذ الحيطة واليقظة، والمراقبة الدقيقة لكل من يخرج من المدينة.

علق بترونيوس قائلاً :

ـ كما ترى ما زالت في المدينة دون شك. وما دام الأمر كذلك سوف نجدها. لكن احرص انت على إرسال عبيدك لحراسة المداخل، خاصة أولئك الذين كنت ترسلهم من أجل ليفيا، لأنهم يعرفونها إذا ما رأوها.

ـ أولئك حكمت عليهم بالاعمال الشاقة، لكني سالغي أوامري لإرسلهم إلى مراقبة المداخل..

وكتب بعض السطور على لوح شمعي، وأعطاه لبترونيوس الذي أرسله حالا إلى منزل فينيكوس.

ثم دلفا إلى الداخل، وجلسا على مقعد رخامي يتحدثان. جرّا طاولة صغيرة إلى جانب المقعد، وراحا يسكبان النبيذ من ابريق رفيع العنق فائق الجمال.

بادر بترونيوس بالسؤال:

ـ هل من بين عبيدك من يعرف الليغيوي العملاق إن رآه.

ـ كان يعرفــه كل من غولو و أتاكينوس. لكــن أتاكينوس لقي حتفه يوم أمس قرب الهودج، و غولو أنا من قتله.

ـ يؤسفني ذلك. هو من قام برعايتك، ورعايتي أيضاً.

فأجاب فينيكوس قائلاً :

ـ رغــم أنني أردت أن أعتقه لكن هذا ما حصل. لنتحدث عن ليفيا. روما بحر حقيقي...

ـ الــلآلىء تصطاد من البحر... قد لا نجدها اليوم ولا في الغد، لكننا سنجدها. هــذا أكيد. لقد اتهمتني، بأنني اقترحت عليك طريقة سيئة، لكنهــا كانــت طريقة صالحــة في ذاتها،وتكشــف أنهــا فاسدة حين اتخــذت مجرى سيئا. الم تسمع أولوس يقول أنه يريد أن يرحل وعائلته إلى سيسيليا. وبالتالي كانت ليفيا ستظل بعيدة عنك.

فرد فينكوس قائلاً :

ـ كنت تبعتهم. وكانت ليفيا في أمان. والان لو ماتت الطفلة لأيقنت بوبيا، ولأقنعت القيصر بأن ليفيا هي السبب في ذلك.

ـ أجل. وهذا ما يؤرقني. لكن الطفلة قد تشفى. وفي كل الاحوال، حتى لو ماتت فسنعثر على طريقة ما.

هنا فكر فينيكوس قليلا ثم قال:

ـ كأن بوبيا تعتنق الدين اليهودي، وتؤمن بوجود الارواح الشريرة.

القيصر يؤمن بالخرافة... فلو قمنا بإشاعة أن الارواح الشريرة قد سرقت ليفيا، فسوف يصدق الجميع ذلك، ما دام القيصر لم يقم باختطافها.

وإن لم يكن أولوس هو الذي اختطفها، فاختفاؤها أمر غريب. ليس بوسع العملاق أن يخفيها لوحده. وبفرض أن هنالك من ساعده، فكيف بوسع عبد أن يجمع كل هذا العدد.

- الرقيق في كل أنحاء روما يساندون بعضهم.

- والمدينة كل يوم يمكن أن تدفع دما ثمنا لذلك. أجل يساندون بعضا، ولا يقف أحدهم ضد الاخر. من الواضح أن المسؤوليّة هنا تقع على عاتق عبيدك، وهم المتهمون. إن تطرح فكرة الارواح الشريرة أمامهم، فسوف يؤكدون لك في الحال أنهم رأوا ذلك بأم أعينهم لأن ذلك سيبرئهم أمامك... اختبر الأمر، وأسال أيا منهم: الم تر أحدا يطير ب ليفيا في الجو، فسيقسم بترس زيوس أن ذلك صحيح. وهذا ما حصل.

كان فينيكوس أيضاً خرافي المعتقد. فاتسعت حدقتاه، وخص بترونيوس بنظرات قلقة، وقال:

- إن لم يتوافر لأرسوس رفاق يساندونه، و لم يستطع أن يسرقها، فمن الذي سرقها إذن؟

فما كان من بترونيوس الا أن قهقهه قائلاً:

- أرأيت، حتى أنت صدقت الأمر فكيف هم. سوف يصدقون ويكفون عن البحث عنها، فيما سنقوم نحن بإخفائها بعيدا عن المدينة في إحدى فيلاتك، أو فيلاتي.

لكن مع ذلك، مَنْ المرجح أنه قد ساعد ليفيا؟

فأجاب بترونيوس

- إخوتها في المعتقد

- ومن أولئك؟ أي نوع من الالهة تبجّل هي؟

علي أن أعرف ذلك أكثر منك.

- كل إمرأة في روما تبجل الهها الخاص. ولا شك في أن بومبونيا قد أنشأت ليفيا على تبجيل اله تبجله هي. لكن أي اله هذا، لا أدري. لكن الاكيد أن أحدا لم يشاهد بومبونيا تقدم الاضاحي لأي من الهتنا في أي من معابدنا. حتى أنها اتهمت بأنها مسيحيّة. لكن هذا مستحيل. المحكمة المحليّة برأتها من هذه التهمة. هناك من يقول و هم قلة عن المسيحيين بأنهم يعبدون رأس الحمار، وأنهم أعداء الجنس البشري،،يقدمون على ارتكاب أشنع الافعال. ولهذا السبب بومبونيا ليست مسيحيّة، فخصالها معروفة، وعدو الجنس البشري لا يعامل الأرقّاء بالطريقة التي تعاملهم بها.

قاطعه فينيكوس :

- لا أحد، في أي مكان، يعاملهم بمثل معاملة عائلة الوس لهم.

- أرأيت ! حدثتني بومبونيا عن اله وحيد على الارجح، لا اله غيره. جبار، ورحيم. أما أين القت بالالهة الاخرى، فهذا شأنها. فهل يمكن أن يكون لوغوس الا على درجة من البؤس، وليس جبارا، لو كان من يعبده اثنان فقط هما بومبونيا و ليفيا، وأضيف اليهما أرسوس. هم كثر إذن أولئك الاخوة في المعتقد. وهم من ساعدوا ليفيا.

علق فينكوس قائلاً :

ـ هذا المعتقد يأمر بالتسامح. التقيت بومبونيا عند أكتي، وقد قالت: " سامحك الله على ما سببته لنا ولليفيا من أذيه ".

ـ يبدو أن الههم أمين، و ذو نيّة طيبة عسى أن يشملك بعفوه، ويعيد اليك الفتاة تعبيرا عن ذلك.

ـ لكنت سأقدم له أضحيّة كبيرة غدا. سأستغني عن الطعام، والاستحمام، والنوم. وأتنكر مرتديا عباءة قاتمة ذات قلنسوة وأجوب المدينة، على أمل العثور عليها. أنا مريض.

رمقه بترونيوس بنظرة إشفاق. كانت عينا فينكوس قد توهجتا حقا من الحمى.

كان منكوش الشعر، ولأنه لم يحلق ذقنه في الصباح، فقد غلفت القتامة وجهه، فبدا مريضا بالفعل حتى أن إراس و يونيكي قد خصتاه بنظرة من التأسي.

ولكنه، شأنه شأن بترونيوس لم يكن يراهما، فلم يكترث لوجودهما ولا لوجود الكلاب المتحلقة حوله.

قال بترونيوس:

ـ أنت مصاب بالحمى.

ـ أجل.

ـ اسمعني إذن... لا أدري ما الذي سيصفه لك الطبيب من دواء.

لكنـــي أعرف ما الذي سأقوم به لو كنت مكانك. إلى أن التقيها سأجد في واحــدة أخرى عما أفتقده فيها. رأيت في فيلات أجسادا بديعة. لا ترفضــ... أعرف ما الحب، وأعــرف إذا ما تملك أحدنا الشوق العارم لإحداهن، فلا بديــل عنها، لكن بوسع المرء دائما أن يجد المتعة العابرة في فتاة جميلة من الرق.

ـ لا أريد ذلك.

لكن بترونيوس الــذي أحب حقا قريبه الاصغر، كان يسعى صادقا للتخفيف من معاناته لكن كيف. فتابع بعد وقت قصير قائلاً :

ـ وقد لا يتحفك جماعتك بالنبأ السعيد، لكن انظر إلى هذه الفاتنة. كان لتــوه قد لمح كلا مــن يونيكي و إراس ، فقام أخيرا بوضع يده على مؤخــرة الفتاة اليونانيّــة الشقراء هل رأيت عيناك جســدا أجمل. الوم نفسي لعدم أكتراثي بها حتى هذا اليوم. إنها هديتي لك، خذها معك.

وبسمــاع يونيكــي الشقراء هــذه الكلمــات لف هــا الشحوب، ونظــرت جامدة إلى فينيكوس بعينين جافلتين، كأنما تنتظر رد ه بأنفاس مقطوعة.

لكن ما كان منه الا أن قفز فجأة، وعصر رأسه بكلتا يديه زائرا :

لا... لا... لا. لا أريــد أحــدا غيرها... شكــرا، لكن لا. سأذهب وأبحث عنها في المدينة : أعطني عباءة سأعبر إلى ضفة تيبرس الاخرى. يمكن أن أجد أرسوس على الاقل.

وخرج مسرعا.

أمـا بترونيوس وقد رأى أن الشاب لا يحتمل الانتظار، فلم يحاول إرجاعـه. لقد فهم من رد فينيكوس بعدم تقبلـه أي إمرأة أخرى سوى ليفيا، أنه كان ردا أيضاً لا يسري الا في اللحظة العابرة بالذات. لذا فقد خاطب يونيكي قائلاً :

- يونيكي! استحمي، وتعطري، وبد لي ملابسك، ثم اقصدي منزل فينيكوس.

لكن الفتاة جثت أمامه متوسلة إياه الا يبعدها عن هذا البيت. وهي لا ترغـب في الذهاب إلى فينيكوس. الافضـل لها أن يجلدها كل يوم ولا يبعدها عن بيته.

ومـدت نحوه يدين مرتجفتين مذعورتـين. كان بترونيوس يسمعها ذاهلا. عبدة تقوم برفض الأمر قائلة: " لا أريد، لا أحتمل".

شـيء لا يحدث في روما، ما جعل بترونيوس يكذ ب أذنيه. ولكنه في نهايّـة الأمر أرخى حاجبيه، وكان ظاهره الطف بكثير من أنه يبدي القسوة. وعلى العموم فقد كان أرقاؤه، خاصة في هذا الزمن، يتمتعون بحريّة كبيرة مقارنة بالأرقّاء في منازل أخرى، شرط أن يؤدوا خدماتهم علـى أكمل وجه، و يولوا سيدهم كل الاحـترام، و أوامره أشبه بأوامر الاالهـة. وخروجهم عـن ذلك يعني تعرضهم دون تـوانٍ لأشد أنواع العقاب. و الان بما أن ما قامت به الفتاة لا يندرج ضمن نطاق المعصيّة، فقد التفت إلى الفتاة الجاثيّة قائلاً :

- استدعي تيراسياس وعودي معه.

نهضـت يونيكي مرتعشة دامعة العينين، وخرجت. ثم ما لبثت أن عادت برفقة تيراسياس ناظر الأتريوم.

قال بترونيوس آمرا :

- خـذ يونيكـي، واجلدها خمسـا وعشرين، لكـن دون أن تلحق بجلدها أي أذى.

ثـم عبر إلى المكتبـة وجلس إلى طاولة رخاميّة ورديّـة. و بدأ العمل بمؤلفه مأدبة تريمالسيو.

لكـن هروب ليفيا، ومرض الأوغستينا الصغـيرة، قد شتتا أفكاره، وحـالا دون قدرتـه على العمـل طويـلاً. كان مرض الصغـيرة واقعة في غايّـة الاهميّة. خطر لـه: إن ظن القيصر أن ليفيا هـي التي أصابت الاوغستينا الصغيرة بالعين، معنى ذلك أن المسؤوليّة ستطاله أيضاً، لأن الفتاة قد دخلت القصر بناء على طلبه.

لملـم مخاوفه وعزم على النـزول إلى التريسلينوم، ليشرب شيئاً، ومن هنـاك مباشـرة يذهب إلى القصر، ثـم إلى ميدان مارسـ وبعدها يقصد كريسوثميس.

وفي طريقـه إلى التريسلينيوم لمح عند مدخـل جناح الخدم يونيكي بقدهـا الممشوق، وخطر لـه أن طلبه من تيراسياسـ لا يتعدى جلدها خمسـا وعشرين جلدة. ضـم حاجبيه، وراح يجـول بعينيه بحثا عن الناظر.

ولما لم يجده بين الخدم، التفت نحو يونيكي :

- هل نلت عقوبتك؟

وأجابت قائلة بصوت كأنه مشوب بالسعادة والامتنان

ـ أجل يا سيدي، نلتها، أجل يا سيدي !

كان باديـا عليهـا تماماً اعتقادها بـأن ما تلقته من عقـاب بديل عن مغادرتها المنزل، وقد بات بوسعها الان ان تبقى.

وسرعان مـا أدرك بترونيوس أن م انعتها تخفي دافعـا من المعاناة استغرب طبيعته.

لكنـه كان عالما محنكا بالطبيعة الانسانيّة، جعلته خبرته يضع الحب، وليس أي سبب آخر، وراء سلوك الفتاة.

سألها:

ـ هل محبوبك في هذا البيت؟

رفعت عينيها الزرقاوين الدامعتين و أجابت بصوت يكاد لا يسمع:

ـ أجل يا سيدي.

وكم بدت جميلة بعينيهـا الزرقاوين، وارتداد جدائلها الشقراء إلى الوراء، وتعابير الذعر، و الامل الباديّة على وجهها، وهي تنظر متوسلة إلى سيدها بترونيوس الـذي أفصح هو نفسه أيضاً معترفا، كفيلسوف، بقوة الحب، ومفصحا عن تقديره للجمال بصفته فنانا. شعر بشيء من الشفقة إزاءها. سألها مشيرا برأسه إلى طاقم الخدم.

ـ أيهم حبيبك؟

و بـدلا أن يلقى ردا منتظرا مـن الفتاة، قامت يونيكي بإحناء رأسها تماماً بين قدمي سيدها، وتجمدت على هذا الحال،

جال بترونيوس بعينيه على الأرقّاء. كان من بينهم شبان وسيمون، وأصحاء الاجسام، لكنه لم يستطع قراءة شيء على وجوههم، سوى تلك الابتسامة الغريبة القابعة عليها. القى نظرة أخيرة إلى يونيكي الراكعة عند قدميه، وانطلق إلى التريسلينيوم دون أن ينبس حرفا.

وبعد تناول الطعام ذهب إلى القصر، ومن هناك قصد كريسوثميس وأمضى عندها القسم الاطول من الليل. وما إن عاد حتى استدعى الناظر بتراسياس ليسأله :

ـ هل نالت يونيكي عقوبتها؟

ـ أجل سيدي لكنك لم تسمح بالحاق الاذى بجلدها.

ـ الم آمرك بشيء أخر يتعلق بها؟

ـ لا يا سيدي.

ـ حسنا. من يكون حبيبها من بين الأرقّاء؟

ـ لا أحد يا سيدي.

ـ ماذا تعرف عنها؟

راح تيراسياس يتكلم متعلثما :

ـ يونيكي لا تغادر المهجع حيث تنام كل ليلة مع العجوزين أريسيون و إفيس. وبعد أن تنهي استحمامك يا سيدي، لا تبقى في الحمام مع الاخريات لأنهم يهزأن منها، ويدعونها ديانا.

قاطعه بترونيوس قائلاً :

ـ كفى. قريبي فينيكوس الذي أهديته يونيكي في الصباح لم يستقبلها، فاضطرت للبقاء في المنزل. بوسعك الانصراف.

ـ هل لي أن أكلمك أكثر عن يونيكي يا سيدي؟.

ـ أمرتك أن تفصح عن كل ما تعرفه عنها.

ـ كل العائلة تتحدث عن هروب تلك العذراء التي كان عليها العيش في كنف فينيكوس النبيل... جاءت الي يونيكي وقالت إنها تعرف أحدا يستطيع أن يجدها.

ـ آ ! صرخ بترونيوس ومن يكون؟

ـ لا أعرفه يا سيدي. لكنني فكرت أن علي إخبارك بالأمر.

ـ حسنا. لينتظرني ذاك غدا هنا في منزلي وقل له باسمي أن يبدأ بالبحث عنها منذ الصباح.

انحنى اترينسيس وانصرف.

أما بترونيوس فقد وجه نفسه لا إراديا يفكر بيونيكي.

بادئ الأمر دار في باله أن من الطبيعي أن تتمنى يونيكي عثور فينيكوس على ليفيا، لأنها في هذه الحالة لا تضطر إلى أن تكون بديلا لفتاة في منزله. لكن سرعان ما خطر له: لعل الشخص الذي ستقدمه يونيكي هو محبوبها الخاص. وهي فكرة أيقظت في نفسه شعورا بالضيق. كان بمقدوره بالطبع أن يقف ببساطة على الحقيقة، بعد أن يستدعي يونيكي لكن الوقت بات متأخرا، وهو كان مرهقا بعد قضائه فترة طويلة عند كريسوثميس، فسارع إلى النوم وخلال مسيره إلى الفراش

خطر له أنه في أثناء زيارته لاحظ على زاويتي عيني كريسوثميس بعض التجاعيـد الناعمة. كما دار في ذهنه أن صيت جمال كريسوثميس في روما أقل بكثير ممّا يستحق، وأن مونتيوس كابيتو الذي قدم له ثلاثة من الشبان مقابل يونيكي كان يريد الحصول على الفتاة بثمن بخس جدا.

١٣

مـا إن انتهـى بترونيوس، في اليـوم التالي مـن ارتـداء ملابسه في الانكتواريـوم، حتى وصل فينيكوس الذي استدعاه تيرسياس. كان قد علم أن حراس المداخل لم يزودوا أحدا بأيّة أخبار جديدة.

و بدلا من أن يريحه هذا الأمر باعتباره برهانا على أن ليفيا لم تغادر المدينة، فقد صدمه حين خالجه ظن بأن أرسوس ما إن حرر الفتاة حتى فـر بها حالا من المدينة قبـل أن ينشر بترونيوس أرقّـاءه على مداخلها. صحيـح أنهـم يقومون بإغلاق المداخـل في الايام الخريفيّـة القصيرة، في وقـت ابكر، الا أنهم يفتحونها أمـام المغادرين الكثر. لكن الخروج مـن المدينـة كان يتم بطرق مختلفـة يعرفها أولئك الأرقّـاء الراغبون في الهـروب. كان فينيكوسـ قد نشر رجالـه على كافة الـدروب المؤديّة إلى الاريـاف، وأبلغ حراس المدن الصغرى عـن الرقيقين الفارين ليفيا و أرسوس ، بأدق أوصافهما، معلنا عن جائزة قيمة لمن يقبض عليهما. حتـى أن فينيكوس نفسه قام بعمليّة البحـث في أزقة المدينة بعد تخفيه بلباس الرقيق، لكنه لم يجد لهما أثرا أو دليلا يؤدي اليهما. صادف في تجوالـه جماعة أولوس. التي كانت في الغالب تبحث عن ليفيا، ممّاعزز اليقـين لديه بأنه لا علاقة لعائلة أولوس باختطافها، ولا حتى بمعرفة أي شيء عنها.

إذن حـين أعلم تيرسياس بأن هنالك مـن يتكفل بالعثور على ليفيا، سارع في المجيء لاهثا إلى بترونيوس. وما إن رحب كل بالاخر، حتى

بـادر إلى الاستفسـار عـن ذلك الشخص. هـدأ بترونيوس من روعه قائلاً:

- سنرى في الحال. إنـه أحد معارف يونيكي. علـى أيّة حال الفتاة قادمة لتعمل طيات ثوبي، وهي ستخبرنا عن كثب.

- فتاة الأمس التي أردت أن تقدّمها لي؟

- فتاة الامس التي رفضتها، وأنا شاكر لك هذا لأنها الاميز في المدينة كلها.

و لم يكـد ينهي كلامه حتـى دخلت الفتاة. أمسكـت عباءته الملقيّة فـوق الكرسي الموشاة بالعـاج، وخلعتها على كتفـي بترونيوس. كان وجهها نقيا وهادئا وعيناها تبرقان بالبهجة.

رمقها بترونيس فرآها في غاية الجمال.

وبعـد لحظـات، حين بـدأت تلقط ثوبـه في طيـات، وانحنت إلى الأسفل، لاحظ أن ذراعيها بديعـان بلونهما الوردي، وصدرها قفص من اللؤلؤ، بل من المرمر الصقيل المشع.

سألها:

- يونيكي هل حضر الشخص الذي حدثت تيرسياس عنه البارحة؟

- أجل سيدي.

- ما اسمه؟

- شيلون سيلونيدس، يا سيدي.

ـ من يكون؟

ـ طبيب، وحكيم، وعراف يقرأ أقدار البشر، ومستقبلهم.

ـ هل قرأ مستقبلك؟

خجلت يونيكي وغمرت الحمرة جيدها وأذنيها.

ـ أجل يا سيدي.

ـ وماذا قرأ؟

ـ الألم والسعادة.

ـ الألم كان البارحة على يد تيراسياس. و الآن جاء دور السعادة

ـ لقد جاءت يا سيدي.

ـ وما هي؟

ـ همست الفتاة قائلة:

ـ بقيت هنا.

وضع بترونيوس يده على شعر الفتاة الاشقر:

ـ لقد قمت بالتقاط الطيات على أكمل وجه. أنا راضٍ عنك اليوم يا يونيكي.

بهذه اللمسات غمرت عيني الفتاة غشاوة من السعادة، وتموج صدرها سريعا.

أمـا بترونيوس فقد اصطحـب فينيكوس إلى الأتريـوم حيث كان شيلـون سيلونيدس بالانتظـار. حـين لمحهما قـدم انحنـاءة عميقة. ارتسمت ابتسامة على فم بترونيوس حين تذكر ظنّه يوم أمس بأن هذا الشخص قد يكون حبيب يونيكي، فالرجل الذي ينتصب هنا لا يمكن أن يكـون حبيبا لأحد. هيئة شوهاء غريبة فيها من القبح الشديد مقدار ما ينبعث منها على الإضحاك.

لم يكن بعـد، عجوزا يغـزوه الشيب، سوى القليل مـن الشعرات البيضـاء هنـا وهنـاك في رأسه ولحيتـه. منبعج البطـن، مقوس الظهر، أحـدب يقبع فوق حدبتـه البادية منـذ الوهلة الأولى، رأسـه الاشوه، ووجهـه القردي الثعلبي معا. صـادم الملامح، كثرت الانتفاخات على بشرة وجهـه الشاحب، ولكنهـا غطت أنفه بالكامل، مـا يشهد على إدمانه الكحولي. رثّ الثياب وهي عبارة عن عباءة قاتمة من جلد الماعز، تنـم عـن البؤس. ما إن وقعـت عينا بترونيوس على هـذه الهيئة، حتى ذكرته بشخصيّة ثرثيتس عند هوميروس.

بتقـديم الرجل الانحناءة العميقـة إذن، رد بترونيوس التحيّة بحركة من يده قائلاً :

- تحيّـة لك يـا ثرثيتس الالهـي! كيف حال دمّلاتـك التي حصلت عليها من أوليسيس، وماذا يفعل هو نفسه في الحقول الاليسـوميّة؟

فأجاب شيلونيدس:

- يـا بترونيوس النبيل! أوليسيس الأكـثر حكمة بين الاموات يرسل لـك معي تحياته، أنت الأكثر حكمة بـين الاحياء، راجيا إياك أن تغطي دمّلاتي بعباءة جديدة.

صاح بترونيوس:

ـ هيكات تريفورميس! هذا الجواب يستأهل عباءة...

لكن تدخل فينيكوس الفارغ الصبر ليقطع الحديث بسؤال مباشر منه:

ـ هل تعرف لم أنت هنا؟

أجاب شيلون قائلاً:

ـ إن كانت عائلتا أفخم منزلين لا حديث لهما سوى هذا الحديث، ترده وراءهما نصف روما، يكون من الطبيعي أن أعرف بالأمر. ليل أمس قاموا باختطاف عذراء ترعرعت في كنف أولوس بلاوتيوس. اسمها ليفيا وبالأحرى كالينا. اختطفت الفتاة يا سيدي عندما كان أرقاؤك يصطحبونها من قصر القيصر إلى مكان يخصك. أنا سأتكفل بالبحث عنها في المدينة. وإن كانت قد غادرتها، وهذا احتمال ضعيف، سأدلك يا سيدي النبيل إلى أين هربت وأين تختبئ.

فأجاب فينيكوس الذي أعجب بالرد الدقيق:

ـ حسنا. وماذا تملك من أدوات لذلك؟

ابتسم شيلون بمكر:

ـ أنت من يملك الادوات يا سيدي. أنا لا أملك سوى عقلي.

وابتسم بترونيوس كذلك، فقد كان مغموراً بالرضا من ضيفه. فكر: " هذا الرجل يمكن أن يعثر على الفتاة ".

قطب فينيكوس حاجبيه و قال:

ـ إن كنت تخدعني من أجل التكسب، سأجلدك حتى الموت.

أنـا فيلسوف يا سيـدي والفيلسوف لا يكـون متكسبا. خاصة إن كان الكسب ما وعدت به.

ـ آقـال بترونيوس إذن أنت فيلسوف. قالـت يونيكي إنك طبيب وقارئ مستقبل. كيف تعرفت على يونيكي؟

ـ قصدتني بنصيحة، بعد أن سمعت عني.

ـ و بأي خصوص طلبت نصيحتك؟

ـ مسالـة حـب يا سيـدي. كانت ترغـب أن تشفى مـن حب غير متبادل.

ـ وهل أشفيتها؟

ـ فعلـت لها الكثـير يا سيـدي. أعطيتها تميمة للحـب المتبادل. في بابوس في جزيرة قبرص معبد يحتفظ بزنـار فينوس. أعطيتها خيطين منه مغلفين بقشر اللوز.

ـ وهل طلبت ثمنا ضخما؟

ـ الحـب المتبادل ليس غـالي الثمن. لكن.بما أني فقـدت أصبعين في كفـي اليمنى، فأنـا أقوم بادخار مـا يلزم من نقـود، أسديها لمن يقوم بتدوين أفكاري ويحفظ تعاليمي للأجيال القادمة.

ـ و إلى أي مدرسة تنتمي، أيها الرجل الحكيم الرباني؟

ـ أنـا سينيكي يا سيدي، لأن عباءتـي مثقبة،وأنا ستويكي لأني أصبر علـى البؤس، وأنا بريتكي لأني لا أملك عربـة مشاة وأتنقل ماشيا من حانـة إلى أخرى،وفي الطريق أقوم بمحادثة أولئك الذين لا يتوانون عن دفع إبريق من النبيذ لقاء تعاليمي.

ـ و إلى جانب قدح النبيذ تتحول إلى خطيب؟

ـ قـال هيراقليطـس : "كل شيء يسيل" هل تنكر يا سيدي أن النبيذ سائل؟

ـ وتقول أن النار الوهيّة وهذه الالوهيّة تشتعل فوق أنفك.

ـ لكـن ديوغنس الالهي الابولـوني الفائق الجمال قـال: إن جوهر المسالـة الهواء. وكلما كان الهواء أسخن أنتج كائنات حيّة أكمل. ومن أكثر الهواء سخونة يولد الحكماء. وفي أوقات الطقس الخريفي الباردة يلجـأ الحكيم الحـق إلى أن يدفئ روحه بالنبيـذ... فأنت لا تستطيع أن تنكـر، يا سيدي، أن قدحا واحدا منه ينشر الدفئ في كافة عظام الجسد الانساني السقيم.

ـ و أين تقيم يا شيلون شيلونيدس؟

ـ على ضفة أوكسينوس أنا من ميسانبريا.

ـ أنت إنسان عظيم يا شيلون.

ـ لكني مساء الفهم رد الحكيم متجهما.

لكن فينيكوس فقد صبره ثانيّة. الان وقد برق الامل أمام عينيه ود لـو انطلق شيلون حـالا لأداء مهمته. وبالتالي اعتـبر هذه المحادثة الان

مضيعة للوقت، ولا تجدي نفعا، حتى أنها أزعجت بترونيوس الذي سال اليوناني:

ـ ومتى تبدأ البحث؟

ـ لقد بدأته. وما دمت هنا وأجيب عن تساؤلاتك،فأنا أبحث عنها. كن على ثقة، أيها السيد المحترم، وليكن في معلومك إنني إذا ما أضعت فردة صندلك بوسعي أن أجدها أو أدلك على من انتشلها في الطريق،

ـ هل قمت بعمل مشابه قبل الان؟

ـ رفع اليوناني عينيه نحو السماء :

ـ لا قيمة كبرى هذه الايام للأخلاق والحكمة، وهذا ما يجعل الفيلسوف مضطرا للبحث عن مجالات أخرى للحياة.

ـ أي إمكانيات لديك؟

ـ معرفة كل شيء. تزويد من يرغبون بالانباء.

ـ وبالتحديد لمن يدفعون لقاء ذلك؟

ـ آ. سيدي. علي أن أحصل على كاتب يدون تعاليمي كي لا تندثر بعد موتي.

ـ إن كنت لم تجمع حتى الان ثمنا لعباءة، فكيف تكون مؤهلاتك كافيّة.

ـ بؤسي حجاب يمنعني من إظهار مؤهلاتي. المؤهلات هذه الايام، تقاس بما يملك الناس من ذهب. ليست مؤهلاتي بالقليلة لكن المحسنين

هم القلة. لا حمد ولا شكر. إذا ما هرب رقيق ذو أهميّة، فمن سيجده إن لم يكن ابن الله. وإذا ما ظهرت على الجدران كتابات عن بوبيا، فمن سيدل على الفاعلين؟ من يلتقط ومن يحصي عدد بائعي الكتب، الاشعار التي تتحدث عن القيصر؟ من يطلع على ما يهمس به من أحاديث في منازل السيناتورات والفرسان؟ من يوصل الرسائل التي لا ثقة بالأرقّاء لإيصالها؟ من يستمع إلى الانباء الجديدة أمام أبواب الحلاقين؟ أمام مَنْ لا أسرار لعمال المخابر والخمارين؟ بمن يثق الأرقّاء؟ ومن الذي يرى كل ما يدور في المنازل بدءا من الأتريوم حتى الحديقة؟ من يعرف كل شارع، و زقاق، ومخبأ؟ من يعرف ما يدور من أحاديث في السيركات، والاسواق، ومدارس المصارعة، وتجار الرقيق، وميادين المجالدة؟

صاح بترونيوس:

ـ بحق الالهة، كفى أيها الحكيم النبيل، فقد أغرقتنا في طوفان مؤهلاتك. كفى! أردنا أن نعرف من تكون. و ها قد عرفنا!

لكن فينيكوس كان سعيدا لمجرد أن فكر: حتى لو كان هذا الشخص كلب صيد، فإذا ما أطلق وراء الفريسة لن يدعها حتى يكتشف مخبأها. قال:

ـ حسنا. هل تحتاج إلى مرافق يرشدك على الطريق.

ـ أحتاج إلى سلاح.

فسأله فينيكوس مستغربا :

ـ وأي نوع من الاسلحة.

فتح اليوناني إحدى كفيه، وراح يتصرف باليد الأخرى وكأنه يعد نقودا. وقال متنهدا :

ـ هكذا أزمنتنا هذه الأيام يا سيدي.

علّق بترونيوس قائلاً :

ـ أنت ستكون الحمار الذي يريد أن يحصّن القلعة بأكياس الذهب.

فأجاب شيلون بخنوع:

ـ أنا لست سوى فيلسوف فقير، أما الذهب فلكم.

رمى فينيكوس نحوه كيسا من الدراهم، فتلقاه اليوناني بحركة خاطفة أظهرت كفه اليمنى و قد فقدت أصبعين من أصابعه.

ثم رفع رأسه قائلاً :

ـ سيدي. صرت أعرف أكثر ممّاتعتقد. لم آت اليكم فارغ اليدين. أعرف أن العذراء لم يخطفها أولوس، لأني تأكدت من ذلك في حديثي مع خدمه. وأعرف أنها ليست في القصر حيث ينشغل الجميع بمرض الطفلة. ولقد بدأت أخمن لماذا تفضلون البحث عنها بمساعدتي، لا بالاستعانة بجنود القيصر. أعرف أن من رتب هروبها شخص من بلدها. وأن هذا الشخص لم يكن ليحظى بمساعدة من الأرقّاء لأنهم سيرفضون تقديم العون ضد أرقائك. إذن لم يساعده إلا إخوته في المعتقد.

قاطعه بترونيوس قائلاً:

ـ أتسمع يا فينيكوس؟ الم أخبرك ذلكَ بالحرف؟

فقال شيلون بتواضع :

ـ المسالة واضحة وضوح الشمس

ثم التفت إلى فينيكوس ثانيّة و استأنف يقول:

ـ لا ريب في أن الفتاة تعبد ذات الاله الذي تعبده الراعيّة الحقيقيّة بومبونيا أطهر نساء روما. لقد سمعت أيضاً أن بومبونيا وقفت أمام المحكمة القيصريّة لعبادتها اله آخر، لم أتمكن من انتزاع اسمه من بين أفواههم، ولا معرفة ما يسمى أتباعه. لو كان بوسعي معرفة ذلك لذهبت اليهم، وصرت الاشد تدينا بينهم لأكسب ثقتهم. لكنك يا سيدي وأنت الذي أمضيت بضعة أيام في منزل المحترم أولوس، فهل استطعت أن تستشف شيئاً من هذه المسالة؟

فأجاب فينيكوس :

ـ لا.

ـ لقد سالتموني مطوّلاً، يا سادتي الكرام، واستفسرتم عن كثير من القضايا، وأنا أجبت عن كافة اسئلتكم، فاسمحوا لي الان أن أسالكم بدوري. هل دققت عيناك يا سيدي على رسم أو تمثال، أو تميمة، أو شارة لدى بومبونيا أو ليفيا؟ الم تلحظ أنهما تبادلتا رموزاً معينة لا يفهمها سواهما؟

ـ رموز؟... مهلاً ! أجل! لقد رأيت ليفيا ترسم سمكة في الرمال.

ـ سمكة؟ آآ! أووو ! هل فعلت ذلك مرة واحدة أم أكثر؟

ـ مرة وحدة.

ـ هل تفهم معنى ذلك؟

فصاح شيلون :

ـ وكيف لي أن أفهم؟!

ثم أضاف وهو ينحني للوداع:

ـ حظا سعيدا يا سادتي المحترمين!

ردّ بترونيوس تحيّة الوداع قائلاً :

ـ خذ لنفسك عباءة

فأجاب العجوز:

ـ لتكن تحيّة أوليسيس لك بدلا من ترسيتس

وانحنى ثانيّة قبل أن ينصرف.

سأل بترونيوس فينيكوس :

ـ ما قولك في هذا الحكيم النبيل؟

فأجابه فينيكوس بترحاب:

ـ سوف يعثر على ليفيا. أنا أزعم لو كان للترونيين بلاد لكان ملكهم.

ـ دون أدنى ريب. علي أن أتعرف على هذا الرواقي عن كثب. و إلى أن يتم ذلك سوف أبخر الأتريوم وراءه.

أمـا شيلون، وقـد التحف العبـاءة الجديـدة، وراح يلاعب كيس

الدراهم كالكرة براحته، وينقله من كف إلى كف مستمتعا بثقله وخشخشة نقوده، كان يخطو ببطء وينظر وراءه بين الحين والاخر، مستكشفا إذا ما كانوا يراقبونه من منزل بترونيوس.

قال لتنفسه :

ـ علي أن أعود إلى اللص سبوروس، وأجترع كأسا حبا بنورتونا. أخيرا عثرت على ما أبحث عنه منذ زمن. شاب، ومتحمس، ومعطاء كمناجم قبرص، وعلى استعداد للتخلي على نصف ثروته مقابل تلك الفتاة. مرادي وقد تحقق. لكن لا بد من الحذر في التعامل معه لأن تقطيبة حاجبيه لا تعد بما هو حسن. الثعالب هي التي تحكم العالم هذه الايام. لا أخاف بترونيوس كما أخافه. يا أيتها الآلهة! لمَ المهن المخادعة تحقق مكاسب أكثر من الفضيلة؟ هه. إذن رسمت سمكة في الرمال؟ فلأفطس من لقمة جبن الماعز إن كنت أعرف ماذا يعني ذلك؟ لكني سأعرف فيما بعد. بما أن الاسماك تعيش في المياه، فالبحث داخل الماء أصعب من اليابسة. عليه أن يدفع دفعة خاصة من أجل تلك السمكة. كيس دراهم آخر، وأرمي بجعبة التسول، وأشتري عبدا. لكن ما قولك يا صديقي شيلون إذا ما ابتعت عبدة بدلا من العبد. أنا أعرفك، وأعرف أنك تفعلها ! و إذا كانت جميلة مثل يونيكي على سبيل المثال، فسوف تستعيد شبابك، وتحقق زيادة في المدخول إلى جانبها. مسكينة يونيكي لقد بعتها خيطين من عباءتي الباليّة. فتاة حمقاء. لكني أقبلها هديّة من بترونيوس. أجل يا شيلون يا بن شيلون لقد فقدت أباك و أمك وصرت يتيما. فاقتنِ رقيقة على الاقل تعوضك عنهما. لكن أين ستقطن؟ على فينيكوس أن يستأجر لها منزلا. ويجب أن تلبس أيضاً. على فينيكوس أن يجلب لها الالبسة. ومن سيطعمها؟ فينيكوس أيضاً سيزودها بالطعام. آه، ما أصعب الحياة. أين تلك الازمنة حينما كان

كل شـيء رخيصا. لأعـد إلى سبورس اللص. إلى جانـب النبيذ يسهل معرفة كل شيء.

وهكذا، بهذه الـروح العاليّة من التأمل دخل الخمارة. طلب قدحا مـن النبيذ الاحمر. وحين لاحظ تذمر الساقـي أخرج ذهبيّة من كيس الدراهم، ووضعه على الطاولة و قال:

ـ يا سبوروس ! منذ الصباح إلى الان كنت أعمل مع سينكا. انظر ما أعطاني صديقي مكافأة لي.

ازدادت لهـذا المشهـد استدارة عينـي سبورس الدائريتـين أصلا، وسرعـان ما كانت القدح أمام شيلون،الذي بلل أصبعيه بنبيذها ورسم سمكة على الطاولة. ثم سال:

ـ هل تعلم ما معنى هذه؟

ـ هذه السمكة؟ إنها سمكة. السمكة سمكة.

ـ يـا لغبائـك. لقد مـددت النبيذ بكميّـة زائدة من المـاء حتى صار صالحا لحياة السمـك. هذا رمز يعني في لغة الفلاسفة : ابتسامة الحظ. لو عرفت لكنت حصلت على ثروة : أعط الفلسفة قسطا من الاحترام والا سأقصـد خمارة أخرى، طالما شجعني صديقي بترونيوس منذ مدة على ارتيادها.

١٤

في الأيـام القليلة التاليّة لم يظهر شيلـون في أي مكان. و فينيكوس منـذ أن أخبرته أكتي أن ليفيـا قد أحبته زادت رغبتـه أضعافا مضاعفة لإيجادها.

فهـو إذن أراد أن يبحث عنها بكل جوارحـه، الا انه لم يكن يريد، و ليس بمقـدوره أساسا، بسبب مرض الصغـيرة، أن يتوجه إلى القيصر المذعور لطلب المساعدة.

لم تجـد نفعـا لا القرابين التي قدمـت في المعابـد، ولا الصلوات و الابتهـالات، ولا علـوم الطب ولا حتـى الوسائل السحريّـة التي يتم اللجوء اليها، في نهايّة المطاف. ماتت الطفلة بعد أسبوع و غرق البلاط بحداد عم روما بأسرها.

ومثلمـا انشرح صدر القيصر ابتهاجًا بـولادة الطفلة، كذلك استبد بـه القنوط وضاق ذرعًا بحياته، فانكفأ على نفسه و أوصد باب غرفته مدة يومين لم يذق خلالها شيئاً، و لم يخرج لمقابلة وفود الحشود المعزيّة مـن السيناتـورات والنبلاء. اجتمـع مجلس الشيـوخ في جلسة عاجلة أعلـن خلالها الطفلـة الميتة الهة، وقـرر إقامة معبد لأجلهـا، وأوصى بتعيين كاهن خاص له. وقدمت القرابين في المعابد الاخرى على روح الفقيـدة، وسبكت لهـا التماثيل من أثمن المعـادن. كان حفل تشييعها حفـلا مهيبا بلا مثيل، رأى فيـه الشعب بأم عينه مـا تركته الكارثة في نفس القيصر من الم لا حدود له. فشاطره الناس البكاء.

أقلقت حادثة الوفاة هذه بترونيوس. صارت روما بأسرها تعرف أن بوبيا قد أرجعت سبب موت الطفلة إلى الاصابة بالعين. وهذا ما أكده حتى الاطباء ليغطوا فشلهم بشفائها، وحتى الكهنة بما أن كافة قرابينهم قد ذهبت جزافا دون أن تجدي نفعا، والمشعوذون الذين باتوا يرتعدون خوفا على حياتهم كباقي الشعب. بترونيوس الآن أسعده هروب ليفيا، خاصة وأنه لم يكن راغباً في الحاق الاذى بعائلة أولوس، وأنه بالطبع يتمنى كل الخير لنفسه ولفينكوس. وهكذا ما إن انتهى الحداد في القصر، حتى أسرع إلى موعد استقبال القيصر للسيناتورات والنبلاء، ليقف على مدى تصديق نيرون لأنباء الاصابة بالعين، ويتمكن من اتخاذ الاجراءات الاوليّة اللازمة لما يترتب على ذلك من نتائج محتملة. بمعرفته لنيرون، وضع بتصوره أن القيصر و إن لم يكن يؤمن بفتنة العين، فسوف يتصرف وكأنه يؤمن بها لأكثر من سبب. فبإيمانه بها يخادع الامه ويتمكن من إيقاظ نقمته على أحد ما. بصحة مثل هذه الانباء دلالة على أن الالهة بدأت تنتقم منه على شنائعه وشروره. وبمعرفته له أيضاً كان على يقين أن القيصر و إن بدا حبه للطفلة عنيفا و بلا حدود لكنه ليس حبا عميقا و وفيا بحيث لا يتمكن من تجاوز الامه. و لم يكن بترونيوس على خطأ. كان القيصر يصغي إلى المعزين من السيناتورات والفرسان بسحنة حجريّة، وعينين جامدتين تحدقان بثبات في نقطة وحيدة لا تتبدل.

لقد بدا، و إن كان في حقيقة الأمر يعاني بعض الشيء، متكلفا أمام الحضور، يبالغ في إظهار ما للحادثة من تأثير عليه. تصنع في وضعيّة جلوسه، وثبات نظراته، و لعب دور الوالد المفجوع، لكن على نحو يقوم به ممثل كوميدي. لكنه لم يكن ليقوى على الحفاظ على تعابير الحزن الجامدة تلك، فكان بين الفينة و الاخرى يبدي بعض الحركات. تارة كأنما يرش الرمال على رأسه و تارة أخرى يئن

بفظاظـة، لكنه حين لمـح بترونيوس قفز و صـاح بصوت تراجيدي يسمعه الجميع:

ـ أهـووو... أنت كذلك سبـب موتها! أنت الـذي جئت بالروح الشريرة إلى هذا المنزل لتنتزع بنظرة منها الحياة من صدرها... يا ويلي! يا عمى عيني! يا ويلي! أهووو! أهووو!

واشتد صوته يطلـق التأوهات اليائسة. لكـن بترونيوس سرعان ما تقدم منـه و سحب المنديل الحريري من حول عنق القيصر، وشده على فم نيرون. و قال بجهامة :

ـ سيدي! احرق بالملك روما والعالم بأسره لكن احرص على صوتك من أجلنا.

ذهل الحضـور. و فوجئ القيصر للوهلـة الاولى. وحده بترونيوس حافـظ على رباطة جأشـه. كان يدرك ماذا يفعل. تذكـر ما كان يفعل تيربونوس و ديودروس حين يرفع القيصر صوته : يغلقان فمه، لكي لا يتأذى صوته.

و استأنف يقول بصوت جاد مشوب بالحزن :

ـ أيهـا القيصر ! لقد تكبدنا خسارة فادحة لا تعوض. فلنحافظ على هذا الكنز عزاء وحيدا لنا.

تجمـد وجه القيصـر، وسرعان مـا دمعت عيناه، ومـال على ذراع بترونيوس مسندا رأسه على صدر صديقه. وكرر منتحبا :

ـ أنت الوحيد الذي خطر لـه ذلك.أنت الوحيد من بينكم جميعا. أنت الوحيد.

شحب تيفاليتوس من الغيرة. أما بترونيوس فقد أجاب :

ـ اذهب إلى الأنتيوم حيث ولدت الطفلة و رأت النور. هناك ستغمرك السعادة، وتحوز على العزاء. دع هواء البحر ينعش رئتيك، ويمتلئ صدرك بالرطوبة المالحة نحن أنصارك سنرافقك أينما حللت، و نبلسم جرحك بصداقتنا. و أنت تشفينا بغنائك.

فأجاب نيرون با لم:

ـ أجل. سأكتب من أجلها نشيدا و أقوم بتلحينه.

ـ وسنحوذ بعدها على أشعة الشمس الدافئة. وعلى السلوان في بلاد الإغريق.

ـ في بلاد الإغريق، بلاد الشعر، والغناء.

و كما تنقشع الشمس من خلف الغيوم، تخلص المصعوق من جهامته شيئاً فشيئاً، و أخذت الاحاديث الحزينة في ظاهرها تتطرق إلى الخطط الاتيّة و السفر، والفن، وحفلات الاستقبال على شرف ملك تيرداتس و أرمينيا. وتطرق تيغالنيوس ثانيّة إلى موضوع الاصابة بالعين، لكن بترونيوس قبل التحدي واثقا من فوزه فسال:

ـ هل تقول يا تيغالنيوس ان الاصابة بالعين يمكن أن تلحق الاذى بالالهة؟

فأجاب رجل البلاط القيصري :

ـ القيصر نفسه تحدث عنها.

ـ كان الألم من نطق بذلك، وليس القيصر. لكن ما رأيك أنت في المسألة؟

ـ الالهة أعظم بكثير من أن تتمكن الاصابة بالعين أن تلحق بها الاذى.

ـ أنت تنكر إذن على القيصر و عائلته الطبيعة الالهيّة؟

فأجاب مارسيلوس الجالس في مكان قريب، مرددا نفس عبارة الجمهور حين تلقى المجالد جرحا بليغا لا يحتاج بعده إلى طعنة الرحمة:

ـ ضربة قاضيّة.

كتم تيغالنيوس غيظه. كان التنافس قديما بينهما لكسب ود القيصر، وكان ل تيغالنيوس حظوه في التفوق على خصمه، من حيث أن القيصر نادراً ما شاحنه، وأبدى انزعاجا منه. لكن بترونيوس في كل تجارب الاقتدار التي جرت أمام القيصر حتى الان، كان يتفوق على غريمه بعقله و تالقه.

و هذا ما حدث الان. لزم تيغالينوس الصمت. لكن سرعان ما جمع حوله السيناتورات والفرسان، لمجرد أن غادر بترونيوس المكان إلى الداخل، ليقنعهم أنه المفضل لدى القيصر.

و بمغادرة بترونيوس القصر، قصد فينيكوس، و بعد أن أخبره بما حصل له مع القيصر و تيغالينوس، قال :

ـ لم أبعد الخطر عن رأسي أولوس و بومبونيا، عن رأسينا نحن فقط، بل عن رأس ليفيا كذلك التي لن يعملوا على مطاردتها لسبب وحيد

هـو أني أقنعت ذلك القـرد ذا اللحيّة الحمراء بالسفـر إلى الأنتيوم ومن هنـاك إلى نابولي أو بايبا. و سوف يسافر بكل تأكيد ما دام لا يجرؤ إلى الان علـى الظهور في مسارح روما، وأنا أعلـم أنه يعد العدة منذ زمن للذهـاب إلى نابولي. و أنه يحلم كثيرا ببـلاد الإغريق و الغناء في أشهر مدنها. في هذه الاثناء سنغتنم الفرصة ونبحث بكل اطمئنان عن ليفيا، و نواريها في مكان آمن.

الم يطل فيلسوفنا المحترم بعد؟

ـ فيسلوفـك المحترم نص اب. لا. لم يأت. لم تتشرح عيناي برؤيته. ولن نراه أبدا.

ـ لكن لي رأيا أفضل، إن ليس في نزاهته، ففي عقله الراجح. حصل مرة على نقودك، و سوف يأتي مرة أخرى من أجل نقودك.

ـ سأمص دمه.

ـ لا تفعـل. كن صبورا معه، حتى تتيقن أنه نصاب. لا تمنحه نقودا، لكـن عده بمكافأة إذا ما جاءك بنبأ طيب عنها. لكن هل فعلت شيئاً من أجلها؟

ـ أرسلـت اثنين من أرقائي على رأس ستين من رجالي. ووعدت من يعـثر عليها بأن أعتقه. كما وزعـت رجالا علـى كافة الطرق المؤديّة إلى روما، و كلفت بعضهـم بالبحث عن ليفيا و أرسوس في الارياف. وأنا بدوري جبت المدينة بنفسي ليل نهار بحثا عنهما.

ـ زودني بمـا يستجد من أخبار أولا بـأول، لأني مسافر إلى الأنتيوم، حيث ستجد الكثرة من النساء والتسلية.

راح فينيكوس يذرع المكان متوفزا جيئة وذهابا. و تابعه بترونيوس بعينيه لوهلة، ثم خاطبه قائلاً :

- قل لي بصدق، لكن ليس كفتى تلهبه الحماسة، ويستحوذه الهاجس، بل كشخص متزن يكلم صديقه، هل ما زالت ليفيا هامة بالنسبة اليك؟

توقف فينيكوس للحظة، و حدج بترونيوس بنظرة ساخطة كأنما من تفوه بذلك شخص غريب يلتقيه للمرة الاولى، و هم في الهجوم عليه. لكن سرعان ما كجّ جماح نفسه. وانتهى به الأمر، وقد شعر بعجزه، أن ترقرقت في عينيه على خلفيّة من الا لم، والغضب، و الرغبة التي لا تنطفئ، دمعتان كانتا أبلغ تعبير من أي رد.

فقال بترونيوس بعد تمع ن:

- ليس أطلس من يحمل الكون على كتفيه، بل المرأة التي تلعب به كالكرة أحيانا.

فرد فينيكوس :

- فعلا.

ثم ودعا بعضا. وفي هذه اللحظة أبلغهما أحد الأرقّاء أن شيلون شيلونيدس ينتظر في الصالون، ويطلب السماح بالدخول إلى حضرة السيد.

سمح له فينيكوس في الحال. لكن بترونيوس صاح قائلاً :

- هه. ا لم أقل؟ هدّئ من روعك، و إلا هو من سيبسط سلطانه عليك و ليس العكس.

و حين دخل شيلون القى التحيّة قائلاً :

ـ التحيّـة و الاحـترام لك أيهـا النبيل، ولك أيضاً يـا سيدي. لينتشر صيتكما في العالم من أعمدة هرقل حتى حدود أرساسيدا !

فأجاب بترونيوس :

ـ التحيّة لك. أنت ينبوع العقل والفضيلة.

لكن فينيكوس سأله بهدوء مصطنع:

ـ ما لديك من أخبار طيبة؟

ـ في المرة الاولى جلبت الامل يا سيدي، أما الان فلقد جئتك باليقين في أننا سنجدها.

ـ وهذا يعني أنك لم تجدها بعد؟

ـ حقـا يا سيـدي، لكني اكتشفـت معنى الرمز الـذي رسمته لك. وأعرف من أولئك الذين حرروها. كما أعرف أين سنبحث عنها، بين أتباع أي من الالهة.

أراد فينكوس أن يقفز عن كرسيه، لكن بترونيوس ردعه واضعا يده على ذراعه، و التفت إلى شيلون قائلاً :

ـ تابع!

ـ هل أنت واثق يا سيدي بأن ما رسمته العذراء كانت سمكة؟

فرد فينيكوس بتوتر.

- أجل.

- إذن هي مسيحيّة. والمسيحيون هم من حرروها.

ساد صمت لحظي، حتى نطق بترونيوس قائلاً :

- اسمـع! قريبي خصص لك مبلغا جيدا من أجل العثور على الفتاة، وكذلك عددا لا بأس به من الجلدات، إذا ما أردت خداعه و الاحتيال عليـه. في الحالـة الاولى ستحصـل على ثلاثـة أكياس بـدلا من كيس واحد. وفي الحالة الثانيّة لن تنفعك فلسفات الحكمة السبع، إضافة إلى فلسفتك، في الشفاء من الجلد.

كرر الإغريقي يقول:

- العذراء مسيحيّة يا سيدي!

- فكـر يا شيلون لست شخصـا أحمق. نحن نعلم أن يوليا سيلانا و كالفيـا كريسبنيلا اتهمتا بومبونيا غريسينـا باعتناق خرافة المسيحيين، لكننا نعلم كذلك أن المحكمة القيصريّة برأتها من التهمة.

هـل تريد أن توجـه لها التهمة من جديـد؟ أتراك تريـد إقناعنا بأن بومبونيـا و معها ليفيا من بين أعداء الانسانيّـة، ومن بين من يسممون البئر وماء البئر، ويقتلون الأطفال، و يمارسون أحط الافعال؟

هـل فكرت جيدا يا سيلـون أن نقض هذه الفرضيّـة يعني أنك من سيدفع الثمن فيما بعد؟

بسط شيلـون ذراعيه مشيرا إلى أن ذلك ليسـ خطأ ارتكبه هو، ثم استأنف قائلاً :

ـ سيـدي! قل باللغة الإغريقيّة هذه العبارة: عيسى المسيح، ابن الله. المخلّص.

ـ حسنا. سأقولها. و ماذا بعد؟

ـ والان خـذ من كل كلمة الحرف الاول منهـا. ثم جمعها لتشكل كلمة واحدة.

فقال بترونيوس ذاهلا :

ـ سمكة.

فقال شيلون بافتخار!

ـ أرأيت؟ هذا ما جعل السمكة رمزا للمسيحيين.

خيـم صمت لحظي. كان في محاججـة اليوناني ما باغتهما، حتى لم يكن بمقدورهما التغلب على ذهولهما الصريح.

تساءل بترونيوس قائلاً :

ـ فينيكوس! لعلك مخطئ فيما رسمت الفتاة. هل رسمت سمكة؟

فصرخ الشاب بنبرة عنيفة:

ـ أيتهـا الإلهـة! أنا سأفقد عقلـي. لو رسمت طيرا لقلـت لك إنها رسمت طيرا.

فكرر شيلون قائلاً :

ـ إذن فهي مسيحيّة.

علق بترونيوس :

- هذا يعني أن بومبونيا و ليفيا تسممان الابار، وتقتلان الأطفال في الشوارع، وتزنيان. حماقة! أنت يا فينيكوس أقمت معها لفترة طويلة، وأنا لفترة أقل لكني أعرف كلا من أولوس وبومبونيا وليفيا حق المعرفة، ولهـذا أقول حماقة وافتراء. لو كانـت السمكة رمزا للمسيحيين لكان مـن الصعـب دحضه. و لو كانتـا مسيحيتين لأقسمـت أن المسيحيين ليسوا كما نعتبرهم وننظر اليهم.

أجاب شيلون :

- تتكلـم يا سيد كسقراط. من ناقش يوما مسيحيا؟ من تعرف على تعاليمهـم؟ منذ ثلاث سنوات في طريقي مـن نابولي روما ليتني بقيت هنـاك، انضم الي شاب قيل إنه مسيحي، ورغم ذلك أيقنت انه شخص طيب و خلوق.

- وهل تعرفت على معنى رمز السمكة من ذلك الرجل الفاضل؟

- للأسـف يا سيدي، خلال طريقنا طعـن أحدهم الشاب، في حين قـام تجار الرقيق بخطف زوجته وطفله، و لم أسلم أثناء دفاعي عنهم من الاذيّـة ففقدت هاتين الاصبعين. لكن بما أن العجائب تحدث بكثرة في أوساط المسيحيين، آمل أن تنموا من جديد.

- لعلك صرت مسيحيا؟

- منـذ أمس يـا سيدي، منذ أمس. للسمكـة الفضل في ذلك. ترى كـم من القوة تختزن فيها ! بعـد أيام سأكون من أشد المتحمسين بينهم مـن أجل أن يطلعوني على أسرارهـم. وحين أعرف هذه الاسرار كلها، سأعرف أين تختفي الفتاة. وعندئذ قد تكون مسيحيتي أكثر نفعا ماديا مـن فلسفتي. دعوت مرسيريوس أيضاً ليرشـدني و يساعدني في إيجاد

الفتاة. سأذبح قربانين من الايائل من نفس العمر والحجم، وسأحتفظ بقرونهما و أطليهما بالذهب.

- إذن مسيحيتك الجديدة، وفلسفتك القديمة تتيحان لك الوثوق بمرسوريوس؟

- أثق دائما بمن أنا في حاجة للوثوق به، و فلسفتي هذه تناسب ذوق الالهة و خاصة مرسوريوس. من سوء حظي، تعرفان يا سيدي المحترمين، أي اله شكاك يكون؟ لا يثق بوعود أصدق الفلاسفة، ويفضل الايائل قبل أي وعد يقدمونه. من هنا أهميّة حاجتي للمبلغ الذي وعد به فينيكوس المحترم، أو لجزء منه.

فصرخ بترونيوس قائلاً :

- ولا أبلوس واحد، يا شيلون! ولا أبلوس واحد. كرم فينيكوس يفوق أمانيك، لكن بعد أن تجد الفتاة أو ترشدنا إلى مكانها، سيكون فينيكوس مرغما على منحك هذين الايلين، ولو أني أظنه غير راض عن ذلك، لكن أثق برجاحة عقله.

- اسمعاني أيها السيدان المحترمان! اكتشافي كان عظيما. و لو أني لم أجد الفتاة، لكنني اكتشفت الطريق للوصول اليها. لقد نشرتم رجالكم من الأحرار والعبيد في أنحاء المدينة و ريفها، فهل جاءكم أحد منهم بخبر؟ لا. أنا الوحيد الذي جئتكم بشيء هام. وسأقول لكما أكثر من ذلك. قد يكون بين أرقائكما مسيحيون لا أعرفهم، لأن هذه الديانة قد انتشرت في كل مكان. وهؤلاء بدلا من أن يقدموا المساعدة قد يضمرون الخداع. حتى وجودي هنا ليس بالأمر المحبذ فقد يرونني معكما. لذلك أرجو منك يا سيد بترونيوس أن تطلب من

يونيكي التكتم. و أنت يا سيد فينيكوس انشر خبرا مفاده أنني قصدتك لأعطيك مرهما يساعد في كسب السباق إذا ما دهنت به حوافر الخيل. أنا الوحيـد الذي سيبحث عن الهاربين و انا الوحيد الذي سيجدهما. ثقـا بي. و أي شيء تمنحانني مقدما سيكون مجرد مكافأة لي لأن أتعابي أكـثر بكثير. اسمعاني جيدا ، لقد تشققـت قدماي من التجول الدائم. عرجـت على الخماريـن، والخبازين، والجزاريـن، و بائعي الزيوت،و صيادي السمـك، ومقتلعي الاسنان، وأطباء الجلد و الدمل، وكلمتهم جميعا. كما جلت في المقابر. أتدريان ما السبب؟ لأرسم في كل مكان سمكة و أراقب بعدهـا وجوه الناس، و اسمع ما يقولونه بشأن الرمز. طـال الوقت و لم الاحظ شيئـاً، حتى لمحت رقيقا عجـوزا إلى جانب بئـر يقوم بوضـع السم في البئر و يبكـي. تقدمت نحـوه و سالته عن سبـب بكائـه. و بسؤالي دعاني إلى الجلوس، فجلسنـا و قال إنه أمضى حياتـه و هـو يجمع المال ليعتـق ابنه. لكن سيده حـين رأى ما معه من مـال سلبه إياه دون أن يعتق الولد. قـال لي " هذا سبب بكائي". أما أنا فقلت في نفسي سأمتحنه و أرسم سمكة. بللت اصبعي بالماء و رسمت السمكـة. فأجابنـي في الحال: " أنا أيضاً أملـي في المسيح" فسالته هل عرفتنـي من خلال الرمـز. فقال" نعم. السلام عليـك" وراح يبوح لي بـكل شـيء. قال لي إن ولده يعمـل في نقل أحجار البنـاء حيث يعمل الكثير من المسيحيين. و لأنه عمل شاق أراد أن يعتق ابنه. وجاء دوري للحديـث فقلت له شاكيا : لقد وصلت لتوي من نابولي و لا أدري أين أتعبـد، لأني لا أعرف أخوة لي هنا، و لا أين يمكن أن يجتمعوا للعبادة. فاستغـرب كيف لم يـزودني الاخـوة المسيحيين في نابـولي برسالة إلى الاخـوة في روما. فأوضحت له أن الرسالة قد سرقت مني في الطريق. فقـال لي أن أذهب ليلا إلى النهر، و سـوف يعرفني على الاخوة، وهم سيصطحبونني إلى المعبد، و إلى الرهبان الذين يتدبرون أمر المسيحيين.

كم كنـت سعيدا حين أعطيته كل ما لدي من نقـود تساعده في إعتاق ابنه، على أمل أن يردها لي فينكوس ضعفين.

هنا قاطعه بترونيوس قائلاً :

ـ شيلـون. كذبك يطفو فـوق صدقك كالزيت فـوق الماء. لا أنكر أنـك جلبت أخبارا هامة. كما أقر بأنك وضعـت أقدامنا على الدرب الصحيـح المفضـي إلى ليفيا. لكن لا تغلف أخبـارك بالكذب. ما اسم ذلك العجوز الذي أكد لك أن السمكة هي رمز المسيحيي؟

ـ يورسيوس يـا سيدي. عجـوز مسكين، يذكـرني بالطبيب الذي دافعت عنه ضد اللصوص. كان هو من حم سني كل هذا الحماس.

ـ صدّقت أنك تعرفت إليه، و أنك تستطيع أن توظف هذا التعرف، لكنك لم تمنحه نقوداً و لم تمنحه أي شيْ.

ـ بـل ساعدته في رفع الدلو،و أفضيـت معه في حديث المواساة عن ابنـه. أجـل يا سيدي. مـا الذي يمكـن أن يخفى عن ذهـن بترونيوس الوقاد؟ أنا لم أعطـه نقودا، لكني أعطيته، وإن كان في ضميري فقط و في روحي، وتفكيري، ما كان كافيا لو أنه كان فيلسوفا حقيقيا. و لقد أعطيتـه ما أعطيته لأنني أعتبر ذلك خطوة ضروريّة، و ناجعة. تصور يا سيدي، كم استمال من المسيحيين نحوي، وكم سدد طريقي نحوهم، و كم من الثقة بي قد أيقظ في نفوسهم.

اعترف بترونيوس قائلاً :

ـ هذا صحيح: وكان عليك أن تفعل ذلك.

ـ ولقد جئت لهذا السبب بالضبط. لكي أتمكن من فعل ذلك.

التفت بترونيوس نحو فينيكوس قائلاً :

ـ عد له خمسة الاف سستريوس، لكن فقط في روحك، وفي تفكيرك.

لكن فينيكوس خاطب شيلون قائلاً :

ـ سيرافقك أحد الشبان. هو من يحمل النقود. و أنت ستقول ل يورسيوس العجوز إنه أحد أرقائك، و تعطيه النقود على مرأى منه. وبما انك قد جلبت خبرا طيبا فستحصل على نفس المبلغ. ارجع في المساء لأجل الشاب و النقود.

أضاف شيلون قائلاً :

ـ قيصر حقيقي. اسمح لي يا سيدي أن أقدم مؤلفي لك. لكن اسمح لي أيضاً أن أتي من أجل النقود فقط. لا يمكن لأحد أن يرافقني لأن يورسيوس قال لي إن قاربه لا يتسع الا لاثنين. رافقتكم السلامة! هذا وداع المسيحيين... سأتخذ لنفسي عبدة، أقصد عبدا. السمكة يصطادونها بالسنارة. أما المسيحيون فبالسمك. رافقتكما السلامة! رافقتكما السلامة!

١٥

من بترونيوس إلى فينيكوس.

أبعث اليك برسالتي مع أحد أرقائي المؤتمنين. ورغم أن يدك اعتادت السيف و الرمح، لا القلم، فإني آمل أن تبعث بردّك، دون تأجيل، عن طريق المراسل ذاته. لقد غادرتك و أنت هناك مترع بالامل، و في أفضل حال، فآمل أنك إذن، إما ان تكون قد أطفأت ظمأ أشواقك بين ذراعي ليفيا، أو أن تتمكن من أن تطفئه و ترويه، قبل هبوب العاصفة الشتائيّة من قمة سوراست باتجاه كامبانيا. آه يا فينكوس و كماً آمل أن تكون ربة قبرص الذهبيّة سيدتك، ولتكن أنت سيد تلك الليغويّة الجميلة جمال حمرة الفجر، و اهرب قدر الامكان من أمام شمس الحب. ولا تنس أن الرخام، حتى لو كان الاثمن، لا يساوي شيئاً بذاته، و قيمته الحقيقيّة كامنة بين يدي النحات الذي يحوله إلى تحفة فنيّة. فكن أنت النحات، يا عزيزي. لا يكفي أن نحب، علينا أن نعرف كيف نحب، و نعرف أن نعلّم الاخرين الحب. فعامة الناس أيضاً تشعر بالرغبة. وكذلك الحيوانات. لكن الانسان الحق يختلف عن كل أولئك، بجعل الرغبة فنا نبيلا، يستمتع به على نحو واع، وإدراك لقيمته الالهيّة، حتى لا تختزل في إشباع الشهوة الجسديّة فقط بل الروحيّة أيضاً. حين أفكر هنا بالسأم و بكون حياتنا جدباء مقفرة، ولا يقينيّة، يخطر لي: اليس اختيارك هو الأفضل يا ترى! فليس بلاط القيصر أبدا بل الحرب و الحب هما الأمران اللذان يستحقان أن نولد ونحيا من أجلهما.

لقد كنت محظوظا في حروبـك. فكن كذلك في الحب. وإن كنت يدفعك الفضول أن تعرف ما يجري في بلاط القيصر، سأعلمك بذلك بين الحين والاخـر. نحن هنا في الانتنيوم، نـداوي صوتنا السماوي. أمـا روما فإننا نمقتهـا على الدوام. نستعد للذهـاب شتاء إلى بايا، ومن هنـاك سنقصد نابولي لأن أهلها بكونهم من الإغريق يقدروننا أكثر من شعب الثعالب القاطن في السواحل التيبريّة. سوف يحتشد الجموع في كل من بايا و بومبـي و بوتيولي و كومي و ستابيا لاستقبالنا بالتصفيق، وأقواس النصر، الأمر الذي يخدم،عفويا، مسيرنا إلى أكايا.

وفيما يخص ذكرى الاوغستا الصغيرة فلا زلنا نبكيها ونعزف لها المؤلفات و الاناشيد الرائعة التي تدفع العازفين جميعا من شدة حسدهم إلى الاختباء في أعمق مغائر الهة البحر امبتريتي. حتى أن الدلافين تقف للإصغـاء إذا لم يشغلهـا هدير البحر. لم يخمد بعـد، حزننا الذي نعلنه للناس بأشكال شتى، تعلمناهـا من وضعيات التماثيـل المحببة للناس و الأكـثر ملاءمـة للحالة. آه يـا عزيزي، إننا نمارس موتنا كمهرجين، وكوميديين.

هنـا كل الرهبـان الاوغسطيـين، مـن رجـال و نسـاء، إضافة إلى خمسمئـة آتان تستحم بوبيـا بحليبها، وعشرة آلاف رقيـق. و أحياناً ترانـا فرحين باسمين. كالفيا كريسبينلا بـدأت تهرم. يقال أنها تتوسل بوبيـا لتستحم بعدها في الحليب ذاته. لوكانوس صفع نيجيريا لشكه بعلاقتها بأحـد المجالدين. سبوروس بمغامرة منـه خسر زوجته بسبب سينيكـو. سيلانوس قـدّم لي لقـاء يونيكي أربعـاً من خيـول السباق المطهّمـة، فلم أقبل بها. وأنا ممتن لك بذلـك، فقد أخذت بنصيحتك. أمـا عن توغواتوس سيلانوس فقد صارت أقـرب إلى الشبح منها إلى الإنسـان. موتها مؤكد. لا مجـال لإنقاذها. هذا هو عالمنـا. لقد قررنا

الحـرب منح كوربولو مـن السلطة والصلاحيات، مـا كان لبومبيوس الكبير في الحرب ضد الكالوز.

مرت لحظـات نطق فيهـا نيرون، وأبـدى تحفظه علـى أن بمقدور كوربولو أن يحقق صيتا ذائعا إذا ما انتصر في الحرب. فكرنا بأن نوكل أولوسـ قيادة الجيش، لكـن بوبيا عارضت الفكـرة لأن نقاء بومبونيا شوكة في عينها.

و عدنا فاتينيوس بمباريات مجالدة عاليّة المستوى يقيمها في بنفنتوم. ترى كم للإسكافيين من أياد طولى في أيامنا هذه. قام اليتوروس البارحة بلعـب دور أوديب على نحو بديـع. سالته وهو اليهودي هل اليهودي والمسيحي واحد؟ فأجاب أن الديـن اليهودي قديم بالوراثة، أما الدين المسيحـي فهو طائفة جديدة نشأت في يوديا. في عهد بترونيوس قاموا بصلب أحد الرجال وتنامت أعداد أتباعه الذين يتخذونه الها لهم،يوما بعـد يـوم. أظن أنهم لا يؤمنون بأي اله آخـر و لا حتى الهنا نحن، ولا أدري ما الذي يضيرهم في ذلك.

لقـد صرح تيفالينوس بخصومته لي. لكنـه لا يستطيع أن يجاريني حتـى الان. ميزته عني أنه يكـترث بحياته أكثر منـي، وأشد وضاعة، ممّايقربـه أكـثر من صاحب اللحيّـة الحمراء. و عاجـلا أو آجلا هو من سيتفـق معه أولا، حتى يأتـي دوري أنا. لا أدري متـى ستأتي اللحظة المناسبة. حتـى ذلك الوقت نتسلى ونمرح. الحيـاة بذاتها ليست رديئة لولا وجود صاحب اللحيّة الحمراء. هو من يجعل المرء يسأم من نفسه. لا جدوى مـن حضورنا كل تلـك المباريات، والمجالـدات التي تقوم بجوهرها على تغذيّة عبادتنا لذواتنا. أحيانا أقول لنفسي إني لا أختلف عـن شيلون، ولست أفضل منه في شـيء البتة. إن كنت لا تحتاجه ابعثه

الي. لقد أحببت عباراته ذات البناء السليم. بلغ تحياتي فتاتك المسيحيّة الالهيّة، واطلب منها باسمي أن لا تكون معك سمكة. أخبرني عن أحوالك، وحبك. واعرف الحب وعلمه. السماء معك.

من فينيكوس إلى بترونيوس

ليفيا لم تحضر بعد. ولولا أملي في العثور عليها في وقت قريب، لما جاءك ردي، لأن المرء إذا ما سئم حياته، لا يستطيع حتى أن يكتب. أردت أن أتجاوز فكرة أن شيلون يحتال علينا في ذلك المساء، حين رجع من أجل المال الذي سيعطيه لأوريسيوس، البسته سترة عسكريّة، وأرسلت معه شابا، وتبعتهما خلسة. حين بلغا المكان، أختبأت خلف عمود المرسى ورحت أراقبهما عن بعد. وتأكدت أن يوريسيوس ليس هيئة زائقة. وكان في الاسفل عند ضفة النهر، مجموعة من الرجال على ضوء المشاعل تقل الحجارة من قوارب ضخمة، وتركنها على الضفة. رأيت شيلون يذهب باتجاههم،ليحدث عجوزا سرعان ما ركع على قدميه. تحلق حولهما الاخرون، وسمعت منهم صيحات استغراب. رأيت بأم عيني كيف قدم الشاب الكيس ليوريسيوس فأخذها وراح يصلي بيدين مرفوعتين، وكان يجثو إلى جانبه شخص آخر لا بد أنه ابنه. قال شيلون شيئاً لم أسمعه جيدا. ثم انضم إلى الرجل وابنه، وبقيّة الاخرين، وراحوا يرسمون في الهواء إشارات الصليب. وددت لو أذهب اليهم، وأعد من يرجع لي ليفيا بثلاثة أكياس. لكني خشيت من أن أفسد على شيلون عمله. وهكذا، بعد إمعان في التفكير، عدت أدراجي إلى البيت.

حدث هذا بعد اثني عشر يوما من سفرك. وبعدها جاء الي كثيرا. وحدثني كم يلقى بين المسيحيين من التقدير. قال إنه لم يجد ليفيا حتى

الان، لأن روما باتــت مكتظة بالمسيحيين، فلا يعرف الجميع بعضهم، ولا كل مــا يحصــل لأي منهم. إضافة إلى حيطتهــم وندرة أحاديثهم. لكنــه سيسعــى إلى التقرب من كهنتهــم لانتــزاع الاسرار. تعرف على بعضــ منهم، وحاول جس نبضهم، لكن بحــذر، كي لا يزرع الشك في نفوسهم، ويفسد الأمر. عرف أيضاً أن لهم أماكن مشتركة للعبادة. غالبــاً ما تكون خارج أسوار المدينة في بيــوت مهجورة، أو في مناجم الحجارة، حيث يقومون بتقديم احترامهم للمسيح، ويغنون، ويأكلون. هناك العديد من هذه الاماكــن. يعتقد شيلون أن ليفيا عمدت أن ترتاد أماكــن أخرى غير التــي تقصدها بومبونيا ، لسبــب وجيه هو أن يتاح لبومبونيــا أن تقسم أمام القضاء أنها لا تعــرف مكان اختفاء الفتاة. قد يكــون الكهنة هم من أشاروا لها بذلك. لمجرد أن اكتشف شيلون هذه الامكنــة سأرافقه اليها، وإذا ما قــدرت الالهة أن أرى ليفيا، فأني إقسم بجوبيتر أنها لن تفلت مني ثانيّة.

لا تغيــب عــن بالي أمكنــة العبادة تلــك. لا يريد شيلــون أن أرافقه اليها. يخاف. لكني لا أستطيع التحمل والقعود. سأتعرف عليها حتى لــو تخفت بوشــاح، أو تنكرت بلباس. هم يتجمعــون كل مساء، وأنا سأعرفهــا حتــى في الليل. أعــرف حركاتها، ونبرة صوتهــا. سأذهب متنكــرا إلى هنــاك، وأراقــب الداخلــين والخارجين. علــى شيلون أن يجيئني في الغد. وسننطلق معا.

سأحمــل سلاحا. رجع بعضــ أرقائي الذين أرسلتهــم إلى الريف، لكــن بلا نتيجة. والان أنا أكيد أنها هنــا في المدينة. وفي مكان قريب. عاينت بنفسي كثيراً من البيوت بحجة استئجارها.

أنــت تكتب لي: كان اختياري سليما. أجل في المشاكل، والشقاء.

سنقصد أولا منازل المدينة، ثم المنازل خارجها. الامل قائم، والا تتعذر الحيـاة. تقول: ينبغي أن نعرف أن نحـب. وأنا عرفت أن أحدث ليفيا عـن الحب، لكني الان أقتصر على الشوق، وأنا في انتظار شيلون، لأن الحياة في المنزل لا تحتمل. السماء معك.

١٦

أمــا شيلون فقد طال غيابه، حتى لم يعــرف فينيكوس ماذا سيفعل. لم ينفعه إقناع نفسه بجــدوى التحريات ونتائجها المثمرة، لأنها باتت ستسير بطيئة. ثارت ثائرته الدمويّة والناريّة في آن، وتغلب على صوت العقــل فيه. القعــود بذراعين معقودتــين لا يفعل شيئــاً ولا يثمر سوى الانتظــار. وهو أمر يناقض طبيعته فلا مصالحة معه، ولا تنازل عن غاية وضعهــا نصب عينيه. إذا ما نطق عبارة أريد فلا حدود لإيقافها. عبادة ذاتــه تسبــب له ألمــا وتكبّده المعانــاة. إلى جانبا ذلك فقــد كان ثمة في هروب ليفيا لغز لم يفهمه أبدا. وهو على استعداد ليقدم حياته ثمنا من أجل حلّه. شعر أن أكتي محقة حينما قالت له: لستَ بالنسبة لليفيا مجرد شخصــ عادي كأي أحــد آخر، لكن لو كان ما قالتــه صحيحا فلماذا اختارت التخفي و البؤس، بدلًا من الحب والمنزل الواعد برغد العيش؟ لم يعــثر على إجابــة. لكنه بدلا من ذلك، قد شعــر أن هنالك فارقا بينه وبين ليفيــا، وتفاوتا بين أفــكاره وأفكارها، وكذلك بــين عالمه وعالم بترونيوســ، وبين عالمي ليفيا و بومبونيا. هوة عميقة من سوء الفهم، لا يجسرها رابط. شعر عندها، أن عليه أن يفقد ليفيا، ففقد توازنه للفكرة التــي شجعــه عليها بترونيوس. مــرت لحظات لم يدر خلالهــا إذا كان يحب ليفيــا أم يكرهها. لكنه، في الحالتين، أراد أن يعثر عليها ويحظى بهــا والا فلتبتلعــه الأرض إلى جهنم تذكر كل كلمــة قالها للفتاة، وكل كلمــة سمعها منها. وشعر، ويداه معقودتان، كم يتملكه الشوق. وكم أحبها، وأرادها. ومرت أيام فكر خلالها، أيّة آثار سيخلفها سوطه على

جسـد ليفيا، وأنه في نفس الوقت سيقوم بتقبيـل كل أثر منها، وفكر أحياناً كم سيكون سعيداً إذا ما قام بقتلها.

في خضـم هذا التمـزق، والتعـب، والحـيرة، والتكبـد، انهارت صحتـه، وفقد وسامته. بات سيدا غامضا، وجائـرا، تحاشاه الأحرار، وارتجـف أمامه الأرقّاء، وتسلط عليهـم بجور أحكامه لسبب وبغير ما سبب. حتى باتوا يضمرون لـه الكراهيّة. شعر بذلك، ففاقم من عقابه ونقمته عليهم. ولكنه كبـح جماح نفسه أمام شيلون خشيّة تخليه عن مهمتـه. لكن شيلون بملاحظته هذا الأمـر، أخذ يتع إلى عليه ويزيد من مطاليبـه. فكان في كل مـرة يجيئه، يبادره أولا بـزرع الثقة في سهولة وسرعة انجازه لمهمته، لكنه كان يلاقي أعذارا ، ويضع صعوبات جديدة في كل مـرة، حتى صار أخيرا يصرح بأن العثور عليها بات أمرا طويل الامد.

في نهاية المطاف، وبعد انتظار دام أياما، جاءه شيلون متجهما عكر السريرة، فشحب الشاب لمرآه، فهب لسؤاله:

ـ ليست بين المسيحيين؟

فأجاب شيلون:

ـ كيف لا.يا سيدي، وقد رأيت الطبيب غلاوكوس هناك.

ـ عم تتحدث؟ من يكون ذاك؟

ـ هـل نسيت يا سيدي ذلك الشخص الـذي رافقني في رحلتي من نابـولي إلى روما، والذي فقـدت إصبعي دفاعا عنـه، وبت لا أستطيع استخـدام القلـم؟. اللصوص الذيـن خطفوا زوجتـه وأولاده، طعنوه

،واضطـررت إلى تركه يحتضر في الحانــة، وبكيته طويلاً. أسفي عليه. لقد تأكدت أنه حي،يرزق، وأنه ينتمي إلى المسيحيين في روما.

لم يفهم فينيكوس شيئاً. لكنه أدرك أن كلاوسوس يمثل عائقا ما أمام العثور على ليفيا. كظم غيظا شديدا تجاه شيلون وهاجمه قائلاً :

ـ مــا دمت قد دافعت عنه، فعليــه أن يكون ممتنا لك، ويساعدك في مهمتك؟

ـ آ. آ. آ. حتى الالهة لا تكون ممتنة دائما فكيف البشر. حقا إنه يدين لي بامتنــان. لكنه، لسوء حظي، رجل عجوز خرف. ليست المسالة في عدم امتنانه فقط لكنني علمت من إخوانه في العقيدة، أنه يتهمني بكل مــا حصل له، لأني تشاحنــت مع اللصوص. وكانــت مكافأتي فقدان إصبعي.

فعلق فينيكوس قائلاً :

ـ أنا واثق أنه عجوز وضيع إذا ما تفوه بذلك.

فرد شيلون :

ـ إدراكك يــا سيــدي. أشد مــن إدراكه. لقد زعم ذلــك على سبيل الافتراض والتخمين، ومع ذلك فهو افتراض يجعل المسيحيين ينقمون علي. لحسن الحظ أنه لا يعرف اسمي، وأنه لم يلمحني في مكان العبادة حيــث كنا معــا. أما أنا فقد عرفتــه وأردت أن ادق عنقه. لكن حيطتي ردعتنــي. حين خرجت إذن مــن المكان، قمت بالســؤال عنه للتأكد، فأجابنــي معارفه بأنــه من وشى به رفيــق طريقه من نابــولي إلى روما. عندها عرفت أنه ينقم علي.

ـ وما يهمني من كل ذلك؟ قل لي ماذا رأيت في بيت العبادة.

ـ لا يهمك في شيء يا سيدي، لكني يهمني لأنه مسالة حياة بالنسبة لي. ولـذا فأنا سأستغني عن مكافأتي وأبتعد عن الموضوع. وحسبي أن أعيش كفيلسوف، يبحث عن الحقيقة الالهيّة.

فكان رد فينيكوس عنيفا :

ـ ومـن قال لـك إن الموت على يديـه أسرع من يدي أنـا. ومن أين تدري، أيها الكلب، أن قبرك لن يحفر هنا في حديقتي؟

كان شيلـون جبانا،فما أن لمح وجه فينيكوس النافر بالوعيد حتى أدرك أن عبارة طائشة أخرى منه، ستعني نهايته.

فبادر إلى الرد سريعا :

ـ سأبحث عنها، يا سيدي، وسأجدها.

سـاد سكون لم يتخلّلـه إلا لهاث فينيكوس، وصـوت الغناء البعيد للأرقاء العاملين في الحديقة.

لم يستأنـف الإغريقـي كلامـه الا بعد وقت قصير، حـين أيقن أن الشاب قد هدأ :

ـ الموت مر بقربي، لكـن نظرت اليه باطمئنان كما فعل سقراط. لا يـا سيدي. لا. أنا لا أقـول إني سأتخلى عن الفتاة، لكني أردت أن أعبر عمـا يهددني الآن من أخطار أثناء بحثـي عنها.لقد سبق لك يا سيدي، وشككـت في شخص يدعـى يورسيوس والان تشـكك في وجود كلاوسيوس وتظنه من اختراعي. لكن للأسف المسالة غير ذلك. لو أني

قـد اختلقت كلاوسيوس اختلاقا، وكان بمقدوري مخالطة المسيحيين و التحـرك بينهم بأمان كما في السابق، لكنـت تخليت عن المرأة الرقيقة العجـوز التي اشتريتها قبل ثلاثة أيـام لتخفف عني شقائي، وتعينني في بؤسي.

لكـن كلاوسيوس حي يرزق، وإذا ما لمحنـي ذات مرة، فلن تراني بعدها. فمن سيبحث عن العذراء من بعدي؟

وصمت من جديد، يكفكف دموعه ثم أردف :

ـ لكـن كيف أبحـث عنها و كلاوسيوس حي؟ فقد التقيـه في أيّة لحظة، وتكون نهايتي، ويتم القضاء على الأمل في إيجاد الفتاة.

ـ إلى أين تبغي أن تصل؟ ما العمل الان، وما الذي نريد أن تفعله؟

ـ علمنـا أرسطـو طاليس، يا سيدي، أن نضحـي بالمسائل الصغرى مـن أجـل المسائل الكـبرى. والملك بريامو سـ كثيرا ما كان يـردّد أن الشيخوخة عبء ثقيل. شيخوخة كلاوسيوس ونحسه باتا يثقلان عليه منذ فـترة طويلة، حتى صار يتمنى الموت، لأن الموت منجاة كما يقول سينكا.

ـ تلفّظ بهراءاتك أمام بترونيوس وليس معي. قل ماذا تريد؟

ـ إذا كانـت النزاهة هراء فلتسمح لي الالهة أن أبقى مجنونا إلى الابد. أريـد أن أبعد كلاوسيوس عن طريقي، لأنه مادام حيا فحياتي في خطر دائم. وكذلك العثور على الفتاة.

ـ جِدْ أشخاصا يخل صون عليه، وأنا سأدفع لهم.

ـ سينهبونك يا سيدي، بجشعهم و استغلالهم سرّك هذا. الوضيعون كـثر في روما، كرمال الصحراء. ومع ذلك لا تتصوّر مقدار غرورهم، واعتدادهـم بأنفسهم إذا ما أرغموا علـى استخدامهم كمأجورين. لا أيها السيد المحترم! فقـد يفضح أمر المجرمين ويعرفون، ويقرّون باسم مـن دفع لهم. لأنك ذائع الصيت. أما اسمي أنا فمجهول بالنسبة لهم. خطـأ تفعـل إن لم تثق بي، أوتجاهلـت نزاهتي، وغضضـت النظر عن أمرين اثنين: حياتي، والجائزة التي وعدتني بها.

ـ كم تحتاج؟

ـ الف سسترتيوس. مع الاخذ بعين الاعتبار أني سأبحث عن وضعاء يتحلـون بالنزاهة، ولا يغرون بالدفعـة الأولى من أجرهم، العمل الجيد يتطلـب مبلغـا جيدا. سأشترط عليهـم أن كل يوم يعيشـه كلاوسيوس يقابلـه حسم مئة سسترتيوس من الأجر. ولـدي فكرة أخرى أظنها لا تخيب.

وعـده فينيكوسـ بالمـال مـرة أخـرى. ومنعـه من التحـدث عن كلاوسيوسـ ، و كان يسأله دائما عمـا فعله حتى الآن، وما الذي رآه، وتوصل اليه. لكن شيلون لم يأته بشيء ذي أهميّة، سوى زيارته لمعبدين ومراقبة كل من كان فيهما، والنساء خاصة. لكن لم يلمح واحدة تشبه ليفيـا. أما المسيحيون فقد باتوا يعتبرونه شخصا مقبولا بينهم. ومنذ أن أعطـى النقود من أجل إعتاق ابـن يورسيوس، وهم يكنون له الاحترام كشخص سائر على خطى المسيحيين. وسوف يقوم بالتعرف على أحد مشرعي المعتقـد، ويدعى بولس وهو سجين في رومـا، لأن اليهود قد تذمروا منـه وقدموا شكوى ضده. والخبر السار الاهـم أن أحد أتباع المسيـح، وهو كاهن مـن أهل الثقة خوّلـه المسيح لقيـادة المسيحيين،

سيصل خلال أيام إلى رومـا. وسيحضر جميع المسيحيين دون استثناء، لرؤيته وسماع مواعظه. وبمـا أن الجمهو ر سيكون كثيفا يتيح التخفي عـن الانظـار، فسيحضر شيلـون أيضـاً و يصطحـب فينيكوس معه. وسيجـدان ليفيا هناك. خاصة إذا ما أزيـح كلاوسيوس من طريقهما. ولو كان المسيحيون أيضـاً ينقمون، لكنهم على العموم بشر مسالمون. تذكر فينيكوس ما قالته بومبونيا عن أكتي، فتقبل كلام شيلون بابتهاج. بدا مطمئنا منشرح الصدر لسماعه أن التعاليم التي تعتنقها كل من ليفيا و بومبونيا ليسـت من الافكار الشريـرة، أو المجافيّة للأخلاق. ولكن إحساسـا غامضا خالجه للتـو، وهو أن هذا التقديـس السري الغامض للمسيـح قد أقام جدار فاصلا بينه وبـين ليفيا، وزرع الخشيّة في نفسه من هذه التعاليم، وبات يكن لها الكراهيّة.

١٧

كان مـن مصلحة شيلـون حقا أن يزيـح كلاوسيوس مـن طريقه. صحيـح أنه كان في سن متقدم من العمر، لكنه لم يكن عجوزا قاصرا. مـا قالـه شيلون لفينيكوس كان في معظمه صحيحـا. كان قد تعرف على كلاوسيوس، وخانه بالاتفاق على اللصوص، وجرده من عائلته، وثروتـه، وجعله بين أيادي القتلة ثم تركه يقضي في الحقول، وليس في الحانـة. أمر وحيد لم يضعه شيلون في حسبانه، وهو أن كلاوسيوس قد شفي من جروحه، وجاء إلى روما. حين لمحه في دار العبادة ارتعد بالطبع للوهلـة الاولى، ورغب في التخلي عـن متابعة البحث، لكن فينيكوس قد أخافـه أكـثر، وأدرك أن عليه أن يختار بين خوفـه من كلاوسيوس ونقمـة فينيكوس الهائلة، حتى قرر أخيرا أن يقف إلى جانب فينيكوس و بترونيوس لأن مناصبتهما العداء أمر يكلفه الكثير، إذا ما قورن بعدائه لكلاوسيوس، شرط أن يتخلّص منه، فاتّخذ قراره بذلك.

وهكذا، بات مـن أولوياته الآن، اختيار الأشخاص، لتنفيذ الفكرة التـي أطلقها أمام فينيكوس. وبما أن لياليه كلها كان يمضيها في الحانات بـين فئـات مهترئة من قـاع المجتمع لا معتقد لهـا ولا شرف، كان من اليسـير أن يعثر على مبتغاه مـن الذين لا يتورعون عن القيام بأي عمل، وخاصـة إذا مـا اشتموا رائحة المـال. لكن ثقته بهـم كانت معدومة، ورأى فيهم أدوات تحمل ما تحمـل من الاخطار والمطامع، الأمر الذي ينقلـب عليـه ويودي بـه. كان شيلون أيضـاً، قد وصل بـه أمر مخالطة الرّعاع والسوقة، والعصابـات المجرمة، حد القرف من تلك الهيئات

القائمة المخيفة المقيمة في منازل مشبوهة في سوبورا. ولكن بما أنه لا يتبع الا ما تمليه عليه نفسه، ولا يعيش شيئاً الا بمقاييسه الذاتيه الخالصة، وباعتباره حتى الان لا يعرف المسيحيين، ولا تعاليمهم حق المعرفة، فقد ظن أنه سيجد بينهم ما يصبو اليه من أدوات مطواعة. وبما أنه يعتبرهم أكثر شرفا ونزاهة من غيرهم، فقد قرر أن يتوجه اليهم ويكلفهم بهذه المهمة، ليس فقط من أجل المال، ولكن بما يخدم المعتقد أيضاً.

وخدمة لهدفه، قصد في المساء يونيكوس، الذي أبدى استعداداً تاما لمساعدته في كل ما يريد أن يفعله. وبما أنه كان شخصا حذرا بطبعه، فقد أراد أن يحظى بأشخاص يطمئن اليهم بكتمان السّر، ولا يتورعون عن القيام بأي شيء.

بعد أن أعتق يورسيوس العجوز ابنه، استأجر كشكا حول مبنى السيرك يبيع فيه الزيتون والفاصولياء، والكعك، والماء المحلى للمتفرجين.

طبّ عليه شيلون وهو يقوم بترتيب محتويات الكشك. ما إن حياه باسم المسيح حتى أوضح له سبب مجيئه. لقد سبق أن قدم للعجوز معروفا، وهو الان يضع في حسبانه أن يرد له معروفه هذا. ويحتاج إلى اثنين أو ثلاثة من الرجال الاشداء الشجعان، للإسهام في درء خطر معين لا يخص شيلون وحده، بل المسيحيين بأسرهم. وعلى الرغم من كونه شخصا فقيرا أعطى كل ما يملك من مال ليورسيوس، لكن سيدفع أتعاب هؤلاء الرجال شرط أن يثقوا به، وينفذوا كل ما يقوله.

كان يورسيوس وابنه كوارتوس يصغيان جاثيين إلى ما يقوله، باعتباره فاعل خير بالنسبة لهما، وسرعان ما صرحا بأنهما على استعداد لفعل أي شيء يطلبه لأنهما يعتقدان أن قديسا مثله لا يمكن لرغباته أن

تخـل بتعاليم المسيـح، وقد أكد لهما شيلـون أن الأمر كذلك، ثم رفع يديـه إلى السماء كأنه يصلي، لكنه في حقيقـة الأمر كان يفكر بالالف سستريوس التي يمكـن أن يوفرها من جراء قبوله بمبادرتها الطوعيّة. الا أنـه سرعان ما حسـم الموقف وتخلى عن هذه الخطـة. كان يورسيوس هرما أثقلته الاعباء والمرض أكثر ممّافعلت به السنين. وكان كوارتوس لا يتجاوز السابعة عشـرة، في حين كان والده في حاجة إلى رجال أشداء ذوي خبرة. أما ما يخص الالف سستريوس، فكان يعول على خطته أن يقتصد مبلغا كبيراً منها.

ظـل الأب وابنـه على عهدهما بقبـول مبادرته، حتـى قرر شيلون إبعادهما عنها، فاقتنعا بذلك وبادر الابن إلى القول :

ـ أعـرف يـا سيدي خبّازاً يدعـى ديماس يعمـل في مطحنته اليدويّة أرقاء، وعمال أجـرة. أحد هؤلاء يعادل أربعة في قوته، لأني رأيته وهو يرفع حجارة المطحنة، التي عجز عن تحريكها أربعة منهم.

فأجاب شيلون

ـ إن كان هـذا الرجـل يخاف الله، وبمقـدوره أن يضحي بنفسه من أجل أخوته، فعر فني به.

ـ الرجل مسيحي يا سيدي، لأن معظم عمال ديماس كذلك.

هنـاك عمال نهاريـون، وليليون، وهـو في الوردية الليليّـة. إذا ما قصدنـا المـكان الان، فسنجدهم غلـى العشاء، ونكل مهـم بارتياح. ديماس يقطن قرب السوق.

وافق شيلون. لقد أنشئ السوق في أسفل جبل افنتنوس، ليس بعيدا

إذن عـن السيرك المدرج. وللوصول اليه اختصارا للمسافة ينبغي السير بمحاذاة ضفة النهر، دون الاضطرار إلى التفاف حول الجبال.

حين اقتربوا من صف العمدان علق شيلون قائلاً :

ـ أنا عجـوز، تخونني ذاكرتي أحياناً. أجل! من خان سيّدنا المسيح كان أحد تلامذته. لا أذكر اسمه الآن.

أجاب كوارتوس مستغرباً كيف يمكن للمرء أن ينسى هذا الاسم !

ـ يهوذا يا سيدي. الذي شنق نفسه.

فسارع شيلون قائلاً :

ـ أو، صحيح، يهوذا! شكراً.

وسـاروا معـا صامتين لفترة. وحـين وصلوا إلى السـوق، وجدوه مغلقـا، فتابعوا المسـير على أطرافـه. وحين تجـاوزوا صوامع القمح، انعطفـوا يسارا على طول فيا أوستنسيس حتـى تبة تستاكيوس، باتجاه الاكـواخ المنتشرة هنـاك. توقفوا قـرب مبنى خشبي سمـع من داخله ضجيـج الطواحين اليدويّة. دخل كوارتوس البنـاء، فيما فضل شيلون أن لا يظهر نفسه أمـام الاخرين هناك، مخافة أن يجمعه القدر بالطبيب كلاوسوس. سيبقى إذن في الخارج.

قـال في نفسه وهو يشاهد الكون القمـري المضيء : "كلّي فضول لأرى هـذا الهرقـل الذي يعمـل طحّانا هنا. فـإن كان شخصا وضيعا وذكيـا فسيقبل بنقودي القليلـة. أما إذا كان مسيحيـاً فاضلاً وأحمق فسينفذ بالمجان، ما سوف أطلبه منه".

انقطع خيط تأمّلاته بخروج كوارتوس برفقة رجل آخر يرتدي سترة تكشف يده اليمنى والنصف الأيمن من صدره. وهي سترة يرتديها العمال في الغالب، لأنها تتيح حريّة تامة في الحركة. وحين أبصر شيلون الرجل القادم تنفس الصعداء، وشعر بالرضى لأنه لم ير ساعداً وصدراً كهذين طوال حياته.

تكلم كوارتوس قائلاً :

ـ انظر يا سيدي. هذا هو الشخص الذي أردت أن تراه.

فقال شيلون :

ـ عليك سلام سيدنا المسيح، أما أنت يا كوارتوس فقل لأخينا إن كنت أستحق منه الثقة والقبول، ثم عد إلى منزلك للعناية بأبيك العجوز.

فقال كوارتوس :

ـ شخص قدّيس، قدّم كلّ ثروته من أجل أن يعتقني من العبوديّة رغم أنه لم يكن يعرفني. ليمنحه سيّدنا المخلّص رحمة السماء.

بسماع العامل العملاق هذه العبارات، انحنى وقبل يد شيلون.

فسأله الإغريقي :

ـ ما اسمك أيها الاخ؟

ـ في العمادة القداسيّة حصلت على اسم أوربانوس.

ـ أخي أوربانوس. هل لديك الوقت لنتحدث معا بهدوء؟

ـ عملنا يبدأ عند منتصف الليل، ولا عمل لنا الان سوى تحضير طعام العشاء.

ـ الوقــت كاف إذن. سنتمشى علــى ضفة النهر، وتصغي لما سأقوله لك.

ذهبــا، وجلسا على مقعد حجري، في سكون كوني عميق لا يعكر صفــاءه سوى صوت المطحنة وخرير المياه. عايــن شيلون وجه العامل فقــرأ منه شيئاً من التوعد و الحزن اللذين يميزان سكان روما من البرابرة على العموم. ورغم ذلك رآه شيلون صادقًا حسن النيّة.

قال في نفسه: "حسنا ! هذا واحد طيب وأحمق، سيقتل كلاوسيوس بلا مقابل ".

ثم سأله :

ـ أوربانوس! هل تحب المسيح؟

ـ من كل قلبي، ووجداني.

ـ وتحب إذن إخوتك وكل الذين علموك الحق و الايمان بالمسيح؟

ـ أحبهم كذلك يا أبتي.

ـ سلام عليك إذن.

ـ وعليك يا أبتي.

ساد الصمت ثانيّة.

سـرح شيلون في ضــوء القمر المنـير، وأطلق العنــان لنفسه، وراح يتحــدث عن موت المسيــح بهدوء و أنــاة كأنما كان يحــدث نفسه لا

أوربانوس، أو كأنما كان يروي للمدينة النائمة سر رحلة المسيح في الامه. كان حديثا مؤثرا، جعل العامل يبكي. أما حين بدأ شيلون يتنهد متألما لموت السيد الذي واجه الموت وحيداً دون أن يقدم أحد على إنزاله عن الصليب، أو حتى منع الحاق الاذى به من قبل اليهود و الجند، فقد بدأ يشد قبضتيه العملاقتين حنقا وحزنا. لكنه حين فكر بأولئك الرعاع اللذين فرطوا بالمسيح، ثارت روحه الساذجة وتملكتها رغبة غريزيّة في الانتقام.

سأله شيلون على حين غرة:

- أوربانوس! لعلك تعرف من كان يهوذا!

صرخ العامل :

- أعرف، أعرف، لكنه قد شنق نفسه.

بدت نبرته مشوبة بخيبة أمل، لأن الخائن قد نفذ عقوبته بنفسه، وليس بالإمكان الآن أن يمثل بين يديه.

تابع شيلون يقول :

- لكن لو لم يشنق نفسه، وصادفه أي مسيحي برًّا أو بحراً، أليس من واجبه أن يثأر منه لآلام الملخص و دمه، وموته؟

- ومن لا يثأر له يا سيدي؟

- سلام عليك، يا خادم المسيح الوفي. أجل ! يمكن للمرء أن يصفح عن أذى يلحق به، لكن من يصفح عن أذيه الحقت بالسيد؟ وبما أن الافعى تنجب أفعى، والشرّ شرا، والخيانة خيانة، فقد ولد يهوذا جديد من سم يهوذا القاتل. وبما أن ذاك قد سلّم المخلّص لليهود، وجند

روما، فإن هذا الذي يحيا بيننا يغد العدة للقضاء على أتباع كريستوس المسيح. وإن لم يوقف أحد هذه الخيانة، ويهرس رأس الافعى في الوقت المناسب، فالابادة في انتظارنا جميعا، ومعنا ستتلطخ سمعة المسيح واحترامه.

نظر اليه العامل باضطراب غاضب، كأنه لا يصدق ما يسمع، بينما راح الإغريقي يكرر بتباكٍ:

- ويلكم، يا عباد الله الحق، ويلكم، أيها المسيحيون رجالا ونساء!

ساد صمت، الا صوت الطاحونة، ودندنات الطحّانين، وخرير المياه.

سأل العامل أخيراً:

- من هو الخائن، يا أبتي؟

هزّ شيلون رأسه قائلاً:

- من؟ ابن يهوذا، ابن سم الأفعى المدّعي الذي يرتاد المعابد ليشي بإخوانه عند القيصر، بقوله إنهم لا يريدون الاعتراف بالقيصر إلهاً، وإنهم يسمّمون الأبار، ويقتلون الأطفال، ويرغبون في تدمير هذه المدينة عن بكرة أبيها. وهاهي الأوامر وقد تلقّاها الجند بقتل الشيوخ، والنساء والأطفال كما فعلوا منذ مدة بأرقاء سكوندس. كل ذلك كان من فعل يهوذا الثاني. فإن لم يعاقب الاول بإقدام أحدهم على الثأر منه، فهل ننتظر حتى ينهي سم الأفعى الثاني كل فعلته حتى يعاقب، وقد لا يبادر أحد إلى الانتقام منه. أليس من الواجب هرس رأس الأفعى و إنقاذ الأخوة والمعتقد؟ من سيقوم بذلك؟

نهض أوربانوس عن المقعد الحجري وقال:

ـ أنا يا ابتي.

نهض شيلون أيضاً. نظر في وجه العامل على ضوء القمر، ثم فتح يديه، ووضعها على رأس أوربانوس. وقال بلهجة احتفاليّة حبور :

ـ خالط المسيحيين، واذهب إلى أماكن العبادة، واسأل الاخوة عن الطبيب كلاوسيوس. وحين تتحقق من أمره، اقتله...

ـ كلاوسيوس؟ كرر العامل كأنه أراد أن ينبش الاسم من ذاكرته.

ـ هل تعرفه؟

ـ لا. لا أعرفه. روما تعج بآلاف المسيحيين. ولا يعرف الجميع بعضهم. لكن مساء الغد سيلتقي في الأستريانوم كل الاخوة من الرجال والنساء. لقد وصل حواري المسيح، وسيحضرون لسماع مواعظه. وهناك سيدلني الاخوة على كلاوسيوس.

ـ في الأستريانوم؟ لكنه خارج أبواب المدينة. الرجال والنساء كلهم؟ ليلاً؟ وفي الأستريانوم خارج الابواب؟

ـ أجل با أبتي. هذه مقبرتنا وتقع بين فياسالاريا و نومنتانا. أم أنك لا تدري أن الحواريّ سيعظ هناك.

ـ كنت خارج البلاد لمدة يومين، ولذلك لم تصلني رسالته. لكني لا أدري أين يقع الأستريانوم، لأني هنا منذ وقت قصير بعد مغادرتي كورنثوس حيث عهد لي بقيادة جمهور المسيحيين هناك. لكن إذا ما الهمك المسيح يا بني، فستذهب في المساء إلى الأستريانوم وتبحث بين

أخوتك عن كلاوسيوس، وعندما يتوجه إلى المدينة في طريقه إلى البيت تقوم بقتله، فتكفر بذلك عن كافة خطاياك. والآن رافقتك السلامة.

- أبتي...

- ما الذي تريده يا عبد المسيح الوفي؟

عكس وجه العامل اضطرابا ، فلم يمض وقت طويل على قتله شخصا، وربما اثنين، بالرغم من أن وصايا المسيح تحرم قتل الناس. لم يقتله دفاعا عن النفس رغم تحريم القتل حتى في هذه الحالة. الكاهن نفسه أرسل معه رجالا لمساعدته محذرا الجميع من ممارسة القتل. لكنه أقدم على القتل دون قصد، ومع ذلك حكم عليه، من قبل ربه، بالخطيئة الكبرى. وهو الآن يطلب الكفارة والتوبة بكل ما يملك من قوة. الاخرون يغنون قرب الطاحونة، وهو يفكر بالذنب الذي ارتكبه، وبما لحق بالمسيح من الام... كم صلّى. وكم بكى حتى الان، وكم توسّل المسيح للصفح عن خطاياه. وشعر أنه لم يكفر له خطيئته بما فيه الكفايّة، بدليل الوعد الذي قطعه من جديد، لقتل الخائن... لكن أين الخطأ في ذلك؟ اليس خائنا وقتله مشروع؟ لكن ماذا لو كان كلاوسيوس بريئا وأقدم على قتله؟ كيف سيتقبل ضميره إثما آخر، لا يرضي المسيح.

أجاب شيلون :

- لا مجال الآن للمحاكمات يا بني. لأن الخائن فور خروجه من الأستريانوم، إما أن يقصد القيصر، أو يخبئ في منزل أحد أعوانه. لكني سأعطيك شارة تقدمها بعد قتلك كلاوسيوس للكاهن أو الحواريّ الكبير وسيباركان ما أقدمت عليه.

أخرج قطعة من النقود، وراح يفتش عن خنجر حول خصره،

وحينما وجده، حفر به صليباً على قطعة النقود، وأعطاها للعامل.

ـ خذ! الخنجر لإقامة حكم كلاوسيوس. والشارة لك إذا ما قدمتها للكاهن، فسوف يعفو حتى عن جرمك الذي ارتكبته دون قصد.

بسط العامل كفـه من أجل قطعة النقود. مثلت أمامه جريمته الاولى وكأنها حدثت للتو، فقال بتوسل، وكأنما شعر بخشيّة ما :

ـ هل ضميرك مرتاح لهذه الفعلة، وهل سمعت كلاوسيوس بنفسك وهو يشي بأخوتنا.

أدرك شيلون أن عليه أن يقدم الاثباتات ويذكر بعض الاسماء، وإلّا سيتسلل الشك إلى قلب العملاق.

وسرعان ما خطرت له فكرة أنقذته فقال :

ـ اسمـع يـا أوربانوسـ ! أنا أسكـن في الكورنوسـ، لكني ولدت في كوسـ. أما هنـا في روما، فأقـوم بتعليم إحدى الفتيـات العبدات وصايـا المسيح. الفتاة تدعى يونيكي وهي من قومي. وتخدم في منزل بترونيوسـ أحد أصدقـاء القيصر. في هذا المنـزل بالتحديد سمعت أن كلاوسيوسـ تكفل بقتل عدد مـن المسيحيين، وأنه وعـد صديقا آخر للقيصر بالبحث بين المسيحيين عن فتاة...

هنا توقف عن الكلام مشدوها وهو يلمح عيني أوربانوس تلتمعان بغتة، كعيني حيوان مفترس، ويقرأ على وجهه غضبا ووعيدا.

فسأله شيلون مرتعدا بحق :

ـ ما المشكلة؟

ـ لا شيء يا أبتي. غدا سأقتل كلاوسيوس !

لكن الإغريقي ظلّ صامتــاً. وبعد قليل قبض على ساعدي العامل، وأداره حتى أصبح ضوء القمر مسلطا على وجهه. واجهه وأمعن النظر فيه. ترى هل يتابع استنطاقه، أم يكتفي الآن بهذا القدر الذي استخلصه منه، أو شكّ في استخلاصه.

وفي النهايّــة، كانــت الغلبة لطبعه الحذر الذي نشــأ عليه. تنهد مرة وثانيّة. ثم وضع يده على رأس العامل وسأله بشيء من الحبور:

- قلت لي أنك حصلت في العمادة القداسيّة على اسم أوربانيوس؟

- أجل يا أبتي.

- سلام عليك إذن يا أوربانوس؟

١٨

من بترونيوس إلى فينيكوس

لديــك مشكلــة يا عزيــزي. لا بــد أن فينوس قد أربكــت ذهنك، وسلبتك عقلك، وذاكرتك، ومقدرتك عل التفكير بأي شيء آخر غير الحب. اقرأ ردك على رسالتي وسترى كم الحق بتفكيرك من عطالة، إزاء كل شــيء عدا ليفيا شغلك الشاغل الوحيد، الــذي تحوم فوقه كالصقر فوق فريسته. جدها بأسرع وقــت و الا ستحرقك النار وتجعلك رمادا أو تتحول إلى أبو الهول المصري الذي وقع في حب إيزيس ذات الوجه الباهت، وغض بصره، وسمعه عن كل شيء عداها، مترقبا حلول الليل ليتمكن، بعينيه الحجريتين، من الاستماع لمحبوبته.

جُــلْ كل مساء متنكرا في المدينــة، بل ورافق فيلسوفــك إلى معابد المسيحيــين. افعل كل ما يمنحــك أملا، ويقتل الوقــت. وافعل، لأجل صداقتنــا، شيئــاً آخر بعد: يقــال أن أورسوس عبد هائــل القوة، فاسْعَ في تجوالــك أن لا تكــون وحيدا بــل برفقة كروتون مهمــا كلفك من مــال. ذلك أكثر أمانا وحذقا فالمسيحييــون، إن كانت بومبونيا، وليفيا منهم، ليســوا أناساً وضيعين. لكنهم باختطافهــم ليفيا قد برهنوا أنهم لا يتساهلون في أمر يخصــ أحد الحملان في قطيعهم. أعرف أنك إذا لمحت ليفيا، فسوف تقتفي أثرها لكي لا تغيب عن بصرك بين الجموع. لكــن كيف ستنتزعها من بينهم وليس برفقتك إلا شيلون؟ أما كروتون فقادر على البلاء حسنا حتى لو كانوا عشرة مثل أورسوس في حمايتها.

لا تدع شيلون يستغلك. لكن لا تأسف على ما تدفع من مال لكروتون هذه نصيحتي الفضلى لك.

باتوا هنا لا يتحدثون عن موت الطفلة، ولا عن إصابتها بالعين القاتلة. بوبيا تلمح للموضوع أحيانا لكن القيصر مشغول بأمور أخرى. نحن منذ عدة أيام في نابولي وبالتحديد في بايا. لو أن بمقدورك الانشغال بأي أمر، لكنت حتما سمعت عن إقامتنا هذه، لأن روما بأسرها تتحدث عنها. لقد توقفنا في بايا حيث أثقلت علينا ذكرى الام وتأنيب الضمير. ولكن هل تعلم كيف ال المال بالقيصر؟ صار قتل الام مجرد موضوع شعري، وحافزا لابتكار مشاهد تمثيله تراجيديّة. في السابق شعر حقا بتأنيب الضمير، بسبب جبنه فقط. لكن بعد أن أيقن أن العالم بأسره، مازال خاضعا له كالسابق، وأنه بات في منجى من نقمة الالهة، صار يتكسب ويطرح نفسه كشخص معذب للفوز بعطف العالم وتقويّة نفوذه. يجفل أحيانا في الليل، لأن أرواحا شريرة تلاحقه، فيوقظنا. ويتخذ وضعيّة ممثل جوال يلعب دور أوريستيس، ويقرأ لنا أشعارًا إغريقيّة، وهو يسترق النظرات ليعرف إن كان قد حاز على إعجابنا. نحن بالطبع سنعبر عن إعجابنا. وبدلاً من أن نواجهه بالقول: " عد إلى النوم أيها الممثل"، كنا نتقمص الحالة المأساويّة، ونقوم بحمايّة الفنان العظيم من الارواح. يا للهول! لا بد أنك سمعت أنه خرج للجمهور في نابولي. لقد جمعوا كل ما في نابولي والمدن المجاورة من متسكعين إغريق، وحشروهم في الميدان وفاحت منهم رائحة النوم والعرق لتملأ الجو. وحمدا للالهة أني لم أكن أجلس في الصفوف الاولى بل كنت وراء المنصة، مع صاحب اللحيّة الحمراء. وهل تصدق أنه كان خائفا؟ كان خائفا حقا. أمسك بيدي، وضغطها على قلبه الذي خفق بشدة. وكان هو لاهث الانفاس. ولما حانت لحظة خروجه لفه الشحوب التام، وتعرق جبينه رغم علمه التام أن عناصر

الحرس الامبراطوري يملؤون الامكنة وأنهم في أتم الجاهزيّة بعصي هم إذا ما لزم الأمر. لكن شيئاً لم يحصل. فلم يكن الحماس رعاعيا. صدقني أن رائحة الثوم وصلت إلى المنصة. وأن نيرون ترنّح، وضغط بيده على قلبه، وزرع القبلات، وبكى. ثم عاد الينا خلف المنصة في حالة من النشوة جعلته يصرخ قائلاً : "لا يقاس أي نصر بما يحصل الآن". في الخارج كان الجمهور لا ينقطع عن الهتاف والتصفيق، أملاً في أن يقابل هذا الحماس برحمة القيصر. وهداياه، ومآدبه، وبطاقات اليانصيب، والعروض التمثيليّة الجديدة. أنا شخصيًّا لم أستغرب تصفيقهم لأنهم لم يروا من قبل مثيلا لما شاهدوه. في حين كان هو يردّد معبّراً عن دهشته :

يا لليونانيين! يا لليونانيين! ومن يومها، في رأيي صار يكره روما.

سنذهب برعايّة هيلينا إلى بلاد اليونان.

أما عني أنا فأقول : إن كان المرء بين المجانيين سيصبح مجنوناً مثلهم، ويرى في الجنون سحراً معيّنًا. بلاد اليونان، والسفر برفقة آلاف الوتريات الموسيقيّة، احتفالات أشبه بطقوس النصر الباخوسيّة بمشاركة حوريات الغابات، والنساء الباخوسيات المكللات بالرياحين، والكرمة والغار، فوق العربات التي تجرها النمور، وأقواس النصر، والهتافات، والموسيقا، والشعر، والمصفقون، كل هذا جميل. لكن طموحنا أبعد من ذلك. نرغب في إقامة إمبراطوريّة شرقيّة تشبه الحكاية. وفي إنشاء بلاد من الروعة المحض، و النخيل، والشمس الساطعة، والواقع السحري. يشطح بنا المزاج أن ننسى روما، ونضع ميزان العا لم بين اليونان، وآسيا، ومصر، وأن نعيش كالهة، لا كبشر. وأن نوحد أبوللو و أوزيريس و بعل، في واحد. لا مكان للرتابة اليوميّة، بل للتجدد وللطواف في الارخبيلات على متن السفن الشراعيّة الذهبيّة تحت

الفجـر الشفقـي، وأشعـة الشمـس الذهبيّـة، وضوء القمـر الفضي. سيـادة، وغناء، وأحلام. وهـل تصدق: حتى أنا الـذي مازلت أملك شيئـاً من عقل رزين، ومقدرة راجحة علـى الحكم، أجد هذه الفنتازيا مشروعة، وإن كانت مستحيلة التحقيق، لكنها عظيمة واستثنائيّة. هذه الامبراطوريّـة الاسطوريّة كانت نصب أحلام البشـر منذ قرون. لو أن فينوس لم تتخذ هيئة ليفيـا أو يونيكي على الأقـل، فالحياة بحد ذاتها إن لم يجـم لهـا الفـن رتيبة وبشعـة في الغالب. لكـن صاحب اللحية الحمـراء لم يحقق أحلامه تلـك، ليس فقط لأن في مملكة الشعر الشرقيّة الاسطوريّة لا مكان للخيانة، والوضاعة، والموت، بل لأن هنالك تحت قناع الشاعر كوميديا تافهـا، وقائد عربة أحمق، وشرطيا ضعيفا. وفي حقيقـة الأمـر، حتى ذلك الوقـت سنسحق كل من يقـف في طريقنا. بـات سيلانوس المسكين مجرد ظل. قضي عليـه. أما ليسينوس فقد قبل بالقنصليّـة مرتعدا. والعجـوز تراسي لا منجى له من المـوت لأنه تجرأ أن يكـون نزيها. وفشل تيفالينوس مـن تجريدي من قواي. ما زالوا في حاجة ماسة الي، ليس فقط كوسيط لبق، بل كشخص ذي نظرة سديدة ونصائـح صائبة خلال الرحلة. كثـيرا ما يخطر لي أنني سأواجه نهايتي عاجـلا أم آجلا، وأنت تدرك ما الأمر الهام عندي في مثل هذه الحِالة. أن لا يصـل صاحب اللحيّة الحمـراء إلى كأسي من السـم الذي تعرفه وتندهشـ لـه. إن كنت إلى جانبي في لحظة موتـي سأعطيك إياه، وإن كنت بعيدا عني سأقوم بتحطيمه. لكن حتى ذلك الوقت ما زال أمامنا بـلاد اليونان الاولمبيّة، والقـدر الذي يخبئ لنا جميعـا طريقا مجهولا. احرص على سلامتـك، واستعن ب كروتون، فإن لم تفعل سيتمكنون ثانيّـة من اختطاف ليفيـا منك، وإن كنت في غنى عـن شيلون فأرسله لي، فقد أجعل منه فاتينوس آخر، يوقع السيناتورات، والسفراء بالضربة القاضيّـة أمامه. مشهد جدير بالحدوث. إذا مـا استعدت ليفيا أخبرني

لأتمكن من تقديم بعض قرابين البط، والحمام، في معبد فينوس. منذ مدة قريبة رأيت ليفيا في المنام، جالسة في حضنك، وأنت تقوم بتقبيلها. جاهد كي يتحقق منامي. آمل أن تكون معافى، والسماء في عونك.

١٩

ما إن أنهى فينكوس قـراءة الرسالة، حتى دخل شيلون المكتبة دون استئـذان. كان الخدم قد تلقـوا الاوامر بالسماح لـه بالدخول في أي وقت من النهار أو الليل.

- لتوسعْـك الام الالهيّـة الـرؤوم برحمتها، مثلمـا غمرتني رحمة مركوريوس بن مايا.

فسأله فينيكوس قافزا عن الطاولة :

- هذا يعني...؟

فأجابه شيلون باليونانيّة مستخدما عبارة أرخميدس :

- وجدتها

كان انفعال الشاب على قدر جعله لا يستطيع الكلام على الفور.

سأله أخيرا :

- هل رأيتها؟

- رأيت أرسوس وتكلمت معه.

- وعرفت أين تختبئ؟

- لم أكـن فضوليا بخصوص مكانهـا، فقد يدخل فضولي الشك في

صدر أرسوس فينقلها ليلا إلى مخبأ آخر. لم أفعل ذلك واكتفيت بمعرفة أن أرسوس يعمل لدى طحان قرب الامبوريوم اسمه كاسم معتوقك ديماس. اكتفيت بهذا لأنه بات بمقدور أي من أرقائك المؤتمنين أن يقتفوا أثر أرسوس، ويتعرفوا على موقع المخبأ. لقد جئت بهذا النبأ الموثوق، يا سيدي. فإن كان أرسوس هنا، فالفتاة إذن في روما، أما النبأ الاخر فمن المرجح أن تكون الفتاة ليلا في الأستريانوم.

قاطعة فينيكوس قائلاً وقد أراد أن ينطلق حالا إلى المكان؟:

- في الأستريانوم؟ أين يقع هذا؟

- بين مقبرة فيا سالاريا و نومنتانا. الحبر المسيحي الاعظم الذي حدثتك عنه قد وصل اليوم، وسوف يخطب بهم ليلا في تلك المقبرة، ما دام لم يصدر حتى الان أي توصيّة تحظر ذلك. لكن السكان يكرهونهم، وعليهم إذن أن يكونوا حذرين. وبما أن النساء والرجال سيحضرون معا لسماعه، فلن تتغيب الا بومبونيا لأنها لا تستطيع أن تبرر لأولوس الذي يقدس الالهة القديمة، سبب خروجها ليلا. أما ليفيا فسوف ترافق النساء الأخريات إلى هناك ما دامت في رعاية أرسوس و الاخرين.

كان فينيكوس حتى اللحظة يغلي، لكن الامل وقد بدا قيد التحقيق، هو الذي هدأ من روعه، كالمتجول الضال وقد بلغ هدفه بعد تطواف شاق يفوق مقدرة البشر. لاحظ شيلون ذلك وانتهز الفرصة لاستغلاله.

- رجالك يا سيدي يحرسون المداخل، والمسيحيون يدركون ذلك بالطبع، ولكن المداخل لا تقلقهم أصلا. لأن بمقدورهم إما أن يتجنبوها للوصول لرؤية الحبر الاعظم، أو حتى أن يعبروها ولهم طرقهم الخاصة

في ذلـك. كل ما في الأمـر أن على رجالك إما ان يقتفـوا أثر أرسوس لمعرفـة مـكان ليفيـا، أو أن يقبضوا عليـه كمجرم، ويجيئـوا به اليك، وتعرف منه أين خبأ ليفيا. أنا قمت بما علي فعله. أحد غيري سيقول أن الأمر يتطلب عشرة كؤوس من النبيذ الفاخر يحتسيها بصحبة أرسوس حتـى يتمكن من انتـزاع هذه المعلومات منه، وآخـر سيقول لقد وزّع ألـف سيستريوس ليحظـى بهذا السـر. أنا على يقين أنـك ستضاعف لي المبلـغ، لا استطيـع الا أن أكـون شريفا، كعهدي علـى الدوام. وأن مكافأتي منوطة بسعة صدرك وكرمك.

لكن فينيكوس كان جنديًّا، وقد اعتاد أن يلتقط مفاتيح الحلول، وأن يتصـرف على أساس ذلك. فما كان منه إذن الا أن استحال بعد ضعف استحوذ عليه فترة، إلى سيد قوي، وقال :

ـ لـن تخذلك سعة صدري، لكن خذني أولا إلى الأستريانوم. فسأله شيلون وقد بدا غير راغب بالذهاب:

ـ أنـا، إلى الأستريانـوم؟ أنا يا سيدي وعدتـك أن أدلك على مكان وجـود ليفيـا، لا أن أقبض عليهـا. تصور يا سيدي مـا الذي سيحصل لي، لو أن ذلك الدب الليغوي بعد أن يقوم بتمزيق كلاوسيوس، عرف أن تحريضـي له لم يكن علـى وجه حق؟ كيف سأقنعـه، وأنت تعلم أن الفيلسـوف كلما كان كبيراً، شقت عليه الاجابة عـن أسئلة العامة غير المثقفة من الناس. كيف سيكون ردي إن سالني لماذا اتهمت كلاوسيوس ! وإن كنـت يـا سيدي تشـك في احتيالي وخداعي لـك، فلا تدفع لي حتى أدلك على مكان ليفيا. ادفع قسطا يسيرا من المال يعينني في تدبر شـؤوني، فقـد تقع أنت يا سيـدي ضحيّة حـادث مفاجئ لا سمحت الالهة، فأغدو خالي الوفاض، دون مكافأة. قلبك لا يحتمل ذلك.

خطا فينيكوس نحو صندوق صغير فوق قاعدة رخاميّة، وأخرج منه كيسا وقذفه إلى شيلون، معلقا بالقول :

ـ وحين تصبح ليفيا في منزلي ستحصل على كيس مليء بالنقود الذهبيّة.

فصاح شيلون :

ـ يا جوبيتر!

لكن فينيكوس قطب حاجبيه قائلاً :

ـ احصل الان على طعامك هنا. ثم خذ قسطا من الراحة، ولا تغادر. سترافقني مساء إلى الأستريانوم.

للحظة ارتسم على وجه اليوناني شيء من الخوف، والارتباك سرعان ما تبددا، فقال وهو يخشخش كيس النقود:

ـ ومن بمقدوره أن يخالفك يا سيدي. لهذه النقود وقعها الخاص فضلا عما تعنيه لي صحبتك الممتعة من فال حسن... فرغ صبر فينيكوس فقاطعه ليسمع منه تفاصيل حديثة مع أرسوس. فكرته كانت واضحة تاما : إما أن يكتشفا ليلًا مخبأ ليفيا، وإما أن يتمكنا من خطفها من الأستريانوم، والعودة بها إلى البيت. أبهجت الفكرة فينيكوس وأغدقت عليه قدرًا من السعادة جعلت جهامته وغضبه منها يتبددان. صفح لها عن كل خطاياها، وباتت في اعتباره مخلوقة لطيفة، يشتاق اليها كغائبة تعود اليه من سفر طويل. وعندها لن يتمكن مسيحيو الكون بأسره أن ينتزعوها منه، ولا حتى القيصر ذاته.

أمـا شيلون، حين لاحظ سعادة الشـاب، فقد تجرّأ ورفع نبرة صوته مكيلا النصائح. لا يجـوز في رأيه، اعتبار القضيّة وكأنها نجحت، لأن نجاحها يتطلّب كثيرا مـن الحيطة، والا فقد تبوء بالفشل، وكان رجاؤه الا يقـوم فينيكوس بخطف ليفيا من الأستريانـوم. بل بتتبعها عن بعد، ومعرفـة المنزل الذي تقيـم فيه، ثم عند فجر اليـوم التالي تقوم مجموعة كبيرة مـن الأرقّاء بمحاصـرة المنزل، والعـودة بالعذراء. وبمـا أن الفتاة رهينة، وفي عهدة القيصر، يمكن القيام بذلك دون اعتبار للمحظورات القانونيّـة. وفي حـال لم تكـن ليفيـا في الأستريانوم، نتتبـع أرسوس، والنتيجـة نفسها. لا يجوز الذهاب إلى المقـبرة بأعداد كبيرة لأن ذلك يلفت الانتبـاه، وعندها سيعمد المسيحيون إلى إطفـاء مشاعلهم، كما فعلوا عنـد الاختطاف الاول، والاختباء تحت جنـح الظلمة في أماكن لا يعرفها سواهم. كما ينبغي التـزود بالسلاح، واصطحاب شخصين قويين مؤتمنين يقومان بحمايتهما إذا ما لزم الأمر.

أعطاه فينيكوس الحق في كل ما قاله. وخطرت له نصيحة بترونيوس، فأمـر أرقّاءه أن يأتوه بالمصارع كروتون. ولما كان شيلون يعرف الجميع في رومـا، فقـد سمع باسـم المصارع الذائـع الصيت، الـذي غالباً ما أدهشتـه قوته الخارقة في الميـدان. اطمأن تماماً، و أعلن أنه سيذهب إلى الأستريانوم. ورأى أنه سيسهل عليه، بمساعدة كروتون، الحصول على كيس كبير مليء بالمال.

وهكـذا فقد احتل مكانهه بكثير من التفاؤل حول المائدة التي دعي اليها مـن قبل ناظـر الأتريوم شخصيًـا. وخلال تناولـه للطعام حكى الأرقّـاء أن سيدهـم قد ابتاع منه مرهـما سحريا يكفي أن يدهن به حافز الجـواد حتى يفوز في السباق، بعد أن يخلـف وراءه الجميع. لقد تعلم كيفيّة تحضير هذا البلسم من أحد المسيحيين، لكون المسيحيين يجيدون

القيــام بالسحر والعجائب أكثر من التيساليــين المشهود لهم بالشعوذة وتحضــير الارواح. قال لهم أيضاً أن المسيحيــين يثقون به كثيرا، وأنهم جميعا يعرفون سر السمكة. كان يتكلم وهو يتفرس وجوه الأرقّاء لعله يقــع بينهمِ علــى مسيحي يمكن إخبار فينيكوس عنــه. ولما فقد أمله في ذلــك، سلّط حديثــه على مديح الطعام والشــراب، دون أن يفوته الثناء علــى الطباخ، مؤكدا لهم أنه ينوي شراءه من فينيكوس. كان في أفضل حالاتــه من المرح والابتهاج، لم يعكره سوى الالتزام بالذهاب ليلا إلى الأستريانــوم. لكنه واسى نفسه بأنهما ذاهبان باللباس التنكري وبرفقة رجلــين أحدهما أشهــر رياضيي روما المحبوبــين، والاخر رجل نبيل، وهــو عسكري ذو رتبة عاليّة. وقال لنفسه "لو تعرفوا على فينيكوس، لن يجرؤوا على رفــع أيديهم، وإذا ما لمحوني سرعان ما سيوقفون عند حد هم من قبل مرافقتنا".

ثــم تذكر حديثه مع العامل، وتجــدد تفاؤله. لم يخامره أي شك بأن العامل هــو أرسوس. لقد عرفت من حديث فينيكوس، وأقوال الأرقّاء الذيــن رافقوا ليفيا من قصــر القيصر، كم الرجل خــارق القوة. عندما وقف إذن بعض الرجال الاقوياء الذين أتى يونيكوس على ذكرهم، كان مــن المؤكد أن أرسوس إذن واحد منهــم: ولقد دل اضطراب أرسوس و انفعالــه حين تطرق إلى ذكر فينيكوســ و ليفيا، أنهما شخصان يهم انــه كثيرا. ثم ا لم يقل العامل أنه سعــى إلى التوبة لأنه قام بقتل أحدهم؟ والــذي فعله أرسوس أنه قتل أتاسينوس. العامل و أورسوس لهما نفس مواصفــات القــوة، لكن باسمــين مختلفين. و شيلون علــى اطلاع بأن المسيحيين غالباً ما يحملون أسماء أخرى غير أسمائهم.

قال شيلون لنفسه: إن يقتل أرسوس كلاوسيوس فهذا الأفضل، لكن حتــى إن لم يقتل فلا بأس في الأمــر، لأنه مؤشر يدل على أن المسيحيين

يشــق عليهــم القيــام بعمليّة القتل. مــا أطيب هــؤلاء المسيحيين، وكم ينعتونهــم بصفات رديئة. أيتها الالهة هل مــن عدالة في هذا العا لم؟ أنا أحب تعاليمهم لأنها تحظر القتل، وتحرم السرقة والغش، وشهادة الزور. ومن تعاليمهــم الموت بشرف، وحب الحياة. إذا ما تحسنت أحوالي في يوم، وصرت أملك منزلا وأرقاء فقد أصير مسيحيا ، واستمر في اعتناق هــذا المعتقد مادام يعود علي بالفائــدة. لأن الشخص الثري يبيح لنفسه كل شيء، حتــى الفضيلة والاخلاق. أجل. إنه دين الأثرياء. وإن كنت لا أفهــم سببا لوجود كثــير من الفقراء بينهم. ما الفائــدة التي يرجونها مــن كونهم أولي فضيلة؟ ولماذا يحتملون من الفضيلة أن تكبل أيديهم؟ ينبغي أن أفكر ذات يوم بالأمر. حتى ذلك الوقت أنا ممتن لك يا هرمس أنــك أتحت لي العثور على ذلك الظبــي ، لكن إن كنت قد فعلت ذلك من أجل العجلين الابيضين... بعمــر السنتين، اللذين يتوجب علي أن أذهّــب قرونهما، فأنا لا أعــترف بك. عار عليك، يــا قاهر ارغوس ! كيف لاله ذكي مثلك، أن يغض الطرف ولا ينظر إلى الإمام ليرى أنه لن ينــال شيئاً. لك مني الحمد والامتنان. وإن كنت تقدر العجلين أكثر من امتناني، فلا بد أنك ثالثهما، وفي أفضل الاحوال أنت أجدر بأن تكون راعيــا لا إلها. حذار مني كفيلسوف أن لا أفضحك بين البشر و أبرهن لهــم أنك غير موجود، فيمتنعون عن تقديم القرابين. لا ضير في حسن معاملة الفلاسفة.

مــا إن أنهى حديثه الداخلي مع نفسه، ومع هرمس، حتى تمدّد على المقعــد، ووضع عباءته تحــت رأسه، ونام. لم يفق حتــى أيقظوه بقدوم كروتــون، فعبر إلى الأتريوم لتقع عينــاه على هيئة المجالد العملاق التي خيمــت على فسحه الأتريوم بالكامــل. كان كروتون يساوم للتو على مكافأته لقاء قبوله بالمهمة. قال لفينيكوس :

ـ يـا هرقل! حسـنٌ يا سيدي أنـك أرسلت هذا اليـوم بطلبي، لأني سأذهب غدا إلى بنافنتوم. لقد دعاني النبيل فاتينوس لمصارعة شيفاكس وهو أقوى المصارعين الافارقة، بحضور القيصر.

لك أن تتصور يا سيدي كيف سيتحطم عموده الفقري، بين ذراعي. إضافة إلى سحق فكه بلكمة واحدة مني.

أجاب فينيكوس معبّراً عن دهشته :

ـ يا بولوكس ! أنا واثق من كفاءتك يا كروتون.

فأضاف شيلون :

ـ ستفعلهـا باقتدار. أجل... سحق فكّه! فكـرة جيدة تليق بك. أنا مستعـد لتقبل فكرة سحـق فكه، لكن لا تنس يـا هرقليس أن تواظب على دهن جسدك بالزيت حتى ذلك الوقت وهيء نفسك جيداً. لأنك ستواجه مصارعاً حقيقياً. أرسوس أيضاً رجل خارق القوة.

قال شيلون ذلك ليثير حماس كروتون، وقد وافقه فينيكوس قائلاً :

ـ تمامـاً. لم أره بـأم عينـي، لكني سمعت أنه قـادر على جر ثور من قرنيه، في أي اتجاه يشاء.

أبدى شيلون اندهاشا مفتعلا وكأنه لا يعرف مقدرة أرسوس :

ـ يا لطيف!

لكن كروتون ابتسم باحتقار:

ـ أراهنك، يا سيدي المحترم، أن أقبض بإحدى يدي على من ذكرت

الآن، وأقاتـل باليد الاخرى سبعـة من أمثال ذلـك الليغوي، وأجلب الفتاة إلى منزلك، حتى لو طاردتني روما بأسرها.

صرخ شيلون :

ـ لا تدعه يفعل يا سيدي. قد يقذفونك بالحجارة فيما بعد. وعندها مـا نفع القوة التي يتمتع بها؟ أليس من الأفضل إبعاد الفتاة عن المنزل، وتفادي المغامرة بحياتها وحياتنا؟

فقال فينيكوس :

ـ هذا ما ينبغي أن تفعله يا كروتون.

ـ أنت تدفع، أنت تأمر! لكن لا تنسَ أني ذاهب في الغد إلى بنافنتوم.

أجاب فينيكوس :

ـ ولدي في المدينة خمسمئة رقيق.

قـال ذلـك،و أومأ لهمـا بالانصراف. ثـم توجـه إلى المكتبة وخط الرسالة التاليّة لبترونيوس :

" شيلون عثر على ليفيا. هذا المساء سأذهب بصحبته إلى الأستريانوم ومعنـا كروتون. إما أن أقبض على الفتاة، حـالا هناك، أو من بيتها في الغـد. باركتك الالهة على فعل كل ما هـو صالح. دمت بصحة جيدة لك تحياتي. ومن فرط سعادتي لا مزيد لأكتبه ".

وضـع قصبـة الكتابة، وراح يـذرع الغرفة بخطـوات سريعة جيئة وذهابا.

فإلى جانب سعادته العارمة التي أثلجت كيانه، شعر بالحمى تلوكه. قــال في نفسه: غــدا ستكون ليفيا هنا في هذا البيت. لم يكن يدرك بعد كيف سيعاملها، لكنه شعر أن الفتاة إذا ما أحبته فسوف تكون خادمته. خطــر له ما قالته أكتي بأن ليفيــا تحبه. فازداد اندفاعًا. كل ما هنالك أنه سيترتــب عليه التغلب علــى نوع من الحياء العــذري والارتهان لبعض الامــور التي يتطلبها الديــن المسيحي. لكن مــادام الأمر كذلك فلا بد للفتاة، بعد أن تعيش في بيته، إن كان بالتفاهم، أو بالارغام، أن تخضع للأمر الواقع، وتنقاد له ثم تحبه فيما بعد.

لكن شيلون قطع عليه خيط تفكيره حين بادر بالقول:

ـ سيــدي. خطر لي ما يلي: اليس من المحتمل أن يكون للمسيحيين كلمــة سر، أو بطاقة لدخــول الأستريانوم؟ أعلم أنه إجراء يتيح للمرء أن يــؤم المعابد. لقد سبق وحصلت علــى مثل هذه البطاقة من يورسيوس. دعني أذهب اليه وأستفسره، وآتي بالبطاقات إن لزم الأمر.

أجاب فينيكوس ببشاشة:

ـ حسنــا أيها الحكيم النبيل! ما تقولــه ينطوي على إحاطة تامة بكل الامــور، تستحق عليها الثناء. فلتذهــب إلى يورسيوس أو حيثما تشاء، لكن دع كيس النقود الذي منحتك إياه على هذه الطاولة.

مــن شيم شيلون أنه لا يدير ظهره للمــال برغبة منه. أبدى تكشيرة اشمئزاز،لكنــه خضع للأمر وانصــرف. لم يكن السيرك حيث حانوت يورسيوســ بالقــرب منه، بعيدا مــن هنا، ولذلك فقد عــاد قبل مغيب الشمس.

ـ إليــك بالبطاقات يا سيدي. بدونها مــا كان من الممكن الدخول.

استفسرت عن الطريق بدقة. لأني قلت ل يورسيوس أنني في حاجة إلى بطاقات تخص أصدقائي فقط. فأنا عجوز لا أستطيع قطع كل تلك المسافة. خاصة وأنني سالتقي الحبر الأعظم غدا، وسيحدثني عن تفاصيل خطبته.

جهر فينيكوس قائلاً :

ـ ماذا؟ الن تذهب؟! بل عليك أن تكون هناك.

ـ أعرف أن علي الحضور. لكنني سأتخفى بغطاء للرأس. وأنصحكما بذلك والا سنجفل العصافير.

وبعد وقت قصير بدؤوا يستعدون للانطلاق، لأن الشمس باشرت بالمغيب... ارتدوا عباءات بقبعات رأس، وحملوا الفوانيس. وتبسلح فينيكوس وأصحابه بخناجر معقوفة قصيرة. وضع شيلون فوق رأسه باروكة كان تزود بها في طريق عودته من عند يورسيوس. وانطلقوا مسرعين كي يبلغوا بورتا نومنتانا البعيدة قبل الاغلاق.

٢٠

انطلقــوا حتى بلغــوا بورتافيمناليس القديمة. عــبروا السهب الذي أقــام عليــه ديوكلاتينوس حمامــه الفخم، و تجاوزوا أطــلال سرفيوس عابريــن القفار حتى بلغوا فيانوفنتانــا أخيراً. و من هناك انعطفوا يسارا باتجــاه سالاريا حتى وطئوا هضابــا ريفيّة مليئة بحفر الرمال، و المقابر. كان الظــلام قد حل. و بما أن القمــر لم يظهر بعد، فقد بات من العسير التعرف على الطريق، لو لا أن قام المسيحيون السائرون بتحديد مساره. و كان شيلــون قد استوضح ذلك مسبقا و فعلا لقد وقعت أعينهم على هيئات كالحة منتشرة يمنة و يسرة و أماما، و في كل مكان، و هي تتقدم بحذر نحو البقع الرمليّة المتفرقة. كان البعض يحمل الفوانيس و يسعى لإخفائها تحت العباءات، و البعض الاخر ممن يعرف الطريق أكثر، كان يعــرج متقدمــا في الظــلام. كان فينكوس بعينه العسكريّــة الخبيرة يميز مــن بينهم الشبــان و العجائز المتعكزين، و النســاء المتدثرات بأروابهن الطويلة. و كان هناك مشــاة فيماندر، و قرويون خارجون من المدينة، و بينهــم عمال مسرعــون إلى الحفر الرمليّة، و أخــوة يمارسون طقوس زيــارات قبور أخوتهم الموتى. كان البعضــ يغني بصوت حزين، و قد أعجــب فينكوس بغنائهم لما ينطوي عليه من عبارات الحنين التي ميزها تلقائيــا بــين حين و آخر، مثل استيقظ يا نائــم. انهض من موتك، دون أن يغيــب ذكــر المسيح أحيانــا. لكن فينكوس لم يكــن ليدقق كثيرا في عباراتهم لأن تركيزه كان على ليفيا إن كانت بين هذه الهيئات الداكنة، التــي حيــت بعضها بعبارة الســلام معكم، المجــد للمسيح. اضطرب

فينكوس، و خفق قلبه شديدا، و قد شعر أنه يسمع صوت ليفيا. وقع في حيرة و بات لا يميز في الظلمة بين هيئة و أخرى، حتى لم يعد يثق بعينيه.

لقد وجد الطريق هائلا في طوله. كان قد عرف هذه الارياف، لكنه لم يهتد في ظلام الليل، إلى ما يصادفه من أزقة حول المدينة، و من بقايا جدران و ابنيّة. أخيرا بدأ البدر يبزغ من وراء الغيوم، و يضيء الارجاء الريفيّة على نحو أفضل من السراجات الواهنة. لمح في البعيد ما يشبه نار الرعاة، أو لهب المشاعل. مال فينكوس نحو شيلون و سأله إن كان ذلك هو الأستريانوم.

كان للظلمة، و البعد عن المدينة، و هذه الأشكال الشبحيّة بالغ الأثر في نفس شيلون، فأجاب بشيء من فراغ الصبر :

ـ لا أدري، يا سيدي، لم أكن مرة في الأستريانوم. كان بالامكان أن أجد المسيح في مكان آخر أقرب إلى المدينة.

غير أنه بعد فترة وجيزة، و قد شعر أنه في حاجة للكلام، و إظهار جسارته أضاف :

ـ إنهم يتجمعون كاللصوص، لكنهم لا يبيحون القتل إلّا إذا أقدم ذلك الليفوي على خداعهم.

كان فينكوس يفكر بليفيا، و مع ذلك فقد أدهشته هذه الطريقة السريّة الحذرة التي يتبعها أخوة ليفيا في تجمعهم، فقال:

ـ كأي معتقد آخر، لهذا الدين أيضاً أنصاره بيننا، لكن المسيحين زمرة يهوديّة. فما الذي يجعلهم يجتمعون هنا، و المعابد اليهوديّة

منتشـرة بعد نهر التيبريس، حيث اعتاد اليهود إقامة شعائرهـم في وضح النهار؟

ـ لا، يـا سيـدي اليهود بالـذات أشرس أعدائهـم. سمعت أن حربا جـرت بينهم و بين اليهـود، في عهد القيصر كلاوديوس الذي ضاق ذرعاً بهذه الاضطرابات، فقام بطرد اليهود. أما الآن فالأمر معكوس. صار المسيحيون يتخفّون أمام اليهود و باقي السكان تفاديا للتهم.

تابعوا المسير صامتين لفترة. لكن شيلون الذي تفاقمت مخاوفه كلما ابتعدوا عن مدخل المدينة، تكلم قائلاً :

ـ في أثناء عودتي مـن عند يوريسيوس استعرت باروكة، و دسست في أنفي حبتين من الفاصولياء. آمل ألا يتعرفوا الي. و ألا يقتلوني إذا ما تعرفـوا الي. ليسوا بشرا سيئـين. بل على العكس من ذلك فهم في غاية الاستقامة و أنا أجلّهم و أحبهم.

فأجاب فينكوس :

ـ لا تضع نصب عينيك مسبقا أن تكسبهم بالمديح.

و تابعـوا المسير حتى بلغوا دربا خندقيا ضيقـا ، ما إن وطئوه حتى لمحـوا في نهايته جـدارا مغطى بعريشة لبلاب كثيفـة لمعت فضيّة تحت ضوء القمر. كان هذا هو الأستريانوم.

بدأ قلب فينكوس يخفق بشدة.

كان يقـف عند المدخـل حاجبان يستلمان بطاقـات الدخول. بعد قليل وصـل فينكوس و مرافقوه مكانا فسيحا ومسـوّراً مليئا بشواهد

القبــور، يتوسطه سـرداب، وأمام مدخله الـذي يفضي إلى المدفن تحت سطـح الأرضـ نافورة مـاء. من البديهـي ألّا يتمكن كل هــذا الحشد مــن الناس دخول السرداب ممّاجعل فينكوسـ على يقين بأن الاحتفال سيجري في الهواء الطلق. صحيح أن الفوانيس قد انتشرت بكثافة على مـد النظر، إلّا أن الكثيرين قد جاؤوا بدونها. كانت الرؤوس المكشوفة معدودة، لكن الغالبيّة العظمى تخفت بقبعات العباءات، إما تحسبا من أعـين الوشاة، أو توقيًـا لبرودة الجو. كان قلـق فينكوس مشروعًا حين وجد أن من المستحيل تحت هذه الاضواء الواهنة التعرف على ليفيا بين هذه الجموع.

لكن سرعان ما أضيئت بعض المشاعل إلى جانب السرداب، جعلت المـكان منارا على نحو مقبول. تلا ذلك أن بدأ الحشد بإنشاد التراتيل. كان نشيدا غريبا، خافتا في البدايّة ثم أخذ يعلو. لم يسمع فينكوس مثيلا لهـذه التراتيل طوال حياته. ذات الدنف الذي استشعره فيما سمعه من غنـاء و هو في طريقــه إلى هنا. الحنين ذاته في هــذا الانشاد الان، لكنه حنـين على نحو أكثر شفافيّة و قوة و كأن تأثـيره لم يقتصر على البشر، بــل شمل أنحاء المقــبرة، و التلال، و الدروب العميقــة، و سائر أرجاء الريــف. كان شيئاً أشبه بالاستغاثــة،و التوسل في طلب الخلاص. كأن العيــون الناظـرة إلى السماء قد رأت أحدا في الاعــالي، و كأن الايادي المفتوحــة تتضرع لهبوطه. حين خفت الغناء، ساد ترقب لحظي آسرٌ هو الاخــر، جعل فينكوسـ و رفاقه ينظرون نحو النجــوم، و في نفوسهم خشيّــة مــن أن يحدث أمر خــارق فعلا، و يهبط أحــد الان من هناك. لقــد سبق لفينكوس أن رأى كنائس مختلفــة في أنحاء آسيا الصغرى، و مصــر، و رومــا، و عرف أديانــا عديدة هناك، و سمع كثـيرا من الوان الغناء، لكنه هنا يشاهد لأول مرة، بشرا ينادون الإله ليس لمجرد ممارسة طقســ من الطقوس، بل من أعماق قلوبهــم، و بمثل هذا الحنين الاشبه

بحنين الطفل إلى أمه و أبيه. الأعمى فقط من لا يرى أن هؤلاء البشر لا يقتصرون على تبجيل الههم، بل يحبونه من أعماق قلوبهم. و هذا ما لم يعهده فينكوس في أي من البلاد، و الطقوس، و المعابد. لأن الناس في روما أو بلاد الإغريق ممن ما زالوا يقيمون الطقوس احتراما للالهة، فإنما يفعلون ذلك إما كنسبا لودهم، و طمعا في تلقي المساعدة، و إما خوفا منهم. لكن أحدا لا يخطر له أن يهيم بهم حبا.

صحيح أن أفكاره كانت تدور حول ليفيا، و تركيزه منصب على رؤيتها و معرفتها بين الجمهور، و رغم ذلك كان من المستحيل الا يلتفت إلى هذه الامور الاستثنائيّة الفريدة الاسرة التي تجري أمام عينيه. و في أثناء ذلك أضرمت النار في المشعلة، فغمر ضوءها الاحمر كافة أنحاء المقبرة، و طغى على أضواء الفوانيس. في هذه اللحظة خرج من السرداب كاهن حاسر الرأس يرتدي عباءة ذات قبعة، و صعد حجرا توضعت قرب المشعلة.

ماج الحشد لمرآه. وسمع فينكوس إلى جانبه همسات تقول: بتروس، بتروس. بعضهم جثا، و آخرون مدوا أيديهم نحوه. و ساد صمت عميق لا يسمع خلاله إلا قرقعة العربات البعيدة، و تنهدات النسائم بين فروع بعض الصنوبرات المنتصبة إلى جانب المقبرة.

مال شيلون نحو فينكوس و وشوشه قائلاً :

ـ إنه هو. أول تلميذ للمسيح. صياد سمك.

أما الكاهن فقد رفع رأسه، وحيى الجماهير الجاثيّة برسم شارة الصليب. فينكوس ورفاقه، وقد أرادوا الحفاظ على إخفاء أنفسهم، حذوا حذو الاخرين و جثوا على ركبهم. لم يكن بمقدور الشاب حتى

هــذه اللحظة أن يهدّئ نفسـه و يتخلّص من اضطـراب أعصابه، لأنه شعـر أن الشخص الواقـف أمامه أشبه بفلاح بسيـط، و لكنه، في آن، ذو طلعـة استثنائيّة خارقة مرد ها تلك البساطة ذاتها. كان حاسر الرأس و الجبـين، لا يحمـل سعفة نخيل في يده، و لا يتقلّـد لوحة ذهبيّة على صـدره. و لم يكن رداؤه الابيض مطرّزا بالنجـوم أو أيّة شارة أخرى تميـز الكهنـة الشرقيين أو المصريين أو الإغريـق أو حتى الرومان. خالج فينكوس نفس الشعور حين سمع أغاني المسيحيين في الطريق، لأنه لم ير هذا "الصياد"، بثيابه الرسميّـة. بل كان نموذج التلميذ البسيط المسن الجدير باحترام فائق، خاصة و أنه قطع المسافات ليتكلم هنا عن حقيقة شاهدها بأم عينه، و آمن بها، و أحب ها كذلك. شع وجهه بقوة اليقين النابـع من قوة الايمان الحقيقيّة حصرا. لكن فينكوس لم يدع نفسه وهو مـن ذوي الخـبرة الحياتيّة عرضـة لتأثير سحر الكاهن، بـل كان ينتظر بفـارغ الصبر ليعرف ما الذي سيتمخض عنه حديث هذا الحواريّ، و ما هي الوصايا التي شدت كلا من ليفيا و بومبونيا، و أخذتا بها.

بـدأ بطرس الحديث. تكلم في البدايـة كأب يعظ أطفاله، و يعلمهم كيـف ينبغي عليهم أن يمارسوا الحيـاة. أوصاهـم بالابتعاد عن الإسراف و المتـع، و بمحبة الفقر، و التزام النقـاء الخلقي، و العدالة، و الطاعة. و حذّرهـم مـن الخيانة و الغش و الكذب. و أن يكـون كل منهم قدوة أمام أخيه و مثالا يحتذى حتى من قبل الوثنيين. و بما أن فينكوس يربط صـلاح أي أمر بما يخـدم علاقته بليفيا، فقد كانت كل وصيّة تفوه بها مصـدرا للسوء و إثارة للحزن و الغضب لديه. لأن الكاهن، في حديثه هـذا إنما يدعو إلى مكافحة الاشـواق و الرغائب، و يتعد ى على حبه، و يحرضـ ليفيا عليه. لقد وضـع في حسبانه أن ليفيا، إذا ما كانت هنا بـين هذه الجموع، فهـي لا تصغي و حسب إلى ما يتفوه به الكاهن من عبـارات، بل سوف تؤمن بما تصغي اليـه و تحفظه في القلب. و بالتالي

فـإن فينكوس نفسه سيضحي في نظرها عدوا لدودا، و غير جدير بها. الفكـرة بثت السم في قلبه. "ما الجديد الـذي أسمعه". قال في نفسه. "هذه هي التعاليم الجديدة؟" ما من أحد هنا الا و يعرف ذلك و سمع بـه. هذا ما دعا اليه سقـراط. و حتى سسينيكا الـذي يملك الكثير من الـثروة، يمجد التقشف و يدعو إلى العدالـة، و التسامح بين الاعداء، و الصـبر علـى الشدائد. لقد خاب ظنه بالحواريّ، و قـد انتظر أن يسمع موعظـة مذهلـة، فلم يجد مـا يذهله سـوى إصغاء الحاضريـن المطلق و صمتهـم المطبـق. بينما استمـر الكاهن يخاطب مستمعيـه النجباء، و يدعوهـم ليكونوا صالحـين و هادئين، و عادلين، و فقـراء، و أنقياء، ليسـ فقط ليحظـوا بالسلام في حياتهم، بل ليدخلـوا بعد مماتهم، دار الابديّـة، و يعيشوا هناك في مسرة و مجد لا يمكن لأحد أن يحظى بجزء يسـير منهما في الأرض. و لمـا كان تأثير ما تقدم مزعجا أيما إزعاج في نفسـ فينكوسـ، كان من المستحيل أن لا يدرك الشـاب أن هناك فرقا جوهريـا بين تعاليم الحواريّ و بـين ما يقوله السينكيون و الرواقيون و الفلاسفة الاخرون. ففي حين دعا هؤلاء إلى ذات الافكار من الصلاح و الفضيلة باعتبارها القيم الوحيدة الناجعة لممارسة الحياة على الأرض، فقد راح الكاهن يبشر الناس بجني ثمار الفضيلة بالخلود بعد الممات في دار الأبديّـة. حتى أنه ليس خلوداً وضيعـاً تحت الأرض يكتنفه السأم، و العـوز، لكنه خلـود عظيم يقارب الحياة الابديّـة عند الالهة. تحدث عـن الأمر بثقة تامة. حتى بدت كل جوانـب الحياة ليست ذات معنى. فالمعانـاة الانيّة لبلـوغ السعادة القصـوى شيء غير المعانـاة باعتبارها سنّـة من سـنن الطبيعة و الكـون. و من جملة ما قالـه الكاهن : ينبغي إيـلاء الفضيلة و العدالة الحب لذاتهمـا، لأن أعظم الخالدين الفاضلين الصالحـين هو الله. فمـن يحبهما فقد أحـب الله إذن، و سيغدو بالتالي حبيب الله و ابنه البار. " فينكوس " لم يفهم هذا جيدا، لكن عرف منذ

مــدة من خلال ليفيا و بومبونيــا أن الله في نظر المسيحيين كلي القدرة. و بمقارنة ذلك مع الهــة مثل جوبيتر، و ساتورنوس، و أبوللو، و يونو، و فيستــا، و فينوس، فما هؤلاء إذن الا مجــرد بؤساء و قرقعات جوفاء. لكــن دهشة الشاب الفائقة كانت حين أوضح الحواريّ أن محبة البشريّة جمعــاء هي أساس المحبة. لأن ابن الله قــد أهرق دمه من أجل الجميع، و لم يــدعُ إلى محبة مــن وقفوا معنا فقط، بل لقد تسامح حتى مع اليهود الذيــن أسلموه للموت، و مع الجنــود الرومانيين الذين صلبوه. و اعتبر أن التسامح معهم لا يكفي، بل علينا أن نخصهم بالحب، و نقابل أذاهم بعمل الخير لهم. لا يكفي أن نحب الصالحين، بل الاشرار كذلك. لأننا بالمحبــة وحدها يمكن لنا انتزاع الشر من نفوسهم. شيلون بدوره خاب أمــلا من هذه العبارات، لأن عمله ذهب هباء، لكون أرسوس لن يقدم في هــذه الليلة على قتــل غلاوسيوس. و لكي يواســي نفسه استخلص مــن كلام الحواريّ نتيجة أخرى مفادهــا أن غلاوسيوس أيضاً لن يقدم على قتله حتى لــو اكتشف ما يرمي اليه. و أبعد فينكوس التفكير بعدم ورود أي جديــد في كلام الكاهن، مفسحــا المجال للسؤال في نفسه: أي الــه؟ و أيّة تعاليم؟ و أي شعــب هذا؟ كل ما سمعه لا قيمة له الا في نفوســ هؤلاء. أما بالنسبة اليــه فليس سوى هراء، و ما عليه الان الا أن يتخلــى تمامــاً عن طريقته في التفكير، و عن عاداتــه، و طبعه الذي نشأ عليه، و يجسر على بدء حياة جديدة، و التحلي بروح مختلفة كليا. شعر أن التعاليــم التي تدعــو إلى محبة البارثيين، و السوريــين، و الإغريق، و المصريــين، و الغال، و البريطانيين، و التسامح مــع أعدائه، و الرد على أذيتهــم بطيبة القلب، ما هي إلا ضرب من الجنون. إلا أنه وجد في هذا الجنــون شيئاً أعظم من كل ما جاءت بــه الفلسفة حتى الان. و بحكم أنهــا تعاليم مجنونة فهي إذن غير قابلة للتحقيق. و عدم قابليتها للتحقيق يجعلهــا ربانيّة. شعر بعطر خفي يفوح في روحــه، و تطفو فوقه طبقة

من عبق الزهـــور إذا ما اشتمه المرء ينسى كل شيء، و يحضه حالا على الرغبـــة. شعر أن لا شيء حقيقيا في هـــذه التعاليم، لكن كل الحقائق إذا ما قورنت بها، تضحي بلا نفع و لا معنى لها. يا لهذه العوا لم الجديدة، و الفضـــاءات الهائلة، و الغمائم التي أحاطت به، و لم يكن يعرف عنها شيئاً حتى الان. هذه المقبرة باتت في نظره مكانا لاجتماع المجانين، و لكنه مـــكان مخيف، تكتنفه الخفايا، و تولد فيه عجائب لم يعرفها العا لم إلى الان. و مـــرة أخرى استرجع ما قاله الكاهـــن حول الحياة و العدالة و المحبـــة، و الله، فانبهـــرت أفكاره كما ينبهر البصـــر بالبرق. قاس كل شـــيء بانعكاسه على حبه لليفيا – معاناته الوحيدة، فلم ينجل أمامه إلا أمـــراً واحداً : إن كانت ليفيا هنـــا، و سمعت هذه التعاليم، فعلى الحب الســـلام، و لـــن يغدو حبيبها بعـــد الان. منذ أن تعـــرف اليها عند عائلة الوشـــ، يشعـــر للمرة الاولى أنه حتـــى لو استعادهـــا الان، فلن يكسبها حبيبـــة له أبدا. كان شعوراً كاسحاً بسوء الفال. اضطـــرب، و سرعان ما انقلـــب اضطرابه العاصف إلى نقمـــة عارمة على المسيحيين، و الكاهن خاصـــة. هذا الصياد الذي بدا له فلاحاً أوّل الأمر، ها هو ذا الان يملؤه جزعًا، و يقرّر له مصيراً تراجيديًا، على حين غرة.

تطاولـــت السنة النيران في المشعلة أكثر فأكـــثر، بينما راح الحواريّ يتحـــدث عن موت المسيـــح الذي شهده بـــأم عينه. فانقطعـــت أنفاس الحضـــور، و خيم سكوت جعل دقات القلـــوب مسموعة. لقد مات. يـــا للهول. يا لهول الكارثة. و تابع الكاهن حديثه قائلاً : حين غادرت مـــكان الصلـــب أنا و يانوش ظللنـــا يومين متتاليـــين لا يغمض لنا جفن و نحـــن جالســـين قرب الجدار يتملكنا الذهـــول و الحيرة. و في صباح اليـــوم الثالث عند طلوع الشمس، هرعت مريم المجدليّة تولول منفلشة الشعر، و هي تصرخ: " لقد خطف السيد "، و بسماعنا صراخها قفزنا مسرعين نقصـــد المكان. سبقنا في الوصول يانوش الفتى. و حين وجد

القبر خاليا، لم يجرؤ على الدخول. وحين وصلنا و صرنا ثلاثتنا عند المدخل، دخل و رأى الكفن و الاقمطة فوق الحجر دون أثر للجسد.

جزعنا لأننا ظننا أن الكهنة قد سرقوا المسيح، فعدنا إلى البيت بأعظم الالم و الانكسار. ثم جاء التلامذة الاخرون واحدا بعد الاخر.

مضى اليوم الثالث على موته، و لم يفهم التلامذة سببا لتخلي لأب عن ابنه. و من ثقل المصاب الجلل عليهم، كانوا يتمنون الموت دون أن تشرق عليهم الشمس بعد الان. و ما زالت تلك الايام العصيبة حية في ذاكرة الحواريّ فذرف دمعتين، شوهدتا على وهج النار المشتعلة، تتدحرجان فوق لحيته الشيباء. ارتعش رأسه العجوز الاصلع، و ذبح صوته في حنجرته. قال "فينكوس" لنفسه:"هذا الشخص يقول الصدق، و هذا الأمر يبكيه حقا". غصت حناجر السامعين الطيبين. لقد سمعوا الكثير عن معاناة المسيح و آلامه، و عرفوا أن المسرة تأتي بعد الاحزان، لكن ما قاله الحواريّ الان عما شاهده بأم عينه جعلهم يندبون لاطمين صدورهم بأيديهم. لكنهم شيئاً فشيئاً خمدوا بدافع فضولهم لمعرفة ما تتضمنه بقيّة الخطبة. أغمض الكاهن عينيه، كمن يرغب في تبصّر الامور البعيدة، و تابع يقول :

- و بينما كان الجميع يبكون، دخلت المجدليّة مسرعة لتقول بأنها قد رأت السيد، و لم تعرفه بسبب النور الشديد، و ظنت أنه البستاني لولا أن خاطبها السيد قائلاً : " مريم " ! فأجابته صارخة : " ربي " ! و ارتمت على قدميه. و أتاح لها بعدئذ أن تقصد التلامذة، ليختفي بعدها. لكن التلامذة لم يصدقوها. عندما بدأت تبكي من السعادة ظن الجميع أن الالم قد خلب لبها، خاصة بعد أن قالت أنها رأت ملائكة في القبر. و لما عاينوه وجدوه فارغا. و في المساء جاء كلوفاس مسرعا برفقة

شخص آخر ليعلنا قيامة المسيح: " السيد قام. " عقدوا حديثهم خلف الابواب المغلقة خوفا من اليهود. و كان "هو" بينهم يتوسط الغرفة، و عندما لاحظ مدى جزعهم قال : "سلاما ". أنا رأيته كالاخرين، كان كالنور، أو كبهجة قلوبنا، لأننا آمنا بأنه قد " قام "، و أن مجده لا يزول حتى إن جفت البحار، و سويّت الجبال. و بعد ثمانيّة أيام وضع ديدموس تاماس إصبعه في جراح السيد و لمس جنبه، ثم صاح و هو يركع عند قدميه " سيدي، و الهي". فأجابه هو قائلاً : بما أنك رأيتني يا تاماس فقد آمنت. لكن السعداء هم الذين لم يروني و آمنوا. لقد سمعناه يقول هذه الكلمات، و رأيناه بأعيننا لأنه كان بيننا.

كان فينكوس يصغي، ثم حدث له شيء غريب. للحظة نسي أين يكون. كان شاردا غائبا عن الوجود. فأضاع قدرته على الحلم و التبصر. بات محاصرا بين حالتين من العجز، لم يعد بمقدوره أن يصدق ما تفوه به الكاهن، و الان يكذبه و هو يدهش الحضور بقوله " رأيته ". ثم كلمهم الحواريّ عن كل شيء، حتى بلوغ الجنة. كان يستريح بين حين و آخر، لأنه كان يدخل كثيرا في التفاصيل، و كأن الوقائع كانت في ذاكرته كالنقش في الحجر. أما مستمعوه فباتوا مذهولين ثملين فأنزلوا قبعاتهم لكي يسمعوه جيدا دون أن تفلت من أسماعهم أيّة كلمة. كأن قوة خفيّة فوق الانسان طارت بهم إلى الجليل، و هناك راحوا يتنزهون بصحبة التلامذة في الغابات على ضفاف المياه، و كأن هذه المقبرة قد استحالت إلى بحيرة، و المسيح يقف على ضفتها في الصباح الضبابي، و يانوش يصيح من زورقه ها هو ذا السيد هناك بينما قفز بطرس في الماء ليسبح اليه بسرعة و يرتمي على أقدامه. كانت الوجوه ذاهلة، هائمة، فرحة تشع بمحبة بلا حدود. بدا خلال حديث الحواريّ الطويل أن بعضًا من الحضور قد تقمّص الحالة و غاب عن الوعي. و عندما بدأ يتحدث عن دخول السيد السماء و كيف غطته

الغيوم على مرأى من الكهنة، راح الجميع يرفعون عيونهم مترقبين نحو السمــاء، أملًا في رؤيته مرة أخرى، أو هبوطه مجدّداً على الأرض قادما مــن الملكوت السماوي. بالنسبة للجميع كان كل شيء غائباً. روما، و القيصــر المخبول، و المعابد، و الالهة، و الوثنيــون، وحده المسيح كان حاضرًا يملأ الأرض، و البحر، و السماء و الكون.

شدّ شيلون طرف رداء فينكوس و وشوشه قائلاً :

- سيدي، هناك بقرب الكاهن أرى أريانوس و الفتاة.

و كأن فينكوس قد أفاق من حلمه، ليرى ليفيا في الجهة المشار إليها.

٢١

ارتعشت كل قطرة دم في عروق الشاب لمرأى الفتاة. تجاهل الجموع، و الكاهــن، و نسي ذهوله، و لم يــرَ أمامه إلا ليفيا. ها قد وجدها بعدما بذل كثيراً من المعاناة و الجهد و الاضطراب. شعر للمرة الاولى في حياته أن السعادة حيوان شرس قد تطبق على صدره و تخنقه. لم يصدق عينيه، و كاد أن يكذب وفرة حظه. كان له أن يتصرف كما يمليه طبعه الحامي، لكنــه أراد أن يتأكــد أولا أنه ليس في حلم، و أن ما يــراه ليس استمراراً للعجائــب التي عبأت رأسه الان. لكــن لا. لا ريب في صحة ما يرى. هذه هي ليفيــا، و لا يفصله عنها سوى عشرات الخطوات. كانت تحت الانــوار، فأشبع عينيه منهــا. و كانت مكشوفة الرأســ، مرخيّة الشعر، منفرجة الشفتين قليلا، ترنو مشدودة إلى الكاهن. و كانت ترتدي ثوبا صوفيــاً كالحاً، أي أنهــا تشبه في لباسها أي طفل مــن عامة الشعب، و مع ذلــك لم يرَها فينكوس، في أي وقت، أجمــل منها الان. لكن على الرغــم من لباس الرق هــذا، فقد أذهله ما أظهر رأسهــا البديع من نبل. سرى الحب نارياً في كيانه، و امتلأ شوقا، و تقديرا و رغبة. شعر بالمسرة التــي منحتها له رؤيّــة الفتاة، فترشفها كالماء الــذي يحيي العطشان بعد ظمــأ طويل. رآها إلى جانب الليغــوي العملاق أصغر ممّا عرفها، و أكثر طفوليّــة، و نحول جسد. كانت كيانا كله جاذبيّــة، مثل زهرة سكنتها الــروح. ازدادت رغبتــه في هذه الفتاة المختلفة عن بقيّــة النساء اللواتي عرفهــن في الشــرق أو في روما، و كن له. و شعر أنــه يدفع لأجلها كل شيء، حتى روما، و كل العالم.

كان سارحاً تماماً في ليفيا، عندما شده شيلون من طرف ردائه مخافة أن يقـدم الشاب على ارتكاب ما يعود عليهـم بالسوء. في هذه الاثناء كان المسيحيـو ن قد بدؤوا يصلّون، و يرتّلـون حتى صدحوا بعد قليل قـال : "تعال يا سيدنا ". ثم راح الكاهن الكبـير يعمد بماء النبع القريبة منـه أولئك الذين جهزهم القساوسة للعمـاد. ظنّ فينكوس أنها ليلة لا نهايـة لها. بات راغباً بأسرع مـا يمكن في تتبع ليفيا ليخطفها من البيت أو في الطريق إليه.

و أخيراً لما بدأ البعض يغادرون المقبرة، وشوشه شيلون قائلاً :

ـ لنخـر ج يـا سيـدي إلى أمـام المدخل، لكـي لا نضطـر إلى إنزال قبعاتنا فيعرفنـا الناس. و هذا ما حصل. حين بدأ الجميع، خلال خطبة الكاهن، يرجعون القبعات إلى الخلـف، ليسمعوه على نحو أفضل، لم يمتثلوا هم لسلوك الاخرين. بدت نصيحة شيلون سديدة. وقوفهم عند الباب أتاح لهم رؤيّة كل من يخرج. و من بينهم أرسوس الذي لم يكن التعرّف به شاقًا نظرًا لهيئته العملاقة.

قال شيلون :

ـ هيا بنا يا سيدي، سنرى أي منزل سيقصدان، و غدا، أو هذا اليوم بالاحرى، تنشر خدمك عند مداخل البيت، و تخطفها.

قاطعه فينكوس قائلاً :

ـ لا.

ـ ما رغبتك يا سيدي؟

ـ نتبعهـا إلى البيـت، و هنـاك نقبض عليها في الحـال. اليس هذا ما تكفّلت به يا كروتون؟

فأجاب المصارع :

ـ أجل سأكـون عبدك يا سيدي، إن لم أقصم ظهر ذلك الرب الذي يحرسها.

لكـن شيلون بسط يديه بحذر متوسـلاً الآلهة ألّا تدعه يفعل ذلك. خاصـة و أنهم جاؤوا بـكروتون لكي يقـوم بحمايتهم إذا ما تعرضوا لـلأذى، و ليس لاختطـاف الفتـاة. لأن اختطافها من قبـل شيلون و فينكوس فقط قـد يعرض حياتهمـا للخطر، و قد يخسـران الفتاة، و تفلت منهما، و تتخذ مكانـا آخر للتواري قد يكون خارج روما. فما الذي يحصل عندئذ؟ اليس من الافضل إذن الا يغامرا بحياتهما، و يفر طا بنجاح الخطة؟

بلغ حماس فينكوس أقصاه للقبض على الفتاة هنا في المقبرة، لكنه وجد الإغريقي محقـا فيما يقول، و كان حريا به أن يتقبل نصيحته لولا وجود كروتون الذي يضع في حسبانه استعجال المكافأة، فقال :

ـ أَخرس هذا التيس العجوز، و إلا فججـت رأسه بقبضتي. لم أقل باختطـاف الفتاة من بـين الجموع، لأنهم سيدحرجـون الحجارة أمام أرجلنا. بل لمجرد بلوغها البيت سأمضي بها إلى حيث تشاء يا سيدي.

تقبل فينكوس كلامه بسعادة فائقة، فأجاب:

ـ و هذا ما سيحصل. قد لا نجدها هناك إذا ما انتظرنا إلى الغد. و إذا ما أجفلناها هنا فقد يخفونها عن أعيننا.

تفوه شيلون قائلاً :

أظن أن الليفوي شخص شديد البأس.

فكان رد كروتون سريعا :

ـ لست أنت من كل فت بتثبيت يديه.

لكنهم انتظروا طويلاً، حتى لمحوا أرسوس يخرج من المدخل تتبعه ليفيا، برفقة آخرين، عرف شيلون من بينهم الكاهن الكبير و إلى جانبه كاهن آخر قصير القامة، و امرأتان متقدمتان في السن، و شاب فتي ينير لهم بفانوسه الطريق. ثم تبع هؤلاء مجموعة تقدر بمئتي شخص، فاندمج بها كل من فينكوس و شيلون و كروتون.

علق شيلون قائلاً :

ـ يبدو أن عذراءك تحت حراسة مشددة. و تسير في موكب الكاهن. انظر هناك كيف يجثون أمامه.

كان الجميع يجثون حقا، لكن فينكوس لم يلتفت تلك الناحيّة، لكي لا يحول نظره لحظة واحدة عن ليفيا.

كان المسير طويلاً. فكر فينكوس خلاله بالشروخ التي فصلته عن ليفيا نتيجة أفكارها الغريبة. لقد أدرك الان كل ما حصل في الماضي، و ما هي أسبابه. تجل ى أمامه كل شيء على نحو كاف. لم يكن يعرف ليفيا حتى هذه اللحظة. لم ينظر اليها الا كأجمل عذراء بين عذراوات الأرض، الهبت مشاعره. لقد أدرك الان أن أفكارها تلك هي التي ميزتها عن باقي النساء. و أن ما بناه من آمال لاجتذاب الفتاة بما يملك

مــن حرارة مشاعــر، و جموح رغبة، و ثراء، و مســرة، ليس الا محض أوهــام خادعــة. لقــد أدرك الان، ما لم يدركه هــو، و لا بترونيوس أن الديــن الجديد يسري في نفوس البشر على نحــو شديد البعد عن عالمه، و يجعــل من ليفيا مسيحيّــة لا تتخلى عن شيء مــن معتقدها من أجل فينكوســ حتى لو كانت تحبه. و أن المسرة التي يمنحها الدين غير المسرة التــي يسعــى اليها هو و بترونيوس و القيصر و بلاطــه، و روما بأسرها. كان بمستطاعــه أن يتخذ كل من عرفه مــن النساء عشيقات له، إلّا ليفيا فهي ضحيّة.

أشعرتــه الفكرة بالم حارق، و ولّــدت في نفسه غضباً لكنه غضب خل بي، لا يجدي نفعا. " دعنا في الممكن " قال لنفسه. كان على يقين أن بمقدوره اختطــاف ليفيا مكللا بالنجاح، لكنه لم يشك لحظة في أن كل مــا يتمتع به مــن شجاعة و سطوة لا يعني شيئاً أمام تلك التعاليم. و كان هذا النبيل العسكري الروماني على يقين أن السيف و القبضة كانا و مــا يزالان لا يعلى عليهما في إخضــاع العالم منذ الازل، إلى الان، و إلى أبد الابدين، لكنه رأى للمرة الاولى في حياته أن هنالك شيئاً ما يبذ هما في العلو و السطوة. جعله يطرح السؤال لنفسه: ما هو يا ترى؟

لكنه لم يكن يملك الاجابة. و ظل شريط الصور يمر في ذهنه: المقبرة، الجمــوع المجتمعــة، ليفيا التــي ترشفت كل كلمة قالهــا الكاهن و هو يتحــدث عن الام ابــن الله، و موته، و قيامته، و وعده بخلاص العالم و سعادتــه. تزاحمت الافكار في رأســ فينكوس، حتى بات في حالة من التشوشــ الذهني يرثى لها. لكن تدخل شيلــون انتشله منها حين راح ينــدب، و يتشاكى. كانــت مهمته تقتصــر على معرفة مكان ليفيا، و قد غامــر بحياته من أجل ذلــك. فما الذي يبغون منه بعد؟ هل كل ف هو باختطافها؟ و من يرجو ذلك من عجوز هرم فقد إصبعين من أصابعه،

و سخّـر حياته كلها خدمـة للحكمة و العلـم، و الفضيلة؟ و ما الذي سيحصـل لو تعثر فينكوس في أثنـاء عمليّة اختطاف الفتاة؟ صحيح أن الالهـة ملزمون بحمايّة من اصطفوهم مـن البشر، لكن الم يحدث في مـرات كثيرة أن الالهة كانـت تلعب "الضامة " لاهيّـة عما يجري في الكون.

و قـال أيضـاً أن الالهة فورتونا كما هو معلـوم معصوبة العينين، لا تـرى في النهار، فكيف في الليل! و طلب مـن فينكوس أن يعطيه الان كيس المال الذي وعده به.

استجاب فينكوس لما قاله شيلون و أخرج الكيس من طرف حزامه، و القاه في قبضة شيلون.

ـ خذ. والزم الصمت.

هنا تجرأ الإغريقي على القول :

ـ أنـا أعقـد الأمل على هيركوليسـ الذي أنجز أفعـالاً أعظم بكثير. و مـن لي صديـق حميم أعتز بصداقته أهم مـن هيركوليس؟ أما أنت يا سيـدي فلست في نظري نصف إله مثله، بـل إلها كاملا لا يتخلى عن رعايّـة خادمه الوفي المسكين كلما دعت الحاجـة، كما يفعل هو حين يستغرق في كتبه، و ينصرف عن رعاية كل شيء. على أيّة حال سأتوسل إلى جوبيـتر كذلك أن يتـولى مساعدتك في المهمة. أنا سأغادر الان، يا سيدي. لكن الطريق شاق للغاية، و فانوسي خلا من الزيت،فما الضير لو قام كروتون المعروف بشهامته ونبله إضافة إلى قوته الفائقة، بحملي على ذراعيه حتى المدخل وسيكسب رضا الآلهة.

ـ سأحملك إن منحتني الكيس الذي وهبت إياه السيد المحترم.

ـ فأجاب الإغريقي :

ـ يالخيبة الأمل!هل هكذا استوعبت تعاليم الكاهن المحترم الذي اعتبر الفقر والرأفة على رأس الفضائل. ألم يأمرك إذن أن تحبني؟ لن يكون منك مسيحي كما أرى. لأنك عنيد، ومن الأسهل أن تخترق أشعة الشمس جدران سجن مامرتينوس من أن ينفذ الحق إلى جمجمتك الشبيهة بجمجمة حصان الماء.

فكان رد كروتون الذي تمتع بقوة حيوانيّة،دون أن يتأثر بالكلام الذي سمعه:

ـ لا تخف، لن أصير مسيحياً. لا أريد أن أخسر لقمة عيشي.

ـ أجل، لكن لو أنك تقربت من الفلسفة لوجدت أن الذهب حقيقة جوفاء بائسة.

ـ هيا صارعني متسلحا بفلسفتك،وأنا سأنطحك نطحة واحدة في بطنك، وسنرى من سيكون الفائز.

فرد شيلون :

ـ كان يمكن أن يواجه أرسطو طاليس بنفس الرد.

بدأت تلاويح الفجر تنثر لونها الرمادي على الاشجار والابنيّة وشواهد القبور المنتشرة. بات الطريق ليس خاليا تماماً. بائعو الخضار يتجهون بحميرهم وبغالهم المحملة بالبضاعة نحو البوابة، لكي يصلوا اليها عند افتتاحها. و عجلات العربات المحملة باللحوم تقرقع هنا و هناك. كان الضباب خفيفا، لكن السائر إذا ما أراد النظر خلاله من بعيد

وجـد الاخرين أشباحا متحركة. ظل فينكوس يتابع هيئة ليفيا النحيلة، الهيفاء، التي سبحت في ضوء فضي كلما تقدم الفجر في مجيئه.

قال شيلون :

ـ سيـدي! كرمـك لا حد له. و بمـا أنني قد تلقيـت مكافأتي الماليّة منـك، فمن غير الممكن أن تسـاورك الظنون في أن لي أيّة مصلحة فيما سأقولـه لك الآن : أنصحـك حال معرفتك منزل ليفيـا أن تعود لتأتي بأرقائـك، و هودجك، و أن لا تصغـي إلى كروتون الذي قد يخطف العذراء لنفسه طمعا بأموالك.

قال كروتون :

ـ أنـا مدين لك بشدّة من ذراعـي تقصم ظهرك، و هذا يعني موتك المحتم.

فأجاب العجوز :

ـ أنا مدين لك بإبريـق من النبيذ السيفالوني و هذا يعني أنني سأبقى على قيد الحياة.

لم يجب فينكوس بشيء بعد أن اقتربوا من البوابة حيث رأوا مشهدا غريبا. جنديان يركعان أمام الكاهن حين صار قربهما، فباركهما بوضع يـده للحظة على خوذتيهما، ثم رسم فوقهما إشارة الصليب. لم يخطر بـال فينكوس بحال من الاحـوال أن يكون بين الجنـود مسيحيون. وقـف يتأمل فيما جرى أمامـه للتو، فذهب إلى التسـاؤل عما إن كان المعتقـد الجديد بـات يسري في النفوس سريانـا طوفانيا لا حدود له، و لا مجال لإيقافـه. و إن صح ذلك فقد يجعل هروب ليفيا خارج المدينة

أمـرا ممكنا، إذ لا بد أن يكون بين الحراس من يتعاطف سرا مع الفتاة، و يسهل هروبها. و حمد كل الالهة أن ذلك لم يحصل.

ما إن غادروا البوابة حتى بدأ المسيحيون يتفرقون إلى مجموعات، و صار تتبع ليفيا يتطلب الحذر الشديد، و المراقبة عن بعد كي لا ينكشف أمرهم. شـكا شيلون من الام في قدميه، فأبطأ في المسير، دون أن يهتم فينكوس لتخلـف الإغريقي الجبان العاجز، بعـد أن شعر بعدم الحاجة اليه. حتى أنه كان ليسمح له بالانفصال عنه و اتخاذ الوجهة التي يريد، لكـن الحكيم الجدير بالتقدير كان يقترب منه بين الحين و الاخر ليزوده بمـا يستجد من نصائح و مشاهدات. منها مثلا أن من يسير مع الكاهن جنبا إلى جنب يشبه كلاوسوس.

كانـوا قد ابتعدوا كثيرا عـن الترنستبريس، و اقـترب موعد شروق الشمـس، حـين تفرق عناصـر المجموعـة التي تضم ليفيـا. ففي حين اتخـذ الكاهن، و المـرأة المسنـة، و الفتى وجهتهم صعـودا في محاذاة النهـر، انعطـف أرسوسـ و ليفيا و رفيقهمـا القصير القامـة و سلكوا طريقا ضيقة، مـا إن ساروا عليها قرابة مائة خطوة، حتى دلفوا بيتا فيه حانوتان. أحدهما لبائع زيوت، و الاخر لتاجر طيور.

كان شيلـون قد تخلف عن فينكوس و كروتون ما يقارب خمسين خطـوة. فتوقف متسمرا في مكانه، ثم استند على الحائط و هو يهمس لهما يرجوهما الرجوع اليه.

و هذا ما فعلاه، لأنهما في حاجة إلى النصيحة.

ثم أمره فينكوس قائلاً :

ـ اذهب، و تأكد إن كان للبيت مخرج آخر من الجهة الاخرى.

نفذ شيلون الأمر و سرعان ما عاد لينبئ:

- لا. لامخرج آخر.

و أشبك يديه ليستأنف يقول:

- بحـق جوبيتر و أبوللـو و فيستا و سيبالا و إيزيـس و أوزيريس و ميثراس، و بعـل، و كل الهة الشرق و الغرب، لا تقـدم يا سيدي على هذه الخطوة "اسمعني".

لكنه توقف عن الكلام حين لاحظ شحوب وجه فينكوس من شدة الاندفـاع، و أن عينيـه باتتا كعيني الذئب تقدحـان شررا. حسب المرء أن يـراه حتى يتيقـن في الحال أن لا قوة في الكون تثنيه عن مرامه. كان كروتـون قد نفخ صدره الهرقلـي إلى أمام، و راح يحرك جمجمته في كل اتجاه، كرب سجين، دون أن يبدي مسحة من ارتباك، و قال:

- سأدخل أولا.

فردعه فينكوس بنبرة آمرة:

- ستأتي بعدي.

و بعـد لحظات اختفى كلاهما في ظلمة البيت. فيما قفز شيلون إلى بيت آخر و تلطى خلفه يراقب ما سوف يحدث.

٢٢

حــين دخل فينكوس اكتشف صعوبة ما هو فيه. كان البناء ضخما، مؤلفــا مــن عدة طوابق شأنه شــأن الالاف من ابنيّة رومــا التي شيدت بهــدف الايجار، و ما مر عام الا و انهدم أحد هذه الابنيّة على رؤوس ساكنيــه. كان ابنيّــة شاهقــة في الواقــع، و ضيقة أشبــه بخلايا النحل، اكتظــت بالقمرات التــي عشش فيهــا القاطنون الفقــراء بالجملة. في المدينة، حيث العديد من الشوارع لم تحمل أسماء لها، و لا الابنيّة تحمل أرقامــا تدل عليها. و بمــا أن مالكيها كانوا يعهــدون إلى أرقائهم جمع أمــوال الايجــارات، و لم تكن السلطات تلزمهــم بالاعلان عن أسماء المستأجريــن لديهم، فلم يكن ملاك الابنيّة يعرفون هويّة المستأجر، و لا حتــى اسمه. في مثل هذه الابنيّة يصبح السؤال عن قاطن ما أمرا شاقا، خاصة حين لا يكون للعمارة بواب.

بعــد أن عبر فينكوس و كروتــون ممرا طويلاً، بلغا فناء صغيرا بأربعة جــدران تجعل منه صالونــا مشتركا للبنايّة. و في وسطــه نافورة تصب ماءهــا في حوض حجري مقام على مستوى الأرض. و عند كل جدار درج صاعد خشبي أو من الحجر، يفضي إلى موزع يقود إلى المساكن. و كان في الاسفــل أيضاً مساكن أخــرى، بعضها بأبواب خشبيّة، لكن العديد منها مفصول عن الموزع بستائر ممزقة، وسخة.

كان الوقت مبكرا، فلم يظهر في الفناء أثر لأحد ما. كان الجميع ما زالوا نياما، إلا من وصل لتوه قادما من الأستريانوم.

سال كروتون و قد توقف:

- ماذا نفعل يا سيدي؟

- لنتريث، فقد يظهر أحدهم. و لايهم حتى لو رآنا في الفناء.

و في آن دار في باله أن نصيحة شيلون سديدة. فلو كان يراقفه الآن بعض العبيد لاحتلّ البوابة الوحيدة في البناء، و فتّش كل المساكن، و عثر بسهولة على ليفيا. لكن فيما هو يفكر: ترى هل يذهب إلى البيت لإحضار العبيد، و إذا من وراء الستائر يخرج أحدهم حاملاً سلّة في طريقه إلى النافورة.

و من النظرة الاولى عرف الشاب أنه أرسوس.

همس فينكوس :

- إنه الليغوي.

- هل أحطم عظامه في الحال؟

- تريث.

لم يلمحهما أرسوس لأنهما واقفان في العتمة. غسل خضار السلة بماء النافورة، و عاد بها إلى حيث أتى من خلف الستارة. تبعاه أملا بالعثور على مسكن ليفيا.

دهشا حين لاحظا أن الستارة لا تنفتح الا على رواق عالم آخر ينتهي بحديقة و كوخ صغيرين. اطمأنا بعد أن شعرا بأن مهمتهما باتت أكثر سهولة، و أن بمقدورهما حالا التخلص من أرسوس و خطف ليفيا، و الخروج بها سريعا إلى الشارع حيث يضحي تدبر الأمر سهلا للغايّة. كانا يأملان أن لا يقف أحد في طريقهما، لكن حتى إن حصل ذلك

سيقـولان إنهـا مسالة هروب رهينـة لدى القيصـر، و إن اضطر الأمر سيكشف فينكوس عن وجهه تحت القبعة، و يطلب مساعدة الجميع.

أوشك أرسوس على دخول الكوخ، حين سمع وقع أقدام، فتوقف و أنزل السلة، و رجع باتجاههما و سألهما:

- ما الذي تريدانه هنا؟

مـا إن أنهـى سؤاله حتـى أعطى فينكوس أمرا لكروتـون قائلاً له بصوت خافت:

- اقتله!

قفز كروتون عليه كالنمر، و خلال لحظة، و قبل أن يتمكن أرسوس من تجنب المباغتة، و يتعرف إلى خصومه، كان كروتون قد لفّه بذراعيه الحديديين.

كان فينكوس يثـق بقوة كروتـون الفائقة، فلم ينتظـر النتيجة التي ستسفر عنها المجابهـة، فتركهما قافزاً إلى الباب، و دفعه ليصبح داخل غرفـة مظلمـة لا تضيئها إلا نـار المدفأة، التي ضرب نورهـا وجه ليفيا مباشـرة. كان إلى جانبها العجوز الذي رافقها حين غادرت و أرسوس الأستريانوم.

طـبّ فينكوس عليهما قبل أن تتعـرف إليه ليفيـا. أمسك الشاب بيدهـا و اتجـه بها نحـو الباب. اعترضـه العجوز، لكـن الشاب دفعه بإحدى يديـه، قابضا على الفتاة باليد الاخرى. و في أثناء ذلك كشف الشـاب عن رأسه، فتجمد الدم في عروق ليفيا حين عرفت الشاب، و تعثّر الكلام في حنجرتها، و لم تقو على الصراخ طالبة العون، و لم تفلح في مقاومتها و محاولتها التمسك بأصابعها بالباب. كان ممكنًا أن تغيب

عن الوعي لولا أن لمحت مشهدًا رهيبًا طالعها حين خرج بها فينكوس إلى الحديقــة. كان أرسوس يعتصر بذراعيه رجلا مضرّجاً بالدم. لكنه ما إن رآهــا بين يدي الشاب، حتى كال للرجل لكمة على رأسه، و اندفع كوحش مسعــور نحو فينكوس صارخا " جاءك الموت " يريد أن يشج نافوخه، لولا أن سمع و كأنه في حلم صراخ ليفيا : "لا تقتله".

أمــا شيلــون فقد ظــل متلطيا خلف المنــزل يترقب مــا يجري بهلع مشــوب بالفضول. بدأ يشعر بأن انتظاره قد طال، و بأن الهدوء الذي يغلّف مدخل البناء ينذر بالشؤم. قال لنفسه:

" إن لم يعــثرا علــى مكانهــا، و أحدثا أيّة ضجــة، فسوف ينبهان إلى وجودهمــا. لكن لا يهم. فكل مــا سيقومان به، و كل ما سيحدث سيــان، و يصب في مصلحتي و يرضيني، أدعــو الآلهة أن لا يكتشف فينكوس سرّي هذا"

و شعــر فجأة أن أحدا ما يخرج مــن البناء، فالتصق بالجدار، كابت الانفاس، و ظل يراقب.

لم يكــن مخطئا. لمح رأس أحدهــم كان يستطلع ملتفتا يمينا و يسارا. لكن سرعان ما توارى.

فكر شيلون :

- هــذا فينكوســ أو كروتــون. لكــن إن أمسكا بالفتــاة، فلماذا لا تستغيث صارخة؟ و لم عليهما أن يستطلعا الشارع، ما داما سيواجهان الناس أولاً و أخيراً؟ ما هذا بحق الآلهة؟

و فجأة انتصب شعر رأسه.

كان أرسوســ هو من ظهــر في الباب و على كتفيــه جثة كروتون. تلفت حوله ثانيّة، و انطلق في الشارع الخالي باتجاه النهر.

التصق شيلون بالجدار حتى كاد أن يدخل فيه، قائلاً لنفسه:

- لو رآني، لكانت نهايتي.

لكن أرسوس مر مسرعا جانب المنزل الركني المنفرد، و توارى خلف البيت التالي. شيلون بدوره لم ينتظر بعد ذلك، و أطلق رجليه للريح في شارع آخر، و قد اصطكت أسنانه، و تسارعت خطواته كشاب في مقتبل العمر، و ما برح يردّد لنفسه:

لو رآني في طريق عودته سيلحق بي و يقتلني أنقذني يا زيوس أنقذني يا أبوللو، أنقذني يا هرمس، أنقذني يا إله المسيحيين! سأغادر روما و أعود إلى مسامبريا، لكن أنقذوني من بين يدي هذا الوحش.

لقد أيقن أن الليغوي، الذي أطاح بحياة كروتون، مخلوق فوق بشري حقا، بل إنه إله تقمّص هيئة بربري. في هذه اللحظة آمن بالخرافة، و بكل آلهة العالم التي احتقرها حتى الآن.

و لمع في ذهنه: لعلّ من قتل كروتون هو إله المسيحيين. فانتصب شعر رأسه لقوة سلطانه.

لم يهدّئ من روعه، حتى قطع مسافة طويلة. و ارتاح باله أكثر حين لمح من بعيد عمالا يأتون باتجاهه. تنفس الصعداء، و اقتعد عتبة أحد البيوت، و راح يمسح عرق جبينه بطرف ردائه. قال:

- صرت عجوزا، آن لي أن أنعم بالسلام.

انعطف العمال القادمون إلى شارع فرعي، و بقي وحيدا مرة أخرى. كانت المدينة هاجعة. و ككل صباح كانت الحركة أول ما تدب فيها ضمن الاحياء الأكثر ثراء، لأن العبيد هنالك يستيقظون باكرا. أما تلك الارجاء حيث تتوطن الفئة الحرة العاطلة من الناس، فلا حياة فيها الان،

لأن قاطنيها نيام حتى الظهـيرة، و خاصة شتاء. شعر شيلون بالبرد بعد أن مضى وقت طويل على جلوسه فوق العتبة. نهض، و بعد أن تأكد أن كيس المال الذي أخذ من فينكوس ما زال في حوزته، انطلق بخطوات متمهلـة باتجاه النهر. فكر: "قد أعثر على جثة كروتون في مكان ما. يا الهـة! لو كان هـذا الليفوي عاقلا لأمكنه أن يجمـع الملايين. فإن كان قـد قضى على كروتون بهذه البساطة، فمـن سيصمد أمامه في المدرج الكبـير من المصارعين. سيجني من الذهب ما يعادل وزنه. بمقدوره أن يحمـي الفتاة أكثر من سيربيروس جهنم. فليبتلعه الجميع، أنا لا أحتمل لقـاءه. شخص رهيب. لكن ماذا حل بفينكوس، مادام قد حطم عظام كروتون؟ لا بد أن روحه صارت تتأوه فوق ذلك البيت اللعين. الطفي أيتهـا الالهة! إنه فينكوس باتريسيوس و ليس أي أحد. صديق القيصر، و قريـب بترونيوس، و سيد من أسياد روما المعروفين، و قائد عسكري مرموق. لن يتقبلوا موته على نحو عابر.

صمت هنا، و سرح مستفكرا. و بعد هنيهة نبس قائلاً :

- ويلـي! مـن الذي قاده إلى ذلـك البيت غيري؟ أحـراره، و عبيده يعرفـون أننـي ذهبت اليـه، و بعض منهـم يعرفون السبـب. ما الذي سيحصـل؟ سيتهمو نـنـي بأني تعمـدت أن أدله على البيـت الذي لقي حتفه. بت في موقع اتهام. حتى أني لا أستطيع مغادرة روما لأن الشبهة ستتفاقم.

وقع شيلون بين أمرين أحلاهما مرّ.

لكن اختار أن يبقى في روما، سيذهب شخصيًا إلى بترونيوس لإنبائه بما حصـل مستبقا أن يصله خبر قتل قريبه مـن الاخرين. إن بترونيوس شخص رزين، و سيسمعه حتى النهايّة.

و لكـن قبـل أن يذهب اليه، عليـه أن يعرف بدقة مـا الذي حصل للشـاب. كل ما يعرفـه أن أرسوس كان يحمل جثـة كروتون متوجها إلى النهـر، و لا شيء آخر. و مثلما قد يكون فينكوس قتيلا، فقد يكون جريحـا، أو أسيرا. و خطر لـه الان أن المسيحيين لا يجرؤون على قتل سيـد عظيم الشأن من أمثاله تجنبا للمتاعب و الملاحقات. الارجح إذن أن يكون في قبضتهم، لتكسب ليفيا الوقت الكافي للاختباء من جديد.

كان عـزاؤه دائمـا كيسـي النقـود. كيس قد حصـل عليه في بيت فينكوس، و كيس آخر رمي اليـه في أثناء العودة مـن المقبرة. انشرح صـدره، و قرر أن يكافئ نفسـه، و يتناول طعاما فاخرا إلى جانب نبيذ أكثر جودة من المعتاد.

لمـا حانت أخـيرا ساعة افتتـاح الحانة، فعـل ما يلـزم فأشبع معدته طعامـا، و ارتوى نبيذا حتى غاب عن باله حاجته إلى الاستحمام. كان في حاجـة إلى النوم. فقصد منزله في سوبوران حيث كانت العبدة التي اشتراها بنقود فينكوس في انتظاره.

دخل غرفة النوم العاتمة كجحر ثعلب، و ارتمى على فراشه ليغط في نوم عميق.

لم يستيقـظ حتى المساء. أيقظته العبدة بقولها إن أحدهم يسال عنه، و يريد أن يكلمه في الحال.

استعـاد شيلـون صحـوه، و تناول رداءه آمـرا الفتـاة أن تبتعد عن طريقه، و القى نظرة أوليّة حذرة إلى الخارج.

و تجمـد في مكانـه، حين لمح أمـام الباب أرسوس العملاق. شعر بـبرودة تسري في أرجـاء جسده، و تتركـز جليدا في رأسـه و قدميه. توقف قلبـه. و شعر بظهره كأن قريّة بكاملها مـن النمل تتحرك عليه.

فقد في البدايّة قدرته على النطق، ثم اصطكت أسنانه، فراح يتأتئ:

ـ سيرا، لست في البيت... لا أعرفه... هذا... الشخص...

ـ قلت له يا سيدي إنك هنا، لكنك نائم. فطلب مني أن أوقظك.

ـ أود... يا الهة!... إذن...

لكن أرسوس، و كأنما فقد صبره، تقدم نحو الباب، و دس رأسه مناديا

ـ شيلون شيلونيدس!

ـ سلام عليك، سلام، سلام عليك يا أصلح المسيحيين. أنا شيلون، لكني لا أعرفك.

كرر أرسوس نداءه:

ـ شيلون شيلونيدس. يأمرك سيدك فينكوس أن ترافقني اليه.

٢٣

أيقـظ فينكوس ا لم مبرح فلم يـدر للوهلة الاولى أين هو، و لا ما قد حصـل له. ضربه الصـداع، و اغبشت عيناه. لكنـه استرجع وعيه شيئاً فشيئـاً، فلمـح ثلاثة أشخاصـ ينحنون فوقه. عرف منهـم اثنين. كان الاول أرسوس، و كان الثاني العجوز الذي دفعه عنه حين أخذ الفتاة. أمـا الثالـث فكان غريبا أمسكـه من يده اليسـرى و راح يجس ذراعه منتقلا حتى كتفه، ما جعل فينكوس يشد على أسنانه الما و يقول:

ـ اقتلوني.

لكـن أولئك لم يكترثوا بالأمر. إما لأنهم لم يسمعوه، و إما لكونهم اعتـبروا أن ما يقوله ناتج عما يعانيه من الام فظيعة. وقف أرسوس هناك بادي الاهتمام، لكنـه في الان نفسه أفصح عن وجه بربري متوعد، و بيده بعض شرائـط الضماد البيضاء الطبيّة. خاطب العجوز الفتى الذي يجس ذراع فينكوس :

ـ أواثق أنت يا كلاوسوس أن جرح رأسه غير مميت؟

فكان رد كلاوسوس :

ـ بالتأكيد أيها السيد المحترم. أعرف ذلك من خبرتي في نابولي. إنه جرح طفيف. لقد حمى رأسه بذراعه، فأنقذها و أنقذ حياته.

ـ لقد عالجت العديد من الاخوة المسيحيين، و لك سمعة طيبة جيدة، لذلك أرسلت أرسوس من أجلك.

ـ لقد اعترف لي في الطريق أنه كان ينوي قتلي.

ـ لقد صارحني بنيّته منذ مدة. لكن معرفتي بك و بمحبتك للمسيح، دفعاني أن أوضح له أنك لست الخائن بل ذلك الشخص المجهول الذي أقنعه بقتلك.

علق أرسوس متنهدا :

ـ كان روحا شريرة، و أنا رأيته ملاكا.

قاطعه كلاوسوس :

ـ ستحكي فيما بعد. دعنا الان، سنعتني بالجريح.

و بدأ يجبر ذراع فينكوس المكسورة فيما كان كريسبوس يرش الماء دون انقطاع على وجه الشاب الذي يتأوه ألماً. كانت تلك أفضل الشروط الطبيّة التي جبرت فيها ذراع الشاب، و ساقه، حيث استعان الطبيب بجبيرتين خشبيتين و شدهما حول عظمتي الساق، و الذراع.

و استعاد المريض وعيه ثانيّة بعد العمليّة، فلمح ليفيا إلى جانبه.

وقفت قرب سريره، و بيدها قِدر نحاسي استعان كلاوسوس بمائه من أجل رأس المريض.

راح فينكوس ينظر اليها، و لا يصدق عينيه. ظن أنه في حلم، أو أنه يهذي من شدة الحمى. و بعد صمت طويل تمتم:

ـ ليفيا!

ارتجـف القدر بين يدي ليفيا، لكنها حـو لت وجهها الحزين نحوه مجيبة بصوت لطيف:

ـ السلام عليك.

و ظلت واقفة يعكس وجهها العزاء، و الألم.

بينمـا كان الشاب يرنـو اليها على نحـو كأنـه أراد أن يشبع عينيه منها، حتـى إذا ما أغمضهما بقيت صورتهـا طويلاً تحت جفنيه. نظر إلى وجهها الأكثر شحوبا و نحولا من ذي قبل. نظر إلى بكرات شعرها القـاتم، و ثوبهـا العمـالي البائس. كان ينظـر بمكر جعل جبـين الفتاة الناصع البياض يتورد حمرة. و كان أول ما دار في باله أنه ما زال يحب هـذه الفتاة. ثم فكر أنه السبب فيمـا تعانيه من شحوب في وجهها، و بؤس في ملابسها. اليس هو من أخرجها من بيت العائلة التي رعتها و أحبتها، و غمرتها حنانا و رفاها و رغدا في العيش. اليس هو من دفعها لتنزلـق في مهـاوي البؤس، و الجزع و العـذاب. أنبه ضميره و تمنى لو يرتمي بين أقدام ليفيا لو كان يستطيع الحراك. قال:

ـ ليفيا. لم تسمحي بقتلي.

لكن الفتاة أجابت بوداعة:

ـ السيد سيعيدك إلى عافيتك.

تجاوز فينكوس الان كل تلك المواجع التي سببها للفتاة من ذي قبل، و شعـر أن كلامها يقع في نفسه موقع البلسم الشافي. و أبعد عن ذهنه

الان أن مـا تتفوه به الفتاة عائـد لقناعاتها في التعاليم المسيحيّة، و تقبله كلامـا غايّة في الحنـان، شديد الحلاوة، تنطق به الحبيبـة التي تقف إلى جانبه كمسحة الهيّة.

في هذه الاثناء أنهى كلاوسوس تنظيف جرح الرأس، و وضع عليه الـدواء. أخـذ أرسوس القدر مـن ليفيا. فيما أمسكـت الفتاة من على المنضـدة، إبريقا مـن النبيذ، و قربته من شفتـي الجريح، فنهل فينكوس كل ما فيه، فشعر براحة أكبر. لكن الامه بدأت تخف تدريجيا مع سير عمليّة الضماد، حتى زالت تماماً و بدأ يستعيد وعيه. و تفوه بالطلب:

ـ هاتي لأشرب!

عبرت ليفيا بالابريق الفارغ إلى الغرفة المجاورة. و تقدم كريسبوس مـن السرير، بعد أن كلّم كلاوسوس بضع كلمات، و خاطب فينكوس قائلاً :

ـ فينكوس! لم يدعـك الاله تسلـك سلوكا شريرا، بـل حافظ على حياتـك، لتعـود إلى نفسـك روحيا. المسيح الـذي نؤمن بـه أمرنا أن نحـب حتـى أعداءنا. لقد ضمدنـا لك جروحك. و كمـا قالت ليفيا سـوف نصلـي لكي يعيد لـك الله العافيّة، لكننا لن نتمكـن من العنايّة بـك بعد الإن. رافقتك السلامة. و فكر جيدا، هل تجدها فكرة سديدة أن تستمـر في ملاحقـة ليفيا التي جردتها من عزوتهـا، و بيتها، و في ملاحقتنا نحن الذين قابلنا الاذيّة بالمعروف، و الشر بالخير.

فسأله فينكوس

ـ هل تنوون مغادرتي؟

- نوي مغادرة هذا البيت تفاديا لملاحقة الجند و عناصر الشرطة لنا. شريكك فقد حياته. و أنت -العظيم بين رجالك جريح. لسنا السبب فيما حصل لكما، لكن عصا القانون ستطالنا نحن.

- لا تخافوا من الملاحقة. سأحميكم.

لم يشأ كرسيبوس أن يقول له إن الأمر لا يعود فقط إلى الجند و عناصر الشرطة، بل إلى عدم ثقتهم به شخصيًا كذلك. و إنهم يريدون أن لا تطال الملاحقة ليفيا.

تابع العجوز قائلاً :

- سيدي، يدك اليمنى سليمة، و ها هو اللوح و الريشة، اكتب لأرقائك أن يأتوك بالهودج، و يقلوك إلى البيت. أفضل لك من هنا. نحن نسكن لدى عجوز بائسة ستعود لتوها إلى اليت برفقة ابنها. سيحمل الفتى رسالتك إلى ذويك. و سنبحث نحن عن مخبأ جديد لنا. شحب فينكوس لما شعر أنهم سيبعدونه عن ليفيا. إن فقدها الان مرة أخرى فقد لا يراها طوال حياته. لقد أدرك أن هنالك أمورا ضخمة تفصل بينهما، و إذا ما أراد الفوز بالفتاة فعليه أن يسلك دروبا جديدة، لم ينشغل يوما بالتفكير فيها. و أدرك أيضاً أن أي شيء يقوله لهؤلاء، كأن يقسم لهم أنه سيرجع ليفيا إلى بومبونيا ، لن يكون كافيا، و جديرا بالثقة. شعر أنهم لن يقتنعوا بوعوده لأسباب كثيرة، منها أنه ليس مسيحيا و أن قسمه بالهة خالدة هو نفسه لا يؤمن بها، ليس ضمانة كافيّة، خاصة و أنهم ينظرون اليها كأرواح شريرة. وقع في حيرة، و فكر في مهادنة ليفيا و جماعتها، و كسب رضاهم. فهو بحاجة لبعض الوقت إذن. أيام قليلة للتقرب أكثر من الفتاة. فكرة جديدة يطرحها. حصول أي شيء يخدمه.

استجمع أفكاره إذن و قال:

- اصغـوا الي أنتم المسيحيين. أمس كنـت معكم في الأستريانوم. و استمعـت إلى تعاليمكم. و إن كنـت لا أعرفها فسلوككم نحوي مثال علـى أنكم بشر طيبون جديرون بالاحـترام. قولوا للعجوز القاطنة هنا أن تبقى هنا، و ابقوا معها، و اسمحوا لي أن أبقى معكم.. هذا الطبيب -و أشـار إلى كلاوسوس_ سيساعدني على البقاء بحكم أني جريح، و من الخطورة أن يدعني و شأني. و إن لن تقبلوا بفكرتي فسوف أتشبث بالبقاء هنا حتى تبعدوني بالقوة.

أنهى كلامه لأن أنفاسه نفدت من صدره.

فقال كريسبوس :

- لن يرغمك أحد على مغادرة المكان. نحن من سنرحل.

قطب الشاب غير المعتاد على سماع الرفض جبينه و قال:

- دعوني أسترح قليلا

و بعد هنيهة استأنف كلامه قائلاً :

- كروتـون الـذي قضى عليه أرسوس، لن يكـون موضع سؤال أي كان حـين دخلنا هذا المنزل لم يرنا أحد غـير الإغريقي الذي كان معنا في الأستريانوم. سأقول لكم أين يسكن، لتستدعوه الي. و أنا سآمره أن يلزم الصمت، لأنه أجيري. و إذا ما كان قد أخبر رجال الشرطة بالأمر، فسأعترف أني من قتل كروتون لأنه قام بكسر يدي. أقسم بطيف أمي، انني سأفعل مـا أقول. و هكـذا سأبقى هنا بأمان. و لـن تتأذى شعرة

واحدة لأي منكم –جيئوني بالإغريقي سريعا. اسمه شيلون شيلونيدس !

فأجاب كريسبوس :

ـ إذن سيبقى كلاوسوس بقربك يا سيدي، و سيعتني بك إلى جانب العجوز.

زادت تقطيبة فينكوس و شد د من نبرته:

ـ اسمعني جيدا أيها الرجل العجوز. أنا مدين لك بالامتنان. و أرى أنـك شخص نزيه و طيب، و لكنك لا تفصح عما يجول في نفسك من مخاوف. تظن أنني حين أدعو أرقائي، سأخطف الفتاة من جديد. اليس كذلك؟

فأجاب كريسبوس بشيء من الفجاجة:

ـ أجل.

ـ اعلم إذن أنني سأكلم شيلون أمامكم، و أمامكم سأكتب الرسالة. أخبر فيها جماعتي أنني سافرت، و لا تثرني أكثر.

و أظهر غضبا جعل وجهه ينقبض متجهما، و قال بحماسة:

ـ لا بـد أنـك ظننت أنني لـن أفي بوعودي، و أنني أريـد البقاء هنا لكي أتمكن من رؤيّة ليفيا. و سأقول لك شيئاً آخر. إن لم تبقَ ليفيا هنا، فسأفك رباط ذراعي بيدي اليمنى هذه، و لن أذوق الطعام أو الشراب، حتى أنتزع أرواحكم أنت و إخوتك.

صار شاحبا من شدة الغضب و الوهن. لكن ليفيا كانت تصغي إلى كل مـا قالـه في الغرفة المجاورة. و كانت على ثقـة أن الشاب يفعل ما يقـول. لذلك فقد ارتعدت مـن تهديداته، و لم تكن تريد الموت. فمنذ أن هربـت و هي تعيش هنا بكل أمـان، و وئام مع أخوة لها في الدين، و نصـب عينيهـا الوفاء، و الاثـرة، و التضحيّة تعويضا عـن منزلها، و عائلتها، و سعادتهـا، فأضحت إحدى العذراوات المسيحيات اللواتي غـيرن روح العالم القـديم. و في حقيقة الأمـر كان فينكوس جزءا من حياتها، و قد فرض نفسه على مشاعرها، و لم يكن بوسعها أن تنساه، و كانت تدعو الله أن تجيء تلك اللحظة التي تتيح لها -طبقا للتعاليم أن ترد له أذيته بالخير، و ملاحقته لها بالعطف، و كل ذلك كرمى للمسيح. شعـرت إذن أن اللحظة قد سنحـت الان، و أن صلواتها قد استجيبت فتقدمت من كريسبوس و راحت تكلمه بنبرة بدت مختلفة تماماً :

ـ دعـه يـا كريسبوس بيننـا. و سنظل إلى جانبه حتـى يكلله المسيح بالشفاء.

لكن العجوز المؤمن بالايحاء الالهي، و قد لمس مدى إصرار الفتاة، على فكرتها،سرعان ما دار في باله قوة علويّة هي التي كلمته بفم الفتاة، فارتعش فؤاده، و قال مطرقا برأسه الاشيب:

ـ ليكن ما تقولين.

لم يكـن فينكوس يحـول عينيه عنها طـوال الوقـت. و لقد أثرت موافقـة العجوز السريعة تأثيرا عميقـا في نفسه. فكر أن ليفيا قد تكون بين المسيحيين قسيسة أو سيبيلا، تتمتع بالاحترام و الطاعة. امتزج حبه لهـا بخوف جعل هذا الحب يبدو حبا مغامرا أعمى، الا أنه لم يقو على الاستسـلام لفكرة أن علاقتهما قـد تبدلت، و أن ليفيا هي، لا هو، من

يملك القيادة، مـا دام الان يستلقي تحت رحمتها كطفل قاصر مجرد من القــوة، أفلت منه زمام المبادرة و الحسم. شعـر بالفخر، و الامتنان لها و كأنهــا أضحــت سيدته حقا. كانت أحاسيســ خرساء وخفيّة لم تجد طريقهــا يوما إلى ذهنه، حتى في هــذه اللحظة، و يتعذر التعبير عنها في كلمــات. وطبيعية لم يشأ البحث عــن أسبابها، مكتفيا الان أنه في غايّة السعادة لأنه سيبقى مقيما هناك.

كان يرغـــب في توجيه الامتنان لليفيا، لكن شعورا آخر خفيًّا تمازج مــع رغبته، هو الشعور بالضعة و العار. فلــم يقو على النطق، و اكتفى بتقديم الامتنان بعينين تتوهجــان فرحا ببقائه هنا، و رؤيته لها اليوم، و غــدا و بعــد غد، و ربما طويــلاً. لكنه ظل خائفا مــن فقدانها، و تفاقم خوفه حــين قدمت له الماء مرة أخرى، فهم لرغبتــه الشديدة أن يمسك يدهــا لكنه لم يجــرؤ. خاف. خاف هو نفســه فينكوس الذي تجرأ في المأدبــة القيصريّــة أن يقبل عنوة فم الفتــاة، و كان، بعد المأدبة ينوي جر الفتاة من شعرها إما إلى غرفة النوم، أو العقاب.

٢٤

بات خائفا أيضاً من أن يأتيه العون في وقت غير مناسب، فيفسد عليه سعادتــه. جائز أن يكــون شيلون قد أخبر الجند، أو المنــزل، أو معتوقيه، عمــا جرى، فيغــدو دهم البيت في أي وقــت أمراً محتمــلاً. خطر له أن يقوم حينئذ بالقبض على ليفيا و احتجازها، لكنه استبعد ذلك و شعر أنه سلوك مرفوض، و غــير لائق، و ليس بمقدوره أن يتبعه. صحيح أنه كان شخصــا أنانيًا جريئــاً و فاسدا بما فيه الكفايّة، و عنــد الضرورة لا يغرف الرحمــة، لكنه في النهايّــة ليس نيرون. فقد تركت فيه الحيــاة العسكريّة قــدرا معينا من الشعور بالصلاح، و التزام العدل، و الصدق، و النزاهة، ليــدرك أنه سلوك وضيع بشــع. و لقد كان سيسلكه لو أنه في أتم الصحة و المعافاة، و لكنه، و هو في هذه الحالة المرضي ة، كان أقصى ما يهمه أن لا يقف أحد بينه و بين الفتاة.

لاحــظ باندهاش أنه منذ كلفته ليفيــا و دافعت عنه، لم تطلب هي أو كريسبوس منه شيئاً، و كأنهما على ثقة أنه سوف يقوم ذات يوم بحمايتها من قوة غاشمة ما، إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. بات يعتقد أن كل شيء ممكن و في وارد الحدوث. و حين أمعن في التفكير و زان الامور جيدا، تذكر ما قال له الإغريقي، فطلب اليهم استدعاءه إلى أمامه.

وافقــه كريسبوس، و قرروا إرســال أرسوس من أجلــه. حدد لليفيا موقع منــزل شيلون. و خط بعض الكلمات على الرسالة، و التفت نحو كريسبوس قائلاً :

ـ كتبت هذه الكلمات لأن شيلون شخص ماكر، و شكاك. و حين كنت أستدعيه، غالباً ما كان يقول لرجالي أن يخبروني أنه ليس في البيت، و خاصة عندما لا يحمل خبرا طيبا. قال أرسوس :

ـ دعني أجده أولا، و سأتكفل بالإتيان به شاء أم أبى. و ردّ قبعة عباءته على رأسه و انصرف.

في روما لم يكن من السهل العثور على أحدهم مهما بلغت دقة المعلومات. لكن الغريزة كانت عونا لأرسوس الذي عرف روما شبراً شبراً، و سرعان ما كان في بيت شيلون.

لكنه لم يكن يعرفه، لأنه لم يصادفه وجها لوجه سوى مرة واحدة كانت في المساء، فاستحال عليه أن يكتشف أنه ذلك العجوز الإغريقي الذي حرضه على قتل كلاوسوس. فلما أيقن شيلون أن أرسوس ينظر اليه كشخص غريب بعيد عن الشبهة، و لم يره من قبل، سرعان ما اضمحلت مخاوفه. و تعززت الطمأنينة لديه لما قرأ سطور فينكوس. و خطر له أن المسيحيين لم يقوموا بقتل فينكوس لأنهم لا يجرؤون أن يمدوا أيديهم على أمثاله من الأشخاص المعتبرين.

قال لنفسه:

ـ و الحال هذه سوف يقوم فينكوس بحمايتي إذا ما لزم الأمر، و لم يستدعني ليتخلص مني.

و تسلح بجسارة نوعيّة ليوجه سؤاله:

ـ أيها الرجل الطيب، ا لم يرسل فينكوس النبيل هودجا من أجلي؟ رجلي تؤلمني، و لا أحتمل المشي مسافة طويلة.

ـ لا. سنمضي سيراً على الأقدام.

ـ و إن رفضت ذلك؟

ـ لا تفعل. عليك أن تأتي.

ـ سأذهب بإرادتي. ليس بوسع أحد أن يرغمني لأنني إنسان حر. و حاكم المدينة صديقي. و أنا كفيلسوف لدي أدواتي ضد العنف، و بوسعي أن أسحر البشر، و أحولهم إلى أشجار و حيوانات. لكني سأذهب... سأذهب! سأتخفى بعباءة أخرى و قبعة لكي لا يعرفني أرقاء الحي و ينهالون علي بتحياتهم و يلهونني عن المسير.

ارتدى عباءة أخرى و اعتمر قبعة واسعة تمنع أرسوس من التعرف على قسماته و هما يعبران مناطق أكثر إضاءة. سال في أثناء الطريق:

ـ أين تأخذني

ـ إلى الترانستبريس.

ـ أنا في روما منذ وقت قصير، و لا أعرف ذلك. هل يعيش هنا الكثيرون ممن يحبون الفضيلة؟

صحيح أن أرسوس شخص ساذج، لكنه كان قد سمع فينكوس يقول أن اليوناني قد رافقه إلى الأستريانوم. ثم إنه قد رآه عندما دخل بناء ليفيا مع كروتون. صمت قليلا ثم قال:

ـ لا تكذب أيها العجوز فقد كنت برفقة فينكوس في الأستريانوم، و أمام مدخلنا.

أجاب شيلون :

ـ آها! بيتكم إذن بعد التّيبر. أنا في روما منذ مدة قصيرة، و لا أعرف

أسمـــاء الاماكن و الاحياء فيها. الحق معك يــا صديقي. لقد كنت أمام مدخلكــم. و لقد رجوت فينكوس الا يدخل. و كنت في الأستريانوم. لكــن أتدري مــا السبب؟ أتدري كم بذلت من مجهــود لأقنع فينكوس بالايمان؟ و سنحت الفرصة لما جاء الحواريّ فأخذته ليستنير بنصائحه. أعلم أنك مسيحي و ترغب أن ينتصر الحق على الباطل.

ـ تماماً أجاب أرسوس بخشوع.

استعاد شيلون جرأته كليا، فقال:

ـ السيد العظيم فينكوس صديق القيصر، و ما زالت الارواح الشريرة توسوســ في صدره، لكن إذا مســت شعرة واحدة منه فالقيصر سينتقم من المسيحيين شر انتقام.

ـ هناك قدرة أعظم تحمينا.

فسال شيلون بقلق متجدد:

ـ حسنا. حسنا. لكن ما الذي تنوون فعله مع فينكوس؟

ـ لا أدري. المسيح يأمر بالرأفة.

ـ قولك صحيح. لا تنس ذلك أبدا، و الا ستشوى في نار جهنم.

تنهد أرسوس، بينما خطر لشيلون أن بمقدوره أن يوجه هذا الانسان الذي يبدو مرعبا للوهلة الاولى، و يفعل به ما يشاء.

و لكن، بما أنه أراد أن يعرف كيف تم اختطاف ليفيا، فقد تكلم بنبرة القاضي القاسيّة:

ـ ماذا فعلتم ب كروتون؟ قل و لا تكذب.

تنهد أرسوس ثانيّة و أجاب:

ـ سيخبرك فينكوس بذلك فيما بعد.

ـ سامحك بلوتو، أقصد المسيح.

و تابعا المسير صامتين لفترة وجيزة حتى تفوه شيلون قائلاً :

ـ لن أشي بك، لكن حذار من الشرطة.

ـ أنا أخشى المسيح، و لا أخشى الشرطة.

ـ عظيم. ليس هنالك من ذنب أكبر من جريمة القتل. سأصلي لأجلك فيما بعد. لكني لا أدري إن كانت صلاتي ستنفعك في شيء، إن لم تقسم أنك لن تؤذي أحداً بعد الآن فأجاب أرسوس :

ـ لم أقصد قتله.

كان شيلون يريد أن يؤمن على نفسه و يسد كافة الثغرات، فراح يثير اشمئزاز أرسوس بالتذكير بجريمة القتل، و حثه على القسم. و كان الليفوي يرد على أسئلته كلها بقوله: سنعرف كل شيء من فينكوس في الوقت المناسب. هكذا أمضيا معا طريقهما الطويل، حتى وصلا البيت. اشتد خفقان قلب شيلون، حين لاحظ أن أرسوس يرمقه بنظرات نهمة. أخفى وجهه جيدا بالقبعة متذرعا بشدة برودة الجو. و حين عبروا في النهايّة، الرواق، ثم الفناء الاول، و صاروا في الممر المفضي إلى حديقة المنزل، توقف فجأة ليقول:

ـ انتظر، دعني آخذ جرعة من الهواء، و الا فلن أتمكن من التحدث إلى فينكوس، و أسديه بعض النصائح.

و توقــف بعد أن صار واثقا من نجاته، و بات لا يهدده أي خطر. و في أثناء ذلك طرق سمعه ترانيم آتيّة من البيت.

ـ ما هذا؟ سال

فأجابه أرسوس :

ـ تقــول إنــك مسيحي، و لا تــدري أن من عاداتنــا تمجيد المخلّص و شكــره بعد كل طعــام؟ لقد رجعت ميريام و ابنهــا حتما إلى البيت، و مــن الجائز أن يكون الحواريّ هنا، لأنه يوميــا يقوم بزيارة العجوز و كريسبوس.

ـ خذني مباشرة إلى فينكوس.

ـ و هــو أيضــاً هنــا، حيث الاخــرون في الغرفة الكــبرى، لأن بقيّة الغرف صغــيرة نرتادها للنوم فقط. هيا فلنذهــب و هناك ستأخذ قسطا من الراحة.

دخــلا. كانت الغرفة عاتمة بعض الشــيء، لأن أضواء الاسرجة، في مثل هذه الاماســي الشتائيّة الغائمة، لا تستطيــع أن تبدد الظلمة تماماً. شــك فينكوس لمجــرد أن لمحه مــن وراء زجاج النافــذة أن القادم هو شيلــون الذي ما إن حطت عيناه على فينكوس فوق السرير حتى أسرع اليه ضامنا الامان التام بقربه. و صاح و هو يمسك بيديه:

ـ آه يا سيدي، لمَ لم تأخذ بنصيحتي؟

فردعه فينكوس مخاطبا إياه:

ـ اسكت، و انتبه لما سأقول!

و رمقه بنظرات حادة، و راح يكلمه بتؤدة و كأنه أراد منه أن يعتبر كل ما يقوله أوامر لن ينساها طوال حياته:

ـ انظـر، لقد أراد كروتـون أن يقتلني، و يسرقنـي أتفهم؟ قمت أنا بقتله. و قام هؤلاء بتضميد جراحي التي منيت بها، في عراكي معه.

أدرك شيلون في الحال أن حديث فينكوس على هذا النحو، يعني أنه اتفق مع المسيحيين على ذلك. فأجابه رافعا وجهه إلى السماء:

ـ كان شخصا خطيرا يا سيدي، قلت لك أن لا تثق به. عبثا حاولت تعليمـه، لكنـه مخـادع لا رادع يردعـه، و لا شرف يتمسك بـه. أيتها الالهة، كيف يجرؤ على مهاجمة سيد عظيم من أمثالك!

لكنـه سرعان ما تذكر أنه قال لأرسوس أنه مسيحي فصمت. و جاء دور فينكوس ليقول:

ـ لو لم أكن أحمل مديّة لقتلني.

ـ بوركت تلك اللحظة، حين نصحتك بحمل مديّة.

فسأله فينكوس و هو يرمقه بنظرة:

ـ ماذا فعلت اليوم؟

ـ كيـف؟ كنت سأقـول لك أنني انشغلت باستقبـال الزائرين الذين جاؤوا للاطمئنان على صحتك؟

ـ و ماذا أيضاً؟

ـ كنـت أتأهب لزيارتك، حين جاءني هذا الشخص الطيب ليخبرني أنك استدعيتني.

ـ خذ هذه الرسالة إلى منزلي في الحال. و اعثر على معتوقي، و سلمها

لـه. كتبت فيها أننـي مسافر إلى بنغنتوم. و قل لديمـون عن لساني أنني سافرت هذا الصباح لأن بترونيوس استعجلني بالحضور اليه هناك.

ثم كرر مشددا :

ـ سافرت إلى بنغنتوم، أتفهم؟

ـ سافـرت يـا سيدي سافـرت. و لقد ودعتك عند مبنـى البريد. و منـذ ذلك الحين و أنا أتشـوق لرؤيتك، و أكاد أموت من شدة البكاء و الحزن، كما حصل لزوجة أتيلوس من شدة حزنها على زوجها.

كان فينكوسـ مريضـا، فلم يكـن بمقدوره حتى أن تنـد شفتاه عن ابتسامـة لهـذا التناغم الخبيث بينـه و بين شيلون. و أسعـده أن شيلون سرعان ما استجاب لمقاصده. فقال:

ـ سأضيف في الرسالة إذن، أن يكفكفوا دموعك. هات السراج!

و بطمأنينة تامة خطا شيلون نحو المدفأة و تناول سراجا.

في هـذه اللحظـة. انزلقـت القبعة عن رأسـه، فأنار ضـوء السراج وجهه، فقفز كلاوسوس عن مقعده، و وقف أمامه بسرعة، و سأله:

ـ كايفاش، الا تعرفني!

كان صوته مرعبا أجفلهم جميعا.

في هذه اللحظة رمى شيلون السراج أرضا و قال:

ـ لست كايفاش... لست كايفاش... الرحمة!

التفت كلاوسوس نحو الجميع و هم يتناولون العشاء و خاطبهم:

- إنه الشخص الذي خانني و تسبب في أذاي أنا و عائلتي.

كانت سيرته قد شاعت بين المسيحيين كلهم. و بسماع أرسوس ما تفوه به كلاوسوس، قفز كالبرق إلى أمام شيلون، و حين تعرف عليه، أمسكه بذراعه و فتله إلى الوراء، و صاح:

- هو من أقنعني بقتل كلاوسوس.

فالتفت شيلون نحو فينكوس يتوسله:

- الرحمة! أنقذني يا سيدي. لقد وثقت بك، قل شيئاً من أجلي أنا سأحمل رسالتك يا سيدي.

أما فينكوس فقد كان يشهد ما يجري أمامه بحياد تام لسببين. أولهما أنهما ما عاد في حاجة إلى شيلون بعد أن أنجز ما كلف به. و ثانيهما أن قلبه لا يستجيب أصلا للتوسلات. فقال:

- ادفنوه في الحديقة. الرسالة سيوصلها شخص آخر.

و هكذا شعر شيلون أن هذه الكلمات تعني نهايته. و كانت عظامه تتحطم بين يدي أرسوس الجبارتين، فامتلأت عيناه بالدموع من شدة المه. فصرخ:

- أستحلفكم بربكم أن ترحموني. أنا مسيحي، باكس فوبكسوم! أنا مسيحي. و إن لم تصدقوني عم دوني مرة أخرى. مرتين أخريين، بل عشرات المرات! لا بد أنك مخطئ يا كلاوسوس. اسمعوني... اعتبروني أحد أرقائكم و لا تقتلوني. الرحمة!

و خفت صوته من المه. هنا تحرك الحواريّ بطرس من جانب الطاولة، هازا برأسه الاشيب، و عيناه مطبقتان، لكنه ما لبث أن فتحهما و نطق مبددا وطأة الصمت المطبق:

- خاطبنا المخلّص قائلاً : "إن أخطأ معك أخ لك، عاتبه، و وجه له اللوم. و إن ندم على فعلته سامحه. و إن أخطأ معك سبع مرات في اليوم، و لكنه في كل مرة كان يلتفت اليك ليقول: "أنا نادم" فسامحه ".

و أطبق الصمت من جديد.

ظل كلاوسوس واقفا لفترة طويلة، دافنا رأسه براحتيه، ثم أرخاهما ليقول:

- سامحك الله يا كايفاس على ما أوقعت بي من أذيّة. لأني سامحتك باسم المسيح.

بينما قام أرسوس بتحرير ساعدي اليوناني و أضاف قائلاً على الفور:

- سامحك الله لأني سامحتك باسم المسيح.

بهذا ارتمى اليوناني أرضا، و هو يدير رأسه بين يديه مجيلا النظر، كفريسة عالقة في الشباك، ليعرف متى و من أيّة جهة سيوافيه الموت. حتى أنه ما كان يصدق عينيه و لا أذنيه، و لم يجرؤ و لو لحظة أن يعيش على أمل أنه قد فاز بالصفح.

و لكنه شيئاً فشيئاً استعاد رشده. كانت شفتاه الزرقاوان ترتجفان من الرعدة. قال الحواريّ في هذه الاثناء:

ـ انصرف بسلام!

نهض شيلون، لكنه لم يقو بعد على الكلام. تقدم من سرير فينكوس، كأنما كان ما يزال يسترحمه، و يجد عنده المنجاة و الحمايّة. و كان يريد أن يبرح المكان خشيّة أن يحصل أي طارئ يعطل فرصته في الهروب، فخاطبه بصوت متهدج:

ـ هات الرسالة يا سيدي! هات الرسالة!

و بعد أن تناول الرسالة منه، توجه بانحناءة نحو المسيحيين و بأخرى نحو فينكوس و خرج محدودبا من الغرفة. حين بلغ الحديقة، انتصب شعر رأسه من الرعدة مرة أخرى. فقد كان واثقا أن أرسوس سوف يتبعه، و يتخلص منه في العتمة. استجمع كل قواه، لكن قدميه لم تسعفاه للفرار. و فجأة، بعد لحظات وجيزة، تجمد من هول الصدمة، لأن أرسوس كان إلى جانبه فعلا.

ارتمى شيلون على وجهه أرضاً و راح يتباكى:

ـ أوربانوس... باسم المسيح!

لكن أوربانوس أجاب:

ـ لا تخف. الحواريّ أمرنا أن نقودك خارج المبنى لكي لا تتوه في العتمة، و أن نوصلك إلى البيت إن كنت تشعر بالوهن.

فرفع شيلون عينيه:

ـ ماذا تقول؟ ماذا؟ الن تقتلني؟

ـ لا. لن أقتلك. و إن كنت قد المتك من شدة ما ضغطت على عظامك، فأنا آسف.

فقال الإغريقي:

- ساعدني على الوقوف. لن تقتلني؟ اليس كذلك؟ رافقني حتى الشارع، و من هناك سأنصرف بمفردي.

رفعه أرسوس بسهولة كحشرة، و أوقفه على ساقيه، و قاده عبر ممر مظلم إلى الفناء الاخر الصغير، و منه إلى غرفة أوليّة تفضي إلى الشارع.

قال شيلون لنفسه و هو في الممر " اقتربت نهايتي ".و لم يشعر بالامان حتى صارا في الشارع. فقال:

- سأذهب بمفردي.

- رافقتك السلامة.

- و إياك أيضاً، و إياك أيضاً. دعني أسترح!

و حين ابتعد أرسوس تنفس الصعداء. ثم تحسس بيديه جذعه و أضلاعه، و كأنما أراد أن يتحقق من أنه ما زال حيا، و انطلق بخطوات سريعة.

لكنه، بعد خمسين إلى ستين خطوة توقف. و قال:

- لكن لماذا لم يقوموا بقتلي؟

و لم يجد جوابا شافيا على سؤاله هذا بالرغم من استغراقه الطويل بما سمع من التعاليم المسيحيّة، من اربانوس أو من الحواريّ في الأستريانوم.

٢٥

فينكوس بدوره لم يكن بمقدوره أن يستجلي ما حصل من هذه الأحداث، فاضطربت روحه، و تملكته الحيرة كشيلون. صحيح أن الطريقة التي عامله بها هؤلاء من تلطف بحاله و بلسمة لجراحه، بدلا من النقمة عليه لمهاجمته إياهم في مخبئهم، قد أرجعها إلى صلب تعاليمهم، و بالذات إلى شخصيّة ليفيا و تأثيرها الكبير بينهم، الا أنه ما كان ليتصور مقدار التسامح الذي أبدوه إزاء شيلون. و تساءل أيضاً لم لم يقتلوا الإغريقي؟ خاصة و أنه كان بمقدورهم أن يقوموا بذلك دون أن يجرّموا على فعلتهم، فيقوم أرسوس بدفنه في الحديقة، أو حمله ليلاً و إلقائه في النهر. فكم شاهد القيصر في تجوالاته الليليّة جثثاً ملفوظة على ضفة النهر، دون أن يطلب من أحد التحقيق في الأمر. إلى جانب ذلك، في رأي فينكوس، أن المسيحيين لم يكن بإمكانهم أن يقتلوا شيلون و حسب، بل كان ينبغي عليهم أن يقتلوه. فالقسوة لم تكن بالشيء الغريب تماماً في العالم الذي عاش فيه الشاب. ففي أثينا أشادوا المذابح، و ظلوا الوقت طويل يرفضون إقامة نزالات المصارعة حتى الموت. و في روما أيضاً كان يصادف أن يحصل المهزومون على الرحمة. مثال على ذلك ما حصل لملك بريطانيا كاليكراتوس الذي وقع أسيراً لدى كلاوديوس و قام الاخير بإكرامه و تركه يمارس حياته حرًّا في المدينة. لكن الثأر الشخصي حسب فينكوس، و الاخرين كان أمرا حسنا و مشروعا. و إهماله لا يتفق و توجهات تفكيره. صحيح أنه قد سمع في الأستريانوم أن محبة العدو واجبة، لكنها من وجهة نظره،

فكـرة نظريّـة لا أهميّة لها في واقع الحياة. و خطـر في باله، للتو، أنهم لم يقومـوا بقتل شيلون، لمناسبة دينيّة تصادف في هذه الاونة يحرم فيها علـى المسيحيين القتل. سمع أن هنالـك أقواما تحرم الحرب في مواسم محـددة. لكن لم لم يسلموا الإغريقي إلى العدالة، و لماذا قال له الحواريّ أنـه لو ارتكب الخطيئة سبـع مرات لسامحناك سبع مـرات، و لماذا قال كلاوسوس لشيلون: سامحك الرب كما سامحتك أنا، رغم إقدامه على تقصد الاذيّة لهم. و حتـى أرسوس قد صفح عنه. الجواب واحد على كل هـذه الاسئلة: في قلوبهم قدر مـن الطيبة لا يمتلكها أي إنسان آخر في هـذا العالم. محبة لا محدودة للبشريّـة تحدوهم أن يديروا ظهورهم لما يواجهونـه من مصير مشـؤوم، و تجعلهم يتمتعون بأثـرة يتناسون فيها أنفسهـم و سعادتهم، و يوقفوا كل حياتهم من أجل الاخرين. أما ماذا ينتظـرون من جـزاء على تفانيهم هـذا، فقد عرفـه فينكوس في خطبة الحـواريّ في الأستريانوم، لكنـه لم يستوعبه، و في مقابل ذلك شعر أن الحيـاة بائسة لا معنى لها فوق هذه الأرض، إذا ما كانت وقفا من أجل الاخرين. و شعر لطبعـه الروماني أنهم حملان وديعون في هذا العالم، و لا بـد أن يأتـي يوم يلتهمهم فيه الذئاب. و في نهايّة المطاف رجع إلى رشده، و فاجأه مدى البِشر والحبور فوق الوجوه من فرط السعادة فور انصراف شيلون. تقدم الحواريّ من كلاوسوس، و وضع يده على رأسه و قال:

ـ كان المسيح في نصرتك!

و رفـع الطبيـب بصره فشعت عيناه ببهجة نـادرة لا تقرأ الا مبعثها الايمـان. و بدت ليفيا فرحة لشعورها أن نظام العالم قد استتب الان. و دخل أرسوس ليحدث الاخرين كيف رافق شيلون إلى الشارع و كيف طلب منه أن يسامحه على ما سببه له من الام في ذراعه، فاستحق مباركة

الحــواريّ. بينما أعلن كريسبوس أن هذا اليوم هو يوم النصر بامتياز أما فينكوس، بإصغائه إلى ما يجري أمامه من مشاعر الانتصار، فقد أضاع شريط أفكاره تماماً.

و لكن حــين قدمت له ليفيا الشراب من جديــد احتفظ بيدها لحظة و سألها:

- و أنت هل سامحتني؟

- نحن مسيحيون، و لا يجوز أن نضمر البغيضة في قلوبنا.

- ليفيا! أيا كان ربــك، يستحق مني قرابين الاحترام، فقط لأنه ربك أنت.

- سوف تكن له هذا الاحترام في باطن قلبك، إذا ما أحببته.

- فقط لأنه ربك أنت أعاد فينكوس الكرة هامسا.

و أطبق عينيه بعد أن وهنتا.

خرجت ليفيا. و سرعان مــا عادت، و انحنت فوقه لتتأكد أنه نائم. شعــر فينكوس بقربها ففتح عينيه و ابتسم، فيما وضعت ليفيا يدها على عينيه بحنان، كأنها تريد أن ترغمه على النوم. فغمرته السعادة من جراء ذلــك، رغم أنه أحس أن مرضه شديد. و هذا هو واقع حاله. كان الليل قــد حل تماماً و جلب معــه الحمى الشديدة. فلم يستطــع النوم. و راح يتابــع ليفيا أنّى تحركت. و كان يسهو بين الحين و الاخر، و لكنه يسمع و يــرى كل ما يجــري حوله، و لو كان على نحــو مشوش و غير جلي مــن شدة الحــرارة. و رأى في هذيانه كنيسة على شــكل برج في مقبرة مهجــورة، و ليفيا هي القس الــذي يديرها. لم يمل بعينيــه عنها،و رآها علــى قمة البرج. كانت أشبه بالراهبات الشرقيــات اللواتي، كل مساء،

ينشـــدن الاناشيد لتمجيد القمـر، و رأى نفسه صاعــداً إليها على سلم البرج الحلزوني لاختطافها، يتبعـه شيلون صارخا به:" سيدي لا تفعل، لأن التـي تسعـى للإتيان بها ناقمة عليك". و حين بلـغ القمة وجد إلى جانب ليفيا الحواريّ الأشيب اللحية يخاطبه قائلاً :" لا ترفع يدك عليها لأنهـا لي " ثـم انطلق بالفتاة على ضـوء القمر نحو السمـاء، فيما راح فينكوس يتضرّع إليهما ليضمّاه إليهما.

ثم استيقظ و قد عاد إلى رشده شاخصاً أمامه. كانت جمرات المدفأة قد وهنـت، لكنها جادت بنـور كافٍ. و كان الجميع يتحلقون حولها يتدفـؤون. كانت الغرفة باردة، و شاهد فينكوس أبخرة أنفاسهم و هي تتصاعـد من أفواههم. كان الحواريّ يتوسـط الجميع و ليفيا بقربه على مقعد خفيض، ثم كلاوسوسـ فكريسبوس فمريام و أخيراً أرسوس. و على مقعد آخر نازاريوس و ابن مريام، و فتى آخر وسيم الطلعة تنسدل على كتفيه جدائل شعره السوداء الطويلة.

كان وجـه ليفيـا باتجاه الحواريّ، كما الاخـرون، تصغي إليه، و هو يقول شيئاً ما بهدوء. حدّق إليها فينكوس بخشية متوجّسة، لا تقل عما يعانيـه من حمّى. و لمع في ذهنـه أن ما رآه و هو في حالته الهذيانيّة كان حقيقيّـا، و أن أحدا ما قد جاء مـن وراء الضفاف النائية ليأخذ ليفيا من بـين يديه، و يمضي بها إلى دروب مجهولـة. كان واثقا أيضاً أن الحواريّ يتحـدث في أمر يخصه، و يتقدم بتوجيهاتـه ليفصل بينه و بينها، إذ من غـير المعقول أن يتحدث عـن أمور أخرى، و هكذا فقـد استجمع كل وعيه و قواه ليلتقط ما يقول بطرس.

لكـن كان مخطئا جـدا. لأن الحواريّ كان يتحـدث عن المسيح مرة أخرى. فكر فينكوس :

- إنهم يحيون في هذا الاسم فقط.

أما الحواريّ فكان يروي قصة القبض على المسيح:

- جـاءت مجموعة من الجند برفقـة خدم الكهنة، ليقبضوا عليه. حين سألهم المخلّص عمن تبحثون أجابوا: "عن عيسى الناصريّ". لكن حين قـال لهم " أنا هو ". ذهلوا أمامه و لم يجرؤوا أن يرفعوا أيديهم عليه، و لم يقبضوا عليه الا بعد أن سالوه للمرة الثانيّة.

هنا توقف الحواريّ عن الكلام، ثم مد يده نحو النار و تابع يقول:

كانـت ليلة باردة كهذه الليلة الان، لكن قلبي صار يغلي، فامتشقت سيفـي للدفاع عنه، و جدعت أذن خـادم كبير الكهنة. كان بوسعي أن أستمـر في دفاعـي و أذود عنـه، لكنه ناداني قائـلاً : " أرجع سيفك إلى غمـده، فالكأس التي أعطانيها أبي كيـف لا أشربها؟ " ثم أمسكوا به و قي دوه.

هنـا صمت الحواريّ دافنا رأسه بيديه محـاولاً الحد من تدفق ذاكرته قبـل متابعة حديثه. لكن أرسوسـ و قد فرغ صبره، قام يتدبر أمر الموقد بمحراك معدني جعل النار تنثر شررها الذهبي، و تزداد اضطراماً. ثم عاد و جلس في مكانه. و صاح:

- ليت شيئاً آخر قد حصل، يا ويلاه!

لكن سرعان ما كف عن الكلام، بعد أن أغلقت ليفيا فمه بأصابعها، فصـار يلهث لهاثـاً مسموعاً يشـير إلى غضب داخلي عنيـف، و كأنه يقول للحواري لو أنه كان هناك لأبلى على نحو مختلف. و لما حصل ما حصل. لكنه لم يستطع حبس دموعه.

و بعـد قليل أبعد الحـواريّ يديه عن وجهه، و تابـع الحديث. لكن

فينكوس كان قد غرق مجدداً في حلمه الهذياني. رأى نفسه على ضفة البحيرة التي وقف عليها المسيح. و وجد نفسه في قارب تلطمه الامواج، و يحاول كثيرون أن يلحقوا به سباحة في الماء، كان بعض منهم يرفع يديه طلبا للنجدة. خاف فينكوس حين لاحظ أن القارب من الصعب أن يتسع لكل هؤلاء، و إذا ما صعدوا اليه، لا بد أن ينقلب بهم و يغرقوا جميعا. لكن ليفيا طمأنته مشيرة إلى بقعة من الضياء ناحيّة الضفة الاخرى. نظر حيث أشارت فوجد بطرس يقود سفينة الانقاذ التي كانت تقترب منهم شيئاً فشيئاً، فيزداد الضياء شدة. كانت الأمواج قد بدأت تخمد حتى تلاشت تماماً، و تهاوى القارب فوق سطح الماء حتى بلغ الشاطئ الرملي بأمان. هنا مدت ليفيا يدها و نادته: "تعال معي". و قادته نحو هالة الضياء.

أفاق فينكوس ثانيّة. لكنه لم يستعد وعيه على الفور. لأن صور الحلم كانت تتلاشى بطيئة. و شعر لوهلة أنه ما يزال على ضفة البحيرة، يحيط به جمع غفير. و حين راح يبحث بينهم عن بترونيوس، استغرب عدم وجوده هناك. كان الجميع قد انفضوا من حول المدفأة التي شعت نارها ضوءاً شديداً في الغرفة. و حين استعاد وعيه تماماً، لمح ليفيا جالسة قرب سريره.

انتعشت روحه لمرآها. تذكر أن الفتاة قد أمضت ليلتها الفائتة في الأستريانوم، و رغم ذلك لم تفارقه طوال اليوم لتسهر على العنايّة به، و ها هي الان، و قد انفض الجميع ليرتاحوا، تقبع وحيدة إلى جانبه. كان التعب باديا عليها، و عيناها مغمضتان. لم يدر فينكوس إن كانت نائمة أم مستغرقة في أفكارها. أمعن النظر في وجهها و جفنيها المغمضين، و يديها المعقودتين على صدرها. و راودت رأسه الوثني الفكرة التاليّة:

إلى جانــب ذلك الجمال الإغريقي و الروماني الفائق، ثمّة في هذا العالم جمال فتان آخر بالغ النقاء لكنه مشبع بالروح.

لم يصــل به الأمر أن ينعتــه بالجمال المسيحي، لكن إذا ما فكر بـليفيا لم يستطــع أن يفصلها عن التعاليم التي تؤمــن بها. حتى أنه كان مدركا أن ليفيــا، بعد كل مــا سبب لها من أذيّة، قد بقيــت إلى جانبه بدافع من دينهــا الذي يأمرها بذلــك. و بقدر ما أذهلته هذه الفكرة و جعلته ينظر بإعجــاب إلى هــذا المعتقد، إلا أنهــا أزعجته. كان يتمنــى على ليفيا أن يكــون دافعهــا حبها له لجاذبيّــة طلعته، و عينيه، و جمــال جسمه، أي للسبــب ذاته الذي جعل أذرع النساء الإغريقيات و الرومانيات البيضاء تلتف لاحتضانه.

لكن سرعان ما خطر له أن ليفيا لو كانت تشبه تلك النساء، لما أثارت إعجابه. ما الذي أثاره إذن؟ ما الذي أثار فيه هذا الجديد من الأحاسيس و المشاعر الغريبة كل الغرابة عن الحياة التي عاشها حتى الآن.

في أثناء ذلك فتحت ليفيا عينيها، و حين رأت أنه ينظر اليها، تقدمت نحوه و قالت:

ـ أنا إلى جانبك.

بينما كان جوابه:

ـ رأيت طيفك في منامي.

٢٦

في اليـوم التالي أفـاق مضعضعاً واهن الجسد، لكـن ذهنه كان نقيا متماسـكا بعد أن فارقته الحمى. شعـر أن وشوشة ما توقظه، لكن حين فتـح عينيـه لم يجد ليفيا إلى جانبـه. لمح أرسوس وحيـداً يجلس قرب المدفـأة، يبحث في رمادها عن جمرات. و حين عثر على واحدة، راح يوقدهـا بنفخات لا تشبه الانفاس، بل كور الحـدادة. خطر له أن هذا الرجل قضى أمس على كروتون فقال في نفسه:

- حمـدا لمركوريوس أنه لم يدق عنقي. لـو كان كل الليفيويين مثله لأوقعوا فيالق الدانوب في مصاعب لا تحمد عقباها.

و صاح بصوت مسموع:

- هيه، أيها العبد!

سحب أرسوس رأسه عن الموقد، ابتسم و أجاب على نحو ودود:

- عافـاك الله، يا سيدي. يوما طيباً ! أرجو أن تكون في عافيّة، لكني إنسان حر، و لست عبداً.

كان بـود فينكوسـ أن يكلم أرسوس و يستفسر منـه عن بلد ليفيا، لذلـك فقد وقع ما سمعه من أرسوسـ موقعا طيبا في نفسه، فالتحدث مـع شخصـ حـر، و إن كان بسيطـا من العامـة، لا يقلل مـن مكانته الرومانيّـة، و لا يتعرضـ لصيتـه الذائع، كما لـو كان يحادث عبدا لا يعترف بإنسانيّته قانون أو عرف.

سأله:

- الست من أتباع عائلة اولوش؟

- لا يـا سيدي. أنا أخـدم كالينا كما كنت أخـدم أمها، لكن بدافع ذاتي مني.

قـال هذا، و دس وجهه ثانيّة في الموقد، ينفخ جمـاره بعد أن كان وضع فوقها بعضا من الاخشاب، لكنه سرعان ما أخرجه ليقول:

- عندنا لا وجود للعبيد.

لكن فينكوس سأله:

- أين ليفيا؟

- لقـد خرجت. أنا سأحضر لك الفطور، يـا سيدي. لقد بقيت إلى جانبك طوال الليلة الفائتة.

- لَم لم تقف بدلا منها.

- هي من أراد ذلك، و ما علي الا الطاعة.

هنا تجهمت عيناه. و أضاف بعد قليل:

- لو أنني لا أطيعها، لما كنت، يا سيدي، على قيد الحياة.

- و هل يؤسفك أنك لم تقتلني.

- لا يا سيدي، المسيح لا يريدنا أن نقتل.

- و كروتون؟

ـ ما كان ممكنا على نحو آخر.

غمغم أرسوس، و هو ينظر إلى يده التي حافظت على ميزتها الهمجيّة، و لو كانت روحه قد اعتنقت الصليب.

و قرفص يحدق في المدفأة مستغرقا في التفكير إلى حين، ثم قال:

ـ أنت السبب يا سيدي. لماذا رفعت يدك على ابنة الملك؟

استيقظت كبرياء فينكوس للوهلة الاولى. كيف لفلاح و بربري أن يجرؤ و يكلمه بكل هذه الثقة، لا بل و يسائله كذلك. كظم غيظه، و ابتلع الاهانة الموجهة اليه، لأن رغبته كانت تكمن في معرفة تفاصيل معينة عن حياة ليفيا.

ما إن استعاد هدوءه، حتى بدأ يسال أرسوس عن حرب الليفويين ضد فانيوس و السوفوسيين. كان أرسوس يجيبه بسعادة لكن دون أن ينبئه بأي جديد عن هذه الحرب التي أفاض أولوس بلاوتيوس في الحديث عنها. لم يسهم أرسوس في الحرب، لأنه أوكل باصطحاب النساء الرهينات إلى معسكر أتيلوس هيستر. و كل ما عرفه أن الليفويين في نهايّة المطاف قد سحقوا السوفوسيين و الياسيغيين، لكن قائدهم و ملكهم قد سقطا بسهم يازغي. و سرعان ما جاءهم النبأ أن السمنونيين قد أشعلوا أطراف الغابات، فكان منهم أن عادوا حالا لينتقموا لما لحق بهم من أذى، فبقي الرهائن لدى أتيلوس هيستر، الذي أكرم الملوك، و عاملهم باحترام لائق. و فيما بعد توفيت أم ليفيا. لم يدر القائد الروماني ماذا يفعل بالطفلة. أراد أرسوس أن يعود بها إلى بلدها، لكن طريق العودة كان خطرا بسبب الحيوانات المفترسة، و القبائل المتوحشة. و حين جاء نبأ أن لدى بومبونيوس ممثلي سفارة ليفويين يمكن أن تقدم المساعدة، أرسلهم أتيلوس اليه. و حين وصلوا تبين عدم صحة النبأ. و

هكذا ظلوا في المعسكر، حتى اصطحبهم بومبونيوس إلى روما و هناك سلّم الطفلة لبومبونيا غراتسينا.

بقيت بعض التفاصيل الصغيرة التي لم يسمعها فينكوس في هذه المحادثة، و لكنه كان بالغ السعادة من كلام أرسوس، الذي أكّد، كشاهد مقرّب، أن ليفيا تنحدر من سلالة ملكيّة. و على هذا الأساس فقد عوملت في بلاط القيصر كابنة ملك شأنها شأن كل فتيات العائلات الراقيّة، خاصة و أن الشعب الذي نصب والدها ملكا عليه لم يشن حربا على الرومان، رغم أنه شعب بربري يمكن أن يشكل على روما خطراً كبيراً، لأن أعداد مقاتليه كبيرة، لا تحصى.

و لقد قو ى أرسوس هذا الرأي، فعندما سأله فينكوس عن الليفويين أجاب:

- نحن نعيش في الغابات في أراض شاسعة لا حد لها، يقطنها أعداد كبيرة من البشر. لدينا قلاع مبينة من الخشب تحتوي على ثروات هائلة، لأن كل ما يغنمه السمنونيون و الماركومنيون في حروبهم، نقوم نحن بالسطو عليه أما هم فلا يفكرون يوما بغزونا، وتقتصر أفعالهم على حرق الغابات. نحن لا نخشاهم ولا نخشى قيصر روما.

أجاب فينيكوس بفجاجة :

- لقد جعلت الالهة من الرومان أسياد الأرض.

فرد أرسوس ببساطة:

- الآلهة أرواح شريرة. و حيث لا وجود للرومان، لا وجود لسلطة رومانيّة.

سوى وضع النار، و هو يقول لنفسه:

ـ حين القيصر استحضر كالينا إلى بلاطه، و ظننت أنه سيلحق بها أذيّة، أردت أن أقصد الغابات لأحضر الليفويين لنجدة الفتاة الملكيّة. كان الليفويون سيستجيبون، و يندفعون باتجاه الدانوب، فهم شعب طيب، لكنه بدائي. كنت سأخبرهم، على الاقل، " بالنبأ المبارك " لم يسمعوا بأمر المسيح لأنه ولد في منطقة بعيدة، هو يعرف أكثر مني، أين مكانها في العالم. لكن لو صادف و كان عندنا في الغابة، لما سمحنا بموته الاليم، و كنا أنشأنا الطفل أجمل تنشئة، فلا يشعر بيننا بالعوز، لأن كل ما سنغنمه من السوفوسيين و الكومانيين سيكون من نصيبه ليحظى بالراحة و رغد العيش.

في أثناء حديثه هذا، كان قد وضع القدر المليء بحساء النبيذ المعد لفطور فينكوس، فوق الموقد، ثم سكت. و ظلت أفكاره، بالطبع، تطوف في الغابات الليفويّة، حتى جاش الحساء فوق النار، فسكبه في صحن واسع، و حين ابترد على نحو مناسب، خاطب فينكوس قائلاً :

ـ ينصحك كلاوسوس، يا سيدي، أن تخفف من حركة حتى يدك السليمة، و أمرتني كالينا بأن أطعمك بنفسي. ليفيا أمرت بذلك! لا رد على ذلك. لم يخطر له أن يقاوم إرادة ليفيا، و كأنها أصبحت ابنة القيصر، أو إحدى الالهات. فلم ينبس بكلمة. في حين جلس أرسوس إلى جانب سريره، و بعنايّة فائقة، و ابتسامة سمحة تجلّت في عينيه الزرقاوين، قرب أرسوس صحن الحساء من فم فينكوس الذي لم تصدق عيناه ما تريانه. و للمرة الاولى في حياته راح يفكر فيما يمكن أن يدور في خلد مثل هذا الفلاح البسيط، الخادم البربري.

ما إن بدأ أرسوس بإطعام الشاب حتى بان وجه ليفيا الرقيق من وراء الستارة. و بادرت بالقول:

- سأساعدك.

و سرعـان مـا حضـرت قادمة بـرداء نومهـا الذي يغطـي صدرها بالكامل، و كان شعرها مرخيـا. اشتد خفقان قلب فينكوس لمرآها، و أبـدى نوعا من العتب لأنها لم تهجع بعـد إلى النوم، لكن الفتاة أجابته ضاحكة:

- كنت أستعد للنوم، لكي جئت أساعد أرسوس.

وراحـت تطعمه. أحرج الشاب ذلك، لكنه كان في غايّة السعادة. حـين انحنت الفتاة فوقـه، أحس بالدفء المتدفق مـن جسدها، وكان شعرها قد انسدل على صدره، وفي غمرة ارتباكه والرغبة التي انتشرت في كيانـه، شعر أيضاً : هـي ذي تلك الفتاة الأغلى في الكون والمعبودة فـوق الجميع. فيما سبـق كان يشتهيها ولا شيء آخـر، لكنه بات الآن يحبهـا من كل جوارحـه. كانت الأنانيّة العمياء هـي ما تستحوذ على مشاعره،لكن الان بدأ يوجه عنايته نحو ليفيا.

أوضـح بعد قليل أنه غير راغب بالمزيـد من الحساء. وبعد أن حظي بمتعـة لا تفوقها متعة في حضور ليفيا إلى جانبـه، وتأمله إياها، خاطبها قائلاً :

- كفى. اخلدي إلى النوم، يا ليفياي الربانيّة.

فأجابت الفتاة:

- لا تدعني هكذا. ليس جائزًا أن اسمع هذا.

لكنهـا ابتسمـت، ثم قالـت إن النعاس قد فارق جفنيهـا، وإنها لا تشعـر بالتعب، وهـي لن تعود إلى النوم حتى يرجـع كلاوسوس. كان فينيكوس يصغي إلى جرس كلامها الموسيقي، بقلب خفّاق، وامتنان لم يدر كيف سيفصح عنه، فقال بعد لحظات:

ـ ليفيا. لم أكن أعرفك قبل الان. لكني أدركت الان أنني أردت الحصول عليك بطريقة خاطئة. لذلك أقول لك الان: اذهبي إلى بومبونيا، وكوني على ثقة أن أحدا لن يمسك بأذى.

انقبض وجه الفتاة:

ـ سأكون سعيدة، إذا ما تمكنت من رؤيتها من بعيد، لكن ليس بوسعي الان أن أعود اليها.

فسألها فينيكوس مستغربا :

ـ لماذا؟

ـ نحن المسيحيين، نعرف عن طريق أكتي ما يحصل في البالاتينوس. ما زلت لا أدري إن كان القيصر قد استدعى أولوس و بومبونيا إلى قصره لاعتقاده بأنهما ضالعان في قصة هروبي، وهل هد دهمابسبب ذلك؟ ومن حسن الحظ أن أولوس كان بمقدوره أن يقول له: "تعلم يا سيدي أنني لا أكذب، وأقسم أنني لم أساعدها على الهروب" ولا تدري ماذا حصل بعد ذلك. هل صد قه القيصر؟ ونسي الحادثة. تصور أنني لا أكتب لأمي عن مكان وجودي، لكي تظل صادقة في قسمها حين يطلب منها معرفة أين أقيم. لعلك تتفهم مسالة هي أننا لا نكذب حتى لو تعلق الأمر بحياتنا. هذا هو ديننا، ونريد أن نخضع قلوبنا لتنسجم معه. لم أر بومبونيا منذ أن غادرت منزلها. أما هي فقد أبلغها جار بعيد أنني مازلت حيّة، وفي أمان.

باغتها حنين شديد، فامتلأت عيناها بالدموع لكنها سرعان ما هدأت لتقول:

ـ أعلـم أن بومبونيا مشتاقة إليّ كثيراً، لكننا نملك من العزاء والمواساة ما ليس لدى الآخرين.

فأجاب فينيكوس:

ـ أجل عزاؤكم هو المسيح، لكنني لا أستطيع أن أفهم هذا الأمر.

ـ انظـر الينـا علـى أن لا الم لدينـا ولا معانـاة. وحتـى لـو وجـدا فسيستحيـلان إلى سعادة. أما الموت الـذي تعتبرونه نهايّة للحياة، فهو بدايّـة الحياة بالنسبـة لنا. سعادة من درجة أدنـى، استحالت إلى درجة أعلى. سعـادة مشوبـة بقليل مـن الطمأنينة استحالـت إلى سعادة كلها طمأنينـة، إلى سعـادة أبديّة. تمعن في هـذا الدين الـذي يتطلب منا أن نسامح حتـى أعداءنا، ويحـرم الكذب، وينقّي نفوسنـا من الغضب، ويعدنا، بعد الممات، بسعادة لا حدود لها.

ـ سمعـت كل هـذا في الأستريانوم، ورأيت كيـف عاملتم شيلون. حين أفكر بذلك، أظن أنني في حلم، ولا أجرؤ أن أصدق أذني وعيني. لكن الان أجيبي عن سؤال آخر:

هل أنت سعيدة؟

أجابت ليفيا قائلة:

ـ سعيدة! أنا أؤمن بالمسيح،إذن لا يمكن أن أكون تعيسة، وبائسة.

رمقهـا فينيكوس وكأن مـا تقوله قـد تخطى كل حـد للمفاهيم الانسانيّة.

–الا ترغبين في العودة إلى بومبونيا؟

ـ أحبها من كل قلبي، وأعود اليها إذا شاء الله أن أعود.

ـ إذن افعلي ذلك، وأقسم لك بالهتي أنني لن أرفع يدي عليك.

فكرت ليفيا قليلا ثم قالت:

ـ لا. لن أسبب المخاطر لأحبائي. القيصر لا يحب عائلة بلاوتيوس. وإذا ما عدت... سينتشر النبأ في روما عن طريق الأرقّاء، وتضج به المدينة، حتى يصل إلى نيرون. وسوف يقوم باتهام عائلة أولوس، وسيعمد على الاقل إلى إبعادي عنها من جديد.

أطبق فينيكوس جفنيه موافقا :

ـ حقا قد يحصل ذلك. قد يعمد إلى إبعادك ليفرض مشيئته. صحيح أنه قد نسي أمرك، وربما لم يشأ أن يعير الموضوع أهميّة، لأنه لم ينعكس عليه، بل علي أنا. لكن قد يبعدك عن العائلة ويأتي بك الي. وعندها سأعيدك إلى بمبونيا.

فسالته ليفيا بحزن:

ـ فينيكوس، هل ترغب في رؤيتي مجدّداً في البلاتينوس؟

ضغط الشاب على أسنانه، وأجاب:

ـ لا. الحق معك. حماقة! لا!

وبغته، كأنما شاهد هوة سحيقة تنشق أمامه. كان بترونيوس فينكوس قائدا عسكريا وإنسانا عظيما ذا سطوة، لكن فوق كل ما يتمتع به من عظمة كان ثمة شخص آخر يفوقه عظمة وجنونا بحيث لا يمكن استشفاف إرادته وسوء نواياه مسبقا. المسيحيون وحدهم من كان بمقدورهم الا يخافوه، والا يحسبوا له حسابا، لأن الالم والمعاناة،

وحتى الموت، أمور لا تعني لهم شيئاً. الجميع ما عداهم كانوا يرتعدون منه. صاحب سطوه ونفوذ لا حدود لهما. ونظرا لأن فينيكوس يدرك ذلك تماماً فما كان بوسعه أن يعيد ليفيا إلى أهلها، لكي لا ينصب جام غضب المجنون عليها، وعلى أولوس و بومبونيا وحتى عليه أيضاً. وكذلك قد لا يستطيع أن يتزوج الفتاة للسبب نفسه. الان شعر فينيكوس للمرة الاولى أنه ينبغي على العالم إما أن ينبعث من جديد، ويتغير، وإما أن لا معنى لهذه الحياة بتاتا، بعدأن أدرك أيضاً أنه في هذه الاونة حيث كل شيء زائف ومغلف بالخداع والريبة، لا أحد يعرف طعم السعادة سوى المسيحيين. وتضاعف ألمه حين أحسّ أنه أفسد حياته وحياة ليفيا، و لم يعد ثمة من مخرج أمامه، فنطق تحت تأثير تألّمه:

ـ أتدرين أنك أكثر سعادة مني؟ أنت في فقرك، وفي هذه الغرفة بين الناس البسطاء، كان لك دينك، ولك مسيحك، أما أن فلا أحد لي سواك، وحين أضعتك كنت كالمتسول الذي لا مأوى له ولا لقمة. أنت كنزي الاغلى. بحثت عنك لأني لا أقوى على الحياة بدونك. امتنعت عن المآدب، والنوم. ولولا أملي بأني سأجدك لطعنت نفسي. أخشى الموت فخافة الا أراك، صدقيني إذا ما قلت لك أنني لا أحتمل الحياة بدونك. والامل بلقائك ثانيّة هو ما صان روحي من العطب والتمزق. أتذكرين ما جرى بيننا من أحاديث في منزل أولوس؟ رسمت لي سمكة في الرمال، و لم أدرك ما معنى ذلك. أتذكرين كيف تقاذفنا الكرة؟ حينها كنت قد أحببتك أكثر من حياتي، وقد خالجك الظن بأنني أحبك: جاء أولوس، وأخافنا بليبتنا، وقطع علينا الحديث. قالت بومبونيا لبترونيوس في أثناء الوداع أن الله قدير، ورحيم لكننا لم ندرك أن الهكم المسيح. سأحبه إذا ما أعطانيك. اليس هو اله العبيد، والغرباء، والبؤساء. تجلسين الان بقربي ولا تفكرين الا به. فكري بي أيضاً، فإن لم تفعلي سأكرهه. بالنسبة لي أنت الالوهة الوحيدة. طوبي

لأمك وأبيك، طوبى للأرض التي أنجبتك. أود لو أعانق قدميك، وأصلي متعبدا واهبا نفسي لك. أود لو أنحني أمامك متضرعا : يا ليفياي الالهيّة. أتدرين كم أحبك...

ومرّر راحته يمسح جبينه الشاحب، وأطبق عينيه. لا يقبل الروادع، ولا يقف عندها، لا في الغضب، ولا في الحب. تكلم باندفاع كأنما لا يستطيع السيطرة على نفسه، فلا يحسب حسابا لما يقوله، ولا لما يبديه من مشاعر. لكن ما يتفوه به كان صادقا نابعا من أعماق روحه. واضح أن قلبه كان طافحا بمزيج من الالم والذهول، والرغبة، والتعب، فانفجر الان فيضا منداحا من الكلام. ليفيا رأت في كلامه إهانة، لكن قلبها خفق بشدة حتى ضغط على صدرها تحت الرداء، لم تستطع التغلب على ما انتابها من شفقة تجاه الشاب ودمعاته. لقد حركت مشاعرها هذه الطريقة المحترمة التي تحدث بها الشاب. أحست بحبه لها حتى درجة العبادة، وشعرت أن هذا الشخص الخطير، الشديد البأس بات خاتماً بأصبعها، وصار لها بكليته روحا وجسدا، وأن سعادة ملموسة قد بدأت تشوب ما يتمتع به من سلطان،وما يعتريه من وضاعة. تبخّرت ذكرياتها للحظة، ورجع فينيكوس ليكون في نظرها من جديد، ذلك الشاب الرائع الجميل الأشبه بإله وثني، الذي حدثها عن الحب في بيت عائلة أولوس، وأيقظ قلبها الطفولي من نومه، وما تزال تشعر بقبلته مطبوعة فوق شفتيها، والذي خلصها أرسوس يوم مأدبة القصر، من أحضانه كأنما ينتشلها من الحريق. لقد رأته الآن،بما يبدو عليه من تألم ولهفة، وبجبينه الشاحب، وعينيه المتضرعتين، وبجروحه، وكسوره، وبإحساسه بالانكسار العاطفي، وتواضعه وقبوله الايمان، كما تود وترغب أن تراه، ولقد أحبته من مجامح قلبها، وهو الان أغلى عليها من أي وقت مضى.

وأحست فجأة أنه يمكن أن تجيء اللحظة التي ستعصف بها، وتجعلها تحب ذلك الشاب، فانتابها شعور، كان قد حصل لفينكوس قبلها، أنها تقف على حافة هاويّة. ولكن الهذا غادرت منزل أولوس؟ أهذه هي المنجاة التي بحثت عنها في هروبها؟ ثم من هو فينكوس؟ جندي أوغوستياني لدى نيرون، وأحد رجالات البلاط الذين يشاركون في حفلاته اللا أخلاقيّة، وأكبر دليل على ذلك ما حصل معها في المأدبة الاخيرة، ويؤم المعابد مع الاخرين ليقدم القرابين لالهة موصومة بالعار، قد لا يؤمن بها ولكنه يقدم لها الاحترام. لعله تبع الفتاة ليتخذ منها عبدة، وعشيقة، ويغرقها في عالم قذر من الترف، والخطيئة، والعار، في تحدٍ سافر للسماء. صحيح أنه يبدو الان قد تغيّر، لكنه قال بعظمة لسانه إذا ما أحببت المسيح أكثر منه، فسوف يمقت حتى المسيح. هنا شعرت ليفيا أن مجرد تفكيرها في حب خارج حبها للمسيح يعد خطيئة في حق المسيح وتلامذته. وحين رأت أن قلبها يمكن أن تخالجه مشاعر ورغبات أخرى، استبد بها الجزع.

في هذه اللحظة من التمزق الداخلي جاء كلاوسوس ليعاين المريض ويعتني بضمادة. ارتسمت على وجه فينيكوس علامات غير خفيّة من الغضب وفراغ الصبر. بات عصبيًا لمقاطعة حديثة مع ليفيا، وراح يجيب على أسئلة كلاوسوس بازدراء. وسرعان ما استجمع قواه ليحاكم الامور فإذا ما كانت ليفيا تبني على بعض كلمات سمعها في الأستريانوم، وتظن أن تؤثر في طبيعة الشاب المطواعة، فسوف يحسم أمره الان، ويبتعد عن هذا المعتقد الخاطئ. لقد تغير فيما يخصها فقط. وما عدا هذا الشعور تجاهها فقد بقي هو صاحب القلب الذئبي الروماني الأناني الفج غير المستعد لتقبل التعاليم المسيحيّة الوديعة، ولا حتى للشكر.

أخـيراً انصرفـت ليفيا من جانبه يعتصرها التفكـير والقلق. منذ مدة وجيـزة كانت تصلي، وتمنـح للمسيح قلبها المطمئن النقـي كالبللور. لكن الاطمئنـان استحال إلى قلـق. لقد عاشت الـدودة السامة فسادا في نسـغ الزهـرة، وهي تنخر الان فيها، حتى النـوم لم يمنحها الراحة، رغم أنها لم تعرفه لليلتـين متتاليتين. حلمت أنهم كانوا في الأستريانوم فجاءهـم نيرون على رأس نساء باخوسيات وجنـد ومجالدين، يقتحم بعربته جماهير المسيحيين، ثم تقدم منها فينيكوس وأخذها من ذراعها وأدخلها عربته ووشوشها ضاغطا على صدرها: "تعالي معنا".

٢٧

منــذ ذلك الوقت كان حضورها في الغرفـة نادرا، وإذا ما حضرت كان يندر أن تقترب من سرير فينيكوس. رأته وهو يتابع حركاتها بنظراته المتوسلـة آملا أن تنطق بأيّة كلمة رحيمة تحد من معاناته، دون أن يجرؤ على الشكوى مخافة إجفالها وإعراضها عنه، وهي منبع سعادته، وبلسم جراحه الوحيد. سرعان ما اكتشفت أنها كلما تقربت منه أكثر ستتفاقم شفقتهـا عليه، وانتابتها مشاعر أكثر رقة تجاه الشاب. جافتها السكينة. أحيانـا كانت تواسـي نفسها بأن عليها ان تبقى دائمـا إلى جانبه. أولاً لأن الوصيّة الالهيّة تأمرها أن تقابل السيئة بالحسنة. وثانيا لأن الحديث المباشر معـه قد يشد الشـاب إلى هذه الوصايا. لكـن وجدانها أجابها في الحـال: هذا كله خـداع لآن مـا يشدها إلى فينيكوس ليس سوى سحـر الشاب وحبه. وهكذا ظلت الفتاة تعيش في حيرة وتمزق تفاقما يوما بعد يوم، حتى اعتـادت على حالتها هذه. فكان عليها أن تعترف لنفسهـا أنه كلما مر يوم اشتد شوقها إلى رؤيته، وسماع صوته، وباتت تبذل كثيرا من الجهد حتى تبارح مكانها قرب سريره. حين كانت تدنو فيه، ويتوهج وجه الشاب احمراراً كانت السعادة تغمرها. وذات يوم دمعـت عيناه، وكـم ودت لو تجفف دموعه بقبلاتهـا. لكنها ارتعدت للفكرة، وشعرت أنها تحتقر نفسها، فظلت تبكي طوال الليل.

أمـا الشـاب فكان صبـورا، وكأنه قـد أقسم علـى ألا يفقد قدرته علـى الصـبر. وإذا ما لمعت عينـاه، ذات مرة، تعبيرا عـن فراغ صبره، كان يحـدث ذلك رغما عنه، أو نتيجـة لغضب تملكه. لكن سرعان ما

كان يكبحـه، ويرمق الفتـاة بنظرة وديعة هادئة، كأنمـا يريد أن يعتذر منها. وكان ذلك عامل جذب إضافي نحوه. لم تشعر يوما أنها محبوبة كل هـذا القدر. وحـين كانت تفكر في ذلك كانـت تشعر بالذنب، والسعـادة معـا. واقع الحال أن فينكوس قد تغـيّر. كان يبدو ذلك في محادثاتـه مـع كلاوسوس التي قل فيها التباهـي والتبجح. غالباً ما دار في ذهنـه أن هـذا الطبيب العبد المسكين، الغريـب، و ميريام العجوز التـي اهتمت بعلاجـه، و كريسبوس الـذي رآه يستغرق في الصلاة، هم جميعا في نهايّة المطاف، بشر. ومع مرور الوقت نظر إلى أرسوس بعين الحب، وصار يحدثه دون انقطاع طوال اليوم لأن حديثهما كان يدور حول ليفيا، وكانت جعبة العملاق لا تخلو من الحوادث، فضلا عـن ذلك أن أرسوس كان يقدم خدماته مهما صغرت أو كبرت دون اي تذمر. حتى أنه بدأ يتعلق به. لكن ليفيا كانت في نظر الشاب نوعا مختلفا تماماً، وأرفع مرتبة بكثير من هؤلاء المحيطين به كلهم. ومن الان فصاعـدا بدأ يرى فقراء الناس والبسطاء منهم بعين أكثر جديّة، كما لم يفعـل من ذي قبل. واكتشف فيهم صفات جديرة بالانتباه، لم يخطر له أنها يمكن أن توجد أساساً.

وحده نازاريوس لم يكن مطاقا بالنسبة له، لأنه ظن أن هذا الشاب قد بلغ حدا من الوقاحة والجرأة جعلاه يقع في حب ليفيا. كظم غيظه طويـلاً قبل أن يعـبر عما يعتلـج في نفسه، ولكن حين أقـدم الشاب وأهدى ليفيا شيئاً طار صواب فينكوس واستيقظت فيه بذرة العصبيّة التـي تنظر إلى الشعب الغريب الذي ينتمـي اليه الشاب بعين الخسة، ولا تـراه الا دودة من أتفه أنواع الـدود. وبسماعه ليفيا تشكره على هديتـه، شحب تماماً، وما إن خرج الشـاب ليحضر الماء حتى بادرها بالقول:

ـ كيـف تحتملـين يـا ليفيـا أن يحضر لـك الهدايـا؟ الا تعلمين أن اليونانيين ينعتون أبناء هذا الشعب بالكلاب اليهوديّة؟

ـ لا أدري بماذا ينعته اليونانيون، لكني أعرف أن نازاريوس مسيحي، وهو أخ لي.

أجابـت ليفيـا ورمقته بنظرة استغراب وملامـة، تريد بها أن تقول أنها باتـت تترفع عن مثل هذه الاعتبارات. فيمـا ضغط فينكوس على أسنانـه بدلا من أن يكون في ميسـوره إصدار الاوامر بجلد هذا النوع من الاخوة حتى الموت، أو إرسالهم إلى إحدى قراه في سيسيليا للعمل في الحقول. كبح غيظه و لم يتفوه بكلمة الا بعد حين ليقول:

ـ عفـوا ليفيا ! لكنك في نظري ابنة الملك، والابنة المتبناه لدى عائلة أولوس.

كان قـد استجمع قوة كافيّة مكّنته، فور ظهـور نازاريوس ثانيّة في الغرفة، أن يعده، لمجرد عودته إلى الفيلا، بتقديم طاووسين من مجموعة الطيـور التي تعجّ بهـا حديقته. أدركت ليفيا أن مـا يبديه فينكوس من إنكار للذات، وما يقدمه من تنازلات، إنما يصب في مصلحتها، ويعزز من شعورها بالفوز، لكنه يزيدها تقربا منه، ويجعل قلبها أشد تعلقا به. والحقيقـة كان مـا يوليه فينكوس من اهتمام بأمـر نازاريوس أقل بكثير ممّاقـد تتصـوره ليفيا. إذ كيف يمكن أن يكون ابـن مريام غريما وهو في نظـره لا يتعدى كونه مجرد جـرو صغير، وفي أفضل الاحوال مجرد ولد صغـير، إذا مـا أحب ليفيـا فحب ه لها حب غـير واعٍ، ويندرج تحت عنوان تعلق خادم بسيدته.

كان يمكن أن ينفجر في وجهه، ويقحم نفسه في معركة كبرى، وإن

ضمنيـا، لكنه كف عن ذلك واضعا في الحسبان، باسم المسيح، احترام من هو بينهم. راودته أفكار غريبة شتى. أليس هذا نابعاً من تعاليم تؤمن بهـا ليفيا؟ فهو إذن علـى استعداد لتقبلها. وكلما مـر الوقت وتعافت صحتـه صار يسترجـع شريط الوقائـع ويستجلي مجمل الافـكار التي استجـدت في ذهنه، منذ ليلة الأستريانـوم. راح يتأمل في القوة الفائقة لهـذه التعاليم، ومـدى قدرتها على النفاذ بعمق في الـروح الانسانيّة، وإعـادة تشكيلهـا. أدرك أنها تتضمـن شيئاً استثنائيـاً لم يكن قائماً في العالم من ذي قبل، وشعر أنه فيما لو قدر لهذا المعتقد أن ينتشر في أنحاء المعمـورة، بما يحمله من محبة وسماحـة، فسينفتح الباب أمام عصر، لا يسـود فيه جوبتر. انتصبت أمام فينكوسـس مسالة لا يجد لها حلاً. لقد رأى أن هـذا الدين علـى درجة عاليّة مـن التناقض مع النظـام السائد للأشيـاء، ومن المستحيل تحقيقه على أرض الواقع، وكل ما جاء به خبل بخبل، ويختلف عنه أي دين آخر. وفي رأيه أنه قد يكون البشر في روما أو في سائـر الكون، بشراً سيئين، لكـن نظام العالم صالح. وعلى سبيل المثال، لو كان القيصر رجلاً شريفاً، و لم يكن السيناتور منحطا أخلاقيًّا، وكان المجتمع مجتمعاً إنسانيًّا يعيش فيه بشر حقيقيون مثل تراسي مثلا، فماذا يمكـن أن يطلب أكثر من ذلك؟ فما تنعم به روما من أمن، يجعل الامبراطوريّـة الرومانيّة أمـرا حسنا، وفئات الناس فيهـا مقسمة على نحو سليـم وعادل. على النقيضـ من ذلـك، في رأي فينكوس، يأتي هذا الدين ليحطم كل نظام، ويقضي على كل مكانة أعلى، ويمحو كل فرق. ما الذي سيلحق إذن بنفوذ روما وحكومتها؟ هل يمكن أن يتخلى الرومانيون عن سلطتهم، ويعتبرون الشعوب المغلوبة على قدم المساواة معهـم؟ لم يستوعب ذهنه كل هذا. إلى جانب ذلك، وفيما يخصه هو، يأتـي هذا الدين على عكس كل تصوراته ونظراته وعاداته. لم يكن في ميسوره أن يتصور كيـف ستغدو حياته إذا ما تقبل هذا الدين. خشيه،

نظر اليه بإعجاب، لكنــه طبيعته بكل بساطة ترفضه. في نهايّة المطاف أدرك أن لا شيء يفصله عن ليفيا سوى هذا الدين. وإذا ما فكر بذلك، شعر نحوه ببغض شديد.

لكنــه أيقــن أن هــذا الدين هو الــذي منــح ليفيا كل هــذا الجمال الاستثنائــي، الــذي ول د في قلبه إضافة إلى الحــب، احتراما، وخارج الشهــوة خشوعا، وتــو ج ليفيا، في عينيه، على عرش العا لم. في مثل هــذه الحالة كان يدفعه مزاجه ليحب المسيــح من جديد. كان يشعر أنه إمــا أن يحبــه، أو أن يكرهه، ولا إمكانيّة لموقف حيــادي فيه. في هذه الاثنــاء وكما لو كانت تتجاذبــه موجتان متعاكستــان، كان متأرجحا في أفــكاره، متأرجّحا في أحاسيسه، فاقــداً قدرته على الاختيار، لكنه استجمــع قــوة ذهنيّة، وحسم أمــره وقرّر أن يحترم هــذا الإله، ولو لم يستطع أن يستوعبه. أن يحترمه فقط لأنه كان إله ليفيا.

أمــا ليفيا فقد رأت بجلاء ما يــدور في ذهن الشاب، وكيف ترفض طبيعتــه هذا الديــن. وإن كان ذلــك يحزنها حتى درجــة الموت، فإن شعورهــا بالشفقة، والمواساة، والامتنان كان يفعل فعله في قلب الفتاة، ليغــدو ميّالاً بقوّة لا تقهر نحو الشاب لمــا يبديه من احترام ضمني تجاه المسيح. تذكر بومبونيا و أولوس. بالنسبة لبومبونيا كان وجعها الابدي، ومنبع دموعها الثر الذي لا يجف، فكرة أنها لن تلقى أولوس بعد مماته ودفنــه. لم تدرك ليفيا جيــدا إلا الان، هذه المرارة، وهذا الألم. هي التي عثرت علــى من أحبتها ورعتهــا، وباتت مهددة بالانفصــال عنها إلى الابــد. أحيانا كانت تمن ي نفسها بأن فينكوس سيفتح قلبه أمام حقيقة المسيــح. لكن شعورها هــذا لم يكن ليدوم طويلاً. لقــد صارت تعرفه وتفهمــه جيدا. فينكوس ومسيحي ا مستحيل. لم تستوعب ذلك. فإن كان حتــى أولوس الرزين التفكير، لم يصبــح كذلك بتأثير من بومبونيا

الحاذقـة والناضجة، كيف لفينكوس أن يغـدو مسيحيا؟ لا إجابة على ذلـك. بل ثمة جواب وحيـد لا غير: لا أمل هنالـك لكن ولا مهرب كذلك.

لكـن ما كان يذهل ليفيـا أن كل ما أقدم عليه الشاب لالحاق الاذى بها، صـار لا يعنيها، وباتـت الشفقة هي دافعها الاساسـي للتعلق به. أحيانا كانت الرغبة تدفعها لتبوح له بصدق عن مستقبلها القاتم، وحين ذات مـرة جلست إلى جانبه قالت له لا حياة خـارج الدين المسيحي، فعـدل الشاب مـن اضطجاعـه علـى مرفقـه السليم، ومائـلاً برأسه نحوحضـن الفتاة وقـال: "أنت الحياة". شهقت ليفيـا وطار صوابها، وارتعشـت أوصالها طرباً لسماع ذلـك. أمسكت رأس الشاب بكلتا يديهمـا وحاولت رفعها، واضطرت أن تنحني و تقترب منه أكثر حتى لامسـت شفتاهـا شعر الشـاب، فشعرا للحظة بنشـوة الحب الذي لا ينفك يمارس معها لعبة الوصال والفصال.

وأخـيراً نهضت ليفيا هاربة، بعد أن شعرت بدوار في الرأس، وبنار تسـري في أوصالها. لكن ذلـك كان القطرة التي طفحت بها الكأس. لم يكـن فينكوس يقـدّر كم ستكلفه هـذه اللحظة السعيـدة، من ثمن باهـظ، وأحسّـت ليفيا أنها في حاجـة إلى عون. أمضـت الليلة التالية ساهرة مصلّية باكية، لكنها شعرت أنها غير جديرة بالصلاة، وصلاتها غير مستجابة. وفي الصبـاح الباكر خرجت من غرفة النوم واستدعت كريسبوس إلى الحديقة. وباحت له بكل دواخلها. وسألته أن يسمح لها بمغادرة منـزل مريام لأنها باتت لا تثق بنفسها، ولا تقوى على مقاومة حـب فينكوس في قلبها. كان كريسبوس عجوزاً صارماً يعيش حماسا دينيـا لا هـوادة فيه. فاستحسن عزم ليفيا مغـادرة منزل مريام، لكنه لا يعـثر على كلمات يفصح بها للفتاة عن هذا الحب الآثم حسب تعبيره.

انقبض قلبه، وأحزنته الفكرة: ليفيا هذه وهي التي عهد على رعايتها، هي التي أحبها وغرس في صدرها قوة الايمان، والتي نظر اليها كوردة أزهرت فوق تربه المعتقد المسيحي، وفاحت عطرا لم يلوث بأيّة نفحة أرضيّة، هي ذي الان تفتح صدرها لحب آخر غير الحب السماوي، ليجد مكانا له في قلبها. قبل الآن لم يكن ليظن أن ثمة قلبا في العالم أكثر نقاء وإخلاصا في تمجيد المسيح من قلبها. لقد رغبت أن تمنحه إياه كحبة لؤلؤ، أو حلية، أو تحفة ثمينة من صنع يديها. والان يا للخيبة، لقد أصيب بالذهول وطفح قلبه بالمرارة حقًا.

ـ اذهبي وتضرعي إلى الله أن يصفح عن خطاياك قال بكدر ـ اهربي قبل أن تتمكن الروح الخبيثة التي أوقعتك بشباكها من تدميرك تماماً، وجعلك تجحدين بالمخلّص. لأجلك مات الرب على خشبة الصليب، ولأجل خلاص روحلك نذر دمه، لكنك مقابل ذلك فضلت حبيبك الذي أراد أن يجعلك ضجيعته. لقد أنقذك الله بأعجوبة من بين يديه، لكنك فتحت قلبك وسيعا أمام الرغبة القذرة، وأحببت ابن القتامة والظلام. من عساه يكون؟ إنه صديق عدو المسيح وخادمه، وشريكه في الشر والمروق، والانحلال. أين سيأخذك إن لم يكن إلى تلك الهوة السديميّة حيث يعيش، والتي سيحرقها الرب بنار غضبه؟ أما أنا فأقول: لو أنك مت، وتهدّمت جدران البيت على رأسك، ولا تسلّلت تلك الأفعى إلى صدرك، ونفثت فيه سم رذيلتها.

ثم هدأ شيئاً فشيئاً، لأن الإثم الذي ارتكبته ليفيا لم يملأه غيظا وغضبا فحسب، بل شحنه بكل الوان القرف والاحتقار، ليصب كل ذلك دفعة واحدة في مواجهة الطبيعة الانسانيّة، والانثويّة منها على وجه الخصوص. لا فائدة مرجوّة. حتى التعاليم المسيحيّة لم تحفظ هذه المرأة من كونها حواء.

لقد شعرت ليفيا أنها مذنبة، لكن ليس لدرجة الاثم. لا بل أكثر من ذلك فقد اعتقـدت أنها بمغادرتها المنزل سوف تتغلب على ما يؤرّقها، وتخفف من ذنبها، وأن العجوز كريسبوس، الذي اعتبرته بعد هروبها بمقام أبيهـا، سوف يكون رحيمًا ويشجّعها ويشدّ من أزرها، ويفعمها بالروح.

قال:

ـ أسلـم خيبتي وألمي إلى الله. أما أنت فقـد خذلت المخلّص، لأنك لوّثـت روحـك بوقوعك في الخطيئة. كان بوسعـك أن تهبي نفسك، كوعـاء ثمين، للمسيح قائلة: "املأه يا سيدي بالرحمة"! لكنك فضلت أن تقدمـي نفسـك خادمـا للروح الشريـرة. سامحـك الله وشفع لك: أمـا أنا، و إلى أن تطـردي الافعى من داخلك، أنـت بنظري جاحدة. لكنه قطع كلامـه، وقد لاحظ أنهما ليسا وحيدين. برز رجلان من بين الفروع أحدهما الحـواريّ بطرس، أما الاخر فلم يتميز في الحال، لأن قبعة ردائه كانت تخفي جانبا من وجهه. للوهلة الأولى ظنّ كريسبوس أنه شيلون.

وبسماعهمـا صوت كريسبوس المرتفع ابتعـدا قليلا، وجلسا فوق مقعد حجري. ولما كشـف الاخر عن وجهه النحيل، ورأسه الاصلع، وشعـره المجعد الذي يغطي فوديه، وعينيه الحمراوين، وأنفه المعقوف، عرف كريسبوس أنها ملامح بولس الترسوسي.

جثـت ليفيا على ركبتها، وارتمـت على قدمي بطرس لا تدري ماذا تفعل.

بادر بطرس إلى القول:

ـ السلام لأرواحكم.

وحـين رأى الطفلة بين قدميـه سألها ما الأمـر؟ فأجابه كريسبوس شارحـا له ما باحت به ليفيا، عن حبها الاثـم، وأنها تريد مغادرة بيت ميريام. وأوضح لـه مقدار الالم الذي الحقته به، لأن روحها قد تخلت عـن المسيح، وتبعت رجـلا لطّخ نفسه بمشاعـر أرضيّة، وارتكب كل انواع الشرور التي يفرق فيها العالم الهمجي، فاستحق غضب السماء. كلما أسهب كريسبوس في كلامه، تمسكت ليفيا على نحو أشد بقدمي الحـواريّ كأنما تبحث فيهما عن منجاتها. أو عـل الاقل تلتمس لديها شيئاً من الرحمة.

وبعد أن استمع الحواريّ إلى كل ما قاله كريسبوس، مسح بيده على رأس الفتاة، ثم التفت إلى القس العجوز وقال:

ـ الم تسمـع يـا كريسبوس أن معلّمنا الحبيب قـد بارك حب الرجل والمرأة.

اكتفـى كريسبوس بالنظر إلى محدّثـه، دون أن ينبـس بكلمة. فيما استأنف الحواريّ يقول بعد صمت قصير:

ـ هـل تزعم يا كريسبوس أن المسيح الذي سمح لمـريم المجدليّة أن تركـع عند قدميه، وصفـح عن المرأة الخاطئة، سـوف يتخلى عن هذه الطفلة الأنقى من نرجسة الحقول.

انتحبت ليفيا وزادت من شدة التصاقها بقدمي بطرس، وقد أيقنت من جدوى لجوئها اليه. فيما رفع الحواريّ وجه الفتاة الغارق بالدموع وخاطبها قائلاً :

ـ إلى أن يتكشف نور الحقيقة أمام عيني حبيبك، ظلّي معه، شرط ألا يوقعك في الخطيئة، لكن صلّي من أجله، واعلمي أن لا إثم في الحب أبداً أبداً. وأن جزاءك مأمول ما دمت ترغبين في مقاومة الأرواح الشريرة. لا تحزني، ولا تبكي، لأنني واثق أن رحمة المخلّص لن تفارقك، وأن صلواتك مستجابة، وأن الاتراح ستنفرج عن أيام البهجة والافراح.

بهذا وضع كلتا راحتيه على رأس الفتاة، وباركها رافعا عينيه نحو السماء، وقد شعت من وجهه طيبة تتجاوز الأرض فيما حاول كريسبوس وقد شعر بالانكسار أن ينقذ نفسه قائلاً :

ـ ظننت أنها بسماحها للحب الأرضي بارتياد قلبها قد خالفت المسيح...

لكن رد الحواريّ كان على هذا النحو:

ـ أنا خالفته ثلاث مرات، ورغم ذلك صفح لي، لا بل أوكل إلي العناية بحملانه.

فقال كريسبوس :

ـ وهناك سبب آخر... هو أن فينكوس أوغستيني.

فأجاب بطرس:

ـ لقد روّض المسيح أشد الافئدة قساوة. هنا جاء دور بولس الترسوسي الذي لزم الصمت إلى الآن. أشار بأصابعه إلى صدره وقال:

ـ أنا الذي طاردت العبيد أتباع المسيح، وجلدتهم حتى الموت. وكنت ثقة السيد، فأوكل الي نشر عدالته في أنحاء الأرض. ولقد

نشرتهـا: في يوديا، وبلاد الإغريق، وفي الجـزر، وحتى في هذه المدينة الملحـدة حين عشت فيها أسيرا. والان حين دعـاني بطرس وهو قدوة لي، لأدخـل هذا البيت وأحني هذا الرأسـ الفخور بين قدمي المسيح، وأغرسـ البذرة في هـذه التربة الحجريّة التـي يحوّلها السيـد إلى تربة خصبـة تعج بالثمار. ثـم نهض واقفا. أما كريسبوسـ في هذه اللحظة فقد رأى هذا الانسان المحدود الضئيل الجسد كما هو في حقيقة الأمر، ذلك العملاق الذي يحرك العالم ويخضع شعوبا وبلدانا.

٢٨

من بترونيوس إلى فينكوس.

رفقاً بي لا تقلّد في رسائلك الاسبارطيين، ولا يوليوس قيصر. وعلى الأقل إن كان بمقدورك أن تكتب ما كتبه هو: "أتيت، رأيت، فزت" فسوف يتسنى لي أن أفهم مثل هذه العبارة المختصرة. لكن رسالتك لا تعني في النتيجة الا"أتيت، رأيت، هربت". وبما أن ذلك يتعارض من طبيعتك، وبما أنك جريح، وهذا يعني أن أمورا خطيرة قد حدثت لك، فإن رسالتك في حاجة ماسة إلى مزيد من التوضيح. لم أصدق عيني حين قرأت أن ذلك الليغوي قد قضى على كروتون بمثل تلك البساطة. وهذا يعني أنه يساوي وزنه ذهبا. وأن يكون من رجالات القيصر المفضلين، ذلك بات أمرا يعود إلى مجرد رغبته هو في ذلك. لمجرد عودتي إلى المدينة سأتعرف اليه عن كثب، وسأسبك له تمثالا من البرونز. وسوف يندهش صاحب اللحيّة الحمراء إذا ما قلت له أن التمثال طبق الاصل عنه. في إيطاليا، واليونان نادرة هي الاجسام الرياضيّة الحقة. وكذلك في الشرق. أما الجرمانيون فيتميزون بكتلهم الضخمة، لا بقوتهم العضليّة. اسال الليغوي إذا ما كان هو استثناء، أم يكثر أمثاله في بلاده، فقد يخطر لنا ذات يوم أن ننظم مباريات نحتاج فيها إلى أنسب الرجال أجساما.

لكن حمدا لكل الالهة الشرقيين والغربيين، أنك قد نجوت روحا وجسدا من بين تلك الأيادي. وسبب نجاتك عائد إلى كونك من

الاعيان، ومـن عائلة بترونيوس. كل ما حدث معـك أذهلني، بدءا من وجـودك في المقبرة مع المسيحيين، ثم طريقـة معاملتهم لك، وهروب ليفيـا، وأخيرا الحزن والقلق المبثوتين في رسالتك. أوضح لي أكثر، لأن هنالـك أمورا كثيرة لم أفهمها. وإن كنت تريـد أن أكون صادقا فأنا لا أفهـم المسيحيـين، ولا أفهمك أنت ولا أفهم ليفيـا. ولا تستغرب مني انـا الـذي لا أكترث خارج نفسـي إلا بما ندر في هذا العـالم أنني كثير الفضـول الآن. لقد أثارني كل ما حصل، وهـو إذن بدرجة ما يعنيني. اكتـب سريعا، لأننـي لا أدري متى سنلتقي على وجـه الدقة. صاحب اللحيّة الحمراء الان في بنفنتوم، وهو راغب أن يتوجه من هناك قاصدا بـلاد اليونـان، وليس العـودة إلى روما. رغـم أن تيفالينوسـ يشير اليه بالعـودة، لأن الشعب بات في شوق شديد اليـه اقرأ: جريا وراء العاب السـيرك والخبز، كما بات قادرا على البدء بأعمال الشغب. لا أدري ما الـذي سيحصل. قد نذهب إلى مصر. يخطـر لي أن أحثّك على القدوم إلينـا لترفه عـن نفسك، لكني أخشى أن لا تلحـق وتجدنا هنا. لكن في جميـع الأحوال اليس الأفضل لـك أن تقصد أملاكك في سيسيليا بدلاً من بقائـك الآن في روما. اكتب عن أحوالك بالتفصيل. كانت السماء معـك. أتمنى لك صحة جيدة ولا شـيء آخر لأني، وقسما ببولوكس لا أدري ماذا يسعني أن أتمنى لك.

قـرأ فينكوس الرسالة، و لم يكـن في نيته الرد بادئ الأمر. شعر بعدم جـدوى ذلك، إذ لا فائـدة لأحد من رده عليها، مـادام الرد لن يوضح شيئـاً، ولن يحل أمراُ. كان عكر المزاج، وشعر أن الحياة بائسة بأكملها. وأحس أن بترونيوس لا يفهمه بأي شكل من الاشكال، وأن شيئاً ما قد حصل وفرقهما عن بعض. حتى أنه لم يستطيع استجماع نفسه. وسرعان مـا أحس أنه يعيش في دائرة مفرغـة، وأن كل ما أعطى لحياته معنى من المعاني كان شيئاً خرافيا لا وجود له. كأنما قطعت في روحه تلك الاوتار

التي شدته إلى الحياة، و لم تعوض بأخرى. فكرة سفره إلى بنغنتوم ولّدت في نفســه لذة جيدة في الحياة، لكنها أيقظــت فيه خواء عاماً. "لماذا؟ ما الفائدة المرجــوة من كل ذلك"؟ أسئلة لمعت في ذهنه لأول مرة. ولأول مــرة كذلك فكر أن حديثــه مع بترونيوس قد يرهقه كثــيرا، لما يتمتع به الأخير من دقة وعجرفة في البحــث عن العبارات. لكن الوحدة بدأت ترهقه كذلك، بعــد أن صار كل معارفه برفقة القيصر في بنغنتوم، الأمر الذي أرغمه على البقــاء وحيدًا،يعجّ رأسه بالافكار، وقلبه بشتى أنواع الاحاسيس التــي لا يفهمها. ولكن مرت لحظات كان يشعر فيها أنه لو تحــدث مع أحد ما بما يعتمل في نفسه لــكان توصل إلى فهم لهواجسه، والتعرّف بــما يصطرع في داخله على نحو أفضل. تفاؤل دفعه بعد أيام من الجدل الذاتــي أن يتخذ قرارا بالكتابة إلى بترونيوس. ورغم كونه لم يكن واثقا أنه سوف يرسلها، الا انه قام بكتابتها على هذا النحو:

"أراك راغبــا في أن أسهب لك بالكتابة. لا بأس إذن: لكن لا أدري إن كان بمقــدوري أن أكــون مفهومــا، لأن أمورا كثــيرة أنا نفسي لا أفهمهــا. كنت قد كتبت لك أنني كنت بين المسيحيين، وكيف عاملوني وعاملوا شيلــون. وكيف عالجوني واعتنوا بــي بقلوبهم الطيبة. وكتب لــك عن اختفــاء ليفيا. لا يا عزيــزي، لم يخصوني برعايتهــم لأنني من الاعيان. هم لا يقيمون اعتبارا لمثل ذلك. خاصة وأنهم قد صفحوا عن شيلــون أيضاً، رغم أنه كان بمقدورهــم أن يدفنوه في الحديقة. إنهم بشر لم يسبــق أن وجــد أمثالهم في العالم. وكذلك دينهــم لم يسمع به العالم مــن قبــل. ليس بوسعي أن أقول لــك شيئاً آخر. فــإذا كان أحد ما يريد أن يحكــم عليهــم بمقاييسنا سوف يخطئ هدفه. سأقــول لك شيئاً: لو أني عالجــت ذراعي المكسورة في منزلي بين أفراد عائلتي لكنت شعرت براحــة أكبر، لكني لما كنت تلقيــت تلك العنايّة الفائقة التي أولوني إياها وأنا بينهم. واعلم أيضــاً أن ليفيا كالاخرين. لو كانت أختي أو زوجتي

لمـا قدمتا لي كل هذا الحنان. غالباً ما يفيض قلبي بالسعادة حين أفكر أن كل هـذا الحنان ناجم عن حالة الحب. وغالباً ما قرأت ذلك في وجهها وسيمائها، وحينئذ تتضاعـف سعادتي عن أي وقت آخر، وأنا في هذه الغرفة الفقيرة التي تحتوي على المطبخ أيضاً. لا. لا لم أكن حياديا بالنسبة لها، واليوم كذلك أشعر أن من المستحيل أن أفكر على نحو آخر. ورغم ذلك فإن ليفيـا نفسها غادرت منزل ميريام ولا أدري عنها شيئاً. والان أجلسـ أياما بطولها دافنا رأسي بين راحتي، أفكر لم أقدمت على فعلها هذا؟ لعلي كتبت لـك أنني عرضت عليها أن أعيدها إلى عائلة أولوس، ولكنهـا أجابت بـأن ذلك مستحيل، خاصـة وأن العائلـة سافرت إلى سيسيليـا، إضافة إلى سبب آخر ،هو أن نبـأ عودتي سينتشر من بيت إلى آخـر على السنة الأرقّاء، حتى يصـل إلى البالاتينوس، وقد يقدم القيصر على استدعائها من جديد من منزل أولوس. هذا صحيح. لم تكن لتقبل ذلـك، ولذلك كانت ستبقى في منزلي بنـاء على رغبتي. لكنها هربت. لماذا هربت؟ رغـم أن لا شيء كان يهددها؟ لو لم تكن تحبني لرفضتني. تعرفت على شخص غريب يدعى بولس الترسوسي،حدثني عن المسيح وتعاليمـه، وشعرت أن كلماته تهـز كل أساس في عالمنا، وتقوم بتفتيته. الشخصـ زارني بعد اختفـاء ليفيا وقال لي :" إذا مـن الله عليك، وفتح عينيك للنور، وأزال عنهـا الغشاوة كما فعل معي فستشعر فيما بعد أن ليفيـا سلكت سلوكا حسنـا وقد تلتقيها ثانيّة ". ومنـذ ذلك الحين وأنا أفكر بمغزى هذه الكلمات، وكأني أسمعها من عرافة أبولو التي لا تجيب قاصديهـا الا بردود غبشيّة، غائمة. أشعر أحيانا أنني بت أفهم شيئاً ما. إنهم يحبـون البشر، وبالتالي فهم أعداء لحياتنا، والهتنا، ولشرورنا. إذن فهـي قد هربت مني لأني أنتمي إلى هذا العا لم، ولأنها كانت ستشاطرني حياة يعتبرها المسيحيون آثمة. أنت ستقول لي كان بوسعها أن ترفضني دون أن تضطـر للهـروب. لكن لعلهـا تحبني. وقد هربـت من حبها.

لهـذا السبب الوحيد يخطـر لي ان أنشر أرقائـي في كل شبر من روما، وينادون"تعـالي يا ليفيا".لكني بـتّ لا أفهم لماذا هربت، خاصة وأني لم أمنعهـا من حريّـة اعتقادها بالمسيح. فما الأذيّـة التي يمكن أن تلحق بي مـن إله جديـد، و لم لا أؤمن به أنـا الذي بت لا أؤمـن بالالهة القديمة؟ أدرك جيـدا أن المسيحيـين لا يكذبون، ويؤمنون بقيامـة المسيح. ليس بوسع إنسـان أن يفعل ذلك. بولس الترسوسـي، وهو مواطن روماني، لكنـه يهودي لديه كتب عبريّـة قديمة، يقول: إن قدوم المسيح قد بشّرت بـه الأنبياء منذ الاف السنين. كل هذا يندرج في إطار الامور الاستثنائيّة الخارقـة. لكن اليس هنالـك يا ترى كثير من الامور الخارقة تحيط بنا من كل جانب؟ معجزات أبولو مثلا. ما يقوله بولس من أنه لا وجود لحشد مـن الالهة، بل لالـه واحد فقط، فكرة أجدها ذكيّـة. أظن أن سينكا له رأي مشابـه، وقبله كثيرون. لقد ظهـر المسيح، وقام بصلب نفسه لكي يخلص العالم، ثم قام من موته. كل ذلك مؤكد، ولا أدري سببا لتشبثي بما يخالف ذلك من آراء. بت لا أجد ضيراً في رفضي لبقيّة الالهة، التي بات لا يؤمن بها عقل راجح. لكني أعتقد أن المسيحيين لا يجدون ذلك كافيا. لا يكفي بالنسبة اليهم تبجيل المسيح، وإنما عليهم أن يعيشوا تبعا لتعاليمـه. أنت تدري كم أحب ليفيا، وأننـي أفعل أي شيء من أجلها. لسـت فيلسوفا، لكنـي لست بتلك الحماقة التي ظننتنـي بها أحيانا. لا أدري مـا الذي يفعلـه المسيحيون ليتمكنوا من ممارسـة حياتهم، لكني أعـرف بالمقابل أنه حيث يبـدأ دينهم، تكون نهايّة السيـادة الرومانيّة، ورومـا، وفكرة الغالبين والمغلوبين، والاغنيـاء والفقراء، والفوارق بين الاسيـاد و أرقائهم. حيث يبـدأ دينهم، تكون نهايّـة القيصر، والقانون. وكافـة أنظمة العـالم، ليحل محلها المسيح، وتعـم الرحمة والخير كما لم يحصل مـن قبل. الحق أقول: إن ليفيا تعنيني أكـثر ما تعنيني سائر روما وسلطانها، فليفنَ العالم مقابل أن أجدها هنا في منزلي. لكن هذه مسالة

أخـرى. لا يكفي المسيحيين أننا نتفـق بالاقوال، يجب أن نشعر معا أن الامـور حسنة، وهم يشترطون أن قلوبنـا لا يشغلها شاغل آخر. لكني الالهـة تشهد علـي لا أحتمل. أتفهـم ما أعنيه! ثمة شـيء في طبيعتي، يجفـل من هذا الديـن، وإذا ما كان لساني يقوم بتمجيـده، وصرت أنا متأقلمـا مـع أوامره، لكن عقلـي وروحي يقولان أننـي أفعل ذلك من أجـل حبيبتـي ليفيا، ولو لم تكن في حياتي سأجـدني أبعد ما يكون عن ذلك الدين. والغريب أن بولس الترسوسي يفهم ذلك، وكذلك بطرس رغم بساطته، وأصله المتواضع، وحتى ثيورغوس العجوز أكبرهم سنًا، الـذي كان واحداً من تلامذة المسيح. كلهم يفهمون ذلك. أتدري ماذا يفعلـون؟ يصلّون من أجلـي راجين لي ما يسمونـه الرحمة. ولكني لا أعـرف الا القلق وشدة الشـوق إلى ليفيا. كتبت لك أنها غادرت المنزل في الخفاء، لكنها تركت لي صليبا وجدته حين استيقظت قرب سريري. وهو الان معي. كم أحب هذا الصليب لأنها نسجته بيديها، وكم أكرهه لأن فـرق بيننا. كثرا ما أظن أن فيه سحـرًا وأن بطرس الذي يعتبر نفسه صيادا بسيطا هو أعظم من أبولو، و أي أحد آخر قبله. وأنه فتن الجميع هنا، ليفيا، وبومبونيا، وفتنني كذلك معهم.

تقـول لي أن رسالتي مشبعة بالقلق، والحـزن. أما عن الحزن فمنبعه أننـي فقدتها ثانيّة. أما القلق فنابع من أن شيئاً ما قد تغير في. الحق أقول أن لا شـيء يتناقض مع طبيعتـي أكثر من هذا الديـن، ومع ذلك، فإني منـذ أن التقيتها لا أعرف نفسي. فتنـة أم حب؟ سيرس يغير جسد المرء لمجرد ملامستـه، لكنهم غيّروا لي روحي، و ليفيا هي التي فعلت ذلك بالدرجة الاولى، والأصح ليفيا و دينها. حين غادرتهم عائدا إلى منزلي، لم يتوقع أحد رجوعي. ظنوا أنني في بنفنتوم، وأنني لن أعود إلى المنزل بسرعة. كانت الفوضى تعم المنزل، وكان الأرقّاء ثملين قد أقاموا مأدبة لأنفسهم. كانوا يفضلون انتظار الموت وليس عودتي، ولو كان الموت

لا يخيفهم كما أخيفهم. تعلم مدى صرامتي في إدارة المنزل. فبادر الجميع إلى الركوع أمامي، ومنهم من تقيأ من شدة جزعه. أتعلم ماذا فعلت؟ للوهلة الاولى أردت أن يأتوني بالسوط، والحديد المحمى، لكني سرعان ما شعرت بالخجل. وصدق أو لا تصدق، لقد شفقت على بؤسهم. بينهم أرقاء عجزة جلبهم جدي في عهد أوغستوس من شاطئ راينا. خلوت بنفسي في المكتبة، حيث راودتني هناك أفكار شديدة الغرابة، مفادها وتبعا لما سمعته، ورأيته بين المسيحيين، أن التعامل بقسوة مع الأرقّاء فكرة غير مقبولة ولا يجدر بي أن أقوم بعقابهم. ظلّوا على أعصابهم ليومين ظنوا خلالهما أنني ترثيت في الأمر، لكي أوقع بهم أقسى العقوبات. لكن الحقيقة أنني لم أحتمل ذلك. في اليوم الثالث دعوت الجميع وقلت لهم:"لقد صفحت عنكم، وأنتم فعلتم ما بوسعكم لتخلصوا في خدمتي تكفيرا عن ذنوبكم". ركع الجميع، يبكون، باسطين الايادي نحوي يدعونني"سيدنا، أبانا". أعترف لك بكل حياء، أن مشاعري قد ازدادت ليونة، وحساسيّة. شعرت في هذا اللحظة أنني أرى وجه ليفيا السمح، وقد امتلأت عيناها بالدموع تشكرني على فعلي هذا مناديّة"يا للروعة"! ودمعت عيناي. سأبوح لك بشيء آخر. لا أقوى على الحياة بدونها، وأنا تعيس في وحدتي، وأكثر حزنا ممّاتتصور. أما عن الأرقّاء، بعد صفحي عنهم، فقد بات ما يشغلهم، إضافة إلى تسابقهم في القيام بالخدمات على أكمل صورة، أن يكتشفوا ما في داخلي من أفكار. أذكر لك ذلك، لأنه في اليوم السابق لمغادرتي المسيحيين قال لي بولس:"المحبة أقوى تعويذة ضد الخوف". أراها الان فكرة صائبة في كثير من الحالات. ولقد تأكدت من ذلك حين جاءني أرقائي يطمئنون علي بعد معرفتهم بقدومي. حين وقعت عيناي على أولئك الجياع شعرت بالشفقة مرة أخرى. قدمت لهم الطعام، وحادثتهم، وخاطبت بعضا منهم باسمه، وسالت آخرين

عــن زوجاتهم وأطفالهم، ورأيت الدمــوع في أعين الجميع، وشعرت من جديــد أنني أرى وجه ليفيا طافحا بالسعــادة، يثني على فعلتي. لا أدري إن كان عقلي يتفتق، أم أن الحب هو الذي يخلط علي مشاعري. كل ما اعرفه أن ليفيا تراقبني عن بعد، فلا أقوى على فعل أي شيء أظن أنــه يجرحها أو يوقع الحزن في نفسها. لقد تمكنوا من التأثير في روحي ويسعــدني ذلك أحيانــاً، لكن أحياناً تؤرقني فكــرة أنهم قد سلبوا مني شجاعتــي السابقة، وطاقتي القديمة، وبت عاجــزاً ليس فقط عن تقبل المناقشــة وإبــداء الرأي، وحضور المآدب، بل عــن المشاركة في الحرب كذلك ولقد غيروا في الكثير، سأقول لك ما خطر لي حين كنت مريضا هناك، لــو كانت ليفيا مثل نيجيديا و بوبيــا و كريسبنيلا، وغيرهن من النســاء المطلقات، ولــو كانت بهذه القــذارة، والسهولة اللتين يتحلين بهمــا، لما كنت أحببتها كما أحبها. لكــن لو كنت أحبها للسبب نفسه الــذي يفرقنــي عنها، فلك أن تتصور أي عمــاء يدهم روحي، وفي أي ظلمــة أحيا، وكم ثمة مــن الدروب الواضحة التــي لا أبصرها أمامي، وكيــف أني لا أدرك ما الذي علي أن أقبض عليــه. وإذا ما شبهنا الحياة بالنبــع، فإن نبعي ينبثق منه القلق بدلا من المــاء. أعيش على أمل العثور عليهــا، وأن ذلك لا بد أن يحدث. لكن ما الذي سيحصل لي بعد عام أو عامــين، فلا أدري، ولا يمكن لي حتــى أن أتصوره. لن أغادر روما. لا أقــوى على احتمال أصحابــي الاوغستينيين. فكرة وحيدة تنأى بي عــن قلقي وحزني، وهي ان ليفيا قريبة مني، وأنني قد أعرف شيئاً عنها إن كان عــن طريــق الطبيب كلاوسوس الذي وعــد أن يزورني، أو عن طريق بولس الترسوسي. لا. لا. لن أغادر روما حتى لو وعدوني بحكم مصــر. واعلم أيضاً أنني طلبت إلى النحات أن ينحت شاهدة لقبر غولو بعد أن قمت بقتله بلحظة غضب. خطر لي لاحقا أنه كان يحملني بين ذراعيه، وأنه هو أول من علمني كيف أضع السهم في القوس. لا أدري

لم استفاقــت في ذكــراه الان. كأن الذكرى نــدم، أو تبكيت ضمير...
إذا كنت مندهشــا فاعلم أنني أكثر اندهاشا منك، لكني أكتب ما أكتبه
صادقا. كانت السماء معك.

٢٩

لم يتلـق فينكوس ردًّا على رسالتـه. لم يكتب بترونيوس لأن القيصر قد يأمر في أيّة لحظة، بالعودة إلى روما. انتشر هذا النبأ في أنحاء المدينة، وأيقـظ في نفوس العامـة بهجـة لا توصـف، لكونهم باتـوا في غايّة الشوق لالعاب السيرك والمنازلات، وتوزيع القمح، والزيت المختزنين بكميـات كبـيرة في الصوامـع والمستودعـات. وأخيرًا أعلـن هليوس معتـوق القيصر، في السيناتوس أن القيصر عائد إلى الوطن. لكن السفن التي تقل القيصر وحاشيته تباطأت في العودة، لأنهم عند نقطة ميسنوم كانوا يتوقفون في المدن على طول الشاطئ الساحلي، إما لاتخاذ قسط مـن الراحة، أو ليؤم القيصر المسـارح هناك. ولقد أمضى عشرة أيام في مينتوريـا يغني أمام الجمهور، حتى أنه كان يفكـر بعدم المرور ثانيّة في نابولي ، كيلا يفوته موسم الربيع الحار، الذي حل هناك أبكر من المعتاد. في أثناء ذلك، وطوال تلك المـدة، اعتزل فينيكوس بنفسه داخل منزله يفكر بليفيا تحت وطأة أفكار جديدة شتى تراوده وتضغط على روحه، مولّدة في داخله لأول مـرة أنواعاً من الأحاسيس والمفاهيم الغريبة. لم يكن يلتقي أحـداً في بعض الأوقات سوى الطبيب كلاوسيوس، الذي كان يحقـق لـه بحديثه عن ليفيا كلمـا التقاه سعـادة لا تلبث أن تزول بانصرافـه. لا يعـرف كلاوسوس أيـن عثرت ليفيا على مخبـأ لها، لكنه طمـأن فينكوس أنهـا في أحضان أشخاص مسيحيـين يولونها الرعايّة الكافيّـة. وذات مناسبة قال لفينكوس متأثرا بما ينتابه من الحزن الشديد أن بطرس أنّب كريسبوس لأنه عاتب ليفيا محتقرا حبها الأرضي. تحمس

فينكوس بسماعه هذه العبارات من شخص غريب، ومسيحي، وأراد في هذه اللحظة أن يهرع إلى بطرس يقدم له امتنانه، وحين علم أنه ليس في المدينة، وإنما يقيم في أطرافها ينشر التعاليم، توسّل إلى كلاوسوس ليأخذه اليه، ووعده بأن يقدم العطايا الكثيرة للفقراء. وكان يظن أيضاً، إذا ما كانت ليفيا تحبه، فلا عائق أمامهما، فمن جهته كان على استعداد في ايّة لحظة أن يتقدم باحترامه للمسيح. لكن كلاوسوس في سعيه وراء فينكوس ليعتنق المسيحيّة، لم يجرؤ أن يعده بمكافأة حصوله، بعد ذلك مباشرة، على ليفيا. وأوضح له أن الرغبة في اعتناق المسيحيّة بغيتها محبة المسيح، والمسيحيّة ذاتها، ودون أي شيء آخر وقال: "من الضروري أن تكون روح الانسان كذلك مسيحيّة". اغتاظ فينكوس، لكنه هدأ بعد أن أدرك أن كلاوسوس يتكلم كما ينبغي عليه أن يتكلم كمسيحي، وبعد أن أيقن أن تغيرًا ما قد طرأ على طبيعته، حين كان يقيس كل أمر، ويحكم على أي إنسان من زاويّة أنانيته الخاصة، وبات الان يعوّد نفسه على فكرة أن عينا أخرى قد ترى الامور على نحو آخر، وأي قلب آخر، له أن ينبض بمشاعر أخرى، وأن الحقيقة ليست مطابقة دوما لمصلحته الذاتيّة. غالباً ما كان يشتاق لرؤية بولس الذي كان يثيره بأحاديثه معه، ويضعه في حالة من الفضول والقلق. كان يضع حججا وذرائع مسبقة تجعله يدرأ تعاليم بولس. صحيح أنه كان على نقيض معه، إلا أنه أحبّه ورغب في رؤيته وسماعه. لكن بولس سافر إلى أرسيا، ولما صارت زيارات كلاوسوس نادرة، بات فينكوس وحيدا لا رفيق له، وصار يرتاد الاماكن العامة في سوبورا، ويجول في أزقة ترانستيبرس الضيقة، ممنيا النفس برؤيّة ليفيا ولو عن بعد على الاقل. لكن حين يئس من أمله هذا، غلب عليه السأم ونفاد الصبر. حتى حان الوقت أخيرا لترجع اليه طبيعته السابقة كما ترجع الموجه من جديد إلى البحر بعد بلوغها الشاطئ. شعر أن من الحماقة أن يوجع رأسه بلا

طائـل بأمور لا ينالـه منها الا الحزن والكآبة، فالأحـرى به أن يمتح من نبـع الحياة كل ما يستطيـع اليه سبيلا. قرر أن ينسى ليفيا، أو على الاقل أن يبحـث بعدهـا عن المتع والملذات المؤهل أساسـا لتتدفق عليه حينما يشـاء. الشتاء يشـد رحاله، والمدينـة التي عانت طويلاً مـن السبات، باتت تضج بأمل العودة السريعة للقيصر. كان يدنو، والصقيع على قمم جبال الألب بدأ يذوب تحت صفعات الرياح الإفريقيّة. ملأت الزهور الحدائق، وراحـت حشود الناس تخرج إلى الفـوروم، وتستلقي فوق المـروج، تحت أشعة الشمس المشتـدة، وازدحمت الشوارع بالعربات المزيّنـة. والمتنزهـون بـدؤوا نزهاتهم في الصعـود إلى الجبـال الألبيّة. وبدأت الشابات مـن النساء يغادرن منازلهن إمـا لغايّة تقديم الاحترام لجونـو في اللانوفيون أو ل ديانا في أريسيـا، أو بحثا خارج المدينة عن آمال، وأصحاب ومواعيد، ومتع. هنا في وسط هذه الابهة البديعة لمح فينكوسـس ذات يوم عربـة كريسوثميس بترونيوس، التـي يعدو أمامها كلبـا صيد مولوسي ان ويحيـط بها حشد من السيناتـورات المسنين. كانت كريسوثميس نفسها هي التي تقود الخيول الأربعة الصغيرة التي تجـر العربة، موزعـة ابتساماتها، وهزات رأسهـا الخفيفة في كل اتجاه، لكـن حين لمحت فينكوس أوقفت العربة وأجلست الشاب إلى جانبها مصطحبة إياه إلى مأدبتها التي استمرت الليل بطوله. أكثر فينكوس من الشراب، حتـى الثمالة، فلم يدر متى أوصلـوه إلى البيت، لكنه تذكر، بالمقابل، أنه حين سالته كريسوثميس تتتبع أخبار ليفيا، أغضبه سؤالها، فمـا كان منه، وهو في حالة من السكر، الا أن سكب ابريق النبيذ على رأس المـرأة.و الآن، وهو في حالـة الصحو واتزان رأسـ، يستعيد ما جـرى، ما زال يشعر بالغضب. لكـن بعد مضي يوم على ذلك، وكان قـد نسي ما حصل منها بالطبع، قامت كريسوثميس بزيارته في البيت، واصطحبتـه إلى فيا أبيا، ثم رجعت برفقته وتناولت طعام العشاء عنده،

وصارحتـه في أثناء ذلك أنها باتت منذ زمن تقـرف بترونيوس، وأنها الان حـرة القلـب. مرحا معا مدة أسبوع، لكـن علاقتهما هذه لم تعد بالـدوام. صحيح أن ذكر اسم ليفيـا لم يرد بينهما منذ حادثة النبيذ، الا انـه لم يستطيع نسيانهـا. كان إحساسه دائما أن عينـي ليفيا تلاحقانه، وتوقعانـه في شـيء من الخـوف. لم يستطيع التملص مـن فكرة الحزن الـذي سببه لليفيـا، ولا من الا لم الـذي ولدته هذه الفكـرة في نفسه. وبعد أولى حـالات الغيرة التي أبدتها كريسوثميس لأنه اشترى فتاتين سوريتين، بدأ يصد المرأة عنه، دون أن يتخلّى حالا عن استمتاعه معها، مبرراً سلوكه لنفسه بالانتقام من ليفيا. لكنه اكتشف في النهايّة أن ليفيا لا تفـارق تفكـيره، وأنها المحـرك الاوحد لكل ما يقوم بـه خيراً كان أم شـراً، وأن لا أحـد غيرهـا محط اهتمامـه. ثم ما لبـث أن تغيّر المذاق في فمـه، وأحس بالإنهـاك وقرف الملذات التـي لم تخلف إلا تبكيت الضمـير لديه. استشعر عمق هوة البؤس التـي سقط فيها، وراح يتأمل كـم اختلفت أحواله، عن ذي قبل، وكيف كان في السابق يتذوق بلذة كل ما وجده محببا لديه. حتى فقد الآن طمأنينته، وثقته بنفسه، وعكف إلى نفسه، حتى أن نبأ رجوع القيصر لم يهزّه. بات لا يكترث لأي أمر، ولم يخـرج للقـاء بترونيوس حتى دعاه الأخير، وأرسـل نقالته الخاصة مـن أجله. وفي حين استقبله بترونيوس بكل ود، لم يرد هو على أسئلته كمـا ينبغي. أما في النهايّة، فقد انفجر بكل ما استجمع في نفسه سابقا مـن أفكار و أحاسيـس مكبوتة. و راح يتحـدث في كل شيء. حكى مـرة آخرى بالتفصيل قصة البحث عن ليفيا، والوقت الذي أمضاه بين المسيحيين، وكل ما شاهدته عيناه، وما سمعته أذناه، وكل ما راود عقله وقلبـه، حتى وصل أخـيراً إلى تخوم الشكوى، أي تيـه وتخبط أفقداه أمانـه، وعصفًا باتزان عقله وجدارته في الحكـم على الأمور. لا شيء يثـيره، لا شيء يستسيغه، ولا يـدري أي أرض صلبة يثبت عليها قدميه

وكيف يتصرف. إنه مستعد لتقديم احترامه للمسيح، ولمطاردته في الوقت نفسه. يتفهم روعة تعاليمه، ولكن في الان ذاته يشمئز منها أيما اشمئزاز. يشعر إذا ما كان يحب ليفيا، فلن تكون ملكه لوحده، لأن للمسيح حصة يشاطره فيها. حتى قال أخيراً إنه يحيا على نحو كأنه لا يحيا، وهو بلا أمل، ولا مستقبل، ولا إيمان بالسعادة، القتامة تغلف كل ما من شأنه أن ينير له درب النجاة المفقود. في أثناء حديثه، كان بترونيوس يراقب كم تغيرت ملامح وجهه، وكيف يبسط يديه أمامه على نحو غريب، كأنما يتحسس طريقه في الظلمة، ثم لا يلبث أن يتوقف عن الكلام سارحا في التفكير. نهض بترونيوس فجأة، وتقدم نحو الشاب، ومسح على فوديه لاما خصلة شعره هناك خلف أذنيه، قائلاً له:

ـ أتعلم أن شعرك يتخلله بعض الشعرات البيضاء؟

فأجاب فينكوس:

ـ جائز. لا يثير دهشتي إذا ما شبّت باكرا.

ثم ساد صمت. كان بترونيوس شخصًا ذكيًا، وكثيرًا ما استفكر في خفايا روح الانسان، والحياة الانسانيّة. لكن الحياة التي عاشها كلاهما قد تكون سعيدة، أولا تشوبها أيّة سعادة، ولكنها كانت هادئة يسودها الاطمئنان الداخلي. وكما تحطم الصاعقة، أو الزلزال صروح الكنائس وتجعلها أنقاضًا، كذلك يمكن للأحزان أن تحطم الحياة ذات المسارات القويمة المتناغمة الخاليّة من العقد. على النقيض من ذلك، فإن ما قاله الآن فينكوس، تضمّن شيئاً مختلفا، فوقف بترونيوس للمرة الاولى وجها لوجه أمام حزمة من الهموم الروحيّة، التي لم يفلح أحد حتى الان بإيجاد الحلول لها. كان على درجة من النضج تخوله لاستيعاب

ثقــل هذه الهموم، الا أنه رغم ذكائه النابــغ لم يتمكن من الاجابة على الاسئلة الحرجة المطروحة. فكان جوابه، أخيراً على النحو التالي:

ـ لا بد أنها إصابة بالعين.

فأجاب فينكوس :

ـ ظننت ذلك. كثيراً ما فكرت أن الجميع يحسدوننا.

فسأله بترونيوس:

ـ أتذهــب مثــلا إلى كهنــة سيرابيــس؟ لا شــك أن بينهــم كثيراً من المشعوذين، كما هو معلوم بين الكهنة عموما، لكن بعضا منهم يجدون النفاذ إلى أعمق أعماق الخفايا الغريبة.

لكنه كان يتكلم غير مؤمن بما يقول، وبنبرة غير واثقة، حتى أنه كان يشعر ببؤس ما تفوه به، وكم يتضمن من الكوميديا.

حك فينكوس جبينه قائلاً :

ـ سحــر! لقــد رأيت سحــرة يستخدمــون قوى مجهولة مــن العالم السفلــي من أجل الحصــول على المنافع، وسحــرة آخرين يستخدمون هــذه القــوة لإلحــاق الأذى بأعدائهم، لكــن المسيحيــين يعيشون في الفقــر، ويتسامحون مع أعدائهم، ويسعون إلى التواضع، والفضيلة، فما مصلحتهم في السحر ليستخدموه؟

الأمر الذي أغضب بترونيوس وأثار في نفسه غيظاً شديداً، أن عقله لم يستنبط إجابة على أي من الاسئلة، لكنه أبى أن يعترف بذلك، ولكي ينطق بأي شيء، قال:

ـ هذا سخف جديد

وأردف بعد لحظة:

ـ يـا للهول كيف يفسـد كل هذا الحيـاة! أنت تثمـن عاليا أخلاق هـؤلاء الناس، وطيبـة قلوبهم، أما أنا فأقول بأنهـم أشرار، لأنهم أعداء الحياة، كالأمراض، والموت. أما يكفي للحياة من كثرة الاعداء، فما من حاجة للمسيحيين. عد معي: الأمراض، قيصر، تيفالوس، أشعار قيصر، الاسكافيون الذين يحتلون مواقع في سيناتوس. أقسم ب كاستور كفانا مـن كل ذلك! هذا سخف مدم ر يثير القـرف. هل حاولت أن تنفض عنك هذا الحزن، وتستمتع بالحياة؟

ـ أجل.

فصاح بترونيوس مقهقها :

ـ آه أيها الخائن، الانباء تنتشر بسرعة على السنة الأرقّاء بأنك أغويت كريسوثميس !

هز رأسه فينكوس معترفًا.

فقال بترونيوس:

ـ أنـا أشكرها على أيّة حـال. سأرسل لها بعضا من الأحذية المحلاة باللؤلـؤ، وهذا يعني في مراسلاتي العشقيّة "لـكِ أن تذهبي". أما انت فتستحق شكـرا مضاعفا، لأنك أولا، لم تستقبل يونيكي، وثانيا لأنك حررتني من كريسوثميس. أصغ الي. من تراه أمامك الان شخص كان كل يوم يستيقظ، ويستحم، ويقصد المآدب، وكان لديه كريسوثميس، ويكتب الهجاء، حتى أنه أحيانا يصوغ النثر أشعارا، لكنه شخص سئم

من نفسه كما من القيصر، وغالباً عجز من التحرر من أفكاره السوداء. فهـل تعلم السبب في ذلك؟ لأني كنت أبحث في منأى عني، عما كان مقربـا مني... المرأة الجميلة تساوي ثقلهـا ذهبا. لكن المرأة التي تحبك أيضـاً إلى جانـب ما تتمتع به مـن جمال أخاذ، لا تقـدر بثمن. وليس بمقدورك أن تشـتري واحدة مثلها بكل كنوز الدنيا. أقول الآن لنفسي بأنني سأمضي بقيّة حياتي بسعادة، وسأحتسي أفخر أنواع النبيذ، حتى تشل يداي، وتعجز شفتاي عن ملامسة حافة الكأس. أما ماذا سيحصل بعدها،إنه أمر لا يعنيني ولا أكترث له. وهذه هي أحدث فلسفاتي.

- كنت تقول دائما أن لا شيء جديد فيها البتة.

- لكنها ذات محتوى لم تكن لتتضمنه من قبل.

قـال ذلك، ونادى على يونيكي. جـاءت الفتاة، شعرها كالذهب، يلـف جسدها رداء أبيض. لم تكن العبدة القديمة المالونة، ولكنها بدت الان ربة الحب والبهجة.

فتح بترونيوس ذراعيه، مناديا إياها:

- تعالي!

توجهت الفتاة نحـوه، وجلست في حضنه،ولفـت ذراعها حول عنقه، واستندت بنهديها على رأسه. شاهد فينكوس كيف اكتسى وجه الفتاة بالحمرة شيئاً فشيئاً، وكيف غامت عيناها بغشاوة ضبابيّة عميقة. بدا معـا هكذا كتمثال فائق الجمال للحـب والسعادة. مال بترونيوس نحـو صحيفة فوق طاولـة قريبة منه، وتناول منهـا جفنة وريقات من زهـر البنفسج، ورشة فوق رأس يونيكي، وصدرها، وعنقها، ثم أزاح الرداء عن كتفيها وقال:

ـ سعيـد مثلـي كل من عثر في غمـرة مشاغله على حبيبـة... أشعر أحيانا أننـا الهان... تمعن فينا جيدا :هل ابتـدع أحد من براكسيتليس أو مـيرون أو سكوباس أو ليسيبوس في أي مكان خطوطا أكثر روعة؟ هـل هناك نصب وردي اللـون، وحار، ودفاق بالحـب في باروس أو بوتاليكون؟ هنالـك من يمكن لقبلاتهم مهما عنفت أن تقرض حواف الاقداح، أما أنا فأفضل البحث عن الروعة حيث يمكن أن تكمن فعلا.

وراح يمرر شفتيه فوق كتفي الفتاة وعنقها، فيما استجابت يونيكي مسترخيّـة لهذه القبـلات، وقد أغمضت عينيها تـارة، وفتحتها تارة، مبديّـة أقصى مشاعر اللذة. وبعدئذ رفع بترونيوس رأسه الناعمة متلفتا نحو فينكوس ليقول:

ـ أمـا الآن فعليك أن تفكر من يكون مسيحيوك البائسون قياسًا إلى هـذا. وإن كنت قد رأيت الفـارق، عندها فقط اذهب اليهم... لكنك ستكون قد شفيت.

تنشـق فينكوس عطـر البنفسج الفائـح في أرجاء الغرفـة، فدوّخه ضوعـه، وفكـر، في ذات الوقت، لو أنه تيسر لـه ان يقوم بتقبيل كتف ليفيا هكذا، لكانـت متعة لا حدود لها، و إن كانت متعة مارقة خارقة للقداسـة، ليأت بعدها الطوفان، و دمـار الكون. غير انه كان قد اعتاد أن يقلّب سريعاً أي أمر يعتمل في نفسه، فما كان الا أن خطر له لفوره، أنه حتى في هذه اللحظة لا يفكر الا بليفيا، وبليفيا وحدها.

ـ أعدي لنا يا يونيكي الإلهيّة، الأكاليل لرؤوسنا، وفطوراً.

وحين ابتعدت الفتاة توجه إلى فينكوس بالقول:

ـ أردت أن أعتقهـا، لكن هل تدري مـا قالته؟"أفضل أن أبقى عبدة

لــك، ولا زوجة للقيصر". و لم توافق. لكني عتقتها دون علمها، ودون الحاجة لمثولها أمام البراتور. هي لا تعلم بما قمت بفعله من أجلها، كما لا تعلـم أنها سترث، بعد موتي، هــذا المنزل، وكل ما أملك من الحلي، ما عدا الجواهر.

ثم نهض، ومشى حتى نهايّة الغرفة حتى أردف قائلاً :

- تأثير الحب يختلف من شخص إلى آخر. قد يؤثر في أحدهم تأثيرا فائقا، ويكون تأثـيره في أحد آخر ضعيفا. وأنا ممن قد أثر فيهم الحب. في حقبة ما كنت أحبذ رائحة فيربينا، لكنني بت أحب رائحة البنفسج أكـثر لأن يونيكي تحبها. حتى بتنا الان، منذ جاء الربيع،لا نستنشق الا عطر البنفسج.

ثم توقف أمام فينكوس ليسأله:

- وأنت أما زلت تكره رائحة الناردين؟

- دعك من هذا.

- أردتــك أن ترى يونيكي، وأنا أتكلم عنها، عساك أيضاً أن تبحث في منأى عنك عما هو مقرب منك. عسى ان يخفق قلب وفي، بسيط لأجلــك من بين عبيدك. داوِ جراحك بهذا البلسم. هل تقول عن ليفيا تحبــك؟ جائز! لكن أي حب هذا إذا ما تخلـى عنك؟ الا يعني هذا أن هنالك ما هو أقوى من هذا الحب؟ لا يا عزيزي: ليفيا ليست يونيكي، فأجاب فينكوس :

- ما هذا كله إلا عذاب شديد. حين رأيتك تقبل كتفي يونيكي خطر لي لو أن ليفيا تدع نفسها لي هكذا، فلا هم بعد ذلك أن تنشق الأرض تحتنا.

ليفيا ليست يونيكي، صحيح، لكني أفهم الفارق بينهما لا كما تراه أنت. حبك أنت بدل فتحتي أنفك، فصرت تحب البنفسج أكثر من فيربينا. أما أنا فقد أصاب روحي وأجرى تغييره وهناك، فصرتُ ما أنا فيه من بؤس وشوق، أحب ليفيا كيفما تكون، لمجرد كونها ليست كالأخريات. هزّ بترونيوس كتفيه معلقا :

ـ المفترض في ذلك إذن الا يؤثر عليك سلبا. أنا لا أفهم هذا.

وافقه فينكوس بحرارة:

ـ فعلا !... لقد بتنا لا نتمكن من فهم بعضنا.

وساد صمت قصير، حتى بدأ بترونيوس الكلام ثانيّة:

ـ فليبتلع هادس مسيحييك هؤلاء! لقد عبؤوك بالقلق، وأفسدوا حسك في الحياة. فليبتلعهم هادس ! تخطئ إذا ما اعتقدت أن هذا دين فالح. الفالح والصالح ما يحقق السعادة للبشر، مثل الجمال، والحب، والقوة، وهم يسمون كل هذا خطيئة، وتخطئ أيضاً إذا ما ظننتهم محقين وعادلين، فإذا ما كنا سنرد على الاساءة بالحسن فبماذا نرد على الحسن؟ وإن كان الرد على الوجهين هو نفسه، فلم يضطر البشر أن يكونوا خيّرين؟

ـ لا.ليس نفسه. لأن دينهم يقوم على أن الحياة تبدأ في العالم الاخر، وهي الحياة الابديّة.

ـ لا أناقش في أمر، سنراه فيما بعد، ما يعنيني هو الحاضر. أورسوس قضى على كروتون الفولاذي الجسد، لأنه الضعيف القلب، ولا مكان في المستقبل لضعاف القلوب.

ـ عندهم تبدأ الحياة لحظة الموت.

ـ مثل هذا القول كأن يقول أحدهم أن النهار يبدأ بحلول الليل. هل تريد أن تخطف ليفيا؟

ـ لا. لن أرد جميلها بإساءة. لقد أقسمت أن لا أفعل هذا.

ـ هل تريد أن تعتنق الدين المسيحي؟

ـ أجل. لكن طبيعتي لا تحتمل ذلك.

ـ وهل بوسعك أن تنسى ليفيا؟

ـ لا.

ـ سافر إذن.

وفي هـذا اللحظـة، أبلغه الخدم أن طعام الفطور بـات معدا، إلا أن بترونيوس، وقد لمعت في ذهنه فكرة هامة، قد استمر في الحديث وهما في الطريق إلى غرفة الطعام:

ـ إنك جبت بـلاداً عديدة، لكنك كجندي ملزم دائما أن يهرع في العـودة إلى قطعتـه، ولا يستطيع أن يتوقف في أي مـكان قاطعاً طريقه المرسومـة. تعـال ورافقنا إلى أكايا. القيصر لا يلتـزم أبدا بخطة رحلته. غالبـاً ما يتوقف قاطعا الرحلة هنا وهناك، يغني، ويجمع أقواس النصر، وينهـب المعابد، ثم يعود أدراجـه إلى إيطاليا. ستـراه وكأن باخوس و أبوللـو قد اجتمعا معـا في شخص واحد. الأوغستيـان، نساءً ورجالاً علـى حد سواء، والـف قيثارة، مشهد جدير بالمشاهـدة، لأن العا لم لم يشهـد من قبل شيئاً كهذا. وجلس إلى جانب يونيكي على مقعد قرب الطاولة، وفيما كانت الفتاة تسوي الإكليل على رأسه تابع كلامه:

ـ مـا الذي شاهدته في أثناء تولّيك مهامّك في كوربو؟ لا شيء! هل تمعّنـت جيدا في المعابد الإغريقيّة كما فعلت أنا حين تداولني القادة من يد إلى يد، ومن مكان إلى آخر، على مدار سنتين؟ هل كنت في رودوس ليتسنّى لك رؤية أين ينتصـب كولوس؟ هل رأيت في فوكيشي بانوبي الطينـة التي صنـع بروميثيوس منهـا! الانسان؟ وهل رأيـت في شارتا البيوض التي وضعتها ليـدا؟ وهل كنت في أثينـا؟ أو في أوبويا حيث سفينة أغاممنون، أو القدح الذي استخدمته هيلين من أجل ثديها الايسر؟ هل شاهدت الإسكندريّة، وممفيس، والأهرامات، وشعر إيزيس الذي قصتـه حدادًا على فراق أوزيريس؟ هـل سمعت تأوّهات ممنون؟ العا لم شاسـع، ولا ينتهي كل شيء عند ضفة التيبر ! أنا سأرافق القيصر، لكني في طريق العـودة سأفترق عنه، وأسافر إلى قبرص، لأن الهتي الشقراء هـذه راغبة في أن نذبح الحمـام في بافوس قربانًا لسيبريس، وعليك أن تعلم أن كل ما تتمناه سوف أحققه لها. فقالت يونيكي :

ـ أنا عبدة بين يديك.

لكن الرجل أراح رأسه في حضن الفتاة وأجابها مبتسماً :

ـ مـا أنـا إذن الا عبـد بين يدي عبـدة. أنا مشدوه بـك، يا يونيكي الإلهيّة، ولا أصدّق عيني.

والتفت بعدهنيهة نحو فينكوس:

ـ تعـال ورافقنا إلى قبرص. لكن لا تنس أن عليـك قبلها ان تلتقي القيصر. من السوء أنك لم تزره حتى الان. بمقدور تيفالينوس أن يستغل هـذا للإضرار بك. صحيح أنه لا يضمر البغيضة لك، الا أنه بالتأكيد لا يكن لـك الحب لأنك قريبي... سنجد حلّا ونقول إنك كنت مريضًا. علينـا أن نفكر جيـدا بالاجابة إذا مـا دفعه الفضول وسـأل عن ليفيا.

الافضــل أن يكــون رد ك بأنها أقامــت عندك، حتى مللتهــا. سيتفهم ذلــك. وقل لــه أيضاً إن المرضــ جعلك رهين المنزل، ممّــا زاد من شدّة حمّاك أنك لم تكن في نابولي و لم تستمع إلى غنائه.

والآن بــات الأمل يحدوك لتسمعه في القريب العاجل، الأمر الذي سرّع في شفائك. لا تخشَ المبالغات والشائعات.

ـ أعرف عمن تتحدث؟ عن المسيحيين.

علينــا أن ننتظر مــن تيفالينوس أن يجد للقيصر مأخــذاً علينا كبيراً، وضخمًا. أخشى أن يتناولني في شيء. كما أخشى من حالتك البائسة.

فسأله فينكوس :

ـ أتدري أن هناك نوعا من البشر لا يخاف القيصر، ويحيا في طمأنينة وكأنه غير موجود أصلًا؟

ـ أعرف عمن تتحدث. عن المسيحيين.

ـ تماماً. هم الوحيدون! ما حياتنا نحن سوى صخب وضوضاء.

ـ دعنــي من مسيحييك. إنهم لا يخافون القيصر، لأنه في الغالب لم تصلــه أخبارهــم، ولا يعرف عنهم شيئاً. أنا لا أقــول عنهم سوى أنهم فجّــون تعوزهم الخبرة. هذا إحساسك كذلك. وإذا كان طبعك يجفل مــن دينهــم، فلأنك تشعر بفجاجتهــم. أنت مخلوق مــن طينة أخرى. فدعهم وشأنهم، ودعني منهــم. نحن نعرف أن نحيا، ونموت، ولكن الذي يعرفونه هم مازال خفيا.

باغتــت فينكوس هذه العبارات، وحين عــاد إلى البيت استغرق في التفكير، ليخلص إلى تساؤل مفاده:

أليس كون المسيحيين طيبين ورحماء إثباتاً في واقع الحال على فجاجة روحهم، وافتقارهم إلى المراس. شعر أن الاقوياء ذوي الصلابة لا يعرفون هذه الدرجة من التسامح. ولمع في ذهنه أن روحه الرومانيّة وجدت سبباً كافيا لنفورها من ذلك الدين. "معرفة الحياة والموت". هذا ما قاله بترونيوس. أمّا هم؟ إنهم لا يعرفون الا المسامحة ويجهلون الحب الحقيقي، والكره الحقيقي.

٣٠

وصل القيصر إلى روما، وكان منزعجاً لعودته. وما هي إلّا بضعة أيام حتـى هاجه الشوق متمنيـا السفر إلى أكايا. حتى أنه نشـر بيانًا يعلن فيه أن غيابـه لن يدوم مدة زمنيّـة طويلة يمكن أن تخلّف أي تأثير في القضايا العامـة. ثـم، برفقة حاشيتـه الأوغستينيّـة، وكان فينكوس مـن بينهم، قصـد، الكابيتوليـوم لتقديم القرابـين للآلهة من أجـل التوفيق والنجاح في رحلتهـم. ولكنه في اليوم التالي، حـين كان في زيارة لكنيسة فيستا، حصل أمر غيّر في نيّته. لم يؤمن نيرون بالآلهة، لكنه كان يخشاهم، ومن بينهـم على وجه الخصوص فيستا المكتنفة بالغموض. فما إن رأت عيناه هناك نار الالوهة القدسيّة، حتى انتصب شعر رأسه، واصطكت أسنانه، وارتجفـت أوصاله من الرعـدة والخوف. وللمصادفـة في هذه اللحظة فقـد كان فينكوس واقفا خلف ظهره، فارتمى بين ذراعيه. نقل سريعا إلى القصـر، ورغم استعادته وعيه على الفور، ظل طريح السرير يوما كاملا. ثـم أعلن أيضاً، وقد أثارت فحوى هذا الاعلان اندهاشا كبيراً عم سامعيه مـن الحاشيـة، أن رحلته بإيحاء مـن الالهة حرصا عليه مـن العجالة في أمـوره باتت مؤجلـة إلى إشعار آخر. وانتشر في أنحاء روما، نبأ يقول أن القيصـر، بعد أن قرأ الحزن في وجوه الناس، قد قرر، بدافع المحبة الأبويّة نحوهـم، أن يبقى الان إلى جانبهم ويتشاطر معهـم السراء والضراء. سر الشعب لهذا القرار المتخذ، ليقينه أنه لا ينفصل عن إقامة العاب السيرك، وتوزيـع القمح، فغصت الجمـوع محتشدة أمام مدخـل القصر، يهتفون للقيصر الرباني، الذي رفض المغامرة بالأوغستينين وحياتهم.

فقال:

ـ أجـل. كان لا بـد من التأجيـل. لا يمكن التفريـط بالسيطرة على مصر والشرق، فكيف بأكايا. سـوف أهدم إزموسـ الكورنسوسي. وسأنصب في مصر العديد من التماثيل والنصب تغطي على الأهرامات وأبنـي أباهـول آخر. بحجم يفوق سبع مرات حجـم الذي يقوم قرب ممفيسـ متطلقًـا نحو الصحراء. لكنـه سيحمل وجهـي منحوتا عليه. وسيبقى تمثالًا يشغل حديث الناس لقرون عديدة.

قال بترونيوس:

ـ لقد بنيت لنفسك من حسابك الخاص تمثالًا أكبر من خفرع بثلاث مرات، وليس بسبع مرات.

فسأله نيرون:

ـ أمِنْ غنائي؟

ـ تستأهل أن ينحت لـك تمثال كتمثال ممنون، يصدح بصوتك عند كل مطلـع شمس. البحار التي تحد سواحل مصر، تمخرها دون انقطاع سفـن سيتسنـى أن يسمع على متنها غناءك مسافـرون من أرجاء العالم الثلاث.

فتنهّد نيرون قائلاً :

للأسف ليس هناك من يجيد عملا كهذا.

ـ يمكن أن تنحت لنفسك تمثالا، وأنت تقود العربة.

ـ صحيح. سأفعل ذلك.

ـ وتقدمها هديّة للبشريّة.

ـ في مصر، سأتخذ من لونا العانس زوجة لي، وسأصبح الها حقيقيا.

أما نحـن فتمنحنا النجوم زوجات لنا، وفيما بعد سنشكل مجموعة كواكـب جديدة سيطلق عليها اسم مجموعة نـيرون. وتزوج فيتليوس و نيلوسـس، وتهدي تيفالينوس الصحراء هنـاك، ليكون ملكا على أبناء آوى.

فسأل فاتينوس:

ـ وما نيّتك أن تمنحني؟

ـ باركك أبيس. لقد أتحفتنا في بنغنتوم ورتبت لنا تسليات تجعلني لا أتمنى لك شرا: اعمل بعض الاحذيّة لأبي الهول لأن قدميه تتجمدان في الليالي النديّة، و آخر دوميتوسـس المعروف بنزاهته مثلا، سيغدو صرافا. كم أحببت من القيصر أنه يحلم بمصر، لكن ما يحزنني أنه أجل الرحلة.

لكن نيرون أجابه:

ـ عيونكـم الفانيّة لم تر شيئـاً، لأن الالوهة تحتجب أمام من تريد أن تحتجـب أمامه. كونوا على ثقة أنني حين كنت في معبد فيستا انتصبت الالهـة إلى جانبي ووشوشتني قائلـة:"أج ل الرحلة". حصل ما حصل علـى نحو مباغت جعلني أرتعد، الا أني ممتن للالهة على قبولهم لي كل هذه المدة في مذبحهم.

نطق تيفالينوس قائلاً:

- لقد ارتعدنا جميعا. أما العذراء فيستا روبريا فقد أغمى عليها.

التقط نيرون العبارة ليقول:

- روبريا! ما انصع جيدها.

- لكنها تحمر لمجرد رؤيتها لك أيها القيصر الرباني.

- تماماً. لاحظت ذلك بنفسي. مذهلة! في كل من عذراوات فيستا شيء الهي. روبريا جميلة جدا.

وفكّر قليلا ثم سأله:

- أخبروني، لم يخاف الناس فيستا أكثر من الآلهة الآخرين؟ ما السبب في ذلك؟ حتى أنا قد ركبني الخوف رغم أني كبير كهنة. كل ما أتذكره أني تعثرت وكدت أقع على ظهري لو لم يسندني أحدهم. ما كان ذاك؟

وأعلن فينكوس نفسه قائلاً:

- أنا.

- أووو، كيف لم تكن معنا في بنغنتوم؟ سمعت أنك كنت مريضا، والحقيقة أن وجهك قد شابه بعض التغير. وسمعت أيضاً أن كرتون أراد أن يقتلك. هل النبأ صحيح؟

- صحيح... وكسر ذراعي، لكني دافعت عن نفسي.

- بذراع مكسورة؟

- هب لنجدتي أحد البرابرة، وكان أقوى من كروتون.

ـ مــاذا عن تلك الفتــاة... ذات العجيزة النحيلــه... التي وقعت في حبها، والتي أخذتها من عائلة ألوش وأعطيتها لك؟

ارتبك فينكوس أيما ارتبــاك. لكن بترونيوس في هذه اللحظة سارع إلى إنقاذه، فقال:

ـ أراهن أنه قد نسيها. الا ترى ارتباكه؟ اسأله كم عشيقة كانت لديه بعدها؟ أراهن أنه لا يدري كم عددهن. الفينكوسيون جنود مميزون،إلّا أنهــم ديكة علــى نحو أميــز. يحتاجــون إلى مدجنة بحالهــا. عاقبه يا سيدي، ولا تدعُــه إلى المأدبة التي وعدنا بها تيفالينوس على شرفك، في بحيرة أغريبا.

ـ لا لن أفعل ذلك. أنا أثق بأن تيفالينوس لن يدع مجالا لأي نقص في الدواجن.

فأجاب تيفالينوس :

ـ هل يمكن أن يحصل أي نقص حيث يحضر أمور.

لكن نيرون بدأ في شكواه:

الضجــر يلوكنــي. لقد بقيــت في رومــا بمشيئة الالهــة، رغم أني لا أحتمــل الأمــر. سأذهــب إلى الأنتيوم. تخنقنــي هذه الازقــة الضيقة، والمنــازل الموشكة علــى السقوط، والمحــلات القذرة. والهــواء العفن يخترق منــزلي وحديقتي. أما من هزة أرضيّة تطيــح بروما وتبيدها. لو يفعلهــا أحد الالهة الغاضبين ويسويها بالأرض. وسأريكم بعدها كيف تبنى المدينة وتصبح عاصمة العا لم وأنا على عرشها.

فسأله تيفالينوس :

ـ قلت، أيها القيصر، لو أن الها غاضبا يبيد المدينة اليس كذلك؟

ـ أجل، وماذا بعد؟

ـ وأنت الست الها؟

وافقه نيرون على مضض ثم قال:

ـ سنرى ما الذي ستتحفنا به فوق بحيرة أغريبا. بعدئذ سأذهب إلى الأنتيوم. أنتم جميعا ضحلون بحيث لا تدركون ما الذي أحتاجه وأصبو اليه من أمور عظيمة.

وأطبق عينيه، في إشارة منه، إلى أنه في حاجة للراحة. فأخذ الاوغستينيون ينصرفون حقا. وانصرف بترونيوس بصحبة فينكوس فخاطبه قائلاً :

ـ إذن فأنت مدعو رسميا إلى الهرج. تنازل دو اللحيّة الحمراء عن السفر، لكنه سيلهو في المدينة أكثر من أي وقت مضى، وسيتصرف هنا كما لو كان في بيته. حاول أن تروح عن نفسك. وتجد شيئاً يسليك، وما تبقى للشيطان! لقد أخضعنا العالم، اليس من حقنا الترويح عن أنفسنا. أنت يا ماركوس شاب وسيم جدا وهذا سبب لاعجابي بك. رموشك الكثة، وجهك المتورد، وكل أولئك ما هم إلى جانبك غير أرقاء معتوقين هذه حقيقة. لولا هذا الدين البدائي لكانت ليفيا في منزلك الآن. حاول مرة أخرى أن تثبت لي أن هؤلاء ليسوا أعداء الحياة، والانسانيّة... لقد أحسنوا معاملتك، لذا أنت ممتن لهم، لكني، لو كنت مكانك، لكرهت هذا الدين، وبحثت عن متعي وملذاتي حيث يمكن أن أجدها. أكرر قوي لك بأنك شاب وسيم، و روما تعج بالنساء والمطلقات.

فأجاب فينكوس :

ـ أستغرب أنك لم تتعب بعد من هذه الامور.

ـ ومن قال لك هذا؟ لقد أصابني التعب منذ مدة طويلة. لم أعد شابًا مثلك. ولكن لي ميولاً أخرى أملأ بها حياتي، تفتقدها أنت. أحب المزهريّات والمجوهرات. وهنالك العديد من الامور التي لا تلتفت أنت اليها. ظهري يؤلمني أحيانا، وأنت لا. وأخيراً اكتشفت يونيكي. في حين لم تكتشف أنت أحدا. أحب الاقامة في منزلي بين التحف الرائعة، في حين لا أجد فيك ميولا نحو الجمال والفن. أعلم أنني لن أحظى بأكثر ممّاقد حظيت به ونلته حتى الان وأنت لا تدري أنك ما زلت تعوّل على الأمال، والبحث. إذا ما طرق الموت بابك، فإنك بالرغم من كل تلك الشجاعة، والحزن اللذين تتحلى بهما، سوف يذهلك أنك ستموت، وتغادر عالم الظلال هذا. أما أنا فسأستقبل الموت كضرورة وحاجة، مقتنعا أن لا متعة في العالم الا وتذوقتها. لست أستعجل الموت، لكني لا أستجره نحوي، وسأبذل ما بوسعي لأعيش مرحا، حتى آخر لحظة في حياتي. في حين أن مسيحييك لا يجلبون إلى العالم سوى الحزن، ليغمر حياتهم كالمطر الطبيعة. أتدري ما الذي توصلت إلى معرفته؟ في الاحتفالات التي ينظمها تيفالينوس على ضفة بحيرة أغريبا تقام بيوت متعة ترتادها النساء من أرقى منازل روما. هل يعقل ألّا يكون بينهن واحدة على قدر من الجمال تجد فيها سلواك؟ وبينهن عنروات يخرجن إلى الضوء للمرة الاولى... الواحدة منهن أشبه بالنيمفا عذراء الغابات المترجم. هذه هي امبراطوريتنا الرومانيّة... بات الجو دافئا! الرياح الجنوبيّة تدفئ المياه، ولا تقرص الجسد العاري. كن على علم، أيها الشاب الوسيم أن لا فتاة تستطيع مقاومتك، حتى لو كانت عذراء فيستا.

راح فينكوس يضرب رأسه بكفيه كمن لا يشغل تفكيره سوى فكرة واحدة وقال:

ـ أحتاج إلى كثير من الحظ حتى أحظى بواحدة مثلها..

ـ ومــن فعل هذا إن لم يكن المسيحيون!... لكن كل من تحمل شعار الصليــب لا يمكــن أن تكون من صنــف آخر. أصغ الي: بــلاد الإغريق جميلـة جدا، وقد ابتدعت الحكمة للعــالم. ونحن ابتدعنا له القوة، فما الــذي تنتظر من الديــن أن يبتدع؟ إن كنت تعلم، نــو رني، لأني، وحقِ بولوكس، لا أمتلك حتى تخمينا.

هز فينكوس رأسه. ثم قال:

ـ يظن المرء أنك تخشى أن اعتنق الدين المسيحي.

–أخشى أن تفسد حياتك. وإن لا تستطيع أن تكون كاليونان، فكن كرومــا. احكم واستمتــع. إن ما يجعل على وجــه التحديد، جنونياتنا تخبئ نوعا من العقل، أن هذه الفكرة كامنة فيها. أحتقر صاحب اللحيّة الحمــراء لأنه، كيوناني، مهــرج، ولو كان يعتبر نفســه رومانيا لأعطيته الحق في أن يسمــح لنفسه أن يكون عربيدا. عدني أنك إذا ما عدت إلى البيت، ووجدت مسيحيا هناك، أن تعنّفه. إن كان كللاوسوس الطبيب لن يستغرب ذلك. إلى اللقاء على بحيرة أغريبا

٣١

أحـاط الحراس بالغابات الخضـراء على ضفة بحـيرة أغريبا، تفاديا لمـا تسببه حشـود الناس من إزعـاج للقيصر وضيوفـه، لأن كل ما في رومـا من أثريـاء، وعقول، وجميلات، ممن اعتـادوا الظهور في الحياة العامة، قد حضروا المأدبة التي لم يشهد تاريخ المدينة مثيلا لها. لقد أراد تيفالينوس، من جهة، أن يعوّض للقيصر ما افتقده بسبب تأجيله رحلة أكايـا. ومن جهة أخرى فقـد اعتزم أن يسجل تفوقـا على كل ماسبق واستضـاف القيصـر حتى الآن، كما أراد أن يثبـت أن لا أحد بمقدوره أن يبـذخ مثله. لهـذه الغايّة، ومنـذ أن كان القيصـر في نابولي، ثم في بنفنتوم، قد قام بتحضيراته، وأصدر أوامره باستجلاب كل مستلزمات الحفل من جهات العالم البعيدة. الطرائد، والطيور، والاسماك النادرة، والنباتـات، والأقمشـة، والقـدور، فمن شـأن كل ذلـك أن يرفع من مستوى المأدبة، ويضفـي على أضوائها إبهاراً فائقًا. لقد أنفق ما يفوق كل حـد، من أجل تأمين هذه المتطلبـات الباذخة الا أنه كأحد معجبي القيصـر الكبـار، لم يكـن ينبغي عليـه أن يكترث لتبديـده الاسطوري للـثروة. فقـد كان تأثيره في ازديـاد يوما بعد يوم. صحيـح أنه لم يكن مفضـلا لـدى القيصر أكثر من الاخرين، إلا أنـه بات في موقع لا يمكن الاستغنـاء عنه. كان بترونيوس يفوقه كثـيرا بالثقافة والدماثة والروح، ورجاحـة العقل، وحتى في أثنـاء حديثه فقد كان بترونيوس الابرع في تسليّـة القيصـر. كل ذلك من سـوء حظه، لأنـه كان متفوقا حتى على القيصـر، فأيقظ في داخله الغـيرة. لم يستطيع أن يكـون أداة عمياء في

كل شيء. وإذا ما تعلق الأمر بالذائقة فقد كان القيصر يخشاه، في حين لم يشعـر أمام تيفالينوس بـأي حرج. كان لقب"ملـك الذوق" العائد لبترونيوس يغضب القيصر لأنه يعتبر نفسـه الاجدر بلقب كهذا. كان لـدى تيفالينوس من العقل ما يكفي ليـدرك نواقصه الخاصة. ولقناعته أنـه لن يفوز بالسباق مـع بترونيوس ولا مع لوكانوس، أو آخرين ممن اشتهـروا بمواهبهم، وعلومهم، وأصولهم، فقد اعتزم أن يخي م عليهم بخدماته المناسبة، وبذخه الصاعق حتى لتصورات القيصر.

لقد أقيم الحفل إذن علـى عوامة عملاقة شدت من عوارض مذهبة زينـت حوافها بالمحار الفاخـر ذي الالوان القزحيّـة، والمرجانيّة التي صيـدت في البحـر الاحمر والمحيـط الهندي، وأحاطـت بها من كل جانـب أشجار النخيـل، وشجيرات الورود المفتحـة، والرياحين التي تخللتهـا نوافير الماء المعطر، وتماثيل الآلهة، وشتى أنواع الطيور الذهبيّة والفضيّـة. توسطتهـا خيمة عملاقـة. وبتعبير أدق، فالخيمـة المعمولة مـن الأرجوان السوري قـد ارتفع سقفها مشدوداً علـى قضبان فضيّة بحيث تظل مفتوحة الجوانب حتى لا تعيق الرؤيّة. تحتها صفت الموائد للضيـوف، وبرقت كلهـا كحشد مـن الشموس الكثيرة، لمـا استوى عليهـا من الزجاج الاسكنراني، والكريستال، وتحـف الآنية الإيطاليّة، واليونانيّة، والاسيويّة الصغرى، التي لا تقدر بثمن. كثافة النباتات التي أحاطت بالعوامة جعلتها تبدو أمام الاعين جزيرة، أو غابة شدت بحبال من الذهب والقماش الأرجواني إلى مجاريف اتخذت هيئة أسماك، وبجع وببغـاوات، وعلى متنها مجدفـون ملوّتون إلى جانبهـم شبان وشابات عـراة في منتهى الوسامـة والجمال، وجوها وعضـلات، بتسريحاتهم الشرقيّـة، أو شعورهم المضمومة تحت شبكـة ذهبيّة. وحين عبر نيرون و بوبايـا و الأوغستينون من حاشيتـه المدخل الرئيسي للعوّامة، واتخذ مكانـه تحت الخيمة الارجوانيّة. بـدأ المجدفون يلطمون الماء فتحركت

المجاديـف، وانشدت الحبال الذهبيّة، وتحركـت العوامة، وبدات، بما عليهـا مـن ضيوف المأدبة، ترسـم دوائر فوق البحـيرة. وأحاطت بها مجاديـف آخرى، وعوامات صغيرة، مليئـة بالفتيات والاتهن الموسيقيّة الوتريّـة، والنفخيّة، اللواتي، أمام خلفيّة من السماء الزرقاء والمياه، وفي لمعان ضوء الآلات الموسيقيّة الذهبيّة، كأن أجسادهن الورديّة قد رشفت الضـوء والزرقة، وفي وسط هذه الالـوان راحت تلك الزهرات يبدعن في العزف. ومن الغابة الشاطئيّـة، وأبنيّة الاحتفالات الغريبة التصميم المتخفيّة بـين الاشجار، صدحـت الموسيقى، وصدحـت معها أرجاء المـكان كافة، وترجع صداها محمولًا علـى أجنحة النسائم في الغابات البعيـدة. وكان من شأن ذلك كله أن يذهـل حتى القيصر وعلى ميمنته بوبويـا، وميسرته فيثاغورس. وبدا ذهوله واضحـاً حين ظهرت بين القوراب الرقيقات الشابات بأوشحتهـن الخضراء المتوجات بالورود، فالتفـت، كعادته في مثل هذه الحـالات، إلى "الذوّاق" بترونيوس يسأله رأيـه فيما يـرى. كان بترونيوس يشاهد ما يجـري بحياد ينم عن برود المشهد، فكان ردّه على سؤال نيرون :

ـ أظن،يـا سيدي، أن عذراء عاريّـة واحدة ذات تأثير أكبر بكثير من عشرات الآلاف.

لكن القيصر كان شديد الاعجـاب بالمأدبة العائمة لجدتها بالدرجة الاولى. ناهيك عن تشكيلة المشروبات والأطعمة الواسعة المقدمةـ جربا على العادة في مثل هـذه المآدب إلا أنها في هذه المأدبة تشكيلة فاضت علـى مخيلة أبيسوس، وجعلت أوتو، الذي قدم في مأدبة أقامها ثمانين نوعـا مـن النبيذ، يتمنى لو يدفن رأسه في المـاء خجلا من كثرة الأنواع التـي وقعت عليها عيناه. لقـد اقتصر الجلوس حـول الطاولات، على الاوغستيان، والنساء. الا أن وسامة فينكوس غطت عليهم جميعا. فيما

سبق، كان وجهه وقامته يشيان باحترافه العسكري، أما الان فإن وطآة أعبائة الداخليّة والامه الجسديّة الفيزيائيّة قد نحتت تقاسيم وجهه، كأن نحاتا من أمهر النحاتين قد مر بيده عليه، فأزالت بشرة وجهه التي لفحتها الشمس، وأبقت على ألقه الذهبي الرخامي الصقيل. فقط نصف جسده العلوي قد احتفظ بعضلاته الضخمة القديمة، كأن الدم قد خلق لها وحدها من بين كامل أعضائه. وتألقت تعتليه رأسه الفخور الناعمة، كإله يوناني. نطقت الخبرة، حين تفوه بترونيوس قائلاً إنه ليس بوسعها، ولا تريد أي امرأة أوغسيتانيّة هنا، أن تقاومه. الجميع الآن ينظرون اليه، و لم تكن بوبيا استثناء، ولا روبريا ولا حتى عذراء فيستا التي حضرت المأدبة بناء على رغبة القيصر.

ما لبث النبيذ المثلّج الموصى به من الأماكن المختلفة، أن أدفأ قلوب المدعوين و رؤوسهم. وتزايد ظهور قوراب جديدة آخرى من بين الاشجار. كانت صفحة البحيرة الزرقاء، كأنما مغطاة بالزهور، وحشود من الأقمار تتراقص عليها. وفوق القوارب هنا وهناك، رفرفرت، فضيّة وزرقاء، أنواع الحمائم والطيور الهنديّة و الافريقيّة مربوطة بخيوط. كانت الشمس قد اجتازت معظم مساحة السماء، وبما ان المأدبة قد أقيمت في أوائل أيار، فقد كان الجو دافئا، بل حارًّا. ارتجت مياه البحيرة من ضربات المجدفين المتناغمة مع وقع الموسيقا، إلا أن الهواء بقي ساكنا، فلا هبوب لأوهى النسائم فوق المكان، فبقيت الغابة الشجريّة بلا حراك، كأنها وقفت تحدق وتصغي إلى الحدث المائي أمامها. ظلت العوامة تدور فوق البحيرة، آخذة معها المحتفلين الذين باتوا أكثر سكراً وصخباً. و لم تبلغ المأدبة نهايّة نصف زمنها الاول، حتى أضحى الجميع لا يعبؤون بالنظام الذي وزّعت الموائد على أساسه. ولقد قدّم القيصر لمثال الأول على خرقه، فنهض من مكانه، وأبعد فينكوس من جانب روبريا ليحتل هو مكانه، وراح يهمس في أذن الفتاة. صار

فينكوس إلى جانب بوبيا التي طلبت منه فاتحة إليه ذراعيها، أن يشد رباط كتفها المرتخي. وحين قام الشاب بفعل ذلك بيدين مرتعشتين بعض الشيء، اختلست المرأة نحوه نظرة خجولة من بين رموشها الطويلة، وهزت رأسها الناعم الجميل، كأنما تعترض على شيء ما. في أثناء ذلك، كان قرص الشمس قد كبر، و صار أكثر احمرارا، واستلقى شيئاً فشيئاً، خلف تيجان الأشجار في الغابات. كان معظم المدعوين قد ثملوا تماماً، وأضحت العوامة تتحرك محاذيّة لشاطئ البحيرة، حيث كان الرجال المتنكرون بأقنعة ساتير و فان، يعزفون ويطبّلون، والفتيات المتزيبات بملابس النيمفا يتحرّكن في كل اتجاه. واستقرت الشمس أخيراً. في هذه اللحظة سمعت صيحات ثملة منبعثة من تحت الخيمة، تمجّد لونًا، وتوهّجت الاف المصابيح في الغابات. وانبعثت أشعة الضوء من بيوت المتعة المنتشرة على طول الشاطئ، وظهرت على الشرفات مجموعات شبه عارية جديدة من فتيات ونسوة أرقى المنازل الرومانيّة، تستدعي إليها مدعوّي المأدبة بأبذأ الحركات والكلمات. وحين رست العوّامة أخيراً على الشاطئ نزل القيصر وحاشيته إلى الغابة، وتوزعوا الأكواخ والخيم المتخفيّة بين الاشجار، والمغاور الفاخرة المقامة بين الينابيع ونوافير الماء. الجميع ثمل، وفاقد الاتّزان. لم يدر أحد أين ذهب القيصر، ولا من يكون هنا. السيناتور، والفارس، والراقص، والموسيقي. الساتير و لفان تبعوا النيمفاوات. وراحوا بعيداً عن الأشجار، يحطمون المصابيح ليطفئوها. فأظلمت بعض الارجاء في الغابة، لكن الصياح، والضحك، والضجيج، والتأوّهات، واللهات الحار، كان يعمّ الامكنة كلها. لم تشهد روما مثيلا لذلك من قبل.

لم يثمل فينكوس طوال حياته ثمالته في تلك المأدبة التي أقيمت في قصر القيصر وحضرتها ليفيا، الا أن أحداث اليوم قد جعلته منتشيا، فأخذته حمّى الاستمتاع. فانطلق في الغابة، يجري كالاخرين، ويبحث

بـين النيمفات عن أجملهن. كانت مجموعات الفتيات تعبر متتالية على جانبيـه وكان الفان والساتير والسيناتـورات، والفرسان يفرّون مغنّين زاقّين، هرباً من صوت الموسيقا، حتى لمح أخيراً مجموعة تقودها عذراء بزي ديانا. قفز نحوها أملاً رؤية الآلهة عن كثب، وتوقف قلبه بغتة في صدره. إنها الإلهة التي وشّى رأسها القمر فبدت كأنها ليفيا.

راحـت الفتيـات الوحشيّات يتحلّقن حوله راقصـات، ثم بالطبع لكي يثرن حماسه لملاحقتهن عدون أمامه كقطيع من الظباء. إلا أنه لزم مكانه، وقـد تقطّعت أنفاسه، بعـد أن رأى أن ديانا هذه لم تكن ليفيا، حتـى أنهـا لا تشبهها عن قـرب، فخارت قواه بعـد اندفاعته الحامية. هاجه شوق أشد ما يكون إلى ليفيا، وغمرت فؤاده أمواج عنيفة طاغية من الحب. لم يخامره من قبل شعور يوازي هذا الشعور. كم هي عزيزة ونقيّـة. وكـم يحبها وهو الآن هنا في هذه الغابـة بين هذه الجموع من المخبـولات، المتسيّبات. كان لتوه راغبـا في أن ينهل من هذه الكاس، وأن يسهـم في هذا الفلتـان الداعر للأحاسيس، وها هـو الان يشمئز ويتقـزز منهـا. ويشعـر أن القرف يـكاد يقضي عليـه، وأن صدره في حاجـة إلى هواء، وعينيـه إلى ضوء نجوم صافيه عصيّـة على ظلمة هذه الغابـة وكثافتها. واتخذ قراره بالهروب من هنـا. وما إن همّ بالتحرك حتى مثلت أمامه هيئة امرأة تلفّ رأسها بوشاح. أسندت ذراعيها على كتـف الشاب وهمست له على نحو أشعر فينكوس بحرارة أنفاسها: "أحبك!... تعال! لا يراك أحد.أسرع"

فسألها فينكوس وكأنه قد استفاق من حلم:

ـ من أنت؟

لكن صدر المرأة كان قد لامسه، فخاطبته:

ـ أسرع! انظر، لا أحد هنا، وأنا أحبك. تعال.

فكرّر فينكوس سؤاله:

ـ من تكونين؟

ـ احزر!

وضغطت بشفتيها عبر الوشاح على شفتي الشاب، وجذبت رأسه نحوها، ولم تبعد وجهها عن وجه فينكوس حتى آخر أنفاسها.

فقالت وقد تلاحقت أنفاسها طلبا للهواء:

ـ الحب!... إنها ليلة السلوان الذاتي... اليوم حريّة. أنا لك!

لكن القبلة أحرقت فينكوس وملأته اشمئزازا. كان في مكان آخر قلباً وروحاً، وسوى ليفيا لا أحد في الوجود.

دفع عنه الهيئة الموشحة وقال:

ـ كنت من تكونين، أنا أحب واحدة أخرى، ولست في حاجة اليك.

مالت المرأة برأسها نحوه:

ـ أزح وشاحي...

ولكنها في اللحظة نفسها فرّت مبتعدة تحفّ بأوراق الشجر، حتى تلاشت مثل صورة جاءت في حلم، ولا يسمع الآن إلّا قهقهاتها الغبيّة.

مثل بترونيوس أمام فينكوس ليقول:

- لقد سمعتها و رأيتها.

فاستعجله فينكوس:

- لنذهب من هنا.

وذهبا. انطلقا أمام الاكواخ وعبرا الغابة، مروراً بملعب الفروسيّة، فوجدا عربتهما.

قال بترونيوس:

- سأذهب معك.

- وجلسا معا. ظلا صامتين في الطريق، وحين صارا ففي صالون فينكوس تكلم بترونيوس قائلاً :

- أتعلم من كانت تلك؟

- روبريا؟

- لا.

- من إذن؟

- أخفض بترونيوس من صوته:

- صارت نار فيستا محتقرة، لأن روبريا كانت عند القيصر. لكن التي تحدثت معك...

وأخفض صوته أكثر:

- كانت الأوغستيّة ديفا

ساد صمت آني.

ثم تابع بترونيوس:

- لم يستطيع القيصر أن يخفي أمامها رغبته تجاه روبريا، فأرادت أن تنتقم لنفسها على هذا النحو. أما طلوعي أنا أمامك هناك، فلأنك لو عرفتها وأعلمتها بالأمر، لخسرت نفسك، وليفيا، ولخسرتني كذلك.

- صرت أضيق ذرعا بروما والقيصر، والمآدب، والأوغستيّة، وتيفالينوس، وبكم جميعا. أكاد أموت. لا أحتمل الحياة هكذا، لا أحتمل. أتفهم؟

- لقد فقدت عقلك، ورشدك، واتزانك، يا عزيزي فينكوس!

- لا أحب سواها في هذا العالم.

- وبغدئذ؟

- لا أريد حبا آخر، لا أريد حياتكم، مآدبكم، وقاحاتكم، شروركم.

- ما الذي حصل لك؟ هل أنت مسيحي؟

فيما ضرب الشاب على رأسه، وقال بصوت حائر!

- ليس بعد! ليس بعد!

٣٢

غادر بترونيوس غير راض إلى منزله. لقد اقتنع الان أنه على خلاف تـام في الفهم مع فينيكوس. لـن يفهما بعضا بعد الآن. والمسافة بينهما على المستوى الروحي باتت شاسعة.

في حقبة مـا كان تأثير بترونيوس كبيراً علـى الجندي الشاب. كان مثَله في كل شيء، وغالباً ما كانت كلمة منه كافيّة لردعه، أو إقدامه على أي أمـر. لم يبق شيء من كل هذا، حتـى أن بترونيوس لم يعد يستخدم أي أسلوب من أساليبه وطرقـه القديمة لأنها سترتد مهزومة عند أسوار فينيكوس الروحيّة المشادة بالحب، والمحصنة بالت ماس بعا لم المسيحيّة الغامض. أدرك الرجل الخبير أنه قد أضاع مفتاح روح فينيكوس.

وهـو أمر لم يشحنه بعدم الرضـا فحسب، بل ملأه بالخوف، الذي عملـت وقائـع الليلة على تفاقمه. فكر قائلاً لنفسه : " إن كل ما حصل ليس نزوة عابرة بالنسبة لـديفا بل مكابدة دائمة، فهناك احتمالان. إما أن فينيكوس لن يستطيع مقاومتها وهذا ضيـاع له، ولي أيضاً، لكوني قريبه، وإما أن يقاومها ويكون الأمر منتهيًا، دون أيّة ذيول وتأثيرات.

وإذا مـا انتشـرت أخبـار هـذه المكابدة ضمـن العائلة كلهـا، فإن تأثيرهـا سيرجّح كفّة الميزان لصالـح تيفالينوس ". كلا الحالين مر. كان بترونيوس رجـلاً شجاعًا لا يهاب الموت، ولكنه لا يطلبه أو يستدعيه، لأنـه لا ينتظر منه شيئـاً. بعد تفكير طويل قرر أخـيرًا أن أفضل الحلول

إبعـاد فينيكوس عن رومـا، ودفعه للسفر. وكم سيكـون سعيدا بتقبل الفكرة لو كانت ليفيا رفيقة سفره ! كان يأمل بإقناعه دون مشقة. وإن تم ذلك وأقنعه لا بد من إذاعة خبر في القصر يفيد أن فينيكوس مريض، لإبعـاد الخطر عنهما معا. في نهايـة المطاف لا تعلم الأوغستيّة إن كان فينيكوس قد تعرّف إليها أم لا.

وعلـى افتراض النفي، فليس هنالك إذن مـا يخدش غرورها. وقد يتبـين في المستقبل خطأ هـذا الافتراض. لكن كسـب الوقت كان هو المهـم بالنسبة لبترونيوس. لقد شعر أن القيصر حين ينطلق في رحلة إلى أكايـا فإن تيفالينوسـ الذي لا يفقه شيئاً بالأمـور الفنيّة، سوف يحصر في الزاويّـة ويفقد تأثـيره. وهكذا سوف يحـرز بترونيوس في اليونان انتصاره الساحق على خصومه كافةً، وفي أثناء ذلك صمم على أن يظل حريصا على فينيكوس حاثًا إياه على السفر.

واعتـزم، بعد تفكير طويل دام أياماً، أن يقنع القيصر بإصدار مذكرة بطـرد المسيحيـين من رومـا، وهكذا ستضطـر ليفيا أيضـاً إلى مغادرة المدينـة، سويّة مع فينيكوس. وفي هذه الحـال لا حاجة لإقناع الشاب بالسفـر ، كانت المسالة في حد ذاتها ممكنـة. فمنذ فترة ليست ببعيدة، حين بدأ اليهود ينزعجون من المسيحيين نتيجة كرههم لهم، فإن القيصر كلوديوسـ دون دراية منه في التفريق بين الطرفين، قام بطرد اليهود من روما.

فما المانع إذن أن يقدم القيصر نيرون على طرد المسيحيين من المدينة؟ بعـد تلـك " المأدبة العائمة " كان بترونيوس يلتقـي القيصر كل يوم، إن كان في القصـر أو في بيوت أخرى. وكان من السهل عليه أن يوشوشه موسوسًـا في صـدره بمثل هذا، بمـا أن نيرون لم يتخلـص أبدا من تقبّل

أفـكار من شأنها أن تـؤدّي إلى أذيّة أحدهم مهمـا كبرت أو صغرت. قلّب بترونيوس الفكرة بكافة وجوهها، وأعـد الخطة كاملة. فاعتزم إقامـة مأدبة يحدّث في أثنائها القيصر بإصـدار مذكرة الطرد. حتى أنه كان يأمـل، دون أن يخلـو هـذا من الأمل من تبريـر، أن يكلفه القيصر بتنفيـذ المذكرة. فيقـوم حرصاً منه على عزيزه فينيكوس بإرسال ليفيا إلى بايابـا مثلاً، حيث يتاح لهما ممارسة حبهمـا، مع ما يتيسر لهما من المسيحيّة.

في أثنـاء ذلك كان لا ينقطع عـن زيارات فينيكوس الكثيفة، لأنه أوّلًا وبالرغم من كلّ أنانيّته الرومانيّة لم يستطع أن يتنازل عن تشبثه به، ولرغبته ثانياً بإقناعه في السفر، تظاهر فينيكوس بالمرض، و لم يظهر في القصر حيث الخطط والمشاريع في تغيّر دائم. وذات يوم علم بترونيوس على لسان القيصر نفسه، أنه سيسافر إلى الأنتيوم خلال ثلاثة أيام، فأبلغ فينيكوس حالاً بالنبأ.

لكـن الشاب أراه قائمـة بالأشخاص المدعوّيـن إلى الأنتيوم كان معتوق القيصر قد أحضرها إليه صباح اليوم.

وقال فينيكوس :

ـ اسمـي، واسمك ضمـن القائمـة. وستجد القائمـة نفسها حال وصولك إلى منزلك.

فعلّق بترونيوس :

ـ إن لم أكـن في دائـرة المدعوين، يعني أنه ينبغـي عليّ أن أموت. ولا أظـن أن ذلـك سيحصل قبل رحلة أكايا لأن القيصـر في أمس الحاجة لي هناك.

والقى نظرة على القائمة ثم قال :

ـ لم نكـد نصـل روما، حتى بـات لزاماً علينا مجدّداً مغـادرة منازلنا، والمتابعة إلى الأنتيوم لكننا ملزمون، فهذا أمر، وليس دعوة فقط.

ـ وإن رفض أحدهم ذلك؟

ـ عندها قد يتلقّى دعوة أخرى إلى رحلة أطول لا عودة منها. خسارة أنك لم تقبل بنصيحتي، وتسافر حيث أمكن ذلك. والآن عليك أن تأتي إلى الأنتيوم.

ـ علي الان أن أذهب إلى الأنتيوم..... أترى أيّة آونة نعيش، و إلى أي درجة نحن عبيد.

ـ الم تكتشف ذلك قبل اليوم؟

ـ لا. لقـد حاولت أن تثبـت لي أن الدين المسيحي عـدو الحياة، لأنه يضـع القيود في طريقها. لكن هل ثمة قيـود أشد من قيودنا نحن؟ قلت لي إن اليونـان ابتدع الحكمة والجمـال، وروما ابتدعت القوة. أين قوتنا نحن؟

ـ ادعُ شيلـون، فليس لي اليوم مـزاج لأتفلسف. وا هرقل ! لست أنا مـن خلق هذه الاونة التي نحياها، ولست المسؤول عنها. دعنا نتحدث عن الأنتيوم. كن على علم أن خطرا كبيراً يهددك هناك. ولعل من الايسر عليك أن تواجه أرسوس الذي قضى على كروتون من ذهابك إلى هناك. ومع ذلك عليك أن تذهب.

ـ خطر ! كلنا نفكر متلمسين دروبنا في عتمة الموت. وواحدا فواحدا نغرق فيها.

ـ دعنـي أعدد كل من ضاقـت أحوالهم، و لم يتمكنـوا من تناول الا القليـل ممّا يشوى ، ستجد أنهم، بالرغم مـن أزمنة نيرون، أو تبريوس أو كاليفولا أو كلوديوس، قد بلغوا الثمانين، بل التسعين حولا . منهم على سبيل المثال لا الحصـر، أفر ديميتوس. كان لصا في حياته ومع ذلك فقد شاخ في آمان.

ـ فأجابه فينيكوس

ـ لعل هذا بالضبط السبب في ذلك.

وتصفح القائمة كلها ليقول معلقا :

ـ تيفالينوسـس، فاتنيوس، أفـر يكانوس سكتوس الـخ......... أيّة قذارة ! أيّة لصوصيّة ! وإذا ما فكر المرء بأن هؤلاء من يحكمون العا لم ! اليسـ الاجدى لهم، لينالوا رغيف خبزهم، أن يمارسوا أعمالا أخرى؟ كأن يدورون في البلدات يشعوذون ويقرؤون المستقبل.

وأردف يقول :

ـ أو يعرضـون قـرودا ذكيّـة، أو كلابا تجيد العـدو، أو حميرا تنفخ بالمزامـير كل هذا صحيح. لكن دعنا نتحدث عن قضايا أهم. اسمعني جيـدا. لقد أذعت في البالاتنيوس القصر نبـأ أنك مريض، ولا تستطيع مغـادرة المنـزل، ومع ذلك فقـد ورد اسمـك، ممّايعنـي أن أحدهم لم يصدقني، وتعمد وضع اسمك في القائمة.

لكن مـا حصل لا يهم القيصـر، لأنك لست في نظـره سوى مجرد جنـدي يمكن أن يحدثـه في أفضل الاحوال، عـن مسابقات السيرك، لأنـك لا تفقه شيئاً في الشعـر والموسيقا. بديهـي أن بوبيا من فكر في

أمرك، وأوردتــك في القائمة، ممّايعنــي أن معاناتها تجاهك، ليس مجرد نزوة عابرة. وهي تريد أن تخضعك.

ما أشجعها من أوغستيه بوبيا هذه !

ـ شجاعــة بالفعل. إنها تكتــب نهايتها. فينوســ تدفعها لحب آخر بأسرع ما يمكــن. وما دامت راغبة فيك، فعليك أن تلزم أعلى درجات الحــذر والحيطة. بات صاحب اللحيّة الحمراء حياديا حيالها، وأضحى منجذبا نحو روبريا أو فيثا غوراس. لكنه بدافع من غروره المحض، قد ينعم عليكما أشد النعمة.

ـ في الغابة، لم أكن أعرف من التي قابلتها، وأنت سمعتني أقول لها بأنني لا أريدها وأحب واحدة أخرى.

ـ أما أنا فأستحلفك بكل ما تحت الأرض من الهة، الا تفقد ما أبقاه لك المسيحيون من عقلك. كيف ستتصرف إذا ما كان عليك أن تختار بــين الفناء المحتمل والفناء الاكيد؟ ا لم أقــل لك إنك إن خدشت غرور الاوغستينــة فلا منجاة لك؟ إن سئمت حياتك فاستجمع كل ما لديك مــن قوة لمواجهة أقسى أشكال الموت إن أغضبت بوبيا. فيما سبق كان الحديث معك أكثر يسرا. فما الذي تبغيه الان؟ فكر جيدا !

ولا تنس أن بوبيا قد شاهدت ليفيا في البالاتينوس، ولن يشق عليها أن تعــثر على من كانت السبب في رفضك هــذه النعمة الرفيعة، وتأتي بها من تحت الأرض. وعندئذ ستخسر نفسك وتخسر ليفيا أتفهم؟

كان فينيكوس يسمع وكأن عقله في مكان آخر، حتى تكلم أخيرا :

ـ ينبغي أن أقابلها.

ـ من؟ ليفيا؟

ـ أجل.

ـ أتدري أين تكون؟

ـ لا.

ـ أي أنك تريد البحث عنها في المقابر القديمة، وراء نهر تيبريس؟

لا أدري، لكن علي أن أقابلها.

ـ حسنــا. حتى لو كانت مسيحيّة، فقد يتبـين أنها أذكى منك، ولا تريد أن تفقدك.

هز فينيكوس كتفيه قائلاً :

ـ لقد أنقذتني من بين يدي أرسوس.

ـ أسرع إذن، لآن القيصر لن يرجئ سفره. ويمكن له أن يصدر أحكام الموت حتى في الأنتيوم.

لكن فينيكوس لم يكن يسمع ما يقول، لأنه كان ساهما يفكر بليفيا وكيف يلتقيها.

في هــذه الاثناء حصل ما يبعد كل صعوبة. في اليوم التالي طب عليه شيلون. جاءه محطما، رثا، جائعا، مهدل الملابس، لم ينتظر حتى يسمح له الخدم، فدخل مباشرة إلى الأتريوم، ووقف أمام فينيكوس قائلاً :

ـ فلتجعلــك الالهة خالدا لا تمـوت، وليقتسموا معك سلطان العا لم العلوي.

بـادئ الأمر رغب فينيكوس أن يطرده، لولا أن خطر له أنه قد يعلم شيئاً عن ليفيا، فتغلب فضوله على اشمئزازه.

ـ هذا أنت؟ ما الذي حصل لك؟

فأجاب شيلون

ـ خطـب عظيم، يا بن جوبيتر. الفضيلة الحقـة سلعة لا تلزم لأحد، والحكمـة الحقيقيّة ينبغـي أن تفقد العقل، إذا لم يكن بمقدورها، الا كل خمسـة أيام مرة واحدة، أن تشتري من عنـد الجزار رأس نعجة، وبعد أن تقتاتها في كوخها الفقير، تروي عطشها بدموع عينيها. آه يا سيدي كل ما أعطيتنيـه أنفقته على الكتب. ثم نهبوني ودمروني، والعبدة التي كان ينبغي أن تخط تعاليمي هربت بكل ما بقي من عطايا جودك علي. صرت شحاذا، لكني فكرت مـن أقصد، إن لم تكن أنت الذي أحب، وأبج ل، وأغامر بحياتي من آجله.

ـ لمَ آتيت؟ وما الذي في حوزتك؟

ـ من أجل المساعدة، آه، يا بعل، جالبا معي بؤسي ودموعي ومحبتي، وأخبـارا جمعتهـا بدافع المحبة لك. أتذكر، يا سيـدي، ما قلته لك في ذلك الحـين، أني سحبت من حزام فينوس خيطا لأجل إحدى رقيقات بترونيوس؟..... ثم تتبعـت الأمر، ترى هل أفادهـا الخيط في شيء؟ وأنت، يا ين الشمس، يا من تعلم ما الذي يحصل في ذلك المنزل، تعلم أيضـاً ما مصير يونيكـي الان هناك. في حوزتـي الان خيط آخر مثله. احتفظت به لأجلك يا سيدي.

اكتفـى بما قاله لمـا شعر أن الغضب قد تركز بـين حاجبي فينيكوس فأراد أن يستبق الانفجار، قائلاً :

ـ أعلم أن تقيم ليفيا الربانيّة. سأدلك على المكان.

ـ أين هي؟

ـ عند لينوس كبير بابوات المسيحيين، ومعها أرسوس ، لكن أرسوس يقصد أيضاً طحانا، يدعى ديماس. أجل ديماس ! أرسوس يعمل في الليل. فإذا ما طوقت البيت ليلا لن نجده هناك..... لينوس شيخ عجوز، ولا أحد غيره في المنزل سوى امرأتين عجوزين كذلك.

ـ من أين لك هذه المعلومات؟

ـ لعلك تتذكر أنني كنت في قبضة المسيحيين و لم يؤذوني. يخطئ كلاوسيوس حين يعتقد أني السبب في نحسه. لكن المسكين آمن بذلك، وما زال حتى اليوم، ورغم ذلك لم يؤذوني !

لا تستغرب يا سيدي أن قلبي عارم بالامتنان. أنا من الجيل القديم الاصيل. سالت نفسي : هل علي أن أتخلى عن أصدقائي، وعمن أحاطوني بفضائلهم؟ اليس نكرانا للجميل عدم الاكتراث بهم وبأحوالهم، وأين يقطنون. أقسم بـ سيبل بسينوس أني لا أقوى على فعل ذلك. ترددت بادئ الأمر في الذهاب، خشيّة أن يساء الفهم فيما أرمي اليه من زيارتي لهم. لكن محبتي غلبت خشيتي. والذي على وجه الخصوص، منحني القوة هو أنهم يصفحون بسهولة عمن يؤذيهم. فكرت بك، يا سيدي، قبل أي أحد آخر. صحيح أننا فشلنا في مهمتنا السابقة، لكني الان واثق من كل شيء. والأمر يتعلق بك وحدك، لتكون البنت الملكيّة الطيبة، هذه الليلة، في منزلك. فإذا ما تم ذلك، فكر في أن الفضل في ذلك يعود إلى هذا الجائع المدقع الماثل أمامك.

قار الدم في رأس فينيكوس، وهز الجنون كيانه، كأن مسا قد أصابه.

إذا مـا صارت ليفيا عنـده في المنزل، فمن يجرؤ علـى سلبها منه؟ وإن أتيـح له أن تكون حبيبته، فما الـذي يشغله في الحياة بعدئذ سوى تشبثه بها كحبيبة أبديّـة؟ فلتندحر الاديان جميعها ! لن يكترث بعدها لا بالمسيحيـين، ولا بسمـا حتهم ولا بمعتقدهـم البائـس. أما آن الاوان لينفض كل هذا عنه؟

أما آن له أن يعيش الحياة كما يحياها الاخرون؟ أما ما الذي ستفعله ليفيا فيما بعد، وكيف ستوائم بين قدرها ودينها، فهذا شأنها.

ولعلـه أمر ليس بـذات أهميّة ! ستكون ليفيا لـه أمام أعين الجميع، والان وحـالا، وفي هـذا اليوم. لكن السؤال : تـرى في عالمها الجديد هل ستستقيم تلك التعاليم في روح ليفيا التي ستستسلم للمعاناة والمتعة علـى حد سواء؟ كل هذا يمكـن أن يحصل هذا اليـوم. لا داعي لإبقاء شيلون هنا أكثر من ذلـك. عند الغروب سوف يصدر أوامره. وبعدها السعادة اللانهائيّة. فكر فينيكوس. ما حياتي أنا سوى معاناة، ورغبة لم أقـو على إشباعها دون أجوبة لا تنتهي. ومن الان فصاعدا كل ذلك انتهى ولا رجعة له.

وخطر له أنه وعد ليفيا بالا تمتد يده عليها. لكن لم يكن قسما، وإن كان قد أقسم فبأي شيء قد أقسم؟

مـن المؤكد أنه لم يقسم بالالهة، لأنـه لا يؤمن بها في الاساس، ولا بالمسيـح لأنه لا يؤمن به بعـد. وعلى أيّة حال إذا مـا شعرت ليفيا أنها مهانـة فسوف يتزوجها، وبذلك يعوضها عن كل شيء. أجل هذا لزام عليـه تجاهها، اليست هي من أنقذ حياتـه. لا يمكن أن يعاملها كرقيقة، فهـو لا يشتهيها فقط بل يحبها أيضاً. وحبـه لها عائد إلى أنها هي كما هي، دون مقارنة بسواها. ولمع في رأسه أنه لا يكفي أن تكون ليفيا هنا

في منزله. لا يكفي أن يشدها بعنف من ذراعها، فحبه يطمح للوصول إلى أكثر من ذلـك : تقبلها، وحبها، وروحها. مباركا سيكون مسعاها إذا مـا وطئت بيته من تلقاء ذاتها. مباركة ستكون تلك اللحظة، وذلك اليوم، ومباركـة ستكون الحياة. وستكون سعادتهـا لا نهائيّة كالبحر، وكالشمس. لكن اختطافها بالقوة، يعني اغتيال تلك السعادة العظيمة والقضـاء عليها إلى الابد. كما يعني تدمـير، وإهانة من أحب، والحاق العار بأغلى ما لديه في هذه الحياة.

تملكتـه الرعدة لمجرد التفكـير على هذا النحو. التفـت إلى شيلون الذي تسمـر أمامه فارغ الصبر داسا يديه في ثيابه الباليّة.

فاشمـأز لمرآه، وتمنى لـو يقوم، ويسحق هذا المعـاون السابق، كما يسحق المرء دودة أو أفعى سامة. بعد فترة قصيرة أدرك ما عليه أن يفعل. وبما أنه لم يعرف لأي شيء قيمة، وأنه كان في كل شيء ينقاد وراء طبعه الروماني الصلد، فقد التفت إلى شيلون قائلا :

ـ لـن أفعـل ما تنصحني بـه، لكن لـن أدعك تذهـب دون مكافأة تستحقها. ستنال ثلاثمئة عصا.

شحـب شيلـون. كان الـبرود يضفـي جمـالا إضافيا فـوق وجه فينيكوس، فظـن العجـوز أن العقوبة ليست جادة، ومـا هي الا مجرد مـزاح أراده الشاب. ولكن سرعان ما اكتشف عكس ذلك، فجثا على ركبتيه، واحد ودب منكمش الجسد، يتأوه متوسلا :

ـ كيـف يا ملك برجيا؟ لماذا؟..... يا هـرم الرحمة؟ لماذا؟ أنا رجل عجوز، جائـع وبائس.... هكذا ترد لي جميلـي. هذه مكافأتي منك على خدماتي لك؟

فأجاب فينيكوس :

ـ ومن أنت بالنسبة للمسيحيين؟

واستدعى رئيس الخدم.

لكـن شيلـون قفـز إلى قدميه،وضمهمـا متوسلا، متأوهـا، وكان شحوب وجهه موحيا بالموت:

ـ سيـدي ! سيـدي ! أنـا عجـوز ! خمسـين، وليس ثلاثمئة... خمسين... مائة وليس ثلاثمئة... الرحمة !

ركلـه فينيكوس بقدمـه، وأعطى أمره. جاء رئيس الخدم وفي إثره عبدان قويان، فأمسكا شيلون بما تبقى من شعره، داسين رأسه في ثيابه، وأخرجوه إلى المجلد.

ـ باسم الميسح ! صاح اليوناني عند باب الممشى.

بقـى فينيكوس وحيـدا. الأمـر الذي أصـدره جعله أكـثر نشاطا وحيويّة.

حـاول في هذه الاثناء أن ينسق أفكاره. شعر براحة كبيرة. انتصاره علـى ذاته شد من أزره ، وقوى روحه. وأحس أنه اقترب خطوة كبيرة من ليفيا فاستحق هذه الراحة.

في اللحظة الاولى لم يخطر له البتة، أنه قد الحق بشيلون ظلما كبيراً، وأن العقوبـة بالضرب كانت لنفس السبـب الذي كافأه لأجله في المرة السابقـة. وحتى لو خطر لـه هذا الخاطر، فبالنظـر إلى طبعه الروماني، كان سيشعر أنه تصرف حسنا تجاه هذا الرجل الوضيع. كان لا يفكر الا

بليفيـا، وكان في أعماقه يناديها : "لن أقابل معروفك بالشر. وإذا ذات يوم، عرفتِ كيف عاملتُ ذلك الرجل الذي نصحني بأن أقسو معك، ستكونـين ممتنة لي علـى ما فعلـت". ولكنه سرعان ما طـرح السؤال على نفسه : تـرى هل ستثني ليفيا على ما فعله مع شيلون؟ خاصة وأن دينهـا يدعو إلى الصفح والمسامحة، وقد مارس المسيحيون صفحهم عن هذا البائسـ، رغم دافعهم الاكبر للنقمة عليه. ترجـع في أذنيه النداء "باسم المسيح" وتذكـر أنه بهذا النداء قد فاز شيلون بالافلات من يدي أرسوس، فاتخذ قرارا بأن يعفو عما تبقى من عقوبته.

كان موشكا أن يستدعي كبير الخدم، لما دخل الاخير تلقائيا ليعلن :

ـ سيدي، العجوز فقد وعيه،ولعله قد مات. هل أتابع ضربه؟

ـ أنعشوه،و هاتوه !

كان ناظـر الأتريـوم وراء الستـارة، لكن، على ما يبـدو، أن عجلة الانعاش لم تجرِ بسهولة، لأن فينيكوس قد انتظر طويلاً، وبدأ صبره ينفد حين أدخـل الأرقّاء شيلون. وانسحبوا في الحال بإشارة من فينيكوس. كان شيلون شديـد الشحوب. وكان الدم ينزف من قدميه على أرضيّة الأتريوم. كان بوعيه وجاثيا على ركبتيه، باسطا يديه. تلعثم قائلاً :

ـ شكرا سيدي ! أنت كبير ورحيم.

فصرخ به فينيكوس :

ـ كلب! كن على علم أنني عفوت عنك من أجل ذلك المسيح الذي أدين له بحياتي مثلك.

- أنا خادم له يا سيدي، ولك أيضاً.

- اسمعني جيدا ! انهض ! ستأتي معي، وتدلني على المنزل حيث تقيم ليفيا.

قفز شيلون ناهضا، وما إن وقف على قدميه وكان شاحبا كميت حتى قال بنبرة واهنة :

- سيدي، أنا جائع بالفعل... سأذهب، يا سيدي، سأذهب لكني خائر القوة... أطعمني لو بقايا كلابك في التربة، وسأذهب بعدها.

طلب فينيكوس له الطعام، وأن يعطوه ذهبيّة، وعباءة، لكن شيلون قد أوهنه الضرب والجوع حتى لم يقو بعد الطعام على الحركة، وانتصب شعر رأسه مخافة أن يعتبر فينيكوس وهنه هذا مقاومة ورفضا، فيأمر بضربه من جديد.

كرر ما قاله مبديا أسنانا ضاحكة :

- فور أن يشحنني النبيذ، سأقوى على الذهاب حتى إلى بلاد الإغريق الشاسعة.

وبعد فترة قصيرة استجمع شيئاً من قوة، فانطلقا. كان الطريق طويلاً. لينوس كغالبيّة المسيحيين، كان يسكن في ترانستبريس. ليس بعيدا عن بيت ميريام، أشار شيلون إلى بيت صغير مفرد محاط بجدار حجري.

ثم قال :

- هذا هو يا سيدي :

- حسنا. انصرف الان إلى أشغالك. لكن اسمع أولا ما أقوله لك

: انســ أنك خدمتني، انس أين تسكـــن ميريام، و بطرس و كلاسوس، انســ هذا المنزل، وانس كل مسيحي. تعال الي كل شهر مرة، وسيدفع لــك المعتــوق ديماس ذهبيتــين. لكن لــو استمريــت في التجسس ضد المسيحيين، سآمر بضربك على رأسك، أو أسلمك إلى شرطة المدينة.

ـ سأنسى.

ومــا إن توارى فينيكوســ بعد منعطف الزقاق، حتــى ضم شيلون قبضته، وصاح متوعدا :

ـ قسما بـ أي و فويكا أنني لن أنسى.

٣٣

توجـه فينيكوس مباشرة إلى منزل ميريام. صـادف أمام الباب ابنها نازايوس. ارتبك الشاب لمرآه، لكن فينيكوس حياه بمودة، وطلب منه أن يدخله إلى المنزل.

كان ممـن رآهم، إضافة إلى ميريام، كل مـن بطرس و كلاوسوس و كريسبوس و بولس الترسوسي، الذي وصل لتوه من فريكيلا. اندهش أيما اندهاش لمرآى فينيكوس الذي بادر بالقول :

ـ أحييك باسم المسيح الذي أُجله.

ـ تمجد اسمه إلى أبد الابدين.

ـ لقد عاينت فضائلكم، ولمست طيبكم، فجئتكم كصديق طيب.

فرد بطرس قائلاً :

ـ ونحن أيضاً نحييك كصديق طيب.

ـ سأجلس وأشارككم طعامكم، لكن اسمعوني أولا. أنت يا بطرس، وأنت يا بولس، كونا على ثقة أني أعرف أين ليفيا. أتيت من منـزل لينوس القريب من هذا البيت. من حقي وقد منحني القيصر هذا الحق، أن أطوق المنزل بخمسمئة من أرقائي، وأنتزع ليفيا من بينكم، لكني لم أفعل ولن أفعل ذلك.

فقال بطرس :

ـ باركك السيد على هذا، وطهر قلبك.

ـ شكرا، لكن اسمعوني جيدا. لم أفعل ذلك رغم الاوجاع والاشواق التي تلوكني. في أثناء غيابي عنكم، كان بوسعي أن أخذها بالقوة، وأحتفظ بها لنفسي، لكن أخلاقكم، وتعاليمكم، التي لا اعتنقها أساسا، قد بدلت في روحي شيئاً يمنعني أن الجأ إلى العنف. لا أدري ما الذي حصل، لكنه قد حصل ! جئتكم إذن، بصفتكم أهل ليفيا عوضا عن أمها وأبيها، لأقول لكم : أعطوني إياها كزوجة، وأقسم بأني لن أقف حائلا وأمنعها عن إيمانها بالمسيح، لا بل أعدكم أني سأتعلم منها الدين المسيحي.

تكلم برأس مرفوعة، ولهجة واثقة، لكن رجليه صارتا ترتجفان حين أنهى كلامه. وران صمت موحش، فسارع إلى التدخل مستبقا سماع رد غير مرغوب فيه :

ـ أعرف العوائق، لكني أحبها كحياتي. صحيح أني لست مسيحيا، لكني لست عدوا لكم ولا للمسيح. رغبتي أن أحظى بثقتكم. هذه لحظة مصيريّة لحياتي، وأنا أحدثكم بكل صدق. لعل أحدا غيري سيقول : " اجعلوني مسيحيا " لكني أقول : " نو روني ! ". فأن يكون المسيح قد قام بعد الموت، فذلك يقوله من يعيشون حقيقه أنهم قد رأوه بعد موته. أنا رأيت بنفسي ما يتضمنه دينكم من الصدق والفضيلة، والسماحة، لا من أفعال الخبث التي تسيء فيكم الظنون. لا أعرف، بعد، هذا الدين حق المعرفة. لكنها معرفة نلتها منكم، ومن معاملتكم، ومن أحاديث ليفيا عنكم. أعيد الكرة وأقول

أن شيئاً قد تبدل في. كنت في السابق أعامل أرقائي بيد حديديّة، أما الان فبت لا أقوى على ذلك. لم أكن أعرف الرحمة، والان أعرفها. كنت أحب متع الحياة، لكني الان هربت من مأدبة بحيرة أكريبا لأني لا أطيق هذا القرف. كنت في السابق مؤمنا بالعنف والقوة، وقد تخليت عنهما. كونوا على علم بأنني بت لا أجد نفسي، لكني أقرف المآدب، أقرف النبيذ، والغناء، والات الموسيقا، والاكاليل، وأقرف البلاط القيصري، والاجساد العاريّة، وكافة الشرور.

وكلما فكرت كم ليفيا نقيّة كثلج الجبال، وأن نقاءها مرده إلى دينكم، ازداد حبي لها، ولهذا الدين. وبما أني لا أفهمه ولا أدري إن كنت أحتمل، بالنظر إلى طبعي، أن أحياه، وأعيش تعاليمه، لذا أجد نفسي، متروكا للعذاب والحيرة والتمزق، وكأني أحيا في سجن مظلم.

ثم تقطب جبينه، واكتسى وجهه بالحمرة، واسترسل في الكلام من جديد :

ـ ترون كم يؤرقني الحب وغبش البصيرة. قيل لي أن دينكم لا يقيم اعتبارا للحياة والسعادة، ولا للحقوق والنظام، ولا للتفوق وسلطة روما. اليس كذلك؟ وقيل لي أنكم جميعا مجانين، فقولوا لي ما الذي أنتم جئتم به؟ هل الحب خطيئة؟ هل الشعور بالسعادة خطيئة؟ هل الفرح خطيئة؟ هل أنتم أعداء الحياة؟ هل على المسيحي أن يكون شحاذا؟ هل علي أن أتخلى عن ليفيا؟ ما الصحيح لديكم؟ مساعيكم وكلامكم كالماء العذب، ولكن ما الذي يرقد في قا ع هذا الماء؟ ترون مدى صدقي. بددوا هذه الظلمة من أمامي ! فقد قيل لي

أن اليونـــان جاء بالحكمة، والجمال، وجاءت روما بالقوة، فما الذي جئتم به أنتـــم؟ قولوا لي ذلك. وإن كانت أبوابكم تنغلق على أنوار، فافتحوا أبوابكم لي.

قال بطرس

- جئتنا بالمحبة.

وأضاف بولس الترسوسي :

- لـــو تحدثـــت بلسان البشـــر أو الملائكة، وقلبي خـــال من المحبة، لكان كلامي طنانـــا أجوف لا معنى له. لكن قلب الحواريّ العجوز خفـــق لهذه النفس المتخبطة كطائر محتجز في قفص يضرب بجناحيه نحو الفضاء والشمس، ففتح يديه نحوه قائلاً.

- مـــن يدق الابـــواب تفتح له. لقـــد نلت رحمة السيـــد فأنا الان أباركك، وأبارك روحك، وحبك، باسم مخل ص العا لم.

كان فينيكوســـس يتحدث بحماسة. والان، وقـــد سمع ما نطق به بطرســـ، قفز إلى بطرســـ، وبحركة غريبة أمسك بيـــده وقر بها من شفتيه تعبيرا عن امتنانه.

كانـــت بهجة بطرس لا توصف، وقـــد أدرك أن غرسته أثمرت، وشبكته صادت روحا جديدة أخـــرى. أما الحضور، وترحابا منهم بما أبـــداه فينيكوس من احترام لحواري السيـــد، فقد صاحوا مهللين صيحة شخص واحد :

ـ المجد للرب في الاعالي.

صحا فينيكوس بوجه مؤتلق ليقول :

ـ أرى أن السعـادة يمكـن أن تقيـم بينكم، لأني أشعـر بالسعادة. وأظنكـم ستفـوزون في أمور أخـرى لكن ذلك لن يتـم في روما. القيصـر سيسافر إلى الأنتيوم، وعلـي أن أكون بأمر منه معه. تعلمون أن رفض الأمـر يعني الموت. لكـن إن كنتم تنشـدون الرحمة أمام أعينكـم، فتعالوا معي وابدؤوا بتعليمـي، فهناك أكثر أمانا لكم. قيل أن أكتـي مسيحيّـة، وأن بين الحرس كثيرين مثلها، وأنـا رأيت بأم عيني كيف عند مدخل نوفتنانـا ركع الجنود أمام قدميك يا بطرس. لـدي في الأنتيوم فيـلا يمكننا في ظل نيرون أن نجتمـع فيها ونصغي إلى تعاليمكـم. قال كلاوسوس إنكم قـد تصلون إلى نهايّة العا لم من أجـل الفوز بشخص واحـد. افعلوا من أجلي مـا تفعلونه للآخرين الذيـن جئتم لأجلهم من يهوديه البعيدة. افعلوا ذلك ولا تتخلوا عن روحي!

أمـا هم، فراحـوا يتشاورون بعدمـا سمعوا ما سمعـوه. فكروا بالفوز الكبير لدينهم، وبما يعنيه اعتناق أحد الاوغستينيين من أعرق أقوام رومـا الوثنيين الديـن المسيحي. وبما أنهم حقـا على استغداد لبلـوغ أطراف الدنيا مـن أجل نفس واحدة، فلـم يكونوا في وارد الاعتراض علـى فينيكوس، لكن بطرس في هذه الاونة، كان راعي الجموع كلها هنا، فليس بمقدوره أن يذهـب.

علـى العكس، بولـس الترسوسي الذي جـاب أريسا و فريغلا، ويستعـد الان للعـودة في طريق طويلة إلى الشـرق، للاطمئنان على

أحوال الجموع هناك وإيقاظ هممهم، فقد قرر مرافقة الشاب إلى الأنتيوم حيث من اليسير إيجاد سفينة في البحار اليونانيّة.

أما فينيكوس، فقد أحزنه أن بطرس الذي يدين له بامتنان شديد، لن يرافقه. ومع ذلك فقد قدم شكره الجزيل، وتوجه نحو الحواريّ العجوز برجاء أخير :

ـ أعلم أين تقطن ليفيا، فبوسعي إذن أن أذهب اليها بنفسي، وأسألها كما تستوجب اللباقة و الادب،إن كانت تقبل بي زوجا. رضيت روحي بالمسيحيّة. وأرجو منك بالتحديد يا بطرس أن تسمح لي بزيارتها، أو أن تأخذني اليها بنفسك. ولأني لا أدري كم سيطول بقائي في الأنتيوم، وكما تعلمون لا أحد مقربا من القيصر يمكن أن يكون ضامنا لحياته. كان بترونيوس قد قال لي أنني لست في آمان كبير هناك. فدعني أرها. دعني أشبع عيني منها. دعني أسألها إذا ما كانت قد سامحتني، وإن كانت على استعداد لمشاطرتي الحياة الصالحة.

فأجابه بطرس بطيبته المعهودة مبتسما :

ـ ومن ذاك الذي يمنع عنك السعادة الحقيقيّة يا بني؟

انحنى فينيكوس مجدّداً على يد الحواريّ، لأنه لم يستطع أن يكبح فرحته العارمة، واندفاعة قلبه، لكن الحواريّ أمسك رأس الفتى بيديه قائلاً له :

ـ لا تخف من القيصر، لأن شعرة منك لن تمس بأذى.

وأرسل ميريام لتأتي بـ ليفيا، منبهها إياها الا تخبرها بمن جاء لزيارتها فتكون فرحتها أكبر. لم يكن المنزل ببعيد من هنا، فما لبثت ميريام أن عادت مصطحبة الفتاة.

أراد فينيكوس أن يجري إلى الفتاة، لكن رؤيّة المحبوبة جعلته من فرط سعادته، يفقد كل عزم لديه. بقي في مكانه خافق القلب، مرتبك الانفاس، لا تقوى ساقاه على حمله. كان انفعاله أضعاف ما كان عليه حين سمع لأول مرة سهام البارتوسيين تئز قرب أذنيه.

دخلت الفتاة مسرعة تجهل الأمر، لكنها ما إن لمحت الشاب حتى تسمرت أيضاً في مكانها. طفح وجهها بإحمرار تلاه شحوب مخيف، ثم جالت بعينين جافلتين مذهولتين فيمن حولها من الحضور. لكنها لم تلمح سوى وجوه مؤتلقة تشع هدوءا وطيبة.

تقدم نحوها بطرس وقال :

ـ أما زلت تحبينه يا ليفيا؟

تلا ذلك صمت آني. ارتعشت شفتا الفتاة كطفل تقوس فمه أثناء البكاء، وكمن يشعر بنفسه مذنبا وعليه الان أن يعترف بذنبه.

استعجلها بطرس :

ـ أجيبي :

فتقدمت راكعة أمام قدمي الحواريّ، وبصوت خفيض جافل همست قائلة :

ـ أحبه.

وفي هــذه اللحظة كان فينيكوس قد صــار راكعا إلى جانبها، أما بطرس، فقد وضع يديه فوق رأسيهما، وقال :

ـ أحبا بعضا كرمى للسيد ولمجده، لأن حبكما ليس خطيئة.

٣٤

تنزّهـا في الحديقة، وأعاد فينيكوس لليفيا بعبـارات متسرّعة، نابعة مـن القلب، ما كان قد بـاح به للحواري قبل قليل : مـا يعانيه من قلق روحـي، وما طـرأ عليه من تبـدلات، وأخيراً مقـدار شوقه اللامحدود الـذي استحوذ عليـه وملأ كيانه، منذ أن غادر منـزل ميريام. واعترف لهـا أنه أراد أن ينساها لكنه لم يحتمـل. وأنه كان يسهر الليالي الطوال دون أن تغيب عن باله لحظة واحدة ويذكره بها ذلك الصليب الخشبي الصغير الذي تركته له هناك، ويعرضه في أحد رفوف منزله، وينظر إليه باحترام وكأن فيه شيئاً الوهيا. لكم اشتدّ شوقه إليها، بفعل حبه العنيف لهـا. حيـاة الاخرين تنسجها الاقـدار، لكن حياتـه منسوجة بالحب، والشوق، والحزن.

كانـت أفعالـه سيئـة، لكنها أعطت الحـب. لقد أحبهـا عند عائلة أولوشـ، وأحبها في البالاتينوسـ، وأحبها حين رآهـا في الأستريانوم وهو يستمع إلى موعظة بطرس، وأحبها حين أراد أن يختطفها بمساعدة كروتـون، وحين لم تبارحـه في مرضه، وظلت قرب سريـره، وأحبها حـين غادرته. جاء اليه شيلون ووشى بمنـزل ليفيا، ونصحه باختطافها مـن هناك، لكنه فضـل أن يقصد الحواريّ، ويسأله عـن صحة الدين، ويطلـب يد الفتاة منه،... بوركت اللحظـة التي جاءت بهذه الفكرة، وجعلتـه الان بقربهـا. ليفيا لـن تفارقه بعد الان، ولـن تهرب منه كما فعلت من قبل في منزل ميريام.

قالت ليفيا :

ـ لم أهرب منك.

ـ لم فعلت ذلك إذن؟

رفعت الفتاة عينيها الزرقاوين، ثم أطرقت خجولة وقالت :

ـ أنت تعرف جيدا.

ثم أمسك يد الفتاة، و لم يقو على متابعة الكلام.

راح يحدق فيها بانشداه، وكأن حياته قد استرجعت السعادة، وأنه يريد أن يتأكد أنه قد وجدها وأنها الان بقربه حقا.

اكتفى بترديد اسمها متأوها :

ـ آه، ليفيا، ليفيا !

وأخيرا، راح يبوح بما يدور في أعماق روحه، كما اعترفت له الفتاة أنها قد أحبته مذ كانت في منزل اولوش، ولو أن فينيكوس قد أعادها آنذاك من القصر إلى ذلك المنزل، لباحت له بحبها، ولتوسلت لأولوش، وبومبونيا أن يسامحاه.

ـ أقسم لك يا ليفيا أنه لم يخطر لي أن أبعدك عن عائلة اولوش. في ذات يوم سيوضح لك بترونيوس أنني أفصحت له عن حبي لك، وأني أريدك زوجة لي. لكنه سخر مني، واقترح على القيصر أن يعاملك كرهينة، ويعيدك الي. لقد اصطدمت بكثير من العناء والالم، لكن عسى أن يكون القدر قد أراد ذلك لأتعرف على المسيحيين، وأفهمك جيدا.

فأجابت ليفيا :

ـ تأكد يا ماركوس أنها مشيئة المسيح ليقربك منه.

فهز رأسه مبديا الدهشة، وقال بنبرة حيوية :

ـ صحيـح ! حصل كل شيء على نحـو غريب حيث بحثت عنك، التقيـت المسيحيـين.... وأصغيـت باندهاش لمـا قاله الحـواريّ في الأستريانوم من أمور لم أسمع بها من قبل. هل صل يتِ لأجلي.

هزت رأسها موافقة:

ـ أجل!

سارا بجوار تعريشة مـن الشجيرات، حتى وصلا إلى المكان حيث قام أرسوس بخنق كروتون، وهجم على فينيكوس.

ـ هنا كنت سأفقد حياتي لو لم تكوني هناك.

فقاطعته الفتاة :

ـ لا تذكرها، وأنس ما فعل أرسوس!

ـ هل أنقم عليه لأنه حماك؟ لو كان عبدا لعتقته حالا.

ـ لو كان عبدا لعتقت أرسوس منذ زمن بعيد.

فسال فينيكوس:

ـ أتذكرين أنني أردت أن أعيدك إلى عائلة اولوش؟

كانـت إجابتك : لو عـرف القيصر سينقـم على العائلـة. أما الان فبوسعك أن تزوريها متى تشائين

ـ لماذا يا ماركوس؟

ـ قلـت " الان " لكني فكرت أن بوسعك فيما بعد أن تزوريها بكل اطمئنـان حين تكونـين لي. اليس كذلـك !.... لأنه في حـال سالني القيصـر: ماذا حـل بالرهينـة التي في عهدتـي، لأجبته أننـي أتخذتها زوجة لي، وأنها تزور عائلة اولوش بإرادتي. لن يبقى القيصر طويلاً في الأنتيوم، لأنه يتطلع إلى أكايا، لكن حتى لو بقي هناك مدة أطول، فليس لزاما علـي لقاؤه كل يوم. فما أن يقوم بولـس بتعليمي ديانتكم، حتى أعتنـق المسيحيّة حالا، وأعود إلى هنا، وأفوز بصداقة عائلة اولوش التي تعود في هذه الاونة إلى المدينة، ثم أتزوجك. آه أيتها السماء !

وفتح يديه كأنه ينادي السماء لتشهد على حبه. أما ليفيا فقد رفعت وجهها المؤتلق نحوه وقالت :

ـ وعندئذ سأقول : " حيث تكون أنت غايوس، أكون أنا غايا ".

صاح فينيكوس :

ـ لا يـا ليفيا ! أقسم أن ليس هنـا امرأة ستحظى باحترام رجلها كما ستحظين به عندي من قبل الجميع.

تمشيـا قليلا صامتين، لا يتسـع صدراهما لفرحتهمـا الهائلة. كان غارقـين في حـب بعض، وكانا كالهين، وجميلـين كأن الربيع قد طلع بهما مع أزهاره.

وأخيرا توقفا قرب باب المنزل أمام شجرة السرو المخضوضرة.

استنـدت ليفيا على جـذع الشجرة، أما فينيكوس فقد بدأ يتوسل اليها بصوت مرتعش :

ـ أرسلي أرسوس إلى عائلة اولوش، وليجمع كل متاعك والعاب طفولتك، ويأتي بها إلى عندي.

لكن الفتاة احمرت، كوردة جوريّة أو كالفجر، وأجابت:

ـ اللباقة تقول غير ذلك.

ـ أعلم. لكن أفعلي ذلك لأجلي. سآخذ متاعك معي إلى الفيلا في الأنتيوم لتذكرني بك على الدوام.

وجمع راحته على طريقة طفل يتضرع مكررا:

ـ بومبوينا ستعود هذه الايام. افعلي ذلك من أجلي.

ـ اللباقة أن تفعل بومبوينا ما تراه مناسبا. هي العقيلة، ووليّة الأمر.

وتفاقم احمرار وجهها عند ذكر بومبوينا

ثم صمتا من جديد، لأن الحب قد قطع أنفاسهما.

كانت ليفيا تستند بظهرها إلى شجرة السرو، ذابلة الوجه كزهرة في الظل، وقد أغمضت عينيها، وماج صدرها عابقا بالحرارة. أما وجه فينيكوس فقد استحال إلى شحوب. كانا يسمعان دقات قلبيهما في صمت الظهيرة. وفي هذا الثمالة المتبادلة استحالت السروة، والريحان، والعرائش بالنسبة اليهما إلى حديقة للحب.

لكن مريام ظهرت في الباب، ودعتهما إلى الغداء. جلسا بين الحواريّين الذي راحا ينظران اليهما، مستمعين بمشهدهما كجيل جديد يرث بعد موتهما مسؤوليّة غرس بذار التعاليم. قطع بطرس

الخبز وباركـه. مسحت الطمأنينة الوجوه، كأن أرجاء الغرفة قد ملئت بسعادة لا حدود لها.

التفت بولس إلى فينيكوس قائلاً :

ـ أحقا نحن أعداء الفرح والحياة؟

فأجابه الشاب؟

ـ الان عرفت الحق، لأني ما كنت سعيدا يوما مثلما أنا بينكم الان.

٣٥

في ليـل ذات اليـوم، حـين كان فينيكوس متجها نحـو منزله، لمح هودج بترونيوس المذهب عند مدخل فيكوس توسكوس. كان يحمله ثمانيّة من العبيد، فلوح لهم فتوقفوا. ثم اقترب من ستارة العربة.

أحلاما سعيدة !

قالهـا ضاحـكا حينمـا رأى أن بترونيوس غـارق في النوم، فجفل الاخير وقال :

ـ آ. هـذا أنـت ! أجـل لقـد سهوت قليـلا لأني أمضيـت الليلة في البالاتينوس. وخرجت الان لأبتاع ما يقرأ في أثناء إقامتنا في الأنتيوم... ما الاخبار؟

ـ هل درت على المكتبات؟

ـ أجـل لا أريد أن أقلب في مكتبتـي، اشتريت كتبا خاصة للطريق. سمعت أن مؤلفات جديدة صدرت لـ سينكا و موسونيوس. واشتريت لـ برسيوس أيضاً. ونسخة مـن قصيدة الرعـاة لـ فرجيلوس التي لم أكـن اقتنيها. آه كم أنـا متعب، وكم تؤلمني يداي لكـثرة ما أنزلت من اللفائف... حـين يكون المرء في مكتبة، يستيقظ فضوله للاطلاع على هذا وهذا، وذاك.

كنـت عنـد أفيرنوس، و أتراكتوس، و أرغلاتـوم، وقبلهـا عند سوسيوس و فيكوس، سندالايوس. كم يغلبني النعاس !

ـ أنت كنت في البالاتينوس، فأنا الذي اسالك ما الاخبار؟ لكن لا. أرسل الهودج، واللفائف، وتعال معي، سنتحدث عن الأنتيوم وعن شيء آخر كذلك.

فأجابه بترونيوس وهو يترجل:

ـ حسنا. عليك أن تعرف أننا سننطلق بعد غد.

ـ وكيف لي أن أعرف؟

ـ في أي عالم تعيش؟ أنا أول من يخبرك بالنبأ إذن. كن جاهزا صباح بعد غد. لا مجال للتأجيل. صاحب اللحيّة الحمراء لا يني يشتم روما وهواءها، حيث لم ينفعه كل ما استخدم من زيوت لبحّة صوته. يود لو يقوض روما، ويحرقها بالنار، وهو متلهّف لبلوغ البحر بأسرع ما يمكن. يقول إن الروائح التي يحملها الهواء صوبه من الأزقة الضيقة تخنقه. لقد قدمت اليوم أضخم القرابين في المعابد لاسترجاع صوته. والويل لروما، وخاصة لسيناتوس، إن لم يشف حالاً.

ـ إذن لا سبب للسفر إلى أكايا

فطرح بترونيوس السؤال ضاحكا:

ـ وأي موهبة يتمتع بها قيصرنا، سوى أن يشارك في الالعاب الاولمبيّة كشاعر بمؤلفه " احتراق طروادة "، أو كقائد عربة، أو موسيقي، أو كرياضي، وحتى كراقص، ويفوز بالاكاليل. أتعلم ما سبب البحة في صوت هذا القرد؟ تصور ! لقد طلع في عقله أن يؤدي لنا راقصا قصة ليدا، فتعرق تعرقا شديدا، وابترد. كان مبللا كسمكة الحنكليس الخارجة لتوها من الماء. راح يبدل الاقنعة واحدا تلو الاخر،

ويفتل كالمغزل، ويومئ كبحار ثمل، وكان مشهد كرشه الكبير وساقيه النحيلتين يبعث على القرف.

استمــر تدريبه اسبوعين تحت إشراف باريســ، تخيلْ ليدا أو بجعة. هــو وبجعة ! مستحيل. لكنه يريد أن يشارك بهذه الرقصة في الأنتيوم، ثم في روما.

- لقــد فضحوه لأنــه غنى أمام الجمهور. لكــن أن يظهر قيصر روما كممثل ! لا. لن تتقبل روما ذلك.

- يــا عزيزي ! روما تتقبــل كل شيء. مجلس الشيــوخ يحضر لإقامة احتفال شكر لقائد الوطن.

وأضاف يقول :

- والعامة فخورة بأن القيصر مهرج.

- هل هناك وضاعة أشد من ذلك؟

فهز بترونيوس كتفيه قائلاً

- إنك تعيش في المنزل رهين أفكارك. ليفيا، أصدقاؤك المسيحيون. مــن الطبيعي أنك لا تدري ما الذي حصل خلال الايام القليلة الماضيّة. لقد أعلن القيصر بيتاغوراس زوجة له كان الشاب هو الخطيبة. الا يظن المــرء أن هذا منتهى الخبل والجنون؟ ما قولــك باحتفال قد أقيم بمناسبة قــدوم الكهنة لعقــد قرانهما. أنا كنــت هناك، واحتملــت لأني شديد الاحتمال والصبر، لكني فكرت بــأن هناك الهة ينبغي أن تعطي إشارة ما... لكن القيصر لا يؤمن بالالهة وهو محق في هذا.

فعلق فينيكوس قائلاً :

ـ فهو إذن كبير الكهنة، والاله، والجاحد بالالهة في شخص واحد.

قهقه بترونيوس :

تماماً لم يخطر لي ذلك أبدا. إنه فريق كامل، لا مثيل له في العالم.

ثم نهض وقال :

ـ أضف إلى ذلك، أن كبير الكهنة هذا الذي لا يؤمن بالالهة، ويشمئز منهم، يخشاهم في الوقت نفسه كونه ناكرا لهم.

ـ أكبر مثال على ذلك ما حصل في معبد فيستا.

ـ أي عالم هذا !

ـ والقيصر على شاكلة هذا العالم، لكن ذلك لن يدوم طويلاً.

وظلا يتحدثان على هذا النحو، حتى بلغا منزل فينيكوس. طلب الشاب إعداد العشاء مبتهجا، ثم التفت إلى بترونيوس قائلاً :

ـ لا يا عزيزي. ينبغي على العالم أن يبعث من جديد.

فأجاب بترونيوس :

ـ نحن لن نقوم ببعثه، فقط لأن الانسان في عهد نيرون، كالفراشة التي تعيش تحت شمس النعمة لكنها شاءت أم آبت ستفنى من أول هبة ريح حارة. أقسم بابن مايا أنني كثيرا ما أطرح السؤال على نفسي، بأية أعجوبة استطاع واحد مثل لوسيوس ساتونيوس أن يبلغ

الثالثة والتسعين من العمر، وكيف له أن يتفادى بيريوس وكاليفولا وكلاوديوس؟ لكن دعنا من ذلك. أتسمح لي بإرسال هودجك من أجل يونيكي؟ لقد غادر النعاس عيني، وأرغب أن أروح عن نفسي. اطلب الة وتريّة على العشاء، وسنتحدث عن الأنتيوم. علينا أن نفكر بهذا جيدا.

أمر فينيكوس بأن يحضروا يونيكي، لكنه حبذ الا يدور الحديث عن الأنتيوم تفادياً لوجع الرأس.

- دع ذلك لمن لا يستطيعون العيش إلا تحت أشعة نعمة القيصر. ليس البالاتينوس نهايّة العالم، خاصة لأولئك الذين تجيش صدورهم بأمور مختلفة تماماً.

قال ذلك بمرح وحيويّة وعدم اكتراث، على نحو أذهل بترونيوس الذي حدق فيه لحظة ثم قال :

- ما الذي حصل لك؟ أنت اليوم كأنك تحمل اشارة البابويّة حول عنقك.

- أنا سعيد. ولذلك استدعيتك اليوم، لأعلن لك مدى سعادتي.

- ما الأمر؟

- أتذكر حين كنا معا في منزل أولوس وشاهدت تلك الفتاة الالهيّة التي اسميتها بنفسك فجرًا، وربيعاً؟ أتذكر تلك البسيشة الاجمل بين العذارى كلهن، وكل الهاتك؟

حدق بترونيوس فيه بذهول، كأنه يتحقق فيما إن كان الشاب ما زال يحتفظ بعقله، وقال :

- في أي لغة تتكلم؟ طبعا أتذكر.

- أنا خطيبها ونهض قافزا يستدعي كبير الخدم، ليقول له :

- ليأت العبيد كلهم، من أولهم إلى آخرهم.

فكر بترونيوس :

- خطيبها؟

وقبل أن يذهب بعيداً في إبداء دهشته، كان الأرقّاء قد بدؤوا يحتشدون في الأتريوم. هرول العجائز لاهثين، وجاء الرجال والنساء والشبان، والشابات، حتى اكتظ الأتريوم لحظة بعد لحظة. وتصاعدت صيحات من مختلف اللغات، حتى امتلأت الاروقة، فيما وقف فينيكوس قرب المدخل مناديا معتوقه ديماس :

- كل من أمضى عشرين عاما في هذا المنزل، ليحضر غدا عند كبير الخدم، وسيكون حرا.

أما الذين لم يمضوا هذه المدة، فسينال كل منهم ثلاث ذهبيات، وضعف وجبات الطعام لمدة أسبوع. ابعث إلى معسكرات الاعمال الشاقة في القرى أن يوقفوا كافة العقوبات، ويفكوا قيود أرجل الأرقّاء هناك، ويحرصوا على تغذيتهم جيدا. ليكن في علمكم أنني في غايّة السعادة اليوم، وأردت أن يكون كل بيتي سعيدا.

وقف الجميع للحظة مخبولين، لا يصدقون آذانهم، ثم ارتفعت الايدي كلها دفعة واحدة، وصاحت الافواه :

- آآ. سيدي ! آآ.

وصرفهم جميعا بإيماءة من يده. كان بود الجميع أن يركعوا أمام قدميه تعبيرا عن امتنانهم، لكنهم أسرعوا في الانصراف، وملؤوا المنزل بالترحاب البهيج.

ـ وغدا سوف أجمعهم في الحديقة، وآمرهم بأن يرسم كل منهم أيّة رموز يشاء، ومن سيرسم سمكة، ستعتقه ليفيا.

أما بترونيوس الذي لا يدهشه العجب، فقد وقف خامدا وسال :

ـ سمكة؟ آها، تذكرت. شيلون قال إنها رمز المسيحيين.

ثم مد يديه نحو فينكوس وقال :

ـ السعادة دائما حيث يراها المرء. لتنثر فلورا الازهار أمام أقدامكم سنين طويلة. أتمنى لك كل ما تتمناه لنفسك.

ـ أشكرك على هذا، فقط ظننت أنك ستثنيني عما أقدم عليه، وإن كان لا فائدة من مساعيك، ومضيعة وقتك في ردعي.

ـ أنا أثنيك؟ أبداً لا بل أقول أن ما تسلكه حسن.

صاح فينيكوس مرحا :

ـ هه ! أيها الانتهازي ! أنسيت ما قلته حين كنا عائدين من عند غريسينا؟

فأجاب بترونيوس ببرود :

ـ لا، لكني غيرت نظرتي.

وأضاف بعد قليل :

- يا عزيزي، كل شيء يتغير في روما ! الرجال يبدلون زوجاتهم، والنساء رجالهم، فلمَ لا أبدل أنا رأيي؟ وأي انتقاص في الأمر؟ نيرون ذاته كان يمكن أن يتزوج أكتي التي صنفوها، خدمة له، بأنها تنحدر من سلالة ملكيّة. فما الذي كان سيحصل؟ بالنسبة له ستكون زوجته الطاهرة، وبالنسبة لنا ستكون أوغستا الطاهرة. قسمًا ببروتيوس، وبكل القيعان البحريّة، أنني سأظل أبدل في آرائي ما دمت أرى ذلك سليما، ومبعث ارتياح. وما يخص ليفيا، فإن انحدارها الملكي أكثر موثوقيّة من أكتي. لكن في الأنتيوم، احذر بوبيا لأنها من الصنف الناقم جدا.

- ليست في بالي. لا أحد في الأنتيوم يستطيع أن يخدشني.

- أن كنت تظن أنك ستخبلني مرة أخرى، فأنت مخطئ. لكن من أين لك هذه الثقة؟

- هذا ما قاله له الحواريّ بطرس.

- آ. الحواريّ بطرس قال ذلك ! لا جدال في هذا. لكن اسمح لي أن أقوم ببعض التدابير من منطلق الحيطة، حتى لا ينكشف أمر بطرس على أنه رسول سيء، لأن خطأ واحدا منه يجعلك تفقد هذه الثقة، التي يحتاجها منك في تقديم خدمات طيبة له حتى في المستقبل.

- أفعل ما تشاء، لكنني أثق فيه. إن كنت تظن أنك ستنفرني منه بذكرك اسمه على الدوام، فأنت مخطئ.

- سؤال آخر إذن : هل صرت مسيحيا؟

حتى الآن لا. لكن بولس الترسوسي سيأتي معي ليشرح لي وصايا المسيح، وبعدها سأعتنق المسيحيّة، لأن ما قلته أنت عن أن أولئك أعداء الحياة والسعادة غير صحيح.

ـ أفضل لك ولليفيا. لكن الغريب كيف يتمكن هؤلاء من كسب أنصارهم. وكيف ينتشر هذا المعتقد؟

فكان وفاء من فينيكوس أن يرد وكأنه مسيحي حقا :

ـ تماماً بلغ عددهم في روما عشرات الالاف. وهم في المدن الايطاليّة، واليونانيّة، وآسيا. وهناك مسيحيون في ليفيو و بريتوريا،وحتى في البلاط القيصري. وهذه التعاليم يتبعها أرقاء، ومواطنون، وفقراء، وأغنياء، وعامة، ونبلاء، وأشراف. هل تعلم أن بين الكورنليين أيضاً مسيحيين، وأن بومبونيا منهم، وعلى الأرجح كانت أكتافيًا أيضاً مسيحيّة. وبالتأكيد أكتي. هذه حقيقة. وعلى ما يبدو أن هذا الدين سيجتاح العالم. وأنه الوحيد الذي بمستطاعه أن يقوم ببعث العالم. لا تهز كتفك، فمن يدري بعد عام إن كنت أنت بالذات، سوف تعتنقه أم لا.

ـ أنا؟ لا. أقسم بابن ليتو أنني لن أعتنقه، حتى لو تضمن كل حقيقة، وحكمة بشريّة أو الهيّة... ذلك يحتاج إلى جهد كبير، وأنا لا أريد أن أتنازل عن أي أمر حياتي. إن طبيعتك الحاميّة كالنار والماء المغلي، تؤهلك للانجذاب بسهولة، أما أنا؟ فلدي أزهاري وبراعمي، ومزهرياتي، وجواهري. كما لدي يونيكاي أيضاً. أنا لا أؤمن باولمبوس، لكنني أبتدعه لنفسي هنا على الأرض. وبراعمي ستظل تتفتح ما دامت سهام الرماة الالهيّة لا تخترق جسدي، أو ما دام القيصر. لا يخاطبني بالمتبجح في قواي. أحب رائحة البنفسج إلى حد

كبير، والحياة الرغيدة، وأحب حتى الهتنا كهيئات بلاغيّة منمقة، كما أحب أكايا إلى حيث نستعد للذهاب برفقة قيصرنا الالهي الخارق، صاحب الكرش، والقدمين النحيلتين، وحاشيته من الاوغستيين، و المتسابقين، وهرقل، ونيروننا.

والحق أنه فرح لفكرة كونه يمكن أن يتقبل تعاليم الصيادين الجليلين. وراح يدمدم شيئاً ممّايحفظه منهم. لكنه كف عن ذلك لأن إحدى الرقيقات أبلغته أن يونيكي قادمه.

ولمجرد قدومها أحضر طعام العشاء. وفي أثنائه غنى أحد العازفين بعضا من الاغاني، ثم راح فينيكوس يحكي لبترونيوس عن زيارة شيلون، فقال أن زيارته ول دت لديه فكرة أن يقصد حالا. ولقد جاءته الفكرة حين كان شيلون يلقى عقابه بالضرب.

بدأ بترونيوس يشعر بالنعاس من جديد. فرك عينيه وقال :

- كانت فكرة جيدة إن أوتيت ثمارها. أما عن شيلون فكان يستحق منك خمس ذهبيات، وما دمت قد عاقبته، كان عليك أن تضربه حتى الموت لكي لا يستغله السيناتورات كما فعلوا بفارسنا فاتينوس. ليلة سعيدة؟

أنزلوا الاكاليل عن رؤوسهم، وتهيأ بترونيوس و يونيكي للرحيل إلى البيت. وحين خرجا دخل فينيكوس إلى المكتبة وكتب الرسالة التاليّة إلى ليفيا :

أريد من هذه الرسالة لمجرد أن تفتحي عينيك الرائعتين، أن تقول لك صباح الخير ! أكتب لك الان لنلتقي غدا، لأن القيصر سينطلق إلى الأنتيوم بعد غد. وعلي أن أرافقه. فالرفض يعني المغامرة بالحياة،

وليس شجاعة مني أن أموت الان. وإن كنت لا ترغبين بسفري فاكتبي لي ذلك، وسأبقى هنا، والباقي سيتكفل به بترونيوس ساعيا لدرء الخطر عني. اليوم في يوم الفرح قمت بمكافأة كل أرقائي فمن خدم لدي عشرين عاما ساصحبه غدا إلى القاضي لأعتقه، وينال حريته. لذلك فأنا أستحق منك يا عزيزي، الثناء لأني قمت بما هو ملائم للتعاليم النفسيّة التي تعتنقينها، ومن أجلك أنت سأقول لهم غدا أنهم بنوالهم الحريّة قد يدينون لك أنت بالامتنان والشكر، وبتمجيد اسمك. وأضع نفسي، مبادلة، عبدا أبديا لا انعتاق له، لك وللسعادة. اللعنة على الأنتيوم. اللعنة على كل ترحال يقوم به صاحب اللحيّة الحمراء. سعادتي مضاعفة مرات ومرات لأني أتمتع بذكاء بترونيوس، والا لاضطررت لمرافقة القيصر إلى أكايا. فراقك أيضاً سيحلو، لأن كل لحظة منه سأمضيها بالتفكير بك. ولن تسنح لي فرصة من حريّة هناك، الا وأمتطي جوادا يعود بي إلى روما، ولو للحظة واحدة أكحل بها عيني بمرآك، وأمتع أذني بسماع صوتك. وكل مرة لا أتمكن فيها من المجيء سأبعث لك برسالة مع رقيق يزودني بأخبارك شكرا لك يا ليفيا الالهيّة، وأحضن قدميك. لا تغضبي إذا ما دعوتك بالالهيّة. فإن كنت تمانعين سأنصاع ولن أكررها. لكني اليوم لا أقوى على مخاطبتك بصورة أخرى. تحيّة من أعماق روحي تصلك من بيتك المستقبلي".

٣٦

كان معروفا في روما أن القيصر يريد في طريقه أن يزور أوسيتا أضخم سفـن العا لم، التي جاءت من الاسكندريّة تحمل شحنة من القمح. ومن هناك يتجـه إلى الأنتيوم عبر فيا ليثوراليس. كانـت الأوامر قد أطلقت بهـذا الشأن منذ أيام، فاجتمعت منذ الصبـاح حشود الناس المحليين، ومن كافة الاقوام، عند بورتا أستنسيس لرؤيّة الموكب القيصري. لم يكن الطريق إلى الأنتيوم شاقا، ولا طويلاً، لكنه يخترق المدينة ليمر بالقصور والفيلات الفخمـة، ويسمح بمشاهدة أكثر مناطـق العصر ترفًا ورفاه. وكان من عادة القيصر أن يصطحب معه في طريق رحلته كل مستلزماته المفضلة من آلات موسيقيّة، وأثاث منزلي، وتماثيل، وموزاييك، توفر له الراحـة والامداد المتنوع مهما يكن الطريق قصيرًا. وإضافة إلى الحاشيّة القيصريّـة، كان يرافقه جميع الأرقّـاء من خدم وحشم للقيام بخدمات النزهـة، فضلًا عن فصائل الحرس القيصـري والأوغستيان الذين بينهم من يصطحب معه مرافقته الخاصة من الرق.

منذ الصباح الباكر في ذلك اليوم، جاء الرعاة، وقد سمّرت الشمس وجوهـم، بأجراس وبأحذيّة من جلد الماعـز، يقودون خمسمئة أتان، ويعـبرون بها البوابة لتوفـير حليب الحمير من أجل حمّـام بوبيا المعتاد كل صبـاح بعد وصولها إلى الأنتيوم. أثارت هذه القطعان السابحة في النقـع الغباري ضحك العامة من الناس الذين قد أمتعهم أيما إمتاع أزير السيـاط وأصوات الرعاة الوحشيّة. وبعد مرور قطيع الحمير، جهدت مجموعـات الشبـان بتنظيف الطريـق، وتغطيتهـا بنثر الازهـار، وإبر

الصنوبر فوقها، وكانوا جميعا فخورين بأن طريق الرحلة حتى الأنتيوم قد صار مغطى بالازهار التي جيء بها من الحدائق، والحقول المجاورة، وابتيع بعضـ منها بأثمان غاليّة من بائعي ناحيّـة بورتا موغيونيس. ما إن انقضــت فـترة الصباح الباكرة، حتــى تزايدت الحشــود لحظة بعد لحظة. بعض منهم أحضر كافة أفراد الاسرة، لقتل الوقت فقط، فوضعوا أغراضهــم فوق أحجار جيء بها من أجل بناء كنيسة سيريس الجديدة، وأمضــوا فترتهم كلها تحت قبة السمــاء الطلقة. وانعقدت المجموعات هنا وهناك تتبادل أطراف الاحاديث في الشؤون الراهنة.

تحدثــوا فيما يخصــ رحلات القيصر القادمــة، وفي الرحلات على العمــوم. وفي أثنائهــا، راح البحــارة، والجنود يتحدثون عــن البلدان الشهيرة التي سمعوا عنها خــلال حروبهم البعيدة، فلا يحلم الروماني أن يطأ أرضها. وقف الفقراء الرومان الذين لم يبرحوا أمكنة إقامتهم و لم يتخطوا فيا أبيا يصغون باندهاش إلى ما يحكى قربهم عن بلاد العرب، والهند، وعمــا يحصل في إحدى الجــزر البريطانيّة من عجائب حيث يقوم برياروس بحراسة ساتورنوس النائم حيث تسكن الارواح، وعن البحار المتجمدة، وعما تصدره مياه المحيط من هسيس وفحيح كبيرين لحظـة المغيب وغرق الشمس فيها. ومــن السهولة في أوساط العامة أن يحــوز على التصديق كل الحكايــا المشابهة التي مــا زال أمثال بلينوس و تاكتوســ يعتقدون بها. وجرت الاحاديث عــن السفينة التي يتحفز القيصر لمشاهدتها، وتحمل على متنها من القمح ما يكفي لسنتين، ومن الركاب أربعمئة، ونفس العدد من الشبان، وكثيرا من الحيوانات البريّة التــي ستستخدم فيما بعد في المباريات الصيفيّة. وهذا ما يجعل القيصر يشعــر بارتياح لا مثيل له، لأنه برهان على أنــه لا يقوم بتزويد الشعب بالغذاء فقط، بل يسعى جاهدا لتسليته، والترويح عنه استعدت الحشود لتحيته بحماس تنامى مع مرور الوقت.

في هذه الاثناء ظهرت إحدى فصائل خيالة الحرس بأزيائهم الصفراء وأحزمتهم الحمراء، وأقراطهم الكبيرة التي راحت تعكس أشعتها الذهبيّة فوق الوجوه القائمة، ورؤوس أسنتهم الخيزرانيّة التي برقت كالقناديل تحت نور الشمس. وما أن عبر هذا الفصيل من الخيالة، حتى ظهر فصيل آخر يتخذ مسارا دائريا فاقتربت الحشود متراصة لمشاهدة العرض. لكن قدوم فصيل مشاة الحرس حال دون ذلك بانقسامه صفين متقابلين عند المدخل. في المقدمة جاءت العربات تحمل خياما حريريّة بيضاء محلاة بخيوط مذهبة، وخياما أرجوانيّة، وحمراء وبنفسجيّة، وسجادا شرقيا، وطاولات من خشب الصنوبر، وصفائح من الموزاييك، وتجهيزات مطابخ، وأقفاصا في داخلها طيور من الشرق والغرب والجنوب، يصار إلى تمرينها، فتغدو بأصواتها والسنتها مناسبة لتوضع على مائدة القيصر، إضافة إلى دنان الخمر، وسلال الفاكهة.

أما تلك المواد القابلة للكسر أو التقوس، فكان يحملها مشاة من العبيد، ينقسمون إلى مئات. مئة منهم تحمل التماثيل والانيّة الكورنثيّة الطراز. ومئة منها تحمل تماثيل وآنيّة من طراز أتروري، وأخرى آنيّة يونانيّة، واستقلت مجموعة منها حاملة الانيّة الزجاجيّة الذهبيّة والفضيّة والاسكندرانيّة.

وكانت تفصل بين المجموعات عناصر قليلة من الحرس مشاة وخيالة، وعلى رأس كل مجموعة من العبيد مراقب يقودها وبيده كرباج ينتهي ذيله بقطعة من الرصاص أو الحديد. كان موكبا أشبه بالاحتفال، أو الطقس الديني. واشتدت حماسة المشهد حين جاء حملة الالات الموسيقيّة الخاصة بالقيصر وحاشيته. قيثارات مصريّة، ويهوديّة، ويونانيّة، ووتريات، ودفوف، والالات نفخيّة، وصنوج نحاسيّة، وأبواق مستقيمة ومتعرجة. إذا ما شاهد المرء هذا العدد

الهائـل من الات الموسيقـا اللامعة تحت أشعة الشمـس، البارقة بالوان الذهـب والفضة واللؤلـؤ، المحلاة بالاحجار النفيسة، ظن أن أحدا من أثنـين: أبولو أو باخوس يجوب الان العالم. ثم جاء دور الموكب الفني الفخم، من معـدات وكوميديين ومجموعات مـن راقصين وراقصات بأيديهـم صولجانات، كل مجموعة منهم لوحة فنيّة مبهرة يتبعها عبيد لا أهميّـة أخرى لرفقتهم الا لمجـرد الديكور وإضفاء الفخامة، وقد جيء بهـم من كل أنحـاء اليونان، ومـن آسيا الصغـرى. فكانت مجموعات الراقصين من شبان وشابات بشعورهم المسترسلة الطويلة، أو المشبوكة ببكرات وشباك مذهبة، كأسراب من الهة والهات الحب والجمال.

ومـرة أخرى عبر فصيل من الحرس، كل عناصره شبان شقر، زرق العيـون، ملتحون، يتقدمهم مـا يسمى حاملو الالويـة. وهؤلاء الذين يحملون العقبان الرومانيّة واللائحات وتماثيل الهة الرومان والجرمان، وتماثيـل القيصـر الكاملة والنصفيّة. وما عري مـن أجساد الجنود تحت الأرديّـة الجلديّـة والدروع قـد لوحته الشمس بسمرتهـا. وهم جنود ذوو أذرعـة قويّـة تقدمـوا كالات حربيّة، فارتجـت الأرض تحت وقع خطواتهم الصلبة. ولكنهم قليلو العدد هنا، لأن جل هم القوة الرئيسيّة للحرس قد بقـي في معسكرات الوطن يحرس المدينة، ويحافظ على لحمة السكان. المجموعات التاليّة كانت تقود النمور والاسود اللازمة لعربة القيصر إذا ما أحب أن يقوم بتأديّة دور ديونيسوس.

كان ساسـة ماهرون مـن عرب وهنود يجرونهـا بسلاسل فولاذيّة غلفت بالازهار بكثافة جعلتها تبدو سلاسل مجدلة بكاملها من الزهور.

ثم جـاءت العربـات القيصريّـة، والهـوادج بأحجامهـا الصغيرة والكبـيرة والوانها الذهبيّـة والارجوانيّة، تبرق بمـا لُبست ووشيت به مـن العاج، واللؤلـؤ الحقيقي، والاحجـار الكريمة. تبعهـا فصيل آخر

مـن الحرس، بزيهم الايطالي المحض وسلاحهـم الروماني، يتلوه العبيد والشبـان المراسيميون، ثم اخيرا القيصـر نفسه الذي أعلنت قدومه من بعيد صيحات الجموع.

كان هنـاك من ضمن الحشد، الحـواريّ بطرس الذي أراد مشاهدة القيصـر مرة واحدة في حياتـه. وكان بصحبته كل من ليفيا التي غطت وجهها بوشاح كثيف، و أرسوس الذي يمثل في هذه الفوضى العارمة، القـوة الأكثر فاعليّـة لحمايّة ليفيا. حمـل أرسوس حجـرا من أحجار الكنيسـة، وقدمها للحواري ليقف عليها فيتمكن مـن الرؤيّة أكثر من الاخريـن. وجاء القيصر جالسا في عربة علـى شكل خيمة يجرها ستة من فحـول الاحصنة البيضـاء نضواتها ذهبيّة. عمـد أن تكون الخيمة مكشوفة من الجوانب لكي يتسنى للحضور مشاهدة القيصر.

ورغبـة منه في لفت الانظار اليـه، كان وحده يقود العربة عابرا بها المدينة، رغم أنها تتسع لستة آخرين استعاض عنهم بقزمين اشوهين تحت قدميـه. كان يرتدي تونيكا رومانيّة بيضـاء، و توغا بنفسجيّة عكست زرقة عميقة على وجهه، وكان يضع على رأسه إكليلا أرجوانيا.

كان يتقـدم ملتفتا برأسه هنـا وهناك يراقب الجماهـير التي جاءت لتحيته بالهتاف وبعواصف التصفيق. " تحيّة لك أيها الامبراطور القيصر الالهـي ". تحيّـة لك أيها الغالب ! تحيّة لك يا بن أبولو الذي لا مثيل له. تحيّـة لك يا أبولو ! وبسماعة هـذه الهتافات كان يتسم طوال الوقت، لكـن سحابة من كـدر خفي كانت بـين الحين والاخـر، تمسح تعابير وجهه، فالجماهير الرومانيّـة جماهير ساخرة بغالبيتها، فكانت تسمح لنفسهـا بالقـاء تعليقات حادة وجارحة، حتى أمـام القادة العسكرين الامجـاد الذين استحقوا حب الرومانيـين وتقديرهم. فمن المعروف أن يوليوس قيصر حين دخل روما، سمـع هتافات مثل " أيها الناس خبئوا

زوجاتكم فقد جاء اللعوب الاصلع " لكن غرور نيرون الفائق جعله لا يحتمل سماع أخف التعليقات وأبسطها، رغم أن شيئاً من هذا قد تـع إلى مثل يا صاحب اللحيّة الحمراء ! يا صاحب اللحيّة الحمراء ! أين تأخذ لحيتك المشتعلة؟ لعلك خائف من أن تلتقط روما نارها وتحترق؟ لكن من هتفوا هذه العبارة الساخرة لم يعرفوا أن ثمة نبوءة مريعة تكمن في ثناياها. وفي كافة الاحوال لم تكن مثل هذه الاصوات لتغضب القيصر كثيرا ولا قليلا، لأنه لم يكن الان صاحب لحيّة، بعد أن قدمها منذ وقت طويل هديّة لجوبيتر الكابيتوليوني في صندوق من الذهب.

لكن آخرين هتفوا من خلف أكوام الحجارة وزوايا المعبد " نيرون قاتل أمه " وآخرون : " أين أوكتافيا؟ " وآخرون وجهوا هتافهم نحو " بوبيا " قائلين " أم الشعر الاشقر " وهو لقب تنادى به نساء الشوارع في العادة. كانت أذنا نيرون الحادتا السمع تلتقطان مثل هذه العبارات، وكان عندئذ، يسلط عينيه نحو مصدر الصوت كأنه يريد أن يتيقن من معرفة مطلقيها. وهكذا فقد وقع بصره على الحواريّ الواقف فوق الحجارة.

كلاهما نظر إلى الاخر، والتقت عيونهما للحظة. لكن أحدا، سواء من عناصر الموكب الباهر أو من الجماهير الهائلة العدد لم يخطر بباله أن من ينظران في هذه اللحظة كل في الاخر، هما سيدا العالم وأن أحدهما سوف يتلاشى عما قريب كما يتلاشى حلم دموي، أما الاخر فسوف يتسنى له أن يملك العالم ومعه هذه المدينة إلى الابد.

بعد أن مر القيصر، تلاه مباشرة ثمانيّة من الافارقة يحملون هودجا فخما في داخله بوبيا البغيضة في أعين الشعب. كانت ثيابها بنفسجيّة كملابس نيرون، ووجهها مجمل بالمساحيق السميكة الحمراء استقرت

جالسة مستفكرة بلا حراك، ودون أن تبدي أيّة تعابير، كالهة جميلة لكن شريرة. في إثرها حاشيتها الخدميّة من النساء والرجال، وأرتال العربات المليئة بوسائل الراحة، وخزن الملابس. وكانت الشمس قد تجاوزت الظهيرة حين مر موكب الاوغستيان المتالق الفخم: بترونيوس الكسول الذي راح يحيي الجماهير بمودة، وهو في هودجه برفقة رفيقته اللائقة بإحدى الالهات. تيفالينوس يقف في عربة تجرها أحصنة صغيرة زينت بريش أحمر وأبيض. كان باديا للعيان أنه يمط رقبته، مترقبا إشارة من القيصر ليجلس إلى جانبه. ليسيونوس بيسو الذي حيته الجماهير بالتصفيق من بين الجميع. وحيت فيتليوس بالابتسام،، و فاتينوس بالصفير. وقوبل كل من القنصلين ليسيونوس و ليكانوس بحياديّة. أما تولوس سينكو الذي لم يعرف السبب في محبة الناس له فقد قوبل بالتصفيق أيضاً.

كانت الحاشيّة القيصريّة بأعداد لا حصر لها، حتى ليظهر المرء أن ما من أحد ميسور أو نبيل في روما الا وهو الان في طريقه إلى الأنتيوم. لم يسافر نيرون مرة بأقل من الف عربة وبعدد من المرافقين لا يقل عن عدد الجيش الليفوي بأكمله.

أما دوميتيوس أفتر فقد حملقت فيه الجماهير مشيرة اليه بالبنان، وكذلك لوسيوس ساتورنينوس الذي بدا شيخا معتلا تماماً. وشوهد فسبسيانوس الذي ما كان يلتحق بحملته العسكريّة في يهوديا حتى عاد من أجل التاج القيصري. والكثير من النساء الشهيرات بثرائهن، وجمالهن، وترفهن، ورذيلتهن. وقفت جماهير العامة المتعددة المشارب والاقوام، بعيون نهمة حيرتها هذه التحفة البصريّة، المتوهجة بالوان الذهب، والارجوان، والمؤتلقة بالاحجار الكريمة واللؤلؤ، والعاج، فبدا كل ذلك كأن أشعة الشمس ذاتها هي التي تلتمع في هذا

البحـر من الانوار. كان بـين العامة بؤساء جوعـى لم يحرك فيهم هذا المشهد الحسـد والغيرة فحسب، بل ملأهم بالافتخـار المبهج، بعد أن شعروا بقوة روما العظيمة التي قهرت العالم وركعت أمامها البلدان.

وفي الحقيقـة ليس هناك أحـد في الكون يجرؤ علـى الاعتقاد بأن امبراطوريّـة روما لن تدوم لقـرون وبأنها لن تستغرق كل الاقوام، وأن بمقدور أحد فوق البسيطة أن يقف ضدها.

سار فينكوس في نهايّة الموكب، وحين لمح كلا من الحواريّ، وليفيا اللذيـن لم يتوقـع وجودهما هنـا، قفز مـن العربة، وحياهمـا بأسارير مشرقة، ثم سرعان ما ابتدر الكلام كمن ليس لديه وقت يضيعه.

ـ جئـت؟ لا أعـرف كيف أشكرك يا ليفيا ! إنهـا إشارة طيبة لي من الله. وداعـا، لكنه وداع لن يكون لمـدة طويلة. سأجيئك كلما سنحت لي الفرصة إلى أن أعود نهائيا. دمت بالصحة والعافيّة:

فأجابت ليفيا :

ـ رافقتك السلامة يا ماركوس.

ثم أضافت بخفوت صوت :

ـ رعاك المسيح وفتح أذنيك لأقوال بولس !

ابتهج قلب الشاب وقد أحس بأهميّة عودته بالنسبة إلى ليفيا فقال :

ـ ليكـن ما ترغبين. أحب بولـس أن يسافر مع رجـالي، لكنه معي وسيكون معلمي وصاحبي أزيحي وشاحك، يا رائعتي، دعيني أشاهد وجهك بعد، قبل أن أرحل. لم تتخفين إلى هذا الحد؟

كشفت الفتاة عن وجه هادئ، بديع، وعينين باسمتين، ثم سالته :

ـ وأين الخطب في هذا؟

وكان في ابتسامتها مسحة من عتب مشوب بدلال طفولي، لكن فينيكوس نظر اليها وقال بحرارة:

ـ خطب لعيني اللتين لا ترغبان الا في رؤيتك وحدك من الان وحتى أن أموت. ثم التفت نحو أرسوس :

ـ احرص عليها كضوء عينيك، لأنها ليست الاعز لديك فقط بل أعز ما لدي أيضاً.

وأمسك يد الفتاة وضعها إلى شفتيه أمام استغراب الحضور الذين لم يفهوا سر هذا الاحترام الذي يبديه أوغستيني من الاسياد نحو فتاة من البسطاء.بملابس يرتديها الرقيق.

ـ دمت بعافيّة !

وانطلق مسرعا بعد أن ابتعد عنه الموكب القيصري كثيرا.

ودعه الحواريّ بطرس برسم إشارة صليب خفيفة لا تلحظ، أما أرسوس الورع فقد بدأ بالتسبيح والحمد لأن سيدة الشاب تصغي اليه بتلك اللهفة والتوق، ورمقها بنظرة امتنان.

ابتعد فينيكوس، وظلت نظراتهم عليه حتى تقدم منهم ديماس الطحان الذي عمل عنده أرسوس كل ليلة.

حيا الحواريّ ، وطلب اليهم أن يرافقوه إلى المنزل القريب من

الامبوريوم لتناول شيء مـن الطعام، فلا بد أنهم جائعون، ومتعبون بعد أن أمضوا كل النهار عند المدخل.

وساروا معا. وبعد أن استراحوا في بيت ديماس، وتناولوا طعامهم عـادوا إلى الترانستبريس. رغبـوا في عبور جسر إيميليوس إلى الضفة الاخـرى، فساروا ضمن كليثوسـ بوبلوس التي تقود إلى معبد ديانا و ماركوريوس. راح الحواريّ بطرس يجول ببصره في تلك الانحاء وبيوتهـا. فأذهلته السطوة والضخامة التـي تتحل ى بها المدينة التي كلفه السيد بنشر دعوته فيها.

كان قـد جـال في بـلاد عديـدة وشاهد فيهـا كثيرا مـن المعالم، والتجمعـات، والفيالـق الرومانيّة، لكن ما رآه قياسـا إلى ما شاهده هنـا، لا يمثـل الا عناصر قليلة مـن الامبراطريّة، خاصـة وأن القيصر قـد عبر أمام ناظريـه لأول مرة. هذه المدينة الكـبرى جوفاء وآسرة، ومتعفنـة حتى العظم، لكن سلطانها صلب. وهذا القيصر الذي قتل أخاه وزوجته وأمه، ومع ذلك يرافقه الان عدد هائل من البشر.

هـذا المهرج التافه، وهو في نفس الوقت قائد لثلاثين فيلقا يسود مـن خلالهـا في أرجاء الأرض، وهـؤلاء العجزة من أفـراد الحاشيّة الذين لا يضمنون بقاءهـم على قيد الحياة حتى اليوم التالي، الا أنهم أكثر سطوة من الملوك. الا يدل كل هذا على أنها مملكة جهنميّة للشر والرذيلة.

وتعجـب قلبه الطيب البسيط : كيف يمكـن للرب أن يعطي كل هذا السلطـان للشيطان، وكيف يمنحه الأرضـ ليديرها ويعبث بها فسادا، ويريق فيها الدموع والدماء، ويخل عها كالعاصفة، ويدمرها

كالاعصـار، ويحرقهـا كالنار. اهتـز قلب الحواريّ لهـذه الافكار وخاطـب معلمه قائلاً : "سيـدي ما الذي سأصطاده في هذه المدينة التـي أرسلتني اليها؟ إنه يملك كل البلـدان والبحار، وكل كائن حي إن كان فوق اليابسة أو في أعماق المياه، وكل مملكة، وقوة، وثلاثين فيلقا تحميه وتدافع عنه، وما أنا يا سيدي سوى صياد في بحيرة. فما الذي سأصطاده هنا؟ وكيف سأتغلب على شروره؟ "

قال ذلك رافعا رأسه نحو السماء، متضرعا إلى الله بكل ما يخالجه من مخافة وحزن.

لكن ليفيا قطعت عليه صلاته :

ـ كأن المدينة تحترق بالنار.....

وفعـلا في هذا المساء هبطت الشمس إلى مغيبها على نحو غريب جـدا. غاب قرصهـا العملاق حتـى منتصفه وراء قبـة لانيكولس، وسبحت قبة السماء بكاملها في ضوء أحمر.

ومـن حيث هـم في ذلك المـكان شاهدوا فسحـة واسعة، و إلى يمينها قليـلا، بانت لعيونهم جـدران السيرك الكبـير الممتد طويلاً، تلاها، إلى الاعلى، البالاتينوسـ بأجنحته المتراصة، وأمامهم مباشرة كلـن الفوروم بواريوم و فالابروم، وقمـة الكابينوليوم وعليها معبد جوبيتر. لكـن جدران الكنيسـة وأعمدتها، وقممهـا قد بانت من هنـاك وكأنها غارقة في ذلك الضوء الارجـواني المذهب، شأنها في ذلك شأن ما أتيحت رؤيته من أجزاء الانهار البعيدة الملتمعة بالحمرة. وكلمـا ازداد قرص الشمس هبوطـا وراء القبة، نشر حمرته الاغمق

فالاغمق، حتى استحال إلى قرص ناري شعت أنواره لتطال القمم السبع، وتنعكس من هناك إلى باقي الجهات.

كررت ليفيا قولها :

ـ كأن المدينة بكاملها تحترق.

فقال بطرس مظللا عينيه بكفه :

ـ ليحل عليه غضب الله !

٣٧

من فينيكوس إلى ليفيا

عبدي فليفون الذي يحمل رسالتي هذه مسيحي. فهو إذن، يا حبيبتي، من بين أولئك الذين سيحصلون على حريتهم على يديك. إنه خادم قديم في بيتنا، وأنا أثق به لأحم له رسالتي، فلا تقلقي. أكتب لك من لاورنتوم حيث الحرارة شديدة. هنا كان لأوتو فيلا فخمة أهداها ذات يوم لبوبيا، لكن المرأة حتى بعد طلاقها منه استحسنت الإبقاء على هذه الهديّة... إذا ما فكرت فيك، وقارنتك بهؤلاء النسوة من حولي، أشعر أن أصنافاً مختلفة لا تشبه بعضها من البشر قد نتجت من أحجار ديوكاليون، وأنك تنتمين إلى ذلك الصنف المخلوق من البللور.

متيم بك وأحبك إلى حد لا أرغب في الحديث الا عنك. الآن سأرغم نفسي على الكتابة اليك عن الرحلة، وأخبار الحاشيّة، وكل ما قد حصل معي. لقد حلّ القيصر ضيفًا على بوبيا التي أقامت له مأدبة فاخرة، لم يدع اليها الا قلّة، منها أنا وبترونيوس.

قمنا بعدها بنزهة بالمجاديف في مياه البحر الهادئة الزرقاء كعينيك، يا ليفيا الالهيّة، نحن من قام بالتجديف نزولاً عند رغبة القيصر الذي أراد أن يتملق أوغستا فيجدف بها رجال قنصليون وابناؤهم. وقف القيصر بردائه الارجواني في المقدمة، وغنى مقطوعته الشعريّة التي كتبها الليل الفائت في تمجيد البحر. ولقد ردّدها معه في مراكب أخرى

عبيد هنود يجيدون استخدام القواقع البحريّة. خرجت بعض الدلافين من المياه على وقع الموسيقا. أتدرين ما الذي فعلته أنا؟ فكرت بك، وغلبني الشوق إليك، وودت لو قبضت على هذا البحر، وهذا الزمن الجميل كالموسيقا لآخذها اليك. أترغبين يا ليفيا أن نقطن على شاطئ البحر بعيداً عن روما؟

لي أملاك في سيسيليا، من ضمنها غابة من اللوز تتفتح عن أزهار ورديّة في الربيع، وتمتد حتى شاطئ البحر فتكاد فروعها تلامس المياه. هناك سأحبك وأعطي ذلك الدين الذي علمني إياه بولس حق قدره، لأني أدركت الان أنه لا يفصل الحب عن السعادة. هل ترغبين؟... لكن قبل أن أسمع الرد من فمك الحلو، دعيني أتابع كتابة ما حصل في القارب.

حين نأينا عن الشاطئ لمحنا في البعيد سفينة شراعيّة تبحر باتجاهنا. وسرعان ما بدأ الجدل فيما إن كانت السفينة مجرد مركب بسيط لصيد السمك، أم سفينة نقل كبيرة. أنا من عرفها أولا فقالت أوغستا : يبدو أن لا سر الا وينكشف أمام عيني.

وما كان منها على الفور، الا أن ردت الوشاح على وجهها وسالت إن كنت أعرفها وهي كذلك؟ أجابها بترنيوس قائلاً بأنه حتى الشمس لا يمكن معرفتها خلف الغيوم. ابتسمت بوبيا وأجابت على نحو مخادع بأن هكذا عينين حادتين لا يحد من قوة بصرهما إلا الحب.

ثم راحت تذكر الاوغستيانات واحدة تلو الاخرى، محاولة انتزاع أيهن أوقعتني في حبها. وكنت أجيبها عن كل واحدة بكل هدوء وبرود لكنها في النهايّة ذكرت اسمك حين تحدثت عنك كشفت عن وجهها مرة أخرى، ورمقتني بنظرة متجسسة خبيثة. أنا ممتن كثيرا لبترونيوس

لأنه في هذه اللحظة جنح بالقارب قليلا فأبعد بذلك الانتباه عني. والا فلـو صدرت عن أحدهم أيّة تعليقات ساخرة، أو تضمر العداء لك، ما كنت لأحتمل الأمر، ودافعت عنك تحدوني رغبة في أن أفج بالمجداف رأس تلك المـرأة الغادرة اللعينة. لا بد أنـك تذكرين ما حكيته لك في منـزل لينوس عشيّـة سفرنا عما حصـل في بحيرة أغريبـا. بترونيوس خشي علي، وما يزال يرجوني بالا أخدش غرور الاوغستينا.

لكنـه بات لا يفهمنـي، ولا يستطيع أن يتفهم أنـه ما عداك بالنسبة لي لا وجود للروعة والجمال والحب، وأني لا أشعر نحوها الا بالقرف والاحتقـار. ما حصل أنك قد عدلـت في روحي، وغيرت في كياني، حتى بت لا أحتمل العودة إلى حياتي الماضيّة. لكن لا تقلقي علي هنا، فلن يصيبني أي مكروه.

بوبيـا لا تحبني لأنها لا تعرف أن تحب أحدا، وما تقلباتها ونزواتها الا ردود أفعال لغيرتها وغضبها من القيصر.

مـا زال القيصر واقعا تحت تأثيرهـا، ولعله ما زال يحبها، لكنه بات لا يخصهـا بالتفضيل، ولا يخفي أمامها صفاقته هذه. سأقول لك شيئاً يطمئننـي، فقد قـال لي بطرس وهـو يودعني بالا أخـاف القيصر فلن يمسني أي أذى، وأنا أصدقه. صوت ما في داخلي يقول :

أن كل أقـوال بطرس سوف تتحقـق. وبما أنه قد بـارك حبنا، فلن يستطيـع لا القيصـر، ولا قوة هادس، ولا القـدر أن تنتزعك مني. إذا مـا فكرت في ذلك أشعـر أني سعيد كالسماء لأنهـا وحدها التي تملك السعادة والاطمئنان. هـل يغضبك ويخدش شعورك، كفتاة مسيحيّة، ما أقوله عن السماء والقدر؟

إن صـح ذلك، فأستميحك العذر، لأنـه صدر بغير إرادة مني. الماء المسيحي لم يغسلني بعد، لكن قلبي كالمغارة الفارغة، وينبغي على بولس أن يملأهـا، بالعلم السعيد الأكـثر سعادة من أي شيء لأنك تملكينه. أما أنـت يـا ليفيا الالهيّة فأرجـو أن تثقي بأني قد أرقـت كل السائل الذي كان يملأ مغارة قلبي، ولـن أعيده اليها لأني أشرعتها وهي الان كظمآن صادف نبعا صافيا.

خذيني بالرحمة، وأنا في الأنتيوم سأمضي نهاراتي ولياليي في سماع بولس الـذي كان له منذ اليـوم الاول تأثير كبـير في أوساط عناصري الذيـن لم يـروا فيـه صانـع أعاجيب فحسب بـل وجـدوه كائنا فوق مستـوى الطبيعة. أمس لاحظت أن وجهه يشع بالسعادة، وحين سالته عن السبب آجابني بالقول :

" أزرع بـذرة ". بترونيوس يعلم أنه هنـا بيننا، ويرغب في لقائه، وكذلـك سينكا الذي سمع عنـه من غالوس والان النجـوم تنوس. آه يـا ليفيا، ونجمـة الصباح تـزداد تالقا. الفجـر يوشك أن يلـون البحر بالوردي.

كل شيء في الانحاء نائم، وأنا ساهر أفكر فيك وأحبك. أنا وغسق الفجر نحييك، يا خطيبتي.

٣٨

من فينيكوس إلى ليفيا

حبيبتي هل زرت يوما الأنتيوم برفقة عائلة أولوش؟

إن لا، فسأكـون سعيداً إذا ما عرّفتك بـه بنفسي. صارت الفيلات منتشرة من لاورنتوم حتى تبلغ الشاطئ. والأنتيوم نفسه عدد لا يحصى من القصـور والأروقة المشادة في صف فائق الطول أعمدته في أوقات الصحـو، تنعكس جميعها على صفحة المـاء. وأنا أيضاً أملك فيلا عند الشاطـئ مباشرة، وخلفها حديقة من الزيتون، وغابة من السرو. وحين أفكـر في أن منزلي هذا سيكون لك، أرى رخامه أشّد بياضا، وحدائقه ظليلـة، وبحره أشدّ زرقة. آه يا ليفيا ما أجمل أن نحيا ونحب. العجوز مانيكلسـ، وهو المشرف على هذا المنزل، مـلأ المكان سوسنا، وزرعه تحـت شجـر الاس فذكرني بمنـزل الوشـ وحدائقه حيـث جلسنا معا مرات. وهذه السوسنات سوف تذكرك بمسقط رأسك، وهذا ما يؤكد لي أنك سوف تحبين الأنتيوم والفيلا، هناك. فور وصولنا تحدثنا بطرس وأنا طويلاً تحت البرنديوم.

تحدثنـا عنك، ثم بـدأ بطرسـ دروسه معـي. أصغيت لـه طويلاً، وسأكتفـي بالقول : حتى لو أني أجيد الكتابة كبترونيوس، فلن أستطيع التعبير عن كل ما يجول في عقلي وروحي.

لم أكـن ليخطر لي أبـدا أن ثمة بعـد سعادة وجمـالا، وطمأنينة لا

يعرفهـا البشر. لكني سـأدع الان كل شيء لأحدثك به وجها لوجه في أقرب فرصة تتاح لي للسفر إلى روما.

قـولي لي كيف تحمـل الأرض عليها في زمن واحـد أمثال بطرس و بولس والقيصر؟

أسالـك هـذا لأني، بعد أن أنهـى بطرس درسه أمضيـت الليلة عند نيرون.

أتعلمـين ما الذي سمعته هناك؟ قرأ أولا قصيدته عن دمار طروادة، ثـم أبلغنـا بأنـه لم يشاهد بعـد مدينة محترقـة. حسد بريامـوس ونعته بالإنسان السعيد، لأنه تمكن مـن مشاهدة مدينته وهي تشتعل وتدمر. فصـاح تيفالينوس : " ما هـي إلا كلمة واحدة منك، وقبل حلول الليل سأحمل مشعلا وترى الأنتيوم يحترق ".

لكن القيصر رمقه بنظرة لائمة تقول : أيها الأحمق ! وأين سأستنشق بعدئـذ هواء البحر العليل، حفاظاً على صوتي هديّة الآلهة لي، والنعمة التي مني بها الشعب لمصلحته في النهايّة.

اليسـت روما هـي المدينة التي الحقـت بـي الأذى؟ أليست أدخنة سوبـورا هي التـي سبّبت بحّة صوتي. ثم أليس إحـراق روما بالمشهد الأعظم والأكثر تراجيديّة من إحراق الأنتيوم؟

وبدأ الجميـع يتكلمون عـن المشهد التراجيـدي المفترض لإحراق المدينـة الجبارة التـي اكتسحت العالم، وتحولـت إلى رماد. ومن جملة مـا قاله القيصر في هذا الشـأن أن قصيدته في إحراق روما ستبذ قصائد هوميروس، وراح يحكي تصوراته في بناء المدينة الجديدة على أنقاضها. وكيـف ستمجد العصور التاليّة هذا العمل العظيم الذي يفوق الأعمال

الإبداعيّة للإنسانيّة جمعاء. فكان أن استجاب لهذا المدعوون الثملون بأعلـى أصواتهـم : "افعلها ! افعلها!" لكنه قال : "لكني في حاجة إذن لأصدقاء أكثر وفاء وتفانيا" الحقيقة أن هذا الحديث قد أقلقني، يا ليفيا، فأنـت في روما يـا حبيبتي. لكنـي سرعان ما سخرت مـن قلقي هذا، وأقـول لك إن هؤلاء مجانـين وأنا لست بقادر علـى ارتكاب مثل هذا الجنون. تلاحظين كم يغار المرء على من يحبه ويخاف عليه. وفي رأيي أن كافة قصور البالاتينوس غير ملائمة لإقامتك فيها. فاقترح عليك أن تنتقلي إلى منـزل أولوش بكافة متاعك وحليّك التي اعتدت عليها منذ طفولتك.

انتقلـي الآن يـا ليفيا. أنا أفكّر كثيراً في هـذا حين يكون القيصر في روما، فإن نبأ انتقالـك سينتشر على ألسنة العبيد حتى يصل إلى أسماع القيصـر في البالاتينوس، وتتوجه أنظاره اليـك فيشملك بغضبه لأنك خالفت مشيئته. لكنه الان في الأنتيوم وسيبقى هنا طويلاً حتى يعود.

سيقيـم معك كل من لينوس و أرسوس. ومـا إن يعود القيصر حتى تكـوني في منـزلي. بورك اليـوم والساعـة، واللحظة التـي تطئين فيها عتبتي. وإذا مـا كان المسيح الذي أتعلم كيف أؤمن به، يمن علينا بهذا، فليتبارك، وليتمجّـد اسمه أيضاً. سوف أكون خادما له، وأبذل حياتي ودمـي لأجله. كان تعبيري خاطئا، والأصح : سنكون كلانا، خادمين له، ما دمنا معا على قيد الحياة. أحبك، وأحبك بكامل روحي".

٣٩

غـرف أرسوس ماء من الحوض بقارورة ذات عروتين، وهو يدندن بهـدوء معزوفة ليفويّـة غريبة، كان خلالها يتهج مهلـلا لرؤيته ليفيا و فينيكوس يتحدثان بين صنوبرات حديقة لنيوس، وقد انتصبا كتمثالين أبيضـين، يـدا بيد لا يرف لهما ثـوب بفعل النسيـم المسائي اللطيف. وكان الجو قد بدأ يتشح بلون البنفسج المذهـب.

سالته ليفيا :

ـ الا يترتب عليك أيّة عواقب يا ماركوس كونك قد غادرت الأنتيوم دون معرفة القيصر؟

فأجاب الشاب :

ـ لا يـا حبيبتي. فقد أعلـن القيصر أنه سيحتجب مـدة يومين لنظم أغنيتـين جديدتين. غالباً مـا يفعل ذلك، ولا يكـترث حينها بأي أحد آخـر، ولا يتذكر شيئاً. وعلى أيّة حال ما الـذي بوسع القيصر أن يفعله لي إذا مـا كنت معـك. كم أشتاق اليك حتـى أني لم أستطع النوم الليلة الفائتة. ما إن سهت عيني من شدة التعب، حتى أفقت مرتعدا لشعوري أنـك في خطر. يخطر لي أحيانا ماذا لـو قاموا بسرقة أحصنتي من أحد مواضعهـا، فلا أستطيع الارتحال إلى رومـا لرويتك. بتّ لا أقوى على الاحتمال بدونك.

أحبك جدا، يا كنزي الوحيد !

ـ عرفـت أنك ستأتي. لقد أرسلت أرسوس مرتين للسؤال عنك في منزلك. وقد هزأ مني كل من لنيوس و أرسوس.

والحق أنه بان عليها أنها كانت تنتظره، لأنها بدلا من ثوبها الداكن المعتاد، كانت ترتدي روبًا أبيض فضفاضًا طلع منه رأسها وذراعاها، كزهـرة الربيع المتفتحة في الثلج. وكانت تزيّـن شعرها ببعض زهرات ورديّة.

قـرّب فينيكوس شفتيه من يـد الفتاة وقبّلها، ثـم جلسا على مقعد حجري توضع بـين عرائش الكرمة البريّـة. وبكتفين متلاحمين راحا يرقبـان شفق الغـروب الذي بات يعكـس آخر التماعاتـه الحمراء في أحداقهما. وشيئاً فشيئاً أخذهما سحر سكون المساء.

علّق فينيكوس هامساً :

ـ أي سكـون هنا وما أروع الكـون. الليلة بديعـة. أشعر أني سعيد كمـا لم أكـن ذات يوم. قولي يـا ليفيا عبّري ما هذا الـذي نحن فيه؟ لم أكن لأظن يوما أن حبًّا كهذا الحب يمكن أن يكون في هذا العالم. كنت أعتقد أن الحب لا يتعدّى كونه شوقًا معذبًا، ونارًا متأجّجة تدور في دم الإنسان. لقد اكتشفـت الآن أن بوسعنا أن نحب بكل قطرة من دمنا، بـكل نفس من أنفاسنا، وأننا في سلام وطمأنينة كأنما قد سكن أرواحنا اله الموت، أو اله الأحلام. هذا أمر جديد كل الجدة بالنسبة لي.

آرى سكـون الاشجار العميق، فأشعـر أن السكينة قائمة في كياني. لم أشعر الا في هـذه اللحظة بطعم السعادة التي لم تعرفها البشريّة حتى الان. و لم أفهـم الا الان لم أنت وبومبونيا بهـذا اللطف والوداعة. . . .

أجل !.... إنها هبة المسيح...

في هــذه اللحظــة اتكأت الفتــاة برأسها الفاتن علــى كتف الشاب وهمست قائلة :

ـ يا حبيبي ماركوس. يا ماركوسي الحبيب...

و لم تقـو على المتابعـة. السعادة، الامتنان، إدراكهــا بأنه بات يحق لهــا أن تحبه، هــو ما منعها من الكلام، متيحة المجــال لدموع الانفعال أن تغـرق عينيها. لف الشاب جسد الفتــاة الرقيق، وضم ها اليه بعض الوقت ثم قال :

ـ ليفيا ! بوركت اللحظة التي سمعت فيها اسمك للمرة الاولى.

فهمست الفتاة :

ـ أحبك، يا ماركوس.

ثــم صمتا مــن جديد، لأن طوفــان السعادة قد أطــاح بالكلمات. كانــت أشعة الغروب البنفسجيّة الاخـيرة قد ناست على شجر السرو، وارتدت الحديقة نوراً فضيًّا استمدته من عباءة القمر.

وبعد قليل بادر فينيكوس إلى القول :

ـ أعلــم... ما إن وطئت المكان، وقبلــت يديك حتى قرأت بعينيك ســؤالا فيما إن استوعبت تلك التعاليم الالهيّـة التي تعتنقينها، وصرت مسيحيا. لا. لم يعمدوني بعد. أتدرين ما السبب يا زهرتي؟ لأن بولس قــال لي " أنــا من أقنعــك أن الله قد هبط إلى هذا العــا لم، وصلب نفسه ليخلص العا لم، لكــن في منبع الرحمة، دع بطرس هــو الذي يطهرك لأنه أول من بسط اليك يديه وباركك ". أنا نفسي فضلت يا حلوتي أن تشهدي على عمادي، وأن تصبح بومبونيا أمالي.

لهـذا السبب لم أصبح مسيحيا بعـد، رغم إيماني بالمخلّص وتعاليمه الثمينة. بولس أقنعني، أصلحني. وهل كان ممكنا بطريقة أخرى؟

كيـف لي أن أشـكك في أن المسيح قد هبـط إلى هذا العا لم وقد قال ذلـك كل من بطرس الـذي كان أحد تلامذته، و بولس الذي تجلّى له؟ كيـف لي أن أشكك في أنـه الرب ما دام قد قام مـن موته؟ وما دام قد شاهـده في المدينة، وعند البحيرة وفـوق الجبل، أناس لم تنطق أفواههم إطلاقا بكلمة كاذبة؟

لقد آمنت بذلك منذ سمعت بطرس يتحدث في الأستريانوم، وقلت لنفسـي حينها : " الاحرى بأي أحـد آخر أن يكذب لكن ليس بطرس الـذي يقول " لقد رأيته " لكني خفت من دينكم. ظننت أنه سيجردني منك. وأنـه خال من الحكمة والجمال والسعادة. أما اليوم وقد عرفته، فـأي إنسان أكـون إن لم أرغـب في أن تعم العدالـة الأرض، بدلا من الافـتراء والدجـل، والمحبة بدلا مـن البغيضة، والخير بـدلا من الشر، والوفـاء بدلا من الجحود. والرحمـة والتسامح بدلا من النقمة والثأر؟ هل ثمة إنسان لا يحب كلٍ هذا ولا يرغب فيه؟ اليست هذه تعاليمكم الدينيّـة؟ آديان أخرى أيضاً تريد العدالة لكن دينكم ينفرد بتعليمَ القلب ليكون صادقا، ويجعله نقيا، وفيا، كقلبك أنت وقلب بومبونيا.

سأكون أعمى، إن لم أر ذلك. كيف إن كان الرب، إضافة إلى ذلك، يعد بالحياة الابديّة والسعادة المطلقة. ما الذي يبتغيه المرء أكثر من هذا؟ إذا مـا سالت سينكا عن السبب في أنـه يوصي بالاستقامة حيث الحياة الخاطئـة تجعلنا أكثر سعادة، فلن يملك جوابـاً فطناً. لكني الآن أدرك لم علـي أن أكون مستقيما. والجواب لأن الخـير والمحبة منبثقان من عند المسيـح، ولأنني بعد أن يطبق الموت عيني، سالقـى الحياة، والسعادة،

والقى نفسي، والقاك، يا وحيدتي... فكيف للمرء أن لا يحب ويتقبل هذه التعاليم التي إضافة إلى صحتها، تنتصر على الموت؟

من الذي لا يفضل الخير على الشر كنت أظن أن هذا الدين يتعارض مع السعادة لكن بولس أقنعني انه دين ليس فقط لا يتخلى عن السعادة بـل ينميها أيضاً. آه يا ليفيا ! عقلي يقول إنه الافضل، إنه الدين الالهي، وقلبـي أيضاً يحس ذلك، فمـن بمقدوره أن يقاوم مثـل هاتين القوتين الجبارتين؟

كانــت ليفيا تصغي، دون أن يرف لها جفن، وعيناها الزرقاوان في ضــوء القمر أشبــه بزهرتين مكتنفتين بالاسرار، لا بــل جعلتها الدموع زهرتين نديانتين حقا.

ـ أجل، يا ماركوس، أجل قالت وهي تلتحم أكثر بكتف الشاب.

كلاهمــا في هذه اللحظة كان سعيدا، لأنهمــا أدركا أن هنالك قوة أخــرى تربطهما إضافة إلى الحب، وأن هذه القوة لها من الحلاوة بقدر مالهــا من الجبروت، وهي التــي تبقي الحب أبديا غــير عرضة للتبدل، وتهديد الخداع، وحتى لسيادة الموت عليه.

امتــلأ قلباهمــا بالامان والثقــة، فمهما حصل سيظــلان يحب كل منهما الاخر، ولن يفرق بينهما شيء. وشعر فينيكوس أن هذا الحب لا يتســم فقط بنقائه وعمقه، بل بكونــه حبا من نوع جديد تماماً، لا عهد للعــالم بمثله، وليس بمقدوره أن يمنحه مــن قبل كل شيء كان مكونا من مكونات الحب في قلب فينيكوس : ليفيا، تعاليم المسيح، الطاقة، ضوء القمــر خلل شجر الســرو، وهذه الامسيّة الوديعــة الهانئة. كأن المجرة على اتساعها غدت مملوءة بهذا الحب.

بعد قليل قال بصوت خافت مرتعش :

- سيكــون روحا لروحــي وأغلى ما لدي في العــا لم. سينبض قلبانا معا، وستكون صلاتنا مشتركة، ومشتركا سيكون شكرنا تجاه المسيح. آه يــا وحيدتي ! نحيا معا، ونصلــي معا للرب الطيب. ونعلم أننا إذا ما متنــا فسوف تستيقظ عيوننا ثانيّــة، على ضياء جديد، بعد أن أغمضت علــى حلم سعيد. أي تصــور يرقى على هذا التصــور؟ أعجب لنفسي كيــف لم أفهم ذلك من قبــل؟ أتدرين ما الذي أفكــر فيه الان؟ لا أحد بمقــدوره أن يقاوم هذه التعاليم. بعد قرنــين، أو ثلاثة قرون سوف تعم العــا لم. سينسى الناس جوبيتر، ولن تكون هنالــك الهة سوى المسيح، ولا معابد الا كنائس المسيحيين من الذي لا يرغب في سعادته الخاصة؟ لقــد سمعت حديث بولس و بطرســ، أتعلمين ما الذي قاله بترونيوس في النهايّة؟ " هذا لا يعنيني " و لم يكن بمقدوره أن يتفوه بشيء آخر.

- قل لي ما قاله بولس طلبت اليه ليفيا

- حدث ذلك عندي ذات ليلة. كعادته بترونيوس راح يتكلم ويمزح بخفــة دم، فقــال بولس : " كيف يمكن لك يــا بترونيوس وأنت إنسان ذكــي، أن تنكــر أن المسيح قد سار على الأرضــ، وقام من الموت، في حين أنك لم تكن مولودا بعد؟

لكن بطرس و يوهان قد شاهداه، وأنا رأيته على طريق دمشق. دع حكمتــك تثبت أولا أننا دجالون ثم ادحض ما جئنا به من بينة ". لكن بترونيوس قال أنه لا يقصــد الدحض والانكار، وهو يعلم أن كثيرا من الامــور اللا معقولة تحصل في العا لم، ثم يقوم بتغذيتها مصدقوها ومرو جوها.

لكنه أضاف أن اكتشاف اله جديد شيء، واعتناق دينه شيء آخر. " لا أريد أن أعرف عن أي شيء من شأنه أن يفسد حياتي، ويطيح بجمالها. ليس مهما أن تكون الهتنا الهة حقيقيّة، لكنها الهة جميلة، ونحيا قربها مرحين، بلا أعباء" فأجابه بولس قائلاً : " إنك تحتقر المحبة، ودين الصدق والرحمة، لأنك تخشى أعباء الحياة، لكن قل لي هل حياتكم التي تحيونها خاليّة من الاعباء؟ وإنكم إذا تحنون رؤوسكم خنوعا، لا أنت ولا أحد منكم حتى الأكثر ثراء ونقودا، بمقدوره أن يتوقع ما يمكن أن يطاله من أحكام قد تودي بحياته. لكن قل لي إذا ما القيصر قام باعتناق هذا الدين الذي يدعو إلى الحق والضراعة، اليس ذلك أكثر ضمانة لسعادتك؟ تخشى على متعك، لكن الن يكون من شأن ذلك أن يجعل حياتكم أكثر مرحا وسرورا؟

أما ما يخص جمال الحياة وبهرجها، فإذا كنتم قد أقمتم كل هذا الكم من المعابد، والنصب الفخمة لالهتكم السيئة المنتقمة الزائفة، الفاسقة، فما أكثر ما كنتم ستفعلونه لتمجيد اله الصدق والمحبة الواحد الاحد. الا فلتبارك قدرك لأنك ذو سطوة ونفوذ وتنحدر من أسرة ذات سطوة ونفوذ، فماذا لو رأيت النور وأنت من أسرة بائسة مدقعة، اليس من الافضل لك أنك تعيش في عالم يقوم على اعتناق دين المسيح؟

في مدينتكم بعض من أعيان القوم يرمون بأطفالهم هروبا من أعباء تنشئتهم، وهؤلاء الأطفال يطلق عليهم " اللقطاء ". كان يمكن يا سيدي أن تكون لقيطا من أولئك. وعلى العكس من ذلك لو كان والداك قد عاشا على ديننا، لن يحدث مثل ذلك. وببلوغك سن الرجولة كنت ستتزوج من امرأة تحبها، وتمضي معها بقيّة حياتك.

لكن أنظر حولك الان لدى ما يحصل عندكم. كم من الصفاقة

وكــم من العار، وكــم يجرى من اتجار مطلــق بالوفاء الزوجــي ! أنتم أنفسكــم بتم تستغربون وجود امــرأة تتسم بالوفاء. لكني أقول لك أن النســاء اللواتي يكنزن المسيــح في قلوبهن يفين بالعهد، ولا يتخلين عن إخلاصهن تجاه أزواجهن، وكذلك الرجال المسيحيون تجاه زوجاتهم.

أمــا أنتم فلستــم ضامنين لا أسيادكم، ولا آباءكــم، ولا زوجاتكم، ولا ابناءكــم، ولا حتى خدمكم. العالم بأسره يرتعد منكم خوفا، وأنتم ترتعــدون من أرقائكــم، لأنكم تدركون أنكم قــد تجابهون انتفاضهم عليكــم كما حصل غير مرة. أنت ثــري، لكنك لا تدري ما يخبئه لك الغد من أوامر تسلبك هذا الثراء، أنت شاب لكنك قد يفرض عليك في الغد أن تموت. أنت تحب لكن الخيانة قد تفاجئك. أنت محب للفيلات، والنصب، لكنك في الغد قد تنفى إلى جزيرة ما.

عنــد الاف الأرقّاء لكنهــم غدا قد يريقون دمــك. وما دامت هذه هــي أحوالكم فأيّة سعادة، وطمأنينة تعيشون؟ أما أنا فأدعو إلى المحبة، و إلى تعاليــم تطلب من أصحاب النفوذ، والاكابر أن يحبوا الاصاغر، والاسيــاد أن يحبــوا العبيد والعبيد أن يخدموهــم بمحبة، تعاليم تطلب التزام الحق، والضراعة، تعاليم تعــد، أخيرا، بالسعادة الواسعة كاتساع البحــر. كيف يمكنك القــول يا بترونيوس أن هذا الديــن يفسد الحياة، فيما هــو يدعو إلى إصلاحها، وإنك لأكثر سعادة ويقينا مرات ومرات لو أن هذا الدين يملأ العالم، كما يملؤه نفوذ روما الان. أجل يا ليفيا هذا ما قاله بولس. فكان رد بترونيوس : " هذا لا يعنيني ". ثم خرج، وكأن النعاس غلبه، لكنه قال مودعا : " يونيكي " أحب الي من عملك هذا، وأنا لست راغبا في إقامة سجال معك ".

كنت أصغي إلى بولس بكل كياني، وحين تحدث عن نسائنا أكبرت

الديـن الذي أنشأك، فنموت نمو الزنبقة في التربة الربيعيّة. قلت لنفسي هـا هـي ذي بوبيا قد تخلت عـن زوجين لها لأجـل القيصر، وها هي كريسبنيـلا، و نيجيديـا، وكل من أعرفهن، باستثنـاء بومبونيا، قد بعن عهودهن، وكل ما آمن به، لكن فتاتي هي الوحيدة التي لم تتخل عني، لم تخنـي، لم تطفـئ النار، ولن تفعل ذلك، حتى لـو خدعتُ وفقدت رجائي في كل شيء. أقـول لنفسي كيف أرد جميلك هذا، بغير الحب والتقديـر؟ لقد أحببتك أضعافا لأنك هربت مني في قصر القيصر. بات قصـرا لا يعنيني. لا تعنيني متعه، ولا موسيقاه، أنت وحدك من تعنيني. كلمة واحدة منك تجعلني أغادر روما بما فيها، وأذهـب بك بعيدا لنستقر في أي مـكان والفتاة بدلا من أن ترفع رأسها عن كتف الشاب، جالت بنظرها على تيجان أشجار السرو المفضضة، وقالت مستفكرة :

ـ حسنا يا ماركوس. أنت كتبت لي عن سيسيليا، حيث ترغب عائلة اولوش بالاستقرار في الشيخوخة...

فقاطعها فينيكوس مستبشرا :

ـ أجـل يا حبيبتي ! ملكياتنا متجاورة هناك. إنه ريف ساحلي بديع، قبة السماء أكـثر صحوا ولطافة، من سماء روما. الاماسي أكثر وداعة، وعطـرا. الحيـاة والسعـادة هناك شـيء واحد لا يتجـزأ وراح يحكي. تصوراته عن المستقبل :

ـيمكن للمرء هناك أن ينسـى أعباءه. سنتمشى بين أشجار الزيتون، ونستريـح في ظلالهـا، آه يا ليفيا ! ما أروعها مـن حياة : أن نحب، أن نواسي بعضا، أن نستمتع معا بالبحر والسماء، أن نصلي معا للاله الخير، ونسلك بكل آمان، وفي كل شيء، سلوك الحق والخير.

ثم لزما الصمت، سارحين في المستقبل، وقد ضم الشاب الفتاة اليه بقوة أشد، وفي أثناء ذلك تحت ضوء القمر، لمع بإصبعه الخاتم الفروسي الذهبي. كان كل شيء قد استسلم في الحي العمالي الفقير إلى هجعته، و لم يعكر الحفيف الناعم اللطيف سكون الليل.

سالت ليفيا :

ـ وهل ستسمح لي عندئذ بزيارة بومبونيا؟

ـ طبعا يا حبيبتي. سنقوم بدعوتهم لزيارتنا، أو نقوم نحن بزيارتهما. أترغبين في أن نصطحب معنا الحواريّ بطرس؟ لقد صار في سن يجهده العمل المتلاحق كثيرا. وبولس أيضاً سوف يكثر من زيارتنا، ويعم د أوسوس بلوتوس، وكما يقوم العسكر بإنشاء المستعمرات في البلدان البعيدة، سننشئ نحن مستعمراتنا المسيحيّة.

رفعت ليفيا يدها، وأمسكت بكف فينيكوس اليمنى تريد أن تقربها من شفتيها، لكن الشاب استبق ذلك، وكأنما قد خشي أن يجفل السعادة إذا ما رفع صوته ولو قليلا، فقال للفتاة هامسا :

ـ لا. لا تفعلي يا ليفيا. أنا أحترمك، وأقدرك، فهاتي يدك.

ـ أحبك.

لكن الشاب كان قد أخذ بيدها الناصعة البياض إلى شفتيه و لم يسمعا لبرهة الا خفق قلبيهما.

لم تنسم أخف ما هنالك من نسائم، فظلت أشجار السرو ساكنة لا تهتز وكأنها انسجاما مع الحالة قد كتمت أنفاسها أيضاً.

وعلــى نحو مباغت قطع هــذه السكينة هدير عميــق كأنما جاء من أعمــاق الأرض، فارتعدت له أوصال ليفيا، لكن فينيكوس نهض وقال :

ـ الاســود تزأر في أقفاصها في الملاعــب. وأصغيا كلاهما. في هذه الاثناء تلاحق الزئير زأرة بعد أخرى، أولى وثانيّة وثالثة، وجاءت الزأرة العاشــرة من كل أرجاء المدينــة، ومن كل الانحــاء. في المدينة كانوا قد حشــروا بضعة الاف مــن الاسود في المجتلــدات، وميادين المصارعة، فكانت هــذه الوحوش كل ليلة تسند رؤوسهــا الضخمة على جدران الاقفاص وتبدأ زئيرا يعلن عن شوقها للحريّة و الفلاة.

وهكــذا، في وحشة السكون هذه الليلــة، بعد أن يزأر أحد الاسود زأرتــه الاولى، يسلم دوره لأسد آخر وزأرة ثانيّة، وثالثة، حتى امتلأت أرجاء المدينة زئيرا. كان ذلك تعبيرا عن قوة هائلة متوعدة تنذر بتحطيم رؤى الســلام والوداعــة الاتيــة. كانت ليفيــا تصغي بقلــب منقبض، وخوف، وحزن.

لكن فينيكوس ضمها اليه قائلاً :

ـ لا تخــافي يــا حبيبتــي، المصارعة تقــترب، ولهــذا فالميادين ممتلئة بالاسود.

وعلــى وقع زئير الاسود الهادر المشتــد شيئاً فشيئاً، اتجه كلاهما إلى منزل لنيوس.

٤٠

في خلال ذلك بعد يوم، كان بترونيوس في الأنتيوم يحقق مجدا وتفوقا على زملائه الاغستيين الذين تسابقوا وباروه لكسب رضا القيصر والفوز برحمته. هبطت أسهم تيفالنيوس وامحى تأثيره تاما. ففي روما، إذا ما استوجب الأمر إبعاد الناس الخطرين من أمام الاقدام، فالحيل كثيرة : إما الثروة ووضعهم تحت الاضواء وإبهار الاخرين بولوغهم في التبذير والترف على نحو ينافي كليا الذوق واللباقة، وإما إشباع رغبات القيصر المرعبة.

وفي ذلك كله كان تيفالنيوس الماكر الرجل الاقدر من بين الجميع. في الأنتيوم عاش القيصر حياة هيلينيّة إغريقيّة في قصوره المنعكسة في مياه البحر الزرقاء اللازورديّة.

فكانوا منذ الصباح حتى المساء يقرؤون الاشعار، ويفندون بناءها، وما ثقل منها على الاسماع، مستمتعين بكل لفتة موفقة فيها، أو ينشغلون بالموسيقا والمسرح، وباختصار بكل ما أنتج العقل المبدع الإغريقي من إبداعات زخرفت حياتهم.

هنا في هذا الميدان كان بترونيوس لا يجارى قياسا بتيفالنيوس والاوغستيين الاخرين. كان أكثرهم ثقافة بما لا يقاس، أبرعهم حديثاً، أشف هم أحاسيسا، أرفعهم ذوقا.

وجد فيه القيصر الصاحب، والمستشار، والناصح الابداعي، وانفتح عليه بصداقة أعمق من أي وقت مضى، حتى ظن الجميع أن تأثير بترونيوس بات في حكم المؤكد، وأن أواصر صداقته بالقيصر تقوم الان على أسس صلبة، وأنها ستمتد سنين طويلة إلى الامام. وحتى أولئك الذين كانوا ينظرون إلى الابيقوري المرموق باستهجان، باتوا الان يتجمهرون حوله أملا برضاه.

ولقد سر كثيرون حقا بأن يتقدم واحد مثله ويتصدر الواجهة، فهو بخبرته ولباقته قد عرف في الامس كيف يتقبل بابتسامة شكاكة مداهنة الخصوم وتملقهم. وسواء أكان ذلك نتيجة للكسل أو اللباقة الارستقراطيّة فهو ليس بالشخص المتحامل ذي النزعة الانتقاميّة، الذي يستغل نفوذه في أذيّة الاخرين.

مرت آونة أتاحت له أن يخسر حتى تيفالنيوس، لكنه فضل بدلا من خسرانه أن يهز ئه، ويكشف له، باستمتاع منقطع النظير، عما تتميز به ثقافته من سطحيّة ونقص شديدين.

وفي روما كان مجلس الشيوخ مرتاحا، فمنذ شهر ونصف لم يصدروا فيه حكما بالاعدام. صحيح أنهم هنا في الأنتيوم كما روما أيضاً، قد رووا العجائب عن الدرجة التي بلغها القيصر من اللين والانحلال، لكن الجميع كانوا يفضلون برحابة صدر أن يحكمهم قيصر يتسم باللين، على أن يكون العوبة في يد تيفالنيوس المتسلط المنحط حتى درجة التوحش. حتى تيفالنيوس نفسه قد فقد عقله، فراح يتشدق ويشدد في طرح نفسه، على اعتبار أن القيصر كثيرا ما أفصح في روما أن لا أحد في البلاط ولا في روما بأسرها سوى شخصين هيلينيين يفهمانه حقا : هو و بترونيوس.

إن مهـارة بترونيوس المدهشـة قد عـززت اليقين لـدى الاخرين بـأن قوة تأثـيره تفوق كل من عـداه. فلم يعد بمقدورهـم أن يتصوروا القيصـر بدونه، لا في أحاديثـه عن الشعر والموسيقـا، والمباريات، ولا عما إذا كانت نتاجاتـه الشعريّة، والموسيقيّة قد بلغت حد كمالها لكن بترونيوس برحابة صـدره المالوفة، كان يحادثه دون إعطـاء أيّة أهميّة لمكانته. متلكئ، وخمول حاذق وشكاك كما هي عادته.

كثيرا ما أحس الاخرون أنه يتهكم ساخرا منهم، ومنه، ومن القيصر، ومن العالم بأسره. كان يجرؤ أحيانا ويقرع القيصر وجها لوجه، وحين كانـوا يعتقدون أنه قد تجاوز حدوده،وبالـغ في توتير القوس لدرجة قد تقـوده مباشرة إلى حتفـه، كان يبرع في حرف المسالـة موحيا بأن هذا التقريع إنما هو لمنفعة القيصر.

كان مـن شـأن ذلك أن يوقـع الحاضريـن في الذهـول، ويجعلهم متيقنين بقـدرة بترونيوس على التملص بنجـاح وفخر من أي مطب، قـد يعترضه. ذات مرة وكان فينيكوس قد عـاد من إحدى رحلاته إلى رومـا، قرأ القيصـر أمام دائرة ضيقـة، أبياتا من قصيدتـه عن طروادة، وحين أنهاها فوجئ بعدم تصفيق الحضور إعجابا بالابيات،فالتفت إلى بترونيوس بنظرة متسائلة، فأجابه الاخير :

ـ عمل زائف، مصيره النار.

ارتعـدت أوصال الحضـور خوفا، لأن القيصـر لم يعتد على سماع حكما كهذا منذ طفولته. وحده تيفالنيوس بدا مسرورا عمت البشاشة أساريره. علـى خلاف ذلك صار فينيكوس شاحب الوجه، معتقدا أن بترونيوسـ الذي لا يدع نفسه للإسراف في الشراب، هو الان في حالة من الثمل لا ريب.

أمــا القيصر فقد سأله ببالغ اللطف، ولو أن نبرة صوته قد شفت عن غرور مطعون :

ـ أين مواطن الرداءة فيها؟

فاستأنف بترونيوس تقريعه قائلاً :

ـ لا تصدقهــم. هؤلاء لا يفهمــون في أي شيء. تسالني عن مواطن الرداءة في هذه الاشعار؟ وما دامت تلك رغبتك فسأقول : هذه أشعار جيدة لو كانت من فرجيلوس أو من أوفيدوس، وحتى من هوميروس، لكنهــا ليست جيدة منك. لا يجوز لك أن تكتــب أشعارا كهذه. هذا الحريق الــذي تكتب عنه ليســ مندلعا بالقدر الــكافي، ناره لا تحرق، ونــارك ليست من الحرارة الا قليــلا. لا تصغ إلى إطراء الاخرين، وتملق لوكانوســ أنــا أرى أن مثل هــذه الاشعار هي العنصــر اللاهب، والحد الاعظمي لواحد مثله، لكنها لا تعبر عنك أبدا. أو تدري لماذا؟

لأنــك أعظم منهم جميعا. مــن وهبته الالهة ما وهبتــك، علينا أن ننتظر منه الأكثر فالأكثر.

لكنــك بدأت في التكاسل والخمول، فمن الافضل أن تنام قليلا، لا أن تظــل منهمكا في العمل. وفي مقــدورك أن تقدم إبداعات لم يالفها العا لم بعد. لذلك فأنا أواجهك بقولي : عليك بالكتابة الافضل !

على هذا النحو كان بترونيوس يناكد القيصر. لكنه يجرح ويداوي.

اغر ورقت عينا القيصر بغشاوة هي مزيج من الاستمتاع والنشوة.

فقال :

ـ لقد باركتني الالهة بموهبة نوعيّة، لكنها إضافة إلى ذلك، قد زودتني بصديق فنان، وحده من يواجهني بالحقيفة.

ومد يده المكتنزه المغطاة بالشعر الصدئي اللون، نحو الشمعدان الدلفي ليحرق الاشعار.

لكن بترونيوس انتزعها منه قبل أن تمسها النار وقال :

ـ لا. لا ! حتى الاشعار غير الخليقة بك، هي ملك البشريّة. دعها عندي.

فأجاب نيرون معانقا صديقه :

اسمح لي أولا أن أعمل لها صندوقا يروق لي، وسأبعث بها اليك.

وأردف بعد قليل :

ـ تماماً. أنت محق. في قصيدتي، احتراق طروادة ليس لاهبا، وناره ليست متوقدة بالقدر الكافي. كنت أظن أن بلوغي بها سويّة هوميروس يكفي. بعض الجبن، والحط قليلا من قدر نفسي، كانا العائقين في تحليقي. أنت من فتح عيني. لكن أتدري لم هي الحال كما تقول؟ لأنه لو أراد النحات أن يعمل نصبا لاله، فسوف يبحث له أولا عن نموذج. أما أنا فلا نموذج لدي. لم أشهد في حياتي مدينة تحترق. لهذا كتاباتي تعوزها الحقيقة.

ـ يمكنني القول أن من يقول مثل ذلك هو فنان كبير.

سرح نيرون مستفكرا وقال بعد قليل :

ـ أجبني عن سؤالي يا بترونيوس. هل تأسف أنت لاحتراق طروادة؟

ـ أمـا أنني آسف أم لا؟... أقسم برأس فينوس المائل، أنني لا أشعر ولـو بقليل من الاسـف. ولماذا آسف. لم تكن طـروادة لتحترق، لو لم يأت بروميثيوس بالنار للناس، ويأذن الإغريق لبرياموس بالحرب. لكن لو لم تكن هناك نار، فكيف سيكتب اسخيلوس بروميثيوس. وكذلك هـي الحال، فلو لم تنشأ تلك الحرب، لما كتـب هوميروس الالياذة. أما من جهتي أنا فأفضل وجود بروفينوس و الالياذة عن استمرار قيام تلك المدينة الصغيرة القذرة، والبشعة.

فأجاب القيصر :

ـ الأمـر كذلـك، إذا ما أراد المـرء أن ينطق بالحق مـن أجل الشعر، والفـن يضحى، وينبغي أن يضحى بكل شـيء. الجميع في أكايا سعداء بمنحهـم هوميروس موضوعا من أجل الاليـاذة، وسعيد برياموس لأنه شهد احتراق مدينته. وأنا؟ أنا لم أر مدينة تحترق.

ساد صمت قصير، اخترقه تيفالنيوس بالقول :

ـ سبـق وقلـت لك أيها القيصـر، ما هي الا كلمـة منك،وسأقوم أنا بإحـراق الأنتيوم. بـل أتدري مـاذا؟ إذا كنت ستفتقد هـذه الفيلات والقصـور، سأحرق السفن في أوستيا، أو أقـوم ببناء مدينة من خشب في قاعـدة جبال الالـب، وأنت بنفسك تلقي بالجمـرة هناك. أترغب في ذلك؟

لكن ما كان من نيرون الا أن قاسه بنظرة ازدراء، وقال :

ـ لا أرى أكواخـا خشبيّة تحترق؟ أي هراء هـذا منك يا تيفالنيوس. أستنتـج مـن هذا أنك إذ تحط مـن قدر موهبتي وقصيدتـي الطرواديّة، فإنك تزعم أن مواهبي لا تستحق تضحيات كبرى.

ارتبك تيفالنيوس. فيما أراد نيرون أن يغير الموضوع فأضاف :

ـ الصيـف آت... ما أنتن روما الان... لكن علي أن أعود من أجل المباريات الصيفيّة.

فرد تيفالنيوس :

ـ حين تصرف الجميع أيها القيصر، دعني أبق معك قليلا.

وبعد ساعة من الان كان فينيكوس يقول لبترونيوس بعد أن خرجا من فيلا القيصر، في طريقهما إلى البيت :

لقد أوقعت الرعب في قلبي. ظننت أنك ثمل، وتسارع إلى حتفك. حذار لأنك تعبث بحياتك، فأجابه بترونيوس لا مباليًا :

ـ هذه هي قاعة قتالي. وأنا فيها أفضل المجالدين. أرأيت كيف كانت النهايّـة. وسوف يبلغ تأثيري حد ا أعظم في المساء. سيبعث لي بأشعاره في صندوق شديد الشناعة من كثرة زخارفه التي تفتقد إلى الذوق. هل تأتي معي؟. سأقول لطبيبي أن يضع فيه الأدويّة المسهلة للأمعاء. وإضافة إلى ذلك فقد قمت بما قمت به، لأن تيفالنيوس، وقد انتهت الأمور إلى ما انتهت عليه، سوف، ولاشك، يحاول تقليدي. وأنا أتصور ما الذي سيحدث. دب يحاول الرقص على حبل. مهزلة سأسخر منها كما فعل ديموقريطس. إن أردت أعزل تيفالنيوس، وأحل محلـه قاضيا للقضاة. وعندها سيكون القيصر رهـن إشارتي. لكنني أكسل من أفعل ذلك... الأفضل أن أتقبل الحياة التي أحياها، حتى لو تخلّلتها أشعار القيصر.

ـ يا لمهارتك التي تجعل من التقريع منافحة وتقريظاً. لكن هل أشعاره بمثل تلك الرداءة؟ أنا لا أفهم في هذه الامور.

ـ ليســت أسوأ من أشعــار الاخرين لوكانوس يتمتــع بموهبة أفضل،

ولكن ذا اللحيّة الحمراء أيضاً لا يعوزه ذلك. أهم ما في الأمر أنه يمتلك قـدراً كبيراً مـن الجاهزيّة للشعـر والموسيقا. سنكون عنـده بعد يومين لنستمع منه إلى " نشيد أفروديت " الذي قد ينهيه اليوم أو غدا.

سنكـون قلة قليلـة. أنا، وأنت، وتوليوس سينكـو، والشاب نيرفا. لكـن بالعودة إلى الاشعار، ليس صحيحا ما قلته أنا عن أنني استخدمها بعد المأدبة، كما يستخدم فيتليوس ريشة الفلامينكو... لا تخلو أحيانا من قـوة في التعبير. كلمـات هيسوبا مثيرة... شكواهـا نابعة من آلام الـولادة، وقد عثر نيرون على التعابير الموفقة، ربما لأنه ينجب كل شطر شعـري في أو خضم معاناة. أحيانـا تعتريني الشفقة، قسما ببولوكس ! أي خليط غريب ! كاليغولا افتقد إحد مسنناته لكنه لم يكن بمثل ذراع التدوير لهذا المهووس.

ـ ومن يقرأ المستقبل كي يرى أين سيقود جنون ذي اللحيّة الحمراء؟

ـ لا أحـد بالطبع. تحصل حوادث توقف ذكراها شعر الرأس لقرون. لكـن الهام هو ما يحرّك الانسان، ما يشوطه، ويعطيه دفعا. وإذا ما كان يعتريني الســأم من نفسي ككوكب المشتري السيار فوق الصحراء، أظن أننـي سأكون في ظـل قيصر آخر أكـثر سأماً بكثير. علـي أن أعترف أن صديقك بولس اليهودي يجيد التحدث، وإذا ما كان أمثال هؤلاء البشر سينشرون التعاليم، فإن الهتنا في خطر. فكرة صحيحة أنه لو كان القيصر على سبيـل المثال، مسيحيـاً، لشعرنا جميعا بأمان أكـبر. لكن رسولك الطرسوسـي حين واجهنـي بحججه، لم يفكر في أن هـذا الاضطراب تحديدا، هو ما يمنـح حياتي سحرها. من لا يغامر، لا يفقد ثروته، ورغم ذلك ترى البشر يدفعون بأنفسهم إلى أتون المغامرة، لما في ذلك من متعة وسلوى. أعرف فتيانا هم ابناء فرسان، وسيناتورات، اختاروا أن يكونوا

مجالدين. تقول إنني أعبث بحياتي، وأنت محق، لكنني أفعل هذا لأنه يسلينـي، في حين أن الاخلاق المسيحيّة ستشعرني من أول يوم بالسأم شأنها شأن محاضرات سينكا. عليه أن يفهم أن أمثالي من البشر لن تخترقهم هذه التعاليم. أنت شخص مختلف تماماً ! من حيث طبعك يمكن أن تكره اسم المسيـح، كالطاعون، كما تكره نفسك أن تكـون مسيحيا. أنا أعطيهم الحـق، لكن وأنا أتثـاءب. نقامر، ونجري باتجاه الهاويّـة ، شيء ما يتقدم نحونـا آتيـا من المستقبل، شيء مـا يفرقع ويضج تحـت أقدامنا، شيء ما يموت بقربنـا، هذا كله صحيح، لكننا من ناحيّـة نستطيع أن نموت، أما من ناحيّة أخرى، فلا نفرط بحياتنا فنثقلها بالاعباء خدمة للموت قبل أن يأتي بنفسه. الحياة قائمة من أجل الحياة، وليس من أجل الموت.

- أما أنا فأشفق عليك يا بترونيوس.

- لا تشفـق علي أكثر ممّا أشفق أنا علـى نفسي. كنت فيما سبق تشعر بالسعادة بيننا، وحين كنت تحارب في أرمينيا كنت تشتاق إلى روما.

- والان كذلك اشتاق إلى روما

- طبعـا لأنك وقعت في حب عذراء فيستـا مسيحيّة تقطن هناك. لا أستغـرب ذلـك. لكن ما أستغربه بـك أنك حينما تقـول إن الدين بحر للسعـادة، وأن حبـك سرعان مـا سيتكلل بإكليل النصـر، أرى الحزن لا يفارق وجهـك. بومبونيا غراسينـا حزينة على الـدوام، وأنت، منذ أن صـرت مسيحيا، لم أقرأ على وجهك ابتسامـة. لا تحاول إقناعي أنه دين فرح. حتى من روما قـد رجعت حزيناً. إذا كان هذا هو الحب، عندكم أنتـم المسيحيين، فأقسم بضفائـر باخوس الشقراء أنني لـن أتبع مثالكم هذا.

فأجاب فينيكوس :

- الأمر مختلف كليا. أنا أيضاً أقسم، ليس بضفائر باخوس، بل بروح أبي أنني ما ذقت طعماً لتلك السعادة التي تملأ قلبي الآن.

لكن ما يحزنني هو إحساسي بأن ما يهدد ليفيا قائم بعيدا عنها. لا أعرف ذلك الخطر، وما هو مصدره، لكني أشعر به مسبقاً، كالشعور المسبق بقدوم العاصفة.

- أتكفل بأنني سأوفر لك فرصة كي تغادر الأنتيوم لأي مدة تشاء. كأن بوبيا أكثر اطمئناناً الآن، وأؤكد لك أن لا خطر عليك منها، ولا على ليفيا.

- اليوم سالتني ماذا فعلت في روما، رغم أن سفري كان سريا.

- لعلها تتجسس عليك، لكنها الان باتت تحسب حسابي.

نهض فينيكوس وقال :

- قال بولس أن الله يعطي تحذيرًا مسبقا للإنسان، لكنه لا يسمح بتصديق التنبؤات. أنا إذن أقاوم هذا الاحساس المسبق مني، ولا أستطيع التحرر منه. سأقول ما حصل لأريح قلبي. كنا معا أنا وليفيا، نخطط لمستقبلنا في أمسيّة وديعة كهذه الامسيّة. لا أستطيع وصف السعادة والطمأنينة اللتين لف تانا. وبغتة سمعنا زئير الاسود. صحيح أنه مالوف في روما، لكني منذ ذلك الحين بت لا أعرف الطمأنينة. أشعر أنه ما جرى كان تهديدا، ونذيرا للشؤم. تعرفني أنني بعيد عن الخوف، لكن ما حصل آنذاك قد ملأ ظلام الليل بالجزع. كان أمرا غريبا جعل أصوات الزئير إلى الان لا تفارق سمعي، وتملأ قلبي قلقا، وكأنما ليفيا

الان في خطـر محدق وفي أمس الحاجة لحمايتي. يا لعذابي... ساعدني لأسافر اليها، والا سأذهب دون إذن من أحد. لا أحتمل البقاء هنا.

أكرر قولي، لا أحتمل بقائي هنا.

ابتسم بترونيوس :

ـ لم نبلـغ بعـد درجـة أن ندع ابنـاء المسؤولـين وزوجاتهم عرضة للأسـود في الميادين. ومن يـدري إن كانت تلك أصواتـا لأسود، لأن الجواميس الوحشيّة الجرمانيّـة تزأر هكذا. ومن جهتي فأنا ابصق على كافـة التنبؤات وتنجيمات البروج. أمس كان الظلام دامسا، وأمطرت السمـاء بالنيازك الهاويّة. هناك مـن يتئس لمثل هذا المشهد، وأنا لست من هذا النوع.

وصمت قليلا، ثم عاد ليقول بعد تفكير قصير :

ـ علـى أيّة حال، إن كان مسيحكم قد قـام من موته، فبمقدوره أن يحميكم من الموت.

ـ أجل أجاب فينيكوس وهو ينظر إلى السماء المدروزة بالنجوم.

٤١

غنى القيصـر على شرف سيدة قبرص، وعـزف نشيداً هو من ألف كلماتـه وموسيقاه. يومها كان صوته متألّقاً، وشعر أن لحنه قد اجتذب الحضـور حقيقة أيما اجتذاب. فمنحه ذلك مـن قوة الحنجرة، وطلاقة الـروح، ما جعلـه يبدو موهبة حقيقيّـة، حتى أوصلـه صدق الحماس والاندمـاج، درجـة الاعياء التام. كانـت هذه أول مـرة في حياته، لا يرغب فيها سماع التمجيد والإطراء من الحاضرين. جلس محني الرأس يستند على القيثار هنيهة، لكنه سرعان ما نهض بغتة وقال :

ـ أنـا متعب، وأحتاج إلى الهـواء. دوزنوا أنتـم الاوتار خلال هذه الفترة.

ولفّ منديله الحريري حول عنقه.

ثـم التفت نحـو بترونيوس و فينيكوس الجالسـين في ركن القاعة ليقول :

ـ أنتمـا اتبعـاني. وأنت يـا فينيكوس هـات يديـك، لأن قواي قد خارت، أما بترونيوس فسوف يحدثني فيما بعد عن اللحن.

وخرجوا معا إلى فناء القصر المرمريّ المنثور بالزعفران.

هنـا يتنفس المـرء بطلاقة قال نيرون روحي حزينـة، متوفزة، وكما

أرى فـإن ما قمـت بتقديمه لكم من غنـاء، يؤهّلني أن أمثـل أمام الملأ، وأجني فوزاً لم يسبق لروماني أن جناه.

فأجابه بترونيوس :

ـ يمكن أن تصعد هنـا، وفي روما، وفي أكايا. لقد أذهلتني حقا أيها القيصر الإلهي.

ـ أعلـم. إنك من الكسل المريع مـا يجعلك لا تكلف نفسك مشقة الادلاء بعبارات الاطـراء. وأنت صادق شأنك شـأن توليوس الا أنك أكثر فهما للأمور منه. قل لي ما رأيك في اللحن؟

لـو كنت أسمع شعـرا، أو أشاهد عربة تقودها أنت في السيرك، أو أرى تمثـالا جميلا، أو كنيسة، أو لوحـة، فسأشعر أن بوسعي أن أقبض علـى كل مـا أراه من هذه الابداعـات، ويكون محـط إعجابي. لكني حين أسمـع الموسيقا، وبخاصة موسيقاك أنـت، تحتشد أمامي دفقات متلاحقـة متجددة مـن الجمال والروعـة. فأجري وراءهـا مستعجلاً القبض عليها، لكن ما إن أوشك على الإمساك بها، حتى تتدفق حشود جديدة وجديدة كأمواج البحر القادمة من اللانهاية.

أنا أقول أن الموسيقا كالبحر. نقف عند شاطئه، ونرنو بعيدا، فيتعذر علينا رؤيّة شاطئه الاخر تحمس نيرون :

ـ ما أميزك من خبير في الفن !

تمشوا قليلا صامتين، يخشخش الزعفران تحت أقدامهم، حتى بادر نيرون بقوله :

ـ لقد نطقت، بما أفكر تماماً. لهذا السبب أقول دائماً أنك الوحيد من يفهمني في روما. هذا واقع هذه هي نظرتي إلى الموسيقا. حين أعزف أو أغني أرى آمورا لم أكن أعرف أنها قائمة في إمبراطوريتي، أو حتى في العالم. ألستُ القيصر، وأملك العالم، وأستطيع أن أفعل أي شيء. لكن الموسيقا تفتح أمامي مملكة جديدة، وجبالا أخرى، وبحاراً، وروائع لم أعهدها من قبل. وغالباً ما أعجز عن تسميتها، وإدراكها بوعيي. أحسها فقط.

أحس بالآلهة، أرى جبل الاولمب. تهب علي رياح آتيّة من خارج نطاق الأرض، فالمح عبر الضباب أشياء غايّة في الكبر، لكنها هادئة ومضيئة كشروق الشمس... العالم بكليته يتغنى حولي بالالحان... ويمكنني أن أقول هنا يرتعش صوته بالدهشة الصادقة أنني وأنا القيصر الاله أشعر عندئذ بضحالتي وكأني ذرة من غبار. أتصدق؟

ـ حقا. الفنانون الكبار وحدهم من يشعرون بضحالتهم أمام الفن.

ـ هذه ليلة الصدق. سأفتح روحي أمامك كصديق لي. وسأقول لك أشياء كثيرة... تظن أنني أعمى، أو فاقد العقل، تظن أنني لا أعرف أنهم في روما يخطون على الجدران الشتائم ضدي، ويسمونني قاتل أمه، وقاتل زوجته، ويعتبرونني وحشًا لا رحمة في قلبه، لأن تيفالنيوس انتزع مني أحكاما بالاعدام لبعض أعدائي. أجل يا عزيزي إنهم يرونني فظيعا، وأنا أعرف ذلك. وكثيرا ما سالت نفسي هل أنا حقا شخص فظيع؟ لكنهم لا يدركون أن أفعال المرء أحيانا قد تكون فظيعة، دون أن يكون الشخص كذلك.

لا أحد يصدق، وربما أنت منهم يا عزيزي، أنني أحس بنفسي بريئا وطيبا كوليد في مهده أقسم بالنجوم المؤتلقة فوقنا أنني أقول الصدق

: الناس لا يعرفون كم من الخير مخبأ في هـذا القلب، وكم من الكنوز أكتشف في داخلي إذا ما الموسيقا فتحت لي الباب.

لم يشك بترونيوس قيد ذرة، أن نيرون الان يتكلم بصدق ونقاء، وأن الموسيقا تظهر من روحه العواطف الأكثر نبلا، المدفونة عميقا تحت راقات الانانيّة، والخلاعة، والشر. فقال :

- ينبغي معرفتك عن قرب، كما أعرفك أنا. ما عرفت روما يوما أن تعطيك حق قدرك.

وكأنما أحدودب القيصر تحت وطأة الباطل، فاستند بقوة أكبر على ذراع فينيكوس وأجاب :

- أسمع من تيفالنيوس، ويتهامسون في مجلس الشيوخ أن ديودروس و ترنيوس أكثر مهارة مني في العزف على القيثار. صاروا يجادلونني حتى في هذا. أما أنت فتقول الحق. أجبني بصراحة : هل هما يفوقانني مهارة في العزف؟ أم أن عزفهما جيد كعزفي؟

- لا أبدا. استعمالك للأوتار أكثر ليونة، وفي عزفك الكثير من القوة. والمرء يجد فيك الفنان، بينما يجد فيهما الخبرة والدربة. فلو سمعها المرء قبل أن يسمعك سيكتشف بجلاء ما أنت.

- ما دام الأمر كذلك، دعهما على قيد الحياة. لن يدركا أبدا أي خدمة قدمتها أنت لهما اليوم. وافرض أنني أدنتهما بحكم ما، الن أكون مضطرا لاستقبال آخرين سواهما.

- فضلا عن أن الناس سيتحدثون أنك بدافع حبك للموسيقا، تقوم

باستئصـال الموسيقا مـن البلد. تجنب أن تقدم علـى اغتيال الفن لأجل الفن، أيها القيصر الالهي.

فأجاب نيرون :

ـ مـا أميزك عن تيفالنيوس. لكنك تـرى أنني فنان في كل شيء وبما أن الموسيقا تفتح أمامي مطارح جديدة لم أكن أحلم بوجودها، وبلدانا لا أبسط عليها نفوذي، ومتعة، وسعادة لم أعرفهما من قبل، فليس إذن بوسعـي أن أمارس حياة عاديّـة. الموسيقا تقـول لي أن ثمة أمورا فوق العـادة، فعلي إذن كي أحصـل عليها، أن اسخـر كل ماوهبتي الالهة، وأمدتني به من قوة وسلطان.

أفكر أحيانا أنه إذا ما أراد المرء أن يعلو إلى ذلك العالم الاولمبي، فعليه أن يفعل ما لم يفعله أحد غيره من قبل، عليه أن يحلق ويمنح أجنحة للقيمة الانسانيّة خيرا أو شرا. كما أني أدرك أن الناس يتهمونني بالجنون. واقع الحال أنني لست مجنونا، ولكني أبحث عن الجنون، وأبدو في حالة من القلق وفراغ الصبر، لأنني لا أجده.

أنـا أبحث عن الجنـون، أتفهمني؟ لهذا السبـب أريد أن أعلو فوق الانسان، لأكون الاعظم بين الفنانين جميعا.

ثم أخفض من نبرته، فلم يعد فينيكوس يسمع ما يقول، وقرب فمه من أذن بترونيوس هامسا له :

ـ أتدري أنه السبب الرئيس في قتلي لأمي وزوجتي؟

أردت أن أضع أمام بوابة العالم المجهول أعظم قربان يمكن أن يقدمه الانسان كنت أظن بعدها أن أمرا ما سوف يحصل وتنفتح البوابة فالمح

مـن خلالها شيئـاً لا أعرفه. كان يمكـن أن يحصل أمـر أجمل وأفظع ممّايتصوره عقل... لكن الفديّة لم تكن كافيّة. لكي تنفتح بوابة المعرفة، فثمة بالطبع حاجة لأضحيّة أكبر. ليكن إذن ما تشاؤه التنبوءات.

- ما قصدك؟

- سـوف ترى، سـوف ترى، وأسـرع ممّاتتصور. لكـن حتى ذلك الحـين، ضـع في حسبانك أن هنالـك نيرونين: أحدهمـا الذي يعرفه الناسـ، والاخر الفنان الـذي لا يعرفه الا أنت، والذي إذا ما كان قاتلا كالمـوت، أو خصيبـا كباخوس، فإنمـا يفعل ذلـك، لأن ضحالة الحياة اليوميّـة وهشاشتها تضغطان على صـدره وتخنقانه، ويريد اقتلاعهما ولو كان مضطرا للقبض على الحديد والنار... آه، يا له من عالم رمادي بدوني!

لا أحد يتصور، ولا حتى أنت يا عزيزي، أي فنان أكون. هنا يكمن السبـب في معاناتي، وأصارحـك القول: قلبي حزيـن أحيانا، كهذه الاشجـار الداكنة أمامنا. ما أشق على المـرء أن يحمل على كاهله دفعة واحدة أعلى سلطة،وأعظم موهبة.

- قلبـي معـك أيها القيصـر، وكذلـك الأرض والبحـر، دون ذكر فينيكوس الذي في أعماق قلبه، يؤلهك.

فأجاب نيرون:

- كان عزيـزا على قلبي دائما، ولو أنه يخـدم مارس اله الحرب ولا يخدم الموزيات الالهات التسع اللواتي يحمين الفنون والعلوم.

- هو قبل كل شيء يخدم افروديته الخاصة.

وبغتة اتخذ قراره بأن يرتب الان أمر فينيكوس، ويبعد عنه أي خطر محتمل. فاستأنف كلامه قائلاً :

ـ لكنه عاشق. دعه يا سيدي يذهب إلى روما، فقد أصابه هنا النحول. أتدري أن تلك الفتاة الرهينة الليغويّة التي أهديتها له قد عثر عليها، وحين جاء فينيكوس إلى الأنتيوم وضعها في رعايّة أحدهم يدعى لينوس؟ لم أتحدث بهذا بعد لأنك كنت منشغلا بالنشيد وهذا أهم من أي شيء. أراد فينيكوس في البدايّة أن يجعل منها عشيقة له، لكنه وجدها فتاة فاضلة، فوقع في حب فضيلتها، وهو الان يرغب فيها زوجة له. إنها فتاة ملكيّة لا يحط من قدر فينيكوس الزواج بها. وبما أنه جندي حقيقي، يعاني ويتا لم ويصاب بالنحول، لكنه ينتظر إذنا من الامبراطور.

ـ لكن الامبراطور لا ينتقي زوجات لجنوده، فلم ينتظر إذني؟ قلت، يا سيدي، إنه يؤلهك.

ـ الفتاة جميلة، لكنها ضئيلة المؤخرة قليلا. لقد شكت منها الاوغستا بوبيا بأنها فتنت طفلتنا في حديقة البلاتينوس، وأصابتها بالعين.

ـ لكني قلت لتيفالنيوس أن الالهة لا تخضع للسحر الشرير.

تذكر، أيها القيصر الالهي، ايّة جفلة كانت فيها، وكيف صرخت أنت بأعلى صوتك : " هابت " !.

ـ كيف لا.

ثم التفت نحو فينيكوس :

ـ أحقا تحبها بمثل هذا القدر الذي يتحدث عنه بترونيوس؟

ـ أحبها يا سيدي.

ـ إذن سأعطـي أوامري بأن ترحـل غدا إلى روما، وتتخذها زوجة. ولا تدعني أراك بلا خاتم الزواج.

ـ أشكرك يا سيدي من قلبي وروحي.

وتنهد القيصر قائلاً :

ـ آه مـا أمتعـه من شعور أنـك تسعد الناس. كم أحـب الا أفعل في حياتي شيئاً غير هذا.

فقال بترونيوس :

ـ لنا رجاء أخر أيها القيصر الرباني. أعلن مشيئتك هذه أمام الاغستا بوبيا كذلك. لا يجرؤ فينيكوس أن يتزوج إحداهن إذا كانت الاوغستا تكن لهـا كرها. لكن بكلمة منك يا سيـدي تستطيع أن تلغي حكمها على الفتاة إذا ما أخبرتها أنها أوامر منك.

ـ حسنا، لا أستطيع أن أرفض طلبا لك، ولا لفينكوس.

وانطلقوا معا باتجاه الفيلا تحدو كلا من بترونيوس وفينيكوس فرحة الفوز.

في أتريوم الفيلا كان الشاب نيرفا و توليوس سينكو يسليان الاوغستا بالحديث، فيما كان كل من نترنيوس و ديودرس يدوزنان القيثار. دخل القيصر وجلس على كرسي ثم همس شيئاً للشاب اليوناني من خاصة خدمه، وانتظر.

وسرعـان ما عاد الفتـى بصندوقته المذهبة. فتحهـا نيرون، وأخرج منها عقدا من الاوبال حجر كريم، وقال :

ـ إنها حليّة تليق بأمسيّة اليوم.

فردت بوبيا لمعرفتها الوثيقة بأن القيصر قد خصها بالحليّة :

ـ يا لروعة بريقها !

فيما راح القيصر ينق ل العقد من كف إلى أخرى، وقال :

ـ فينيكوس ! هذه هديّة باسمي تقدمها للأميرة الليغويّة التي آمرك بالزواج منها.

رفعت بوبيا القيصر بنظرة أطلقت من خلالها شرارة غضبها وذهولها الفجائي، تحولت بعدها إلى فينيكوس، واستقرت عند بترونيوس الذي راح يحك عنقه في هذه اللحظة.

خلال ذلك كان فينيكوس يعبر عن شكره من أجل الهديّة، ثم خطا نحو بترونيوس ليقول :

ـ لا أدري كيف سأرد لك هذا الجميل.

فأجابه ذاك :

ـ قدم بضع بطات فديّة لـ يوتربا، مجد أغاني القيصر، وصفر للتنبؤات. آمل أن زئير الاسود لن يعكر بعد الان لياليك، ولا أحلام زنبقتك الليغويّة.

ـ لا. لقد صرت مطمئنا الان.

ـ أوسعتكما فورتونا برحمتها. واحترس الان لأن القيصر سيتناول القيثار اكتم أنفاسك، واستمع، واذرف الدموع.

أمسك القيصر فعلا بالقيثار، ورفع عينيه. انبتت في القاعة كل الاحاديث، وثبت الحاضرون في أماكنهم كالجمادات.

وحدهمـا ترنبوس و ديودروس العازفان المرافقان لغناء القيصر كان يلتفتان هذه الناحيّة وتلك. تارة ينظران ببعض، وتارة يرقبان فم القيصر في انتظار البدء.

في هـذه الاثناء صدرت حركـة، وضجيج في الصالون. وبعد قليل تقدم من خلف الستارة فاون معتوق القيصر، يتبعه القنصل لاكونوس

قطب نيرون جبينه

قال فاون لاهثا :

ـ عفـوا أيها الامبراطور. في روما نـيران. معظم أجزاء المدينة يعمها اللهب ! قفز الجميع من أماكنهم، فيما وضع القيصر القيثارة وصاح :

ـ أيتهـا الالهـة !... سأشاهـد المدينـة المحترقـة، وأنهـي قصيدتي الطرواديّة. ثم التفت نحو القنصل :

ـ إذا ما انطلقت في الحال، هل أتمكن من مشاهدة النيران؟

فأجاب القنصل يعلو وجهه شحوب الموتى :

ـ سيدي ! المدينة غارقة في بحر من اللهب، والدخان يخنق السكان، والناس يغمى عليهم، أو يلقـون بأنفسهم بالنار كالمجانين. روما تفنى يا سيدي !

ساد صمت لحظي قطعته صرخة فينيكوس : في ميسيرو ميهي

ورمى بسترته، وخرج من القصر بردائه فقط.

فيما رفع نيرون يديه نحو السماء صارخا :

ـ ويلي عليك، يا مدينة القديس برياموس

٤٢

لم يملك فينيكوس من الوقت ليأمر الا بعض خدمه ليتبعوه بالاحصنة. امتطى حصانا وانطلق في ظلمة شوارع الأنتيوم الخاليّة، ميمّاشطر لاورنتوم. لقد فقد صوابه، جراء سماعه النبأ المروع، وتشوشت مداركه فلم يعد يدري ماذا يحدث له. كل ما كان يعرفه أنه فوق صهوة الحصان، والنحس قاعد خلف ظهره ويصرخ في أذنه : " روما تحترق "، ويطاردهما معا بالسوط هو وجواده ليلقيهما في النار.

انحنى برأسه الحاسرة فوق عنق الجواد، دافعا بجبينه إلى أمام دون مبالاة بالعوائق التي قد تودي به إلى الوقوع والتحطم. في هذه الامسيّة الوادعة الهادئة المتلالئة بالنجوم، كان الحصان والفارس السابحان في ضوء القمر، أشبه بمشهد في حلم.

انطلق الحصان، ماطا عنقه إلى أمام، وأذنيه إلى الوراء بين أشجار السرو المنتصبة دونما حراك، والفيلات البيضاء المتواريّة بينها. فاجفلت ضربات حوافره فوق الحجارة هنا وهناك، الكلاب التي لاحقت بنباحها المروع هذا البادي الغريب، وبعدها نتيجة لاضطرابها الشديد من المباغتة، رفعت رؤوسها إلى القمر، وشرعت تعوي عواء مريرا. وسرعان ما تخلف أرقاء فينيكوس فوق أحصنتهم الضعيفة، عن سيدهم.

كان يعدو كالعاصفة عابراً لأورنتوم الهاجعة إلى النوم، ثم انعطف

باتجـاه ارديا. ومـا إن أشرف على الوصول اليها حتـى رأى في السماء أنواراً ورديّة آتيّة من الجهة الشماليّة الشرقيّة.

قد تكون أنوار الفجر، لأنه يطلع باكرا في حزيران. لكن فينيكوس بيقين منه أنها أنوار الحريق لم يتمكن من كتمان صرخة القنوط والغضب المسعورة.

حضـرت له كلمات ليكانيوسـ : "المدينة بحر مـن اللهب". ظن للحظـة أنـه سيجن، لأنه فقـد كل أمل بإنقاذ ليفيا، وبلـوغ المدينة قبل ان تتحـول إلى رماد. تسارعت أفكاره القانطـة الرهيبة حتى جاوزت سرعة حصانـه، وراحت تتطاير أمامه كسرب مـن الطيور السوداء. لم يـدر في أي نقطة من المدينـة بدأت النيران، لكنه افترض بأن شرارتها الاولى كانـت في المستودعـات الخشبيّـة المنتشرة بكثافة بـين المنازل، والاسطبـلات الخشبيّة لتجار الرقيق. كثيرا مـا تحدث حرائق في روما نتيجـة أعمال العنف والنهب خاصة في أحياء الفقراء، والبرابرة. تذكر الان أرسوسـ وقوته الجبارة، لكن ما الذي بمقـدوره أن يفعله أمام قوة النار المدمرة؟

كانـت مخاوف روما من تمـرد الرقيق تتفاقم منذ سنـوات. يقال إن مئات الألاف مـن هؤلاء العبيد يحلمون باسترجاع زمن سبارتكوس، ويترقبـون اللحظة المناسبة للانتفاض، وحمل السلاح في وجه ظالميهم وضـد المدينة. وها ذي قد جاءت، و قد يجر الحريق معه حربا ومجازر. وقـد ينتهك الحرسـ الامبراطـوري المدينـة، ويقتل الشعـب بأمر من القيصر. انتصب شعر رأسه لهذه الافكار.

تذكر الاحاديث التي بدأت تجري منذ حين في البلاط الامبراطوري عـن إحراق المدن، وخطرت له شكوى القيصر من أنه لم يشهد احتراق

مدينــة يلهمه الغناء والشعــر ، وتذكر مبادرة تيفالنيوســ الصريحة أمام القيصر، واستعداده للقيام بإحــراق الأنتيوم، أو مدينة خشبيّة مصطنعة لتلبيّة طموح الامبراطور الذي لم يخف قرفه واشمئزازه من أزقة المدينة وقذارتهــا. تبـين الأمر. القيصر قــام بإحراق المدينة. وحــده من يجرؤ علــى القيام بمثل هــذا الفعل، بعــد أن كل ف تيفالنيوس بذلك. ولكن بما أن المدينة تحترق بأمر من القيصر، فمن يجزم أنه لن يقدم على الفتك بالمواطنــين وقتلهم جماعيــا؟ إنه من الفظاعة بحيــث يفعل ذلك. إذن حريق، انتفاضة عبيد، حمام دم.

وهذا هو المشهد إذن : فوضى عارمة، فلتان، نقمة مسعورة، هياج كاسح. وليفيا في وسط هذا الاتون. اختلطت تنهدات فينيكوس بأنين حصانــه الذي بلغ أوجه، وهو ينهب الطريــق الصاعد نحو أريسا. من سيخرجهــا من المدينــة المحترقة؟ من سينقذها؟ استلقــى على حصانه، غــارزاً أصابع كفيه في شعره. كان في مقدوره، ومن شدة ألمه أن ينهش عنق الحصان.

لكــن فارسا كان يعدو بحصانه في الاتجاه المعاكس مر بقربه صائحا : "إنها نهايّة روما" وتابع عدوه. كل ما استطا ع فينيكوس أن ينطق به: "يا الهة". كلمة جعلته يستعيد توازنه. يا الهة ! أمسك برأسه فجأة رافعا كلتــا يديه نحو السماء وبــدأ يصلي: "لا أدعوكم أنتــم يا من معابدكم تحــترق، إنما أدعــوك أنت!... يا من عرفــت الألام. يا من أنت وحدك الرحيم ! يا مــن أنت وحدك فهمت ألم الإنسان. يا من أتيت إلى العا لم كــي تعلــم البشريّة الرحمــة، فاشملنا الآن! إن كنت كمــا يقول بولس و بطرســ فأنقذ ليفيا، ارفعهــا بذراعيك وأخرجها مــن لهب النيران. بوسعــك أن تنقذهــا! فأعدهــا الي وسأهرق دمي من أجلــك. وإن لم تفعل ذلــك من أجلي فمن أجلها. هي تحبك وتثق بك إنك تعد بالحياة

والسعادة بعد الممات لكــن السعادة بعد الموت لن تنصرف عنّا، وليفيا لا تريد الان أن تموت. اسمح لها أن تعيش بعد.

خذها بذراعيك وانتشلها من روما. بوسعك أن تفعل لو شئت.

اكتفــى بذلــك، لأنه شعــر أن متابعــة الصلاة قد تــؤدي إلى وعيد، وخشــي أن يجرح الألوهة في وقــت هو في أمس الحاجة إلى رحمتها. راح يهمــز الحصان مجدّداً بعد أن لاحت لعينيه جدران أريسيا البيضاء. وبلغــت اندفاعتــه أقصاها حين بلغ غابــة المدينة ومرّ أمــام المعبد المقام هناك.

ورأى حولــه حركة غير معهودة. بشر مسرعــون تحت المذبح وبين الاعمــدة على أنــوار المشاعل باتجــاه الغابة. وحشــود أخرى سلكت الطريق العام، شتتها الحصان في طريقه، وصدم من بينها بعض الافراد. وتعالــت الاصوات تنادي " روما تحــترق ! المدينة في بحر من اللهب، أيتها الآلهة أنقذي روما ".

وما إن وصل إلى مكان يتبع لأملاكه، بقصد أن يبدل حصانه المنهك، حتى تجمهــر أمامه العديد من الأرقّاء، فطلب اليهــم أن يأتوه بالحصان المستريــح. في هذه الاثنــاء لمح رهطا من فرســان الحرب الامبراطوري دفعهم النبأ للهروع إلى الأنتيوم، فسارع اليهم يسال :

ـ أي أجزاء المدينة يحترق؟

فسأله قائدهـم :

ـ من أنت؟

ـ فينيكوس، قائد عسكري، وأوغستيني ! هيا تكلم !

ـ بـدأ الحريق في الاكواخ المجاورة للسيرك، يـا سيدي حين أطلقنا لمهمتنا، كان مركز المدينة يشتعل.

ـ و الترانستبريس؟

ـ لم تصلـه النـيران بعد. لكنهـا تتوسع في كل لحظـة لتشمل أنحاء جديدة وجديدة مـن المدينة. السكان يموتون مـن الحرارة، والدخان، ولا جدوى من كل محاولات الانقاذ.

في هذه اللحظة جاؤوا بالحصان، فاعتلاه الشاب وتابع طريقه.

اتخذ الان وجهة البانوم مخلفا عـن يمينه البالونغا وبحيرتها الرائعة. كان يدرك أنه إذا مـا سلك الطريق العام وصعد الجبل، فسوف يشرف بنظـره، ليس على بوفيـلا و أوسترنيوم فحسب حيـث تنتظره أحصنة أخرى، بل على روما كذلك.

قال في نفسه :

ـ سأشاهد النار من قمة الجبل. وهمز الحصان مجدّداً.

لكنـه قبـل أن يبلغ قمة الجبـل، راحت الريح تلفـح وجهه، حاملة معها رائحة الدخـان. وباتت قمة الجبل تسبح بالانـوار الذهبيّة. فكر فينيكوس :

ـ أضواء النار.

وحـين بلغ القمة انكشف أمامه مشهد مـروع. اكتست السهوب

كلها بسحابــة من الدخانِ سبحت على مقربة مــن الأرض، وتلاشت فيها المــدن، وأنابيب المياه، والفيلات، والاشجــار. وفوق التلال عند نهايّة هذه السهوب الرماديّة المرعبة، كانت المدينة تحترق.

لكن الحريق لم يتخــذ هيئة عمود ينشأ في حالة احتراق مبنى وحيد مهمــا يكن المبنى ضخما. بل كان امتدادا طويلاً كشفق الفجر. وفوق هذا الامتداد الشفقي انسحبت ستارة دخانيّة توزعها السواد في ناحيّة منها، والوردي والدموي في ناحيّة أخرى، وتكاثفت هنا، وانقشعت هنــاك، ثم تلوت كالافعــوان. وكان من شــأن هذه الستــارة الدخانيّة اللعينة أن تغطي أحيانا حتى المنطقة الناريّة نفسها فتجعلها شريطا ضيقا أحيانــا، لكــن الشريط الناري يعود في أماكن أخــرى ليلقي بأنواره من الاسفل علــى الستارة الدخانيّة فيبديها تموجات قــد اشتعلت أسافلها. كان كلاهما الشريط النــاري، والستارة الدخانيّة يستحوذ على حدود الرؤيّــة في كل مكان، حتى أغلقا المدى مثل غابة كثيفة. فلم تبن الجبال السابينيّة أبدا.

بــدا لفينيكوس في اللحظة الاولى أن ما يحترق ليس روما وحدها، بل العا لم بأسره، فلا فرصة لكائن حي بالنجاة من البحر الدخاني الناري هذا.

كانــت الرياح قد بدأت تشتد في هبوبها فوق النيران، حاملة رائحة الاحتراق، والدخان الذي غلف كل شيء مجاور.

وبــدأت الشمس تشرق وتنير الكون، فأنــارت تماماً القمم المحيطة ببحــيرة البا. لكن أشعة الفجر الذهبيّة خلعت على العباءة الدخانيّة لونا واهنا محمرا. فينيكوس، بانحداره صوب البانوم بلغ منطقة دخانيّة أكثر كثافــة يصعب اختراقهــا، أغرقت فيها حتى المدينــة الصغيرة بالكامل،

فخـرج قاطنوهـا إلى الشوارع، وقد شـق عليهم أن يتصـوروا مقدار الهول الـذي حل بروما، ما دام الأمر هنا علـى هذه الحال من صعوبة التنفس.

تملكـه القنوط ثانيّة، وانتصب شعر رأسه مـن الهلع. لكنه سعى إلى أن يتمالك نفسه قدر المستطاع. قال في نفسه " يستحيل أن يعم الحريق المدينـة كلها دفعة واحـد. الرياح تهب من الشمـال، وتدفع بالدخان إلى هـذه الانحـاء. الجهة المقابلة تخلو من الدخان، مـا يدل على أن الـ ترانستبرس في منجى، خاصة وأن النهر يفصله عن النيران، وهو الأمر الـكافي ليتمكن أرسوس من عبور مدخل المدينة من جهة يانوكولوس، وينتشل ليفيا من الخطر.

ومـن المستحيـل أيضاً أن يهلك جميع السـكان، أو أن تغنى المدينة التـي تحكم العالم في لحظة عـن وجه الأرض. لقد دلـت التجارب أن قسمـا من السكان ظـل على قيد الحياة بالرغم مـن الحرائق، والمجازر التـي ارتكبت في المدن المنتهكة بقوة السلاح، فكيف من المفترض إذن أن تهلك ليفا؟ خاصة وأنها في رعايّة الله القاهر للموت ".

عكـف على الصلاة من جديـد، فأكثر من دعواتـه، ووعد المسيح بالقرابـين، والتقدمات الغاليّة. و لم يهدأ له بال حتى غادر البانوم حيث كان كافة السكان يجلسون على الاسطح، وفوق الاشجار، يتفرجون علـى روما. استعاد برودة دمه. فكـر أن ليفيا ليست فحسب في عهدة أرسوس و لينوس، بل في رعايّـة بطرس كذلك. فكـرة منحته القوة وجـددت آماله. كان بطرس في نظره كائنا مبهما وفـوق البشر. منذ أن سمعـه في الأستريانـوم، وتأثيره مـا زال قائما، وقـد عبر عن ذلك حـين كتب لليفيا قائلاً : كل ما يقوله هذا الحواريّ صحيح، أو سيثبت

الزمــن صحته. وحين عرفه عن كثب في أثناء مرضه، اشتد هذا التأثير، واستحــال إلى إيمان راسخ. إذن بما أن الحــواريّ قد بارك حبه، ووعده بليفيا، من المؤكد أن الفتاة لن تهلك في الحريق. يمكن أن تحترق المدينة، وتفنى عن بكرة أبيها، لكن ليفيا لن تمسها شرارة واحدة من النار.

لا بــل أنه، نتيجــة للسهاد والقلق، والعدو المسعــور، والاهتزازات التي لحقت بأوصاله، قد وصل به الأمر حد المغالاة في تصوراته ليصبح المستحيل، لديه، ممكنا : بطرس يرفع الصليب أمام السنة اللهب فيشقها إلى شطريــن ويتمكنون من العبــور بينهما. فضلا عــن أن بطرس رأى المستقبــل، فــلا بد إذ مــن أنه قد توقع هــذا الحريق، فعمــد إلى إخراج المسيحيــين من المدينة ومن بينهم ليفيا التي أحبهــا كابنة له. امتلأ قلب فينيكوس بالامــل. فكر أنهم لو هربوا من المدينــة، فسوف يلقاهم في بوفيلا أو في مكان ما في الطريق.

لقــد ازداد يقينــه في ذلك وهــو يمر بأعــداد هائلة مــن البشر الذين غــادروا المدينة، ميممين شطر جبــال الالــب، هربا مــن السنة النيران، وسحائــب الدخان. وقبل أن يبلغ الاوسترنيوم كان عليه أن يتمهل لأن الطريــق كان مقطوعا. مشاة يحملون المتــاع على ظهورهم، أحصنة، وبغــال، وعربات مثقلة بالاحمال، وعبيدا يعتلون نقالات تقل أسيادا. كان الاوسترنيوم عاجا بالنازحين مــن روما، ماجعل فينيكوس عاجزا عن العبور بينهم.

اكتظت الاسواق، والمعابد، وصفوف الاعمدة والشوارع بحشود الناس. وضربت الخيام هنا وهناك يلوذ بها عائلات بكاملها. وآخرون افترشــوا العراء، منهم من يدعون الالهة طلبــا للعون ومنهم من يلعنون قدرهم. كان من العسير فعل أي شيء في وسط هذه الحمى الشاملة من

الرعب. لا أحد يستجيب لأي نداء منه، لكن الجميع كانوا يرفعون نحوه عيونهم المرتعدة يندبون روما التي تحترق، ويحترق معها الكون بأسره. لم ينقطع وصول الحشود من جهة روما. رجال، ونساء، وأطفال، انخرطوا في الزحام العشوائي والذي فصل بعضهم عن اهليه، وبحث بعضهم في حيرة عمن ضاع عنهم. آخرون تشاجروا من أجل أمكنة لضرب الخيام.

رعاة قصدوا المدينة الصغيرة بمجموعات إثر أخرى، تقف يا لابناء، أو بحثا عن فرص السطو في الفوضى العارمة. وهنا وهناك مجموعات من المجالدين والأرقّاء من مختلف الاقوام بدأت تقتحم المنازل والفيلات وتطبق على الجنود الذين يحمون السكان.

أمام مطعم هناك محاط بالعبيد، لمح فينيكوس السيناتور يونيوس الذي زوده بالاخبار الأكثر دقة عن الحريق. اندلعت النيران أول الأمر في محيط السيرك الكبير في المنطقة التي تحد البالاتينوس، وهضاب سيليوس، لكنه انتشر بسرعة تفوق التصور، حتى بلغ وسط المدينة. منذ برينوس لم تتلق المدينة مثل هذه الصفعة. احترق السرك بكامله مع ما حوله من بيوت ومحلات وشملت النيران أفنتوس و سيليوس. لكنها أحاطت بالبالاتينوس من جانب، ثم انتشرت حتى كارينا.

هنا قبض يونيوس صاحب الاعمال الفنيّة العديدة في كارينا، على حفنة من الغبار القذر وصبها على رأسه، وراح يولول. لكن فينيكوس أمسك بكتفه، وربت عليه، مواسيا :

ومنزلي أنا أيضاً في كارينا. فإذا احترق كل شيء هناك، فليحترق معه. ثم خطر له أن ليفيا لو قبلت بنصيحته، لكانت انتقلت إلى منزل أرسوس. فسأله :

ـ و فينيكوس بتروسيسوس؟

ـ إنه يحترق أجاب يونيوس

ـ وترانستبريس؟

رمقه يونيوس بنظرة استغراب :

ـ وماذا يعني ترانستبريس؟

فصرخ فينيكوس بعنف :

ـ أهم عندي من روما كلها.

ـ يمكن أن تصل إلى هناك عبر فيا برتونسيس... ترانستبريس؟

لا أدري، إن كانت النيران وصلت إلى هناك... من يدري...

بعد هذا اللغو من يونيوس أخفض صوته قليلا ليستأنف قائلاً :

ـ أعلم أنك لن تشي بالأمر. فما حصل ليس حريقا عاديا. لم يُسمح بإطفاء السيرك... سمعت بنفسي... حين بدأت النار تلتهم البيوت تعالت الاف الاصوات التي تنادي : " الموت للمنقذين " كان أشخاص معينون يركضون في الشوارع بمشاعلهم ويلقونها على المنازل... وفي أمكنة أخرى قام الناس يصرخون بآن روما تحترق بأمر ما لن أقول لك شيئاً آخر.

ويلي على المدينة، ويلي علينا جميعا ، ويلي أنا ! ما يحصل هناك يعجز اللسان عن التعبير عنه البشر تأكلهم النيران، أو يدهسون بعضهم في الزحام... هذه نهايّة روما.

وبــدأ يولول ثانيّــة : ويلي على المدينة، ويلنــا ! لكن فينيكوس كان قد اعتلــى الحصان وانطلق، وسط عويل الناسـ الذين باتوا لا يطيقون الحــرارة الرهيبة القادمة من بحر النــار والدخان، ولا تستطيع نداءاتهم أن تدفع عنهم هسيس الحريق، ولا السنة اللهب.

٤٣

كلما اقترب فينيكوس من الاسوار تبين له أن طريقه حتى بلوغ أطراف المدينة أسهل من الدخول إلى قلبها. ذلك أن من العسير اختراق الكتلة البشريّة المتدافعة النازحة منها عبر فيا أبيا. كل ما أقيم على جانبي الطريق من صفوف المنازل، وحقول ومقابر، وحدائق، ومعابد قد تحول إلى مخيمات. وأقدمت الحشود على اقتحام باب معبد مارس المشاد قرب بورتا أبيا، طلبا لملاذ آمن هذه الليلة.

وخاضت في المقابر اقتتالا دمويا لاحتلال أمكنة الاضرحة. حصلت خسائر بشريّة كبيرة بعد أن اخترقت القوانين، وانتهكت هيبة الانظمة، ولم يقم أي وزن للعلاقات العائليّة والفروق الاجتماعيّة.

شوهد العبيد الذين يضربون المواطنين الأحرار بالهراوات، والمجالدين السكارى بفعل النبيذ المنهوب في الامبوريوم يقتتلون بجماعات كبيرة، ويطلقون زئيرا وحشيا وهم يلاحقون البشر، ويسحقونهم، أو يغرقونهم في الاراضي على طول الطريق، والبرابرة الهاربين من أسواق النخاسة. كان احتراق المدينة يعتبر بالنسبة اليهم، نهايّة العبوديّة، ومجيء ساعة الانتقام. فحين راح السكان المحليون الذي فقدوا في هذا الحريق كل ما يملكون، يرفعون أياديهم بانكسار نحو الالهة توسلا للعون، راح أولئك يفرقون الحشود، ويمزقون الملابس عن أجساد الناس، ويخطفون الجميلات من النساء، ولقد انضم اليهم عبيد روما القدماء، والمقاطيع من شجرة البؤساء العراة الا ممّا يستر عوراتهم. الاشكال المرعبة التي لفظتها الازمة الضيقة فخرجت الان في وضح

النهار على غير العادة، والتي لم يكن أحد يتصور وجود أمثالها في روما.

آسيويـون، أفارقة، يونانيـون، جرمان، بريتان، ومـن يصرخ ويزأر بشتـى لغات العالم، وقـد جاءتهم الفرصة للخروج مـن معاناتهم على مـدى سنوات طويلـة. أمواج بشريّـة هائجة بانت خلالهـا على ضوء الشمس، والحريق، مجموعات أكثر هدوء مـن السكان النازحين تحت حمايـة فصائـل الحرس الامبراطـوري التي اضطـرت في أماكن كثيرة لضرب مهاجميهم من الرعاع.

كم من المدن شاهـد فينيكوس في أثناء الحروب التي خاضها، لكنه لم يـر مثيلا لمـا يحصل الان في المدينة، من انكسـار، وحيرة، ودموع، وتأوهـات، وسعـادة وحشيّة، وهيـاج، وغضب مسعـور، وحماس وحشي. وفـوق هذا كله من الخليـط البشري العشوائـي النادر نشب الحريـق الهائل فأحرق فوق الرؤوس أعظم مدن العالم، وأطلق أنفاسه الناريّة في هذه الفوضى الكليّة، حتى غطى دخانه قبة السماء الزرقاء.

جـاء فينيكوس مخاطرا بحياتـه حتى وصـل إلى بورتا أبيـا، فرأى استحالـة دخوله المدينة عبر بورتا كابيتـا، ليس فقط بسبب الزحام، بل نتيجة للحرارة الهائلة التي تختلط بالهواء عبر البوابة.

وإذا مـا أراد الوصـول إلى الترانستبريس فعليـه أن يعود ليعبر جسر سوبلبسيوس أقدم وأعـرق جسور روما، أو يتقدم بمحـاذاة أفنتيوس، لكـن عبر بحـر من اللهـب يغلف ذلـك الجزء مـن المدينـة. كان أمرا مستحيلا. فرأى فينيكوس أن عليه إذن العودة نحو اوسترينوم، متجنبا فيـا أبيا عابرا النهر تحت المدينة، حتى يبلـغ فيا بورتونسيس التي تقوده مباشـرة إلى ترانستبريـس. لم يكن ذلك بالأمر الهـين خاصة بسبب ما تعانيـه فيا أبيـا من فوضى، حيث كان يمكن لـه أن يستخدم سيفه لشق

طريق لنفسه. الا أنه لم يملك الان سلاحا لأنه غادر الأتريوم على نبأ الحريق ملهوفا.

عند منبع مركوريوس التقى أحد معارفه من قادة المائة على رأس بعض جنوده يحمي مدخل الكنيسة، فأمره بأن يتبعه، فلم يشأ قائد المائة أن يرفض طلب الاوغستين الحاكم.

تسلم فينيكوس قيادة الفصيل بصراحة تجاوزت وصيّة بولس في المحبة الاخويّة، متوخيا بلوغ مكان طلق خارج هذا الزحام، الا أنه واجه مشقة كبيرة، فالكثير ممن ضربوا الخيام لم يشاؤوا إخلاء الطريق، فراحوا يلعنون القيصر والحرس الامبراطوري، ويتهمونهم بإحراق روما، متوعدين القيصر و بوبيا بالموت. " مهرج، ممثل جوال، قاتل أمة " وتكفل آخرون بالقائه في نهر التيبر، وصاح آخرون " كفى صبرا لروما ".

كان واضحا أنها صيحات وعيد متمردة تنتظر قائدا مناسبا لتنفجر في أيّة لحظة. في أثناء ذلك تحول غضب الجموع المسعور ضد الحرس الامبراطوري الذي لم يتمكن من اختراق الزحام نتيجة لقطع الطريق بما تراكم عليه من متاع، وحاويات أطعمة، وصناديق، وأثاث، وآنيّة، وأسرة أطفال، وشراشف، وعربات، ونقالات يدويّة. فكان لا بد من الشجار مع هذا الحشد الاعزل من العامة.

بمشقة بالغة، عبروا فيا لاتين و نوميسا و أرديتين و لافينا و أوستنسيس، والفيلات، والحدائق، متجنبين المقابر والكنائس حتى وصلوا أخيرا بلدة فيكوس الكسندر ومن خلفها نهر التيبر. كان التحرك هناك طلقا، والدخان أقل كثافة. النازحون هنا أيضاً بأعداد

كبيرة ، فعرف منهم فينيكوس أن الحريق لم يدهم حتى الان سوى بعض الشوارع من الترانستبريس، لكن ما تبقى من الحي لا منجى له من الحريق، لأن هنالك من يضرم فيه النار عمدا، دون أن يسمح لأي كان بإطفائها. الأمر جلي إذن.

الحريق ناتج عن أمر مسبق بإضرامه. أيقن فينيكوس الان أن كل ما يجري بأمر من القيصر، وأنه من أراد إحراق روما حقا، وأن تعطش الناس إلى الانتقام محق ومشروع.

ما الذي أمكن أن يفعله ميترادس أو أي أحد آخر من أعداء روما أكثر ممّافعله القيصر؟

لقد طفح الكيل وبلغ الجنون حده المتوحش، وباتت الحياة الانسانيّة مستحيلة. أدرك فينيكوس أن ساعة نيرون قد حانت، وأن أنقاض روما عليها أن تدفن تحتها هذا المهرج الشاذ، وتدفن معه كل أفعاله الشريرة. لو كان هناك ذلك الشاب الشجاع كفايّة، ووقف على رأس هذه الجموع الحائرة، لحصلت هذه الامنيّة خلال ساعات. لمعت أفكار جريئة في ذهنه الناقم. ماذا لو كان هو ذلك الشاب؟ إن قوميّة فينيكوس شهيرة في روما كلها، وهذه الحشود لا تحتاج الا إلى اسم. خاصة أن الحكم بالاعدام على أربعمئة من أرقاء بدانيوس سكوندوس، كاد يؤدي إلى انتفاضة وحرب داخليّة. فما الذي يمكن أن تحدثه واقعة الشؤم الرهيبة التي تفوق هولا كل الوقائع التي حصلت لروما منذ ثمانيّة قرون.

مَنْ يدعو الشعب إلى حمل السلاح لا بد أن يُسقط نيرون، ويرتدي محله اللون الارجواني الرفيع. فلم إذن لا يفعلها بنفسه وهو الامهر والاقوى، والأكثر فتوة وشبابا من جميع الاوغستيان. صحيح

أن القيصـر هو آمـر الفيالق الثلاثين المنتشرة على حـدود البلاد، ولكن هـل ترضى هذه الفيالق وقادتها بإحـراق روما ومعابدها؟ الا يغضبهم الأمـر؟ وفي هذه الحالـة سيكون فينيكوس هو القيصـر، خاصة وأن الاوغستيـان قـد تهامسوا فيما بينهـم أن أحد العرافين قـد تنبأ لـ أوتو بارتداء الزي الارجـواني القيصري. وهو ليس أسوأ من أوتو هذا. وقد يساعده المسيح بقوته الالهيّة. تنهد فينيكوس من أعماقه.

قـد ينقم على نيرون بسبب ما تعرضت له ليفيا من مخاطر، وما لحق بـه شخصيًّا من متاعب، فيأخـذ على عاتقه الانتصـار للعدالة والحق. وينشر تعاليـم المسيح من أوروبا حتى شواطئ بريتانيا الضبابيّة، ويخلع على ليفيا الرداء الارجواني، ويجعلها سيدة الأرض.

لكن هذه الافـكار التي لمعت آنيا في ذهنه كشـرارات تطايرت من منـزل محترق، ما لبثت أن خمـدت كتلك الشرارات. ذلك أن الاولويّة الان إنقـاذ ليفيا. والان بات في موقع قريب مـن الحريق، يشاهد بحر نيرانـه ودخانه بـأم عينه، فتملكه الخـوف من جديد، وفقـد يقينه بأن الحـواريّ بطرس ما زال قادرا على إنقـاذ ليفيا. لقد كان في حيرة عند خروجـه من بورتونسيس المفضيّة إلى ترانستيبرس، لكنه استعاد رباطة جأشه عند البوابة حيث أكدوا له ما كان قد سمعه على لسان النازحين، من أن القسم الاعظم من الترانستبرس لم تصل اليه النار، رغم أن اللهب قد بلغ ضفة النهر الاخر في بعض الاماكن.

كان الترانستبريسـس بدوره مغلفا بالدخان يعج بالنازحين الذين شق دخولهـم قلب الحي، لكثرة المتاع المنقولة من المنازل القريبة، وانقطاع الطرقـات، والنزاعـات الداميّة بين الافرقاء هنـاك. تشتتت العائلات، وتعالـت نـداءات الامهات لأطفالهـم. انتصب شعر رأسـس فينيكوس لفكرة ما حصل من أهوال في الاماكن القريبة من الحريق.

في أتـون هذه النـداءات، والصرخـات، والصخـب الفظيع، كان السـؤال للوقوف على الانبـاء شاقا كما سماع أي نـداء بجلاء. وبين الحـين والحين كانت موجـات الدخان الداكنة تعـبر النهر لتغلف وجه الأرض، والبيوت، والبشر، والموجـودات، كظلمة الليل. لكن الرياح المدفوعـة بفعـل الحريق كانـت تشتتها أحيانـا، فينجلـي الطريق أمام فينيكوس للتقدم نحو الازقة، حيـث منزل لينوس. كان حرارة شمس حزيران لا تحتمـل، وقد انضاف اليها ما يتدفق مـن حرارة بثتها أحياء المدينة المحترقة. الدخان أحرق العيون، والصدور تعذر عليها استنشاق الهواء.

ومـن بقي منـذ البدايّة في المنـازل أملا في الا تجتـاز النيران الحاجز المائـي، قـد غادرها الان فبات الزحـام يشتد مع مـرور الوقت. الأمر الـذي جعل الحرس الامبراطوري المرافق لـ فينيكوس مضطرا للتخلف عنـه، حتـى أن أحدهم وسط هذا الزحـام، عمد إلى استخـدام البلطة حاثـا جواده على الاسراع، فأدمى رأسه، فراح الجواد يشب واقفا على قائمتيه الخلفيتين رافضا القياد. ولما عرف الناس الاوغستياني من ردائه الموشى، بـادروا حالا إلى إطلاق الصيحات : "الموت لنيرون ولأعوانه ". كان الموقـف صعبا شديد الخطـورة. فقد امتشقت مئات السيوف وشهـرت نحـو فينيكوس، لكن الجـواد باندفاعه مخترقـا الجموع، قد تفاداهـا، وكانت موجة جديدة من القتامـة الدخانيّة قد أخفت وراءه الطريق ،

حـين رأي فينيكوس أنـه لا يستطيع التقدم وهو علـى ظهر جواده، ترجـل عن الجواد، وحث الخطى لائذا بالجدران، تاركا حشود النازحين تعبر إلى جانبه. شعر أن مساعيه باءت بالفشل، وأن ليفيا لم تعد في المدينة، وهـي الان تسعى على الطرقات لإنقاذ نفسهـا، وبات من الاسهل عليه

العثـور على إبرة صنوبر في كثبان الشواطئ الرمليّة، من أن يلقى فتاته في وسـط هذا الزحام والفوضـى. ومع ذلك قرر أن يصـل إلى منزل لينوس حتى لو كلف الأمر حياته. كان بين الحين والحين يقف فاركا عينيه. أخذ مزقة من طرف ردائه، وعصب أنفه وفمه، وحث خطاه مسرعا.

كانـت الحرارة تشتد كلما اقترب من النهـر. ولعلمه أن الحريق اندلع في محيـط السيرك الكبير، فقـد أيقن أن هذه الحرارة غـير المحتملة منبعثة مـن احتراق السيرك، و فوروم بوريوم و فيـلا بروم كان آخر من التقاهم فينيكوس عجوز نازح صاح به قائـلاً " لا تذهب ناحيّة جسر كستيوس لأن الجزيـرة تحترق ! ". وحين تقـدم باتجاه فيكوس يوديروم حيث منزل لنيوس شاهد الحاكم الشاب لهب النيران والسحب الدخانيّة هناك، الأمر الذي جعله يوقن أن ما يحترق ليس فقط الجزيرة بل الترانستيبرس كذلك، وفي الجهة التي قطنتها ليفيا.

تذكر فينيكوس أن منزل لنيوس تحيط به حديقة، وراءها، من جهة نهر التيبر، فسحة ترابيّة فسيحة.

شحنته الفكـرة بأمل جديـد. فالفسحة الترابيّة الخاليّـة تشكل عائقا أكيدا لتقدم النيران. اندفع يحدوه هذا الامل، رغم أن كل هبة للريح باتت تحمل شرارات ناريّة إضافة إلى سحب الدخان. فانسدت طريق العودة.

لكنـه في نهايّة المطاف لمح خلـل الدخان صنوبـرات حديقة لنيوس كانـت البيوت الواقعة خلف الفسحة الترابيّة قد أتت عليها النار وراحت تحـترق كالمشاعل، لكن جزيـرة لنيوس لم تمسها النـيران. رفع فينيكوس عينيـه بنظرة امتنـان نحو السماء، ثـم اقترب سريعا من المنـزل، وكانت حرارة الجو قد أحرقته. كان الباب مغلقا، لكنه ركله ودخل.

خلت الحديقة من أي صافر لنار. وبدا البيت خاليا كذلك.

" ربما أغمي عليهم من الدخان والحرارة " فكر فينيكوس ونادى عاليا :

- ليفيا ! ليفيا !

كان الصمت العميق هو الرد. لم يسمع خلاله الا ضوضاء الحريق البعيدة.

- ليفيا !

وفجأة طرق سمعه ذلك الصوت المتوجع الذي سمعه ذات مرة حين كانا معا في هذه الحديقة. لا بد أن يكون قد احترق في الجزيرة المجاورة قرب كنيسة اسكوليبيوس ذلك المربى الذي يضم شتى أنواع الحيوانات البريّة والاسود التي تزأر ذعراً. ارتعدت أوصال فينيكوس. مرة أخرى حينما يتركز كل تفكيره بليفيا، يسمع هذه الأصوات الرهيبة، نذير شؤم عليه.

لكن جفلته كانت لحظيّة، لأن دوي الحريق كان أكثر روعاً من زئير الأسود، فأرغمه ذلك على التفكير بسواه. ليفيا لم تجب على ندائه طبعًا، لكنها قد تكون في البيت المعرض للخطورة قد أغمي عليها، وفقدت وعيها من تنشق الدخان. دخل فينيكوس المنزل. كان الأتريوم فارغاً، يملؤه الدخان تماماً.

وبفتحه باب الغرفة الأخرى لمح مصباحًا مضيئاً، فاقترب أكثر، ورأى القائم الذي توضع عليه الصليب بدلاً من الالهة الحارسة للبيت. تحت هذا الصليب أضاء المصباح. لمعت في ذهن التلميذ المرشح لاعتناق الدين المسيحي فكرة أن الصليب هو الذي بعث اليه بالمصباح ليتمكن من العثور على ليفيا.

تنـاول المصباح باحثا عن مخادع النـوم. أزاح ستارة وأدخل المصباح وجال بعينيه.

لم يكـن هناك أحـد. رغم ذلك كان فينيكوس علـى يقين أن ليفيا في المخدع، لأن ثوبها كان معلقا على الحائط، وقميصها الداخلي ملقيا على السريـر. رفعـه فينيكوس وضغطه على شفتيه. ثـم ردّه على ذراعه وتابع بحثه. كان البيت صغيراً، دار على جميع غرفه وزواياه بقليل من الوقت.

لم يجـد أحـداً. كان واضحاً وضـوح الشمس أن ليفيـا و لنيوس و أرسوس، وجميع سكان الحي قد هربوا مـن الحريق. فكر فينيكوس : " علي أن أبحث عنهم بين الجموع خارج المدينة ".

لم يستغرب كثيراً أنـه لم يجدهم في فيابورتونسيس لأنهم قد غادروا الترانستبريس من الجهة الاخـرى، باتجاه فاتيكانوس. المؤكـد، على أيّة حال، أنهم هربوا من النيران. انزاحت صخرة كبيرة عن قلب فينيكوس. صحيح أن هناك مشقات كبيرة يواجهونها في أثناء نزوحهم، الا أنه تعشم في قوة أرسوس الفائقة للمقدرة البشريّة، فانتعشت روحه بطاقة جديدة.

" علي الان أن أنجو بنفسي وأغادر هذا المكان. سأعبر حديقة دوميتا إلى حديقة أغريبنا سأجدهم هناك. الدخان ليس بتلك الكثافة هناك، لأن الريح تهب من جهة جبال السابين.

كان لديه الان حقا الوقت الكافي ليفكر بالنجاة، لأن العاصفة الناريّة بدأت تقترب من جهة الجزيـرة، والدخان يملأ الشوارع تماماً. والمصباح بدأ ينوس.

خرج إلى الشارع جارياً بما لديه من طاقة باتجاه فيا بورتونسيس، وهي الجهـة ذاتها التي أتى منها. تابع الجـري خشية أن تلحق به النار. ويخنقه الدخان. امتلأ فمه حقا برائحة الاحتراق والسخام.

والتهبت حنجرته ورئتاه كالنار. فار الدم في رأسه، فاحمرت المرئيات في عينيـه، حتى الدخان بدا له أحمر. قال لنفسه " هذه نار حيّة، الافضل لي أن أستلقـي على الأرض وأموت" أنهكه الجري. وأغرق رأسه، وعنقه وظهـره بالعرق اللاهب كالماء المغلي. ولو لم يكن يذكر اسم ليفيا، ويشم قميصها لخارت قواه حقا.

لكنـه لم يعد يلمح الشارع الـذي يجري فيه. وشيئـاً فشيئاً بدأ يفقد وعيه، فلم يع الا أمرا واحدا : الهروب، وأن ليفيا التي وعده بها الحواريّ بطرس تنتظره في الحقـل الطلق. وفجـأة تملكه ما يشبـه صحوة ما قبل الموت، عليه أن يراها، ويتخذها زوجة، وبعدها يموت في الحال.

بات الان يجري متمايلاً على نحو اعتراضي في الطريق، كالثمل. وفي هذه الاثناء تبدل شيء ما في الحريق المرعب الذي يلف المدينة العملاقة.

كل مـا كان يتقـد متوهّجاً حتى هـذه اللحظة، بـات الان بحرًا من اللهـب المشتعل، والرياح التي تهب لم تعـد تحمل معها الدخان الاسود، بـل الشرر الناري بملايينه، وبـات فينيكوس لا يجري في سحب دخانيّة، بـل في طوفان نـاري كاو. لكن الرؤيّة باتت أوضـح. وفي هذه اللحظة بالذات الـذي أوشك فيها على السقوط لمح نهايّـة الشارع. منحه ذلك مزيداً من القوة.

وبتجاوزه المبنى الركنـي عند المنعطف، بلغ الشارع المفضي إلى فيا بورتونسيـس وحقل كوديتا. لم يعد الشرر الناري يلاحقه. أدرك أنه إذا مـا احتمل الوصول حتى بورتونسيس فإنـه في منجى، حتى لو أغمي عليه.

وعنـد نهايّة الشارع كأنه قد لمـح سحابة تغلف المخرج فكر : " إن كانت سحابة دخانيّة فلن أعبرها ". صار يجري حاشدا كل قوة متبقيّة

لديـه. وفي الطريق القـى عنه عباءته التي احترقـت في أكثر من مكان، وباتت تحرقه كقميص نيسوس.

ركض عارياً تماماً إلا من قميص ليفيا على رأسه وفمه. حين اقترب أكـثر تبين لـه أن ما رآه دخانـا لم يكـن الا سحابة غباريّـة جاءته منها أصوات بشريّة. " الرعاع ينهبون البيوت " قال لنفسه.

لكنه أسرع باتجاه الأصوات، حيث وجود بشر قد يسعفونه بعونهم. محديّـاً بهذا الأمل، وقبل أن يصل إلى المكان، راح ينادي بأعلى صوته، طلبـا للمساعدة. وبندائه هذا استنفد آخر مـا يملك من قوة : احمرت الاشياء أمام عينيه، وانقطعت أنفاسه، خارت كل قوة لديه، وسقط.

كانـوا قد سمعوه، وربما رأوه، فأسرع اليه بإبريق الماء رجلان منهم. كان فينيكوس قـد سقط مـن الإعياء، دون أن يفقـد وعيه، وحين لمح الابريق اجترع نصفه.

- شكراً لكم.أنهضوني. علي أن أتابع المسير.

العامـل الاخر سكب ما تبقى من الماء علـى رأسه، وبعد أن أنهضاه علـى قدميه قاداه إلى رهط آخر، التم أفراده حوله، وتفحّصوا بعنايّة إما كان يعاني من أيّة جروح بليغة. تعّجب فينيكوس للرعاية فسألهم :

- من أنتم؟

فأجاب أحد العمال :

- نهدم البيوت لنمنع النار من بلوغ بورتونسيس.

- هرعتم الي لمساعدتي حين سقطت، شكراً لكم.

ـ لا يجوز لنا أن نرفض طلب المساعدة أجابت بعض الاصوات.

جال فينيكوس بعينيه على وجوههم جميعا وقال :

ـ جازاكم المسيح لأجلها.

ـ المجد لاسمه أجابوا بصوت واحد

فسأل فينيكوس :

ـ لنيوس؟

لكنـه لم يتمكن مـن تتمة سؤالـه، و لم يسمـع أي رد، لأن العاطفة المشوبة بالإعياء الشديد، قد غيّبته عن الوعي.

استعـاد وعيه في حديقـة كامبوس كودتانوسـ، حيث وقف حوله بضعة رجال ونساء. وحين تمكن من التكلم كان سؤاله الاول :

ـ أين لنيوس؟

لم يسمع ردا في البدايّة، لكن صوتا مالوفا أجابه بعد قليل :

إنـه خارج بورتا نومانتان... قصـد الاوستريانوم... منذ يومين.. سلام عليك يا ملك الفرس.

جلس فينيكوس معتمداً على الآخرين، وعلى غير توقع، لمح شيلون إلى جانبه اردف اليوناني يقول :

منزلك قـد احترق يا سيدي. لكنك تبقى ثريـا على الدوام كالملك ميداس أي خطب هذا !

المسيحيون تنبؤوا منذ زمن طويل بأن هذه المدينة ستأكلها النيران... أما لنيوس وابنه جوبتر فهما معا في الأوستريانوم... أوو، أي خطب ألمّ بهذه المدينة!

ساءت حال فينيكوس من جديد. فسأله:

- وهل رأيتهما؟

- رأيتهما يا سيدي. الحمد للمسيح، وكل الالهة لأني تمكنت من رد جمائلك بنبأ طيب. لكني أقسم بروما المحترقة، بأنني سأقدم لك كثيرا من الامتنان بعد.

بدأ الظلام يحل. لكن الحديقة كانت منارة كما في النهار لأن الحريق أخذ يشتد، ويتفاقم كأن ما يحترق ليس جزءاً معيناً من المدينة، بل المدينة كلها. وعلى مدّ البصر كانت السماء تكتسي بالحمرة فخيمت ليلة قانيّة على الكون.

٤٤

عــم ضوء المدينة المحترقــة قانيا أرجاء السماء طــولا وعرضا. ومن وراء الجبال بــزغ القمر بدراً، سرعان ما انعكــس عليه الوهج الناري، فأمسى متوهجا كالنحاس، وهو يرمق عاصمة الكون الهالكة. وكذلك النجوم في فسحة السماء القانيّة، لألأت لألاء وردياً. وعلى النقيض من كل الليالي في العادة، كانت الأرض أكثر إضاءة من قبة السماء.

كانــت روما مشعــلا عملاقا أنــار الاشياء والاجــرام. فبانت على ضوئه الجبال البعيدة، والمدن، والفيلات، والمعابد، والنصب، والأقنية المائيّــة المنحدرة مــن الجبال المحيطة باتجاه المدينــة، وعليها أعداد البشر الذيــن احتشدوا هنالك إمــا هربا من الخطر، أو لرؤيّــة الحريق من علٍ على نحو أكثر جلاء.

في هذه الاثناء كان العنصر المروع يطيح بأجزاء أخرى وأخرى من المدينــة. لم يكــن من شك في أن ايادي آثمة هــي التي أضرمت النار في المدينــة، ولا تنفك تضرمها في أماكن بعيدة منفصلــة عن البؤر الناريّة. كانــت النار تسكب لهبهــا أمواجا متدفقة من فــوق التلال التي بنيت عليهــا المدينة، نحــو الوديان المكتظة بالابنيّــة ذات الطوابق الخمسة أو الستــة، والتي ما تزال ممتلئة بالحوانيت، ومستودعات الخشب والزيت وصوامــع القمــح، والجوز. هنــا اختزنــت المخاريــط الصنوبريّة التي يتغذى على بذورها العامة الفقراء، والاقمشة التي يتكرم القيصر وينعم بتوزيعها بين الحين والاخر على قاطني الازقة المعدمين.

في هذا المكان استحال الحريق، وقد وجدت النار ما يكفي من عناصر إزكائها، إلى انفجارات تت إلى وتشتد وتبلغ الشوارع بسرعة فائقة.

من تجمع مـن البشر خارج المدينة، أو من كان فـوق الاقنيّة المائيّة قد عـرف من لـون اللهب، ما الذي يحـترق. كان النسيـم يختار من بحر اللهـب الالاف المؤلفـة مـن قشـور الجوز واللـوز المتقـدة ويطيرها في الاعـالي، كأسراب لا حصر لها مـن الفراشات المضيئة، لتتبدد بعدئذ محو مة في الهواء، أو لتستقر، محمولة على جناح النسيم، فوق مناطق جديدة مـن المدينة، أو فوق الاقنيّة المائيّة، أو الحقـول المحيطة بالمدينة. ما زالت فكـرة النجاة تبدو مستحيلة أمام هذا التفاقـم المريع للفوضى، وخروج السـكان أفواجا أفواجا من أبـواب المدينة كلها، إضافة إلى أن الحريق قد أغرى الألاف من سكان البلدات المحيطة، والفلاحين، والرعاة للنزول طمعا باقتناص فرص السلب والنهب.

" نهايّة روما " نداء لم يخمد على السنة الجموع، وكأن هلاك المدينة كان يعني للجميع نهايّـة للإمبراطوريّة الرومانيّة، وانحلال كافة الخيوط التي ربطت السـكان، إلى الان، وجعلت منهـم نسيجا واحدا وشدت لحمتهـم. الغالبيّة العظمى من الرعاع التي شك لها الأرقّاء والمهاجرون، سلكـت سلوكا تهديديـا هنا وهناك، لأن الأمر الهـام بالنسبة إلى هؤلاء ليس سلطة روما، بل تلك الانعطافة التي تخلصهم من قيودهم.

وهـا هي الان.بمتناول أيديهم، وعليهـم أن يحققوها بأهم وسيلتين : أعمال العنف والسرقة.

وغاب عـن بال مئات الالاف من الأرقّـاء أن لروما عشرات الفيالق منتشـرة في أنحـاء العالم، إضافـة إلى فيالقها على حـدود المدينة، وكلها بانتظار إشارة أو كلمة.

صار يتردد اسم سبارتكوس، رغم أن سبارتكوس ما عاد موجودا، فيما كان المواطنون يتوحدون ويتسلحون، إفراديا حسب المستطاع.

كانت تأتي أبشع الأنباء عند كل بوابة زعم بعضهم أن فولكانوس هو من يقوم بأمر من جوبيتر، بإحراق المدينة بنيران تنبع من تحت الأرض. وأكد بعضهم الآخر أن ما يحدث ما هو الا انتقام الإلهة فيستا من أجل عذراء فيستا روبريا. فمن كانوا يعتقدون بهذه الواقعة المقدسة لم يكونوا مستعدين لإنقاذ المدينة، واكتفوا بالتزام المعابد، متوسّلين من الإلهة الرأفة. لكن أكثر الأنباء انتشاراً وقبولاً هو أن القيصر قد أحرق المدينة، ليتخلّص من الروائح المنتشرة من سوبورا، ويتمكن من بناء مدينة جديدة باسم نيرونيا. استعر غضب الشعب لهذا. ولو كان هنالك قائد كما يفكر فينيكوس بمقدوره أن يستغل هذا التفجر الحاقد، لانتهى أمر نيرون منذ سنوات.

وقيل أيضاً أن القيصر قد جن، وأصدر أوامره للحرس الامبراطوري، والمجالدين، بالتنكيل بالشعب وإحداث المجازر وحمامات الدم. وهناك أقسم بالآلهة أن الوحوش قد أفلتت من مرابيها ومعاقلها بأمر من القيصر. وأنهم شاهدوا في الشوارع أسوداً ولبوات تحترق، وفيلة نافقة وجواميس هائجة تقوم بدهس جموع الناس. كان في هذا قدر كبير من الصحة، لأن الفيلة في بعض الاماكن، وقد روّعها اقتراب الحريق منها قامت بتشليع حظائرها، وفرت مذعورة في الاتجاه المعاكس للنيران، مدمرة كالعاصفة الهوجاء كل ما يعترض طريقها.

وشاع خبر قدّر الخسائر البشريّة نتيجة الحريق بعشرات الألاف. وهذه حقيقة. كان هناك من خسر كل ثروته، وفقد أعز أحبائه فدفعه اليأس لالقاء نفسه بين السنة النيران. آخرون اختنقوا بالدخان. وآخرون غيرهم واجهتهم النيران في كل اتجاه أو طريق سعوا للهروب منه، إن

كان في مركز المدينة أو في أي مكان آخر اندلع فيه الحريق، فلقوا أبشع الهلاك : الموت حرقا.

كانــوا من الذعر على قدر جعلهم يضلــون السبيل، فلا يعرفون أي وجهة يتخذون للهرب من النار التي لاحقتهم وواجهتهم في كل مكان : الساحات، المعابد، الشوارع، الطرقات.

الجثث المتفحمة في كل مكان وحيث لم تصل النار كان هلاكهم من شدة الحرارة القاتلــة منهم من راح يدفن نفسه نصفيا بالاتربة، أو يشق البــلاط احتماء به مــن لهب الحرارة. حتى يمكن القــول أن ما من أسرة واحــدة من الاسر القاطنــة داخل المدينة، استطاعــت أن تهرب بكامل أفرادهــا، ما أدى عند كل مدخل للمدينــة، وفي كل شارع وطريق إلى سماع ولولات الامهات، وصراخ النساء لما أضعن من أحباء، أو فقدن حرقا من أعزاء.

وهكــذا، ففي حين كان البعض يتضرّعون إلى الالهة، وقف آخرون يشتمون أسماءها لهذا الدمار الرهيب. شوهد مسنون يبسطون الايادي نحو معبد جوبيتر ويتقدمون بالدعاء:

"أنــت المنقذ، فأنقذ مذبحك ومدينتــك". فيما كان التذمر منصبا علــى الالهة الرومانيّــة القديمة التي حسب تصــورات السكان تتحمل قسطا من المسؤوليّة. وبما أنها قد برهنت عجزها عن تقديم هذا العون، فقد سقطت من عيون الناس، فاستحقّت ازدراءهم.

وعلــى النقيض من ذلك، فقد حصل أنه لمــا ظهرت في فيا أسيناريا مجموعــة من الكهنة المصريين تخرج نصــب إيزيس من المعبد الواقع في محيــط بورتا كاليمونتانا، انضمت اليها حشــود أخرى ورافقت العربة التي تحمله حتى بورتــا أبيا، فأنزلوا النصب وأدخلوه معبد مارس، بعد

أن قاموا بضـرب كهنة المعبد الذين اعترضوا علـى وضعه هناك، ضربا مبرحـا. وفي أمكنة أخـرى توجه بالنداء إلى سيرابيســ و بعل و يهوه، أنصـار سوبورا بعـد أن خرجوا مـن أزقتهم المجـاورة للترانستيبريس يملؤون المدى بالصراخ والعويل.

وبالمقابـل كأنما أصوات النصر أيضاً قد تـرددت في هذه النداءات، في محاولة منها لإسـكات الاصوات الصاخبة التي راحت تمجد " سيد العـالم ". في مـكان آخر قام رجـال كهول، وكهنة ونسـاء، وأطفال، يرددون غناء غريبا لم يفهم معناه، لكنه تضمن عبارات مثل : "لقد جاء القضـاء في يـوم الغضب والهلاك ". هكذا كبحر هـادر راح الطوفان البشري المائج الساهر يطوق المدينة المحترقة.

ولكـن لم يكن بمقـدور لا حالة اليأس ولا الشتائـم، ولا الغناء أن يبـدل في الأمر شيئاً. وبـدا أن الواقعة لا تقـاوم، ولا يكبح جماحها، وهي ماضيّة لا محالة حتى نهايتها المحتومة كالقدر. امتدت النار لتلتهم مستودعات الحبال والقنب الواقعـة إلى جانب الامبيتروم، باعتبار أن هنالـك حاجة لكميّة هائلة من الحبـال اللازمة لمختلف أنواع الاجهزة والالات المستخدمـة في ميادين السيرك، والمجتلـدات، والمنافسات الرياضيّـة، ولتلتهم هناك كذلـك مستودعات براميـل الزيت الخاص بطلاء الحبال.

ولمدة بضع ساعات نشر الحريق ضوءه لينير بالاصفر الصارخ كامل شطـر المدينة، ومعـه ميدان مارس الممتد وراءه، حتـى ليظن الرائي من شـدة الذعر أن انقلابا كونيا كبيراً وتخلخلا قد حصل فجأة، وأنه الان في النهار لا في الليل.

ولكـن مع مضي الوقـت، بدأ اللـون القاني يطغى علـى كل الوان

اللهب صـــارت النوافـير والاعمدة الناريّــة العملاقة تتحــرر من بحر اللهــب وتنفذ عاليا نحــو قبة السماء المتوهجة، وتتبــدد في الاعلى إلى ريش وعناقيــد ناريّة، حملتها الرياح ثم شل عتهـا إلى شرارات خيطيّة وشعريّة ووصلت بها حتى جبال الالـب.

صارت الليلة أكثر إضــاءة، والهواء مشبعا بالضوء واللهب الناري. وبــات نهر التيـبر يموج بالنار. واستحالت المدينة البائســة إلى جحيم، كان يتســع ليشمل كبرى المساحات، والتلال، وانداح على السهوب، وأغرق الوديان، وعصف، ولعلع، وأرعد.

٤٥

الحائك مكرينوس الذي أدخـل فينيكوس إلى منزله، قام بتحميمه، وقدم له الثياب، وأحســن ضيافته، وحين استعاد الحاكم الشاب كامل قـواه، أعلـن أنـه سيستأنف مسيره ليـلا بحثا عن لنيوسـ. مكرينوس المسيحـي أكد أقوال شيلون بأن لنيوسـ، وكبير الكهنة كليمنس قصدا الأستريانـوم حيث يقـوم الحواريّ بطرس بتعميـد مجموعة من معتنقي الديـن الجديـد. كان جميع سكان هـذا الشطر من المدينـة يعرفون أن لنيوس منذ يومين قد أوكل بمنزله شخصا يدعى غينوس.

كان هذا بالنسبة لفينيكوس، تأكيدا آخر على أن ليفيا و أرسوس قد غادرا المنزل وذهبا إلى الأستريانوم.

اطمـأن فينيكوس لهذه الفكـرة. كان لنيوس رجلا مسنا يشق عليه مغـادرة الترانستيبرس كل يوم إلى بورتا نومنتاتا البعيدة، ومن ثم العودة ثانيـة. ومن المحتمل إذن أنه خارج سـور المدينة، يقيم عند أحد أخوته في الدين، ومعـه ليفيا و أرسوس ، وفي هذه الحالة فإنهم في منجى من الحريق الذي لم ينتشر ليبلغ المنحدر الاخر للأسكيلنيوس.

لقـد رأى فينيكوسـ في هـذا وصيّـة المسيح، وشعر بأنـه مشمول برعايته، فامتلأ قلبه بمحبة أكبر إزاءه، وأقسم أنه سيظل طوال حياته ممتنا لما أنعم عليه من إشارات الرأفة.

لكن الاهـم الان الذهـاب إلى الأستريانـوم. هناك سيلتقـي ليفيا،

ويلتقـي لنيوسـ ويلتقـي بطرس، ويذهـب بهم إلى مكان مـا في أحد ممتلكاته، وليكن إلى سيسيليا.

ها هي ذي روما تحـترق، وبعد أيام لن يبقى منها سوى الرماد، فلم بقاؤهم هنا عرضـة لهذا الخطر بين السكان المنفلتين بلا قياد؟ في حين أن فريقا كاملا من العبيد سيحيطهم هناك بالرعايّة، حيث الهدوء التام، والحيـاة الامنة بمباركة بطرسـ، وتحت حمايّة المسيـح. والان عليه أن يجدهم.

لم يكـن العثور عليهم بالأمـر السهل. تذكر فينيكوس كم عانى من مشقات كثيرة للوصول إلى الترانستيبرس قادما من فيا أبيا، وكم اضطر لتغيـير طريقه لبلوغ فيا بورتونسيسـ، فاتخذ الان قرارا بتجنب المدينة مـن الجهة المعاكسة، والتقدم عـبر تريمباليس على محاذاة النهر للوصول إلى بونس إيميليوس، ومـن هناك، بالالتفاف حول بنسيوس على طول حقـل مارس، يمكـن الوصول إلى فيا نومنتا. كانـت أقصر الطرق رغم أن مكرنيوسـ و شيلـون لم يقترحاها مسلكا لمسـيره. الحريق لم ينتشر بعـد في هذا الشطر من المدينة، لكـن الاسواق والطرقات مقطوعة من قبـل جموع الناس ومتاعهم. نصحه شيلون بالذهاب إلى بورتا فلامينا عـبر أغر فاتيكانوس، وهناك يعبر النهر، ويتجه إلى بورتاسالاريا خارج الاسـوار خلق حديقة اسيليوس. وبعد مناقشـات سريعة قبل فينيكوس بالنصيحة.

كان على مكرينوسـ أن يبقى هناك ليحمي المنزل، لكنه كان يعتني ببغلين أمكن أن تستخدمهما ليفيا في متابعة السفر. كان راغبا في إرسال أحـد الأرقّاء أيضاً، لكن فينيكوس منعه من ذلك، أملا اصطحاب أول مجموعة من الحرس يلتقيها في الطريق، تحت إمرته إلى هناك. وبعد قليل

انطلق بمرافقة شيلون باتجاه فيا تريمباليس كانت المساحات الرحبة مليئة بالبشر لكنها كانت قابلة لعبورها، لأن الغالبيّة العظمى من السكان قد هربت باتجاه البحر.

تقدما بين النهر وحديقة دوميتيا الفخمة، التي التمعت سرواتها بحمرة الحريق كما لو كانت تغتسل بشفق الفجر. كأن الطريق هنا بات أسهل العبور، رغم اضطرارها أحيانا لمواجهة تدفقات الفلاحين في الاتجاه المعاكس كان فينيكوس لا ينفك يحث بغله على الاسراع، لكن تابعه شيلون كان طوال الطريق يقول لنفسه :

ـ الحريق بات وراءنا، وهو الان يسخن ظهورنا. لم يكن الليل في هذه الطريق بمثل هذه الاضاءة يا جوبيتر ! إن لم ترسل وابل أمطارك فوق هذه النار، فذلك يعني أنك لا تحب روما. القوة البشريّة لا تطفئها. يا للمدينة التي أخضعت بلاد اليونان، وسائر العالم ! والان يمكن لكل عابر سبيل يوناني أن يدنسها. من كان يتخيل ذلك ! لن تكون روما بعد الان... ولن يكون هنالك سادة رومان. صار أي كان يمكن له أن يتبختر مدندنا بصفيره فوق رمادها. صار أي كان يتجرأ وينتهك هيبتها. أيتها الالهة ! أتستحق هذه المدينة التي كانت سيدة العالم أن تهان بالتبختر والصفير فوق رمادها. أي يوناني أو بربري بالاخص قد تصور مثل هذا؟ أجل بات الصفير والتبختر متاحين فوق رماد المدينة. فالرماد رماد سواء أكان رماد نار الرعاة، أم رماد مدينة بكاملها، كلها ستذروها الرياح.

كان يكلم نفسه وهو يلتفت نحو أمواج النيران، وترتسم على وجهه تعابير من الفرح والغضب معا. واستأنف كلامه :

ـ هالكة ! هالكة ! ولن تقوم لها قائمة مرة أخرى. إلى أين سيصدر العالم بعد الان أقماحه، وزيوته، وأمواله؟ وما نفع الذهب والدموع؟

الرخام لا يحترق، لكنه يتشقق بفعل النار. سيستحيل الكابينوليوم والبالاستينوم إلى أنقاض. وا جوبيتر ! كانت روما كالراعي وباقي الشعوب كالقطعان. إذا ما جاع الراعي كان يذبح نعجة ويأكل لحمها، ويخصك أنت، يا رب الالهة، بجلدها قربانا.

يا أيتها السحب من سيذبح بعد الان النعجة، ولمن ستسلمين عصا الراعي؟ فروما يا أبتِ تحترق عن آخرها وكأنك أنت من قمت بإضرام النار فيها.

استعجله فينيكوس :

ـ أسرع ! ما الذي تفعله هناك؟

فأجاب شيلون :

ـ أبكي روما يا سيدي. يا لها من مدينة الهيّة !

وتابعا المسير دون كلام، فكانا يسمعان فرقعة الحريق وخفق أجنحة الطير. كانت أعداد هائلة من الحمام التي تعشش في الابراج والفيلات، مع أنواع شتى من الطيور الساحليّة، وطيور البيئات المحيطة، تلقي بنفسها في النار ظنا منها أنها في ضوء النهار.

كسر فينيكوس جدار الصمت :

ـ أين كنت حين اندلعت النيران؟

ـ كنت أقصد صديقـي يوريسيوس صاحب الحانوت الصغير قرب السيرك الكبير، وكنت في طريقي أفكر بتعاليم المسيح أخذوا يصيحون أن نارا تندلع. فتجمهر الناس قرب السيرك يدفعهم الفضول من جهة، والحميـة في انقاذه من جهـة أخرى. ولكن حين طالـت النار السيرك وبدأت تشب في أماكن أخرى، بتنا نفكر بإنقاذ أنفسنا.

ـ هل رأيت أشخاصا يلقون بالنار على المنازل؟

ـ لقـد رأيـت الكثير يا حفيد إنياس. رأيت أناسـا يشقون طريقهم بالسيف بين الجمـوع، رأيت صدامات، وأمعـاء بشريّة في الشوارع. لـو رأيتها يا سيدي بنفسك لظننت أن البرابرة قد احتلوا روما، وبدؤوا سفـك الدماء فيها. كان الناس حولي يصيحون : هذه نهايّة العالم. كان هنالك من فقد رشده، فأحجم عن الفرار منتظرا أن يبتلعه بحر اللهب. آخرون جنوا، وآخرون يصرخون من شدة اضطرابهم. لكني رأيت من يصرخون من شدة سعادتهم، فكم من الاشرار الذين لا يقدرون فضائل سلطتكم، وسلامـة القوانين التي تجيز لكم أن تستولوا من الجميع على كل شيء. لا يقبل الناس الاستسلام لمشيئة الالهة.

اشتد تأثير أفكاره وخواطره، فلم ينتبه إلى ما يكمن في كلام شيلون مـن استهـزاء لاذع. كان مرتعد الاوصال من فكـرة أن ليفيا قد تكون في قلـب هذه الفوضى العارمة، وسط الزحام الرهيب الذي يتخبط فيه البشر، فراح يكرر اسئلة كان قد وقف على أجوبتها :

ـ ورأيتهم بأم عينك في الاوستربانوم؟

ـ بـأم عيني يا بن فينوس. رأيت العذراء، والليغوي الطيب، ولنيوس الناسك، والحواريّ بطرس.

ـ أمام الحريق؟

ـ أمام الحريق، وحق الالهة !

لكــن فينيكوس لم يكن على يقين مــن أن شيلون يقــول الصدق، فأوقف بغله، ورمقه بنظرة تهديديّة، وسأله :

ـ وما الذي كنت تفعله هناك

ارتبــك شيلون. صحيح أنه كان مثــل كثيرين غيره، يعتقد أن هلاك روما يعني نهايّة امبراطوريّة روما، لكنه الان كان وحيدا برفقة فينيكوس فأخذ تهديداته على محمل الجد، وتذكر أنهما يسعيان وراء المسيحيين، وخاصة ليفيا ولنيوس. فقال :

ـ سيــدي ! لمــاذا لا تصدق أننــي أحبهم؟ هذا مــا حصل. كنت في الأستريانوم لأني نصف مسيحي عل مني بيرهون أن أقدر الفضيلة، وأن احترم الاخلاق أكثر من الفلسفة، لذا فأنا الوب بحثا عن الفاضلين من البشــر! و إلى جانب ذلك، يــا سيدي، أنا إنسان فقير، وا جوبيتر ! ففي الوقــت الذي كنت فيه تمرح في الأنتيوم، كنت أنا أعاني من الجوع وأنا منكب فوق كتبي.

وهكــذا فقد لزمت مــكاني في الأستريانوم إلى جانــب السور لأن المسيحين، ولو أنهم فقراء، كانوا يجودون بالصدقات أكثر من سكان روما قاطبة.

كان عذرا مقبولا لدى فينيكوس، فسأله بلهجة وادعة :

ـ الا تعرف أين أقام لنيوس خلال ذلك الوقت؟

فأجابه اليوناني :

ـ أمـا أنزلت بي، مرة، أقسى العقاب علـى فضولي وحشر أنفي في كل أمر؟

سكت فينيكوس وتابعا المسير

لكن شيلون سرعان ما نطق قائلاً :

ـ لـولاي يـا سيدي ما وجدت الفتـاة. فإذا مـا وجدناها الان فهل ستنسى هذا الحكيم الفقير؟

ـ ستنال منزلا وحقل كرمة قرب أميريولا

ـ شكرا، وا هرقل ! حقل كرمة؟... شكرا ! أجل حقل كرمة.

باتا الان يسيران قرب روابـي فاتيكانوس التي أضفت على النيران لونهـا الاحمر، وما لبثا أن انعطفا يمينا كي يبلغا النهر، ويعبراه إلى بورتا فلامينيا. توقف شيلون فجأة وقال :

ـ سيدي ! لقد راودتني فكرة هائلة.

ـ قل !

ـ بين خرائـب يانيكولوسـ و فاتيكانوس، خلف حديقـة أغريبنا، هنـاك مناجم تحـت الأرض، كانـوا يجمعون منها الحجـارة والرمال اللازمـة لبناء سيرك نـيرون ، اسمعني ياسيـدي ! اليهود الذي يقطنون الترنستيبريس بكثافة، راحـوا في الاونة الاخيرة يلاحقون المسيحيين. أتذكـر ما حصل في عهـد كلاوديوس الالهي من تمـرد وأعمال شغب اضطـرت القيصـر لطردهم من رومـا. والان، وقد عـادوا، يشعرون بالامان تحت رعايّة الاوغستا، وهذا يجعلهم يضايقون المسيحيين أكثر ممّامضى. أنا أعرف لأني رأيت. صحيح أنهم لا يصدرون المراسيم ضد

المسيحيين. لكن اليهود يتهمونهم أمام المحاكم بأنهم يقتلون الأطفال، ويعبـدون الحمار، ويدعون إلى تعاليم وبدع جديدة فيقومون من تلقاء أنفسهم بضربهم واقتحام أماكن عبادتهم، الأمر الذي يضطر المسيحيين للاختباء من أمامهم، والتواري عنهم.

ـ ما الذي تبغي أن تصل اليه؟

ـ في الترانستيبريس يا سيدي معابد يهوديّة علنيّة، لكن على المسيحيين، تجنبا للملاحقة، أن يمارسوا عبادتهم سرا، فيجتمعون إما في أماكن مهجورة أو في ميادين خارج المدينة، ومن يقطنون الترانستيبريس اختاروا لأنفسهم ملحقات في الابنيّة المشادة على طول نهر التيبر. والان والمدينة تحترق، لا بد أن أتباع المسيح يقيمون الصلوات، وسنعثر عليهم بأعداد لا تحصى في السراديب. نصيحتي في طريقنا أن نعرج ونلقي نظرة هناك.

فصاح فينيكوس لفوره :

ـ خاصة وقد قلت أن لنيوس قصد الأستريانوم.

ـ أما وقد وعدتني بمنزل وحقل كرمة، فإني راغب في البحث عن العذراء في كل مكان أجد فيه رجاء بالعثور عليها بعد اندلاع الحريق قد يكونون عادوا إلى الترانستيبريس. تجنبوا المرور في المدينة كما فعلنا نحن الان. لدى لنيوس منزل هناك، ولعله أراد أن يبقى قريبا منه ليراه النار لم تنتشر في تلك الانحاء إن كانوا قد عادوا فأنا أقسم بـ برسوفوني أنني سأجدهم يتعبدون في السراديب أو آتي بأخبار عنهم في أسوأ الاحوال.

ـ أنت محق. هيا بنا ! وافقه الحاكم الشاب

ودونما تفكير انعطف شيلون ناحيّة الرابيّة اليسرى، التي اخفت النيران لمدة قصيرة، دون أن تمنع انتشار ضوئها فوق الروابي القريبة، فتمكنا من المسير في ظلها. وما إن خل فا السيرك حتى انعطفا يسارا مرة أخرى، ليفاجئهما مسلك ضيق مظلم. لكن فينيكوس سرعان ما لمح في الظلمة العديد من القناديل المضيئة.

قال شيلون :

ـ أنظر ها هم ! إنهم بأعداد كبيرة أكثر من أي وقت آخر، لأن بيوت العبادة قد احترقت، أو صارت ملآى بالدخان.

فعلق فينيكوس قائلاً :

ـ أجل. أسمع أصوات غناء.

وفعلا ترددت أصوات غناء وتراتيل أتت من فرجة مظلمة غائرة في الجبل. وراحت القناديل تنطفئ واحدا تلو الاخر. وخرجت من المسلك الضيق حشود من الناس سرعان ما أحاطت بفينيكوس وتابعه شيلون.

نزل شيلون عن البغل ونادى أحد الشبان هناك قائلاً :

ـ أنا كاهن المسيح، وقس، احرص على هذين البغلين، وستحظى ببركتي وبالغفران عن خطاياك ودون أن ينتظر ردا، أسلم العنانين ليد الصبي، وتقدم إلى جانب فينيكوس لينخرطا في الجموع السائرة.

وخلال وقت قصير كانا تحت الأرض، وسارا في نفق مظلم على أضواء الفوانيس الباهتة، حتى صار الجميع في مغارة فسيحة، تشكلت

نتيجـة استخـدام المكان مقلعـا للحجارة، دلت طـراوة الجدران على حداثة حفره في الجبل.

كان الداخل أكثر إضاءة من النفق، نتيجة لوجود المشاعل هنا، الأمر الذي أتـاح لفينيكوس أن يتبين كامل الحشد على ضوئها. كان الجميع راكعـين، رافعـين الايادي، لكنه لم يـر أثرا لأي من ليفيـا أو بطرس أو لنيوس. كانت وجوه الجميـع معبرة عن حالة احتفاليّة، وشع في عيون البعض ما ينم عن ترقب، وانشداد مشوبين بالامل. كان الضوء ينعكس نحو الاعلى من بياض العيون، والعرق يتقطر من الجباه الشاحبة، وكان البعض يطلق التراتيل، وآخرون يرددون بلا انقطاع اسم المسيح. وبدا عليهـم جميعا أنهم في انتظـار شيء استثنائي كبير، قـد يحدث في أيّة لحظة.

انقطعـت التراتيل. وفي حفـرة جداريّة علت أرضيّـة المغارة، لاح لفينيكوس مـا هو مـن الصرامـة والتعصـب والشحـوب أشبه بوجه كريسبوس. ارتفعت اليه الانظـار تنتظر كلمـات الطمأنينة والرجاء. رسم إشارة الصليب، وشرع يتحدث :

ـ اندموا علـى ما ارتكبتم من خطايا، فقد أرسـل السيد نارا هالكة علـى هذه المدينة الشريـرة الفاسقة، بابل الجديدة. جـاء القضاء ودقت ساعـة الغضب... أما قال السيد إنه سيعود، وسترونه على الفور. لكنه الان لا يأتـي كحمـل الله الوديع الذي يقدم دمه لأجـل خطاياكم، بل كقاض صارم أصـدر حكمه العـادل ليدفع بالخاطئـين، والكفار إلى الظلمـة الخارجيّة... الويل للعالم، والويـل للخاطئين، فلن تحل عليهم الرحمـة بعد الان... أراك يـا سيدي المسيح ! النجـوم تتساقط غزيرة على الأرض، والشمس تكسف، والأرض تنشق، والاموات ينبعثون. وتأتي أنت طالعا في قلب البروق، والرعود تتوسط البواقين والملائكة.

أراك وأسمعك، يا مسيحي !

صمت ثم رفـع وجهه كأنما أراد أن يجمده على شيء رهيب بعيد. هنا سمع دوي خفيف جاء من تحت الأرض، تلاه دوي ثان... وعاشر.

كانـت الابنيّة المحترقة قد بـدأت تنهار دفعة واحـدة وتحدث هذه الجلبـة. لكـن غالبيّـة المسيحيين نظـروا إلى هـذه الاصـوات كإشارة واضحـة إلى قـدوم الساعـة الرهيبة، تبعـا للاعتقاد السائـد بأن عودة المسيح وشيكة، ومعها نهايّة العا لم.

وهـو اعتقاد عززه احتراق المدينة. كانـت مخافة الله هي المهيمنة في قلـوب المجتمعين الذين ردد بعض منهم مرارا : "اقترب يوم الحساب" وغطى آخرون وجوههم بأكفهم، موقنين بأن أركان الأرض قد بدأت تتخلخـل، ويخرج من أعماقها مسوخ جهنم لالقاء الملامة والروع في نفوس المخطئين.

فيما رفع البعض أصواتهم قليلا سائلين المسيح : " اشفع لي يا مسيح، ارحمني يا مخلصي ".

وجهـر البعضـ الاخر بذنوبهـم، واحتمى آخـرون ببعضهم بلف الاذرع لمواجهـة اللحظة المروعة، لكن كان بينهم من علت وجوههم السمحـة ابتسامة علويّة فوق أرضيّة، دون أن يتبدى على سيمائهم أي أثـر للخوف. وهنـا وهناك كانت تتردد أصـوات بلغات مجهولة. وفي ركـن مظلم من المغارة أحدهم يقول " استيقظ يا نائم ! ". لكن صوت كريسبوس غطى على أصوات الجميع وجلبتهم " حذار ! حذار ! ".

وبين الحـين والاخر كان الصمـت يلف المـكان، وكأن الجميع قد كتـم أنفاسـه منتظرا مـا سيحدث. وفي هـذه اللحظات مـن السكينة

كان يسمـع هدير الابنيّة المنهـارة، ليتبع ذلك الشهقـات، والصلوات والادعيّـة " الرحمـة يـا مخلصـي ! " ويجلجل صـوت كريسبوس: " دعـوا المتع الأرضيّـة، فبعد قليل ستنهار الأرض تحـت أقدامكم. دعوا الحب الأرضـي لأن السيد سوف يدمر أولئك الذين يحبون زوجاتهم وأولادهـم أكثر ممّايحبونه. الويل لمن يحبون المخلوقات أكثر من الخالق ! الويـل لأصحـاب النفوذ ! الويل للمترفين ! الويـل للفاسقين ! الويل للرجال والنساء والأطفال!".

وبغتـة طلع هدير أشد هـز المغارة، فانبطح الجميـع أرضا، وصلبوا أذرعتهـم عسـى أن تحميهم شارة الصليب مـن الارواح الشريرة. ساد سكـون، لا يتخلله الا صوت اللهاث المتسـارع، والدعاء : " يا مسيح !يـا مسيح ! يا مسيح! "، وبـكاء الأطفال. حتى جاء صوت هادئ مر فوق الجموع المنبطحة على الوجوه:

- السلام لكم !

كان صوت الحواريّ بطرس الذي كان قد دخل الغار.

فاطمأنت القلوب وانجلى الخوف لسماعه، كما ينجلي ذعر القطيع لمجـرد اقتراب الراعي. نهض الناس واقفـين، والتصق بعض ممن كانوا حوله برجليه، سائلين المنجاة تحت رعايته، فقام ببسط يديه فوقهم وقال :

- مـا الذي أوقـع الذعر في قلوبكم؟ من من بينكـم يعرف ما الذي سـوف يحصل لـه قبل حينـه المكتوب؟ السيـد أحرق بابـل، أما أنتم الذيـن قد غسلت خطاياكم بمياه الصليب، وجاء الحمل ليتكفل بتحمل ذنوبكـم، فمشمولون برحمتـه، وستموتون واسمه علـى شفاهكم.

السلام لكم.

بعد كلمات كريسبوس المتوعدة، جاءت أقوال بطرس بردا وسلاما يلسمان الافئـدة. وغمرت نفوسهم محبة الله لا غضبه لقد وجد الناس ذلـك المسيح الذي كانوا قـد عرفوه من خلال أقـوال الحواريّ. ليس الحاكـم الذي ينزل عليهـم العقاب، بل الحمل الوديـع الصبور الواسع الرحمـة المستوعـب لشـرور البشر. شملـت الطمأنينـة كل الحضور، وامتلأت القلوب بمشاعر الخلاص. وعلت الصيحات " نحن نعاجك، فكن راعينا ! ".

أمـا من كان حوله فخاطبـوه قائلين : " لا تتركنـا في يوم الهلاك " وجثوا أمام رجليه. حين رأي فينيكوس كل ذلك، تقدم نحوه، وأمسك بطرف ردائه وقال محني الرأس :

- سيـدي، أنقـذني ! لقد بحثـت عنها في دخـان الحريق، في زحام الجموع، و لم أجدها، وأنا على يقين بأن بمقدورك أن تعيدها الي.

وضع الحواريّ يده فوق رأس الشاب قائلاً :

- ثق بي، وتعال معي !

٤٦

استمر الحريق في المدينــة. اندثر السيرك الكبير، وترمدت بعده كل تلــك الاماكن التي حصدتهــا النيران، من الازقــة، والشوارع. كانت السنــة اللهــب ما زالــت تتصاعد نحو السمــاء. تبدل مجــرى الرياح، فصــارت تهــب عنيفــة من جهة البحــر حاملة معهــا النــار، والرماد، ونتــف الجمر في اليوم الثالث وصل تيفالينوس روما قادما من الأنتيوم. وأصــدر أوامــره بهدم الابنيّــة والبيــوت في الاسكولنيوس حتى تقف عائقا أمام تقدم النيران، كان الهدف من ذلك انقاذ ما تبقى من المدينة، واستبــاق حدوث نتائــج كثيرة محتملــة للحريق. كم مــن الموجودات القيمة قد تدمر واندثر إلى جانب دمار روما كمدينة، وكم من السكان فقدوا ممتلكاتهــم، وصاروا بالالاف المؤلفة يلتحفون السماء ويلوذون بالجدران، ويستجدون اللقمة منذ اليوم الثاني للكارثة، بعد أن ترمدت مستودعــات الاغذيّة الهائلة. وفقد كثير من الباعة عقولهم إذ لم يخطر بالهم أنهم سيضطرون إلى جلب المزيد من الحاجيات.

كل هذا لم يكن بوارد الحدوث الا بعد وصول تيفالنيوس وإصداره مثل تلك الاوامر. لكن السكان بدؤوا يعلنون سلوكا تهديديا.

قــام حشد من النسوة بمحاصرة المنزل الــذي يتخذه تيفالنيوس مقر إقامتــه المؤقت، وأطلقن صيحات دامت منذ الصباح حتى المساء تقول : " خبــزاً ومسكنــاً ". وفشلت كل مساعي الحرس الإمبراطوري في تفريقهن لاستتباب النظام ولو على نحو ظاهري على الأقل.

لكن مجموعات النسوة التي شهـر بعض منها السلاح استمرّت في إطلاق صيحاتها مشـيرة نحو المدينة المحترقة : " اقتلونا أيضاً أما كفانا حريق المدينة ! ".

ورحـن يشتمـن القيصـر، والاوغستيـان، وجنود الحرس. وكان الغضـب يشتد ساعـة بعد ساعة، حتـى اضطر تيفالنيوس إلى إصدار أوامـره بإحضـار أكبر كميّة مـن الخبز من كل الامكنـة المجاورة. وما أن وصلت أولى الشحنـات إلى امبريوم حتى اقتحمت حشود الشعب المدخل الرئيسي عنوة، وخلال لحظات كانت المعونات من خبز طحين وحبوب مستولى عليها، أو مذراة في الساحة، وأغلبها في الوحل. و لم تتوقـف هـذه الفوضى حتـى اضطر الجنـود إلى اقتحـام الابنيّة وطرد الحشود.

لم تشهد روما واقعة كهـذه منذ اجتياحها من قبل الغال تحت قيادة برينوس الذي أحرق المدينة دون أن يلحق على الاقل أذى بالكابيتوليوم الذي تحاصره النيران الان. إضافة إلى أن ساكنيها كانوا يلتزمون الوحدة والنظام، والتشبث بالمعابـد والمذابح، لا التشتت والفوضى والهروب حتى أسوار المدينة المحترقة وإضمار العداء لها من قبل الأرقّاء والغرباء.

تشعبـت الانباء حتى غـدا تأثيرها في الحشـود البشريّـة أشبه بتأثير الريـاح في زبـد الامواج البحريّـة. امتزجت الاخبـار الطيبة بالاخبار الرديئـة. تحـدث الناس عن شحنـات القمح والكسـاء القادمة للتو في طريقها للتوزيع مجانا حسب أومر القيصر.

وتحدثوا أيضّاً عن نهب آسيا وأفريقيا واستجرار ما تملك أريافها من ثروات ومواد، بحيث يتمكن كل مواطن في روما من بناء منزله الخاص. و إلى جانـب ذلك أشيعـت أنباء تفيد بأن هناك مـن سمّم مياه الشرب

في القنـوات، لأن نيرون أراد أن يقضي علـى المدينة وسكانها، وينتقل بعرشـه إلى بلاد اليونان أو مصـر ويحكم العا لم من هناك. كانت الانباء تنتشـر بسرعة البرق، وتـزرع الرعب والنقمة في نفوس العامة، حتى سـادت في نهايّة المطـاف حمى التمرد في نفوس الالوف المحتشدة. وصـار اعتقاد المسيحيين القائل بأن الحريـق نذير باقتراب نهايّة العا لم، اعتقادا تبناه كل من يؤمن بالالهة على اختلافها. فتجمد الناس من شدة الذهول، أو هاجوا مسعورين في فورة من الغضب.

وبين الغيـوم المحمرة من انعكاس ضوء اللهـب، تبدت لهم الالهة وهي تشهد هلاك الأرض. وكان من البشر من يفتحون الايادي نحوها يسالونها العون، وكان بينهم من يتوجه عليها بشتائمه.

في هـذه الاثناء كان الجنود بمساعدة شريحـة من السكان، يقومون بمتابعـة مهامهـم في هـدم المنـازل في الاسكيلنيوس و ساليوس و الترنسبيريس. كانـت المدينة قد فقـدت كل نفائسها، وتحفهـا الفنيّة ومعابدهـا الفخمـة، وكل مـا يذكر بأمجـاد روما، وكل مـا غنمته في انتصاراتها عبر قرون. حتى لم يتبق من روما الا بعض أحيائها، في حين صـار معظم سكانها بلا مأوى. وانتشـر نبأ يقول أن الجنود لا يهدمون الابنيّة لايقاف انتشار النار، بل لكي يدمروا المدينة عن بكرة أبيها. كان تيفالنيوس في كل رسائله يلح على القيصر أن يأتي إلى روما لأن ظهوره يغرس الطمأنينة في نفوس الناس. الا أن القيصر لم يتأهب للعودة الا بعد أن شملت النيران دوموس ترانستيوز. وأسرع كي لا يفوت عليه فرصة مشاهدة النيران تبلغ درجتها القصوى.

٤٧

في هــذه الاثناء وصلــت النيران إلى فيــا نومنتانا، ثــم انعطفت من هناك، تبعا لتغير وجهة الرياح نحو التيبر و فيالاتا، فاقتربت مرة أخرى من البالاتينوســ. كان تيفالنيوس قد استجمــع كل قوة متاحة للحرس الامبراطوري هناك، وأرسل فارســا بعد آخر إلى أمام القيصر ليعلمه أن لا داعــي لقلقه، فلن تفوت عيناه أيّة لحظــة من روعة المشهد وعظمته، لأن النار ما زالت على اشتدادها وانتشارها في كل مكان. لكن القيصر كان يرغب في الوصول ليلا ليكحل عينيه بكمال مشهد احتراق المدينة الهالكــة. ولهذه الغايّــة فقد استقر في جوار أكــوا البانا، واستدعى إلى خيمته الممثل الدرامي اليتورروس الذي تدرب بمساعدته على وضعيات تمثيليّة معينة، وكيفيّة التعبير بالوجه والعينين، وتعلم منه بعض الحركات المناسبــة، وناقشه في أثناء ذلك إن كان عليــه أن يشير بكلتا يديه أو بيد واحــدة فقط، عند ترديده النصــ التالي : " الا أيتها المدينة القديسة التي كنا نظنك أصلب من جبل إيدا ".

واعتبره التساؤل الاهــم في الموضوع برمته. وحين شد رحاله عند المغيب، طلب نصيحة بترونيوس إن كان من المناسب أن يضمن قصيدته العصمــاء الخاصة بهذه الواقعة بعض الشتائــم الموجهة نحو الالهة. ثم اليس هذه الشتائم، منظورا اليها من زاويّة فنيّة بحته، واردة حكما على لسان المرء الذي يقف شاهدا على دمار بلده.

وحــوالي منتصــف الليــل، وبحاشيّة ضخمــة من رجــال البلاط،

والسيناتورات، والفرسان، والمعتوقين، والعبيد، وجيش من النساء والأطفال، وصل أسوار المدينة. ستة عشر الف من الحرس اصطفوا بنظام عسكري احترازي مشدد، حرصا على راحته وتأمين دخوله الحذر، وذلك بإبعاد جمع الشعب الهائج على مسافة مناسبة من الموكب الامبراطوري. قام الجموع بإطلاق الشتائم، والتصفير، والصياح لمجرد أن شاهدت الموكب، الا أنه لم يجروْ على مهاجمته. فيما أقدم الدهماء على التصفيق في أماكن عديدة، وكانوا يأملون بكميات أكبر من القمح والزيت والكسوة، والنقود.

لكن الضجيج الناجم عن امتزاج التصفيق، والصياح، والتصفير، قد طغت عليه أصوات الابواق التي صدحت بأمر من تيفالنيوس. تقدم نيرون من بوابة أوستيا حيث توقف لحظة، وصاح قائلاً : " أنا الحاكم الشريد لشعبي الشريد، رأسي محنيّة من شدة الحزن ! " ثم تابع المسير برفقة الاوغستيان والفرقة الموسيقيّة، وصعد سلما أعد لقدومه، يؤدي إلى البناء المقنطر الخاص بأنابيب صرف المياه في أبيا.

بأنفاس حبيسة رمقه الجميع منتظرين أن ينطق بما يهدئ من روعهم، ويشيع في نفوسهم الطمأنينة. لكنه لم ينبس، وظل واقفا هناك بإزاره الارجواني فوق كتفيه، وإكليله الارجواني على رأسه، يرنو إلى السنة اللهب المجنونة. ثم حين ناوله تربنوس القيثار الذهبي، رفع رأسه نحو السماء القرمزيّة كأنما ينتظر الهاما.

كانت جموع البشر تشير بالبنان إلى الهيئة السابحة بأضواء النيران الحمراء. في البعيد كانت أفعوانات اللهب تفح، موديّة بأقدس المعالم القديمة : معبد هيركوليس الذي بناه إكاندر، ومعبد جوبيتر، ومعبد لونا اللذان بناهما سرفيوس توليوس، وبيت نوما، ومعبد فيستا مع كل

الالهة للشعب الروماني، ومن خـلال اللهب كان يتلامح الكابيتوليوم بين الفينة والاخرى.

كان ماضـي روما وروحها في قلب اللهب، أما القيصر فكان يقف بقيثـاره، وقفة الممثـل الدرامي، وقد نأى بأفكاره عـن المدينة المدمرة، غـير مكترث الا بأبلغ الوقفات تأثـيرا، وأكثر الكلمات تعبيرا عن هول الواقعة، وكيف له أن يوقظ في نفسه أعظم الهام من شأنه أن يفوز بأشد مشاعر الاعجاب، وكسب عواصف التصفيق.

لقد كـره هذه المدينـة، وكره قاطنيهـا، و لم يحب سـوى أشعاره، وألحانه، ولقد هلّل قلبه فرحًا لأنه قد تمكّن أخيرًا من أن يشهد بأم العين مأساة على مستوى أغانيه الشعريّة وألحانه الموسيقيّة.

لقـد جعله المشهد الهائل يشعر بغبطة الشاعر الملهم، المزهو بمعايشة التجربة والخوض فيهـا، وكان ملتذا بأن احتراق طروادة واقعة بسيطة إذا ما قورنت بدمار هذه المدينة العملاقة. ما الذي يأمله أكثر من ذلك؟ إنهـا رومـا، روما، سيدة العالم تحـترق. وها هو وبيـده القيثار الذهبي يقف هنا بكل هذا الجـلال والشاعريّة، والذهول، والتجلي الرؤيوي، أما الشعب ففي مكان ما في الاسفل يضج بالتذمر والاستياء.

دعـه يعبر عن استيائـه. سوف تمضي القرون، وتـت إلى الالفيات، وستظـل الشعوب تتذكر الشاعر الـذي تغنى ذات ليلة بدمار طروادة. ما قيمة هوميروس قياسا به؟ ومن يكون حتى أبولو إلى جانب أغانيه.

هنا رفع يده، وضرب على الوتر، ونطق بكلمات برياموس :

يا ملاذ أجدادي، يا حكيمي الغالي !...

كان صوتـه في الساحـة المفتوحـة، في وسـط فرقعـات الحريـق، وصخب الالاف البعيدة، فظا ومرتعشا على غير المالوف، وكان كليلا وفاترا، وصوت فرقته كان كطنين الذباب. أما السيناتورات، والتجار، والاوغستيـان الذين جلسوا فوق قناطـر أنابيب المياه فكانوا يتقوسون إلى أمام ويصغـون اليه، وقد استخفهم طرب أبكـم. لقد أطال الغناء، وطغت على غنائه مسحة حزن تفاقمت مع مرور الوقت. وحين توقف ليسترد أنفاسه، لم تتوقف الفرقة، وراحت تكرر المقاطع الاخيرة، ريثما يتابع الغناء.

وبحركـة كان قد تعلمها مـن اليتوروس، أزال عـن كاهله المسحة التراجيديّـة، وأمسك بقيثـاره واستأنف وصلته الغنائيّـة. وما إن أنهى العرض الغنائي المدرج حسب الخطة، حتى ارتجل أغاني جديدة معبرة عـن كارثة الحريق أو مستلهمة منها. كان لكلمات أغانيه، على عكس دمار المدينـة مسقط رأسه، وقعها العاطفي الكبـير في نفسه، فانعكس ذلك حماسـا واندفاعا جعلاه ينزل قيثاره فجـأة ويسنده على رجليه، ويقف متسمرا كأحد تماثيل نيوبيدا في وسط فناء بالاتينوس.

بعـد صمت قصير انطلقـت عاصفة من التصفيـق، كان الرد عليها صيحـات الحشود البعيـدة. بات الأمـر جليا للجميع، فمـا من شك في أن القيصـر هو الذي أحـرق المدينة ليتسنى له إطـلاق أناشيده أمام مشهد الحريـق المفتعل. فما كان منه، بسماعه صيحات مئات الالوف مـن البشر، الا أن التفـت نحو الاوغستيان بابتسامـة تحمل بالغ الحزن والانكسار :

ـ انظروا كم يقدرون الشعر، وكم يبجلونني !

فصاح فاتينوس :

ـ أوغاد ! سيدي، وج ه اوامرك للحرس الامبراطوري كي يلقنوهم درسا.

التفت نيرون نحو تيفالنيوس :

ـ هل لي أن أثق بإخلاص الجند؟

فأجاب :

ـ أجل أيها القيصر الالهي.

لكن ما كان من بترونيوس الا أن هز كتفه، وقال :

الثقــة بإخلاصهم أجل، لكن ليس بأعدادهم، ابق الان حيث أنت فهنا أكثر أمانا لك. لكن لا بد من إسكات الشعب.

وكان لــ سينــكا و ليسنيوســ نفس الـرأي. وفي هــذه الاثناء كان الهيــاج يشتد في الوادي. تسلح الشعب بالحجــارة، وبقضبان الخيام، وبالعوارضــ الخشبيّة التــي أخرجت من العربــات والنقالات، وبكل أنــواع القطع المعدنيّــة. وبعد فترة قصيرة جاء بعض قــادة الكتائب بنبأ يفيــد بــأن الشعب بــدأ يهاجم الحرســ الامبراطوري الــذي يبذل كل مساعيــه ليحافظ على خطوطه القتاليّــة، دون أن يتلقى أوامر للهجوم، ولا يدري ماذا يفعل؟

تنهد نيرون قائلاً :

ـ أيتهــا الالهــة ! أيّة ليلــة هذه ! الحريق من جانــب، والشعب بحرا هائجا من جانب.

وراح يبحث عن أبلغ العبارات لتسعفه في التعبير عن هول اللحظة، لكنــه كان ينظر إلى الوجــوه القلقة، الشاحبة التي تقــف قربه، فارتعد بدوره وصاح بدافع الخشيّة :

ـ هاتوا إزارا داكنا بقبعة ! ترى هل هناك من صدام مرتقب؟

فأجاب تيفالنيوس بنبرة مترددة :

ـ سيــدي لقد قمت بكل مــا ينبغي القيام به، لكــن الخطر داهم... خاطب الشعب، وعده بشيء ما

ـ القيصــر يتحدث إلى الدهمــاء؟ ليفعلها أحد ما باسمي. من يتكفل بذلك؟

فبادر بترونيوس بكل هدوء:

ـ أنا !

ـ هيــا يا صديقي ! أنت أوفــى أصدقائي كلما دعت الحاجة. اذهب وأفض عليهم بالوعود.

فاستدار بترونيوس إلى الحاشيّة بشيء من الفوقيّة، واللامبالاة :

ـ ليأت معي السيناتورات، إضافة إلى كل من بيسو و نيرفا و سينكا.

ونــزل متمهلا، وتبعــه المعنيون، وقد استبشروا خــيرا برباطة جأش بترونيوس. توقف عند أسفل صف العمدان، واتخذ لنفسه جوادا أبيض واعتــلاه، وتقدم على رأس مرافقيه بــين فصائل الحرس الامبراطوري، متجها نحو حشد العامة الداكن.

كان أعــزل تماماً، الا من صولجــان عاجي رفيع، اعتاد أن يستخدمه عكازا.

لما بلغ الحشد اندفع بحصانة متوجها نحوهم مباشرة. التمعت على ضوء الحريق الايادي المرفوعــة بالاسلحة، والعيون المشتعلة، والوجوه المتعرقــة، والافواه الصارخــة. تقدمت منه موجة بشريّــة وأحاطت به وبمرافقيه.

اشتــدت الصرخات، حتــى استحالت إلى زئــير وحشي. وامتدت فــوق رأس بترونيوس الاوتاد والمــذاري، وحتى السيوف، واستطالت الايــادي تحــاول الامساك برأسه، وبلجــام حصانه، لكنــه استطاع أن يستمــر في اختراقهم لا مبالياً بما يبدونه من هياج، ضاربا بعصاه أحيانا رؤوس كل من تجرأ على ملامسته، وكأنما يشق طريقه وسط زحام كأي زحــام عادي، الأمر الــذي أوقع الدهمــاء المستوحشة في ذهول. وفي نهايّة المطاف تعرفوا اليه. وسمعت بعض الاصوات تنادي :

ـ بترونيوس ! ملك الذوق ! بترونيوس !

فتعالت الاصوات، في كل اتجاه :

ـ بترونيوس !

في وسط الصخب الذي أحدثــه ترداد الاسم، كانت الوجوه تفقد تعابيرهــا التهديديّــة المتوعــدة، وأصبحــت الصرخات أقــل عنفا لأن الشريف البتريسيوسي، ولو أنه ما جد أبدا في طلب الرأفة بالناس، لكنه رغــم كل شيء كان محبــوب الشعب. كانوا ينظرون اليــه سيدا إنسانيا واســع الصدر وازدادت شعبيته على وجــه الخصوص، بعد قضيّة أرقاء بدانوس سكوندوس حين رفع صوته للتخفيف من عقوبة الاعدام التي لحقت بهم.

لقد أحبه جمهور العبيد خصوصا، تلك المحبة الجامحة التي لا يعرف أن يمنحها غير البشر البؤساء المضطهدين لأولئك الذين يمنون عليهم بجميل أو بعزاء ما. وفي هذه اللحظة انضاف إلى شعورهم هذا دافع الفضول، ترى ما الذي سينطق به رسول القيصر.

أما بترونيوس فقد خلع عباءته البيضاء، ورفعها ملوحا بها في الهواء إيذانا بأنه يريد أن يتكلم.

علت الصيحات في كل ناحيّة :

ـ سكوت ! سكوت !

انقطع الضجيج على الفور، فاستقام بترونيوس على حصانه وقال بصوت مرتفع متماسك :

ـ أيها المواطنون ! من يسمعني فليخبر من لا يسمعني بما أقول. وليكن سلوك الجميع لائقًا بسلوك البشر، لا بسلوك الحيوانات في الميادين.

ـ إصغاء ! إصغاء !

ـ اسمعوني إذن ! المدينة سوف تعمر من جديد. والآن سوف تشرع أمامكم أبواب حدائق لوسلوس و ميساناس و أغريبنا و القيصر. ومن الغد سيبدأ توزيع القمح، والنبيذ، والزيت، حتى يتخم الجميع. والقيصر أعد لكم العاباً سيركيّة، لم يسبق أن شاهدتم مثيلًا لها. وستتلوها مآدب وهدايا. وستصبحون بعد الحريق أكثر غنى ممّا كنتم عليه !

جاء الرد لغطًا شديدًا، انتشر من الوسط إلى المحيط، كما تتوسع دوائر الماء بعد القاء حجر في بركة. تلقّف من كانوا في المركز ما

قيل، وتناقلتها الجموع التاليّـة فالتاليّة. ثم تناهت هنا وهناك صيحات الغضب، والرفض، والاستحسان، حتى انصهر صخب الجميع أخيرًا في زئير واحد ضخم :

- بانيم إت سيرسنس !

تلفّح بترونيوس بإزاره من جديد، فبدا بثوبه الأبيض ووقفته المصغيّة الثابتة، كنصب رخامـي. اشتد الصراخ حتى طغى على ضجة الحريق، منبعثـا من كل ناحيّة، لكـن المبعوث كان لديه ما يقولـه بعد، لأنه ظل منتظرًا في مكانه.

أخيرا رفع بيديه طالباً الاصغاء من جديد، وتكلم قائلاً :

- أعدكـم بالحصـول على الخبز والعـاب السيرك، أمـا الان فحيّوا القيصر الذي يمدكم بالغـذاء، والكسوة، وبعدها انصرفوا إلى النوم أيها الدهماء قبل أن يطلع الفجر.

واسـتـدار بجواده، وراح ينقر بصولجانه نقرات خفيفة على رؤوس من سدّوا طريقه، حتى بلغ أخيرا فصائل الحرس.

وبعد وقت قصير كان عند أقنيّة المياه. استقبل هناك بذعر شديد. لم يفهمـوا معنى بانيم إت سيرسنس، وظنوها صيحة انفعال جديدة. و لم يكن يخطر لهـم أن بترونيوس سينجو بنفسه فحين لمحه القيصر يصعد الـدرج متجها نحوه، بادره، وقد جعلته شدة الانفعال شاحب الوجه، بأسئلة متلاحقة :

- قل ما هذا؟ ماذا يحصل؟ هل أوقعوا بك الاذى؟

تنفس بترونيوس عميقا، وأجاب :

- بحـق بولوكس ! لقد جعلوني أتصبب عرقـا، وأنتنوني. الي بقليل من العطر، سيغمى علي ثم التفت نحو القيصر ليكمل كلامه :

ـ وعدتهم بالقمح، والزيت، وبفتح الحدائق، والعاب السيرك. وهم الان يؤلهونك من جديد. ويعي شونك بملء حناجرهم يا الهة ما أبشع رائحة هذه العامة !

فقال تيفالنيوس :

ـ كان عناصري من الحرس الامبراطوري في أتم الجاهزيّة وإن أنت لا تطلب منهم ضبط النفس، فسيلتزم هؤلاء الجعجاعون الصمت إلى الابد. يؤسفني أيها القيصر، أنك لم تسمح باستخدام السلاح.

رنا بترونيوس إلى المتكلم وهز كتفيه، ثم قال :

ـ ما يتأخر، لا يفوت. قد نحتاج إلى ذلك في الغد.

فصرح القيصر قائلاً :

ـ لا، لا. سأفتح لهم الحدائق، وأوزع عليهم القمح. شكرا لك يا بترونيوس !. سأنظم العاب سيرك، وسأغني أمامهم الاغنيّة التي سمعتموها اليوم.

ووضع يده على كتف بترونيوس، وصمت هنيهة، ثم سأله بهدوء :

ـ قل لي بصدق، كيف رأيتني وأنا أغني؟

ـ كنت جديرا بالمشهد، الذي كان لائقا بك. أجاب بترونيوس واستدار نحو الحريق وقال :

ـ لكن دعنا نشاهد جيدا، ونودع روما القديمة !

٤٨

شحنت كلمـات الحواريّ نفوس المسيحيين، وردت الروح. كانوا دائما على يقين بأنها نهايّة العا لم، لكنهم الان بدؤوا يؤمنون بأن القيامة ليست قريبة، وأنهم سوف يشهدون نهايّة حكم نيرون، وما سيلحق به الله من عقاب محتوم.

ومـا أن أنهوا صلاتهم حتى هـم وا بالخروج من السرداب متجهين إلى ملاجئهـم المؤقتة، وحتى إلى الترانستبريسـ، بعد أن جاءتهم الانباء بأن الريـاح بدأت تسحب النيران باتجاه النهر، وتلتهم كل شيء هناك، لكنها لن تتمكن من الانتشار أكثر من ذلك.

وحتـى الحواريّ ومعـه فينيكوس ومرافقوه، ومـن ورائهم شيلون كذلـك، قد غـادروا المغـارة. لم يشأ الحاكـم الشـاب أن يفوت على الحـواريّ متابعة صلاته، فظـل يسير إلى جانبـه دون أن ينبس بكلمة، لكـن عينيه كانتا تتوسلان الرأفة، وكان مرتعد الاوصال من شدة القلق والاضطراب. كان الكثيرون مـا يزالون يتقدمون من الحواريّ يقبلون يديـه، أو يلامسون أطراف ردائه بشفاههم، أو تمـد الامهات أطفالها نحـوه، وكان العديد منهم يركعون على امتـداد الممر الطويل، رافعين اسرجتهـم نحو الاعلى طمعـا بمباركته، وآخرون يتهلـون، فلم تسنح الفرصـة لأي تسـاؤل أو رد. هكـذا كان المشهـد على طـول الطريق العميق. ولكن ما إن وصلوا الباحة الطلقة، حتى بدت المدينة المحترقة، فرسم الحواريّ الصليب ثلاث مرات، ثم استدار نحو فينيكوس وقال :

ـ لا تخف! عما قريب سنصل إلى كوخ بين صفوف الاشجار، حيث سنجد ليفيا، و لنيوس وخادمه الوفي. المسيح الذي أوصى لك بها، قد صانها من أجلك.

شعر فينيكوس بأنه خائر القوى، فاستند على الجدار الصخري.

لكن نبأ ليفيا السار قد رد اليه الروح، وشحن ساقيه بقوة كانت كافيّة ليجثو عند قدي الحواريّ، ويعانق ساقيه دون أن يتمكن من النطق بحرف.

استشعر الحواريّ رغبة الشاب في التعبير عن الامتنان والاحترام فخاطبه قائلاً :

ـ لا تشكرني أنا. بل السيد المسيح.

فتفوه شيلون في الخلف قائلاً :

ـ أي الوهة عظيمة ! لكنني لا أدري... ماذا عن البغال التي تركناها تنتظر هنا.

فقال بطرس وقد أمسك بالشاب :

ـ انهض، ورافقني

نهض فينيكوس واقفا، فتلامعت الدموع في عينيه على ضوء النار.

وارتعشت شفتاه كأنما كان يصلي. فقال :

ـ هيا بنا.

لكن شيلون كرر قائلاً :

- سيدي، ماذا أفعل بالبغال التي تنتظر هنا؟

لم يدر فينيكوس ما الاجابة، لكنه حين عرف من بطرس أن الكوخ بات قريبا قال :

- عد بها إلى ماكرينوس.

- اسمح لي يا سيدي، أن أذكرك، بالمنزل الموعود. ما أسهل نسيان مثل هذه الامور التافهة في هذا الحريق الهائل.

- ستحصل عليه.

- لا أشك بك. لكن الان، والحواريّ شاهد على وعدك، لن أذكر على لساني حقل الكرمة معه إلى اللقاء. سأجدك يا سيدي. سأجدك.

فأجاب كل من الحواريّ و فينيكوس :

- إلى اللقاء.

ثم انعطفا يمينا، واتخذا طريقهما باتجاه التلال. قال فينيكوس في الطريق :

- سيدي. عمدني بالماء المسيحي. دعني أصبح تلميذا حقيقيا للمسيح، فأنا أحبه من أعماقي، عمدني حالا، لأن روحي مستعدة لذلك سأنفذ كل ما تطلبه مني. فقط قل لي ماذا علي أن أفعل فأجاب الحواريّ :

- أحبب رفاقك وكأنهم إخوتك، لأنه ليس بوسعك أن تخدم المسيح الا بالمحبة.

ـ أجـل ! بت أفهم ذلك، وأحسه. حـين كنت طفلا، آمنت بالالهة الرومـان دون أن أحبهم. لكني أحب هـذا الاله الوحيد، بحيث أفديه بروحي، وسعادتي.

ورفع عينيه صوب السماء وكرر قائلاً :

ـ لأنـه واحد أحد. لأنه واحد أحـد فهو خير، ومستجيب ! وحتى لو هلكت هذه المدينة، ومعها العالم بأسره، فلن أخدم سواه، ولن أومن الا به.

أنهى الحواريّ الكلام قائلاً :

ـ وهو يباركك، ويبارك بيتك.

وانعطفا نحو ركن آخـر في نهايته نور خفيف. أشار اليه فينيكوس وقال :

ـ هـو ذا كوخ عامل المنجم الذي لجأنا اليه حين تعذر علينا الرجوع إلى الترانسبيريس.

بلغـا المـكان الاشبه بغار منحوت في الجبل، وقـد أغلق من الخارج بحاجز من القصـب. كان الباب مغلقا، لكن فرجة في الحاجز أتاحت رؤيّة الغرفة على ضوء الحريق.

نهضت قامة عملاقة داكنة لاستقبال القادمين.

ـ من القادم؟

فأجاب بطرس :

ـ خادم المسيح. السلام عليك يا أرسوس.

انحنى أرسوس على قدمي الحواريّ، ثم أمسك بمعصمه، ورفع يده إلى شفتيه. وقال بصوت جهوري وكان قد رأى فينيكوس :

أنت أيضاً يا سيدي؟ تبارك اسم الحمل الذي من على كالينا بمثل هذه السعادة.

وفتح الباب، فدخلا. كان لنيوس المريض مستلقيا على كومة من القش ناحل الوجه، شاحب الجبين. وكانت ليفيا إلى جانب الموقد، توقد النار لإعداد السمك الصغير طعاما للعشاء.

كانت مشغولة بسحب السمك من المشكاك، فلم ترفع عينيها ظنا منها أن أرسوس قد عاد. لكن فينيكوس تقدم منها، وناداها باسمها، فاتحا نحوها كلتا بديه. هبت الفتاة واقفة، وشع وجهها ببريق من الذهول والبهجة، وكما يفعل الطفل حين يستعيد أباه، وأمه، بعد قلق دام أياما، رمت بنفسها بين ذراعيه. فكان من شأن فينيكوس الملهوف أن ضمها بذراعه إلى صدره لحظات طويلة شعر خلالها أنه قد أنقذ بأعجوبة من الخطر الكبير. أرخى ذراعيه، وأمسك براحتيه وجه الفتاة، وأكال القبلات على جبينها، ثم ضمها ثانيّة وهو يرد د اسمها بلهفة، وانحنى حتى ركبتيها يقبل يديها ويغمرها بكل أنواع الحنان.

كانت سعادته لا محدودة، وحبه فائقا يوازي تلك السعادة.

ثم قال :

ـ لكن الان، وقد عثرت عليك، لن أدعك هنا في جحيم الحريق بين الحشود الهائجة. البشر عند الاسوار يقتلون بعضا، يتمردون، والعبيد ينهبون. ولا يعلم سوى الله ما يرتقب من كوارث في روما. لكني سأنقذك وأنقذكم جميعا. آه، يا وحيدتي، لو تأتون معي إلى

الأنتيوم. هناك نستقل سفينة تقلنا إلى سيسيليا. أرضي أرضكم، وبيتي بيتكم. اسمعيني ! ستلتقـين في سيسيليا عائلة أولوس، وسأرجعك إلى بومبونيـا، ثم مـن بين يديها، وتحت رعايتها اتخـذك زوجة لي. هل ما زلـت تخافينني؟ لم أتعمد بعد، لكن سلي بطرس إن كنت لم أطلب منه في الطريق أن يقوم بعمادي. ثقي بي. وثقوا بي جميعكم !

أصغـت ليفيا إلى ما يقوله مبتهجة الاسارير من قبل عانوا جميعا من ملاحقة اليهـود، وهم الان يعانون ممّايتسبب لهـم الحريق، والفوضى مـن قلق مستمر وخوف عارم. لكـن الرحيل إلى سيسيليا الامنة، يضع نهايّـة لكل ذلك، ويفتح أمالهم حقبة جديـدة ملؤها السعادة. لو كان فينيكوس قد طرح عليها اصطحابها لوحدها لرفضت طرحه، لأنها لا ترغـب في ترك بطرس و لنيوس هنا، لكنه قال : " تعالوا معي ! أرضي أرضكم، وبيتي بيتكم جميعا ".

مالت ليفيا على يد الشاب لتقبلها إيذانا بالموافقة، ثم قالت :

ـ موقدك، موقدي.

لكنهـا شعـرت بالخجل لأنها تتفوه بعبـارات لا تقال في الاعراف الرومانيّـة الا من قبـل الخطيبات في حفل الزفـاف. كست الاحمرار وجهها، خشيّة أن يساء فهمها :

لكن تقاسيم فينيكوس شعت بإشراقة لا حدود لها.

فالتفت إلى بطرس وخاطبه بالقول :

ـ لقـد أحرقت روما بأمر من القيصر. كان يشكو في الأنتيوم بأنه لم يشاهـد بعد حريقا هائلا لم يهتز له جفن لفعلته الشريرة. تصوروا مدى

الهــول الذي يمكن أن يحصل بعد. قــد يحشد جيوشه كلها لارتكاب المجــازر بحق السكان، وقــد يصادر أملاكهم وحقوقهــم المدينة. من يــدري فقد تحصل بعد الحريق، حرب أهليّــة، وحمامات دم، ومجاعة. اختبئوا ولنخبئ ليفيا أيضاً.

ستعيشــون هناك بسلام حتى تمر العاصفة، وبعد ذلك يمكن لكم أن تعودوا وتكملوا نشر دعوتكم.

في هذه الاثناء وصل عامــل المنجم، صاحب الكوخ، فأغلق وراءه الباب بسرعة وقال :

الناســ يقتلــون بعضهــم أمــام سيرك نــيرون. العبيــد والمجالدون يهاجمون المواطنين.

فعلق فينيكوس :

ـ أتسمعون؟

فقال الحواريّ :

ـ خرجــت الامور عن طورهــا. الكوارث تتدفــق كطوفان البحر. التفت نحو فينيكوس، وقال مشيرا إلى ليفيا :

ـ خــذ فتاتــك الذي أوصى بهــا الرب لك، وأنقذهــا، واصطحب معــك لنيوس المريضــ و أرسوس. فرد فينيكوس الــذي أحب بطرس بكل جوارحه :

أقسم، أيها المعلم، لن أدعك هنا للهلاك.

- باركك الله على حسن مقصدك. لكن أما سمعت بأن المسيح على ضفة البحيرة، رد د على مسمعي ثلاث مرات : "كن راعيا لنعاجي".

صمت فينيكوس :

فأردف الحواريّ يقول :

إن كنت أنت غير المـكل ف برعايّة أحد، تقول لي بأنك لن تدعني أهلـك هنـا، فكيف تطلب منـي أن أتبرأ من مسؤليتـي في يوم الخطر؟ حيث هاجت البحـيرة، وامتلأت قلوبنا رعبـا، لم يتركنا هو، فكيف، وأنا الخادم، وبأيّة طريقة لا أتبع مثال سيدي؟

هنا رفع لنيوس وجهه وسال :

- وأنـا كذلك، بأيّة طريقة لا أتبع خطـاك، وأنت وريث المسيح في الأرض.

مسح فينيكوس شعره، مستفكرا، ثم أمسك بيد ليفيا، وتكلم بنبره مشوبة بحيويّة الجندي الروماني.

- اسمعنـي يا بطرس، وأنت يا لنيوس، وأنت كذلـك يا ليفيا ! لقد نطقت بما أملته علي نظرتي الانسانيّة، لكن لكم نظرتكم الاخرى التي لا تأخـذ في الاعتبار الامان الشخصي، بل تتبع تعاليم المخلّص. أجل ! أنـا لم أفهم ذلك، لأن الغشاوة مـا زالت تغشي عيني، وما زلت أتكلم حسـب طبيعتي القديمة. لكنـي صرت أحب المسيـح، وأريد أن أكون خادما له. لذلك فأنا أقسم لكم بأني سأتبع وصيّة المحبة، وأحرص على أخوتي في يوم الخطر.

ثم ركع، وقد مده حماس فجائي بالقوة، فرفع وجهه، وعينيه عاليا وصرخ :

هل صرت أفهمك الان يا مسيحي؟ هل صرت جديرا بك؟

ارتعشـــت يداه، وائتلقت الدمــوع في عينيه، وهزت جسده رعشة الايمــان والمحبة. فيمــا أمسك بطرس بالابريق الملــيء بالماء وتقدم نحو فينيكوس ورتل قائلاً :

ـ أعمدك، باسم الاب، والابن والروح القدس.

فاستحوذت على الحضور. النشوة الدينيّة، وشعر الجميع بأن المكان مليء بالنور السمــاوي، والانغام ما فوق الأرضيّة، وأن صخرة المغارة تنفتح فوق رؤوسهم، وحشود الملائكة تنزل عليهم من السماء، ويبدو هنالك في البعيد الصليب، وكف توزع البركة، في حين كان يسمع في الخارج صراخ البشر وفرقعات لهب المدينة المحترقة.

٤٩

ضـرب الشعـب خياما في حدائـق القيصر الفاخـرة التي كانت في السابق تابعة لـــ دوميتيا و أغريبنا، وملأت الخيام كذلك كلا من ميدان مارس، وحديقة بومبوس و سالوستيوس و ميسناس.

واحتلـوا الاورقة، وصالات العـاب الكرة، والمصايـف الفخمة، والحظائـر، فصارت طواويس الحدائـق، والعنادل، والبـط، والظباء الافريقيّة والغـزلان، وحمير الوحش، والايائل كلهـا العابا بين أيادي الدهمـاء. شحنـت الاغذيّة من الاوشتيـا بكميات هائلـة على ظهور السفن والقوارب التي تراصت في نهر التيبر، حتى أمكن عبوره فوقها من ضفـة إلى أخرى سيرا على الاقدام. وزع القمح بثمن بخس وصل حتـى ثلاثـة سسترتيوس، وبالمجان علـى فقراء الشعـب. استجمعت مقاديـر ضخمة من النبيـذ، والزيـت، ومنتجات الكستنـاء. وقيدت الخراف، والثيران، يوميا من الجبال.

انعكس كل ذلك على المدقعين المعدمين الذين لم يجدوا ما يأكلونه، فصـارت معيشتهـم أفضل ممّا كانت عليه قبل الحريـق. لقد أفلحوا من جهـة، في القضاء على خطر المجاعة المحتملـة، ولكن الحدّ من أعمال الشغب والسلـب وفوضى السلوك، بات أكـثر صعوبة. لقد حصنت حياة التشرد والنزوح قطاع الطرق، فأفلتتهم من عقال المساءلة والحاق العقوبات بهم. خاصة وأن كثيرين منهم قد سخروا من أنفسهم أنصارا للقيصـر، و لم يبخلـوا بالتهليـل والتصفيـق في أماكن عديـدة. وبما أن

الجهات الرسميّة كانت غائبة، ولا أثر لها في الحالة المفروضة السائدة، و لم يتوافـر السلاح المناسب بـين الايادي للحد من أعمال العنف، فقد حدثت أمـور تفوق التصور قام بها المزيج البشري القادم من كل أنحاء العا لم ليقطن روما. لم تمض ليلة الا وحصلت فيها مشاجرة، أو جريمة أو خطف نساء، وأطفال. فقتل الناس نتيجة العراك في المحطات بالمئات. وطفـت الجثث كل صباح فوق مياه التيبر دون أن يكترث لدفنها أحد، ففاحـت روائحها لتمـلأ الجو. انتشـرت الأمراض في المعسكرات، وتوقع الكثيرون انتشارا للأوبئة والأمراض الساريّة.

كان الحريق يشتد في المدينة، و لم يضعف الا في اليوم السادس حين بلـغ مساحة شاسعة من الاراضي الخـراب التابعة لأسكويلنوس حيث عمد إلى هدم كثرة كثيرة من المنازل والأبنية. لكن تلال الجمر المتوهجة ظلت تطلق وهجها من الانوار، حتى لم يصدق الشعب أن نهايّة الحريق الحقيقيّة واقعة. وهذا مـا حصل، ففي اليوم السابع تجدد لهب النار في ابنيّة تيفالنيوس لمدة وجيزة، لكنه ما لبث أن خمد لعدم توافر ما يكفي لإطعام النار.

بعـد مغيب الشمس لم تتلون السماء بأنوار الوهج الحمراء، واقتصر الحـال على السنة مـن اللهب المزرقة كانـت تنطلق عاليـا كل ليلة من فـوق المساحات السـوداء الشاسعة التي أتى عليهـا الحريق. لم يبق من أحيـاء رومـا الاربعة عشر الا أربعة مـن بينها الترانستبريسـ. أما البقيّة فقـد التهمتهـا النيران. وفي نهايّـة الأمر، حين ترمـدت تلال الجمار، اقتصـر الأمر في المنطقة الرماديّة الخامـدة الحزينة الممتدة من التيبر حتى الاسكويلنوسـ، على صفوف من المداخـن المنتصبة كشواهد قبور في مدفن.

لم يجد نفعا كل ما جاء به القيصر من كرم، وعون، فلم تتوقف صيحات الشتائم، وأعمال الشغب. وحدهم قطاع الطرق واللصوص، والمشردون من شعروا بالرضا، لأنهم باتوا يأكلون، ويشربون وينهبون على نحو لم يحلموا به من قبل. لكن من فقدوا أحباءهم وكل ما يملكون، كان من المستحيل إرضاؤهم لا بفتح الحدائق، ولا بتوزيع القمح، ولا بوعود الهدايا، وإقامة العاب السيرك. كانت الكارثة أعظم من ذلك بما لا يقاس. فالذين ما زال حب الوطن وعشق مسقط رأسهم يغليان في أفئدتهم، قد هز هم ذلك النبأ بأن اسم روما العريقة سينمحي عن وجه الأرض، لأن القيصر يريد أن يبني مدينة جديدة باسم القيصر نيروبوليس.

كانت موجة الامتعاض تشتد يوما إثر يوم، ومخاوف القيصر تتفاقم، رغم تملق الاوغستيان وأكاذيب تيفالنيوس، فقد تأتي لحظة وتنزلق الأرض من تحت قدميّة.

حتى الاوغستيان لم تستثنهم مخاوف من هذا القبيل، فبات القلق يستحوذ على نفوسهم بعد دلائل يوميّة ملموسة تشير إلى اقتراب هلاكهم. فكر تيفالنيوس باستدعاء بعض الفيالق من آسيا الصغرى. واكفهر وجه فاتينوس الذي كان يضحك حتى حين يصفعونه، وفقد فيتلوس شهيته على الطعام.

آخرون تشاوروا فيما بينهم، بحثا عن طريقة يسلمون بها بروؤسهم، فلم يعد خافيا على أحد أنه في حال أدى طوفان الفوضى إلى جرف القيصر، فلن يسلم أحد من الاوغستيان، باستثناء ربما بترونيوس، لأن ارتكاباتهم معروفة، وكره الشعب لهم يفوق ما يضمرونه للقيصر نفسه.

بـدؤوا يتدارسـون كيف يبعدون عنهـم مسؤوليّة إحـراق المدينة. فتوصلـوا إلى نتيجة باستحالة ذلك ما لم يغسلوا يد القيصر ويبرّئونه من الأمر، وإلا فلن يصدّق أحد أنهم ليسوا متسببي الواقعة المشؤومة.

قام تيفالنيوس بمناقشة الفكَرة مع دوميتوس أفر، وكذلك مع سينكا ولو أنـه لا يطيقه. أما بوبيا فكانت تدرك جيـدا أن هلاك القيصر يعني الحكـم عليها بالاعـدام، فاستشـارت ثقاتها وطلبـت نصيحة الكهنة اليهـود، علـى اعتبار أنهـا، وهو رأي شائـع تتبع دين يهـوه منذ بضع سنوات.

وجاء دور نيرون ليدلي بدلوه فابتدع بعض الحيل الرهيبة في بعضها، والفارغـة في بعضها الاخر، مرتعدا هنا، وعابثـا هناك كالطفل، لكنه وقبل كل شيء، كان يندب وينوح.

وفي يـوم، في منـزل تيبريوس الـذي لم يأت عليـه الحريق، جرت مشـاورات مطولـة، لكنهـا فاشلة لم تخلص إلى نتيجة. فـكان رأي بترونيوس، تجنبـا لوطأة ثقـل الاعباء الملقـاة عليهـم، أن يسافروا إلى اليونان، ومن هناك إلى مصر ثم إلى آسيا الصغرى. كانت الرحلة مقررة منذ زمن، فلا مبرر لإرجائها أكثر، ما دامت الحياة في روما باتت بائسة وخطيرة.

تقبل القيصر الفكرة برحابة صدر، لكن سينكا قال بعد تفكير :

ـ السفر سهل، لكن العودة شاقة جدا.

فأجاب بترونيوس

ـ بحق هيركوليس ! سوف نعود على رأس فيالق من آسيا.

فجهر نيرون قائلاً :

ـ هذا ما سأقوم به.

لكــن تيفالنيوس سعــى إلى إجهاض الفكرة، مــا دام هو بالذات لم يفلح في طــرح أي شيء. ورغم أنه وجدهــا الطريقة الوحيدة للنجاة، لكن الاهم عنده كان إفشــال بترونيوس لكي لا يبدو خصمه صاحب الرأي السديد على الدوام.

بادر إلى القول :

ـ انظــر أيها القيصر. هذه مغامرة ستجلب نهايتنا. فقبل أن نصل إلى أوستيــا ستندلع الحــرب الاهليّة، ومن يدري، فقــد يخرج أحد أقارب الاله أوغستس الاحيــاء، ويعلن نفسه قيصرا، وإذا ما وقفت الفيالق في صفه، ما الذي يسعنا أن نفعله؟

ـ أول ما سنسعى اليه هو التخلص من كافة أقارب أوغستوس. وهم على أيّة حال قلة قليلة من اليسير تدبر أمرهم.

ـ يمكــن القيام بذلك، لكن هــل المسالة تقتصر عليهــم؟ أمس سمع رجالي بين الحشود كلاما يفضل أن يكون القيصر شخصا مثل تراسيا.

عض نيرون شفتيه، لكنه سرعان ما رفع عينيه ليقول :

ـ أوغاد، جاحدون ! لديهم الكثير من القمح، وما يكفي من الجمار ليشووا حظائرهم، فما الذي يبغونه بعد؟

فأجاب تيفالنيوس :

ـ النقمة والثأر.

ســاد صمت، ثم نهض القيصر خلالــه واقفا. وعلى حين غرة أنشد قائلاً :

ـ الشعب إلى النقمة يتعطش، والثأر ضحيّة يترصد.

ثم نسي هذا الأمر وصاح بوجه مشرق :

ـ هاتوا لوحا، وريشة، دعوني أسجل المقطع الشعري.

لوكانوس لم يكتــب ما يشبه هذا. لاحظتم كيف جاءني الالهام في لمح البصر؟

سمعت بعض الاصوات تقول :

ـ آه. شيء لا يجارى.

فقال نيرون بعد أن سجل الشعر :

ـ أجل ! النقمة ثمنها ضحايا.

ثم جالت عيناه تدوران على جميع الحضور :

ـ هــل أنشر نبأ يفيد بأن فاتينوس هو الذي أشعل المدينة، ثم أضح ي به امتصاصا لنقمة الشعب؟

فصاح فاتينوس :

ـ أوو، أيها القيصر الالهي، ومن أكون أنا؟

ـ حقا ! علينا بشخص أكثر أهميّة منك... فيتليوس؟

شحب فيتليوس، لكنه استغرق في الضحك، وكان رده :

شحمي قد يضرم النار مجدّداً.

لكن نـيرون كان يفكر بأحد آخر. ضحيّـة ترضي الشعب وتمتص نقمته حقا، ولقد عثر على ضالته.

فقال بعد وقت قصير :

ـ تيفالنيوس. أنت من أحرق روما.

اقشعـر الحضور، وارتعدت أوصالهم بعـد أن فهموا أن القيصر قد ابتعد عن الهزار، وأن أزمنة حبلى بالاحداث أشرفت على الابتداء.

انقبض وجه تيفالنيوس كشدق كلب يتهيأ للعض، فصد ه قائلاً :

ـ أنا، لكن بأمر منك.

وحدقا في بعض كعفريتين وخيم سكون جعل طنين الذباب يسمع في الأتريوم.

بادر نيرون يخاطب تيفالنيوس :

ـ تيفالنيوس ! هل تحبني؟

ـ أنت تعرف يا سيدي

ـ ضحي من أجلي، وافدني بنفسك

ـ كيف تقرب الشراب الحلو من شفتي، ولا أجترعه؟ الشعب يضج ويشاغب، فهل تريد من الحرس الامبراطوري أيضاً أن يتمرد؟

انقبضت قلوب الحضور لهذه الشناعة. كان تيفالنيوس قائدا للحرس، فبدا ما تفوه به نوعا من التهديد. أدرك نيرون ذلك، فكساه الشحوب. في هذه الاثناء دخل إبا فرديتوس معتوق القيصر، وأعلن أن الاوغستا الالهيّة تريد التحدث إلى تيفالنيوس، لأن ضيوفا عندها يرغبون في أن ينصت اليهم قائد الحرس.

انحنى تيفالنيوس أمام القيصر، وانصرف بكل هدوء واستخفاف. لقد أرادوا أن يوجهوا اليه لكمة قويّة، لكنه كشر عن أنيابه ليعرفوا من يكون، وليكتشفوا في الوقت نفسه أن القيصر سيد الكون أجبن من أن يجرؤ على رفع يديه ومسه بسوء.

جلس نيرون فترة لا ينبس بحرف، لكنه لاحظ أن الحضور ينتظرون منه أن ينطق بشيء فقال :

ـ كنت أدلل أفعى

هز بترونيوس كتفيه كأنما أراد أن يقول أن أفعى كهذه ليس من العسير سحل رأسها.

فخاطبه القيصر، وقد لاحظ حركة صديقه :

ـ هات ما لديك. قل، أسدِ لي بنصح ! لا أثق الا بك، فعقلك أرجح من عقول الكل مجتمعين، وتحبني !

كان كلام بترونيوس جاهزا وعلى أهبة النطق به : " سمني قائدا

للحرس الامبراطوري، وأنا سأسلم تيفالنيوس للشعب، وأهد ئ المدينة خلال يوم واحد". لكن خموله المولود معه تغلب عليه. أن يكون قائدا للحرس، هذا يعني أنه سيرفع على كاهله عبء شخص القيصر، إضافة إلى الاف الاعباء الاخرى. فلم يجلب لنفسه المتاعب؟ من الافضل له أن يعكف إلى مكتبة مريحة يقرأ الاشعار، أو يستمتع بمشاهدة التماثيل والاصص، ويحضن جسد يونيكي الالهي، ويداعب خصلات شعرها الذهبي، ويلامس بفمه حمرة شفتي الفتاة.

فكانت نصيحته أن قال :

ـ أنصحك بأن نسافر إلى أكايا

أجاب نيرون :

ـ أه. انتظرت منك أكثر من ذلك. مجلس الشيوخ يكرهني، فإن سافرت، من يضمن لي أنه لن يتمرد علي، ويسمي قيصرا آخر؟ كان الشعب في صفي منذ مدة طويلة، لكنه الان يقف إلى جانبهم... يا جوبيتر ! هل يعقل أن يكون للشعب ومجلس الشيوخ عقل واحد !

فعلق بترونيوس باسما :

ـ دعني أقل لك، أيها القيصر الالهي، إذا ما أردنا أن نحافظ على روما، ينبغي علينا أن نحافظ على بعض الرومانيين أيضاً.

ـ وما نفع روما والرومانيين لي؟ في أكايا قد يصغون الي، وأنا هنا محاط بالخيانة. انفض عني الجميع. حتى أنتم قابلون لخيانتي ! أعلم، أعلم !... أما ينبغي لكم أن تفكروا بما سيقال عنكم في القرون القادمة، بأنكم تخليتم عن فنان مثلي.

وبغتة ضرب على جبينه وصاح قائلاً :

حقـا !... في زحمـة الاعبـاء نسيـت مـن أن كـون. والتفت إلى بترونيوس بوجه فيه الكثير من الاشراق. وقال :

- اسمـع يا بترونيوس. الشعـب يضج، لكن لـو أمسكت بقيثارتي وغنيـت أمامه في ميدان مارس الاغنيّـة التي أديتها لكم في أثناء الحريق الا تظـن أنني سأتمكن من التأثير بالشعب، كما أثر أورفيوس بالوحوش بأنغامه؟

هنا انـبرى توليوس سينيكو الذي كان ينتظر نهايّة الحديث، بعد أن فقد صبره، وبات يرغب في الذهاب إلى فتياته من الرق اللواتي جلبهن من الأنتيوم، فقال :

- لا شك في ذلك أيها القيصر، لكن السؤال هل ستسنح لك الفرصة للشروع بذلك.

فصرخ نيرون وقد اعتكر مزاجه :

- فلنذهب إلى هيلاس

ولكن في هذه اللحظة دخلت بوبيا وفي إثرها تيفالنيوس.

كان دخول رئيس الحرس ملفتا على نحو لم يالف الحاضرون مثولُ أمام القيصر بمثل هذا الصدف حتى لقائد عسكري ظافر.

بـدأ يتكلم بكثـير من التوتر، وفي نبرة صوتـه حشرجة تكاد تكون قرقعة حديد :

- اسمـع أيها القيصر. لا بد من إرضـاء الشعب بتقديم ضحيّة. لكن ليس ضحيّة واحدة بـل الاف الضحايا. أما سمعت بكريستوس الذي صلبه بونتوس بلاتوس؟

أو تعرف مــن هم المسيحيــون؟ الم أحدثك عن أفعالهــم الشريرة، وطقوسهــم اللا أخلاقيّة، ونبوءتهم بــأن العا لم ستأكله النيران؟ الشعب يكرههم، وينظر اليهم بعين الشبهة. لم يشاهدهم أحد في معابد، لأنهم يعتــبرون الهتنا أرواحــا شريرة. إنك لا تراهم حتــى في الميادين، لأنهم يكرهون الالعاب. لم تصفق كف مسيحي احتراما لك. و لم يعترف أي منهم بالهك. هم أعداء الانسانيّة، وأعداء المدينة، وأعداء لكم. الشعب ينتفض ضدك، في حين لست من أصدر الاوامر بإحراق المدينة، ولست أنا من قام بإحراقها. الشعب يرغب في الانتقام، فلنحقق لهم رغبتهم. الشعب متعطش للدماء والعاب السيرك، فليروِ عطشه. الشعب يتوجه اليك بالاتهام، فلتتوجه أصابع اتهامه باتجاه آخر.

في البدايّــة كان نــيرون يصغي باستغراب، لكــن تعابير وجه الممثل بدأت خــلال مجرى الحديث تتبدل غاضبة تــارة، ومتالمة تتوسل العزاء تارة أخرى. نهض فجأة، فالقي عنه رداؤه وظل عند قدميه، حتى رفعه بكلتا يديه ، وظل واقفا لحظات حتى نطق بنبرة البطل الدرامي :

ـ يــا زيوس، يا أبوللــو، يا هيرا، يا أثينا، يا برسفــون، ويا كل الالهة الخالدين، لم لم تأتوا لتقديم العون لنا؟

ما الذي فعلته هذه المدينة المنحوسة لأولئك الانجاس حتى يحرقوها على هذا النحو القذر؟

فقالت بوبايا :

ـ إنهم أعداء الجنس البشري وأعداؤك.

فصاح آخرون :

ـ أقم العدل ! عاقب من أحرقها. الالهة أنفسهم متعطشون للثأر !

جلس نيرون، وأحنى رأسه على صدره، وكأن الوضاعة التي سمعها الان قد خدرته، لكنه سرعان ما هز يديه وقال :

ـ أي عقاب، وأي عذاب يستحقون على فعلتهم الشريرة؟ لكن الالهة تلهمني لأبتدع لشعبي مشاهد سيذكرونني عليها ممتنين لقرون.

احمر جبين بترونيوس على حين غرة، حين فكر بالخطر المحدق الذي يهدد ليفيا و فينيكوس الذي أحبه، وكل أولئك الذين كان يحتقر دينهم، لكنه على يقين من براءتهم. ولمع في ذهنه أن أحد الطقوس الدمويّة، التي لا تحتملها طبيعته الجماليّة، في طريقه إلى الوقوع.

لكنه قال في نفسه : "علي أن أنقذ فينيكوس لأنه سيجن إن فقد تلك الفتاة". ووجدها أولى مهامه، وأول محك خطير في الحياة يضع نفسه فيه.

وكعادته، تكلم بطريقته المعهودة من البرود والاعتياديّة، ما دام لا يتناول في نقده آراء جماليّة تخص القيصر :

إذن، عثرتم على ضحايا ! حسنا ! ستلقون بهم في حلبات الوحوش، أو تلبسونهم "ثوب العذاب". حسن لكن اسمعوني قليلا. في أياديكم السلطة، والحرس الامبراطوري، والقوة، فكونوا صادقين، أقله حين لا يسمعكم أحد. اخدعوا الشعب، لكن لا تخدعوا أنفسكم، سلموا المسيحيين للشعب وأوقعوا بهم العذاب الذي تشاؤون، لكن فلتجرؤوا على الاعتراف أمام أنفسكم أن ليس هم من أحرق روما ! سحقا ! لقد أطلق علي لقب ملك الذوق. أنا لا أحتمل هذه المهزلة سحقا ! كم ذكرني هذا باللعبة الكوميديّة، حيث يلعب الممثلون أدوار

الالهة، والملوك، ثـم بعد عرض المسرحيّة يتعشون البصل. كونوا الهة، وملوكا حقيقيين، لأني واثق من قدرتكم على إيجاد طريقة مناسبة. أما مـا يخصك أيها القيصر، فلقد هددتنا بإدانـة الاجيال القادمة لنا، لكن لا تنسـ أن إدانتهم ستلحق بـك أيضاً. بحق كليـو الالهي ! إن نيرون سيـد الكون، نيرون الالهي، قـد أحرق روما لأن سلطته على الأرض، كسلطة زيوس فوق جبل الاولمـب. نيرون الشاعر قد أحب الشعر إلى حـد جعله يفديه بوطنـه ! منذ نشوء العالم لم يقـدم أحد على مثل هذا الفعـل، لأن أحدا لم يتمتع بالجـرأة. باسم الموزيـات التسع عروسات الشعـر، أتضـرع اليك أن لا تتنـازل عن هذا المجـد، ولسوف تصدح باسمـك الاشعار والالحان عبر القرون. من سيكـون برياموس مقارنة بـك، أي مجد سيكون لأغممنون وآخيل، وحتى للالهة أنفسهم؟ ليس مـن أهميّـة إن كان إحراق روما أمـر حسـن أم لا. الاهميّة في عظمة الحـدث واستثنائيته دون ريـب. وعلى أيّة حال أقول لك أن الشعب لم يرفـع يده عليك ! فكن جريئا ! وحذار من اتخاذ مسالك لا تليق بك، لأنك وحدك من يهـدده خطر الاجيال القادمة عندما يقولون " نيرون أحـرق رومـا، ولكنه كقيصر منحـط، وكشاعر زائـف منحط، ولأنه جبان ورعديد قد أنكر فعلته تلك والبس التهمة للأبرياء ".

وكالعادة كان لكلمـات بترونيوس تأثيرها الكبير في نفس القيصر. القشة الاخيرة التي تنقذ حياة المسيحيين، لكنها تعرض بترونيوس لخطر شديد. لم يتشدق كثيرا لأن الأمر يخص فينيكوس الذي يحبه من جهة، ولأنها تـؤدي إلى مغامرة من جهة أخرى. قال في نفسه : " ولكنني قد رميـت بحبة النرد، وانتهى الأمـر، والان بانتظار القرار الذي سيتخذه هذا القرد، إما بدافع خوفه على جلده، أو بدافع يمليه عليه طموحه ".

لكنه كان على يقين بأن الخوف هو الراجح في النهايّة.

ساد صمت ترقب خلاله الجميع، ومن بينهم بوبيا، ما سيتفوه به نيرون. أما القيصر فقد مط شفته العليا حتى فتحتي أنفه، وهذا ما يفعله في العادة حين يحار، ولا يدري ماذا سيفعل. في النهايّة بدا عليه الارتباك وعلت وجهه تقاسيم الانزعاج.

لاحظ تيفالنيوس ما خالج القيصر من اضطراب فبادر إلى القول بصوت جهوري :

- سيدي ! اسمح لي بالانصراف، لأن محاولات الزج بشخصك في أتون التهديد والوعيد، إضافة إلى تَسميتك بقيصر منحط، وشاعر منحط، وحارق المدينة، ومهرج، فذلك ما لا تحتمل أذناي سماعه.

قال بترونيوس لنفسه : "لقد هزمت"

الا أنه التفت نحو بترونيوس بكل مالديه من دوافع الاحتقار التي يضمرها نبيل تجاه حثالة، وتوجه اليه بالقول :

- أنت يا تيفالنيوس من سميتك بالمهرج، وها أنتذا تهرج الان.

- لأنني غير مستعد أن أسمع ما تتلفظ به من كلمات جارحة.

- بل لأنك تتصرف وكأنك تكن للقيصر محبة لا حدود لها، في حين قد هددته، لتوك، بالحرس الامبراطوري، وعلى مسامعنا جميعا.

لم يكن تيفالنيوس مستعدا لمثل هذه المغامرة غير المتوقعة التي تجرأ بترونيوس وأطلقها لتوه، فلزم الصمت شاحب الوجه. لكنها كانت الغلبة الاخيرة التي يحققها بترونيوس على خصمة تيفالنيوس لأن بوبيا في هذه اللحظة بادرت إلى القول :

ـ كيف لك أن تسمح يا سيدي حتى بمجرد أن تلمع في ذهن أحدهم أفكار كهذه، فكيف وهم يتجرؤون ويتفوهون بها أمامك؟

صاح فيتليوس :

ـ عاقب المتطاول !

ومـن جديد مـط نـيرون شفته العليـا نحو أنفـه، ثـم التفت نحو بترونيوس وقال :

هكذا تكافئني على صداقتي؟

فأجاب بترونيوس :

ـ إن ضللـت فجازني. لكنـك تدرك أنني لا أتفـوه الا بما تمليه علي محبتي لك.

فكرر فيتليوس قائلاً :

ـ عاقب الجسور ! المتطاول !

وعلت أصوات أخرى :

ـ عاقب الجسور !

وعـم في الأتريوم الضجيـج والحركة، لأن الناس أخذوا ينفضون عـن بترونيوس. وانفض عنه حتى توليوسـ سينكيو الذي كان صاحبه المخاصـ في البلاط، والشاب نيرفا أحد أفضـل أصدقائه. وسرعان ما صـار بترونيوس وحيدا في الركن الايسر مـن الأتريوم يمسح كم ردائه مبتسما، وينتظر ما سيقوله، أو سيفعله القيصر.

أما القيصر فقال :

ـ تريـدون أن أعاقبه، لكنـه صديقي وصاحبي، فـإن جرح فؤادي فليعلـم أن هذا القلب عارم بالصفح تجـاه أصدقائه. وفكر بترونيوس : "خسارتي، ونهايتي".

كان القيصر قد نهض واقفا معلنا نهايّة المشاورات.

٥٠

توجه بترونيوس إلى منزله، فيما قصد نيرون و تيفالنيوس معا صالون بوبيا، حيث كان ينتظر هناك من تحدث اليهم قائد الحرس قبل قليل.

كان هناك حاخامان برادئين رسميين طويلين، وتاجين فوق الرأس، وكان برفقتهما مدون، إضافة إلى شيلون. ارتعد الحاخامان لمرأى القيصر، ورفعا أكفهما. وبادر الاكبر سنا إلى تحيته :

لـك التحيات، يا مناصر الملكيّة، وملك الملوك. تحيّة لك يا سيد العالم، أيها القيصر، يا راعي الشعب المختار، أيها الأسد الضرغام بين جموع الناس، والذي ينتشر سلطانه كأشعة الشمس، وكأرز لبنان، وكالينبوع، والنخيل، والبلسم الشافي.

سأل القيصر :

أنتم لا تعتبرونني إلها؟

ازدادت رعدة الحاخامين وشحوبهما، فقال الحاخام المسن :

ـ كلامك حلو يا سيدي كعنقود العنب، وكثمر التين الناضج، لأن يهوه قد ملأ قلبك بالطيبة، لكن القيصر كايوس كان ظالما، ورغم ذلك لم يعتبره أتباعنا الها، وفضلوا الموت على تجاوز القانون.

ـ فدفع بهم كاليفولا بين الاسود؟

- لا يا سيدي. القيصر كايوس خشي غضب يهوه. ورفعوا رؤوسهم لأن اسم يهوه الجبار شحنهم بالعزيمة. وهم الان، بمثل تلك العزيمة، يجرؤون على النظر في عيني نيرون.

- أنتم تتهمون المسيحيين بإحراق روما؟

- نحن يا سيدي لا نتهمهم الا بأنهم أعداء القانون، وأعداء الجنس البشري، وأعداء روما، وأعداؤك، وبأنهم منذ زمن طويل يهددون بإحراق المدينة والعالم. وما تبقى سيقوله لك هذا الانسان الذي ما عرفت شفتاه الكذب، لأن عروق أمه يجري فيها دم الشعب المختار.

التفت نيرون نحو شيلون :

- من أنت؟

- متبجّج لك، و رواقي مسكين...

- أكره الرواقيين، أكره المتبجحين، أكره أحاديثهم، وأكره فيهم احتقارهم للفن، أكره فقرهم المفطورين عليه، أكره قبحهم ومشاكستهم.

- سيدي، إن السيد سنيكا يملك الف طاولة من خشب السرو، فإن شئتَ تجعلني أمتلك على ضعف ذلك. وإن شئت أن تفعل، فزخرف رواقيتي بقوس من الورود إضافة إلى إبريق من النبيذ وستراها تتحفك بأنغام غريبة تطرب كل الابيقوريين.

نالت هذه اللفتة " البارقة " إعجاب نيرون فما كان منه الا أن ابتسم وقال :

ـ أنت تعجبني

فبادر تيفالنيوس إلى القول :

ـ هذا المرء يساوي ثقله ذهبا

أما شيلون فأجاب :

ـ سيدي ! زد كرمك وأكمل وزني، والا فستذرو الرياح المدفوعات لخفتها.

فقاطعه القيصر قائلاً :

ـ مؤكد أن فيتليوس لن يبخس الميزان حقّه.

ـ لكن عقلي ليس مسبوكا من الرصاص.

ـ أرى ذلك، لأن ناموسك لا يمانع أن تدعوني الها.

ـ ناموسي قائم فيك أيها الخالد ! المسيحيون انكروا القانون، ولهذا فأنا أحتقرهم.

ـ ماذا تعرف عن المسيحيين !

ـ أتسمح لي أيها القيصر الالهي، أن أبكي؟

فأجاب نيرون :

ـ لا، لأن هذا يضجرني.

ـ الحق معك، لأن العين التي لا تراك، لن تبكي أبدا. سيدي ! أنقذني من أعدائي.

فتدخلت بوبيا بشيء من فراغ صبر :

ـ تحدث عن المسيحيين

فأجاب شيلون :

ـ كما تأمرين. منذ يفاعتي سخرت حياتي للفلسفة، متوخيا البحث عن الحقيقة. بحثت عنها في الحكم الالهيّة القديمة، وبحثت عنها في الاكاديميّة الاثينيّة، وفي معتقد سيرابيس في الاسكندريّة. حين سمعت بالمسيحيين ظننت أن ذلك مدرسة جديدة يمكن أن أحظى فيها على نثرات من الحقيقة. ياخيبتي إذ تعرفت بهم ! المسيحي الاول الذي قادني نحسي للتعرف به كان كلاوسوس الطبيب النابولي. ومع مرور الوقت عرفت من خلاله أنهم يعبدون أحدا يدعى المسيح، يعدهم بالقضاء على كل شعوب الأرض، وتدمير كل مدنها، والابقاء عليهم إذا ما ساعدوه في القضاء على أطفال ديكاليون. ولهذا السبب يكن هؤلاء الضغينة للبشر، يا سيدي، ولهذا السبب يقومون بتسميم الابار، ولهذا السبب يكثرون في اجتماعاتهم من إطلاق الشتائم والمذمات بحق روما، وحث معابدنا. لقد صلب المسيح لكنه وعدهم إذا ما أحرقت روما فسيأتي من جديد إلى هذا العالم، يجعلهم أسياد العالم....

فقاطعه تيفالنيوس قائلاً :

ـ صار الشعب يعرف لماذا احترقت روما.

فأجاب شيلون

ـ الكثيرون باتوا يعرفون لأني أقصد الحدائق، وميدان مارس، وأقوم بتعليمهم. لكن إذا ما سمعتموني حتى النهايّة، سترون أن لي أسبابا لا

حصر لها لنقمتي. الطبيب كلاسوس لم يكشف لي منذ البدايّة أن دينهم يأمرهم بكره البشر. بل قال لي إن المسيح الوهة صالحة، وأن المحبة هي أساس تعاليمهم. لم يرفض قلبي الوديع المرهف هذه الحقيقة، ولهذا أحببت كلاوسوس ووثقت به. شاطرته كل لقمة من طعامي، وكل جريشي من القمح. لكن أتدري يا سيدي كيف رد لي هذا الجميل؟

حين غادرنا نابولي في طريقنا إلى روما طعنني بالمديّة، وباع كلا من زوجتي وابني الفتى الجميل إلى تجار الرق. لو عرف سوفوكليس قصة حياتي... ما الذي سأقوله بعد! شاعر أعظم من سوفوكليس يسمعني الان.

أشفقت بوبيا قائلة:

ـ مسكين.

ـ ليس مسكينا من رأى وجه افروديت يا سيدتي. وها آنذا أراه الان. ولكنني بعد كل ما حصل لي بحثت عن عزاء في الفلسفة. بوصولي إلى روما بحثت عن كبار المسيحيين طالبا منهم تحقيق العدالة ومعاقبة كلاوسوس. ظننت أنهم سيرغمونه على إعادة زوجتي... تعرفت على كبير الكهنة... وعلى شخص آخر يدعى بولس الذي كان أسيرا وأنقذوه فيما بعد. وتعرفت على كثيرين آخرين كنت أعرف قبل الحريق أين يقطنون، وأين يجتمعون. أعرف غارا تقع تحت رابيّة فاتيكانوس، ومقبرة خارج بورتا نومنتا، حيث يقيمون هناك طقوسهم المخزيّة. هناك رأيت بطرس الحواريّ، رأيت كلاوسوس وهو يقتل أطفالا ليرش دما فوق رؤوس الاتباع. ورأيت ليفيا ابنة بومبونيا المتبناة، التي تفخر بأنها ما دامت لم تستطع أن تجلب دم طفل، فلتتسبب إذن بموت طفلة، فقامت بسحر الاوغستا الصغيرة ابنتكم، وأصابتها بالعين. الطف بنا

يا إيزيس ويا أوزيريس.

علقت بوبيا :

ـ أتسمع هذا أيها القيصر !

فصرح القيصر :

ـ أيعقل هذا؟

فتابع شيلون :

ـ لو تعلق الأمر بما لحق بي من أذيّة لصفحت عنها، لكن مصابكم الجلل جعلني أرغب بطعنها. لكن وأسفاه، منعني من ذلك حبيبها النبيل فينيكوس.

ـ فينيكوس؟ كيف وقد هربت الفتاة منه.

ـ الفتاة هربت، لكن فينيكوس بحث عنها، لأنه لم يستطع العيش بدونها. وأنا ساعدته في البحث عنها لقاء أجر زهيد، وأرشدته إلى المنزل الذي تقيم فيه الفتاة مع المسيحيين في ترانسبيريس. رافقته إلى هناك بصحبة كروتون أقوى مصارعيك لحمايّة فينيكوس. لكن أرسوس عبد ليفيا قضى عليه. إنه من القوة يا سيدي، بحيث يفتل عنق ثور، كما يفتل أحد غيره كوزا من الخشخاش. أرسوس و بومبونيا يحبانها أيضاً.

صاح نيرون :

ـ يا هيروكوليس ! ذلك الفاني الذي قضى على كروتون يستحق أن

يقام له نصب في فوردم. لكنك إما أن تكون مخطئا أيها العجوز أو أنك تكذب، لأن كروتون قتل مطعونا على يد فينيكوس.

ـ هكـذا يفـترون علـى الالهـة. رأيت بـأم عيني يا سيـدي، كيف طقطقت أضلاع كروتون بين يدي أرسوس، حتى أنه قام بعدها بضرب فينيكوس، ولو لم تكـن ليفيا هناك، وتشفعت لـه لقضى عليه. وعلى إثرها ظل فينيكوس مريضا لمـدة طويلة، والمسيحيون من قاموا بالعنايّة به أملا منهم بأن يعتنق المسيحيّة كرمى لمحبوبته. وهذا ما حصل فعلا.

ـ فينيكوس؟

ـ أجل فينيكوس

تدخل تيفالنيوس قائلاً :

ـ وقد يكون بترونيوس كذلك.

تراقص شيلون في مكانه، وفرك راحتيه ثم قال :

ـ تذهلني نظرتك الثاقبة يا سيـدي... أجل... ذلك ممكن... ذلك ممكن جدا.

ـ فهمت الان سبب دفاعه عن المسيحيين.

قهقه نيرون :

ـ بترونيوس مسيحي ! بترونيوس عـدو للحياة، والمتعة ! لا تتفوها بالترهات، محاولين إقناعي، لأني لن أصدق شيئاً.

ـ لكـن فينيكوس النبيل صـار مسيحيا، يـا سيدي. أقسـم بالنور

الساطع منك أنني أقــول الحق، وأنني لا أكره شيئاً كرهي للكذب. بومبونيـا مسيحيّــة، و أولوس الصغير مسيحــي، وليفيا وفينيكوس مسيحيـان. لقــد خدمته بكل إخلاصـ لكنه لم يتــوان عن جلدي رغم أني عجوز، ورغم كوني آنــذاك مريضا وجائعا. لكنني أقسم بـ هادس أني لن أنسى ذلك. انتقم لي يا سيدي منهم، وأنا سأحضر لك الحــواريّ بطرس و لنيوس و كليتوس، و كلاوسوس، و كريسبوس وكلهــم قادة، فضلا عن ليفيا و أرسوس. وسوف أدلكم على الاف والاف غيرهم، وأدلكم على معابدهم، وكل المقابر التي يجتمعون فيهـا، حتى أن كل سجونكم لا تتســع لأعدادهم. لن تعثروا عليهم دون مساعدتي... حتى الان كنت أبحث عن عزاء لي في الفلسفة، فدعنــي أجدها الان في عطفكم نحوي... أنا عجوز، و لم أذق بعد طعم الحياة، فدعني أنعم بالراحة قليلا.

فعلق نيرون قائلاً :

ـ أنت ترغب في أن تكون رواقيا حول مائدة عامرة.

ـ من يسعى لخدمتك، هو بالضرورة يكون قد أوصى بمائدته.

ـ لست مخطئا أيها الفيلسوف.

ثارت غــيره بوبيا، بعد أن رأت بعينها الثاقبــة الخبيرة أن لا أحد في روما كلها يمكن أن ينافسها سوى ليفيا، وأن تلك ستفوز عليها. حزمت أمرها، وأقسمت أنها منذ هذه اللحظة ستنتقم منها. فقامت مخاطبة القيصر :

ـ سيدي ! انتقم لابنتنا :

فاستعجلهم شيلون قائلاً :

ـ أسرعوا ! أسرعوا قبل أن يواريها فينيكوس. سأدلكم على المنزل الذي أقاموا فيه بعد نشوب الحريق.

فقال تيفالنيوس :

ـ سأدعمك بعشرة رجال، انطلق حالاً.

ـ سيدي، أنت لم تشاهد كروتون بين ذراعي أرسوس لو دعمتني بخمسين رجلا، فلن أقترب من المنزل، وسأدلكم عليه من مكان بعيد.

ولكن إن لم تودعوا فينيكوس السجن فستكون نهايتي.

التفت تيفالنيوس إلى نيرون، قائلاً :

ـ اليس من الافضل يا سيدي، أن نتدبر أولا شأن الشاب، وعمّه؟

فأجاب القيصر بعد تفكير :

ـ لا. الآن لا. لا تحاولوا أن تقنعوا الناس بأن من أحرق روما هو بترونيوس و فينيكوس و بومبونيا. كانت لهم منازل جميلة... نحن الآن في حاجة إلى أكباش فداء آخرين، ودورهم سيأتي بعد حين.

قال شيلون :

ـ أعطني يا سيدي رجالا يحموني.

ـ سيعتني تيفالنيوس بالأمر.

فطمأنه رئيس الحرس قائلاً :

ـ سوف تقيم عندي حتى ذلك الوقت.

طفح وجه شيلون بالبشاشة وصاح بصوت أجش :

ـ سأنقذكم جميعا، لكن أسرعوا ! اسرعوا !

٥١

حين غادر بترونيوس نيرون توجه إلى منزلـه في كارينا وهو منزل طوقتـه حديقة مـن جهاته الثـلاث، وانداحت أمامه فسحـة شاسعة، ليصبح على هذا النحو في منأى عن تأثير الحريق.

الاوغستيـان الذين دمرت منازلهم، بما فيهـا من ثروات ومقتنيات نفيسه، وأعمال فنيّة، أطلقوا على بترونيوس عازف الفلوت المحظوظ. وعلى أيّـة حال كانوا يتناقلـون عنه الاحاديث بأنه الابـن البكر الذي أنجبتـه الأمرأة الالهيّـة فورتونا، وأنه يمثل صداقـة القيصر التي ما فتئت تتعـزز على الـدوام في الاونة الاخيرة، وجاءت نجـاة منزله لتؤكد هذا الرأي.

لكـن بكر الأمرأة الالهيّة فورتونا كان لـه أن يفكر مليا بتقلب أمه، وشبهها بـ كرونوس في التهام الابناء.

" لـو أن منزلي قد احترق، ومعه جواهري،وأصصي الاتروسكيّة، وزجاجياتـي الاسكندرانيّة، ونفائسي الكورنتوسيّـة، لتناسى نيرون، أغلب الظن، مصابه. يا بولوكس ! إذا ما فكر المرء وكأن الأمر قد تعلق بي وحدي وصرت قائد الحرس ! إذن لأسميت على تيفالنيوس إحراق المدينـة، ولقمت بحمايّة المسيحيـين، وأعمرت روما. ومن يدري لعل مصائـر البشر الشرفـاء تتحسن. خسارة أنني لم أقبـل المنصب من أجل فينيكوس على الاقل. كان أمكـن أن أعهد اليه بهذا العمل حين أكون

مشغـولا، وقد لا يعارض نيرون الأمر. وعندها كان فينيكوس سيسعى إلى تعليـم عساكر الحرس الدين المسيحي، وقـد يفلح في كسب ميول حتى نيرون نفسه نحو المسيحيّة. ما الضير في ذلك؟

مـا الضير في أن يكـون نيرون الرحيـم، الفاضل، الـرؤوف ! أي مشهد مسلٍ كان ليحصل "

لم يحفـل كثيرا بمتاعبه هذه، فابتسم. لكـن سرعان ما تحول تفكيره إلى وجهة أخرى، وكأن حديث بولس الترسوسي في الأنتيوم قد طرق سمعه من جديد :

" أنتم تسمونا أعداء الحياة، لكن قل لي، أنت بالذات يا بترونيوس، لـو أن القيصر كان مسيحيا، ويمارس الحياة تبعا لتعاليم ديننا، الن تغدو حياتكم أكثر طمأنينة وآمانا؟ "

وباسترجاعه هذه الكلمات، استرسل في التذكر :

" بحـق كاستـور ! مهما يقتلـوا من المسيحيـين فباستطاعة بولس أن يجـد الكثيرين غيرهم، لأنـه ما دام العالم لا يستقيـم على الشرور، فالرجـل محق إذن... لكن من يـدري إن كان لا يستقيم حقا، في حين هو قائم على هذه الشرور؟

أنـا، الـذي تعلمت الكثـير لم أتعلم كيف يمكن للمـرء أن يوغل في الوضاعـة، ولهـذا فمـن المرجح أنـه سيترتب علـي فيما بعـد أن أشد قواي...

ولـن أكون نادمًـا الا على يونيكي وقدح المـر، لكن يونيكي حرة، والقـدح سيأتي معـي، وصاحب اللحيّـة الحمراء لن يستـولي عليها.

وسأنـدم أيضاً على فينيكوس. وعلى أيّة حال أنـا مستعد لكل شيء. صحيـح أن في الحياة العديد من الامـور الجميلة، لكن الغالبيّة العظمى مـن البشر هي من القذارة بحيـث لا يجدر بنا أن نأسـف على الحياة. مـن يجيد الحياة، يجيد الموت. صحيـح أني من فئة الاوغستيان، لكني إنسان فيه من الحريّة أكثر ممّا يظنون ".

هز كتفيه.

" يظـن أولئك أن فرائصي ترتعد، وأن شعـر رأسي يحترق جزعاً، ولكنـي مـا أن أبلغ المنزل حتى آخـذ حماما عطريـا، وبعدها تدلكني يونيكـي بالزيت، ثم بعد أن نتناول طعامنـا نسمع من انسموس بعض المقاطـع مـن نشيد أبوللـو. لقد قلت ذات يـوم : ليس مجديـا التفكير بالمـوت، لأنه هو الذي يفكر بنا حتى دون الرجوع الينا. ثم اليس أمراً مثـيراً للدهشة أن تكون هنـاك جنة بحدائق وارفـة... وتأتي يونيكي لزيارتي هنـاك، ونتنزه معاً في الجنائن السندسيّة لا بدّ أني سالتقي هناك كثـيراً من الأصحاب، وأتعـرّف بالـكثيرين أكثر طيبـة من كل هؤلاء. يالهؤلاء من رعـاع ومهرجين، وأفظاظ، وأجلاف، وبلا ذائقة. عشرة من " ملوك الذوق " أمثالي ليس بمقدورهم أن يجعلوا من هؤلاء المسوخ أشخاصا طبيعيين. يا برسافون !

كم أنا مغتاظ منهم ! لقد طفح الكيل !

شيء ما بات يفصله عن هؤلاء البشر. لقد عرفهم جيدا، وأدرك منذ زمـن كيف يتعامل معهم وها هو ذا يـرى أن المسافة التي تفصله عنهم صارت شاسعة، وأنهم بات يحتقرهـم أكثر من ذي قبل. حقا لقد طفح كيله معهم.

لكنه راح يفكر بالحالة الراهنة. أدرك بحدة البصيرة أن ليس ثمة من خطر مباشر يهدده. صحيح أنه تلفظ ببعض العبارات غير المناسبة أمام نيرون، لكنه سيتفهم أقرب الفرص للنطق ببعض الذرائع والشواهد التي تمجد الصداقة والتسامح. أما الآن وقبل كل شيء، فالقيصر يفكر بإقامة العاب السيرك مع المسيحيين، قبل أن يأتي الدور ليفكر بي. لذا فليس من المجدي أن أحفل به، وأن أغير من طريقة حياتي. الخطر الاكبر يواجه فينيكوس !

ومن الان فصاعدا سخر ذهنه للتفكير بفينيكوس، واتخذ قرارا بالهروع إلى مساعدته.

أسرع الأرقّاء يجتازون بهودجه المداخن، والتلال المترمدة، وحثهم على الاسراع أكثر فأكثر حتى باتوا يركضون ركضا للوصول إلى المنزل. كان منزل فينيكوس قد احترق، وصار يقيم الان عند بترونيوس. ولحسن الحظ كان في المنزل، فسأله لمجرد دخوله العتبة :

ـ هل التقيت اليوم ليفيا؟

ـ جئت من عندها.

ـ أصغ إذن لما أقوله لك، ولا تضيع الوقت بالأسئلة.

لقد اتخذوا قرارًا عند القيصر، بأن يلبسوا المسيحيين تهمة إحراق روما. وهم الان يهددونهم بالملاحقة والتعذيب. وسيبدؤون بتنفيذ خطتهم بأيّة لحظة. خذ ليفيا واهرب بها إلى ما بعد جبال الألب، أو إلى أفريقيا. لكن أسرع لأن البالاتينوس أقرب إلى الترانسبيريس منا.

كان فينيكوس جندياً بالدرجة الاولى، فلم يضع وقته بالاسئلة.

وكان شعـوره الاول الدفـاع عن النفس والرغبـة في القتال حتى أخر رمق.

ـ أنا ذاهب.

ـ كلمـة أخرى بعد : خذ معك كيسًا من الذهب، وسلاحًا، وبعض الأرقّاء المسيحيين.

كان فينيكوس قد صار عند الباب، فصرخ بترونيوس به وهو يبتعد :

ـ أرسل وراء أحد الأرقّاء.

حـين ظل لوحـده، راح يتمشى بين عمـدان الأتريـوم، منتظرا ما سيحـدث. عـرف أن ليفيا و لنيوس قد رجعا بعـد الحريق إلى منزلهما القـديم، ولكن ذلـك معلومة غير محبذة، فلو بقيا بـين جموع الناس لما خمن أحد مكان وجودهما. ولكنه أمل في أن لا يكون أي شخص في البالاتينوسـ قد شك على الفور في هذا المكان قبل أن يستبق فينيكوس وصـول الحرس الامبراطـوري إلى هناك. ولمع في ذهنـه أن تيفالنيوس سوف يسعى جاهدا لاعتقال أكبر عدد ممكن من المسيحيين،وهذا يعني محاصرة روما بكاملها، الأمر الذي يستدعي توزيع الحرس الامبراطوري إلى مجموعات صغيرة حولها. فإذا أرسلوا من أجل الفتاة ما لا يزيد عن عشـرة جنود فإن بمقدور أرسوس العملاق أن يقضي عليهم، فكيف إن كان فينيكوس قد انضم اليهم.

وفكر أيضـاً أنه إذا ما استطاع فينيكوسـ أن ينجو بجلده من نقمة القيصر، فإن هذه النقمة ستتحول اليه، لكنه لم يكترث لهذا الأمر.

وبدخول يونيكي انبت شريط أفكاره، وتلاشى، لمرآه الفتاة، ما أثقل

كاهله من أعباء وشجـون. نسي القيصر وأذاه، والاوغستيان وملاحقة المسيحيـين، وفينيكوس، وليفيا، و لم ير الا الفتاة بعـين الناقد الجمالي الخبير، وبعـين المحب الذي يغمـره هذا المشهد بالحـب الدفاق. كان جسـد الفتاة الوردي اللـون يشف تحت ردائهـا البنفسجي الشفاف، فبدت رائعة الجمال كالهة. شعرت أنها محط إعجاب الجميع ودهشتهم، ولكـن بما أنها أحبت بترونيوس مـن أعماق روحها، وكانت في شوق دائم إلى ما يمنحها من دلال، فقد احمر ت خجلا كأنها ليست عشيقة له، بل فتاة بمنتهى البراءة.

سألها بترونيوس باسطا ذراعيه نحوها :

ـ ما الجميل الذي جئتنا به يا كاريس؟

فأجابت مائلة برأسها الناعم نحوه :

ـ سيـدي، ها هو ذا أنسميوس والمغنون،وهو يسـال إذا ما كانت لديك رغبة في سماعه؟

ـ دعيـه يتريـث. بعد الغداء سيغنـي لنا نشيد أبوللـو. سوف نسمع نشيد أبوللو رغم الانقاض والرماد في كل مكان. كأني أراك في غابات باخوس حيث تُعبد أفروديت. لو كنت ترتدي ثياب كوفستيس لظننت أن أفروديت قد تبدت لي في السماء.

خجلت يونيكي قائلة :

ـ لا يا سيدي !

ـ تعالي يا يونيكي وعانقيني، وهاتي فمك، هل تحبينني؟

ـ لا أحب زيوس أكثر ممّاأحبك.

وارتعشت بين ذراعيه من فرط سعادتها صاهرة شفتيها بفمه.

لكن بترونيوس قال بعد هذا العناق :

ـ ماذا لو كان علينا الانفصال عن بعض؟

حدقت يونيكي في عينيه جزعة :

ـ كيف يا سيدي؟

ـ لا تجزعــي !... كما تعرفين، من يدري إن كان علي أن أذهب في رحلة طويلة؟

ـ خذني معك؟

لكن بترونيوس سرعان ما بد ل في مادة الحديث لها :

ـ قولي، هل رأيت في مرج الحديقة أزهار أسفو دلوس؟

ـ لقد ذبلـت الصنوبرات والمرج بتأثير الحريـق. وتساقطت أوراق الاس، والحديقة كلها جنة ميتة

ـ رومـا كلها جثة هامدة. وقريبا ستتحـول إلى مقبرة أتعلمين بأنهم سيصدرون أمرا ضد المسيحيين، ويلاحقونهم. وعندها سينفى الاف، والاف من البشر؟

ـ و لم يريدون الحاق التهم بهم، رغم أنهم بشر هادئون، وطيبون؟

ـ لأنهم كذلك.

ـ فلنذهب إذن إلى البحر، لأن عينيك الالهيتين لا تحبان أن تريا الدم.

ـ حسنا، لكن علي الان أن أستحم. تعالي إلى الحمام، وادهني ذراعي بحق الالهة! لم آرك بمثل هذا الجمال من قبل. سأجلب لك مغطسا على هيئة محارة، لتكوني أنت اللؤلؤة في داخلها... تعالي يا يونيكي الذهبيّة الشعر.

وذهبا وبعد مضي ساعة من الزمن عادا، وعلى رأس كل منهما إكليل من الورد، وجلسا حول مائدة مليئة بالصحون المذهبة.

قدم الطعام شبان أنيقو الهندام، وسكب النبيذ من أباريق مغلفة بالمخمل، واستمعا إلى نشيد أبوللو من الفرقة الموسيقيّة بقيادة انسميوس، لم يكترثا بالدخان والانقاض حول الفيلا، ولا بالرماد وشرر النيران التي تحملها الرياح قادمة من روما. لم يحفلا الا بالحب الذي حو ل حياتيهما إلى ما يشبه حلما الهيا.

لكن قبل أن يبلغ النشيد نهايته، جاء كبير الخدم، إلى القاعة، ليقول بصوت مرتعش :

ـ سيدي قائد مئة على راس فصيل من الحرس أمام المدخل يريد التحدث معك بأمر من القيصر توقف العزف والغناء، وعم الاضطراب الجميع، لأن القيصر في العادة، لا يلجأ إلى الحرس الامبراطوري في التعامل مع أصدقائه. توجس الجميع شرا. بترونيوس وحده لم يبدِ ملمحا من قلق، وأجاب بنبرة من يضجره الازعاج الدائم :

حبذا لو تدعني أكمل غدائي بهدوء.

ثم التفت إلى كبير الخدم قائلاً :

ـ أدخلهم

توارى الخادم وراء الستارة،وسرعـان ما سمع وقع خطوات ثقيلة، ودخـل إلى القاعـة أحد معارف بترونيوسـ وهو قائد المئـة أبر بلباسه المدرع والخوذة على رأسه.

بادر قائلاً :

ـ سيدي النبيل ! اليك برسالة من القيصر.

بسـط بترونيوس كفه البيضاء بتكاسل، وتناول اللفائف، القى نظرة عليها وناولها ليونيكي قائلاً :

ـ في المساء سيغني أغنيات جديدة من نشيد طروادة يدعوني للذهاب اليه.

ـ مهمتي تقتصر على تسليمك الرسالة.

ـ حسنـا. لا جواب. لكـن استرح قليلا أيها القائـد، وتناول قدحا معنا.

ـ شكـرا يا سيـدي النبيل. بوسعي تناول قدح مـن النبيذ، لكني لن أجلس لأني في مهمة.

ـ و لم كلفوك بالرسالة، و لم يرسلوها مع أحد الأرقّاء؟

ـ لا أدري يا سيدي، لكن قد يكون لي مهمة أخرى علي أن أنجزها.

علق بترونيوس قائلاً :

ـ أعلم، ضد المسيحيين.

ـ أجل يا سيدي.

ـ هل باشروا بالملاحقة؟

ـ منذ الظهيرة أرسلوا بعض الفصائل إلى ترانسبيريس ارتشف جرعة من قدح النبيذ نخب مارس، ثم اجترعه بكامله قائلاً :

ـ لتحقق لك الالهة يا سيدي، ما أنت راغب فيه.

فشجعه بترونيوس مخاطبا إياه :

ـ أبق القدح لك.

وأشار إلى أنسميوس أن يكمل غناء نشيد أبوللو. قال في نفسه حين استأنفت الفرقة العزف :

" بدأ صاحب اللحيّة الحمراء يستفزني، أنا وفينيكوس. أخمن ما يرمي اليه ! أراد أن يفزعني فأرسل الرسالة مع قائد المئة. في المساء سوف يسالون قائد المئة عن الحالة التي استقبلت فيها القائد. لا، لا ! لن تكون مسرورا أيها المهرج الشرير الجائر. أعلم أنك لن تنسى أذاي، أعلم أنني لن أنجو، ولكن إن كنت تعتقد أنني سأتضرع اليك، وتقرأ على وجهي علائم التذلل والجزع فأنت مخطئ كثيرا ".

قالت يونيكي :

ـ يكتب القيصر : " تعالا، إن كانت لديكما رغبة في ذلك ". هل ستذهب يا سيدي؟

فأجاب بترونيوس :

- أنا في حالة من روعة المزاج تجعلني قادرا على سماع حتى أشعاره. سأذهب إذن، ما دام ليس بوسع فينيكوس الذهاب. وبعد الغداء والنزهة المعتادة ترك نفسه للنسوة الخادمات أن يعتنين بشعره، ثم لفتيات أخريات بالعنايّة بملابسه، ثم بعد ساعة من الزمن توجه إلى البالاتينوس بكامل أناقته. كان الوقت قد تقدم، فكان المساء حارا، والقمر شديد الاضاءة حتى لم يكن هنالك من حاجة للمشاعل أمام الهودج فأطفؤوها. كانت الشوارع ملأى بالسكارى يتمايلون جماعات بين الانقاض، حاملين أغصان الاس، والغار المقتطفة من الحدائق القيصريّة كان الناس سعداء وقلوبهم مغمورة بالفرح بسبب السخاء في توزيع القمح، وأملهم في إقامة العاب السيرك الموعودة.

كانت الاغاني تصدح في أماكن من المدينة تمجيدا للحب، وهذه " الليلة الالهيّة "، وفي أماكن أخرى كانوا يرقصون تحت ضوء القمر حتى اضطر الأرقّاء أن يصيحوا في كثير من الاحيان : " أوسعوا الطريق لهودج بترونيوس النبيل "، وكانت حشود الناس تتنحى أمامه محيية " المحبوب " بصوت عال.

أما هو فكان يفكر بفينيكوس، مستغربا عدم ورود أي نبأ منه. كان شخصا أبيقوريا، وأنانيا، الا أنه نتيجة لسماعه أحاديث بولس الترسوسي، وفينيكوس اليوميّة معه، قد اعتراه تغير نوعي دون أن يدري. صار يلتفت لأمر للآخرين، ولا يقتصر على الاهتمام لشؤونه الخاصة. أما فينيكوس فقد كان حالة خاصة بالنسبة اليه، فقد تعلق به على الدوام، وأحب أم الشاب، كأخت صغرى له حبا بالغا، ولكنه بعد أن عايش شؤون الفتى صار ينظر اليها نظرة مأساويّة.

كان يأمل بكل جوارحه أن يفلح فينيكوس في الوصول إلى ليفيا قبل جنود الحرس، ويهرب بها، أو في أسوأ الاحوال، أن يتمكن من تحريرها منهم ولو بالقوة.

ببلوغه منزل تيبريوس ترجل من الهودج، ودخل إلى الأتريوم، الذي كان مكتظا بالاوغستيان.. استغرب " أصدقاء الامس " أنه مدعو الان فانكمشوا عنه، لكنه انخرط بينهم بكل برود لا مباليا بأحد منهم، مبديا استعلاء وترفعا كأنه هو المتفضل الاول هنا، ولا أحد سواه. حين لاحظ البعض ذلك، ارتبكوا لأنهم لم يعلنوا قبل الان موقفهم الحيادي تجاهه.

أما القيصر فقد تصرف وكأنه لم يره بعد، حتى أنه لم يرد انحناءته، لأنه تصنع الانشغال بالحديث، وعلى النقيض من ذلك تقدم منه تيفالنيوس وخاطبه قائلاً :

ـ مساء الخير يا ملك الذوق ! أما زلت تزعم أن من أحرق روما ليس المسيحيون؟

هز بترونيوس كتفه ورد راغبا في إفحامه.

ـ لكنك تعلم جيدا، مثلي، كيف نتحفظ على هذه القضيّة.

ـ لا أجرؤ أن أقارن نفسي بما تتمتع به من حكمة.

ـ أنت محق في ذلك. وسيحصل العكس فيما لو قرأ لنا القيصر قصيدته الطروادية الجديدة. فبدلا من أن تختال كالطاووس قد نسمع منك رأيا سليما وحصينا.

عض تيفالنيوس شفته. لم يكن مسرورا لاعتزام القيصر اليوم قراءة

أغنيّـة جديدة، لأنـه سينقـاد إلى منافسة خاسرة مـع بترونيوس. وهذا مـا حصل فعلا، ففي أثناء قـراءة نيرون قصيدتـه كان يتلفت بعينيه إلى بترونيوس ليقرأ ما يرتسم على وجهه من تعابير.

أمـا بترونيوس فـكان يصغي مطبقـا جفونـه، محنيا رأسـه إعجابا حينا، مركزا انتباهـه ليسمع الكلمات جيدا أحيانا أخرى، مطريا على بعض المقاطع، منتقـدا بعضها الاخـر، ناصحا بتصحيح مـا يتضمن هـذا السطر أو ذاك من نشـاز واضح. ولقد لاحظ نـيرون من المبالغة في إطـراء الاخرين أنهم يرومـون منفعتهم الخاصة، ووحده بترونيوس مـن كان يهتم بالشعر، للشعر بذاته، وحده مـن يفهم في هذه المسالة، وإذا مـا أطرى على جانب، فهو يستحق ذلك الاطـراء بالفعل. وشيئاً فشيئـاً تطور الحديث، واشتد النقاش بينهما، وحين، أخر الأمر شكك بترونيوس في جودة أحد التعابير، رد نيرون قائلاً :

- سـترى عند المقطع الاخير من القصيـدة لم استخدمت هذا التعبير بالذات.

ففكر بترونيوس قائلاً في داخله :

- آه سأبلغ إذن المقطع الاخير

فيما خطر لكل من الحضور : " ويلي، إن كان بترونيوس قد كسب فرصـة من الوقـت، فمن المحتمل أن يفوز برأفة القيصر، وهذا قد يؤهله للفوز على تيفالنيوس.

وراحـوا يتحلقـون حوله. لكن نهايّـة الامسيّة كانـت على درجة أقـل من سعود الحـظ، لأن القيصر ما إن قام بترونيوسـ بوداعه، وسأله بجهامة متوعدة :

ـ و فينيكوس لم لم يأت معك؟

لو كان بترونيوس يعلم أن فينيكوس و ليفيا قد تخطيا مدخل المدينة لكان جوابه بكل بساطة : " عفوك، لقد تزوج وسافر ". ولكنه لاحظ ابتسامة نيرون الغريبة فقال :

ـ لم يكن في المنزل حين وصلت دعوتك، أيها القيصر الالهي.

فأجاب نيرون :

ـ قل له أنني سأكون سعيدا لرؤيته، لكي لا يفوت عليه فرصة العاب السيرك التي يحييها المسيحيون.

أقلقت بترونيوس هذه العبارات، لأنه شعر أنها تمس ليفيا مباشرة. جلس في هودجه وأسرع نحو البيت. لكن إسراعه لم يكن سهلا لأن حشدا كبيراً قد تجمع أمام منزل تيبريوس كانوا سكارى كما من قبل، لكنهم لم يكونوا يغنون أو يرقصون ولكنهم كانوا أقرب إلى الشجار. تناهى إلى سمع بترونيوس أصوات لم يفهمها من بعيد، لكنها اشتدت شيئاً فشيئاً باقترابه منها فكانت جأرات وحشيّة تقول :

ـ اقذفوا بالمسيحيين للأسود.

تقدمت هوادج الحاشيّة البلاطيّة الفخمة بين حشود الرعاع الصارخة. فيما كانت جموع أخرى تتدفق من أعماق الشوارع المحترقة، لتنضم إلى المحتشدين أمام المنزل، وينصهر الجميع في صرخة واحدة.

شاع على الالسنة نبأ يفيد بأن عمليّة ملاحقة المسيحيين تجري منذ

الظهـيرة، وقد نجحوا بالقبض علـى بعض من متسببـي حريق المدينة. وكانت الصرخـات قد انتشرت في كل المدينة طـولا وعرضا، لتشمل الشوارع، والازقة، والتلال، والحدائق :

ـ اقذفوا بالمسيحيين أمام الاسود.

ردد بترونيوس باحتقار :

ـ رعاع ! الشعب على شاكلة قيصره.

وسـرح يفكـر بأن العـالم القائم علـى العنف،والجـور، وارتكاب الافعـال الشريرة، لا يمكـن أن يستمر طويلاً. روما سيـدة العالم لكنها في الان نفســه، دملـة العالم التي تفوح منها رائحــة الجثث.. لقد خيم المـوت بظلاله على فساد الحياة، وذلك غالباً مـا كان يدور على السنة الاوغستيـان، لكنها حقيقــة ما كانــت لتنجلي أمام عينـي بترونيوس بمثـل انجلائهـا الان، وإن العربة المكللة بأقواس النصـر، وتقودها روما كمحارب عظيم، جارة وراءها الاقوام المكبلة بالسلاسل، إنما تعدو إلى حتفها. إن حياه هذه المدينة السيدة حياة مستهترة لاهيّة، ماجنة يمارسها علـى نحو وحشي مخابيل بلاطيون لا يرعـوون، هم الذين يدفعون بها إلى نهايتهـا المحتومة. صار مـدركا الان أن للمسيحيـين أسسا حياتيّة لكنهم لن يتمكنوا من الاستمرار.

فما الذي سيحصل إذن؟

إن مسـيرة المهرجين الماجنة يقودها نيرون، فـإن ذهـب نيرون يأتي غـيره، وقد يكون أسوا منــه لأن ما من سبب يدفع مثـل هذا الشعب، أن يأتـي بالافضل من بين حاشيّة كهــذه. وهكذا تتو إلى طقوس الحياة العربيدة، وعلى نحو أكثر قذارة، ووحشيّة.

لكن للعربدة نهايّة، ولا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهايّة، فالمعربدون يحتاجون إلى النوم أيضاً بعد الانهاك الشديد.

حين فكر بذلك شعر أنه شديد التعب. هل من الجدير أن يعيش المرء، يا ترى، وفي خضم من الالتباس والشك، فقط ليشهد مثل هذا النظام للعالم؟ اليس للموت أيضاً روح حارسة بجناحين، وفيه من الجمال ما يشبه الحلم؟

توقف الهودج عند مدخل المنزل الذي قام بفتحه البواب اليقظ حالا، فبادر بترونيوس إلى سؤاله :

ـ هل عاد فينيكوس النبيل؟

ـ لتوه يا سيدي

فكر بترونيوس : " فهو إذن لم يستطع تحريرها "

القى بردائه وأسرع نحو الأتريوم. كان فينيكوس جالسا على كرسي ذات أربع قوائم، محنيا رأسه حتى ركبتيه، عاقدا يديه فوق رأسه، فتنبه على وقع الخطوات، ورفع وجها جهما برقت منه عينان قانطتان :

فسأله بترونيوس

ـ هل تأخرت في الوصول اليها؟

ـ أجل، لأنهم قبضوا عليها قبل الظهر.

ساد صمت لحظي

ـ هل رأيتها؟

ـ أجل

ـ أين هي

ـ في سجن مامر تينوس

ارتعش بترونيوس، ورنا إلى فينيكوس بنظرة متسائلة، فهمها الشاب.

ـ لا. لم يدفعوا بها إلى توليانوم، ولا حتى إلى السجن الاوسط. لقد رشوت الحارس بأن يعطيها غرفته الخاصة. نام أرسوس على العتبة، حرصا عليها.

ـ وكيف لم يقم أرسوس بالدفاع عنها؟

ـ أرسلوا اليها خمسين جنديا. ولقد منعه لنيوس من المقاومة.

ـ وماذا حل بـ لنيوس؟

ـ على حافة الموت،ولذا لم يعتقلوه

ـ وماذا تنوي أن تفعله؟

ـ سأنقذها أو نموت معا. أنا أيضاً أؤمن بالمسيح.

كان فينيكوس ظاهريا يتكلم بهدوء، ورباطة جأش، لكن في نبرة صوته ما يمزق القلب، فاهتز بترونيوس إشفاقا، فقال :

ـ أفهمك. لكن كيف ستنقذها؟

ـ رشـوت الحراس، ليجنبوهـا أولا التعذيب والمعاملـة الخشنة، ثم ليسه لوا عمليّة فرارها.

ـ ومتى ستفعل ذلك؟

ـ قالـوا لي أنهم لا يستطيعون الان أن يطلقوها خوفا من المسؤوليّة، لكن إذا ما امتلأت السجون، وصار من المتعذر تسجيل أسماء المعتقلين في اضابير، فسوف يطلقون سراحها. لكنها المرحلة الاخيرة. اسع أنت أولا على إنقاذها.

إنـك صديق القيصر، وهـو الذي سمح بزواجي منهـا. أذهب اليه وأنقذها !

وبـدلا مـن الاجابة،استدعي بترونيوس خادما، وطلـب إحضار عباءتين، وسيفين، ثم التفت إلى فينيكوس قائلاً :

ـ في الطريـق ستعـرف. ارتـد الان العباءة، واقبض على السلاح، ودعنـا نذهب إلى السجـن. ادفع للحراسـ مئة الـف سستيريوس بل ضعـف ذلـك، أو خمسة أضعافـه، لكي يطلقوا ليفيـا في الحال، والا فسوف نتأخر.

ـ هيا.

وخلال لحظة كانا في الشارع. فسأله بترونيوس :

ـ والان اسمعنـي، لم أكـن أريد إضاعة الوقـت. أنا فقدت حظوتي لدى القيصر، وصارت حياتي على شفا هاويّة، فلا أستطيع توسل شفاعة القيصـر. بل على العكس من ذلك، أنا على يقـين أنه سيفعل نقيض ما

أطلبــه. ولو لم يكن الأمر كذلك أتظن أننــي سأنصحك بالفرار بليفيا، والعمــل على تحريرهــا بالقوة؟ لا سيما وأن القيصــر، بعد فرارك أنت، سيتوجــه بغضبــه نحوي. اسع الان إلى تحريرهــا. وإن لم تنجح الخطة، فســترى ماذا سنفعــل. لكن تذكر أنهم لم يعتقلوا ليفيــا لأنها مسيحيّة. فالــذي يلاحقها ويلاحقــك هو غضب بوبيا. تذكر مــا سببت لها من تجريــح، حين رفضتهــا. هي تدري أنك فعلت ذلــك لأجل ليفيا، التي كرهتهــا منذ اللحظة الاولى. خاصة وأنها ادعــت أنها من سحر ابنتها وتسبّب في موتها. والا ما الذي يفسر أن ليفيا كانت أول من اعتقلت؟ مــن الذي دلّ على منــزل لنيوس؟ أزعم أنهم أطلقــوا جواسيسهم منذ زمــن لمعرفة ذلك. أعرف أنني أدمي روحــك، وأطيح بما تبقى لك من آمال، لكن أقول ذلك، لأنك إن لم تتمكن من تحريرها قبل أن يعرفوا ما تنوي فعله، فإني سأفقد كليكما.

فأجاب فينيكوس بتبلّد :

- حسنا. فهمت.

تأخــر الوقــت. كانــت الشــوارع خاليّة، لكــن حدثيهمــا أربكه مصارع ثمل يترنح سائرا في الاتجاه المعاكس. استند براحته على كتف بترونيوس، وصرح بصوت أجش لتملأ أنفاسه المخمورة الانوف :

- اقذفوا بالمسيحيين إلى أمام الاسود.

فقال له بترونيوس بهدوء :

- اخرس. الزم حدودك، وانصرف

أمسك السكير بيده الاخرى ذراع بترونيوس قائلاً :

ـ اصرخ معي، والا سأدق عنقك هاتوا المسيحيين إلى أمام الاسود

كان بترونيوس قد طفح به الكيل من سماعه هذه العبارة، وحين رأى قبضة العملاق فوق كتفه فرغ صبره تماماً، فقال :

ـ صديقي، رائحتك كريهة بسبب النبيذ، وإنك تقف في طريقي.

وامتشق سيفه القصير وطعن به صدر المجالد. ثم كأن شيئاً لم يكن، لف عنق فينيكوس وتابعا حديثهما.

ـ قال لي القيصر " قل لفينيكوس أن يأتي لحضور الالعاب التي سيشيدها المسيحيون ". تفهم معنى ذلك، يريدون أن يتلذذوا بتعذيبك. إنها خطة مبيتة، جعلتهم لا يقومون باعتقالك، ولا باعتقالي. إن لم تفلح بتحريرها على الفور،... إذن... لا أدري... قد ترفع أكتي صوتها من أجلك، لكن هل يفيد ذلك في شيء؟ أملاكك في سيسيليا قد تغري تيفالنيوس حاول

ـ سأعطيه كل شيء

لم تكن كارينا بعيدة عن الفوروم، فسرعان ما وصلا. كان المساء قد حل، وجدران القلعة ارتسمت في غبش الفجر بكل وضوح وحين انعطفا نحو سجن مامر تينوس توقف بترونيوس فجأة وقال :

ـ جنود ! لقد تأخرنا.

حاصر السجن صفان من الجند، كان خوذاتهم تلمع مطلية بلون الفجر الفضي. وأضحى وجه فينيكوس أبيض كالرخام فقال :

ـ هيا بنا

وبعد لحظـة كانا يقفـان أمام صـف الجنـد. كان بترونيوس يتمتع بذاكـرة حادة، فلم يقتصر معرفته على كبـار الضباط، بل على كثير من الجند كذلك، فعرف هناك آمر الكتيبة، فأشار له أن يأتي اليه وسأله :

ـ ما الذي يجري هنا أيها الزنجي؟ أنتم من يحرس السجن؟

ـ أجـل يا سيـدي النبيل، حرصا من القائد لكـي لا يطلق سراح من أحرقوا المدينة.

فسأله فينيكوس :

ـ الديكم أوامر بعدم السماح بدخول أحد؟

ـ لا يـا سيدي سـوف يسمح بزيـارة المساجين من قبـل معارفهم، وهكذا نقبض على عدد أكبر من المسيحيين.

ـ أدخلني إذن

وهمس في أذن بترونيوس ضاغطا على يده :

ـ تحدث مع أكتي، وفيما بعد سأذهب وأسال ما الذي قالته :

فأجابه بترونيوس

ـ تعال

وفي هـذه الحظة بـدأ الغنـاء تحت الأرض، ومن خلـف الجدران السميكـة. بـدأ اللحـن خفيفا في البدايّـة، ثم تع إلى متجـاوزا خفته، لتنصهـر أصوات الرجال، والنساء والأطفـال إلى صوت فرقة كوراليّة واحـدة. كان كل مـا في السجن يصدح عند الفجـر، دون أن تشوب

الاصوات مسحة من شكوى أو قنوط، بل كانت تتدفق مليئة بالسعادة والفخر.

حـدق الجنـود ببعضهم وقـد أصابهم الذهـول. في حين كان لون الشفق يملأ السماء والكون.

٥٢

شيئاً فشيئاً تصاعدت في كل أنحاء روما صيحة " هاتوا بالمسيحيين إلى أمــام الاســود ". في اللحظات الاولى لم يكــن ليخالج أحدا الشك في أن أولئــك هم الذين أحرقوا المدينة، لأن ما من أحد بينهم كان لديه الرغبــة في أن ينخــر الشك رأسه، فالتهمة بحد ذاتهــا، تعني مزيدا من الاستمتــا ع الشعبي، إضافــة إلى قناعة الشعب، بــأن غضب الالهة قد لعــب دورا كبــيراً في إحداث الحريق، ولولاها لما حصــل أصلا، الأمر الــذي دفع الجميع إلى تقديم القرابــين في المعابد. مجلس الشيوخ نفسه، تماشيــا مع نصيحة اسفار سيبيلا أقام الاحتفالات، والصلوات المفتوحة تبجيــلا لفولكانوس، و سيريس و بروسربينا. والنساء الماترونات قدمن القرابين للالهة يونــو وسرن في موكب مهيب إلى شاطى البحر، يغرفن مــن مائه لرشه على تمثــال الالهة. والنســوة المتزوجــات أقمن المآدب إكراما للالهة، ونظمن السهرات. روما بأسرها هبت للتطهر من آثامها، فقدمت الاضاحي، وسارعــت إلى استرضاء الخالدين. وفي الان نفسه في وسط الانقاض والرماد، كانت توضع المخططات لتنظيم الشوارع الجديدة العريضة. حتــى أن أساسات بعض الابنيّة الفخمة، والقصور، والمعابد قد أقيمت هنا وهناك.

وقبــل كل شــيء، وبالسرعة القصوى، أنشئــت المدرجات الخشبيّة العملاقة، و الميادــن المستقبليّة لتعذيب المسيحيــين. وبعد المشاورات التي أجريت في منزل تيبريوس عمد حالا إلى إصدار الاوامر لاستجلاب

الوحوش. وقـام تيفالنيوس بنهب مرابي كافة المـدن الأيطاليّة دون أن يستثنـي حتى صغريـات المدن منهـا. وبأوامر منه نظمـت فرق صيد ضخمـة انتشـرت في أفريقيـا، وفرض علـى كافة السـكان الاصليين المشاركة فيها.

واستجلبت من آسيا الفيلـة، والنمور، ومن بلاد النيل أحصنة الماء، والتماسيح، ومـن جبال الاطلس الاسود، ومن البلاد الايبريّة الذئاب، والدببـة، ومن إيرلاندا كلاب الدمـوم، وكلاب الصيد، ومن جرمانيا الجواميس الوحشيّـة وثيران البيسون العملاقة. ونظرا لأعداد المعتقلين الهائلـة، كان لا بد للالعـاب المرتقبة أن تفوق بما لا يقاس كل ما سبقها مـن العاب سيرك، فقرر القيصر أن يخمد ذكرى الحريق بالدم، ويطفئ به ظمأ روما.

فلم يشهد الزمن إذن إراقة دماء أكثر هولاً من ذلك الان.

قـام الشعـب الهائـج بمساعـدة الحرس الامبراطـوري، ورجال الأمن بالقبض على المسيحيين. لم يكن الأمـر عسيرا، لأن مجموعات المسيحيين كانت تقيم بين جموع الشعب في الحدائق، ويجهرون علنا بدينهم. كانوا إذا ما أحاط بهم الجند لاعتقالهم، جثوا راكعين، وراحوا يتهلـون مستسلمين للجنود دون مقاومـة. كان صبرهم يفاقم عليهم نقمـة الشعب الذي يجهل مصدر هذا الصبر، رأى فيه عنادا، وضلوعا في الذنب. فكان مـن الرعاع، مدفوعين بشدة الحقد، أن يقدموا على انتزاع المسيحيين من أيدي الجند، ويمزقوهم إربا.

النساء تجر مـن شعورهن إلى السجن، والأطفـال تسحل رؤوسهم فـوق الحجـارة. الاف مؤلفة مـن البشر كانوا يصرخـون في الشوارع

ليـل نهار باحثـين عن فرائسهم بـين الانقاض والرمـاد، وفي المداخن والسراديـب. وكانوا يتجمعون أمـام السجون يـؤدون شعائر الرقص الباخوسـي متحلقين حول النار ودنـان النبيذ، ويصغون باستمتاع كل مساء إلى جئير الوحوش الهادر الذي ملأ صداه كافة أرجاء المدينة.

اكتظـت السجـون بـالاف العبيـد، وما انفـك الرعـاع والجنود يحضـرون ضحاياهم الجديدة كل يوم. انتفـت الرأفة، والناس كأنما قد نسـوا الـكلام، فلم يعد يجيء علـى السنتهم الا عبـارة واحدة " القوا المسيحيـين أمام الاسود " كانت أيام حاميّة، مرعبة غريبة، وليال خانقه لم تعهد من قبل.

كأن الهـواء قـد عبق بالعربـدة والـدم، والشر. امتزجـت القسوة بالرغبـة في إراقة الدمـاء، فأقدم أتباع المسيح تلقائيـا إلى الموت، لا بل راحـوا يبحثون عنه بأنفسهم، ما دام قادتهم لم يحرموه عليهم. صاروا يقتصرون على التجمع خارج المدينة في المغاور، والسراديب على طول فيـا أبيا، وشيوخهم في حقول الكرمة في أرياف المدينة. لم يقبض على أحد من القادة بعد. وصار معلوما أن بومبونيا و فلافيوس و دوميتيلا ، فينيكوسـ من أتباع المسيح. أما القيصر الذي لم يثق بأن الرعاع سوف تنطلـي عليهم الاشاعة بأن المسيحيين هم من أحرقوا المدينة، كان يهمه الان إقنـاع الشعب بالدرجـة الاولى، فقد أجل عقوبة أولئك إلى الايام القادمـة. انتشر نبأ يقول بأن تدخل أكتي هـو الذي أنقذ أولئك. ولقد تكشف خطأ هذا الرأي. فحـين غادر بترونيوس فينيكوس، توجه من فوره إلى أكتي لتتشفع في إنقاذ ليفيا فقابلت طلبه بالدموع.

لكنهـا زارت ليفيـا في سجنها، وحملـت لها الثيـاب، والطعام، وأوصت بعدم معاملتها بخشونة.

أمـا بترونيوس فلم يغب عن باله أنه لولا تدخله السابق بشأن ليفيا، واقتراحه بإبعادها عن منـزل أولوس، لما كانت الفتاة الان في السجن. بعد مرور أيام كلم سينـكا، وآفرديميتيوس وكريسبينيلا، ليصل إلى بوبيا عـن طريقهم. ثم كلم كلا من تبربنوس وديودور وبيثاغوراس الجميلة، وباريس الذين لا يرفض لهم القيصر طلبا.

حتى أنه سعى لطلب العون من كريسوثميس عشيقة فاتينيوس الان. وكان لا يتوانى في كل مرة عن عرض الاموال. والهبات من كل نوع.

لكـن كل مساعيـه باءت بالفشـل. سينكا الـذي كان يجهل حتى مصيره بالذات، راح يوضح له أنه حتى لو لم يكن المسيحيون هم الذين أقدمـوا على حـرق روما، ينبغـي القضاء عليهـم، لأن مصلحة الدولة تقتضـي ذلك. ديودورس و تربنوس أخذا المـال دون أن يفعلا شيئاً. فاتينيوس أخـبر القيصر بأنهم حاولوا رشوته. وحـده اليتورروس الذي كان عـدوا للمسيحيـين في البدايّة، لكنه أشفق عليهـم الان، وعد بأن يتشجـع ويكلـم القيصر بشأن الفتـاة، لكنه لم يحقق شيئـاً لأن القيصر أجابه على النحو التالي :

ـ أتظن أن لي نفسـا أرخص من نفس بروتوس الذي لم يستثن حتى ابناءه فداء لروما؟

وبسماع بترونيوس هذه الاجابة علق قائلاً :

ـ ما دام قد شبه نفسه ببروتوس، فلا منجاة إذن.

لكنه أشفق على فينيكوس، وخشي أن يدفع بحياته من أجل الفتاة. قـال في نفسه " سيحاول إنقاذها بكل الوسائل، وعندما يخبو كل أمل لديه، سوف يلجأ إلى طعنها بسيفه ".

كان بترونيوس يدرك أن بوسع المرء أن ينهي حياته، مثلما بوسعه أن يحب أحدا.

في أثنـاء ذلـك فعـل فينيكوس كل مـا بوسعه لإنقاذ ليفيـا، فقصد هـو الاخر الاوغستيـان، وتوسل اليهم واحدا بعـد آخر. فعرض على تيفالنيوس عن طريـق فيتاليوس كل أملاكه في سيسيليـا، وكل شيء يريـده. لكـن تيفالنيوس لم يشـأ أن يسجل علـى نفسه واحـدة أمام فيتاليوس فرفض العرض. وأن يذهب إلى القيصر ويركـع أمام قدميه متضرعا، كان أمرا لا فائدة فيه.

ومع ذلك كان سيقدم عليه لولا أن سأله بترونيوس :

ـ ومـا الـذي ستفعله إذا ما رفض، أو هزأ منـك، أو لجأ إلى تهديدك بحقارة؟

ارتسمت على وجه فينيكوس ملامح غضب متوجع، وسمع صرير أسنانه.

أردف بترونيوس قائلاً :

ـ لا أنصحـك بذلك. عليـك أن تنسى كل محاولـة لإنقاذها. لكن فينيكوس كبح جماح نفسه، ومسح عرقه البارد عن جبينه وقال :

ـ لا ! لا ! أنا مسيحي !

ـ تجنب ذلـك. لك الحق أن تغامر بنفسك، لكن بها لا. لا تنسى ما الذي حصل لابنة سيانوس قبل أن تموت.

لم يكـن كلامـه صادقا كل الصـدق، لأن فينيكوس أهم عنده من

ليفيـا. لكنه أدرك أن لا شيء يمكن أن يردعه عـن القيام بهذه المغامرة، الا بإظهـار مدى خطورتها على حياة ليفيـا. وكان محقا في ذلك، لأن ظهور فينيكوس في البالاتينوس كان منتظرا من قبل الجميع هناك، وقد اتخذت كافة الاجراءات لاعتقاله.

لكـن أوجـاع فينيكوس قد تخطت كل حد يتحملـه إنسان. فمنذ أن أودعـت ليفيـا السجن، وصـارت حياتها مهـددة، تضاعف حبه لهـا، وأحاطها في نفسه، باحترام دينـي حقيقي، كمخلوق من خارج الأرض.

والان، حين خطر له أنه إذا ما افتقد هذا المخلوق القدسي، المعبود، وأن ليفيا، قد تتعرض لأنـواع العذاب، الاقسى من الموت، تجمد الدم في عروقه، وتفجعت روحه، واضطربت أحاسيسه. أحيانا كان يشعر بأن نارا حية تملأ جمجمته، وتلهب رأسه. لم يعد يفهم ما الذي يحصل، لم يفهم كيـف أن المسيح، الاله الرحوم، لا يأتـي لمساعدته، وكيف لا تتقوض جدران البالاتينوس وتنمسح عن وجه الأرض، ومعها نيرون، والاوغستيان، والحرس الامبراطـوري، والمدينة الشريرة بكل ما فيها. وشعـر أن كل ما يجري محض أحلام. لكـن جئير الوحوش في الميادين يقول إنها حقيقة يعززها صراخ الشعب، وامتلاء السجون.

تزعزع إيمانه بالمسيح، وكان شعورا أوقعه في أوجاع وعذابات أكثر قسوة.

في أثناء ذلك كرر بترونيوس ما قاله :

ـ لا تنس ما الذي حصل لابنة سيانوس قبل أن تموت.

٥٣

أفلســت كافة مساعيه. بلغ به الأمر أن يتنازل بطلب المساعدة حتى من معاتيــق بوبيا والقيصــر وأرقائهم، ودفع لهم الكثــير لقاء وعودهم الفارغــة، وغمرهم بهباتــه السخيّة، مقابــل الفوز بمساعيهــم الطيبة. واتصل بــزوج أوغستــا الاول روفينوس كريسبنوســ، ووعده بتقديم قصــره في الأنتيوم هديّة لابنه البكر من بوبيا، فانتزع منه رسالة موجهة إلى القيصــر لكنها فاقمت من غضب نــيرون لشدة كرهه لابن زوجته. فأرســل رسالة نقلها فارس خاص إلى هيسبانيا حيث يقيم أوتو الزوج الثاني لبوبيا، ووعده بكل مــا يملك من ثروة، وحتى بالتضحيّة بنفسه، إلى أن اكتشــف أخيرا أن الجميع يتلاعبون به. ولو أنه ادعى أن اعتقال ليفيا لا يهمه كثيرا، لكان تمكن من تحريرها بسهولة أكبر.

وتنبه إلى الأمر بترونيوســ أيضاً. لكن الايام كانت تمضي يوما وراء يــوم في أثناء ذلــك. كانت المدرجــات الخشبيّة قــد أقيمت، ووزعت بطاقــات الدخــول إلى عروض مــا قبل الظهيرة. لكن هــذه الالعاب " الصباحيّــة " بالنظــر إلى الاعداد الهائلة للضحايــا، كان يمكن أن تدوم لأيام، وأسابيع، وربما لأشهر. ضاقت السجون والاماكن بالمسيحيين، فلــم يعرف أين يحشرونهم. عمت الحمى بين المعتقلين، وكثر الاموات فسارعوا إلى دفنهم في مقابر جماعيّة خشيّة أن تعم الاوبئة أنحاء المدينة.

طارت الانباء وقرعت سمع فينيكوس، فأطفأت كل جذوة من أمل في نفسه. فات الاوان، وبدأت العاب السيرك، ولم يعد بالامكان متابعة

مصير ليفيا الا في الذهاب إلى الميدان، بصرف النظر عن المكان والزمان اللذيـن سيحددان مصير الفتاة. دار فينيكوس على كافة الميادين، وأخذ يرشو الحراس، وسائسي الوحوش الذين ما كان بوسعهم الا أن يرفضوا طلباتـه التعجيزيّـة. فقـاده تفكـيره إلى التنازل عن مثل هـذه الطلبات المستحيلـة، وتأمين ميتة أهون للفتاة. لكنه مـا إن تمعن في الأمر، حتى أحس بجمرة من نار تلهب دماغه.

لم يرغـب في التخلي عنها، فعقد العزم على الموت سويا معها. كان يشعـر أن ما به من وجع سوف يتلـف حياته، قبل أن يبلغ تلك اللحظة المصيريّـة. لم يعد لديه من حيلة. فصلى للمسيح آخر رجاء له. لن تنجو ليفيا الا بمعجزة، فراح يصلي لحصول تلك المعجزة، وهو يضرب رأسه ببلاط الأرضيّة.

لكنـه كان يملك بقيّة من وعي مكنتـه أن يرى أن صلاة بطرس أهم مـن صلاته. بطرس هو من وعده بأن ليفيا لـه. بطرس هو من عمده. بطرس هو من فعل المعجزات، فليهرع إذن لنجدته.

مضـت ليلة حتى عثر عليه. إنه المسيحي الوحيد المتبقي، فكان عليه إذن أن يبحث عنه بسريّة فائقة، كي لا يفضح مكانه. ذهب إلى فوسور الذي قاده إلى خـارج المدينة، حتى وصلا إلى حقل كرمة. كان أول ما طـرق سمع فينيكوس صلوات متوجعة حزينة تمزق القلب : " رحماك يا مسيحنا ".

كان بطرس هناك يتقدم المصلين، راكعـا أمام صليب خشبي معلق على جدار الكوخ. عرفه فينيكوس من بعيد من شعره الناصع البياض، فرفع له يده. أول ما دار في ذهن الشاب أن يخترق الاتباع، ويركع أمام الحواريّ، صارخا :

ساعدني. وردد بتنهيدة عميقة، ابتهالة المصلين " رحماك يا مسيحنا ". لكن صرخة امرأة بتت الابتهال. فنهض فينيكوس محدقا أمامه. كان الكوخ منارا بضوء فضي، فشاهد دموع المصلين تنهمر من عيونهم الرانيّة إلى الصليب، وسمعت صرخات أخرى هنا وهناك، أما في الخارج فقد سمع صفير من يقوم بمهمة الحراسة. فنهض بطرس واقفا، والتفت نحو المصلين قائلاً:

ـ يا ابنائي، توجهوا بقلوبكم إلى المخلّص، وامنحوه دموعكم. ثم صمت.

وبغته علا صوت نسائي مشحون باللوعه والالم :

ـ أنا أرمل، وفقدت ابني الوحيد، أعده الي يا سيدي !

وخيم سكون لحظي كان بطرس الواقف قبالة الجمع الراكع، تجسيدا للوهن الانساني بما هو عليه من شيخوخة، وعدم قدرة على التحمل. تعالت شكوى أخرى :

ـ الجلادون الحقوا العار ببناتي، والمسيح احتمل ذلك !

وشكوى ثالثة :

ـ بقيت وحيدة مع أطفالي، فإن وضعوني على المخلعة، من الذي يطعمهم ويسقيهم؟

وشكوى رابعة:

ـ لقد أخذوا لينوس ووضعوه على المخلعة !

وشكوى خامسة :

- إن عدنا إلى بيوتنا، قبض علينا الجنود. لا ندري أين سنختبئ.

- ويلنا ! من سيحمينا؟

وهكذا تعالت الشكوى إثر الاخرى في سكون الليل. أطبق الصياد العجوز عينيه ، شامخا برأسه فوق الخوف والوجع الانساني. ساد صمت آخر، وسمع صفير الحراس الخفيف وراء الكوخ.

هـم فينيكوس مجـدّداً للوصول عبر الجمـوع إلى الحواريّ، وطلب المساعـدة. لكنه عجز عن الـكلام، وكأن الأرض قـد انشقت أمامه، فانعقد لسانه و لم يستطع الحراك. ما الذي سيحصل لو اعترف الحواريّ بعجـزه وأقر بأن سلطان القيصـر أعظم من سلطـان عيسى الناصريّ؟ فانتصب شعر رأسه للفكرة، وشعر أن الذي سيهوي في الشق الأرضي الماثـل أمامـه، ليس أمله الاخـير المتبقي فحسب، بل هـو نفسه، ومعه ليفيـا، وحبه للمسيح وإيمانه به، وكل مبرر لـه في الحياة، ولن يبقى الا الموت، والظلمة اللانهائيّة.

لكـن بطرس في هذه الاثناء قد انبرى يتحـدث. بدأ حديثة بصوت منخفض حتى تعذر سماعه:

- ابنائي ! لقـد رأيتهم وهـم يصلبون السيد المسيح. سمعت طرقات المطرقـة، ورأيت كيف رفعوا الصليب لكي يشهد جموع الناس موت ابن الانسان.

.... " ورأيـت كيف طعنوا خاصرته، وكيف مات. وحين غادرت الصليـب عائدا إلى البيت، شكوت من شدة المي مثلكم الان : " ويلي،

ويلـي، يا سيدي، أنت اله ! كيف تحتمل هـذا، وكيف مت، وأحزنت قلوبنا نحن الذين آمنا أن ملكوتك آت لا محاله؟".

.... أمـا سيدنا، وملكنـا، فقام في اليوم الثالث مـن موته، وسكن بيننا، قبل أن يصعد ممجدا إلى ملكوته ".

أمـا نحن، المدركـين إحباطنـا وانهزامنا، فقد شددنـا على قلوبنا، وقوينا عزائمنا، وصرنا منذ تلك اللحظة أتباعا له.

ثـم التفت ناحيّـة صـدور الشكـوى الاولى، وبـدأ الان يتحدث بصوت عال:

ـ لم تشكـون؟ إذا كان الرب نفسـه قد سلم نفسه للعذاب والموت. آه، يـا ضعيفـي الايمـان ! لم تفهمـوا إذن تعاليمه؟ هـل وعدكم بهذه الحيـاة؟ ها هـو يأتي اليكـم ويخاطبكم قائـلاً " تعالـوا الي جميعا ". يريد أن يرفعكم اليه، وأنتـم تتشبثون بالأرض بأياديكم، وتصرخون " سيـدي أنقذنا " أنا، الذي لست سوى ذرة من الغبار أمام السيد، أقف أمامكـم وأخاطبكم كوريث له في الأرض: "ليس الموت ما ينتظركم، بل الحياة، ليس العـذاب، بل المسرة المطلقة، ليس الدموع والتنهدات، بـل الغناء والافراح، ليست العبوديّة، بل السيـادة الملكيّة ! أنا حواري الرب، أقول لك أيتها الارمل : ولدك لا يموت، لكنه يولد في مجد الحياة الابديّـة، وأنـت تتحدين معه ! وأنت أيهـا الاب الذي أهان الجلادون بناتك، أعدك بأنك سلتقاهن، وهن أكثر بياضا من الزنابق.

أمـا أنتن، أيتهـا الامهات اللواتـي أبعدوكن عـن ابنائكن وفقدتن أزواجكن، أنتن اللواتـي تشكين أنكن ستشهدن موت أحبائكن، أنتن المسكينـات الواهنات،الجزعات اللواتي عليكـن أن تمتن باسم المسيح

فأقـول لكـن : لقد استيقظتن مـن الحلم وصرتن في صحـوة السعادة، وانتقلتن مـن الليل إلى فجر السيد المسيح. لتسقـط عن أعينكن، باسم المسيح، الغشاوة، ولتضطرم قلوبكن لهبا.

ورفع يـده كأنما يعطي أمرا لهؤلاء الذين راحـوا يشعرون بأن طاقة جديـدة بدأت تسـري في عروقهـم، وتخلصهم من الوهـن والعجز، مانحة أوصالهم قوة عملاقة انتشلت نفوسهم من الغبار والالم.

ورددت وراءه بعض الاصوات :

ـ آمين !

ائتلقت عينا الحواريّ، وشعـت منهما القوة التسبيحيّة، والقداسة. انحنت أمامه الرؤوس، وحين نطقت الافواه "آمين " استأنف يقول :

ـ ازرعـوا دامعـين فتحصدوا مبتهجين ! لم خوفكـم من قوة الشر؟ السيد المسيح يبسـط سلطانه ويسود علـى الأرض،وعلى روما وعلى أسـوار المـدن، ويسكـن في قلوبكم. الحجـارة سترطـب بالدموع، والجبـين سيتعفر بالدم، والحفر ستمتلئ بموتاكم، لكنني أؤكد لكم أنكم الفائـزون. سيأتي السيد ليكتسح مدينة الشر، والجور والازدراء، وأنتم فيالقـه وجنوده، ولأنه هو من خلص العالم بالامه ودمه، إنما يريد منكم أن تسهمـوا بالامكم ودمائكم في تخليص هذه المدينة الفاجرة...وإنه يوصيكم بهذا على لساني !

ومـد ذراعه ناظرا في العـلاء، فتوقفت قلوب أولئـك ظنا منهم أن الحواريّ قد رأى شيئاً، لا يتاح لعيونهم أن تراه. ولقد تغير وجه بطرس حقـا، فشع فيـه الضياء، وظل لفترة صامتا، وكأنـه بات أبكم من شدة ابتهاجه، لكنه سرعان ما استأنف حديثه قائلاً :

ـ أنت هنا يا سيدي، وتدلني على دروبك !... كيف يا سيدي المسيح؟... إذن ليس في أورشليم، بل ستقيم عرشك في مدينة الشيطان هذه؟ هنا من الدموع والدم تريد أن تقيم كنيستك؟ هنا حيث ما زال يحكم نيرون، فلينشأ ملكوتك إلى أبد الابدين؟ أجل، يا سيدي ! إنك تأمر هؤلاء المروعين بأن يؤسسوا بعظامهم مبدأ جديدا يقوم عليه العالم، ويحكم الناس على الأرض؟ وها أنت تمنح الضعفاء قوتك، ليقووا، ويشتد بأسهم، وتأمر بأن أرعى قطيعك حتى نهايّة الازمنة... بوركت أحكامك، يا من تدعونا إلى النصر. المجد لله ! المجد لله.

المروعون نهضوا، والذين مستهم الحيرة، امتلأت قلوبهم بدفقة جديدة من الايمان، وعلت صيحة واحدة " المجد لله ! " وعاضدتها صيحة أخرى " المجد للمسيح ! ". وحل الصمت على إثر ذلك، وكانت البروق قد أضاءت داخل الكوخ، والوجوه التي كستها الحماسة بالشحوب.

واصل بطرس صلاته طويلاً مستغرقا في رؤياه، حتى رجع أخيرا إلى وعيه،واستدار بوجهه الملهم المشع نحو الجمع، وقال:

ـ والان، وقد قهر السيد ما في نفوسكم من حيرة وقنوط، وغادر، فاسعوا إلى التغلب على بأسكم، باسمه.

ورغم أنه أيقن أنهم قد استجابوا وتجاوزوا حالة اليأس والتردد، وأدرك ما تفضي اليه دموعهم، وما يغلي في عروقهم من دماء، فقد ارتعش صوته من شدة الانفعال، حين ودعهم بإشارة الصليب قائلاً :

ـ والان أباركِكم، يا ابنائي، على ما تعانونه من عذاب،وموت، حتى تحظوا بالحياة الابديّة.

لكنهـم أحاطوه متضرعـين : " نحن جاهـزون الان، لكن احرص أنت على حياتك، لأنك الوريـث الذي سلمه المسيح صولجان القيادة ". تشبثـوا بثيابـه، فيمـا راح يضع يده على رؤوسهـم، وقام بوداعهم واحدا واحدا كأب يغادر ابناءه في رحلة بعيدة.

بـدؤوا يخرجون من الكوخ، مسرعين إلى منازلهم، لكي يغادروها من هناك إلى السجن، ثم إلى الميادين. انقطع تفكيرهم بالأرض، وحلقت أرواحهـم متجهة نحو الحقيقة الابديّة، فساروا مبتهجين حالمين، لكي يواجهوا بكل ما يملكونه من قوة بطش " الوحش " وجوره.

أمـا الحواريّ فقد أحاط به خادمه نيريوس، وقاده عبر مسلك خفي في الكـروم، متجها بـه إلى المنزل. وتبعهمـا فينيكوس حتى وصلا إلى كوخ نيريوس، وهناك القى بنفسه بين قدميه. عرفه بطرس فسأله :

ـ ما الذي تريده يا بني؟

لكن فينيكوس بعد كل الـذي سمعه في الكوخ قبل قليل، لم يجرؤ على الكلام، واكتفى بأن ضغط بجبينه على قدميه، متوسلا منه الرأفة، بصمت.

لكن بطرس قال له :

ـ أعـرف أنهم خطفوا منك الفتاة التي تحبهـا. صل لأجلها. فتمتم فينيكوس ضاغطا بقوة أشد على قدم الحواريّ :

ـ سيدي !، سيدي أنا مجرد دودة بائسة، أما أنت فقد عرفت المسيح، فتضرع أنت اليه، وكل مه بشأنها.

كان مــن وجعه، يرتعش كورقة شجرة، ضاربا الأرض بجبينه، لأنه يــدرك مدى القوة التي يتمتع بها الحواريّ، فــلا أحد سواه يستطيع أن يعيد اليه ليفيا.

لامســس هذا الالم مشاعــر بطرس. تذكر توســلات ليفيا عند قدميه طلبا للرأفة، بعدما تلقت تعنيفا شديدا من قبل كريسبوس، وتذكر كيف أنهضها، وهدأ من روعها، وواساها.

فما كان منه الان الا أن أنهض فينيكوس مواسيا :

ـ بنــي ! سأصلي أنا لأجلها، لكن لا تنس مــا قلته لأولئك الحائرين كيــف أن المسيح نفسه قد عانى الموت فوق الصليب، ولا تنس أنه بعد هذه الحياة الفانيّة على الأرض ستأتي الحياة الابديّة.

فأجاب فينيكوس،وهو يجهش متلقفا جرعة من هواء :

ـ أعلــم ! لكن، كما تــرى يا سيدي، لا أحتمــل ! إن كان لا بد من التضحيّــة بالدم، فاطلب من المسيــح أن يأخذ حياتي أنا... أنا جندي. فليضاعف علي العذاب الذي ستتلقاه ليفيا، مرتين، وثلاثا، سأحتمله، لكن فلينقذها !

فهي ما زالت طفلة يــا سيدي. والسيد أقوى من القيصر، أقوى من القيصر يا سيدي ! حتى أنت أحببتها، وباركتنا. إنها طفلة بريئة !

وانحنى مجدّداً، ملصقا وجهه بركبتي الحواريّ، وكرر قائلاً :

ـ أنــت عرفت المسيح، يا سيدي، أنت عرفته. سوف يصغي اليك ! كل مه من أجلها

أغمض بطرس عينيه، وبدأ يصلي بضراعة.

البروق الصيفيّة أضاءت السماء من جديد. ولمح فينيكوس على ضوئها شفتي الحواريّ، مترقبا نتيجة الحكم هناك. الحياة أو الموت. حتى بادر الحواريّ فينيكوس بالسؤال :

- فينيكوس، أنت مؤمن؟

- وهل كنت سأجئ حتى هنا لو لم أكن كذلك؟

- إثبت على إيمانك حتى النهايّة، فالايمان يهد الجبال. حتى لو رأيت الفتاة تحت سياط الجلاد، أو بين أنياب الاسد، فاثبت على إيمانك بأن المسيح سوف يحررها. كن مؤمنا، وصل لأجلها، وسأصلي معك.

فرفع رأسه نحو السماء وقال بصوت مرتفع :

- يا سيدي المسيح، يا رؤوف، الطف بقلبي المعذب، وداوه بالعزاء، سيدي الرحوم، هد ئ من شدة العاصفة لتناسب قوة صوف الحمل الصغير ! يا سيدي الرحوم، الذي طلبت من أبيك أن يبعد عنك ذلك القدح المر، أبعده الان عن شفتي خادمك هذا. آمين !

وبسط فينيكوس يديه نحو النجوم وأضاف قائلاً :

- آه يا مسيحي، أنالك، فاقبلني عوضا عنها.

وانشق الفجر في قاع السماء الشرقي.

٥٤

بعـد أن ودع فينيكوس الحواريّ، قصد السجن بقلب مفعم بآمال جديـدة ، كان جانب مـا في قاع روحه ينتحب قنوطـا وجزعا، لكنه كتـم في نفسه مثل هـذه الاصـوات. كان موقنا أن مـن المستحيل الا يسفـر تدخل وريث الله على الأرض، لمـا لصلاته من عظمة وسلطان، عـن نتيجـة. وكان شديد الحرص علـى التشبث بالامـل، والنأي عن الشكـوك. " سأثق برحمته حتى لـو رأيتها بين فكي الاسد " ارتعشت روحه، للفكرة التي ملأته بالايمان، فابتردت قطرات العرق فوق جبينه.

بـات قلبه الان ينبضـ بالصلاة. وبدأ يلمسـ أن الايمان يهد الجبال حقا، بعدئذ شملته قوة غريبة شدت من أزره، وقوت من عزيمته، كمال لم يحصل معه من قبل. شعر أنه يستطيع، بهذه القوة، أن ينجز أمورا لم يكن ليجرؤ البارحة على القيام بها.

انتفى شعوره المنغص بأن ثمة خطبا يوشك على الحدوث.

وكان كلمـا تصاعـد في روحـه نحيب القنوط، والجـزع، مر أمام عينيه وجـه الحواريّ المرفوع نحو السماء وهـو يصلي. يقول لنفسه : " لا ! لن يرفض المسيح دعاء أول تلاميذه، وراعي قطيعه ! المسيح لن يرفض. ولذلك فلن أدع أنا مجالا في نفسي للشك ".

وأسرع إلى السجن، كمن يحمل نبأ سعيدا.

لكنه فوجئ هناك بما لم يكن ينتظر.

كان كل أفـراد الحرس يعرفونه، لكنهم لم يفتحـوا سلسلة الحاجز أمامه.

ـ عفـوا أيهـا القائد النبيـل، لكننا تلقينـا أمرا بعـدم السماح لأحد بالدخول اليوم.

فردد فينيكوس بشحوب :

ـ أمرا؟

فرمقه الجندي بأسف وأجاب :

ـ أجـل يا سيـدي، أمر من القيصـر. السجن ملـيء بالمرضى، وهم يخافون من انتقال العدوى إلى الزوار، ومن خلالهم إلى المدينة بأسرها.

ـ لكنك قلت أن الأمر صالح لهذا اليوم فقط.

ـ سنبدّل الحرس عند الظهيرة.

سكـت فينيكوس، وأنزل الخوذة عـن رأسه، لشعـوره الآن بأنها مسبوكة من الرصاص.

تقدم منه الجندي، وكلمه بصوت خفيض :

ـ اطمئن يا سيدي، إنها في حمايّة الحراس، وأرسوس.

وامتشق سيفه الغالي الطويل، وبطرفه عين رسم سمكة فوق البلاط.

رمقه فينيكوس بحدة :

ـ هل أنت من الحرس الامبراطوري؟

ـ إلى أن أصل إلى هناك

وأشار بيده نحو السجن.

ـ أنا أيضاً أعبد المسيح.

ـ تمجّد اسمه ! أعلم يا سيدي. لا أستطيع إدخالك إلى السجن، ولكن إن تكتب رسالة سأوصلها إلى الحراس.

ـ شكرا يا أخي.

وانصرف الجندي ضاغطا قبضته.

كانت شمس الصباح قد علت جدران السجن، وكما كان ضوءها يشتد، كانت آمال فينيكوس تتعاظم. هذا الجندي المسيحي، بالنسبة اليه برهانا آخر على عظمة المسيح. توقف متوجها بوجهه نحو الغيوم الورديّة المعلقة فوق معبد جوبيتر وقال :

ـ لم أرها اليوم يا سيدي، لكني أومن برأفتك.

كان بانتظاره في المنزل، بترونيوس، الذي كعادته قد" حول الليل إلى نهار " وعاد لتوه، واستحم، وعطر جسمه بالزيت، فبادرة قائلاً.

ـ لدي أنباء جديدة لك. كنت عند توليوس، وكان هناك القيصر. لا أدري كيف خطر للأوغستا أن تجلب معها روفيوس الصغيرة. لعلها أرادت أن تلين بجمالها قلب القيصر. لكن الطفلة، للأسف، غلبها

النـــوم في أثناء قراءه الشعر، كما حصل مرة لغاسبسيانوس. حين لاحظ القيصـــر ذلك رماها بالقدح، والحق بهـــا جرحا بليغا، أغمي إثرها على بوبيا، وسمع الجميع القيصر وهو يصرخ " طفح بي الكيل من ابنة الزانيّة هذه " وأنت تعلم أن هذا يكافئ الموت.

فأجابه فينيكوس قائلاً :

هذه عاقبتها أنزلت عليها من عند الله. لكن لماذا تقول لي ذلك؟

لأن نقمـــة بوبيا السبب في ملاحقتك مع ليفيـــا. والان وقد حصل لها ما حصل، فقد تكف عن نقمتها. سنلتقي مساء اليوم، وسأكلمها.

ـ شكرا. هذا نبأ سار.

ـ استحم، واسترح. شفتاك زرقاوان، وكأنك لست أنت، بل ظلك.

لكن فينيكوس سأله :

ـ بعد عشرة أيام. سيبدؤون من سجون أخرى. كلما كان لدينا متسع مـــن الوقت، أفضل لنـــا. لم نفقد كل شيء بعد. لكن بترونيوس نفسه لم يكـــن واثقا فيما نطق به، فهـــو يدرك جيدا أنه مـــا دام القيصر قد واجه طلـــب اليتورروس برد ه المفحم مشبها نفسه ببروتوس، فلا منجاة لليفيا إذن. ولقـــد سمع عن طريق سينيسيو أن القيصـــر، وتيفالنيوس قد عزما على انتقاء أجمل العذراوات المسيحيّات لهما ولأصدقائهما، وليفتض وهن قبل الدفع بهن إلى التعذيب والموت، أما البقيّة فيسلمونهن للجنود والوحوش في يوم الالعاب.

كان يعـــرف أن فينيكوس لا يرغب في الحيـــاة بعد ليفيا، فتعمد بث

روح الامل في قلب الشاب لسببين اثنين أولهما لأنه يشفق عليه، وثانيهما لأن من المهم له كمشتغل بالجمال، أن يموت فينيكوس ميتة شاب جميل، لا بوجه كدر معذب.

- هذا ما سأقوله فيما بعد للأوغستا على وجه التقريب : " أنقذي ليفيا وسأنقذ لك روفينوس " سأفكر بهذا الحل فعلا. لأن عبارة واحدة في لحظة مناسبة لدى القيصر قد تنقذ أحدا، أو تؤدي بحياته وفي أسوأ الاحوال لكسب الوقت.

- شكرا.

- ستشكرني إن أكلت، وخلدت إلى النوم. " أوديسيوس " في أشد حالات الخطر، لم يحجم عن الطعام والنوم. لا بد أنك قد أمضيت ليلتك ساهرا في السجن.

- لا. الان حتى نويت الذهاب إلى السجن، لكن الاوامر تمنعهم من إدخال أحد. حبذا لو تعرف إذا ما كانت هذه الاوامر ساريّة على هذا اليوم فقط، أم حتى البدء بالالعاب.

- سأعرف ذلك هذه الليلة، وسأخبرك به صباحا. أما الان فسأذهب إلى النوم، حتى لو نزل هيليوس بلوعته إلى العالم السفلي، فافعل مثلي.

انفصلا، لكن فينيكوس توجه إلى المكتبة، وكتب رسالة لليفيا. حين انتهى منها، أخذها بنفسه وسلمها للجندي المسيحي، الذي أوصلها بدوره إلى السجن، وعاد من هناك حاملا من ليفيا تحياتها، ووعده أن يحمل اليه الرد من الفتاة قبل مضي هذا اليوم.

لكن فينيكوس لم يشأ العودة إلى البيت، بل جلس هنالك على

حجر منتظرا الرد. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء. بدأت أصوات الباعة تروج لبضائعها، والمنجمون يقدمون خدماتهم للمارة، والمواطنون يحثون الخطا للوصول إلى الساحة لسماع الخطباء، أو لتناقل ما استجد من أنباء. لكن حين اشتدت حرارة الشمس، انسحبت العناكب إلى داخل الكنيسة، وخرجت الحمائم طائرة منها، لترفرف في ضوء الشمس بأجنحتها البيضاء تحت قبة السماء الزرقاء.

شعر فينيكوس بالنعاس. فكانت رتابة خطا الجنود وما يملأ الجو من أصوات هنا وهناك قد جعلته يكبو، لكنه كان يرفع رأسه بين الفينة والفينة، فيلتفت برأسه نحو السجن، ثم يعود ويوكئها حافة الصخرة، ويطلق شهقة عميقة أشبه بطفل نائم بعد بكاء طويل.

وسرعان ما تلاحقت أحلامه. حلم بأنه يأخذ ليفيا بين ذراعيه ويمضي بها عبر حقل كرمة، وقد تقدمته بومبونيا غراسينا تضيء دربهما بشعلة في يدها. ثم سمع صوتا قادما من البعيد يهتف له " استدر ! " لعلّه كان صوت بترونيوس.

لكنه لم يأبه للنداء، وتابع سيره إثر بومبونيا، حتى بلغ كوخا توسطه الحواريّ بطرس : قدم له ليفيا قائلاً : " لقد جئنا من الميدان يا سيدي، لكني لا أجرؤ على إيقاظها، فأيقظها أنت "، فقال له بطرس : " سيأتي المسيح بنفسه ليوقظها ".

واختلطت الصور أمامه. رأى في حلمه نيرون و بوبيا وقد احتضنت روفيوس الصغير يمسد بترونيوس جبينه. ورأى تيفالنيوس وهو يرش الرماد فوق المائدة العارمة بالاطعمة الفاخرة التي كان يلتهمها فيتليوس، وحوله العديد من الاوغستيان. كان هو من بينهم إلى جانب ليفيا، لكن أسودا كانت تتمشى مدماة الانياب بين الموائد. طلبت منه ليفيا

أن يقودها إلى الخارج، لكنه عجز عن الحركة. ثم تشعبت أحلامه، واستحالت صورها إلى فوضى وطلاسم حتى أعتمت تماماً.

لم يفق من نومه الا بعد اشتداد حرارة الشمس، وسماعه أصواتا من أمكنة مجاورة. فرك عينيه. كانت جموع من الشعب تحتشد في الشارع، وقد راح خيالان يفرقانها بقضيبين قصبيين طويلين، ليفسحا الطريق أمام هودج فاخر، قام بحمله أربعة من العبيد المصريين الضخام.

جلس في الهودج رجل بملابس بيضاء، تعذر رؤيّة وجهه، لوجود لفافة أمام عينيه كان يقرؤها باستغراق.

- أوسعوا الطريق أمام الاوغستيان النبيل صاح الخيالان.

كان الشارع مكتظا بالناس، فاضطر الهودج على التوقف لحظة. أزاح الاوغستيان اللفافة بفراغ صبر، وأخرج رأسه صائحا :

- فرقوا هؤلاء المتسكعين ! هيا !

لكنه لمح فينيكوس وهو يرجع برأسه إلى الداخل، فوضع اللفافة أمام عينيه.

مسح فينيكوس جبينه وقد ظن أنه ما زال في حلم.

كان شيلون في الهودج

في أثناء ذلك كان الخيالان قد نجحا في إفساح الطريق، فاستأنف المصريون سيرهم. فهم الشاب النبيل أمورا كثيرة لم يكن يفهمها، فتقدم من النقالة، محييا :

ـ لك التحيّة، يا شيلون !

فأجاب شيلون بكل جدارة وافتخار، وبوجه هادئ مطمئن :

ـ لـك التحيّة ! أيها الشاب ! لا تمهلني لأنني في عجل من أمري إلى صديقي تيفالنيوس

أمسك فينيكوس بحافة الهودج ومال إلى داخلها ليقول :

ـ أنت من وشى بليفيا !

فصاح شيلون جزعا :

ـ أيتها الالهة !

لكن سحنة فينيكوس لم تكن تعبر عن تهديد، فسرعان ما استرجع شيلـون هدوءه، بعد أن تذكر أنـه في حمايّة تيفالنيوس لا بل في حمايّة القيصر الذي يرتعد أمامه الجميع.

لا سيمـا وأن مرافقيـه رجال أشداء أمـام فينيكوس الاعزل المعذب الوجـه، المثقـل بـالالام. قوت هـذه الفكرة مـن عزيمتـه، فحدق في فينيكوس بنظرة لئيمة، ووشوسه قائلاً :

ـ أما أنت فقد جلدتني حين كدت أموت جوعا.

هنـا صمت الاثنان للحظة، حتى بادر فينيكوس إلى الكلام بصوت أجش :

ـ لقد أذيتك يا شيلون...

رفع الإغريقــي رأسه، وراح يفرقع بأصابعـه، وهذا في روما دلالة على الازدراء والاحتقار وقال بصوت مرتفع حتى يسمعه الجميع :

ـ إن كنــت تريد مني شيئاً، يا صديقي فاقصدني صباحا إلى منزلي في اسكويلنوس لأنني أستقبل ضيوفي بعد حمامي الصباحي.

وأشــار للعبيد المصريــين أن يتابعــوا المسير، فراح الخيــالان يفرقان الجموع صائحين :

أوسعوا الطريق لهودج شيلون شيلونيدس النبيل.

أوسعوها، أوسعوها !

٥٥

سارعت ليفيا إلى كتابة تودع فيها فينيكوس إلى الابد. كانت تدرك أن لا أحد بمقدوره أن يدخل إلى السجن، وأن فينيكوس ليس بوسعه أن يراها الا في الميدان. رجته أن يكون في الميدان حين يأتيها الدور لأنها راغبة في رؤيته مرة أخيرة في حياتها. لم يكن في رسالتها أثر للخوف. كتبت أنها والاخرين في شوق شديد للميادين، لأنهم، عندئذ، يتحررون من السجن، وأملت أن يأتي كل من بومبونيا و أولوس إلى روما، ليحضروا الالعاب. كانت كل كلمة في الرسالة تعبيرا عن اللهفة والهيام والانقطاع التام عن الحياة، وعلى هذا المنوال أمضوا جميعهم فترة الاعتقال في السجون، وأن جميع آمالهم سوف تتحقق بعد الموت.

" إن كان الان، أو بعد موتي، المسيح سوف يحررني، وهو الذي وعدك بي عن طريق بطرس، فأنالك إذن ". وتوسلت إلى فينيكوس الا يشفق عليها، والا يدع الالام تقوى عليه.

قرأ الرسالة بقلب مدمى، و لم يصدق أن ليفيا ستمزقها الوحوش، دون أن يرأف بها المسيح فملأه هذا الشعور بالامل والثقة. ذهب إلى البيت، بعد أن كتب لها أنه سينتظرها كل يوم عند جدران التليانوم، حتى يأتي المسيح، ويحطم هذه الجدران ويعيدها اليه. وجعلها تؤمن بأن المسيح سيرجعها اليه حتى لو وصلت إلى السيرك، وأن الحواريّ الكبير سيتضرع من أجل ذلك، وأن لحظة الخلاص قريبة لا محالة.

ووعده الجندي أنه سيسلمها الرسالة في اليوم التالي. لكنه حين عاد إلى السجن في اليوم التالي، أسرع اليه الجندي خارجا من صفه ليقول له :

ـ اسمعنـــي يا سيدي ! المسيح الذي سعـى إلى خدمتك، أشار اليك برأفته. مساء اليوم أتى معاتيـق القيصر، وتيفالنيوس لينتقوا العذراوات المسيحيـات اللواتي سيلحقون بهن العار، وكانت محبوبتك من بينهن، لكـن السيد المسيـح ابتلاها بالحمى فظلت تهذي طـوال الليل. تبارك اســم المسيح، فالمرض الذي أنقذها من وصمــة العار، يمكن أن ينقذها من الموت كذلك.

تشبـث فينيكوس بكتف الجندي لكي لا يقـع أرضا، فيما استأنف ذاك يقول :

ـ اشكــر ما خصك به المسيح من رأفــة. لقد قيدوا لينوس وأجلسوه على المخلعة، وحـين شوهد يحتضر أعادوه. قـد يعيدونها اليك مثله، والمسيــح يتكفل بمعافاتها، ظل الشاب مطرقـا هناك لبعض الوقت، ثم رفع رأسه وقال بصوت خفيض :

ـ حسنـا أيها الجندي، المسيح الذي أنقذهــا من العار، سينقذها من الموت.

وبعد أن أمضى كل وقتــه حتى المساء جالسا عند الجدار، توجه إلى البيــت، ليرسل أحدهم من أجل لنيوس وينقله إلى أحد فيلاته في طرف المدينة.

أمــا بترونيوس الذي حص ل معلومات عــن كل شيء قرر أن يتابع مساعيــه. كان قد قصد الاوغستا من قبــل، وقصدها الان مرة أخرى،

فوجدها عند سرير روفيوس. كانت الطفلة المفجوجة تهذي من الحمى، تحت عنايّة الام.

كانت منشغلة بوجهها الخاص، فلم ترغب في سماع أي شيء، لا عن فينيكوس، ولا عن ليفيا لكن بترونيوس أوقع الهلع في نفسها حين قال لها :

ـ أنت تغضبين الالوهة الجديدة المجهولة. إنك على الارجح وأنت أوغستيّة تعبدين يهوه العبري، والمسيحيون يزعمون أن المسيح ابنه. فكري جيدا ما إذا كان غضب الاله يلاحقك. من يدري، لعل كل ما جرى لك نتيجة لنقمته، وأن حياة روفيوس متوقفه على سلوكك.

فسالته بوبيا جزعة :

ـ ما الذي سأفعله؟ وما الذي تريده مني؟

ـ تراضي مع الالوهة التي أغضبتها.

ـ كيف؟

ـ ليفيا مريضة، اطلبي من القيصر أو تيفالنيوس أن يأمرا بإخراجها من السجن، وتسليمها لفينيكوس.

فسالته المرأة وقد تملكتها الحيرة.

ـ أتظن أن بوسعي فعل ذلك؟

ـ لكن بوسعك فعل شيء آخر. ما إن تشفى ليفيا حتى تقاد إلى الموت. فاذهبي إلى معبد فيستا، واطلبي من راعيّة المعبد فيرغو ماغنا

أن تكــون قرب التوليانوم على سبيل المصادفة، حين يقودون العبيد إلى المــوت، وتأمرهم أن يطلقوا سراح الفتــاة، العذراء فيستا لن ترفض لك هذه الرغبة.

ـ وماذا لو ماتت ليفيا نتيجة مرضها؟

ـ يقــول المسيحيون أن المسيــح نزاع إلى الانتقام لكنه عادل : يمكن لك أن ترضيه لمجرد نواياك

ـ ليقدم دليلا على أنه سيشفي روفيوس

هز بترونيوس كتفيه وقال :

ـ أنــا لست من أتباعه، لكني أكتفي بالقول، أيتها الاوغستا الالهيّة، بأنك حسنا تفعلين إذا ما كنت في سلام مع كل الالهة، الرومانيّة منها، وغير الرومانيّة.

فأعلنت بوبيا بصوت كسير :

ـ سأذهب.

تنفس بترونيوس الصعداء. " أخيرا توصلت إلى شيء "

وحين رجع إلى فينيكوس قال له :

ـ اطلــب من ربك الا تمــوت ليفيا تحت الأرض، لأنهــا إن شفيت، فالعذراء فيستا ستطلق سراحها. الاوغستا بالذات ستطلب منها ذلك.

فدهمه فينيكوس بفظاظة :

ـ المسيح من يطلق سراحها.

أمـا بوبيا التـي كانت على استعداد أن تضحي بـكل شيء من أجل إنقاذ روفيوس، فقد ذهبت إلى الفوروم قاصدة عذراء فيستا، وأوكلت المربيّة الوفيّة سيلفيا بالعنايّة بروفيوس.

ولكنهم في البالاتينوس كانوا قد اتخذوا قرارهم بشأن الطفلة. فما إن تـوارى هودج زوجة القيصر بعـد خروجها من الباب الكبير، حتى دخـل معتوقا القيصر غرفة روفيوس، فسارع أحدهما إلى سيلفيا، فكم فاهـا، فيما تناول الاخر تمثالا برونزيا، وأخرسها بضربة واحدة منه. ثم تقدمـا نحو روفيوس التـي تبسمت لهما دون درايّـة منها لما يحصل. فأخـذا طوق المربيّة ولفاه حول عنق الطفلة التي لم يتسن لها أن تصرخ الا صرخة واحدة : " أماه ".

ثـم كانت النهايّـة : لُفت الفتاة بغطاء، وحملـت فوق حصان كان بانتظارها، وأخذت إلى أوستيا حيث القيت جثتها الصغيرة في البحر.

لم تجـد بوبيا كبيرة العذراوات هنـاك، لأنها كانت برفقة عذراوات فيستـا كلهن عنـد فاتينوس، فرجعت مسرعـة إلى البالاتينوس. وما إن رأت السريـر فارغـا، وجسد سيلفيا البارد، حتـى أغمي عليها. وحين أعيـدت إلى وعيها، بدأت عويلها المخبـول. استمر صراخها الوحشي طوال الليل، و لم ينقطع طوال اليوم التالي.

أمـا في اليوم الثالـث، فقد دعاها القيصر إلى المأدبة، فالبسها، والحال هـذه، رداءها الارجواني، فجـاءت صامتة بشعر أشقـر، ووجه مربد، لكنها جلست هناك بكل الوعيد كملاك الموت.

٥٦

قبـل أن يبنـى الكولوسيوم، في رومـا تم بناء المدرجـات في غالبيّة موادها من الخشب، فالتهمت نيران الحريق القسم الاعظم منها. والان ولكـي يتمكن القيصر من إقامة العـاب السيرك الموعودة، فقد أمر ببناء بضعة مدرجات، كان أحدهـا بمقاييس عملاقة جيء بأخشابه عبر نهر التيـبر من اقتطاع الاشجار العملاقة على منحدرات جبال أطلس. وبما أن هـذه الالعاب أريد لها أن تفـوق كل ما سبقها من حيث الضخامة، فقد أنشئت أمكنة كبيرة للوحوش وحشود المتفرجين من البشر. الاف مؤلفـة من مهرة البنائين عملت ليـل نهار لتنجز هذه الصروح العملاقة المزخرفة.

تناقلـت السنة الناس العجائب عن المتاريسـ، والحواجز البرونزيّة، والعاجيّـة، والمرجانيّـة، وعرائش اللبـلاب التي زينت بهـا السقوف والشرفـات. ونقل المياه الباردة عـبر الاقنيّة المنتشرة على طول صفوف أماكـن الجلوس لكـي تبرد هـواء السيرك حتى في اشـد درجات الجو حـرارة. وعلقت المظلات العريضة لتقي الجماهـير من أشعة الشمس. ووضعت بين صفـوف الكراسي مباخر تنشر أبخـرة العطور العربيّة. وعلقـت في الاعلـى رذاذات الماء لترطيب الجو فـوق الرؤوس. ودفع المعماريـان الشهيران سيفيروسـ و سيلير بكل مـا لديهما من مواهب معماريّة، لإقامة مدرجات لم يشهد لها التاريخ مثيلا.

وهكـذا في يوم الافتتاح، بدأت أفواج الحضور بالزحف والانتظار

أمـام المداخل، مصغيـه باستمتاع إلى زئير الاسـود، وجئير الوحوش، ونبـاح الكلاب. مضى يومـان دون أن يقوموا بإطعـام الوحوش، في وقـت كانوا يعرضون عليها من بعيد قطـع اللحم الداميّة، ليفاقموا من جوعهـا وغضبها. عند طلوع الشمس صدح في باحة السيرك صوت غناء عال، لكنه هادئ.

كان الشعـب يسمعـه مندهشـا. " المسيحيـون ! المسيحيـون ! " وحقيقـة، كانوا قد بـدؤوا يقودونهم خلال الليـل، بمجموعات كبيرة إلى المدرجات. كانوا يأتون بقليل منهم من كل سجن، ولا يفرغون كل سجـن على حدة، كما كانت الخطة. أدرك الجمهور أن الفرجة ستدوم أسابيـع، بـل أشهرا، وكانوا يتناقشون مـا إذا كان بالامكان القضاء في هذا اليوم على كل هذا الحشد من المسيحيين.

كان مئـات مـن الرجال والنسـاء والأطفـال ينشدون هـذا الغناء الصباحـي. كان بعض الناس من العارفين يشكون في مقدرة الوحوش علـى تمزيق هذا العـدد الكبير من الضحايـا، والتهامهم في يوم واحد، الأمر الذي يقلل من استمتاع المتفرجين. وكلما اقترب موعد الافتتاح، كان حماس الحاضرين يتعاظـم، ونقاشهم حول هذا الأمر يشتد. كان يرى البعض أن الاسود أكثر مهارة من النمور على تمزيق البشر، والبعض الاخـر كان يرى المهارة في النمور وتحدث البعض عن المجالدين الذين كان عليهم دخول السيرك قبل المسيحيين.

ولكي لا يرهقوا أنفسهم دخـل بعضهم بلا درع، وبعضهم الاخر كان عاريـا، أو بيده غصن أخضر، أو حول جبينـه إكليل من الازهار. كانـوا ينبضون بالحياة، ويأتلق جمالهم الفتي تحت أشعة الفجر. كانت أجسادهم الضخمة المدهونة بالزيت تلتمع، وكأنها نحتت من الرخام،

فأثارت الاعجاب في نفوس من يعرف الاستمتاع بجمال العضلات.

كان كثير منهم معروفا على المستوى الشخصي، فكانت الهتافات تتع إلى هنا وهناك مناديّة بأسمائهم : " حرصا يا فورنيوس ! مرحبا يا ليو ! مرحبا يا مكسيموس ! مرحبا يا ديوميدس ! الفتيات كن يرمقنهم بنظرات عاشقة، وهم كانوا ينتقون أحلاهن ويمزحون معهن دون أن يبدو عليهم أثر للتوتر، ويلقون عليهن القبلات أو يقولون لهن " عانقيني قبل أن يعانقني الموت ! ". ثم تواروا خلف باب المدخل. وشد انتباه الناس موكب آخر وآخر. بعد المجالدين مر السائطون الذين يجلدون بسياطهم من يحاول المقاومة.

ومرت بعدهم عربات تشدها بغال اتجهت صوب السبولاريوم حاملة توابيت من خشب، جن جنون الشعب لهذا المشهد، لأن أعداد التوابيت توحي بمقدار هائل من الفرجة والاثارة.

ثم جاء الدور لمرور الذين ينفذون " طعنة الرحمة " للجرحى.

وهؤلاء جميعا يرتدون زي مركوريوس أو شارون. تبعهم رجال الحفاظ على النظام الذين يشرفون على أماكن الجلوس، وبعدهم العبيد المسؤولون عن توزيع الاطعمة والمشروبات المنعشة، وأخيرا عناصر الحرس الامبراطوري جنود القياصرة أجمعين.

وأخيرا فتحت الابواب، ودخلت الجموع إلى المدرجات. كانوا من الكثرة بحيث ظلوا على مدى ساعات يتدفقون إلى الداخل حتى كان من الغريب كيف يتسع المدرج لمثل هذه الاعداد المذهلة. شعرت الوحوش برائحة البشر، فتعاظم جئيرها. كان الناس يتدفقون لاحتلال أماكنهم، أشبه بأمواج البحر العاصف.

وفي النهايّة وصل قائد الحرس محاطا بمرافقته، تتبعه سلسلة طويلة لا تنتهي من السيناتـورات، والقنصليين، والحكام، والموظفين، والحاشيّة القيصريّـة، وكبار ضباط الحرس، والمحامين، والسيـدات من الطبقة الاولى في هوادجهن.

ولكـن كهنة المعابـد تأخـروا قليلا عـن المجيء، وجـروا وراءهـم عـذراوات فيستا اللواتي تقدمهن الذيـن يفسحون أمامهن الطريق. لم يشـأ نيرون أن يجعل الشعـب ينتظر كثيرا، بل حرص على دقة الموعد، وفق ميوله، فسرعان ما ظهر برفقة الاوغستا والاوغستيان.

كان بترونيوس بين الاوغستيان، و إلى جانبه فينيكوس في الهودج. لم يكن الشاب على درايّة ما إذا كانت ليفيا المريضة من بين ضحايا هذا اليـوم. يمكن أن يدفـع بها أمام الاسود وهي مريضـة، وحتى لو كانت غائبة عن الوعي. لكن بما أن الضحايا قد البست جلود حيوانات ودفع بها مجموعات إلى الميدان، فلم يكن بالامكان التعرف على أحد.

كان جميع الحراسـ، وخدم المدرجات قد قبلوا الرشوة، واتفق مع حراسـ الوحوشـ لإخفاء ليفيـا في ركن منعزل من المـدرج، إلى حين تسلميهـا ليلاً لأحد ثقات فينيكوس من الاجراء، للرحيل بها إلى جبال الالـب. وكان بترونيوس على علم بالخطة. نصح فينيكوس بأن يرافقه علنـا إلى المدرج، وهنالـك عند المدخل يتسلل في الزحـام إلى قمرات الاعتقال، ليدل الحراس على شخصيّة ليفيا خشيّة حصول التباس.

أدخله الحراسـ عبر الباب المخصص لدخولهم، فقاده أحد الحراس المسيحيـين، واسمـه سيروسـ، حـالا إلى المسيحيين، قائـلاً له خلال الطريق:

- لا أدري يـا سيدي إن كنت سترى من تبحث عنها. لقد سالنا عن ليفيا بالاسم، لكن أحدا لم يعطنا جوابا. لعلهم لم يثقوا بنا.

- وهل هم كثر؟

- ومن بقي إلى الغد كثر أيضاً.

- وهل بينهم مرضى؟

- ليس بينهم من لا يقوى على الوقوف على قدميه.

فتح باب، وأم ا غرفة عاتمة لا ينيرها الا ضوء تسلل خلال شق يقود إلى الميـدان. لم يلمـح فينيكوس شيئاً في البدايّة، لكنـه سمع همسا في الغرفـة، إضافة إلى ضجيج الشعب الاتي من المـدرج. وحين تأقلمت عيناه مع الظلمة، رأى كائنات غريبة تشبه الدببه، والنمور.

كانـوا مسيحيين ضمن جلود حيوانيّة. كان البعض واقفا، والبعض الاخـر راكعا يصلـي. وكان بينهم نسـاء عرفن مـن شعورهن الطويلة المنسدلـة خارج الجلـود. الذين سئلوا عن ليفيا نظـروا اليه وكأنهم قد أفاقـوا من حلم، و لم يجيبـوا عن سؤاله. البعض تبسـم واضعا أصابعه على فمه، وأشار نحو الشق الذي ينسرب منه الضوء.

وحدهـم الأطفال كانـوا يبكون خوفا من جئـير الوحوش، ونباح الكلاب، وضجيج الشعـب، وأشكال أهاليهـم الشبيهة بالحيوانات. راح فينيكوسـ، وهـو يسير برفقـة الحارس سيروسـ يتملى في وجوه المعتقلـين، بحث، وسال، متعـثرا أحيانا ببعض من استلقـى أرضا هنا وهنـاك، بعد أن أغمي عليه من شدة الزحام، والحرارة. حتى وصل إلى وسط الغرفة القاتمة، التي بدت هائلة الحجم كالمدرج ذاته.

وفجـأة توقـف، لأنه سمع صوتـا مالوفا قرب الشـق. بعد تنصت قصـير استدار، وتقدم عبر الحشد، توقف قرب مصدر الصوت. وعلى بصيص من ضوء ساقط علـى رأسه، عرفه فينيكوس من وجهه الصارم النحيل. إنه كريسبوس.

كان كريسبوس يقول :

ـ اندمـوا علـى خطاياكم، فقـد حان الوقـت. لكن مـن يعتقد أنه سيكفر عن ذنوبـه لمجرد موته، فهو يرتكب خطيئـة أخرى، ومصيره جهنم. الموت سوف يلحـق بالصادقين، والزائفين، لكن السيد المسيح هو من ينتقي أتباعـه. ويلكم فالاسود سوف تمزق أجسادكم، دون أن تمزق خطاياكم، ونواياكم تجاه المسيح. لقد عبر السيد عن مدى رحمته حين سمح بشد ه على الصليب، لكنه بعد ذلك لن يكون الا حاكما لا يدع ذنبا دون حساب. فمن كان يعتقد أنه سيكفر عن ذنوبه بالعذاب، فهو إنما يشتم الاله العادل، وسينال ذنبا دون إضافيا. انتهى عهد الرأفة، وحان وقت غضب السيد.

لحظـات، وتمثلون أمام عرش الحاكم العظيم، حيث لا يستقيم هناك حتـى الفاضلون. اندمـوا على ذنوبكم لأن أبـواب جهنم قد فتحت. ويلكم، أزواجا، وزوجات، ويلكم، أهلا وابناء.

ورفـع يده وهزها فوق الرؤوس المحنيّـة. كان ما يزال رابط الجأش بعيدا عن الجزع في ظل الموت الذي ينتظر هؤلاء في أيّة لحظة. جاء الرد استجابـة لما نطق بـه : " نحن نادمون على ذنوبنـا ". ثم عم الصمت، الا بـكاء الأطفال. تجمد الدم في عروق فينيكوس. لقد علق آماله كلها على رأفة المسيح، وها هو الان يسمع منه أن يوم الغضب آت، دون أثر

لتضرع في مواجهة الموت. خطر له أن بطرس لو كان في هذا المكان لتكلم عن الموت على نحو آخر. لكن حديث كريسبوس أوقع الجزع في نفسه. وكاد الهواء الرديء والحرارة تخنقانه، فتصبب العرق من جبينه، وتملكه الهلع خشيّة أن يغمى عليه كأولاء الملقيين على الأرض. وحين دهمته فكرة أنهم في أيّة لحظة يفتحون باب الغرفة المفضي إلى الميدان، وجد نفسه يهتف باسم ليفيا و أرسوس، فقد يتلقى جوابا منهما، أو لعل أحدا ممن يعرفهما يرد على ندائه. ولقد تحقق ما كان يصبو اليه، فقد جاء الجواب من رجل يضع عليه جلد دب :

ـ لقد بقيا في السجن، يا سيدي، أنا كنت الاخير الذي اقتيد من هناك. وقد رأيت الفتاة مريضة في السرير.

ـ من أنت؟

ـ أنا من عمدك الحواريّ في منزلي، يا سيدي. قبضوا علي منذ ثلاثة أيام، وسأموت اليوم.

تنفس فينيكوس الصعداء. حين جاء إلى هنا، كان يأمل أن يعثر على ليفيا، لكنه الان ممتن إلى السيد المسيح أنها ليست هنا، وهذا دليل على رحمة المخلّص.

في أثناء ذلك كلمه الرجل ثانيّة :

ـ أتذكر يا سيدي أنني من قادك إلى كرم كوتيليوس حيث قام الحواريّ بتعليمك؟

ـ أذكر.

ـ لقـد رأيته قبل يوم مـن قدومي إلى هنا. باركني، وقـال أنه سيأتي إلى المـدرج ليودعنا. كم أنـا راغب في مشاهدته في لحظة الموت، وهو يرسم الصليـب، ليكون موتنا أرحم. فإن كنت تعـرف يا سيدي، أين هو، أخبرني.

فأجابه هامسا :

ـ إنـه بين رجال بترونيوس يرتـدي زي العبيد. لا أدري أين اتخذوا أمكنـة جلوسهم على المدرجـات، لكني سأعـود إلى السيرك، والقي نظرة. حين تدخلون الميدان، أنظر نحوي، سأكون واقفا، ملتفتا برأسي نحو مكان وجودهم، وهكذا ستراه.

ـ شكرا يا سيدي، والسلام عليك.

ـ فليشملك المخلّص برحمته.

ـ آمين.

خرج فينيكوس إلى المدرج، ليتخذ مكانه إلى جانب بترونيوس بين باقي الاوغستيان.

ساله بترونيوس :

ـ هل هي هنا؟

ـ لا. بقيت في السجن.

ـ اصغ الي جيدا ! خطر لي خاطر. توجه بنظرك نحو نيجيديا ونحن نكلـم بعضا، لكي تظـن أننا نتحدث عن تسريحـة شعرها... في هذه

اللحظـة ينظر نحونا تيفالنيوس و شيلـون... اسمعني : ليلا سيضعون ليفيـا في تابوت ويخرجونها من السجن على أساس أنها ميتة. والباقي عليك...

- من سيفعل ذلك؟

لكن توليوس سينسيو أزعجها حيث مال نحوها يسال :

- أتدريان إن كانوا سيعطون المسيحيين أسلحة؟

فأجاب بترونيوس :

- لا ندري.

- الأفضـل أن يعطوهـم أسلحة والا سيكون الميدان بأسرع وقت مثل خشبة الجزار. ما أعظم هذا المدرج؟

كان المشهد مذهلا حقا. أمكنة الجلوس السفلي المكتظة ب الأرديّة كانت بيضاء كالثلج. وجلس القيصر على منصة بقلادة ماسيّة، وإكليل ذهبـي على رأسه. و إلى جانبه الاوغستـا الفاتنة، لكن الكئيبة. ثم، إلى كلا جانبيه، جلست عذراوات فيستا ثم كبار المسؤولين، والسيناتورات بعباءاتهم الزخرفيّة، وكبار القـادة العسكريين بزيهم الفاخر، وكل من يتمتع بمكانة مرموقة نتيجة للثراء، والوجاهة.

وفي الصفوف التاليّة جلس الفرسان، ثم تلاهم في الصفوف الاعلى جمهور الشعب المائج، وفي أعلى المدرج علقت بين كل عمود وعمود حبال مشغولة من الورود والزنابق، والمخمل، والكرمة.

كانـت أصوات الشعـب صاخبة، تنادوا، وهتفـوا لبعض، وغنوا، وصـدرت مـن بعضهم بين وقت وآخـر تعليقات لاذعـة تناقلوها من

لسان إلى لسان، ثم سرعان ما فرغ صبرهم، فطقطقوا وهذروا مطالبين بالاسراع ببدء الالعاب.

وما لبث ضجيجهم بالمطالبة بالافتتاح، أن استحال ما يشبه الهدير. عندئذ شوهد قائد الحرس، يدور في الملعب، ملوحا بمنديله إيذانا بالبدء، فتعالت الاصوات " أوو، أوو، أوو " تطلقها الاف الحناجر.

بدأت الفرجة بملاحقة الوحوش، وقد قام بها برابرة جنوبيون، وشماليون من مختلف الانحاء. رافقها قتال المقنعين. وهو قتال يخوضه خصوم على رؤوسهم خوذات عمياء دون فتحات عيون. نزل إلى الملعب بضع مجموعات من المقاتلين الذين راحو يلوحون خبط عشواء بسيوفهم، فيما قام آخرون بدفعهم وتقريبهم من بعض برماح شوكيّة طويلة. لم يتحمس جمهور الاشراف لهذه اللعبة، وتابعوها بحياديّة وازدراء.

أما عامة الشعب فقد أمتعتها هذه الحركات العشوائيّة للمتقاتلين إيما إمتاع، وآثارتها أيما إثارة. فإذا صادف وتصادم المقنعون بظهورهم علت قهقهات الجمهور وصيحاته :

" يمينا، يسارا، إلى الامام " وغالباً ما كانوا في الميدان يتعمدون تضليل المتحاربين عن المواجهة ونادرا ما كان يحصل اشتباك بين الخصوم، وعندئذ يتخذ القتال منحى دمويا. منهم من وجدوا حلا مناسبا، فالقوا بلطاتهم وأمسكوا بعضا، باليد اليسرى لكي لا يضلوا عن بعضهم، ويتابعوا القتال حتى الموت بسيوفهم باليد اليمنى : من وقع أرضا رفع إصبعه في إشارة إلى طلب الرحمة. في العادة يطلب الشعب قتل الجريح، خاصة إذا كان مقنعا بخوذة، فلا يعرفونه. كانت أعداد المتحاربين تقل شيئاً فشيئاً حتى تبقى اثنان منهم في الميدان،

فدفعوا بهما حتى تواجها بالجبين، فطعنا كل منهما الاخر. وتعالت الاصوات مرحبة ومهللة. ثم أتى الخدم وغطوا الجثث، وجاء الغلمان ومسحوا آثار الدماء فوق الجباه، ثم غطوها بورق الزعفران.

جاء الان دور القتال والأكثر جديّة، الذي آثار حماس كل من الاشراف والعامة. وكان من عادة الاشراف، عند مثل هذه المبارزات أن يراهنوا على مجالدهم المفضل بمبالغ ضخمة يصار إلى عرض قيمتها على العلن، مرفقة باسم المجالد، على لافتات تدور في الميدان.

كانت الرهانات، بالطبع، تنحصر بغالبيتها على أشهر المجالدين الذين حصدوا أكبر الانتصارات. لكن بعض اللاعبين وضعوا رهاناتهم على مجالدين جدد مجهولين، أملا في فوز يحقق أرباحا طائلة. راهن القيصر، والكهنة، وعذراوات فيستا، والسيناتورات، والفرسان، والشعب كذلك. وكانت العامة إذا ما أفلست غالباً ما كانت تراهن بحريتها.

وبقلوب خفاقة وفراغ صبر، انتظر الجميع ظهور الاطراف المتصارعة.

حين صدحت الابواق بأصواتها الحادة، ساد في المدرج جو من الترقب المشدود. وتوجهت الاف العيون ناحيّة المغاليق الضخمة حيث تقدم في وسط الصمت السائد، رجل بزي شارون، وطرقها بمطرقة ثلاثا، كأنما بذلك يدعو من وراء الباب إلى الموت. وبعد قليل فتح الباب على مصراعيه ، فتت إلى المجالدون يفدون إلى الميدان بمجموعات حسب الجنسيات، عدد كل مجموعة خمسة وعشرون مجالدا بسلاحه الثقيل. تلاهم الشب اكون، الذين يحملون بإحدى اليدين شبكة، ورمحا ثلاثي الرؤوس باليد الاخرى.

تعالى لمرآهم التصفيق، الذي سرعان ما استحال إلى عاصفة شديدة عمت أرجاء المدرج. التهبت الوجوه، وفغرت الافواه، وصفقت الايدي من أعلى صفوف المدرج حتى أسفلها، وسمعت هتافات متفرقة هنا وهناك، حتى امتلأ الميدان بالمجالدين الذين تقدموا بخطوات رتيبة مرنة، ومثلوا بكل هدوء وفخر أمام منصة القيصر.

صدح النفير فاسكت عاصفة التصفيق. وعندئذ رفع المجالدون أياديهم اليمنى، ملتفتين برؤوسهم ووجوههم نحو القيصر، وصرخوا يغنون بأعلى ما لديهم من أصوات :

مرحبا أيها القيصر الحاكم

السائرون إلى الموت يحيونك.

ثم تفرقوا بسرعة، واتخذوا الاماكن العائدة لهم في الميدان. كان في العادة أن يقوموا بمهاجمة بعضهم جماعات، أما الان فقد سمح لهم أن يتقدم المبارزون المتميزون من بينهم، ليقدموا في البدايّة بعض المبارزات الثنائيّة، كاستعراض للقوة يفرز أفضل المتبارين، من حيث البأس، والمهارة، والشجاعة. تقدم أولا من بين الغالي ين المجالد هنتس الذي لمع اسمه بين أصدقاء السيرك لما حصد قبل الان من انتصارات. بدا بخوذته الضخمة، ودرعه الذي يغطي نصفه العلوي كحشرة مشعشعة عملاقة فوق رمال الميدان الصفراء. وتقدم في المقابل الشباك كاليانديو ليكون خصما مبارزا له.

وسرعان ما عكف الجمهور على المراهنة.

ـ خمسمائة سستريوس للغالي.

ـ خمسمائة لكاينديو.

ـ بحق هيركوليس، الفا.

ـ الفين

وببلوغ الغالي منتصف الميدان، شهر سيفه إلى الامام، ثم تراجع ثانيّة إلى الخلف، محنيا رأسه قليلا، ليرى خصمه من خلال شق الخوذة، بينما راح الشبـاك الرشيق الممشوق العضـلات، العاري الا من كساء حول الحوض، يلاحق بخفة خصمه المتثاقل الحركة، ملوحا ببراعة بشبكته، وقابضـا على رمحه الثلاثي الرؤوس ينزله حينا، ويرفعه حينا، وهو يردّد أغنيّة الشباكين المعروفة :

لست أنت ما أبتغيه، بل سمكة، لماذا تهرب أيها الغالي؟

لكـن الغـالي لم يهرب، بـل سرعان مـا لزم مكانـاً، منجـزاً بعض الاستدارات الصغيرة حرصا منه على أن يظل خصمه أمامه دائما. كان الان مرعبا بهيئته ورأسه الضخمة. كان الجمهور على يقين من أن هذا الجسد المعدني الثقيل يتأهب للقفز، وأنه سيحسم المعركة.

في هـذه الاثناء كان الشباك يقفـز نحوه حينا، وينفتـل عائدا حينا أخـر، وهو يحرك رمحه حركات هي من السرعة والرشاقة بما يشق على البصر متابعتها.

صـدم الرمح ترس الغـالي مرات عـدة دون أن تزحزحه من مكانه قيـد شعره، الأمر الـذي يدل على مـدى قوته. وكأنمـا كان يركز كل انتباهـه على الشبكة. التي ترفرف فـوق رأسه باستمرار، كطائر شؤم. تابـع الجمهور، بأنفاسـ مكتومة براعة المجالديـن القتاليّة. حتى انتهز

هنتس لحظة سانحة فدهم خصمه مهاجما إياه بكل جسده، فيما انزلق كالينديو من تحت ذراع الخصم وسيفه، ثم استقام ورمى بشبكته.

دار الغالي في مكانه، وتلقى الشبكة بترسه، ثم قفز كلاهما متراجعين إلى الخلـف، فصدح الهتاف في المدرج " حظـا موفقا " فيما بدأت في الصفوف السفلى رهانات جديدة. حتى الان كان القيصر يتحدث مع عــذراء فيستا روبريا، و لم يبد اكتراثا لمـا يجري، لكنه الان التفت نحو الميدان.

أعاد المجالدين الكرة بالمهاجمة، وكان قتالا بارعا متقن الحركات، وكأنــه قتال استعراضي وليس قتال حيــاة أو موت. استطا ع هنتس أن يتجنـــب الشبكة مرتين، ثم تراجع لينتحي طـرف الميدان، الأمر الذي جعل المراهنين عليه يهتفون " اهجم ا " طاعهم الغالي وهاجم خصمه. سال الدم من الذرا ع التي تحمل الشبكة فانسدلت إلى الاسفل.

فاستجمع هنتس قواه، وقفز قفزة كبيرة بغيّة تحقيق الطعنة الساحقة. لكـن كاليديو كان يصطنـع حركة توحي بعدم قدرتـه على استخدام الشبكـة، فمـال في اللحظـة المناسبة متجنبـا الطعنة، ودفـع برمحه بين ركبتي الخصم، وأوقعه أرضا.

أراد ذاك أن ينهض، لكن خيوط الشبكة طوقته بلمح البصر، فَراح يتخبـط تحتها، فيمـا كان الرمح الثلاثي بضرباتــه المتلاحقه يثبته أرضا. ورغم ذلــك حاول أن يستجمع قوته كرة أخـرى، فاستند على ذراعه محاولا النهوض ثانيّة، لكن هيهات.

ثم حــاول استخدام ذراعه ليمتشق السيف، ففشل في ذلك وسقط أرضا. فقام كاليديو باستخدام رمحه لتثبيت هنتس من عنقه في الأرض.

ثم بعدئذ وقد استند على الرمح استدار نحو منصة القيصر.

اهتـز السيرك بكامله ممّاتع إلى من هتـاف وتصفيق عاصفين. الذين راهنوا عليه، كان بالنسبة اليهم في هذه اللحظة أهم من القيصر. والذين نقمـوا عليه ووقفوا ضـده، تلاشت نقمتهم لأن دمـاءه كانت السبب في امتـلاء جيوبهم. لقد انشطرت رغبات الجمهـور شطرين إذن. في المقاعد انقسمت الرغبات بين المـوت والرأفة بالتساوي. لكن الشباك كان يرنو إلى منصة القيصر، وعذراوات فيستا منتظرا القرار الفصل.

" هنتسـس " لم يكـن يحبه القيصـر، لأنه في الالعـاب الاخيرة قبل الحريق قد راهن ضده، وخسـر مبلغا ضخما لصالح ليسينيوس، فكان من القيصر الان أن يمد يده من المنصة، ويدير إبهامه إلى الاسفل.

حاكـت عذراوات فيستـا حركته. جثا كاليينديو علـى ركبتيه فوق صدر الغالي، وأخرج خنجره من حزامه، ثم فك الدرع من حول عنق خصمه، وأغرق الخنجر في حنجرته.

ـ بيراكتوم است ! تعالى الهتاف في المدرج.

أمـا هنتسـس فقد ارتعشـ بعض الوقـت، حافراً الرمـل برجليه، ثم تصلّب، وهمدت حركته نهائياً.

لم يجـر اختبـاره بالحديد الحامـي إن كان ما يزال حيـا، بل سرعان ما أبعد مـن هناك، ليأتي محاربان آخران، ومـا أن انهيت الجولة، حتى بـدأ القتال الجماعي. كانـت مشاركة حماسيّة مـن الجمهور. هتفوا، وزمجروا، وصف روا، وصفقـوا، وضحكوا، وشجعوا المتقالين الذين انقسمـوا قسمين، وقاتلـوا كالوحوش، صدرا لصـدر، وتشابكوا في الميدان حتى الموت.

انغرزت السيـوف في الاجساد صدورا وبطونـا، وأهرقت الدماء من الافواه، وسالت علـى الرمل. حاول البعض الفرار من شدة الجزع فأعادتهـم السيـاط إلى الميـدان. وسرعان مـا اكتظ الميـدان ببقع الدم، وتمـددت الجثث العاريّة، المدماة على صدورها وظهورها أرضا كحزم القمح.

ترنـح الاحياء فوق الجثـث، متعثريـن بالتروس والـدروع، تدمي أرجلهم الاسلحـة المحطمة. لم يدر الشعب كيـف يوزع بهجته، فقد أروى بالموت أنفاسه المتعطشة وأتخم به بصره، والتذ باشتمام رائحته.

في النهايّـة كاد أن يكـون كل المهزومـين قد لقـوا حتفهم. و لم يبق الا قليـل منهم جاثيا علـى ركبتيه في وسط الميـدان، ملوحا بيديه نحو الجمهـور طلبا للرحمة. تقاسم الفائزون الجوائـز، والاكاليل وغصون الزيتون. تـلا ذلك استراحة قصيرة تحولت بأمر مـن القيصر إلى مأدبة. وضعـت المواد العطريّة، ورش الماء المعطـر رذاذا ناعما فوق الجمهور. ووزعت الفطائر، واللحم المشوي والكعك المحلى، والنبيذ، والزيت، والفاكهـة. أكل الشعب، وتبادل الاحاديـث، وعيش القيصر بهتافات صاخبـة، لينعـم عليه بمزيد من كرمه. والحقيقـة أن الجمهور حين طرد جوعه وعطشـه، دخل الأرقّاء حاملين سلال الهدايـا التي أخرج منها صبيـان يرتدون زي أمـور أشيـاء صغيرة،وقاموا برشها بـين المقاعد. أمـا حين وزعـت بطاقـات اليانصيـب فجـاء دور العـراك، وتزاحم الناس وتدافعوا، وداسوا علـى بعض، وقفزوا فـوق أماكن الجلوس، حتـى أرهقو من تدافعهـم الرهيب، فمن حظي برقـم رابح، يمكن أن يفـوز بمنـزل وحديقة، أو بعبـد، أو لباس فاخـر، أو وحش نادر يمكن أن يبيعـه لمدرج الالعاب. عمت فوضى جعلـت الحرس الامبراطوري مضطـرا للتدخل وإشاعة النظام. وغالباً مـا تسبب هذا التزاحم بكسر

أيـاد وأرجل، واختناقـات كان لا بد من إخراج من لحقت به بعيدا عن المكان.

لكـن ميسـوري الحـال لم يسهموا في العـراك الجـاري للحصول علـى بطاقات الحظ. الاوغستيان قضـوا وقتا ممتعا بالمرح على شيلون، ساخريـن من بذله أقصى مـا لديه من جهد ليثبـت أن بوسعه مشاهدة القتـال وسفك الدماء كأي أحد آخر. لكـن اليوناني المنحوس لم يجده نفعـا أنه راح يقطب حاجبيه، ويعض شفتيـه، ويشد على قبضتيه حتى انغـرزت أظافـره في كفـه. لا طبيعتـه اليونانيّة، ولا جبنـه الشخصي يؤهلانه لتحمل مثل هذا المشهد. شحب لونه، وتعرق جبينه، وازرقت شفتـاه، وغارت عيناه، واصطكت أسنانـه، وارتعش كل جسده. و لم يعد إلى طبيعته قليلا الا بعد انتهاء القتال.

وأراد فاتينوس أن يغيظه فقال له وهو يشده من لحيته :

ـ ما بك أيها اليوناني. أراك لا تحتمل رؤيّة جلد إنسان مسلوخ.

كشر شيلون عن سن يه الصفراوين الوحيدتين المتبقيتين وأجابه :

ـ لم يكن والدي حذ اء فمن اين لي أن أدبغ جلودا.

ـ ماكتي ! هابيت ! صدرت بعض الاصوات.

لكن آخرين استأنفوا إهانته، فقال سينكو :

ـ ما بيده حيلة، في صدره بدلا من القلب قطعة من الجبن

فرد شيلون قائلاً :

ـ وأنت كذلك ما بيدك حيلة، لأن الذي فوق عنقك دملة، بدلا من رأس.

ـ الا تبغي أن تكون مجالدا؟ أراك مناسبا للميدان وفي يدك شبكة.

ـ إن القِها عليك، أمكنني القول أنني التقطت هدهدا.

وسأله فستوس :

ـ مـا الـذي سيحصل للمسيحيـين؟ الا تريد أن تكـون كلبا دوماً وتنهش بلحمهم؟

ـ لا أرغب أن أكون أخا لك.

ـ آ، أنت إذن مجرد قرحة ميوتيسية

ـ وأنت مجرد بغل ليغوري.

ـ لا بد أن جلدك يشعرك بالحكة، لكني لا أنصحك بأن تطلب مني أن أحكه لك.

ـ احرص أن تحـك نفسك. إذا ما اقتلعت ما بك من دمامل، تكون قـد قضيت على أثمن ما لديك هكذا كانـوا يهزؤون منه، وعلى نفس المنوال كانت ردوده الحانقة.

صفـق القيصـر، صارخـا بأعلـى صوتـه ماكتـي ا، واستمـر في تشجيعهم. وبعد وقت قصير جاء بترونيوس، وربت على كتف اليوناني بعصاه العاجيّة، ثم قال ببرود :

ـ حسنـا أيهـا الفيلسـوف الحكيم. لقـد أخطـأت في واحدة. لقد

خلقتـك الالهـة قاطع طريـق، لكنك صـرت شيطانا، فلـن تنجو من أفعالك.

رمقه العجوز بعينين لاهبتين، دون أن يعثر على رد مناسب. صمت للحظة، حتى نطق بغير قليل من الجهد.

ـ أنجو !

هنا صدحـت الابواق، إشارة لانتهاء فترة الاستراحة غادر الحضور الامكنـة المجـاورة التـي جـاؤوا اليهـا بقصـده التمـط ي، وتحريك أجسامهم، والتحدث قليلا.

عـم ت حركة شاملـة، تلاها عراك علـى الامكنة المحتلـة من قبل السيناتورات والاشـراف أيضاً عادوا مسرعـين إلى أماكنهم، وما لبث الضجيج أن خف، ثم تلاشى واستتبت النظام في أرجاء المدرج.

وظهـر في الميـدان رهط مـن الذين ينظفـون الرمال مـن بقع الدم المنتشرة هنا وهناك.

جـاء الان دور المسيحيين : وبمـا أن ذلك كان مشهدا مستجدا أمام عيون الشعب، لم يعرف الجمهـور كيف سيتصرف، الأمر الذي جعله يترقب المسيحيـين بفضول، لكن الجميع هنـا كان يكن العداء لهـم، لا سيمـا وأنهم مـن أودى بروما وكنوزهـا العريقة. فهـم الذين يتغذون بدماء الأطفال، وسمموا المياه، ولعنوا الجنس البشري، وارتكبوا أبشع الاعمال الشريرة.

كانـت الشمس قـد نهضت في السمـاء بأشعتهـا الارجوانيّة التي نفذت خلل المظلات الواقيّة، وغطت المدرج بالضوء الاحمر.

سبح رمل الميدان بضوء ناري، وكان مشهدا ينطوي على شيء من الهلع، كمشهد الوجوه، والميدان الخالي، الذي سيكتظ للتو بالعذاب الانساني والوحوش الغضبى، كأنما الموت والرعب يرفرفان في الجو. وكان الجمهور المرح في العادة، قد لزم صمتا يضمر الكراهيّة. وانعكس على الوجوه حنق وحشي ضار.

في هذه الاثناء أعطى قائد الحرس إشارة، فظهر بثياب شارون الكاهن نفسه الذي دعا المجالدين من قبل إلى ساحة الموت. دار كامل الميدان بخطى وئيدة، ثم تقدم نحو الباب وقرعه بمطرقته ثلاثا اكتسحت الصمت الرائن في المكان.

اصطخب المدرج:

ـ المسيحيون! المسيحيون!

صرت المغاليق، فهدر من خلال الفتحات القاتمة النداء المعروف: "إلى الساحة"، وبطرفة عين امتلأ الميدان بأشكال ترتدي جلود الحيوانات، وكأنما جيء إلى هنا بسكان غابات.

دخلوا مسرعين، وببلوغهم وسط الميدان، رفعوا أياديهم، وركعوا إلى جانب بعض. ظن الشعب أنهم يطلبون الرحمة، فأغضبه هذا الجبن وراح يصفر، ويقرقع، ويرمي عليهم آنيّة النبيذ، والعظام المنهوشة.

ويصيح بملء المناجر:

الوحوش ! الوحوش!

هنا حصل أمر غير متوقع. من بين هذا الحشد الفظ صدمت اغنيّة غير مالوفة الوقع لم يحدث أن رددت في السيرك الروماني.

....

ذهل الجمهور. ورفع المتهمون عيونهم نحو مظلة المدرج في الاعلى وبـدؤوا الغناء. رأوا الوجوه الشاحبة لكـن المأخوذة. أدرك الجميع أن هـؤلاء لا يطلبون الرحمة، وأنهم كأنمـا لا يرون السيرك ولا الجمهور، ولا مجلس الشيوخ، ولا حتى القيصر. "المسيح يحكم".

صدحـت الاغنيّة، واشتدت شيئـاً فشيئاً. وراح كثيرون في المدرج يتساءلـون في أنفسهـم : ما هذا؟ من هو المسيـح الذي يحكم حسب رأى هـؤلاء الذيـن في طريقهـم إلى المـوت. لكن في هـذه الاثناء فتح بـاب آخر، فتدفقت منها كلاب الدموم المسعورة، والكلاب الهنغاريّة الاشبه بالذئاب، وكلاب الد رواس الضخمة، وكلها جائعة هزيلة محمر ة الاعـين، فملأت بنباحها، وعوائها أنحـاء المدرج. بانتهاء المسيحيين من ترديـد شعارهم، كأنما تحولوا إلى جماد، فاستمروا في ركوعهم بلا حراك، مرددين "مع المسيح ! مع المسيح"

شمشمـت الـكلاب الجلود فـوق أجسـاد البشر ولأنهـا لم تتأكد مـن ثباتهـم دون حراك، لم تجرؤ باديء الأمر أن تهـرع إلى الانقضاض عليهـم. ولزم بعضها الجـدران كأنها تريد الوصـول إلى الجمهور فيما راحـت كلاب تنبح مسعورة وهي تدور في الميـدان جريا وراء فريسة غـير مرئيّة. اغتاظ الشعب. طلعت الاف مؤلفة من الاصوات، بعضها قلـد زمجرة الوحوشـ، آخرون نبحوا كالكلاب، فئـة أخرى حرضت الـكلاب من جديد، فاهتز المدرج بالزئير. هرعـت الكلاب المثارة نحو الراكعـين، فاغرق كلب دمـوم أنيابه في عنق امـرأة في الصف الاول، والقى المسكينة تحته.

راحت الـكلاب الان تجري بين الحشد، كأنما قـد أنهار من أمامها حائـط الدفاع. تخلى المتفرجون عن زئيرهـم، لكي يتسنى لهم متابعة المشهـد بأقصى ما هنالك من انتبـاه. كانت الكلاب تعوي، وأصوات الرجال والنساء تصدح : "مع المسيح ! مع المسيح"، لكن في الميدان قد صارت أجساد البشـر والكلاب تتشابك متشادة متمرغة فوق الرمل. سالت الدماء مهراقة من الاجساد الممزقة. وانتزعت الكلاب من أفواه بعضها الاعضاء البشريّة.

وفاحت رائحـة الدم، والاحشاء، ممزوجة بضـوء الابخرة العربيّة، حتـى ملأت أجواء السيرك و لم يبق في النهايّة الا بعض الهيئات الراكعة المتفرقة هنا وهناك، سرعان ما التهمتها الكلاب الشرهة.

في أثناء دخول المسيحيين الميـدان كان فينيكوس، وفاء منه بوعده، قد نهض، واستدار ليشي بمكان تخفي الحواريّ بين رجال بترونيوس، ثم جلس ثانيّة، ليشاهد بعينـين زجاجيتين، ووجه انعدمت فيه الحياة، تلك الواقعة الفظيعة. كان القلق قد تملكه في البدايّة لشعوره بأن ليفيا قد تكون بـين الضحايا، لكنه بعد سماعه الهتافات "مع المسيح! " ورؤيته هذا القـدر الهائل من الشهـداء، الذين واجهوا العـذاب والموت فداء لالههـم، ومبادئهم، انتابته مشاعر أخرى، غـير محتملة واليمه كأقسى ما هنالك من الام.

ولكـن إن كان المسيح قـد واجه عذاب المـوت، وإن كان الالاف الان يقدمون ارواحهم، ويبذلون الدماء مهراقة، باسمه، فكل شيء بعد ذلك يبدو ضئيلا، لا أهميّة، ولا معنى له، والسعي لطلب الرحمة بات خطيئة كبرى.

نبعـت هـذه الفكرة من أرض الميدان وحل قت اليـه ممتزجة بأنين

الموتـى، ورائحـة دمائهـم. ورغم ذلـك راح يصلـي، ورددت شفتاه الراجفتـان: " يـا مسيح ! يـا مسيح ! تلميـذك الحواريّ أيضـاً يصلي لأجلهـا". وكان بذلك أن فقد إدراكه، فلم يعد يدري أين يكون. كان فقـط يشعر أن الـدم ما زال يسفـك ويسفك حتى ارتفـع منسوبه في الميدان، وفاض من السيرك وأغرق كل روما.

ولم يكـن يسمع شيئـاً، لا نباح الكلاب، ولا زمجـرة الشعب، ولا صيحة الاوغستيان المباغتة:

ـ شيلون أغمي عليه.

ورددها حتى بترونيوس ملتفتا نحو اليوناني.

كان قـد أغمـي عليـه فعـلا. أقعـى هناك بوجـه شاحـب، ورأس مسترخيّة، إلى الخلف، وفم فاغر كالجثة.

في هـذه اللحظة قدم إلى الميدان مجموعة أخرى من الضحايا بجلود الحيوانات.

ركع هؤلاء كسابقيهم حالا، لكن الكلاب المنهكة حتى آخر رمق، لم تشأ أن تنقض عليهم، باستثناء قلة قليلة هاجمت أقرب الراكعين، أما الكلاب الاخرى فقد استرخت مقعـي ة لاهثه، فاغرة أفواهها الداميّة نحو الاعلى.

عندئـذ بدأ الشعـب المضطرب في أعماقه، لكـن الثمل من الدماء، المتعطش اليها، يصدر زئيرا يصم الاذان :

الاسود ! الاسود ! أطلقوا الاسود !...

كانت النيّة أن يكون إطلاق الاسود في يوم الغد، لكن الشعب تحدى الجميع ومنهم القيصر، وحاول فرض إرادته. وحده كاليغولا الارعن، المتطرف الميول، كان يجرؤ على الوقوف في وجه إرادة الشعب، فلجأ إلى جلدهم أحيانا، لكنه استجاب لهم أحيانا أخرى.

أما نيرون فكان التصفيق أهم الاشياء بالنسبة اليه، فلم يكن ليعارض ابدا، فكيف الان يلجأ إلى تهدئة الشعب الغاضب، والأمر يتعلق بإحراق المدينة الذي حمل المسيحيين تبعاته.

أشار إذن لفتح الابواب. هدأ الشعب. صرت المغاليق، وما إن رأى الكلاب الاسود حتى انحشرت في ركن ناءٍ من الميدان، وراحت تنبح نباحا خفيفا. فيما تتالت الاسود الضخمة الشاحبة في الدخول إلى الميدان. القيصر نفسه التفت بوجهه الفاتر نحوها، ورفع نظارته الزمرديّة إلى عينيه ليراها جيدا. استقبل الاوغستيان الوحوش بالتصفيق.

وراح الجمهور يحصيها على أصابعه، في وقت يتابع بفضول مدى تأثيرها على المسيحيين الراكعين في وسط الميدان، والذين أخذوا يرددون العبارة الغريبة المجهولة من قبل الكثيرين "دم المسيح! مع المسيح!".

ولكن لم يجد نفعا أن الاسود قد جوعت، فلم تهاجم فرائسها على الفور. كان الضوء الاحمر الذي يغطي الميدان يؤثر على عيونها، فراحت تتفحصها بانبهار:

بعض منها تمطى، وبعض أخر فغرت أفواهها كأنما أرادت أن تعرض أنيابها الرهيبة على الجمهور. الا أن رائحة الدم ومشهد الاجساد الممزقة المرميّة بكثافة قد أثرت بها. فسرعان ما اضطربت حركاتها،

وانتعشت أعرافها، وشخرت. قفز أحد الاسود إلى جثة امرأة منهوشة الوجه، وأخذ يلعق الدم المتجمد فوقه، واقترب أسد أخر من رجل مسيحي يحمل بين ذراعيه طفلا يرتدي جلد غزال. ارتجف الطفل من شدة البكاء، وتشبث بعنق أبيه. أما الاب رغبة منه ان يطيل من عمر ولده لحظة على الاقل، حاول إفلات يدي الطفل من حول عنقه، لكي يودعه لدى الراكع الابعد. لكن الصراخ، والحركة أثارا الاسد، فما كان منه الا أن مزقه بخطفة واحدة من براثنه، ليقبض بأنيابه على رأس الوالد ويسحقها بطرفة عين.

وقد رأت الاسود ذلك، انقضت بأجمعها على المسيحيين. بعض النسوة لم يستطعن كتم صرخة الرعب. لكن عاصفة التصفيق غطت على صرخاتهن، الا أن التصفيق سرعان ما خمد، لأن الشعب فضل أن يكرس جل انتباهه على المشاهدة.

حدثت الان فظائع أمام عيون المشاهدين: رؤوس بشريّة في أفواه الوحوش، صدور مشطروطه بالانياب، وقد نفرت منها قلوب ورئات.

طقطقات عظام بين أسنان الاسود، بعض الاساد كانت تقبض على ضحاياها من أجنابها أو ظهروها، وتجري بها جريا مسعورا، وكأنها تريد أن تنحى بها إلى جانب مستور في أرض الميدان تلتهمها فيه. آساد أخرى كانت تعانق بعضها بأنيابها، كما يفعل المصارعون، وتملأ المدرج بزمجراتها الهادرة.

قفز الناس عن أماكنهم وغادر الكثير مقاعدهم، ونزلوا إلى صفوف أدنى ليشاهدوا الميدان عن كثب، وتدافعوا تدافعا قاتلا، حتى بدا أن الجمهور الحانق يندفع إلى الميدان لينافس الوحوش على المسيحيين.

هنا زئير لا إنساني، هنا تصفيق، هنا صراخ وضجيج، صرير أسنان، عواء كلاب. وفي مكان أخر لا يسمع الا أصوات النواح والانين.

والان كان القيصر أيضاً يشاهد ما يجري واضعا الزمردة أمام عينيه. بترونيوس كان مشمئزا يشعر بطعم كريه في فمه، وتتوزع وجهه علائم الاحتقار. شيلون كان قد أخرج باكرا من الميدان.

لم يتوقـع الدفـع بضحايا جديدة إلى الميـدان. كان الحواريّ بطرس يراهـم من أعلـى المدرج. أما هو فلم يكن يراه أحـد، لأن العيون كلها توجهـت إلى الميـدان. الأمـر الـذي أتاح لـه أن يقف مودعـا بإشارة الصليب، الاخوة الوارثين بـين أنياب الوحوش، ودماءهم، وعذابهم، وأجسادهـم الميتة الممزقـة الشوهاء، وأرواحهـم المحلقة وقد غادرت رمل الميدان الدامي.

نظـر البعض عاليا اليـه، وأشرقـت وجوههم بالابتسـام حين رأوا مـن بعيد يرسم إشـارة الصليب فوقهم. أما هو فقـد راح يصلي بقلب دام : " يـا سيدي، لتكـن مشيئتك أنت، لأن خـرافي هؤلاء تموت من أجل مجـدك، وإثباتا للحق. لقد أوصيتني أن أرعاهم. وها أنذا أعيدهم اليك. أما أنت يـا سيدي فخذ بحسبانك، أن تأخذهم اليك، وتداوي جراحهـم، وتخفف من الامهم، وامنحهم سعـادة تفوق ما عانوه هنا من عذاب "

وودعهم واحدا واحدا، وباركهم بكل المحبة مجموعة بعد أخرى، وكأنهـم ابنـاؤه السائرون ليكونـوا مباشرة بين يـدي المسيح. في هذه الاثنـاء همس القيصر شيئـاً في أذن قائد الحرس، فغـادر الاخير المنصة وبعد لحظات رأت الجماهير أن الابواب تفتح من جديد أمام الحيوانات المفترسة أفلتت الان إلى الملعب كل أنواع الوحوش. نمور، دببة، فهود،

ذئاب، ضباع، ابناء آوى. غطت أرض الميدان مختلف الجسوم الحيوانيّة المبرقعة، والغبراء، والصفراء، والبنيّة، والمخططة.

خليط هائل دهم المكان، حتى لم يعد بالامكان تبين أي شيء، سوى هذه الكثافة الحيوانيّة، المتحركة. لقد فقد المشهد فطره الواقعي مسحته الواقعيّة. واستحال إلى طقس عربيد دامٍ، إلى كابوس مروع، وتشاؤميّة سوداويّة يعاني منها دماغ مريض. طفح الكيل. الزئير الحيواني، والعواء، والزمجرة، جعلت بعض النسوة في مقاعد المتفرجين هنا، وهناك، وقد فقدن السيطرة على أنفسهن، يتعرضن لنوبات من الضحك.

أصاب الناس الجزع، وتجهمت وجوههم، وارتفعت أصوات تهتف: " كفى ! كفى ! "

لكن إدخال الحيوانات إلى الميدان كان أسهل من إخراجها. لكن القيصر اكتشف طريقة لتنظيف الميدان، وذلك بإضافة متعة جديدة إلى الجمهور. ظهر في كل ممر بين المقاعد مقاتلون زنج في آذانهم ريش وحلى، وفي أيديهم أقواسَ رمايّة. اكتشف الشعب ما سيجري، فهلل عاليا.

تقدم النبالون من الحواجز، وعلقوا النبال في الاقواس. وصوبوها نحو الحيوانات. كان ذلك مشهد جديدا في الواقع. مالت الاجساد الزنجيّة الرشيقة إلى الخلف، وشدوا الاقواس المرنة، ثم أخذوا يطلقون نبالهم واحدا بعد آخر. امتزج رنين الاوتار وأزيز الرماح المريشة، بزئير الوحوش، وصراخ الجمهور الذاهل. سقطت الذئاب والدببة، والفهود وما تبقى من بشر على قيد الحياة، كلها تهاوت بكثافة إلى جانب بعض. وقام الاسود هنا وهنا، بإدارة رؤوسها نحو الخلف، وعض الرماح العالقة بأجنابها وتحطيمها. بقيّة الحيوانات عوت في

الامها. الوحوش الضئيلة الحجم جرت مذعورة في أرض الميدان، ثم سقطت على جباهها أو ظهورها، أو اصطدمت بالحواجز الشبكيّة. لكن الرماح لم تتوقف عن الازيز حتى نالت من كل كائن حي، وأردته قتيلا فوق رمل الميدان.

في هذه الاثناء دخل أرقاء السيرك بالمئات إلى الميدان، وفي حوزتهم الرفوش والمجاريف، والمكانس، ويجرون عربات، ويحملون سلالا، لجمع الامعاء المندلقة، وأدخلوا معهم أكياسا جديدة من الرمل. دخلوا مجموعة إثر مجموعة، وسرعان ما نظفوا الميدان من الجثث، والدماء والروث، ثم قاموا بتسويّة أرضه، ونشروا فوقها طبقة جديدة من الرمل.

ثم جاء أطفال مجن حون بصورة كيوبيد، وراحوا يرشون الرمل بتويجات الورد، والزنبق وشتى أنواع البتول. ومن جديد اشعلت المباخر، وأزيلت مظلة المدرج لأن الشمس قد جنحت بشدة نحو المغيب.

تبادل الجمهور النظرات، وتساءلوا فيما بينهم: ترى أي فرجة تنتظرهم في هذا اليوم بعد؟

وفي الواقع لقد حصل ما لم يتوقعه أحد. قيصر الذي كان قد غادر المنصة منذ وقت طويل، عاد ليظهر الان في الميدان الزاهر بالورود، بحلته الارجوانيّة، وإكليله الذهبي. كان في إثره اثنا عشر مغنيا، بالاتهم الوتريّة، أما هو فقد حمل قيثارا، وتقدم بخطوات مراسيميّة نحو الوسط لم يبخل ببعض الانحناءات لجمهور المشاهدين، رفع عينيه نحو السماء، وظل على هذه الحال بعضا من الوقت كأنه ينتظر أن يجيئه الالهام.

ثم انحنى على قيثاره، وأخذ يغني:

يا بن لاتونا المجيدة رامي السهام بعيدا

ملك كريسي، سيد تندوس المقدسة

يا من حميت بترسك الواقي

قلعة اليون البرجيّة الالهيّة

لم تخليت عن شعبك الطروادي

الذي ضحى بوفاء في معبدك

آه، كيف احتملت

أن يهدم غضب الاكاويين المتوحش قلعتنا

النساء، الأطفال، الرجال، الشيوخ

بسطوا أياديهم المرتعشة نحو السماء :

حتى الحجارة الخشنة رجمت عليهم

وسمعك أنت أصم، بلا إحساس !

عزفتَ على قيثارك الموسيقا المرحة

خالجها التأوه، والصلاة، والشكوى، والتنهدات

لكن قلبك القاسي

لا يستشعر بؤس الالاف.

وشيئاً فشيئاً اتخذت الاغنيّة منحى مأساويا

ساد الصمت في الميدان. وبعد وقت قصير استأنف القيصر الغناء :

لكن أعيننا عابسة الان

دامعة كزهرة نديّة

غارقة في الالام

لأن النيران أتت على اليون

أين كنت آنذاك، يا سمينتوس الالهي

لتدع قلعتك الالهيّة تضيع؟

وإن لم تحمنا في خرابنا

فمن سيتقدم اليك بالقرابين؟

ارتعش صوته، واغرورقت عيناه بالدمع. ودمعت كذلك عيون عذراوات فيستا. أصغى الشعب صامتا، لكنه ما لبث أن انفجر بعاصفة لا تنتهي من التصفيق.

في هذه الاثناء كان يسمع في الممرات المفتوحة صرير العربات التي تنقل بقايا الرجال والنساء والأطفال المسيحيين المدماة لوضعها في حاويات ضخمة تدعى بوتيكولوم

فيما كان الحواريّ بطرس يعقد يديه حول رأسه الاشيب ويصرخ في أعماقه :

" سيـدي ! سيدي ! لمن أعطيـت السيادة على العالم؟ ورغـم ذلك تريد أن تثبت عرشك الملكوتي في هذه المدينة؟ ".

٥٧

في هذه الاثنــاء مالت الشمس نحو الغـرب، وأوشكت أن تذوب متوهجــة. انتهت العاب السيرك. وتدفقــت الحشود تغادر المدرج عبر المخارج المسماة فوميتوريوم، وتبعثرت في المدينة. وحدهم الاوغستيان من تخلــف لأنهم كانوا ينتظـرون ابتعاد الموجة البشريّــة. ترك الجميع مقاعدهم وتحلقوا حول المنصة، التي عــاد اليها القيصر مجدّداً، ليستمع إلى الاطراءات.

لقــد كافأه الجمهور بالتصفيق طبعا، حين أنهى غناءه، لكن ذلك لم يكــن ليرضيه، لأنه ينتظر حماسا جنونيــا. لم تنفع أناشيد التمجيد التي صدحت، ولا انعكاف عــذراوات فيستا على تقبيل القيصر، في وقت مالت فيه روبريا نحوه، حتى أوشك شعرها الاشقر أن يلامس صدره. كل ذلــك لم يرضه، و لم يستطع إخفاء ذلك. والــذي أقلقه أيضاً، وزاد مــن استغرابــه أن بترونيوس ظــل صامتا. كان يتمنى منــه لو كلمة ثناء واحده تواسيه، وتعطي للغناء قيمة وأهميّة.

ولما فرغ صبره، أشار لبترونيوس حين جاء إلى المنصة.

قال نيرون :

ـ قل لي...

ـ ساكــت لأني لم أعــثر على عبــارات أجاب بترونيوســ ببرود لقد تجاوزت نفسك.

ـ هذا ما ظننته أنا أيضاً، وهذا الشعب رغم ذلك...

ـ كيف ترغب من هؤلاء الرعاع أن يفهموا في الشعر.

ـ بمعنى أنك لاحظت أنهم لم يقدروا الاغنيّة بالدرجة التي أستحقها؟

ـ لأن اخترت وقتا رديئا.

ـ لم؟

ـ لأن الرؤوس التي دوختها رائحة الدم، لا تستطيع أن تصغي بانتباه.

ضغط نيرون على قبضته وأجاب :

ـ آ، هؤلاء المسيحيون ! لقد أحرقوا روما، وهاهم يحاولون أن يهينوني. فأي عقاب آخر سأوجهه اليهم بعد؟

لاحظ بترونيوس أنه يسير في اتجاه سيء، لأن ما نطق به الان ولد تأثيرا على العكس ممّايأمله فيه. ومحاولة منه لتشتيت أفكار نيرون مال نحوه وهمس قائلاً :

ـ أغنيتك بديعة، وملاحظتي الوحيدة أن المقطع الشعري ما قبل الاخير ليس تام الوقع في سطره الرابع.

احمر نيرون، وكأن وصمة من العار قد الحقت به، فرمق بترونيوس بنظرة جزعة، وأجابه هامسًا على نفس المنوال :

ـ أعلم أنك تلاحظ كل شيء !... سأعيد النظر في المقطع !... لكن أحدًا لم يلاحظ هذه الهنّة أليس كذلك؟ أما أنت... حبًا بالالهة... لا تجهر بالأمر أمام أحد... إذا كنت تحبّذ حياتك...

قطّب بترونيوس حاجبيه، وكأنه سئم المسالة، فكان ردّه لا كما ينبغي :

- لك أن تحكم علي بالموت، أيها القيصر الالهي، إذا كنت أقف في طريقك، لكن لا تهددني بالموت، لأن الالهة يدركون جيدا أنني لا أخافه.

كان يتكلم مثبتا حدقيته في عيون القيصر الذي قال بعد قليل :

- لا تغضب... تعلم أنني أحبك...

فكر بترونيوس في داخله " إشارة سيئة "

كان القيصر يتابع الكلام :

- كنت أنوي اليوم دعوتك إلى مأدبة، لكني سأهتم بتصحيح السطر الرابع اللعين من المقطع الثالث في القصيدة. ما عداك، لعل سينكا و سيكوندوس قد لاحظا الخطأ، لكني أستطيع أن أتخطاهما.

ودعا سينكا اليه، وأخبره بأنه سيرسله برفقة كل من أركراتوس و سيكوندوس إلى إيطاليا بحثاً عن المال، وبأوامر منه يقلبون المدن، والقرى، والمعابد الشهيرة، أي كل الاماكن التي يحتمل أن يجدوه فيها. لكن سينكا، وقد أدرك أنه مكلف بأعمال سلب ونهب، فقد رفض الفكرة قائلاً :

- علي أن أسافر إلى القريّة يا سيدي، لأنتظر الموت هناك، فقد أصبحت عجوزا،وأعصابي مريضة.

كانت أعصاب سينكا الايبريّة أصلب من أعصاب شيلون، ولعلها

لم تكـن معتلة، لكن صحته بالعموم كانـت واهنة. كان كالشبح، وقد كسا الشيب كل رأسه في الاونة الاخيرة.

نظر نيرون اليه، وفكر أن سينكا بانتظار الموت حقا، فكان رد ه :

لســت راغبا في إرهاقك بمهمات جديدة إن كنت مريضا، لكن بما أني أحبك. فأقترح عليك، بدلا من السفر إلى القريّة أن تغلق عليك باب البيت ولا تغادره.

وأطلق قهقهة عاليّة واستأنف كلامه :

- إن أرسلـت أكراتوس و كايناس بمفردهمـا، كأني أطلق ذئابا على حملان. من أضع على رأسيهما؟

فتطوع دوميتوس آفر قائلاً :

- أنا، يا سيدي !

- لا ! لا أريـد أن أصـب علـى رومـا غضـب مركوريوس الذي ستجلبـون له العار بلصوصيتكـم أنا أحتاج إلى رواقـي مثل سينكا أو صديقي الفيلسوف الجديد شيلون.

وقال متسائلا وقد أدار بعينيه على من حوله :

وماذا عن شيلون؟

كان ذاك قـد استعـاد وعيه في الهواء الطلـق، ورجع إلى المدرج في أثناء وصلة القيصر الغنائيّة ليقول :

- أنا هنا، يا نور الشمس والقمر. كنت مريضا، وشفاني غناؤك.

فقال نيرون :

ـ سأرسلك إلى أكايا وهناك ينبغي عليك أن تعلم بمنتهى الدقة كم من المال بحوزة كل عبد.

ـ افعل ذلك، وسوف يغدق عليك زيوس والالهة، كما لم يغدقوا على أحد من قبل.

ـ سأفعل، لكني لا أريد أن أضيع عليك فرصة الاستمتاع بالعاب السيرك.

فصرخ شيلون :

ـ يا بعل !

أما الاوغستيان فقد سروا لاستعادة القيصر مزاحه الرائق، فصرخوا ضاحكين :

ـ لا يا سيدي ! لا تمنع اليوناني فرصة الاستمتاع بالالعاب.

فأجاب شيلون :

ـ لكن جردني من ثرثرات جماعة الاوز الكابيتوليّة هذه، التي لا تملأ عقولها مجتمعة قمع حبة بلوط. أنا أعكف الان على نظم نشيد باللغة اليونانيّة لتمجيدك، يا سليل أبولو البكر، وأرجو منك أن تمنحني فرصة الاقامة بضعة أيام في معبد موزيه حارسة الفنون والشعر والعلوم، لأتوسل الالهام.

فصرح نيرون :

لا، لا ! إنك ترغب في التهرب من متابعة بقيّة الالعاب.

اطمئن فليس فيها ما يخيف.

ـ أقسم يا سيدي بأني أنظم نشيدا.

ـ ستلحق وتنظمه في كل ليلة. توسل ديانا من أجل الالهام، فهي أخت أبوللو الصغرى. أطرق شيلون، ورنا بنظرات حانقة إلى الحضور الذين أخذوا يضحكون. أما القيصر فقد التفت إلى سينيكيو و سوليوس قائلاً :

ـ تصورا أننا لم نستطيع أن ننهي في هذا اليوم الا نصف المسيحيين على الأكثر.

فانبرى ريفولوس العجوز، الخبير المتمرس بشؤون الالعاب في المدرج يقول بعد تفكير قصير :

ـ تلك العروض التي يقوم بها أشخاص سين أرميس السين تدوم طويلاً لكنها غير ممتعة.

فكان رد نيرون :

ـ ناولوهم أسلحة

لكن فيستينوس المأخوذ بالخرافة ارتعشت أوصاله من شطحات القيصر فنطق قائلاً :

ـ الم تلاحظوا أن هؤلاء حين يمضون إلى حتفهم يرون شيئاً ما؟ ينظرون نحو الاعلى، ويواجهون الموت دون خوف أو معاناة. أنا واثق أنهم يرون شيئاً ما...

ورفع عينيه نحو فتحة المدرج التي نشر المساء فوقها مظلته المدروزة بالنجوم. لكن الاخرين قابلوا كلامه بالضحك، والتعليقات الساخرة. في هذه الاثناء كان القيصر قد أشار للأرقاء اصحاب المشاعل، ثم غادر السـيرك ليلحق به عـذراوات فيستـا، والسيناتـورات، والمسؤولون، والاوغستيان.

كانت أمسيّة حارة، منـيرة. وكانت الحشود ما زالت متجمعة أمام السيرك، لتشهد انصراف القيصر، لكنها بدت صامتة متجهمة، ما عدا بعض التصفيق الذي تخامد شيئـاً فشيئاً هنا وهنـاك. فيما لو تتوقف العربات عن شحن بقايا الاعضاء الداميّة للمسيحيين.

توجه بترونيوس و فينيكوس إلى البيت صامتين. و لم ينطق بترونيوس الا قبل بلوغ الفيلا بقليل.

ـ فل فكرت فيما قلته لك؟

ـ أجل.

ـ أتصـدق أنها باتت قضيّة تهمنـي الان كثيرا؟ علي أن أنقذها رغم أنـف القيصـر و تيفالنيوس. لقد عقـدت العزم علـى أن أفوز في هذه الحـرب. لعبة وعلى أن أربحها ولـو كلفني ذلك حياتي... وهذا اليوم قو ى من عزيمتي.

ـ جزاك المسيح لهذا خيرا.

ـ سترى

كانـا قد صـارا قرب باب الفيـلا، فترج لا من الهـودج. فتقدمت نحوهما هيئة قائمة وبادرتهما بالسؤال :

ـ هل النبيل فينيكوس هنا؟

ـ هنا أجاب الحاكم فينيكوس ماذا تريد؟

ـ أنــا نازاريوس بن مريام. جئت مــن السجن، حاملا لك خبرا عن ليفيا.

وضــع فينيكوس يــده على كتف الصبي ونظــر في عينيه على ضوء الشعلــة، دون أن يتمكن من النطق بكلمة. لكن نازاريوس قرأ السؤال الراقد على شفتي الشاب، وأجاب عنه في الحال :

ـ مــا زالت على قيــد الحياة. يبلغــك أرسوس أنهــا تصلي وهي في غيبوبتها من الحمى، وتذكر اسمك.

فأجابه فينيكوس :

ـ لتحمد المسيح الذي يستطيع أن يعيدها الي.

ثم قاد نازاريوس إلى المكتبة، ولحق بهما بترونيوس بعد قليل، ليسمع حديثهما.

قال الصبي :

ـ لقــد أنقذهــا المرض مــن العــار، لأن الحراس يخشــون العدوى. أرسوس والطبيب كلاوسوس لا يفارقان سريرها.

ـ ما زال هناك الحراس أنفسهم الان؟

ـ أجل يا سيدي، و ليفيا في غرفتهم. الذين كانوا في السجن الاول، قتلتهم الحمى، أو اختنقوا من الهواء الفاسد.

ـ من أنت؟ سال بترونيوس

ـ النبيل فينيكوس يعرفني. أنا ابن امرأة أرمل أقامت ليفيا عندها.

ـ مسيحي؟

خص الصبي فينيكوس بنظرة متسائلة، وحين رآه يصلي في هذه اللحظة، أجاب :

ـ أجل

ـ وكيف لك أن تؤم السجن بحريّة؟

ـ التحقت بعمل نقل الجثث. تقصدت ذلك لأساعد أشقائي، وأنقل لهم الاخبار من المدينة.

تملى بترونيوس وجه الصبي الجميل، وعينيه الزرقاوين، وشعره الاسود الكث، ثم ساله

ـ من أين تنحدر أيها الصبي؟

ـ من غاليليا يا سيدي.

ـ هل تتمنى أن تتحرر ليفيا؟

ـ لو كلفني ذلك حياتي.

قطع فينيكوس صلاته، والتفت إلى الصبي ليقول :

ـ قل للحراس أن يضعوها في تابوت وكأنها ميتة. وخذ معك أشخاصا لتخرجوها في الليل. عند حفر النفايات سينتظركم بنقالة من

ستسلمونهم التابوت. عد الحراس باسمي أنهم سينالون من الذهب ما لا تتسع له جيوبهم.

وفي مجـرى كلامـه، كان وهنه المقيم قد أخذ يتلاشـى، لينتعش من جديد ذلك الجندي. أعاد اليه الامل طاقته السابقة.

تور د نازاريوس من فرط سعادته، وصرخ رافعا يديه :

ـ ليمنحها المسيح الصحة، لأنها ستتحرر !

فسأله بترونيوس :

ـ أتظن أن الحراس سيوافقون؟

ـ أولئك يا سيدي؟ ما داموا واثقين بأن عقابا لن يمسهم، ولا أذى !

استحسن فينيكوس كلامه قائلاً :

ـ حقـا. كان الحراس سيوافقون علـى هروبها، فكيـف لهم أن لا يوافقوا على نقلها بالتابوت، وهو أمر أسهل بكثير.

ـ هنـاك من يتأكد من مـوت الجثث بفحصها بالحديـد الحامي قبل نقلها، وهو من أجل سيستريوسات قليلة لا يلمس بالقضيب الحديدي المحمى وجه الجثة، أما من أجل أوروس واحد فيلمس خشب التابوت متصنعا أنه لامس جسدها.

قال بترونيوس :

ـ قـل له أنـه سيحصل على كيس من الاوروسـات. لكن هل ستعثر على مساعدين ثقات؟

ـ هناك من يبيعون زوجاتهم وأولادهم من أجل المال.

ـ أين نجدهم؟

ـ في السجــن، في المدينة. الحراس المرتشــون يسمحون لي بإدخال من أريد.

ـ أدخلنــي إذن كعامل طلــب اليه فينيكوس، لكــن بترونيوس أقنعه بالعدول عن الفكرة خشيّة أن يتعرف اليه الجنود حتى إن كان متخفيا.

قال بترونيوس :

ـ لا في السجــن، ولا في حفــر النفايات. المهــم أن يعرف الجميع، وعلــى رأسهــم القيصــر و تيفالنيوس أن ليفيــا قد ماتــت، والا فستتم ملاحقتها. ولن تــزول الشبهة الا بإبعادها إلى جبال الالــب، وربما أبعد من ذلك، إلى سيسيليا.

ونبقى نحن في روما. ولن تتمارض أنت الا بعد أسبوعين أو ثلاثة، وتستدعي طبيب نيرون الذي سيقترح عليك الرحيل إلى الريف الجبلي. ثم تلتقيان،وبعدئذ...

وفكر للحظة، ثم أضاف وهو يهز برأسه :

ـ بعدئذ، قد نكون دخلنا في أزمنة أخرى

تنهد فينيكوس :

ـ ليشملهــا المسيح برأفته. أنت تتحدث عن سيسيليا بينما هي تعاني من المرض، وقد تموت

ـ دعنا نضعها الان في مكان أكثر قربا، والهواء الطلق سوف يعافيها، المهــم الان إخراجها من السحن. الا تعــرف أحدا نستأجره في الجبال يمكن الوثوق به؟

فأجاب فينيكوس على الفور :

ـ أعرف. في نواحي كوريولي في الجبال شخص رعاني في طفولتي، وما زال يحبني حتى الان.

ناوله بترونيوس لفافة قائلاً :

ـ اكتب له أن يجيئنا غدا. سأرسل الخيال في الحال.

وعلى الفور دعا ناظر الأتريوم وزوده بالتعليمات اللازمة. وبعد قليل كان العبد الخيال جاهزا للانطلاق مساء إلى كوريولي.

علق فينيكوس قائلاً :

ـ أود لو أن أرسوس يرافقه في الطريق... سأكون أكثر اطمئنانا...
فتفوه نازاريوس :

ـ سيدي ! إنه رجل قوي جدا. سيقوم بتحطيم الشبكة الحديديّة، ثم يهرب من النافذة في الجدار العالي، حيث لا وجود لأي حارس هناك، بعد أن أزوده أنا بحبل يتسلق عليه.

صاح بترونيوس :

ـ يا هيركوليس ! ليهرب كيفما يشاء، لكن دون اصطحاب ليفيا، وليس بعد يوم أو يومين لكيلا يكتشفوا الأمر. يا هيركوليس ! تريدون أن تخسروا أنفسكم معها؟ أمانع أن تلمحوا أمامها إلى كوريولي، والا سأنفض يدي من المسالة.

اعترف كلاهما أنه محق، وغادراه. ثم انصرف نازاريوس واعدا أنه سيجيء عند الفجر. كان يأمل أن يحرز اتفاقا مع الحراس ليلة ذلك اليوم، الا أنه رغب في رؤيّة أمه الذي ظل قلقا عليها. وبعد تقليب جاد

للأمــور قرر الا يبحث عن مساعــدة في المدينة، بل أن يلجأ في السجن إلى رشوة أولئك الذين عمل معهم في نقل الجثث.

لكنه قبل أن يرحل، انتحى بفينيكوس جانبا وهمس له :

ـ سيدي، لن أبوح بقصــدي لأحد، حتى ولا لأمي، لكن الحواريّ بطرس وعدنا بالمجيء الينا من المدرج، وسأفضي له بكل شيء.

فطمأنه فينيكوس قائلاً :

ـ في هــذا المنزل يمكنك التحــدث بصوت عال. الحــواريّ بطرس ذهب إلى المدرج برفقة رجال بترونيوس. على أيّة حال سأذهب معك.

وطلب أن يأتوه بعباءة أرقاء، وانطلق.

أخذ بترونيوس نفسا عميقا

" مــن جانبــي أنا كنت أتمنى لو أنها فارقــت الحياة نتيجة لمرضها، لأن ذلــك أحلى الأمرين بالنسبة لفينيكوس. لكني الان أتمنى أن تشفى ولــو كلفني ذلك كيسا مــن الذهب تقدمه منــي إلى اسكولا بيوس... ويحــك ياذا اللحيّة الحمراء، تريد أن تتلذذ بعذابات الشاب العاشق... ويحــك يا أوغستا، كنت من قبل تغارين من جمالها، والان تريدين أن تلتهميهــا لأن روفيوس ماتت... ويحــك يا تيغالنيوس، تريد أن تودي بحياتها لتقهرني !

لــن يتحقق مــا تصبون اليه، فلن تروها في الميــدان. لأنها إن لم تمت مريضة، فسأخطتفها بعيدا عن متناول أيديكم لكي لا تتلقفها الكلاب. وأعدكم بأننــي كلما رأيتكم سأقول : ها هم أولاء الحمقى الذين هزئ منهم بترونيوس ".

وغير راضٍ قصد التريسيليوم لتناول الطعام مع يونيكي وخلالها قرأ عليها القارئ بعض قصائد ثيوكريتوس الرعويّة. في الخارج كانت الرياح تحمل سحابا باتجاه سوراكتي، وما لبثت العاصفة أن عكرت الامسيّة الصيفيّة الهادئة. أرعدت في جهاتها السبع، فيما كانا حول المائدة يصغيان بهدوء إلى أغاني الشاعر الرعوي، الذي عبر غنائيا عن الحب الرعوي بلهجة الدوريين في اللغة اليونانيّة، ثم تهيأ للذهاب إلى النوم.

وقبل أن يهما بالتحرك وصل فينيكوس. حين علم بترونيوس بقدومه خرج اليه وسأله :

ـ ماذا لديك من أنباء جديدة؟ هل رجع نازاريوس إلى السجن؟

ـ رجع ليتدبر هناك أمر الحراس، وأنا التقيت بطرس الذي قال لي أن أصلي،وأتحلى بالايمان.

ـ حسنا. إذا سار كل شيء على ما يرام، فغدا ليلا يمكن إخراجها...

ـ ينبغي أن تكون هنا فجرا برفقة الاجير

ـ الطريق ليس طويلاً، فاخلد إلى النوم.

لكن فينيكوس جلس في السوبرسلوم، وأخذ يصلي. وعند طلوع الشمس وصل المستأجر نيفر من الريف الكوريولي، ومعه بغال جلبها وفق تعليمات تلقاها من فينيكوس، وهودج، وأربعة رجال انتقاهم من بين الأرقّاء البريتانيلين ، لكنه ترك هؤلاء الاشخاص في نزل في سوبورا على سبيل الحيطة.

فينيكوس الذي أمضى ليلته ساهرا خرج إلى أمام الاجير، وما أن رأى الاجير سيده الشاب حتى اندفع اليه يقبل يديه وعينيه ثم قال :

ـ هل أنت مريض، يا عزيزي، أم الهموم امتصت الدماء من وجهك؟ كدت لا أعرفك في البدايّة.

قاده فينيكوس إلى ركن داخلي يدعى كسيستوس، وهنالك باح له بالسر. أصغى نيفر باهتمام كبير، وبان على وجهه الاسمر حماسه الشديد.

ـ مسيحي إذن؟

صرخ وتفحص وجه فينيكوس الذي فهم مبتغاه فكان جوابه :

ـ أنا أيضاً مسيحي.

تلالات الدموع في عيني نيفر صمت للحظة، ثم رفع يديه للدعاء :

ـ الحمد لك يا مسيح أنك أزلت الغشاوة عن هاتين العينين وهما أغلى ما لدي في هذا الكون.

وقام بمعانقة رأس فينيكوس، وبدموع الفرح راح يكيل جبينه بالقبلات.

وبعد قليل جاء بترونيوس، مصطحبا نازاريوس معه.

ومن بعيد قبل أن يصل، صاح :

ـ أخبار طيبة !

كانت أخبارا طيبة حقا. الطبيب كلاوسوس أولى ليفيا العنايّة الطبيّة،

وكان قد عانى من نفس المرض الذي أودى بحياة المئات في التوليانوم وفي السجن. وأفلح نازاريوس بالاتفاق مع صاحب الحديد المحمى في معاينة الموتى. كما نجح في مساومة أنتيس على تقديم العون.

فقال نازاريوس :

- لقد فتحنا ثقوبا في التابوت لتتنفس المريضة. وخشيتنا الوحيدة أن تعـود إلى وعيها، وتتكلم في أثناء مرورنـا قرب الحرس الامبراطوري، ولـو أنها تعـاني وهنا شديدا،وتستلقـي مغمضة العينين منـذ الصباح. أعطاها كلاوسوس مخدرا حضرّه بنفسه، ووصف لها أدويّة سأحضرها أنـا من المدينة. لن تقوم بإحكام غطـاء التابوت بالمسامير، ليسهل رفعه ووضـع ليفيا في الهودج أصغـى فينيكوس مشـدودا، شاحب الوجه لكلام نازاريوس وسأله بترونيوس :

- وهل يخرجون جثثا أخرى من السجن؟

فأجاب الشاب :

- مات حوالي العشرين، وسيموت غيرهم حتى المساء. ونحن سنسير معهـم. وسوف نتدبر أمرنا بحيث نتخلـف عنهم في الطريق عند أول منعطف، فانتظرونا عند معبد ليبيتينا. ندعو الله أن يجعلها ليلة دامسة.

- سوف يستجيب قال نيفر. سوف تستمر العواصف والرعود ليالي عدة.

وسأله فينيكوس :

- الن تحملوا مشاعل؟

ـ اصحاب المشاعل يسيرون في المقدمة فقط. انتظرونا عند المعبد في كل الاحوال. سنخرج الجثث قبل أن ينتصف الليل مباشرة. ساد صمت، و لم يسمع الا أنفاس فينيكوس اللاهثة.

التفت اليه بترونيوس :

ـ قلت لك البارحة أن من الافضل أن نلزم المنزل كلانا. لكني الان لا أطيق صبرا البقاء هنا... وعلى أيّة حال ما دامت المسالة مسالة تهريب، فينبغي أخذ الحيطة الشديدة، لكن بما أن هناك توابيت كثيرة فلا مجال للشكوك من قبل أحد.

شدد فينيكوس قائلاً :

ـ تماماً، تماماً. علي الانصراف. أنا الذي سأخرجها من التابوت...

وأعلن نيفر :

ـ وما أن تصبح في كوريولي فسأتكفل أنا بإيوائها في منزلي. وبهذا انتهى الحديث. انطلق نيفر إلى رجاله في النزل. وخبأ نازاريوس كيس الذهب تحت عباءته وقصد السجن. وبدأ الاضطراب يغزو فينيكوس. إنه يوم التوتر والانتظار العصيب.

قال بترونيوس :

يجب أن ينجح الأمر، لأن فكرة الخطة سليمة، وليس هناك أفضل منها. وأنت ينبغي عليك أن تلعب دور المفجوع، وتلبس رداء قاتما. ولكن لا تتخلف عن حضور الالعاب. دعهم يلمحوك هناك. الخطة تامة، خاليّة من الثغرات. ولكن هل أنت واثق من الاجير؟

فأجاب فينيكوس :

ـ إنه مسيحي !

رمقه بترونيوس بنظرة استغراب، وهز رأسه قائلاً كأنه يحدث نفسه :

ـ بحق بولوكس ! كيف انتشر هذا الدين ! وكيف استحوذ على نفوس البشر في وسط هذه الاهوال يجرؤ الناس على رفض كل الالهة الرومانيين، واليونانيين والمصريين... حالة استثنائيّة خارقة... لو كنت أحمل نوعا من الايمان بأن الهتنا تستطيع أن تفعل أي شيء، لنذرت لكل منها ستة ثيران بيض، ولخصصت جوبتر باثني عشر منها... ولا تبخل أنت بوعودك تجاه المسيح...

فقال فينيكوس :

ـ أنا منحته روحي.

وافترقا. رجع بترونيوس إلى السوبيسلوم، وذهب فينيكوس ليراقب السجن من بعيد، ثم إلى سفح تلة فاتيكانوس حيث الكوخ الذي تعمد فيه على يد الحواريّ. شعر أن المسيح سوف يصغي اليه هناك أكثر من أي مكان آخر. وما إن وجد الكوخ حتى ركع أرضا، وبدأ صلاة استحقت كل طاقاته الروحيّة المتوجعة. استغرق في تضرعاته، حتى نسي أن يكون، وما الذي حصل له.

وعند العصر أيقظه صوت البوق القادم من جهة سيرك نيرون. فخرج من الكوخ، ونظر حوله كما يفعل من يفيق الان من حلم كان فيه. في الخارج ساد الحر والسكينة، التي جر حها البوق بين لحظة وأخرى.

بدأ الهـواء يحمل الرطوبة، وفـوق المدينة كانـت السماء ما زالت زرقاء، ولكـن من ناحيّة جبال السابين وفي الطـرف السفلي من مجال الرؤيّة تجمعت غيوم قاتمة.

قصـد فينيكوس البيت. وكان بترونيوسـ في انتظاره هناك، فبادره قائلاً :

ـ كنـت في البالاتينوسـ تعمـدت أن يروني. في المسـاء مأدبة لدى أنيسوسـ. قلت لهـم ستكون هناك، لكـن بعد منتصـف الليل، لكي يتسنى لي النوم قليلا. أنا سأحضر، ومن الافضل حضورك أنت كذلك.

ـ هل هناك أيّة أخبار عن نيفر أو نأزاريوس؟

ـ لا. سنلتقيهما عند منتصف الليل. الم تلاحظ أن العاصفة قادمة؟

ـ أجل.

ـ عرضـ الغد مخصوص بتعليق المسيحيين فوق الصلبان، لكن المطر قد يعيق المسالة.

وتقدم أكثر ليأخذ بذراع فينيكوس ثم يضيف قائلاً.

ـ أمـا هي فلن تراها على خشبـة الصليب، بل ستلتقيها في كوريولي بحق كاستور ! لا أعو ض هذه اللحظة بجواهر روما كلها.

اقـترب المساء، واكتست المدينة باكرا بـرداء الظلمة، بعد أن غطت الغيوم المـدى. وحين حل الليـل انهمر المطر غزيـرا، ليتصاعد البخار مـن فوق الحجارة التي حم تها حرارة الشمس، ويملأ الضباب شوارع المدينة.

وأخيرا نطق فينيكوس قائلاً :

- هيا بنا، فقد يخرجون الجثث باكرا بسبب العاصفة.

فأجاب بترونيوس :

- لدينا الوقت الكافي.

وخرجوا إلى الطريق، وهم يرتدون عباءاتهم عابرين باب الحديقة. وحمل بترونيوس ما يسمى سيكا رومانيّة، كانت تلازمه دوما في كل واجباته الليلة.

كانت المدينة خاليّة بسبب العاصفة. كانت البروق الذاهبة بالابصار تخترق الغيوم بين فترة وأخرى، وتظهر جدران الابنيّة الحديثة التي لم تستكمل بعد، إضافة إلى حجارة الطريق المبللة. وبعد أن قطعوا مسافة طويلة، لمحوا على ضوء البروق الرابيّة الصغيرة التي انتصب فوقها معبد ليبيتينا الصغير، وكان ينتظر أسفلها مجموعة من البغال والخيول.

نادى فينيكوس بصوت خفيض :

- نيفر !

فرد عليه صوت تحت المطر :

- أنا هنا يا سيدي !

- هل كل شيء على ما يرام؟

- أجل يا عزيزي، نحن هنا منذ حلول المساء. لكن تعالوا إلى تحت الجرف اتقاء لمزيد من البلل. يا لها من عاصفة ! أظن أنها ستمطر بَرَدا.

وسرعـان ما تحقق توقع نيفر، فأبْرَدت حبات صغيرة متفرقة في البدايّة، ثم تكاثف البرد حبات أكبر فأكبر، جعلت الهواء باردا على حين غرة.

التجؤوا تحت الجرف توقيا للرياح وحبات البرد، وراحوا يتحدثون بصوت خفيض.

قال نيفر :

ـ حتـى لو رآنـا أحدهم، فلن يساوره الشك، لأننـا نقف هنا، وأننا ننتظـر انتهاء العاصفة. أمر واحد أخشـاه، أن يرجئوا نقل الجثث حتى يوم غد.

قال بترونيوس :

ـ لـن يدوم البَرد طويـلاً. علينا أن ننتظر. وانتظـروا مترقبين سماع ضجيـج الموكب. انحسر البرد، لكن عاصفـة مطريّة تبعته. وبين الفينة والفينـة كانت الرياح تهب من جهة حفر النفايات، حاملة معها روائح الجثث غير المدفونة تماماً.

صاح نيفر بغتة :

ـ المـح بصيصا مـن الضوء، عـبر الضبـاب... واحـد... اثنان... ثلاثة... تلك مشاعل.

والتفت تلك مشاعل.

والتفت نحو رجاله :

ـ احرصوا على الا تنهق البغال.

وقال بترونيوس :

ـ ها هم قادمون !

صارت الانـوار أكثر وضوحـا، وسرعان ما تيسر لهـم أن يلمحوا السنة الهب المشاعل ترفرف بفعل الريح.

رسم نيفر صليبا، وانهمك يصلي. كان الموكب يتقدم، حتى توقف أخـيرا عند بلوغه المعبد لطا كل من فينيكوس و بترونيوس و نيفر عند جانب من التبة، لجهلهم ما يحدث. فتبينوا أن أفراد الموكب قد توقفوا ليحزمـوا وجوههم وأفواهم بالخرق، تفاديـا لرائحة الجثث التي باتت باقترابهـم من البوتيكولوم غـير محمولة. وسرعان مـا حملوا التوابيت وتابعوا المسير.

بقي تابوت واحد لا غير قرب المعبد الصغير.

قفـز فينيكوس نحوه، وتبعـه بترونيوس، ثم نيفـر وبرفقته رقيقان يحمـلان الهـودج، وقبـل أن يبلغوا المـكان سمـع في الظلمة صوت نازاريوس المتوجع :

ـ سيـدي، لقد نقلوها مع أرسوس إلى سجن اسكولينوس... نحن سنحمل جثة أخرى. لقد أخذوها قبل منتصف الليل !...

حـين وصل بترونيوس المنزل كان متجهما تستحـوذ عليه الكآبة، و لم يملـك كلمة عزاء يواسي بها فينيكوس. كان يدرك أن من المستحيل إخـراج ليفيـا من تحت الأرض في سجنها هذا. قدر أنهـم قد نقلوها مـن التوليانوم لكي لا تلقى حتفها بسبب الحمى، فتنجو من مثولها في المـدرج. كان هذا هو سبـب حرصهم عليها أكثر من أي شخص آخر. أشفق عليها بترونيوس أيما إشفاق، وكان إشفاقه العميق على فينيكوس أيضـاً. وخطـر له أنها المـرة الاولى في حياتـه التي يبوء فيهـا بالفشل، وينتصرون عليه.

قـال في نفسـه : " أرى أن فورتونـا لم تعد وفيّة معـي. لكن الالهة ستشعر بالخذلان إذا ما ظنت أنني أتدخل في حياة واحد مثل فينيكوس ".

ونظر إلى الشاب الذي كان ذاهلا وقد اتسعت حدقتاه الشاخصتان.

سأله بترونيوس :

ـ ما خطبك؟ هل تعاني من الحمى؟

فأجابه الشاب بصوت كسير، متلعثم كطفل مريض :

ـ ولكنني على إيماني بأن المسيح سوف يعيدها الي.

وكانت الرعود الاخيرة للعاصفة فوق المدينة قد خمدت.

٥٨

ثلاثة أيام صيفيّة ماطرة في روما ظاهرة استثنائيّة، ناهيك عن هطول البرَد المنافي تماماً للطبيعة، الذي تكرر كل ليلة متأخرة من ليالي روما، إضافة إلى حدوثه في أوقات النهار والمساء، فمنع الاستمرار في إقامة العروض. بدأ الشعب يخاف. وخمن الناس أن محصول الكرمة سيكون رديئا. وحين عند العصر، وقعت صاعقة على الكابيتوليوم وأذابت نصب سيريس، أقدموا على تقديم القرابين باسم سلفاتور جوبيتر. أشاع كنهة سيريس أن غضب الالهة طال روما، لأنهم يتمهلون كل هذا القدر في عقاب المسيحيين. فحشود الناس إذن كانت تطالب بالاسراع في إقامة الالعاب السيركيّة. وعم الفرح ليغرق أنحاء روما حين أعلن بدء الالعاب بعد توقف دام ثلاثة أيام.

في هذه الاثناء قد انكشف الطقس من جديد.

دام توافد الحشود إلى المدرج، منذ الفجر، حتى المساء. وأبكر القيصر في مجيئه برفقة عذراوات فيستا، وحاشيته الامبراطوريّة. كان ينبغي أن تبدأ العروض بقتال المسيحيين ضد بعضهم. ألبسوهم كالمجالدين، وزودوهم بكل أنواع السلاح التي يستخدمها المبارزون، والمدافعون، والمهاجمون في القتال. لكن هذه الخطة قوبلت بخيبة الامل. قام المسيحيون، ورموا بعيدا بالشباك، والرماح والسيوف، والتروس، وراحوا يتعانقون مشجعين بعضهم على تحمل الالام والموت. البعض وصفهم بالجبن، وزعم آخرون أنهم لا يتقاتلون لأنهم يكرهون

الشعب، ويريدون أن يمنعوا عنه فرصة الاستمتاع بتقاتلهم الشجاع.

وفي نهايّة المطاف، أمر القيصر بإنزال مجالدين حقيقيين عليهم، وأبادوا الراكعين العزل عن بكرة أبيهم.

وبعد إزالة الجثث، لم يكن العرض عرضا قتاليا، بل جاءت بعدها سلسلة كاملة من صور الحياة الميثولوجيّة، وفق ما أمر به القيصر كذلك. شوهد مثلاً عرض يظهر كيف احترق هيركوليس باللهب الحي فوق جبل أوتا. اهتز فينيكوس لفكرة أن يقوم أرسوس بلعب شخص هيركوليس لكن على ما يبدو، لم يأت بعد دور خادم ليفيا الوفي، لأن مسيحيا آخر لم يكن فينيكوس يعرفه، هو الذي أحرق أمام المتفرجين. في المشهد الثاني، بالمقابل، قدر لشيلون الذي لم يعفه القيصر من حضور الالعاب، أن يلمح وجوها معروفة، في عرض يصور موت ديدالوس و إكاروس. قام بدور ديدالوس القس يوريسيوس الذي فسر لشيلون ذات يوم معنى رمز السمكة، أما دور إكاروس فشخ صه ابنه كوارتوس، وقد قامت الات مخصصة لذلك، برفع الاثنين، ثم القت بهما من ارتفاع شاهق إلى أرض الميدان.

جاء سقوط كوارتوس قريبًا من منصة القيصر، حتى أن دمه المتناثر قد لطخ، إضافة إلى زخارف المنصّة، رداءً القيصر الارجواني.

أغمض شيلون عينيه تفادياً لرؤية لحظة السقوط، فلم يصله إلا صوت الاصطدام بالأرض. لكنه حين فتحهما، وشاهد بقع الدم إلى جانبه، كاد أيضاً أن يغمى عليه الا أن المشاهد تلاحقت متسارعة. ما حل بالعذارى من تعذيب وحشي، نتيجة افتضاضهن من قبل مجالدين بثياب الحيوانات، قد صعد من حماس المشاهدين.

فلقـد أمكنهم أن يشاهدوا كاهنات سيريس و سيبل ، دانادات و باسيفـي، ليكحلوا عيونهم في نهايّة المطـاف بالفتيات الصغيرات غير البالغـات وقـد مزقتهن الخيـول الوحشيّـة. صفق الشعـب مثنيا على القيصر مـا جادت به قريحته من أفكار جديدة وجديدة. فيما ظل هو، وقد أشعرته الثنائات بعظيم الفخر، والتصفيق.بما لا يحد من الابتهاج، مستمـرا في متابعـة مشاهد الوحوش وهـي تمزق الاجسـاد البيضاء، مستمتعا بعويل الضحايا.

لكن كان هناك صور مستقاة من تاريخ المدينة. بعد مشهد العذارى عرضـوا موسيوس سكيفولا وقد ثبتت يداه في إناء النار. المشهد جعل رائحـة اللحم المشوي تمـلأ الجو، لكن الضحيّة، وكمـا فعل سكيفولا الحقيقي، قد احتمـل كل الام الحريق، ودون أن يطلق آها واحدة، فتح عينيـه، وراحت شفتاه تمتمان بالصلاة. وبعـد أن طعنوه طعنة الرحمة وأخرجوا جسده إلى السبولاريوم، بدأت استراحة الطعام المعتادة.

غادر القيصر بصحبة عذراوات فيستا والاوغستيان، المدرج متجها إلى خيمة خصصت لغرض تناول الطعام الفاخر. وتناول القسم الاعظم مـن الجمهور طعاما وزعه عليهم الأرقّاء بسخاء، بينما نزل بعضهم إلى الميدان يتفحص الرمل المدمـى بفضول، ويتبادلون الاحاديث حول ما شاهـدوه حتـى الان، لكنهم سرعـان ما صعدوا المـدرج كيلا تفوتهم وجبة الطعـام السخيّة. ثم جاء الخدم ليمهدوا أرضيّـة الميدان الرمليّة، ويحفروا حفرا كثيرة متراصة.

ثم بدأت العروض مجدّداً. فتحت المداخل، وتدفق منها المسيحيون العراة، يحمل كل منهم صليبه الثقيل على كتفيه. قساوسة تنوء ظهورهم محني ة تحت وطأة الصلبان.

نســاء منفوشات الشعر جهدن في إخفـاء عريهن. رجال. صبيان. أطفال صغار. كانت الصلبان بالكامل مزينة بالزهور. قام خدم السيرك بإرغام المساكين على إنزال صلبانهم ووضعها قرب الحفر، وأن يصطف الجميع كل إلى جانب صليبه.

جـاء أرقـاء سـود ومددوهـم علـى الصلبـان، وثبتـوا أياديهم على العوارضـ الخشبيّـة. حـدث ذلـك بسرعـة فائقـة بحيث مـا إن عاد المتفرجون مـن استراحتهم حتى رأوا الصلبـان منصوبة قد ثبت فوقها المصلوبون. ملأت قرقعة المطارق والمسامير أرجاء الميدان، وتجاوزته إلى المنطقـة المحيطة، و إلى الخيمة حيث استقبـل القيصر عذراوات فيستا، وأصدقاءه، وراحوا يحتسون النبيذ، وينك تون مع شيلون، ويهمسون في آذان كاهنات فيستا كلمات غريبة. فيما كان العمل في الميدان جاريا على قدم وساق، والمسامير تدق عميقا في أيادي المسيحيين، وأرجلهم وتنهمر الرفوش مهيلة التربة في الحفر لتثبيت قوائم الصلبان.

من بين الضحايا التي وفدت أرتالا إلى الميدان، كان هناك كريسبوس. لم يجئـه الدور في العرض السابق لتنهشه الوحوش، فاستحق الآن ميتة الصلب. لكنه كان سعيدا لأنه سيواجه الموت عما قريب. كانت صحته قـد تبدلت عما كانـت عليه، فبدا شديـد الهزال، عاريـا الا من رباط قماشي يسـتر عورته، وإكليل مـن الورد حول رأسـه، لكن الشجاعة التـي لا تهزم ما زالـت تشع في عينيه، وتقاسيـم الصلابة ظلت متربعة في وجهه. قلبه لم يتبدل، وظل صلبا يحمل الوعيد لأخوته بأن يطالهم غضب الرب إن لم يتوبوا.

ـ اشكـروا المخلّصـ، لأنه رأف بكم وخ صكم بمـوت كموته. قد يصفـح عن بعضـ خطاياكم، لكـن حافظوا على خشيتكـم فالحق لا يخدش، ولا يمكن أن يمسه حكم شرير وخير في الوقت نفسه.

كان يتكلم على وقع ضربات المطارق، وهي تدق المسامير في أيادي الضحايا وأرجلهم فوق أخشاب الصلبان. كان قد انتصب الكثير فوق صلبانهم، فيما توجه الان إلى أولئك الذين ما زالوا إلى جانب صلبانهم وراح يتكلم :

- أرى السماء وقد تجلت، لكني أرى جهنم أيضاً. أنا نفسي لا أدري كيف سأواجه السيد، وما هو حسابي عنده، لكني آمنت بالسيد، وكرهت الشر، وليس الموت ما أخشاه، بل القيامة والبعث، ليس الالام، بل العقاب، لأن يوم الحساب قد حان.

صدح صوت احتفائي، مطمئن جاء من صفوف المقاعد القريبة :

- ليس للغضب، بل للرحمة، والخلاص والسعادة. لأني أؤكد لكم أن المسيح سيعانقكم، ويواسيكم، ويجلسكم إلى يمينه. ثقوا به، فها هي ذي السماء متجلية أمامكم.

اتجهت العيون نحو مصدر الصوت. والذين كانوا فوق الصلبان، وهم كذلك رفعوا وجوههم الشاحبة المعذبة، وراحوا ينظرون إلى المتحدث.

لكن الرجل نزل حتى سياج الميدان،وودع أولئك بإشارة الصليب.

مد كريسبوس يديه نحوه، يريد أن يؤن به، ولكنه حين لمح وجهه تراخت يداه، وانثنت ركبتاه، وارتعشت شفتاه بالدهشة : " الحواريّ بولس " !

والذين لم يكونوا قد صلبوا بعد، ركعوا جميعا بينما استأنف بولس الترسوسي كلامه ملتفتا إلى كريسبوس :

ـ لا تهد دهم يا كريسبوس، لأنهم سيرافقونك اليوم إلى الجنة. أتظن أنهـم يمكن أن تلحق بهم اللعنة؟ من يمكن أن يلعنهم؟ أتراه الرب الذي ضحى بابنه من أجلهم؟ أم المسيح الذي مات من أجل خلاصهم، كما هم الان يموتون من أجل اسمه؟ كيف سيلعن من يحبه؟ من يوجه تهمة ضد من اصطفاهم الله؟ من يقول لهذا الدم : " ملعون ! ".

فأجاب البابا العجوز :

ـ سيدي، لقد كرهت الشر

ـ المسيـح أوصى بأن نحب الناس أكـثر ممّانكره الشر، لأن دينه دين المحبة وليس دين الشر.

فأجاب كريسبوس :

ـ لقد أثمت في ساعة موتي

وضرب صدره نادما.

هنا تقدم ناظر أماكن الجلوس في المدرج، من الحواريّ، و سأله :

ـ من أنت حتى تتكلم عن الاحكام؟

فأجابه بطرس بهدوء :

ـ مواطن روماني

واستأنف كلامه ملتفتا إلى كريسبوس

ـ دعك على إيمانك، فهذا هو يوم الرحمة، ومت في سلام، يا خادم الله.

وتقدم مـن كريسبوس زنجيان ليمدداه فـوق الصليب، فيما التفت حوله مرة أخرى ليقول :

أخوتي ! صلوا من أجلي.

تلاشـت القسوة المالوفة في سيماء وجهه، وشفت تقاسيمه، السلام والوداعة. مد يديه طوعيا على جناحي الصليب، تسهيلا للعمل، ورفع عينيـه نحو السماء يصلي بحماس. وكأنما سرح بعيدا فتعطل إحساسه، لأنـه حين كانت المسامير تنغرز في يديه، لم يبد جسده أيّة ارتعاشة، و لم يرتسـم على وجهه ما يشـير إلى الشعور بالالم، بل راح يصلي عند دق المسامير بقدميه، وصلى حين نصب الصليب، وأحيط بالتراب.

لكـن عندما بدأ الجمهـور يملأ المدرج بضحكـه وصياحه، تقطب حاجبـاه قليلا تعبيرا عن غضبه، لأن هـذا الشعب الهمجي يفسد عليه موته في سلام وهدوء.

كانـت الصلبان كلها قبل ذلك قـد انتصبت، وغطت أرض الملعب كغابـة كثيفـة عل ق بشر فـوق اشجارهـا. كانت أشعـة الشمس تنير أخشاب الصليب ورؤوس الشهداء، فترسم ظلالا كتيمة شكلت شبكة سوداء أضاءت فتحاتها الرمل الاصغر. كان مشهدا تركزت خلاله كل بهجة الجمهور على أمر واحد هو مشاهده مسيرة موت الضحايا حتى نزعها الاخير. كانوا من الكثافة في أرض الملعب على نحو جعل حركة الأرقّاء بينهم متعذرة الا بشق الانفس.

في أطـراف الملعـب علقت النسـاء، أمـا كريسبوسـ، كأحد قادة المسيحين، فقد علق إلى جوار منصة القيصر مباشرة، على خشبة صليب ضخمـة، غلـف أسفلها بالنبـات. لم يكن أحد مـن الضحايا قد فارق

الحيـاة بعد، لكن كل من صلـب في البدايّة كان مغشيـا عليه. لم يتأوه أحـد، أو يتوسل رحمة. كان بعضهـم محني الرأس فوق كتفه أو صدره، كأنـه نائـم، والبعض الاخر سارحا في التأمـل، وآخرون ينظرون نحو السمـاء يتمتمون بشفاههم بصمت. لكن ضمن هذه الغابة الرهيبة من الصلبان كانت الاجساد المصلوبة تبث الما أخرس يبعث على الخشيّة.

حين أنهى الشعب مأدبته، وعاد إلى السيرك في هرج ومرج، دهمه الخرس فجأة، فلم يعـد قادرا علـى التفكير، و لم يدر أيـن، وعلى أي صليب من الصلبان يتوجه، ليريح عينيه. لم يعد عري الاجساد النسائيّة المصلوبة تثير مشاعره، و لم يبادر إلى فتح رهانات على من سيموت أولا من الضحايا، كما هي العادة حين يكون عددهم أقل في الميدان.

حتـى أن القيصر بدا و كأنـه سئم نفسه، فحين التفـت برأسه، وهو يسوي قلادة عنقه بحركة كسول، كان وجهه مرهقا، يغلبه النعاس.

في هـذه اللحظات فتـح كريسبوس المعـل ق جفنيه، بعـد أن كانا مغمضين، فبـدا ميتا أو مغميا عليه، ونظر نحـو القيصر، بوجه يعكس تعابـير النقمة،وعينـين ملتهبتـين، ما جعـل الاوغشتيان يشـيرون اليه متهامسـين، الأمر الذي دفع القيصر كذلك إلى الانتباه، فوضع زمر دته بتكاسل أمام عينه.

سـاد صمت أبكم. تسمرت عيون الجمهور عند كريسبوس، الذي حـاول تحريك يده اليمنى، كأنمـا كان يسعى إلى تحريرها عن الصليب. وبعد لحظات انتفخ صدره، وتحدبت أضلاعه، وصاح بصوت قوي :

ـ الويل لك يا قاتل أمك !

دقت هـذه الاهانة القاتلـة سمع سيد العا لم علـى مسمع من الاف

المتفرجين. ذهل الاوغستيان، و لم يملكوا شجاعة حتى على التنفس، وتخشب شيلون، وارتعش القيصر، ووقعت الزمردة من بين أصابعه.

وكذلك الشعب، فقد حبس أنفاسه، وظلت صرخة كريسبوس تدوي في أرجاء المدرج :

ـ الويل لك يا قاتل الزوجة، والاخ، الويل لك، يا عدو المسيح! ستنشق الأرض من تحتك، وسيفتح لك الموت ذراعيه، وتنتظرك حفرة القبر، أيها الجثة الحيّة، لأنك ستموت من الهلع، وستعلن إلى أبد الابدين.

وبما أنه، وقد كان واهنا بعد أن صار في حياته أشبه بهيكل عظمي، لم يكن قادرا على تحرير يديه من فوق الصليب، فقد راح بكل ما لديه من قوة، وتوتر مخيف، يهز لحيته البيضاء فوق منصة القيصر، ليرش نحوه ما يتسنى من أوراق زهور ساقطة من الاكليل حول رأسه.

ـ الويل لك، أيها المجرم ! لقد طفح الكيل، وحانت ساعتك !...

ثم شد على نفسه مرة أخرى، وبدا للحظة أنه يحرر يديه عن الصليب، ويرفعهما نحو القيصر متوعدا. لكن ذراعيه الهزيلين سرعان ما انفتحا أكثر فأكثر، وهبط جسده إلى الاسفل، ومال رأسه على صدره، ومات.

وفي أنحاء الغابة كان ضعفاؤهم كذلك يغرقون واحدا بعد الاخر في حلم الابديّة.

٥٩

قال شيلون :

ـ سيـدي، إن البحـر الان كالزيـت، والامواج كأنهـا في رقاد... لنرحل إلى أكايا. هنالـك حيث أبولو والاكاليل، والامجاد في انتظارنا. هنالـك يؤلهك الشعب، والالهة تستقبلـك وتحتفي بك كواحد منها. أما هنا...

ثـم لزم السكـوت، لأن شفته السفلى باتـت ترتجف حتى استحال نطقه إلى كلمات غير مفهومة.

فأجاب نيرون :

ـ لنذهب فور انتهاء الالعاب. أعلم أن البعض يقولون عن المسيحيين بأنهم أجساد بريئة. وإذا ما رحلنا فالجميع سيقول عنهم ذلك. ما الذي يخيفك أيها الفطر العجوز العفن؟

وقطـب جبينه رامقا شيلون بنظرة متسائلـة، ينتظر منه جوابا، لأنه في واقـع الحال، لم يكـن يشعر بالطمأنينة التي يحـاول أن يبديها. لقد أجزعتـه كلمـات كريسبوسـس في أثناء العرض الاخـير، وحين عاد إلى المنزل لم يستطع أن ينام من شدة غيظه، ومن العار الذي لحق به، إضافة إلى خوفه الشديد أيضاً. لكن فيستينوس الذي تستحوذ عليه الخرافات، وكان يستمع إلى حديثهما، التفت حوله وقال في خفيّة :

- صدقــة يا سيدي، وخذ بما يقــول، لأن شيئاً غريبا يكمن في هؤلاء المسيحيــين... إن الوهتهم تمنحهم موتا ميسرا سهــلا، لكنها قد تتمتع بالغضب والانتقام.

ما جعل نيرون يرد فجأة :

- لست من ينظم الالعاب، لكنه تيفالنيوس

فأجاب تيفالنيوس بعد أن سمع رد القيصر :

- حقا. أنا أنظمها. أنا أنظمها. وإني أبصق على كل الالهة المسيحيين.

- فيستينوســس هذا دملــة مليئة بالخرافــات، أما هذا البطــل اليوناني فيموت من رعدته لأتفه الاسباب.

فرد عليه نيرون :

- حسنــا. لكن من الان فصاعدا، فاقطع السنــة المسيحيين، أو سُد أفواههم.

- ستحشوها النار أيها القيصر الالهي.

فغمغم شيلون :

- ويلي !

أما القيصر، وقد سكبت الثقة العمياء التي أبداها تيفالنيوس، الروح في نفسه، فقد ضحك ملء فمه، وقال ملتفتا نحو العجوز اليوناني :

- هذه ذريّة آخيل.

كان شيلـون حقا في حالة يرثى لهـا. غزا الشيب كامل ما تبقى من شعر فوق جمجمته. وكســت وجهه غشاوة ثم مزيج من الاضطراب اللعـين، والجزع، والتحطـم. وبدا أحيانا كمن أصابـه الخدر، فأضاع شيئـاً غير قليل مـن إدراكه وتماسكه. وبات غالبـاً لا يرد على الاسئلة. وفي أحايين كثيرة إذا ما انفجر غضبا، يطلق كلامه خبط عشواء، الأمر الذي جعل الاوغستيان يفضلون عدم التحرش به.

والان بالتحديد كان على هذه الحال.

فصرخ بهم وقد مزقه اليأس مشيرا بأصابعه نحوهـم :

ـ افعلوا بي ما تشاؤون، لكني لن أذهب بعد الان إلى الالعاب.

نظر نيرون اليه للحظة، ثم التفت نحو تيفالنيوس موصيا :

ـ احرصـوا أن يكون هذا الرواقي إلى جانبي دائما في الحديقة. أريد أن أرى أي تأثير لمشاعلنا عليه.

فقال :

ـ سيدي، لن أرى شيئاً، لأني لا أرى أبدا في الظلمة.

فأجاب القيصر بابتسامة مرعبة :

ـ هذه الليلة ستكون مضيئة كالنهار.

ثم التفت إلى أوغستيان آخريـن، وتحدث معهم عن المنازلات التي يرغب في إقامتها بانتهاء الالعاب.

والان تقدم بترونيوس من شيلون حتى لامس ذراعه قائلاً :

ـ أرأيت؟ الم أقل لك أنك لن تنجو منها.

فأجاب شيلون :

ـ أرغب أن أشرب حتى الثمالة.

ومد يده إلى القدح، لكنه لم يكن قادرا على رفعه. فتناوله فيستينوس منه، ثم اقترب منه ليسأله بفضول، لكن بملامح مرتعدة :

ـ ما الذي دهاك؟ هلا تلاحقك الارواح المنتقمة؟

رمقه العجوز بفم فاغر، كأنما لم يفهم سؤاله.

فكرر فيستينوس قائلاً :

ـ هل تلاحقك الـ فوري ات؟

ـ لا، لكن الليلة أمامي.

ـ أيّة ليلة؟... ستراف بك الالهة ! عن أيّة ليلة تتحدث؟

ـ ليلة رهيبة عمياء يتحرك فيها شيء ما، ويأتي نحوي، لكني لا أعرف ما هو، أنا خائف.

ـ كنت أعرف دائما أن هؤلاء سحرة. الا ترى أحلاما؟

ـ لا، لأني أنام جيدا لم أفكر في يوم أنهم سيواجهون عقابا مثل هذا العقاب.

ـ هل تشفق عليهم؟

ـ لَمَ تريقـون كل هـذه الدمـاء؟ أتعلـم ما الذي قالـه ذاك وهو فوق الصليب؟ الويل لنا !

فأجاب فيستينوس بصوت خفيض :

ـ سمعته لكنهم من أحرقوا المدينة.

ـ ليس صحيحا؟

ـ وأعداء الانسانيّة !

ـ ليس صحيحًا

ـ وسمّموا المياه !

ـ ليس صحيحا !

ـ وقاتلوا الأطفال !

ـ ليس صحيحا !

فسأله فيستينوس مستغربا :

ـ كيف ذلك؟ وأنت الذي قلت ذلك عنهم، ووشيت بهم لتيفالنيوس !

ـ ولهـذا السبب تحاصرني الليالي، ويتتبعني المـوت... أحس أحيانا أنني ميت، وأنتم كذلك.

ـ لا ! هـم يموتـون، أما نحن فأحياء. لكن قـل لي ما الذي يمثل لهم ويرونه، وهم ماضون إلى الموت؟

ـ المسيح !

ـ ربهم؟ هل هو رب عظيم؟

فأجاب شيلون بسؤال :

ـ أيّة مشاعل تريدون أن تشعلوها في الحديقة؟ أسمعت ما قاله القيصر؟

ـ سمعت، وأعرف.

ـ سيحرقون كلًّا من سامرنتيتي و سمياكسي... نأمل ألّا يصب إلههما غضبه على المدينة. عقاب رهيب.

ـ أفضل هذه الطريقة، دون إسالة الدماء. قل للعبد أن يضع القدح على فمي، لأن يدي باتت ترتجف نتيجة للشيخوخة.

في أثناء ذلك كان الآخرون يتحدّثون عن المسيحيين.

قال دوميتوس أفر :

ـ هم كثر إلى حد قد يبدؤون حربا أهليّة. أتذكرون أننا كنا نخاف أن يلجؤوا إلى المقاومة، رغم أنهم يسيرون إلى الموت كالحملان.

تدخل بترونيوس قائلاً :

ـ تخطئون. إنهم يقاومون.

ـ وبأيّة طريقة؟

ـ بالصبر

ـ إنها طريقة جديدة.

ـ فعلاً. لكن من يملك شجاعة ليزعم أنهم يموتون كما يموت الأشرار

العاديون؟ لا. إنهم يموتون، وكأن الاشرار هم من يعدمونهم، أي نحن، وكل شعب روما.

فصرح تيفالنيوس :

ـ هذر أحمق.

فجابهه بترونيوس قائلاً :

ـ شعب روما كشعب مدينة أبديرا الغبي.

التقت عيون الجميع وقد ذهلوا من تعليق بترونيوس اللّماح، وكرّروا القول :

ـ فعلا ! موتهم يمتاز بشيء ما مختلف. شيء خاص.

وصاح فيستينوس من مكانه عن بعد :

ـ أقول إنهم يرون الوهتهم !

والتفت بعض الاوغستيان نحو شيلون :

ـ هيه، أيها العجوز، أنت تعرفهم جيدا، فقل ما الذي يرونه؟

دلق اليوناني النبيذ فوق سترته وأجاب :

القيامة !

وراح يرتجف على نحو جعل الضيوف ينفجرون ضحكًا.

٦٠

منذ أيام لم يمضِ فينيكوس ليلته في المنزل. ظن بترونيوس أن الشاب يخطّط من جديد لتحرير ليفيا من السجن، دون أن يعلم أحدا في الأمر تجنبــا لفشل خطته. أما هذا الشكوكي النبيل فقد بات بدرجة ما مؤمنا بالخرافة. وبالاحرى، منذ أن فشل في تحرير ليفيا من سجن مامرتنيوس، لم يعد واثقا ببرجه الحسن.

وعلى أيّة حال لم يضع في حسبانه، حتى في هذه المحاولة الجديدة، أن مساعي فينيكوس لإنقاذ ليفيا سوف تجني ثمارها. فحراسة السجن مشــدّدة أضعافًا مضاعفة قياسًا بأيّ سجن آخر. وكان جيدا أنهم نقلوا الفتــاة إلى هناك لكي لا تموت في مرضها، فيفوتوا عليهم فرصة مثولها في الميدان. لهذا السبب بالذات هم يحرصون عليها كضوء عيونهم.

وفكــر في نفسه : " يبــدو أن القيصر، و تيفالنيوســ ينظمان عرضا خاصا أكــثر عنفا من كل ما سبقه من عروضــ،وأن فينيكوس سيلاقي حتفه قبل ان يكون بمقدوره أن ينقذها من هناك".

حتــى فينيكوس أصبــح الان متشائما دون آمــال، مودعًا أمرها في عهــدة المسيح. وصار يرضيه أن يتمكّن من زيارتها في السجن، وفكر أن نازايوســ قــادر على تأمــين هذه الزيــارة، بأن يرافقــه بنقل الجثث والحقيقــة أن وجــه المغامرة في كشــف أمره كان ضعيفــا، تحت جنح الظــلام، والتنكر بثياب العبيد، وإنــارة السجن شبه المعدومة. لكن من

كان يخطر بباله أن هذين النبيلين سوف يضطران في يوم أن يوضعا في موقف كهذا، وأن يستنشقا معا روائح الجثث المتفسّخة.

حين حل المساء الموعود، لف بترونيوس مئزرا حول وسطه، وعصب رأسه بخرقة مغمسة بزيت الصنوبر، وبقلب خفاق انطلق برفقة المجموعة إلى السجن.

وهناك لم يعقهم أحد من الحرس الامبراطوري في الدخول. فلقد حمل كل منهم لوحة رخاميّة تمثل بطاقة دخول خاصة، قام الحارس بالكشف عنها تحت ضوء مصباحه. وسرعان ما فتح أمامهم الباب الحديدي، ودخلوا.

أول ما واجه فينيكوس قبو فسيح، مليء بالبشر تفرع إلى العديد من أمثاله، كانت كلها مضاءة بقناديل واهنة. كان الكثير من المعتقلين يغطون في نومهم، أو لعلهم كانوا قد ارتموا قرب الجدران موتى. وكان آخرون يتحلقون حول جرن ضخم من الماء يروون عطشهم كمرضى يعانون من الحمى الشديدة. وآخرون يجلسون على الأرض مستندين على أذرعهم قابضين بأيديهم على رؤوسهم. وهنا وهناك أطفال نائمون في أحضان أمهاتهم. تأوهات في كل مكان. ولهات أنفاس متسارعة للمرضى، بكاء، أو تمتمات صلوات. غناء وتراتيل، وشتائم يطلقها الحراس. روائح الجثث منتشرة في هذا الزحام تحت الأرض.

بشر في مختلف الحالات الجسديّة. وجوه شاحبة مرعوبة. عيون الهبتها الحمى، شفاه مزرقة بانت في القرب من ضوء المصابيح.

جباه متعرقة، أشعار منكوشة. وفي زوايا القبو كان البعض يحاولون رفع أصواتهم طلبا للماء او يتوسلون بأن يدعوهم يموتون.

ارتجفت ركبتا فينيكوس، وتوقفت أنفاسه لهذا المشهد. وحين خطر له أن ليفيا هنا تواجه هذا المصير البائس، انتصب شعر رأسه، وتعطلت أنفاسه، وتجمدت الصرخة في حنجرته. المدرج، الوحوش، أخشاب الصلبان، كلها كانت أرحم من هذه المهاجع الرهيبة المفعمة بروائح الموتى تحت الأرض، حيث تصاعدت التأوهات والتوسلات البائسة في كل اتجاه :

ـ آن آن تأخذونا إلى الموت.

غرز فينيكوس أظافره في راحتيه، وقد شعر أن قواه تخور، ويوشك أن يفقد وعيه. كل ما عاناه حتى الان من حب، والام، قد استحال في هذه اللحظات إلى رغبة وحيدة : الموت.

وفي هذه الاثناء سمع صوت قائد مجموعة المقابر الجماعيّة :

ـ كم عدد الموتى لهذا اليوم؟

فأجابه المراقب :

ـ حوالي دزينة، وحتى الصباح سيزداد العدد، لأن البعض ينازع عند الجدران.

وشكا من بعض النسوة اللواتي يخبئن أطفالهن الموتى، ليظلوا في أحضانهن مدة أطول. وقال:

ـ أرحم لي أن أعاني التعذيب بالاعمال الشاقة في الارياف البعيدة، من أن أكشف على الجثث في هذا الجو القاتل من الروائح، وأحرس هؤلاء الكلاب العفنين هنا.

لكــن القي م على المقابـر الجماعيّة واساه بـأن خدمته هناك ليست بأيسر على الاطلاق.

كان فينيكوسـس قد استجمع قـواه، وراح يجول بنظره في المهجع، لكنــه لم يفلح في رؤيّة ليفيـا ولمع في ذهنه أنه لــن يراها بعد الان وهي علـى قيد الحياة. أكثر من عشر أقبيّــة مفتوحة على بعضها حفرت لهذا الغرضـ، لكن عمال الدفـن لم يرتادوا منها الا حيــث أخبروا بوجود أموات من أجل ترحيلهم. وهذا يعني أن فينيكوس لن يعاين كل الاقبيّة بحثا عن الفتاة.

ولحسن الحظ جاء أحدهم ليقول :

ـ علينا ترحيل الجثث حالا، لأنها أكثر نقلا للعدوى.

والا ستموتون مثلكم مثل العبيد.

فأجاب المراقب :

ـ نحن عشرة في مجموع الاقبيّة. وينبغي أن ننام أيضاً.

ـ إذن سأترك هنا أربعة فقط ليكشفوا على الموتى.

ـ غدا سنشرب إذا ما سمحت بذلك.

ـ سنشرب.

وأشــار إلى أربعــة، كان بينهم فينيكوســ، وأرسل بالبقيّــة ليضعوا الجثث في التوابيت.

تنفس فينيكوس الصعداء. كان واثقا الان أنه سيعثر على ليفيا.

أول الأمـر بحث بدقة في المهجـع الاول تحت الأرض، فعاين كافة الاركان العاتمة التي لم يصلها ضـوء المصابيح مباشرة، تفقد البشر النيام تحت أغطيّـة القنب قرب الجـدران، والمرضى الخطريـن الذين أفردوا في زوايـا خاصة، فلم يجـد ليفيا. وكذلك كانت نتيجـة بحثه الفاشلة في القبو الثـاني والثالث. كان الوقت قد تأخـر، والجثث قد نقلت إلى العربـات. وتوضع المراقبـون في الممرات عند ملتقـى الاقبيّة، وناموا، وكف الأطفال عن البكاء وهدؤوا، و لم يعد يسمع في الاقبيّة الا أنفاس الصدور المريضة، وتمتمات الصلوات هنا وهناك.

دخـل فينيكوس والمصباح في يـده إلى القبو الرابـع الذي كان أقل اتساعا بكثير مـن البقيّة،وجال بعينيه في أرجائـه. وفي لحظة ارتعش، وكأنما لمح تحت فتحة شبكيّة في الجدار، هيئة أرسوس الضخمة.

وعلى حين غرة أطفأ المصباح، وتقدم نحوه.

سأله :

- هذا أنت يا أورسوس؟

- لقد أطفأت المصباح، فكيف أعرفك؟

لكـن فينيكوس في هذه اللحظة قـد رأى ليفيا الهامدة في معطف، فلم يجب بشيء، بل جثا إلى جانب الفتاة. عرفه أرسوس الان.

فقال :

- حمدا للمسيح ! لكن لا توقظها يا سيدي.

راح فينيكوس ينظر إلى الفتاة من خـلال دموعه، فلاحظ حتى في

الظلمة وجهها الشاحب النحيل وذراعيها الهزيلين، فهام حبا بها لهذا المشهد. لكنه حب أشبه بالوجع الذي يمزق الفؤاد، والعذاب الذي يهز أعمق راقات الروح.

حــب ترافق بالتصميم، والاحترام، والعبادة، واربد وجهه، ثم راح يقبل أطراف المعطف الذي يرقد داخلة هذا الرأس الاغلى لديه من كل شيء.

ظل أورسوس يراقبه طويلاً، لكنه أخيرا شده من ردائه وسأله :

كيف دخلت يا سيدي؟ وهل جئت كي تنقذها؟

نهض فينيكوس واقفا. وظل للحظات يقاوم عاطفته، حتى أجاب :

ـ قل لي ما الوسيلة !

ـ كل ظنــي أنك قد وجدت الوسيلــة. هناك طريقة واحدة تدور في رأسي...

نظر ناحيّة الفتحة الشبكيّة ، ورد كأنما يقول لنفسه :

ـ أجل... لكن جنودا هناك.

فأجاب فينيكوس

ـ سريّة من الحرس الامبراطوري

ـ إذن، فلن نستطيع أن نعبر !

ـ لا !

مسح أورسوس جبينه بيده، ثم سأله ثانيّة :

- كيف دخلت إلى هنا؟

- من خلال بطاقة دخول أم نها لي مراقب المقابر.

وصمت، وكأن شيئاً ما دار في ذهنه. ثم قال بعجالة :

- بحق عذاب المخلّص. أنا سأبقى هنا. وهي ستأخذ بطاقتي، وتعصب رأسها بقماشة ، وتضع عليها العباءة، وتخرج بين عمال المقابر بعض الفتيان الصغار الحجم مثلها، فلن يتعرف عليها الحرس. ستذهب إلى منزل بترونيوس، وهو سيؤمن إنقاذها.

لكن أورسوس طأطأ برأسه. فأجاب :

- لكنها لن توافق على هذا، لأنها تحبك. وهي مريضة على أيّة حال، فليس بإمكانها الوقوف على قدميها.

ثم أردف قائلاً :

- إن كنت، يا سيدي، بعون من النبيل بترونيوس لم تتمكنا من تحريرها، فمن سيستطيع؟

- المسيح وحده فقط...

وصمت كلاهما. وراح أرسوس يفكر بذهنه الفلاحي :

" كان هو قادرا على إنقادنا جميعا، وما دام لم يفعل، معنى ذلك أن ساعة الموت قد حانت ".

وجثا فينيكوس إلى جانب ليفيا. كان ضوء القمر يتسلل عبر الفتحة الشبكيّة،وينير القبو من الداخل، شأنه شأن المصباح الوحيد المعلق فوق الباب.

هنا فتحت ليفيا عينيها، ووضعت يدها الملتهبة على فينيكوس وقالت بعد لحظات :

ـ أراك... وكنت أعرف أنك ستجيء.

انثنى الشاب على يد ليفيا الحار ة ، ووضعها على جبينه، وصدره، ثم قام برفع الفتاة قليلا، وضمها إلى صدره، وقال :

ـ لقد أتيت يا حبيبتي. رعاك المسيح، وأنقذك، يا وحيدتي ! و لم يقو على النطق بأكثر من ذلك لأن فؤاده كان ينتحب داخل صدره، الما، وحبا. لكنه لم يشأ أن يظهر المه أمام الفتاة.

أجابت ليفيا قائلة :

ـ أنا مريضة يا ماركوس، وسوف أموت، سواء في الميدان، أم في السجن... لكني صل يت لأتمكن من رؤيتك قبل موتي. وها أنتذا قد جئت. المسيح استجاب لصلواتي !

وظل الشاب عاجزا عن الكلام يضم محبوبته إلى صدره، فيما تابعت الفتاة قائلة :

ـ في التوليانوم كثيرا ما رأيتك عبر النافذة، وكنت موقنة أنك تريد الدخول. والان أعاد لي المسيح وعيي للحظة لكي أودعك. أنا راحلة يا ماركوس، لكني أحبك، وسأظل أحبك إلى الابد.

تغلب فينيكوس على نفسه، كاتما الامه، وأخذ يتكلم بهدوء مصطنع :

ـ لا، يا حبيبتي. لن تموتـي. أوصانا الحواريّ بالايمان، ووعدني بأن يصلـي من أجلك، هو الذي عرف المسيح، والمسيح أحبه، ولن يرفض لـه دعاء... لو كنـت ستموتين لما أوصاني بطرس بالايمان، بل قالي لي : " تحـل بالايمـان ". اليس كذلك يا ليفيا. المسيح سيرأف بي، وهو لا يرغـب في موتك. لن يسمح به... أقسم باسـم المخلّص أن بطرس يصلي لأجلك !

ساد سكوت. خبا نور المصباح المعلق فوق الباب. لكن ضوء القمر كان يغمر المكان متسللا عـبر الفتحة الشبكيّة. في الركن الخلفي للقبو انتحـب أحد الأطفال، ثم صمـت. و لم تسمع الا أحاديث الحراس في الخـارج، وقد كانوا بعد انتهاء نوبة حراستهـم، يمثلون مقطعا مسرحيا اثنا عشريا.

أجابت ليفيا :

ـ آه، يا ماركوس. المسيح بالذات خاطبه أبوه هكذا : " أبعدوا عني هـذا القدح المـر ! ". ومع ذلك فقـد شربه. المسيح بالـذات عانى من المـوت صلبا، وهؤلاء الان يموتون من أجل مجد اسمه، فكيف يستثنيني وحـدي مـن بينهم؟ من أكون أنا قياسا به؟ حين جـاء الحرس من أجلنا خفـت من العذاب والموت، لكنـي لم أعد خائفة. انظـر ما أفظع هذا السجـن، وأنا سوف أغادره إلى الجنة. تمـع ن في التفكير. هنا القيصر، ولكن هنـاك المخلّص الخير الرؤوف. ولا وجـود للموت إذن. وأنت تحبنـي، فتصور إذن كم سأكون سعيـدة. آه يا ماركوس حبيبي، تصو ر أنك ستأتي الي هناك.

صمتت لكي يتسنى لصدرها المريض أن يأخذ جرعة من الهواء، ثم رفعت يد الشاب إلى شفتيها:

- ماركوس !

- قولي يا حبيبتي !

- لاتبـك علي، ولا تنس أنـك ستلتقيني هناك. عشت حياة قصيرة، لكـن الله منحني روحك أنـت أريد أن أخبر المسيح بأنك بعد موتي لن تفعـل ما تخرج به عن إرادتـه، وأنك ستظل تحبـه إلى الابد. أنتِ تحبه اليس كذلك، وسـوف تحتمل موتي؟... لأنه حينئذ سوف يعقد قراننا فأنا أحبك وأرغب في البقاء معك...

وخمدت أنفاسها مرة أخرى وقالت بصوت يكاد لا يسمع :

- عدني، يا ماركوس !

عانقها فينيكوس بيدين مرتجفتين قائلاً :

- أعدك،وأقسم برأسك القديسة هذه.

حينئـذ ائتلق وجه ليفيا تحت نور القمر الحزين، وأخذت يد الشاب إلى شفتيها وهمست قائلة:

- أنا زوجتك !

كان الحراس في الخارج يـؤدون حوارهم المسرحـي بصوت أشد صخبـا. لكنهمـا في الداخل فقد نسيا كل شـيء، السجن، والحراس، والأرض بأسرها، وبدأا صلاة خاشعة وروح الملائكة تغمرهما.

٦١

ولثلاثـة أيام، والاحرى، لثلاث ليال لم يعكـر أمنهم أحد. فبعد أن اتخـذت الاجراءات المعتادة داخل السجن، بفصل الموتى عن الاحياء، والمرضى الخطرين عن المعافين، ثم هجع الحراس إلى نومهم على مفارق الممرات، دخل فينيكوس القبو حيث ترقد ليفيا، ولازمها حتى مطلع الفجـر مودعا رأسها إلى صدره، وأخـذا يتحدثان عن الحب والموت، والرغبات والامال منفصلين تلقائيا عن الحياة، لم يعودا يشعران بأنهما على قيد الحياة.

وكأنمـا كانا على مـتن سفينة تبتعـد بهما عن اليابسـة فلا يلمحان شاطئـا، ووجهتهمـا المدى اللانهائـي. لقد استحـال كل منهما محض روح حزينة هائمة في حب المسيح، تتأهب للتحليق.

كانت روح الشاب في بعض الاحايين تعصف بالحزن، وفي أحايين أخـرى تفيض بهجة، وتبرق بشرارات الامل، حبا بالمسيح وحزنا على معاناته فوق خشبة الصليب. ويومـا وراء يوم ازداد انفصال فينيكوس عن الأرض، مسلما نفسه ليد الغناء.

كان كل صبـاح يخـرج من السجن، ويتأمـل في الكون، والمدينة، والمعارف، والشؤون اليوميّة فيخال أنه في حلم.

كان كل شـيء يبدو غريبا بلا معنى. و لم تعد رهبة التعذيب تقلقه أو تلقـي الجزع في نفسه، بعد أن ركز عينيه في أمور أخرى. شعر كلاهما

أنهما في نطاق الابديّة. تحدثا عن الحب،وعن الكيفيّة التي سيحبان بها بعضا، وكيف سيعيشان، بعد الممات.

وكانـا مطوقين بالهـدوء، كعمودين منسيين في فـلاة. كل ما كان يهمهما الا يفرق المسيح بينهما. وهذا مؤكد لأن إيمانهما لا حدود له، ومحبتهما للمسيح تفوق كل تصور. ونفضا عن روحيهما

كل غبـار الأرض، صـارا روحين نقيتين نقاء البلّلـوره. وهنا تحت ظلال المـوت المرعبة، وفي غمرة البؤس والعـذاب. وفي أقبيّة السجن المظلمـة بدأت الجنـة بالنسبة اليهمـا، لأن ليفيا أمسكـت بيد حبيبها. وكقديسة قد حظيت بخلاصها قادته لينهل من ينبوع الحياة الابديّة.

أما بترونيوس فقد قرأ على وجه فينيكوس أعمق الامان، وإشراقة لم يلمحهـا عليه من قبل ساوره الظن، وهو في سريره أحيانا، أن فينكوس قد وجد درب خلاصه، وأحزنه أنه لم يشاطره سره الخفي. وحين فرغ صبره قال له :

ـ أنـت الان أحد آخر، لا تخـف ذلك عني، لأني أريد أن أساعدك، وأستطيع ذلك. هل تخطط لشيء؟

ـ أجل، لكنك لا تستطيع أن تساعدني في أمر كهذا. لأني بعد موت ليفيا سأعلن أنني مسيحي، والحق بها.

ـ لا أمل يرجى إذن؟

ـ كيف لا. المسيح سيعيدها الي، ولن نفترق بعدها أبدا.

وبوجـه عارم بتقاسيم الذهول وفراغ الصبر، راح بترونيوس يذرع الأتريوم جيئة وذهابا، ثم تفوه قائلاً :

ـ لا تحتاج من أجل ذلك لمسيحكم، هذه الخدمة يمكن أن يؤديها لك اله الموت اليوناني الروماني ثاناتوس. لكن فينيكوس أجابه بابتسامة :

ـ لا يا عزيزي، أنت لا تريد أن تفهمني.

ـ لا أريـد، ولا أستطيـع. هذا ليس وقت النقاش. لكن الا تذكر ما قلـت لي حين لم نفلـح في تحريرها من التوليانوم؟ أنـا فقدت كل أمل، لكنـك قلـت لي في طريـق عودتنا إلى المنـزل " أما أنا فإيمـاني كبير بأن المسيـح سيعيدها الي ". فليعدها اليـك إذن. من جهة الهتي، أعلم أنني إذا ما القيت قدحا ثمينـا في البحر، فلن تستطيع هذه الالهة أن تعيدها إلى، فإذا ما كان ربكم أيضاً لا يستطيع إرجاعها، فما الذي يدعوني إلى احترامه أكثر من الالهة القديمة.

فشدّد فينيكوس قائلاً :

ـ لكنه سيعيدها.

هز بترونيوس كتفيه، وسأله :

ـ أتدري أنهم غدا سينيرون حديقة القيصر بأجساد المسيحيين؟

ـ غدا؟

وباقـتراب الحقيقة المـرة انقبض قلبه ألمـاً. فكر أنهـا الليلة الاخيرة التي يقضيها مـع ليفيا، فودّع بترونيوس وأسرع إلى مراقب المدافن كي يحصل على بطاقة دخوله. لكنه قوبل بالخيبة هناك، لأن المراقب لم يشأ أن يعطيه بطاقة، قائلاً له :

ـ اعـذرني يـا سيـدي لقد فعلـت كل شيء مـن أجلـك، لكني لن

أغامر بحياتي. مساء اليوم سيقودون المسيحيين إلى حديقة القيصر. والسجن سيكون مليئاً بالجنود، ورجال الدين، فإذا ما اكتشفوا أمري فسيأخذونني أنا وأولادي.

أدرك فينيكوس أن إقناعه هنا في حكم المستحيل. لكن أملا آخر لمع في ذهنه، هو أن الجنود الذين رأوه هنا مرات كثيرة، قد يسمحون له بالدخول دون بطاقة. وحين حل المساء، عصب رأسه، ووقف في مدخل السجن.

لكنهم في هذا اليوم قاموا بمعاينة دقيقة للبطاقات حتى أن سكافينوس الشديد الاخلاص للقيصر تعرف عليه، وانتحى به جانبا ليقول له :

- عد إلى المنزل يا سيدي، لقد عرفتك، لكني سالزم الصمت لأني لا أريد أذيتك. لا يمكنني إدخالك، لكن اذهب ، الالهة ستتكفل بالتخفيف عنك.

فأجاب فينيكوس :

- ما دمت لن تسمح لي بالدخول، فدعني أمكث هنا، وأشاهد من يخرجون.

وافقه سكافينوس قائلاً :

- الاوامر لا تمنع ذلك

وقف فينيكوس عند المدخل، وانتظر خروج المتهمين. وأخيرا، عند منتصف الليل، فتح الباب، وخرج منه العبيد في رتلين طويلين من رجال، ونساء، وأطفال، يحيط بهم الحرس الامبراطوري. كان

القمـر بدرا فكانـت الليلة شديدة الانارة، أتاحـت التعرف حتما على وجـوه الافراد وهـم يتقدمون مثنى مثنى في هذا السكون العميق الذي لم يعكـره الا حفيـف الدروع كانـوا من الكثرة كأنما قـد أفرغت أقبيّة السجن جميعها.

لمح فينيكوس كلاوسيوس الطبيب في نهايّة الوكب، ولكنه لم يعثر على ليفيا و أرسوس.

٦٢

وقبل حلول المساء بـدأت أولى موجات الشعب تتوافد إلى الحديقة القيصريّـة. كانـت الحشود، وقد تزينـت بأفخم ملابسهـا الاحتفاليّة، تهرع مشرقة الوجوه، وتصدح حناجرها بالأغاني، وبعض منها كانت تأخذه الثمالة، ليتسنى لها أن تشهد مثل هذا العرض الكبير الجديد.

تـرددت أصوات تقـول : " ساماكسي ! " " سارمانتيتي ! " امتدت في فياتيسا، وفـوق جسر إميليوس، وعند الضفـة الاخرى لنهر التيبر، حتى فيـا تيريومفالس، وحول منشآت السـيرك القيصريّة حتى مونس فاتيكانوس. لقد شهـدت روما من قبل بشرا يُشـدون على الاعمدة، ويحرقـون، لكـن ليس بمثل هذا العـدد الحاشد من المدانـين. لقد أراد القيصـر و تيفالنيوس أن يقضيا على المسيحيـين، ليضعا حدا للمرض السـاري الذي نشأ في السجـون، ومنها راح ينتشـر في المدينة. فأمرا بإخلاء جميع أقبيّة السجون، الا من بعض المساجين الذين سيحتفظون بهم لإقامة العاب السيرك.

وما إن أخذت الحشود تعبر مدخل الحديقة، حتى أصابها البكم من شـدة ذهولها. بين الأشجار الكثيفة كانت كل الدروب والمسالك التي تحيط بالأكمات، والبحـيرات، وبحيرات الاسماك، وحدائق الزهور، مدروزة بالقوائم المطليّة بالقطران، وعليها عل ق المسيحيون.

ومـن الاماكن الاعلـى، حيث التبة لا تقف حاجـزا أمام الرؤيّة من

هنـاك، بان الصـف الطويـل للقوائم مشـدوداً عليهـا المسيحيون مع الزهور، والرياحين، واللبلاب. كانت هذه القوائم تنسحب إلى أعماق بعيدة في الحديقة، باتجاه التلال والاوديّة، فتبدو الاقرب منها كالعرائش المتجاورة، وكلما ابتعدت بانـت كالاسنّة أو الشماريخ والصولجانات الملونة المغروزة في الأرض.

كانـت أعـداداً لا تحصى فاقـت كل توقع للشعـب، وكأنما قد شد فوقهـا أحد الاقوام بكل أفراده، لتسليّـة روما والقيصر. كان الناظرون يتوقفـون هنا أو هناك عند القوائم، تدفعهم إلى الفضول هيئة الضحيّة، أو عمرهـا، أو جنسيتهـا، فيستطلعـون الوجـوه، وأكاليـل اللبلاب، والاربطـة، ثـم يتابعون المسـير متسائلين لأنفسهـم باستغراب : " هل يعقـل أن يكون كل هؤلاء مذنبين؟ أو كيـف يمكن لأطفال لا يكادون يتجاوزون سن الحبو أن يحرقوا روما؟ "

و لم يخلُ استغرابهم من القلق.

في هـذه الاثناء أعتم المسـاء، وشعشعت أولى النجـوم في السماء، فوقـف إلى جانـب كل محكـوم رقيق بيـده مشعل. وحـين صدحت الابـواق المنتشـرة هنا وهنالـك في الحديقة تعلن بـدء العرض، اقتربت المشاعل تلامس أسافل القوائم.

وسرعان مـا اضطرم القش المغطـى بالازهار مطلقـا لهبة المضيء. وأخـذت النيران مشتدة من لحظة إلى أخـرى، تفكك أربطة اللبلاب، وتـدب أعلى فأعلـى، لتبـدأ أولا بالتهام قـدم الضحيّة. لـزم الشعب الصمـت، فيما راحـت الصرخات والولـولات والعويـل مالئة أرجاء الحديقة.

مـن بين الضحايا كان من يرفع رأسه نحـو السماء الملأى بالنجوم، ويطلـق ترتيلـة في تمجيد المسيـح. الشعب سمع كل تلـك الصرخات والتراتيـل. لكن الرعدة قد هز ت حتى عتاة القلوب حين سمع صراخ طفل "أمي ! أمي ! " ولا يستثنى من ذلك حتى السكارى، فقد ارتجفت قلوبهـم لهذه الاستغاثة، ولما شهدوه من وجوه بريئة اكتسحتها الالام، ورؤوسـ محنيّة اختناقا بالدخان. وراح اللهب يدب إلى أعلى، ويحرق أكاليل جديدة أخرى من اللبلاب والورود.

امتـلأت بالنـيران الـدروب الرئيسـة والفرعيّة. امتـلأت بالنيران صفوف الاشجار، ومساكب العشب والزهور، والتمعت مياه بحيرات الأسماك، وعكست أوراق الاشجـار المرتعشة لونا ورديًا. وعم ضوء نهاري كل مكان. ملأت رائحة اللحم المشوي أجواء الحديقة.

لكـن الأرقّاء كانوا قـد رشوا في مباخـر معدّة مسبقاً بـين القوائم أنواعـا عطريّة مـن الصبّـار الألوي والمـر الصمغي. علـت صرخات منشؤهـا حشود المتفرجـين، لم يعرف ما إذا كانـت صيحات تنم عن بهجـة صاخبة، أو عـزاء وشفقة، لكن شدتها قـد تصاعدت من لحظة إلى أخـرى، مع اشتداد النيران التي بـدأت تنهش في صدور الضحايا، وتطال بلهبهـا الوجوه المسودة، وشعر الرأسـ فيقل صه. ثم شمخت النيران عاليًا أكثر فأكثر كأنما قد أعلنت مجداً، ونصرًا محققاً لمن أضرمها.

كان القيصـر قد حضر بـين الشعب منذ بدايّة العرضـ، يقود عربته الفاخرة التي يجرها أربعة مـن الخيول المطهمة البيضاء. كان في العربة بزيّـه الخاص بالقيادة، بألوان الحـزب الأخضر الذي كان ينتمي اليه مع كامل حاشيته الامبرطوريّة.

جاء بعده رتـل العربات المليئة بالحاشيّـة، والسيناتورات، والكهنة

وكلهم بأفخم الثياب، إضافة إلى النساء الباخوسيات الثملات العاريات إلا من الأكاليل حول رؤوسهن، وبأيديهن أباريق النبيذ، وكن يقهقهن قهقهات وحشيّة. و إلى جانبهن الموسيقيون بثياب الفونات آلهة الحقول والمراعي، أو بثياب الساتير الهة الغابات الشهيرة بالشبق والعربدة، والصنوج.

وفي عربات أخرى جاءت الماترونات والعذراوات الرومانيات نصف عاريات، ثملات في بعضهن، وقد أحاط بعرباتهن بهلوانات تلوح بصولجانات باخوس المزخرفة بشرطان، وآخرون بالدفوف والطبول، وأولاد يرشون الزهور. دخل هذا الموكب الفخم، على الطريق الرئيسي للحديقة : عبر دخان المشاعل وهو يردّد صيحة عاليّة يعيش ا. كان القيصر يقل بعربته إضافة إلى تيفالنيوس ، شيلون أيضاً ليتسلّى على مايتنتابه من ارتعاد. كان يسوط الخيول بنفسه، ويشاهد بتقدمه الاجساد المحترقة، دون أن يغفل عن صيحات الشعب، الالوهة المتعملقة، في عربته المذهبة السائرة بين الحشود.

استقبل بالصياح والتصفيق، وقد أحاطت به دفعة واحدة من الباخوسيات والنيمفات والسناتورات، والاوغستيان، والكهنة، والفاونات والساتير، والجنود، وهو يدور بتيفالنيوس و شيلون حول نافورة الماء التي يحيط بها دزينة من المشاعل، والضحايا التي تحترق، فيتوقف عند كل ضحيّة بتعليق، ساخرا من العجوز اليوناني الذي غلّف وجهه الاضطراب والحيرة.

حتى توقف أخيرا عند قائم مرتفع مغطى بالرياحين. كان السنة اللهب الحمراء قد بدأت تنهش جذع الضحيّة، لكن وجهها كان من الشاق التعرف اليه على الفور، لأن دخان الغصون الخضراء المشتعلة

كان يخفيه. وبعد وقت قصير أزاح النسيم المسائي العليل الدخان، وكشف الوجه الطاعن في السن واللحيّة البيضاء المسبلة.

همد شيلون من صدمة المشهد منكمشا كعظاة، وصدرت منه صرخة أشبه بالنعيق، وأبعد ما تكون عن صوت إنساني :

ـ كلاوسيوس ! كلاوسيوس !

وفعلا جاءته نظرة من الطبيب كلاوسيون فوق القائم المشتعل. ما زال حيًّا. أحنى وجهه المتوجع كأنما أراد أن يلقي نظرة أخيرة على جلاده الذي وشى به، وحرمه من زوجته وأولاده وأرسل اليه من يغتاله، ومن ثم حين صفحوا عنه باسم المسيح لم يتوان عن تسليمه لهؤلاء الجلادين. الإنسان لم يواجه إنسانا أبدا بمثل هذا الاذى الدموي الاعنف من نوعه. الجثة تحترق على مرأى من الجلاد قربها. لم يغض كلاوسيوس طرفاً عن وجه اليوناني. كان الدخان يقف حاجزا بين فترة وأخرى، لكن هبوب النسيم، كان يجعل شيلون يلمح العينين المسمرتين عليه. نهض، وحاول أن يفر، لكنه لم يقو على الفرار.

شعر للحظة أن رجليه مجبولتان من رصاص، وأن يدا خفيّة، تضغط عليه بقوة فوق بشريّة، وتثبته أمام القائم. استحال إلى جماد. أحسّ بشيء ما يطفح في داخله، ويسري صاعدا حتى قمة رأسه. وشعر أنه بات مكتفيا من الالام والدم، وأن حياته تنتهي هنا، ويغيب من حوله كل شيء :

القيصر، البلاط، الحشود، وأن هاويّة قائمة، مرعبة، لا قاع لها تحيطه من كل جانب، لا يرى فيها سوى عيني هذا الشهيد توجهان التهمة

اليـه. ظلت الضحيّة ترمقه برأسـ محني. لاحظ الجميع هناك أن شيئاً ما كان قائما بين هذين الرجلين، لكن لأن الهول بذاته كان مرتسما فوق ملامح شيلون. لقد الواه الارتعاد والالم، كأن السنة اللهب باتت تحرق جســده قفز على حــين غرة، ورفع كلتا يديه، وصـرخ بصوت مرعب يودي بالقلوب :

ـ كلاوسيوس ! باسم المسيح، سامحني !

أطبــق صمت مطلق. وسرت رعشة مــن البرد في أوصال الحضور، واتجهت كل الاعين تنظر نحو الاعلى.

تحرّكــت رأسـ الشهيد علــى نحو لا يلاحظ، وصــدرت من أعلى القائم عبارة على هيئة تنهيدة :

ـ سامحتك !...

ألقى شيلون بنفسه أرضا، وبصرخة وحشيّة عفر ترابا براحتيه وراح يمرغ رأسه. في هذه الاثناء اشرأبت النيران، وغلفت صدر كلاوسيوس ووجهــه، وفككت إكليل الريحــان على رأسه، وأتــت على الشرطان المتأرجحة في أعلى القائم، ليشتعل بعدئذ القائم الخشبي بأكمله، وينشر ضوءا مبهرا في أرجاء المكان.

وبعــد وقت قصير نهضـ شيلون. كانت ملامــح وجهه قد تبدلت تمامــاً، حتى ظــن الاوغستيــان أنهم يــرون شخصا آخــر إلى جانبهم. توهجــت عيناه بنار غير مالوفة، وشع جبينــه المليء بالتجاعيد بإشراقة. وصار اليوناني البائس كأنه الان كاهن قد الهمته الالوهيّة أن يتهيأ ليعلن حقيقة غامضة.

ـ ما الذي حصل له؟ هل فقد عقله؟ صدرت بعض الاصوات.

أمـا هو فقد استـدار نحو حشـود الناس، وبيديـن مرفوعتين راح يتحدث، بـل يصرخ بصوت جهـوري، لا لكي يسمعـه الاوغستيان فحسب، بل سائر العامة هناك :

ـ يا شعب روما ! أقسم بموتي أن كل من يادون هنا بريئون.

لأن من أحرق المدينة هو هذا !

وأشار بإصبعه نحو نيرون

ساد صمت لحظي. أصاب الحاشيّة الجمود، وظل شيلون واقفا كما هـو، مشيرا بإصبعه نحو نيرون. ثم علـى حين غرة اندلعت الفوضى. هـرع الشعب كموجـة ضربتها العاصفـة نحو العجـوز ليشاهده عن كثـب. وهنـا وهناك طلعـت صيحات تقـول اقبضوا عليه. يـا ويلنا. راح الجمهـور يصفـر، ويزأر : "يـا صاحب اللحيّة الحمـراء ! يا قاتل أمك، يا حارق روما ! " وتفاقمت الفوضى بين لحظة وأخرى. هربت الباخوسيات مولولات إلى العربات.

هـوت بعضـ القوائـم المحترقـة، مطلقة وابـلا كثيفا مـن الشرر، فـازدادت الفوضى في إثر ذلـك. قبض الشعب المتدافـع على شيلون واقتادوه بصحبتهم إلى عمق الحديقة.

راحـت القوائم المحترقة تهوي في كل مكان على الطرقات، ناشرة الدخان والشـرر، وعبق جو الحديقة بمزيج من روائـح الحرائق البشريّة والخشبيّـة. خمـدت المشاعـل في كل الامكنة قريبا وبعيـدا. وعمت الظلمة في الحديقة.

وتدافع الحشد المضطرب المتجهم المرتعد باتجاه الابواب. وبدأت الانباء حول ما جرى تنتقل من لسان إلى لسان، مشوبة بالزيف، والتضخيمات والمبالغات. زعم البعض أن القيصر قد أغمي عليه، وأفاد آخرون أنه اعترف بإحراق روما.

وقال البعض الاخر أنه مرض مرضا شديدا. وقيل أيضاً أنهم نقلوه ميتا إلى العربة. وسمعت صيحات تدافع عن المسيحيين : "ليسوا هم من أحرق روما، فلم سفكت كل هذه الدماء؟

لم كل هذا التعذيب، والظلم؟ هل يا ترى سوف تنتقم الالهة لهؤلاء الابرياء؟ وأيّة ضحيّة ستختار؟ ".

وترددت عبارات متكررة : "أجساد بريئة". النساء اشفقت على الأطفال الذين القي بأعداد كبيرة منهم للوحوش أو صلبوا، أو أحرقوا في هذه الحديقة اللعينة.

ثم استحال إشفاقهن إلى شتائم ضد القيصر وتيفالنيوس. وكان من بين الحشود من طرح السؤال لنفسه، أو لغيره : "أي الوهة تمنح المسيحيين مثل هذه القوة أمام شبح الموت؟". وتوجه إلى منزله سارحا.

أما شيلون فقد ظلّ يهيم على وجهه في الحديقة، لا يدري أين تقوده رجلاه، ولا ماذا يفعل وتفاقم شعوره بأنه عجوز مريض لا حول له ولا قوة. كان يتعثّر بالجثث المحترقة، راكلاً من أمامه الجمار المتوهجة التي ينتثر منها بفعل النسيم كذلك، وابل من شرر النار.

وكان يجلس أيضاً ملتفتا حوله بنظرات فارغة لا جدوى منها. كانت الظلمة قد أطبقت تماماً في الحديقة، وليس هنالك الا القمر الواهن يسبح بين أعالي الغصون، ويلقي بنوره تائهًا على الطرقات،

والقوائــم المرميّة فوقها، وبقايا الجثــث المتفحمة. لكن العجوز اليوناني قــد أحس أنه يرى تحت ضــوء القمر، وجه كلاوسيوســ الذي ما زال يرنــو اليه، فوجد نفسه يختبئ بعيدًا عن الانوار. ورغم ذلك، في نهايّة المطاف، خرج من الظل، وعلــى نحو تلقائي، وكأن قوة خفيّة تدفعه، وانطلق نحو نافورة الماء، حيث أسلم كلاوسيوس الروح.

وهناك احسّ بيد تلامس ذراعه.

التفت العجوز إلى الخلف، فاصطدم بشخص مجهول، جعله يصرخ مرعوبا :

ـ ماذا هناك؟ من أنت؟

ـ بولس الترسوسي.

ـ علي اللعنة ! ما الذي تريده مني؟

ـ أريد أن أنقذك.

استند شيلون إلى الشجرة. ارتعشت رجلاه من تحته، وارتجفت يداه متهدّلة على طول جسده.

فقال بصوت غائر :

ـ لا خلاص بالنسبة لي !

فسأله الحواريّ :

ـ ألم تسمــع أن السيد صفح عــن اللص الذي ندم على خطاياه وهو فوق خشبة الصليب.

ـ أتدري أنت ما فعلته أنا؟

ـ رأيت تألّمك، وسمعت أنك دعمت الحق.

ـ أوو، سيدي !

ـ إذا كان خادم المسيح وهو يكابد العذاب، قد سامحك في لحظة موته، فكيف لا يسامحك المسيح؟

أمسك شيلون رأسه بيديه وقال :

ـ الغفران لي ! الغفران لي !

فأجاب الحواريّ :

ـ إلهنا نحن، إله الرحمة.

فكرر شيلون :

ـ لي أنا !

وراح يتأوه كمن فقد كل قواه. أما بولس فقد قال :

ـ استند علي، ورافقني.

وقاده ممسكا بذراعه نحو تقاطع الطريق حيث النافورة التي ترقرقت مياهها في سكون الليل، كأنما كان يبكي كل الذين كابدوا العذاب المميت.

كرر الحواريّ قائلاً :

ـ إلهنا إله الرحمة. فإن وقفت عند شاطئ البحر، ورحت تلقي بالحجارة في مياهه، فهل بوسعك أن تردم بها أعماق البحر؟ أؤكد لك أن رحمة المسيح كالبحر، وأن ذنوب البشر وخطاياهم كالحجارة

في أعماقـه. أؤكد لـك أنها كالسمـاء التي تغطي الجبـال، والأرض، والبحـار وتمتد في كل مكان دون حد ولا نهايّة. لقد كابدت الالم عند كلاوسيوس وهو فوق القائم، والمسيح قد رأى ما كابدته.

وسمـع صيحتـك وأنت تقـول مشـيرا إلى القاتل : " هـذا هو من أحـرق المدينة "، وسوف يتذكرها. بـات قلبك نقيا بعد أن تخلص من الشـر، والكذب، و لم يعد يختزن الا الندامـة الصرف. رافقني واستمع لمـا سأقولـه : أنا نفسي كنـت أكرهه، وطاردت أتباعـه. لم أتقبله، و لم أؤمـن بـه، حتى ظهر لي، وناداني. ومن يومها هو مـن أحبه. وها أنتذا الان يبلوك بالاذى، والالم، والخـوف ليناديك اليه. أنت كرهته، لكنه يسامحك، ويريد خلاصك.

هز صدر العجوز البائس نشيج يهد الروح، فضمه بولس اليه، وقد استحكم به، وقاده كما يقود الجندي أسيره.

وما لبث أن قال :

ـ تعـال، وأنـا سأقودك اليـه. هذه مهمتـي التي جئـت إلى هنا من أجلها. لقـد أوصاني بأن أجمع النفوس البشريّـة باسم المحبة، فأنا إذن رهـن إشارته. تظن أنـك ملعون، وأنا أقول لك : آمـن به، وسينتظرك الخلاصـ. تظن أنك تضمر الكراهيّة، وأنا أكرر قولي بأنه يحبك. انظر الي ! طيلة الفترة التي كنت فيها لا أحبه، كان قلبي لا يملك الا شروري. أما الان فإن محبته تعو ض أبي وأمي، وكل ثروة ومملكة. وحده من لديه النجاة، وحده العارف بالملك، وحده من ينظر إلى بؤسك، ويبعد عنك الخوف، ويرفعك إلى جواره.

بلغا النافـورة، التي تلامعت خيوط مياهها فضيّة تحت ضوء القمر.

كان السكـون والفراغ يعم كل مكان، لأن الأرقّاء كانوا قد أزالوا بقايا القوائم المحترقة، وأجساد الشهداء.

جثـا شيلون لاهثـا متنهدا، وتسمـر مخفيا وجهه بيديـه. أما بولس فعكف إلى الصلاة رافعا وجهه نحو النجوم :

ـ سيدي، أنت ترى هذا الانسان البائس، وتنظر في الامه، ودموعه، ومعاناته ! يا سيد الرحمة، يا من بذلت دمك لقاء ذنوبنا، أن تصفح عن هذا الانسان بحق الامك، وموتك، وقيامتك !

سكت، لكنه ظل ناظرا في النجوم، يصلي؟

وفي هذه الاثناء جاءه صوت متحسر بالقرب من رجليه :

ـ يا مسيحي، يا مسيحي !... سامحني !

ولسمـاع النداء، تقدم بولس من النبع وحفـن بعض الماء، ثم رجع إلى الجاثي البائس :

ـ شيلون ! أنا أعمدك، باسم الاب، والابن، والروح القدس. آمين !

رفع شيلون رأسه، وفتح ذراعيه، وظل هكذا بلا حراك. أضاء القمر بأنـواره شعره الاشيب، ووجهه الابيض المتصلب الفاقد للحياة. مرت اللحظـات تـت إلى. وسمع صباح الديكة في مزرعـة الدواجن ضمن الحديقة، فيما ظل هو جاثيا على ركبتيه، بلا حراك كشاهدة قبر.

تزحزح أخيرا، ونهض واقفا ، والتفت إلى الحواريّ يسأله :

ـ سيدي، ما الذي ينبغي أن أفعله قبل أن أموت؟

فما كان من بولس أيضاً الا أن تخلى عن حالة تأمله في تلك القدرة العظيمة،وأجابه :

ـ تحل بالثقة والايمان بالعدالة.

وغـادرا الحديقة معا. وعند الباب قام الحواريّ بمباركة العجوز مرة أخـرى، وافترقـا. شيلون نفسـه كان راغبا في هذا، بعـد أن وضع في حسبانه أن القيصر و تيفالنيوس سوف يلاحقانه.

و لم يكـن خطأ. حين رجـع إلى البيت، كان منزلـه مطوقا بالحرس الامبراطوري، فسرعان ما قبضوا عليه، وقادوه إلى البالاستينوس.

كان القيصـر قـد هجع إلى النوم، لكن تيفالنيوس كان في انتظاره، فمـا أن لمح اليوناني التعيس، حتى التفت اليـه بوجه هادئ، لكنه ينذر بالوعيد، وخاطبه قائلاً :

ـ لقـد اقترفـت طعنا في الـذات القيصريّة. ولن تنجـو من العقاب. ولكـن غدا في المـدرج، إن أعلنت أنك كنت ثمـلا فاقدا عقلك، وأن المسيحيين هم من قاموا بالحريق، فسوف تنجو من الضرب والنفي.

فأجاب شيلون بخفوت :

ـ لا أستطيع يا سيدي !

لكـن تيفالنيوس تقدم نحـوه، وسأله بصوت خفيضـ أيضاً، لكنه يبعث على الرعب :

ـ و لم لا تستطيع إيها الكلب اليوناني؟ لعلك لم تكن ثملاً، ولا تدري ما الذي ينتظرك؟ أنظر هنالك !

وأشار إلى ركن الأتريوم حيث كان يقف أربعة من الأرقّاء الزنوج قرب مقعد طويل،وبأيدهم حبال وكلابات.

فكر شيلون قائلاً :

ـ لا أستطيع يا سيدي !

تملك تيفالنيوس غضب مسعور، لكنه ظل مسيطرا على نفسه فسأله :

ـ أرأيت كيف مات المسيحيون؟ أترغب في موت كهذا؟

رفع العجوز وجهه الشاحب، وتحركت شفتاه إلى حين بهدوء،ثم قال :

ـ أنا أيضاً أؤمن بالمسيح !

حدق تيفالنيوس ذاهلا :

ـ لقد جننت أيها الكلب !

وبكل ما هنالك من غضب استجمعه في داخله، قفز إلى شيلون، وقبض على لحيته بكلتا يديه، ورماه أرضا، وانهال عليه بالضرب وهو يقول له بفم مزبد :

ستسحبها ! ستسحبها !

ـ لا أستطيع.

وما أن سمع الأرقّاء الأمر، حتى قبضوا على العجوز، ومددوه،

والقـــوه بالمقعد، وشدوا ساقيه بالكلابـات. ولكن حين كانوا يقومون بربطه راح شيلون يقبل أياديهم متضرعا، ثم أطبق عينيه وبدا كالميت.

لكنــه كان ما يزال حيا، حين مال تيفالنيوس فوقه وسأله مرة أخرى : " ستسحبها؟ ".

ـ لا... أستطيع !

كـف تيفالنيوس عن تعذيبه، وراح، بوجه غاضب تبدلت قسماته، يذرع الأتريوم جيئة وذهابا، حتى خطرت له فكرة جديدة، توجه على إثرها إلى الأرقّاء يأمرهم :

ـ اقطعوا لسانه !

٦٣

جـرت العادة أن تقـدم مسرحيّـة اوريولوس في المسـارح كما في المدرجات، على خشبتين. ولكنهم بعد العرض الذي جرى في حديقة القيصـر، تخلـو عن هذه العـادة، لأن ما كان هاما الان هـو أن يتسنى لأكـبر عدد ممكن من المتفرجـين أن يشاهد موت العبد المصلوب الذي يأكلـه الدب في المسرحيّـة. وكان بدور الـدب في المسرح ممثل يرتدي جلد الدب.

أما الان فقد حض روا لعرض " حقيقي " وهي مستحدثة من بنات أفـكار تيفالنيوس. في بـادئ الأمر قرر القيصر أنه لـن يذهب لحضور العرض، ولكنه غي ر موقفه بإقناع من محبـه تيفالنيوس، الذي ارتأى عليـه أن يواظـب على إطلالتـه الجماهيريّة، خاصة بعـد كل ما حصل في الحديقـة وطمأنه أن العبد الذي سيصلـب في المسرحيّة لن يلجأ إلى شتيمته كما فعل كريسبوس.

وبما أن الشعب قد أتخم إلى حد ما من إراقة الدماء، وسئم منها، فقد أعلنـوا على الملأ أنهم سيوزعون بطاقات يانصيب وهدايا جديدة، وأن العرض الذي سيقام على الاضواء الكاشفة، ستليّة مأدبة طعام.

وما أن حل الظلام، حتى اكتظ المبنى عن آخره. وحضر الاوغستيان وعلـى رأسهـم تيفالنيوسـ بأعدادهم التامـة، ليس بدافـع الرغبة في المشاهـدة فحسب، بل ليبرهنوا على ولائهم الدائم للقيصر بعد الحادثة

الاخـيرة، ويسمعـوا شيئـاً عن شيلون الـذي بـات الان حديث روما باسرها.

وتهامســوا فيما بينهم أن القيصـر حين رجع إلى البيت من الحديقة، تملكته نوبـة حنق شديد، فلم يستطع النــوم، واشتدت مخاوفه، وحلت عليـه الكوابيـس الغريبـة، أعلن على إثرهـا في صباح اليـوم التالي أنه سيسافـر إلى أكايا حالا. فيما دحض آخرون هذا النبأ، وزعموا أنه بعد الاحـداث الاخيرة تملكه العنـاد، وأصبح أكثر قسـوة تجاه المسيحيين. وكان بينهـم جبناء عبروا عن خشيتهم من أن التهم التي أطلقها شيلون في وجه القيصر، على مسمع من الجماهير، قد يكون لها نتائج كارثيّة. وكان هنالك من طلبوا إلى تيفالنيوس، من وجهة نظر إنسانيّة بحتة، أن يكف عن ملاحقة المسيحيين.

عل ق باركوس سورانوس :

ـ انظر إلى أين وصل بكم الأمر. كنتم تريدون إشباع نقمة الشعب، وإقناعـه بأن العقاب قد لحق بالمذنبين، لكن ما جنيتموه هو النقيض من ذلك.

سانده أنتستوس فيروس قائلاً :

ـ تمامـاً. الـكل يتهامس الان أن المسيحيين أبريـاء. إن كنتم تسمون ذلـك ذكاء ومهارة، فشيلـون إذن محق حين زعـم أن عقولكم لا تملأ قمع حبة سنديان.

استدار تيفالنيوس اليهم مقرضا :

ـ والناس يتهامسون أيضاً أن ابنتك سرفيليا، يا سورانوس، وزوجتك

يا أنتستوس، قد خبأتا الأرقّاء المسيحيين عن أنظار العدالة القيصريّة.

فصاح سورانوس مرتبكا :

ـ ليس صحيحا !

وقال أنتستوس بارتباك لا يقل عن الاخر :

ـ زوجاتكـم المطلقات هـن من يرغبن بالانتقام مـن زوجتي، غيرة منها على أخلاقها الفاضلة.

وأخرون تكلموا عن شيلون. فسال ابريوس مارسيلوس :

ـ ماذا جرى له؟ هو الذي سلمهم لتيفالنيوس، وبعد أن كان شحاذا، استحال إلى سيد ثري كان بمقدوره أن يعيش بأمان وأن تكون له جنازة لائقـة، وشاهدة قبر جميلة. لكنـه... لا ! فضل أن يفقد كل شيء دفعة واحدة. لا بد أنه فقد عقله. وليس هناك من سبب آخر.

اختصر تيفالنيوس قائلاً :

ـ لم يفقد عقله، بل صار مسيحيا.

فصاح فيتليوس :

ـ مستحيل !

وأردف فتستنوس :

ـ أرأيتـم؟ الم أقـل لكم؟ أبيدوا المسيحيـين إن شئتم، لكن لا تقاتلوا ربهـم... ليس الأمر مزاحا... انظروا ماذا حدث ! أنا لم أحرق روما،

لكــن لو سمح لي القيصر، لنذرت لالوهتهـم على الفور ذبيحة مئة ثور. وعلــى كل منا أن يفعل ذلك، لأنه كما قلت، لا يعرف المزاح. تذكروا أنني بل غتكم !

فقال بترونيوس :

ـ أما أنا فقلت شيئاً آخر. هزئ تيفالنيوس حيث قلت أنهم يقاومون، والان أقول أنهم في طور الاقتحام والكر.

فتساءل العديدون دفعة واحدة :

ـ كيف؟ كيف؟

ـ ياعظمة بولوكس ! إن كان حتى شيلون خضع لهم، و لم يستطع أن يقاومهم فمن باستطاعته إذن؟ إن كنتم تعتقدون أن أعداد المسيحيين لا تتكاثر بعد كل عرض، فأنتم إذن لا تعرفون روما.

وكان من الافضل لكــم أن تكونوا حلاقين، أو حجارين، لتدركوا كيف يفكر الشعب، وما الذي يحدث في المدينة.

فقال فستنيوس :

ـ يا عظمة القديسة ديانا ! ما تقوله صحيح تماماً !

لكن باركوس التفت إلى بترونيوس :

ـ إلى أين تبغى أن تصل؟

ـ أبغي أن أختم بما بدأتم به : كفى دماء !

حدجه تيفالنيوس بنظرة هازئة قائلاً :

- القليل منها بعد !

أنهى الحديث بقدوم القيصر وصحبه الفيثاغورثيين، واحتل مكانه. وبـدأ في الحـال عرض اوريوليوس الـذي لم يلفت انتباهـا كبيراً، لأن شيلون كان حاضرا في ذهن كل منهم.

حتـى الشعب الـذي الـف مشاهدة الـدم والعذاب، بـدا ضجرا منشغلا بالاحاديـث، يترقب بنظرات متعطشـة مشهد الدب الذي لم يحضـر الا لـيراه. ولو لم يكن متسلحـا بأمنيّة حـارة لمشاهدة العجوز محكوما، وعلى موعد مع تلق ي الهدايا، لما كان العرض يعني الجمهور بشيء في الاساس.

لكن اللحظة المرتقبة حانت. أحضر فتيان السيرك أولا خشبة الصلب القصيرة إلى حد كبير، ليتمكن الدب الواقف على قدميه الخلفيتين، من بلـوغ صـدر الضحيّة. ثم جـيء بشيلون يجره اثنـان لأن رجليه كانتا مكبلتـين بالكلابـات. ثم مدداه وثبتـاه على خشبة الصلـب. بأقصى سرعة، حتى أن الاوغستيان لم يشبعوا فضولهم برؤيّة هذه الحركة، و لم يستـدر أحـد بنظره نحوه، الا بعـد أن ثبتت الخشبـة في الحفرة المعدة لذلـك. كاد الجميـع لا يتعرفون في هذا العجوز العـاري، على شيلون الاسبـق. وجه مبيض مـن شدة الشحوب، عروق جفـت من دمائها، لحيّة بيضاء لطخت بالدماء نتيجة بتر لسانه وفق أوامر تيفالنيوس، جسد هزيل بانت عظامه.

بدا أكـثر شيخوخة، أوهنه المرض. و بينما قـد استطاعت عيناه في المـرة السابقـة، أن تطلقا نظرات مضطربة، حاقـدة، ووجهه الصاحي

يشي بتعابير الجـزع، والقلق، الا أن هذا الوجه الان يبث الالم كما من ذي قبل، لكنه كان وديعا وهادئا، كوجوه الموتى أو النيام.

لعله كان يفكر باللص المصلـوب الذي صفح عنه المسيح، فشحنته الفكرة بالطمأنينة، أو لعله كان في نفسه يقول للرب الرحيم : "سيدي، لقـد نخرت كالدودة السامة، لكني كنت بائسا طوال حياتي. جعت، داسني الاخـرون، وضربوني،وعذبوني. كنت فقيرا، جافتني السعادة. سيدي هاهم الان يعلقوننـي على خشبة التعذيب والصلب، فلا تتخل عني في لحظة موتي ".

ومـن البديهـي أن يكـون السـلام قد حـل في فـؤاده. لم يضحك أحـد، لأن المصلـوب كان يعكـس نوعا مـن الهـدوء، والشيخوخة، والضعف، والعري الاعزل، حتى بات الجميع يطرحون السؤال تلقائيا : كيـف يمكن تعذيب وصلب إنسان يحتضر أساسا؟ صمت الجمهور. فستينوس كان يميل يسارا ويمينا يهمس في آذان الاوغستيان : " انظروا كيف يموت هؤلاء ! ".

آخـرون انتظروا الدب، وكانوا في أعماقهـم يتمنون أن ينتهي هذا العرض.

وأخيرا جاء الدب يؤرجح برأسه يمينا وشمالا، ويدخل الميدان وهو ينظر حولـه في كافة الانحاء، كأنما كان يفكر بأمر، أو يبحث عن شيء ما. حتى لمح أخيرا الجسد العاري المعلق على الصليب.

اقـترب منه، ثم ما لبث أن تراجع قليلا، وأقعى عند أسفل الصليب. غمغـم بهدوء، كأنمـا قد استيقظـت في قلبه الحيواني الشفقـة إزاء هذا الانسان البائس.

في هـذه الاثناء رفع شيلون رأسه ببطء، وأجال النظر قليلا في حشد

المتفرجين، حتى توقف بعينيه على أعلى صف من صفوف مقاعد الجلوس في المدرج، وفي هذه اللحظة حصل أمر أوقع المشاهدين في العجب والذهول. وجهه أشرق بابتسامة. جبينه كأن اشعة طفحت فوقه، وقبل أن يفارق الحياة فتح عينيه، وباحتا بدمعتين تدحرجتا على وجهه. مات

وفي الاعلى، تحت المظلة، صد صوت رجولي :

ـ السلام للشهيد !

وأطبق سكون عميق في المدرج.

٦٤

بعد عرض الحديقة القيصريّة، باتت السجون شبه خاليّة. صحيح أنهم، في أثناء ذلك، قد استمروا في ملاحقته كل من اشتبهوا به، وزجه في السجن، لكي يزودوا العروض اللاحقة بالضحايا، وليحققوا رغبات دعاة الخرافة الشرقيّة، الا أن مواسم الالعاب قد أشرفت أيضاً على نهايتها. لقد أتخم الشعب في إراقة الدماء، وصارت العروض تملأ قلوب الناس بأشد القلق. فبات حديثهم يتطرق إلى غضب اله المسيحيين وتعطشه إلى الانتقام. وفي السجن انتشر مرض التيفوئيد ليملأ المدينة، ويفاقم من ذعر سكانها.

وفي الكنائس نذرت القرابين لكل من جوبيتر و ليبتانا، وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها تيفالنيوس وأتباعه، الا أن عموم الاراء الشعبيّة اتجهت إلى الاعتقاد بأن القيصر هو من أحرق المدينة، وأن المسيحيين الابرياء يكابدون العذاب جورا، وعن سابق إصرار.

لكن نيرون و تيفالنيوس لم يكفّا عن ملاحقة المسيحيين. ولكي يخففا من نقمة الشعب، ويخمدا شفقته أطلقت تعليمات جديدة لتوزيع القمح، والنبيذ، والزيت، وسنت المراسيم التي تسهل إعادة إعمار المنازل، وقدمت الامتيازات لأصحاب البيوت، وبدلت القوانين في توسيع الشوارع، واستخدام مواد البناء المقاومة للحريق.

وانضمّ القيصر بنفسه إلى مجلس الشيوخ، ليناقش مع المخضرمين،

شـؤون المدينـة والشعب، وكيفيّـة تحسين الأحـوال المعيشيّة، دون أن يتطرّقوا، ولو بلتفاته واحدة، إلى وضع المحكومين. أراد سيد العالم قبل كل شـيء، أن يقنع الشعب بأن مثل هذه الأحـكام القاسية لا يمكن أن تشمـل إلا المذنبين. و لم يجرؤ أحد مـن السيناتورات أن ينبس بحرف بخصوص حمايّة المسيحيين، تفاديا لأيّة ملاحظة قد تسجل عليه أمام القيصـر، في حين علـت أصوات العقلاء القائلة بـأن المبادئ التي يقوم عليها الحكم الروماني ليس بوسعها أن تصمد في مواجهة الدين الجديد.

ولكنهـم أعادوا الجثامين لذويهـا، لأن القانون الروماني لا يتضمن أحقـاداً على الموتى. أمـا بالنسبة لفينيكوس، فقـد طمأنته كثيراً فكرة أن ليفيـا إذا مـا ماتت فسـوف يدفنها في مقبرة العائلـة، ويرقد هو إلى جانبهـا. بـات الآن فاقدا لـكل أمـلٍ في إنقاذها، وصـار مستغرقا كل الاستغـراق في المسيـح، منفصلاً تماماً عن الحيـاة الأرضيّة، ولا يخطر لـه أن يفكر بالارتباط بليفيا الا في الحيـاة الابديّة. لقد تعمّق إيمانه على نحـو جعل الحياة الابديّـة منزهة عن أن تقارن بهذه الحيـاة. امتلأ قلبه بالبهجة. تخيل كيف أنه سيمسك بيد ليفيا ويصعدان إلى السماء حيث سيباركهما المسيـح، ويسمح لهما بالسكنى هنالـك في النور الأبدي بسلام.

وتضـرع إلى المسيح كي يرفق بهـا وينقذها من التعذيب في الميدان، وأن تسلم الروح وهي في السجن، وأن يموت هو في تلك اللحظة. وما دامـت كل هذه الدماء قد أريقـت، فمن غير الجائر أن يكون له أقل من إنقـاذ ليفيا وحدها. ولقد سمـع بطرس و بولس يقولان أنه ينبغي لهما أن يموتـا شهيديـن. لقد رأى شيلون فوق الصليـب، وأثبت له العجوز أن الشهـادة أمر جميل، وهـو الان راغب أن تأتي تلـك اللحظة التي يستشهدان فيها معا.

كانـا بين الحين والاخـر يستشعران طعـم الحياة بعد المـوت، وأن الحـزن الذي يرفرف حول روحيهما قد بات شيئاً فشيئاً، يفقد حرارته الحارقة، ويستحيل بإرادة الرب إلى راحة وسلام. ظل فينيكوس طويلاً يسبـح بكل جهده عكس التيار. قاتـل، كابد، لكنه الان بات واثقا أنه في اتجاه يقـوده إلى السكينة الابديّة. شعر أن ليفيا تستعد مثله للموت، وأن من المستحيل لجدران السجن أن تفرقهما. فهما الآن يسيران معا. ابتسم للفكرة، وللسعادة التي هو فيها.

وحقيقـة الأمر أنهما قد تشاطرا هذه الافـكار. فلم تعد ليفيا راغبة الا في الحياة التي تنتظرها بعد الموت. لم تنظر إلى الموت كخلاص فقط يحرّرها من بين جدران السجن، ومن أظافر القيصر و تيفالنيوس، وإنما رأت فيـه لحظة اتحادها بفينيكوس. وأمـام هذه الطمأنينة فقد كل شيء آخر معناه وأهميته. لقد انتظرت الموت كخطيبة تترقب لحظة زفافها.

و لم يكـن أرسوس الا ملتصقا بمثل هذه المشاعر. فلم يكترث طويلاً لمسالة مـوت ليفيا، لأنه بقلبـه الغلامي البسيـط. كان يستشعر فوزها مـع غيرها من المسيحيـين بالحياة الأبديّة المجيـدة كان يسمع أن الناس متسـاوون أمام الرب، لكنه لم يشاهد هذه الفتاة الملكيّة التي تميزت في هذه الحياة، وهـي على قدم المساواة في الاخرة مع أخواتها الرقيقات. وتمنـى لنفسه أن ينعم عليه الرب ويسمح له بـأن يظل خادما أمينا لها. وكان يصـلي ليمـوت فـوق خشبـة الصليب كمـا كان مصير الحمل المسيح.

لقد أحب الحراس أرسوس لوداعته، ولكن قوته الخارقة التي أبداها في تقطيـع الحبال، وتخليـع القضبـان الحديديّة، أوقعتهـم في جزع. وحاولوا جهدهم أن يعرفوا سر هذه القوة.

فـكان يكلمهم بكل ثقة عن الحياة التي تنتظره بعد الممات. وكانوا يشعـرون أن هـذا المكان الذي لا تدخلـه الشمس، تدخلـه السعادة. وحـين حـاول أن يقنعهم بالايمان بالمسيـح، كان يلمع في ذهن البعض منهم أن عمله عمل عبيد، وحياته حياة بائسة، فيما كان بعضهم الاخر يتأمل في قدره الرديء الذي لا يضع حدا له سوى الموت.

لكـن الموت ملأهم بمزيـد من الخوف، و لم ينتظـروا أن يأتيهم بأي أمر حسن. فيما كان هذا العملاق الليغوي، والفتاة التي كانت كزهرة مرميّة على قش السجن، يمضيان بترحاب نحو الموت، كأنما يقتربان من مدخل السعادة.

٦٥

وذات مساء قام السيناتور سكافينوس بزيارة بترونيوس، وتحدث معه طويلاً عن القيصر، والأزمنة الصعبة، التي يعيشانها. ولقد كان شفافا وصريحا في حديثه إلى حد جعل بترونيوس، ورغم صداقته الحميمة معه، أن يلزم الحذر. أظهر شكواه من أن العالم قد فقد عقله، وصار ينحو في اتجاه رديء. ولن يوضع حد لإيقاف ذلك، الا بحصول واقعة أكبر من حريق روما. وقال أن الاوغستيان باتوا يتذمرون، وأن فنيوس روفوس نائب قائد الحرس قد فرغ صبره من تصرفات تيفالنيوس. وأن قوم سينكا أجمعين قد ازعجهم سلوك القيصر تجاه لوكانوس، والعجوز. وذكر أخيرا أن الشعب، وحتى الحرس الامبراطوري يبدون عدم رضاهم، وأن فنيوس روفوس قد كسب غالبيتهم العظمى إلى جانبه.

سأله بترونيوس :

ـ ولم تقول هذه الامور؟

فأجاب بسكافينوس :

ـ أنا قلق بسبب القيصر. لي قريب بعيد بين عناصر الحرس الامبراطوري عرفت منه ما الذي يحصل في المعكسر... التذمر يتفاقم... تعلم أن كاليفولا أيضاً كان مجنونا... فما الذي حصل له؟ جاء كاسيوس سيريا وقام بمأثرة عظيمة بتخليص العالم من ذلك الغول... وليس بيننا من يمجد سيريا.

قاطعه بترونيوس قائلاً :

ـ كأنما تقول بأنك لا تمجد مأثرته، لكنه رغم ذلك كان إنسانا عظيما، ويا حبذا لو تبعث لنا الالهة العديد من أمثاله.

غير سكافينوس مجرى الحديث، وراح فجأة يمجد بيشو. مجد قومه، وروحه النبيلة، وتعلقه بزوجته، وعقله الراجح، وهدوءه، وموهبته المتميزة في كسب الناس لصالحه.

قال :

ـ ليس للقيصر أبناء، والجميع يرى في بيسو خليفة له، ويرغبون في مؤازرته لتسلم السلطة. روفوس أيضاً يحبه، وأسرة أنيوس نصيرة له، و بلاتيوس لاتيرانوس و توليوس سينكيو يرمون بأنفسهم بالنار لأجله. وكذلك ناتاليس و فلافيوس و اسبر و أفروس وحتى فستينوس.

فعلق بترونيوس قائلاً :

ـ لا فائدة ترجى من الاخير، لأن فستينوس يخاف من ظله.

فأجاب سكافينوس :

ـ إنه يخاف من الأحلام والاشباح، لكنه شخص مستقيم، ومن الحسن أنهم يرغبون في تعيينه قنصلا. ولا يؤخذ عليه من قبلك أنه في أعماقه غير راض عن ملاحقة المسيحيين، لأن من الهام لك أيضاً أن يوضع حد لهذا الجنون.

صحح له بترونيوس :

ـ من الهام ليس لي، بل لفينسيوس. بسبب فينسيوس أرغب في إنقاذ فتاة، لكني لا أستطيع لأنني خرجت من دائرة استعطاف القيصر.

ـ كيف ذلـك؟ ألم تلاحظ أن القيصر يتقـرّب إليك ويتحدّث معك مجـدّداً؟ وسأوضح لك السبب حالا. إنه يتهيـأ للسفر إلى أكايا، حيث سيطلـق هناك بعض أغانيه اليونانيّـة. ينتظر السفر على أحر من الجمر، لكنه في الوقت نفسه يرتجف خشيّة من ذائقة اليونانيين الساخرة.

يضـع في تصـوره الان، أنـه إما أن يحظـى بأعظم أمجـاده، أو يبوء بالفشل الذريع هناك. فهو الان في أمس الحاجة للنصيحة، ويدرك تماماً أن ليس ثمة من يفوقك في أداء هذه المهمة : هذا هو سبب قبوله لك.

ـ يمكن للوكانوس أن يحل محلي.

ـ صاحب اللحيّـة الحمراء يكرهه، وفي أعماق نفسه قد حكم عليه بالاعدام، لكنه ينتظر الذريعة، لأن المظاهر تهمه كثيرا. لوكانوس يشعر أن الاسراع في الأمر بات ضروريا؟

صرخ بترونيوس :

ـ يـا عظمة كاستور ! هذا ممكن. لكني أعرف طريقة أخرى تقربني منه سريعا.

ـ وما هي؟

ـ أن أحكي له كل ما حكيته لي الان.

فصاح سكافينوس باضطراب :

ـ لم أقل شيئاً

لكن بترونيوس وضع يده على كتفه :

ـ نعت القيصر بالمجنون، وترى بيسو خليفة، وقلت أيضاً : لوكانوس يشعر أن الإسراع ضروري. ففي أي شيء تريدون الإسراع؟

شحب سكافينوس وظلا بعض الوقت يحدّقان في بعض.

ـ لن تقول له شيئاً أعرف !

ـ بحق عجيزة سيبريس ! تعرفني جيدا ! لا ! لن أقول. لم أسمع منك شيئاً ولا أريد أن أسمع... أتفهم؟ الحياة أقصر من أن نوجع رؤوسنا بالمؤامرات. لكني أرجوك أن تزور تيفالنيوس حالا وتتحدث معه بكل ما حدثتني به اليوم.

ـ لماذا؟

ـ لأن تيفالنيوس لو واجهني بقوله " كان سكافينوس عندك "، أستطيع أن أواجهه بقولي " كان عندك في نفس اليوم ".

حين سمع سكافينوس ذلك حطم العصا العاجيّة التي كانت بيده وقال :

ـ اللعنة على هذه العصا المسحورة. سأذهب اليوم إلى تيفالنيوس، ثم إلى مأدبة نيرفا آمل أن تكون هناك. لكن في كل الاحوال، إلى اللقاء بعد غد في المدرج، في العرض الاخير للمسيحيين، إلى اللقاء.

ـ بعد غد !

كرر بترونيوس. وحين صار بمفرده قال :

- ليس هناك من وقت اضيعه. صاحب اللحيّة الحمراء في أمس الحاجة الي فعلا قبل السفر إلى أكايا. إذن قد يضعني في حسبانه.

واتخذ قراره بأن يجرب محاولته الاخيرة.

في مأدبة نيرفا رغب القيصر فعلا أن يجلس بترونيوس قبالته، لأنه أراد أن يكلمه عن أكايا، وفي أي المدن هناك يمكن له أن يحرز أكبر النجاحات. الأهم لديه الأثينيون، لكنه كان يخشاهم.

أنصت الأوغستيان بانتباه شديد إلى ما جرى من حديث، ليتناقلوا فيما بعد ما ارتكب بترونيوس من زلات لسان.

قال نيرون :

- أشعر أنني لم أعش بعد. وسوف تكون ولادتي في بلاد اليونان.

فقال بترونيوس :

- سوف تولد باسم جديد، حيث يكتب لك الخلود.

- أنا أكيد من ذلك. ولن يكون أبوللو في موقع الحسود. فلو حققت النصر الذي أريد، سأنذر له ذبيحة مئة ثور، وما لم يحصل عليه أي اله قبل الان. فاستشهد سكافينوس بأحد المقاطع الشعريّة لهوراتيوس :

يا امرأة سيبروس الالهيّة،

يا نجمة كاستور وأخيه المزدوجة الناريّة...

قوديني على هداك.

تابع القيصر :

ـ السفينة تنتظرنا في نابولي أود لو أنطلق غدا.

بترونيوس جاءته الصحوة، وقال محدقا في عيني نيرون :

ـ أتسمــح، أيها القيصر الالهي، أن أقيــم مأدبة عشاء قبل ذلك، وأن تكون أول المدعويين اليها؟

فسأله نيرون :

ـ مأدبة عشاء؟ لماذا؟

ـ علــى شرف فينيكوســ والامــيرة الليغويّة رهينتــك. صحيح أنها الان في السجــن. ولكن من جهة، لا يجوز اعتقالها لأنها رهينة، ومن جهة ثانيّة أنــت بنفسك سمحت لفينيكوس أن يتخدها زوجة له. وبما أن قراراتــك، كما قرارات زيوس لا ترد، فإنــك ستطلق سراحها، وأنا سأسلمها لحبيبها.

الهدوء المطبق من جراء ما نطق به بترونيوس بكل برود وثقة، أخرج نــيرون عن سراطه، وأزاحه عن روتينــه الخاص، كما حصل له غير مرة حين كل موه بهذه الطريقة.

فقال :

ـ أعلم. فكرت بالأمــر، كما فكرت بذلك العملاق الذي دق عنق كروتون

فكان رد بترونيوس :

- إذن فكلاهما في منجاة.

لكن تيفالنيوس سارع إلى مؤازرته :

- إنهـا في السجـن بناء علـى إرادة القيصر، وها أنـت تقول بعظمة لسانك أن أوامر القيصر لا تراجع عنها.

كان جميـع الحضور يعرفون حكايّة فينيكوسـ و ليفيا بتفاصيلها، فالتزمـوا الصمت، وترقبوا بفضول ما النتيجـة التي سيفضي اليها هذا الحديث.

فصد ه بترونيوس بقوة :

- إنهـا معتقلة رغم إرادة القيصـر، نتيجة لخطأ وقعت فيه، كونك لا تتقـن الحقوق القانونيّة للشعـب. أنت شخص ساذج، يـا تيفالنيوس، لكنـك بالطبع ليس لديك الرغبة في أن تزعـم بأن ليفيا أحرقت روما. وحتى لو زعمت ذلك، فالقيصر لن يصدقك.

خمـد نيرون في هذه الاثنـاء، لكنه راح يجول بعينيـه، اللتين كانتا تعكسان حقدا وبغيضة.

ثم قال بعد قليل انتظار :

- بترونيوس محق.

فرمقه تيفالنيوس بنظرة استغراب

وكرر نيرون قائلاً :

ـ بترونيوس محق. غدا سيفتح أمامه باب السجن. أما المأدبة فسوف نتحدث عنها بعد غد في المدرج.

" هزمت مرة ثانيّة " فكر بترونيوس

وبعودته إلى البيــت، لم يكن لديه أي شك في مصير ليفيا وفي اليوم الثــاني أرسل أحــد معتوقيه المخلّصــين بوصيّة إلى قائــد البولاريوم في المدرج، بأن يسلم جثمان ليفيا اليه، لأنه سيسلمها بدوره إلى فينيكوس.

٦٦

باستثنـــاء حالات ومناسبات خاصة في السابــق، لم تتخذ العروض طابعهــا الاحتفــالي المنوع الا في عهد نــيرون. كان الاوغستيان يحب ذون هــذا الزخرف الترفيهي الجديد الذي غالبــاً ما تليه المآدب والمرح العربيد، ويستمر حتى الصباح.

صحيــح أن الشعب قد أتخم من إراقة الدماء، لكنه بإعلان الجهات المنظمــة أن العاب السيرك تتجه نحو نهايتهــا، وأن الدفعة الاخيرة من المسيحيــين ستشــارك فيهــا، فقد وفــدت الحشود متزاحمــة، متدافعة إلى المــدرج. حضـر الاوغستيان عن آخرهــم، يحدوهم الظــن بأنهم سيشاهــدون عرضا ليس عاديا، بعــد أن قرر القيصر أنه في صدد تقديم تراجيديا مستوحاة من الام فينيكوس.

احتفــظ تيفالنيوس ســرا بطريقة التعذيب التــي ستسلك بخصوص خطيبــة الحاكم الشاب، ولقــد اعتبر عدم الافصاح عنهــا طعنا بالمزاج العام.

فالذين كانوا قد رأوا ليفيا في منزل بلاوتيوس، تناقلوا في احاديثهم العجائــب عــن جمالها، فيمــا أثار آخــرون غيرهم أمر آخــر : أتراهم سيشاهــدون ليفيا في الميــدان أم لا، لأن ما قاله القيصــر في مأدبة نيرفا يُحــم ل على وجهين. فبعض منهــم فهم من القيصر أنــه سيعيدها، بل أعادها إلى فينيكوس، لأن من حقها كرهينة أن تؤمن بالاله الذي تريد، وأن القانون لا يتيح الحاق العقاب بالرهائن.

لعبت الشكوك في نفوس المشاهديـن، وأرقهم الترقب والفضول. وحين وصل القيصر أبكر من عادته، انتشر اللغو في أوساطهم، متوقعين أن أمـرا خارقـا سوف يحصل، خاصة وأن نـيرون جاء وبصحبته كل مـن تيفالنيوس و فاتينوس إضافة إلى قائد المئـة العملاق الشديد البأس كاسيوس، الذي لم يعتد القيصر على اصطحابه معه الا إذا دعت الحاجة الماسة.

وبـدا للعيان في المدرج أن تدابير احترازيّـة مشددة قد اتخذت من قبل جنـد الحرس الامبراطوري والان تحـت قيادة الحاكـم فلافيوس المخلص الشديد التشبث بالقيصر، كما يعلم الجميع.

كل هـذه المظاهر دلت علـى أن القيصر قد اتخذ كل احتياطاته ضد أي غضـب محتمل لفينيكوس قد يخرجه عن طوره، ويهدد أمن نيرون وسلامته.

كل الانظار اتجهت مشدودة إلى حيث يجلس العاشق البائس. كان فينيكوس شاحبـا قلقا متعرق الجبين، فاقد اليقين، شأنه شأن الاخرين، فيما سيحصل.

لكنـه كان مصممّاعلى إنقاذ ليفيا، مهمـا كلفه ذلك من ثمن. جاء منـذ الصباح، يحاول الدخول إلى كونيكولـوم ليتأكد من وجود ليفيا هناك، لكن الجند كانوا يحرسون كل المداخل، مزودين بأقسى الاوامر والتعليمـات التي جعلت حتـى أصحابه من الجنود لا تلين قلوبهم أمام أي إغـراءات، ولو كانت أكياسا من الذهـب. شعر فينيكوس أن القلق يقتلـه قبل أن يشاهد العرض لولا بصيص من أمـل يقول له أن ليفيا قد لا تكـون في المدرج، وأن هـذا القلق القاتل لا فائـدة منه. لقد تشبث ببصيص الامل هذا.

وفكر في نفسه أن المسيح قد يكون قد أخرجها من السجن ورفعها اليـه. كان قبـل الان مستسلما لإرادة المسيح، لكنـه وقد طرد من أمام مدخل الكونيكولوم عائدا إلى المدرج، أدرك أن أقسى الاحتمالات في طريقها إلى الوقوع، فراح يصلي، ويدعو المسيح لإنقاذها : " أنت قادر " وشعـر الان أنه إذا ما شاهـد ليفيا تكابد تعذيبها المرتقب، فإن محبته للمسيح ستستحيل إلى كراهيّة، وإيمانه إلى شك.

تزاحمـت أفـكاره كالامواج في بحر عاصـف. استيقظ في داخله ظمـأ إلى الـدم، والرغبـة في الانتقام. دهمتـه رغبة مجنونـة في اقتحام المنصـة، والقبض على القيصر، وخنقه على مـرأى من الجمهور، لكنه في الوقـت نفسه، شعـر أن هذه الرغبة تجرح المسيـح، وتعني الخروج عن تعاليمه.

وفي غمـرة هذه الافكار اتخذ قرارا بـأن ليس بوسعه إنقاذ ليفيا الا بالايمـان، الطريق الاوحد المتبقي لديه. الم يقل بطرس : " بالايمان يمكن زحزحة الأرض عن بنيانها ".

استعاد نفســه إذن، وضغط على ما يجيش جو اه من يأس واحتجز كائنه الحي، داخل عبارة واحدة " أؤمن ".

وانتظر المعجزة.

وكمـا يتعين على الوتـر المشدود إلى أقصـاه أن ينقطع، فإن ما بذله من توتر أقصى في قواه، قد أدى إلى انكساره. شحب وجهه، وتصلب جسده. وفكر آنئذ أن دعاءه قد استجيب، فها هو ذا يموت. وأحس أن ليفيا أيضاً تموت الان مثله، وأن المسيح سيرفعها اليه.

الميـدان، والمتفرجـون، والالاف المؤلفـة مـن الأرديّـة البيضـاء،

والفوانيس، والمشاعل، كلها قد اختفت من أمام عينيه، لكن هذا الوهن لم يدم طويلاً. وسرعان ما تيق ظ، والاحرى أن صخب الشعب المترقب هو الذي أيقظه.

قال بترونيوس :

ـ أنت مريض. اذهب إلى البيت !

ودون أن يبالي بما سيقوله القيصر، نهض ليمسك بذراع فينيكوس وينصرفا سويا. امتلأ قلبه شفقة على الشاب، لكنه كذلك كان طافحا بالغيظ، لأن القيصر كان يراقب فينيكوس من خلال زمردته، متمعنا في الامه، بسعادة بالغة، لعله كان يرغب في كتابة قصيدة، يتحدى بها تصفيق الجماهير.

هز فينيكوس رأسه. قد يموت هنا في المدرج، لكنه لا يحتمل الانصراف، لأن العرض قد يبدأ في أيّة لحظة.

وفعلا، في هذه اللحظة قام حاكم المدينة بالقاء منديله الاحمر أرضا. وللتو صر باب المدخل المقابل لمنصة القيصر، ومن شقه المظلم دخل أرسوس إلى الميدان الشديد الانارة.

أغمض العملاق عينيه نتيجة الانارة المبهرة، وتقدم ناحيّة وسط الميدان، وراح يجول بعينيه في كل اتجاه، كأنما يبحث عمن عليه أن يصارعه. كان جميع الاوغستيان، والغالبيّة العظمى من جمهور المشاهدين يعلمون أن هذا العملاق هو من دق عنق كروتون، فهدر المدرج لمرآه. كان في روما العديد من المجالدين الذي فاقوا بقاماتهم المقاييس العاديّة للناس، لكن عملاقا مثله لم يكحل أعينهم قبل الان.

حتـى أن كاسيوس الواقف خلف القيصر بدا كقصفة صغيرة مقارنة به. السيناتـورات، عذراوات فيستا، القيصـر، الاوغستيان، الشعب، كلهـم راقبوا بذهول ساقيه الاشبه بجذعـين شجريين، وصدره المنتفخ الاشبه بترسين متلاصقين، وذراعيه الهرقليين.

اشتـد الهديـر لحظـة إثر لحظـة. لم تعـرف الجماهير لـذة أكبر من استمتاعها بالعاب مثل هـذه العضلات حين تتوتر، وتتضخم في أتون المعركـة. علت الصيحات : أين ذلـك الشعب الذي ينجب مثل هؤلاء العمالقة. فيما كان أرسوس ينتصب عاريا في وسط الميدان.

كان أشبه بنصب حجري منه إلى إنسان غار وجهه الاسمر، وطفح بالحـزن. وحين رأى الميدان خاليا راح مندهشا يجول بعينيه الزرقاوين الطفوليتين، على المتفرجين، ثم على القيصر، ثم على شباك الكونكولوم من حيث ينتظر قدوم جلاديه.

حـين خطا نحو الميـدان، كان قلبه يرتجف توقـا إلى ميتة مسيحيّة، ولكنـه حين لم يلمح قائـم الصليب، ولا الحفرة المعـدة من أجله، فكر أنه لا يستحق إذن مثل هذه النعمة، ومن المحتمل أنه سيلاقي حتفه بين أنياب الوحوش :

كان أعـزل، واعتـزم أنه سيواجه الموت كواحد مـن أتباع الحمل : بهـدوء، وصبر ورغب في الصلاة للمخلصـ، فركع في أرض الميدان. عقد يديه، ورفع وجهه عبر شق السيرك العلوي، نحو النجوم المؤتلقة.

لم ينـل هذا الطقسـ إعجاب الحشد. لقد سئمـوا هؤلاء المسيحيين الذيـن يواجهون موتهم كالحملان كانـوا يدركون أن هذا العملاق إذا تمن ع عن القتال، فقد ذهب العرض في مهب الدخان.

وسمعت هسهسة هنا وهناك. وقام البعض بمناداة الجلادين الذين يقتصر دورهم على سقوط المتمنعين وحثهم على القتال. ولكن سرعان ما ساد الصمت، لأن أحدا لم يكن يعرف ما الذي ينتظر العملاق، وهل يا ترى سيواجه الموت دون مقاومة.

لم يدم الانتظار طويلاً. صدحت الابواق النحاسيّة تصم الاذان. وانفتحت الشبكة قبالة المنصة القيصريّة، ليدخل منها وسط الزعيق، ثور جرماني مخيف على رأسه جسد نسائي عار.

صاح فينيكوس :

ـ ليفيا ! ليفيا !

وكمن أحس بأن مديّة حادة، أو راس سنان يخترق جسده، جلجل بصوت حيواني عميق :

ـ أؤمن ! أؤمن !... يا مسيح ! اصنع معجزة !

حتى أنه لم يشعر أن بترونيوس في هذه اللحظة خبأ رأسه بردائه. ظن أن الموت أو الالم قد سرق ضوء عينيه. لم ينظر، لم ير. أحس أن فراغا رهيبا يحيط به. لم يبق في رأسه أثر لأيّة فكرة. فمه فقط ظل يردّد :

ـ أؤمن ! أؤمن ! أؤمن !

ساد البكم في المدرج. قفز الاوغستيان عن أماكنهم قفزة رجل واحد، لأن ما حصل في الميدان كان أمرا غريبا يفوق الحد. ما إن لمح العملاق الليغوي الخشوع المتأهب للموت، الاميرة فوق قرون الثور، حتى قفز كالملسوع، وانحرف راكضا باتجاه الثور.

وملء الحناجر علت صيحة آنيّة قصيرة، عبرت عن ذهول المتفرجين، ثـم أطبق صمت أبكم. في هذه الاثنـاء، وفي لمح البصر، كان العملاق أمام الثور المندفع نحوه، وأمسك بقرنيه.

صاح بترونيوس مزيحا الرداء عن رأس فينيكوس :

ـ انظر !

تيقـظ الشاب رافعا رأسه النحيلـة الشاحبة، وسمر عينين بللوريتين حائرتين على الميدان.

توقفـت الانفاس في الصـدور. وسمع أزيـز أجنحـة الذباب في المـدرج. لم يشأ البشر أن يصدقوا أعينهم. فمنذ روما هي روما، لم تقع عيونهم على مثل ما يشاهدونه الان.

أمسـك العملاق بقرني الثور. غرز قدميـه في الرمل، وأحنى ظهره كقوس مشدود، وغابت رأسه بين كتفيه ، وانتفخت عضلات ساعديه حتـى كادت أن تخرج من جلدها، لكنه كبـح جماح الثور، وثبته في أرضه.

تيبـس الانسان والحيـوان في مكانهما بلا حـراك، فظنت الحشود أنهمـا أمام مشهـد يصور بطـولات هيركوليس أو تيسيوسـس، أو أنها تشاهـد نصبا منحوتا مـن الصخر. لكن هذا السكـون الظاهري كان يعكـس القـوة الهائلة التي يبذلهـا المتصارعان. كذلـك كانت حوافر الثـور منغرزة في الرمل، وتكور جسمه الدغلـي القاتم حتى صار كرة عملاقة. أيهما ينهـار أولا، أيهما يتزحزح أولا، هذا هو السؤال الذي بـات في عيون المشاهدين الان أكثر أهميّة من مصير أي منهما، بل من مصير روما بأسرها، وكامل سلطانها في العالم.

صار الليغوي الان في نظرهم، نصف اله يستحق منهم الاحترام، وإقامة التماثيل له. حتى القيصر نهض من مكانه واقفا. لقد سمع هو و تيفالنيوس عن قوة أرسوس الجبارة، فتقصدا إقامة هذا العرض، وتهامسا بسخريّة فيما بينهما : " فليقهر إذن من قتل كروتون هذا الثور الذي خصصناه لأجله ". أما الان فقد راحا يتابعان بذهول هذا المشهد أمامهم، غير مصدقين أنه مشهد حقيقي. كان في المدرج من رفعوا اياديهم، وتجمدوا على هذه الصورة. آخرون تصببت جباههم بالعرق، وكأنهم الذين يصارعون الثور.

أطبق في المدرج صمت ثقيل سمع خلاله هسيس النار في المشاعل، والمصابيح. توقفت الاصوات في الحناجر، فيما خفقت القلوب بشدة تريد أن تمزق صدورها، وشعر الجميع أنه صراع أزلي مجهول البدايّة.

ما زال الانسان والحيوان ثابتين في مكانهما، كأنما قد ضربا جذورا في الأرض.

وعندئذ طلع من الميدان صوت أنين علت على أثره صيحات شملت كل الحناجر، ثم ساد السكوت مجدّداً. ظن الناس أنهم في حلم :

ها هي ذا رأس الثور المخيفة بدأت تنفتل بين قبضتي البربري الحديديتين.

اكتسى وجه الليغوي، وعنقه، وذراعاه، باللون الارجواني، وصار ظهره أشد تقوسا. بدا أنه يستجمع ما تبقى من قواه الجبارة الفائقة للقوة البشريّة، وبدا أنه لن يصمد طويلاً.

امتزج أنين الثور الاجش المتالم بلهاث صدر العملاق العاصف.

وشيئاً فشيئاً ازداد انفتال رأس الحيوان، ولفظ لسانا مزبدا طويلاً.

وماهـي الا لحظة حتى طرق أسماع من هـم في الصفوف الاماميّة القريـة، صوت طقطقة العظام، تبعه سقوط الوحش ميتا مدقوق العنق فوق الرمال.

وعندئـذ سارع العملاق إلى فـك الحبل من حول قرني الثور، ورفع العذراء بذراعيه، لاهثا بأنفاس مسموعة.

كان شاحـب الوجـه، مبل ل الشعر، تصبب كتفـاه وذراعاة بسيل من العرق. و قف للحظة كأنه فاقد الرشد، لكنه سرعان ما رفع وجهه، ونظر إلى الجماهير.

جن جنون المدرج.

هـز زئير عشرات الالاف المحتشدة أركان المبنى وجدرانه. فمذ أن بـدأت الالعاب لم تذكر الحشود عرضا بهذا الحماس. أخذت جماهير المقاعد العليا تندفع نحو الاسفل وتتزاحم بين صفوف المقاعد، لتشاهد هيركوليس عن كثب. وتعالت من كل الانحاء أصوات كثيرة معاندة، مكابـدة، تطالب بالرحمة، مـا لبث أن اتحدت لتغـدو صيحة واحدة رجـت الاجواء. عرض خاطف جعل مـن العملاق الانسان الاول في روما.

وبات في لحظات ضوء عيون هذا الشعب الذي أحب قوته الجبارة كل هذا الحب.

أدرك بـدوره أن الشعب يطالب له بالرحمة، والحريّة. لكن المعضلة

لا تتوقف عنده فقط. ظل لفترة يجول بعينيه، حتى تقدم أخيرا واقترب مـن منصة القيصر، حاملا الفتـاة بذراعيه، وأبدى نظرات متوسلة كأنما أراد أن يقول :

- توس لوا من أجلها ! انقذوها هي ! لقد قمت بكل ذلك من أجلها.

أدرك الحشد رغبته بالضبط. وحين رأت الفتاة المغمى عليها كطفل صغـير إلى جانـب جسم الليغـوي الضخم، تولـد في النفوس حماس شديد شمل المتفرجين والفرسان، والسيناتورات. جسد الفتاة المرمري الضئيـل، وإغماؤهـا، ومـا تعرضـت اليه مـن خطر رهيـب، وإقدام العملاق علـى إنقاذها، وأخـيرا جمالها، ووفاء الليغـوي، كلها أمور حركت القلوب.

ظـن البعض أن الاب أراد الرأفـة بطفله. فجأة اندلعت نار الشفقة. كفـى دماء كفى موتـا وعذابا أصـوات متلعثمة بالبكاء طلبـت الرأفة لكليهما.

في هـذه الاثنـاء، دار أرسوس في الميـدان، حاملا الفتـاة، راجيا بنظراتـه، وحركاته إنقاذ حياتها. وعندئـذ نهض فينيكوس من مكانه، وقفـز من فوق الحاجز الذي يفصل المقاعد الاولى عن الميدان، وركض نحو ليفيا، وستر جسد الفتاة العاري بردائه.

ثم مزق سترته الصدريّة، مظهرا آثار الجروح التي أصابته في الحرب الارمينيّة، ومد يديه نحـو الشعب. وإثر ذلك تصاعد حماس الجمهور حتى بلغ أوجا لم يحصل في المدرج من قبل.

تعالت صيحات العامة وراحـت تخبط بأقدامها. باتت الاصوات

المطالبة بالرأفة تهديديّة منذرة بالوعيد. وبات انحياز الشعب لا يقتصر علـى التعاطف مع المصارع، بـل شمل العذراء، والجنـدي، وما يربط بينهما من حب.

توجهـت الاف القبضـات والعيـون التـي تغـدق الغضـب، نحو القيصـر. انكمش نيرون وأرغى، وأزبد. لم يكن كرها لفينيكوس، كما لم يكن موت ليفيا بتلك الاهميّة بالنسبة اليه. كل ما هنالك أنه أحب أن يـرى جسد الفتاة معلقا فوق قرني الثور، أو تمزقه أنياب الوحوش، وأن قسوتـه، وتطلعاتـه المنحله، ومكابداته الداعـرة، كلها معا قد وجدت ضالتها في عرض ممتع كهذا.

والان هـا هـو ذا الشعب يأتـي ويجرده من متعتـه. اكتسى وجهه غضبـا. فلم يسمح له غروره أن يستجيـب لإرادة الحشود، لكن جبنه الغالب المقيم أخافه من عدم تلبيتها.

التفـت حولـه، عسى على الاقـل أن يرى بـين الاوغستيان اصابع منزلة إلى الاسفـل إيذانا بالموت لكن بترونيوسـ رمقه بنظرة متحديّة، وقـد رفع يده. و فستينوس النز اع إلى الخرافـة، وانتعاش النبل الكامن في داخلـه، والميال إلى الخوف من الاشباح دون مخافة البشر، كان يشير بإصبع الرحمـة. وكذلك فعل السيناتور سكافينوس، و نيرفا و سينكو و سكابـولا والقائـد الحربي المرموق العجـوز، و أنتيستوس و بيسو و فيتوس و كريسبينوس و ترموس و تلسينوس ومثلهم تراسيا الذي يتمتع باحترام شديد من قبل الشعب.

علـى إثر ذلك المشهد أنـزل القيصر زمردته عن عينيـه، وقد أحس بالازدراء والاهانة، فيما مال اليه تيفالنيوس الذي أهمه أن يوجه صفعة لبترونيوس، وقال :

ـ لا توافق أيها القيصر الالهي، الحرس الامبراطوري هنا.

هنا التفت القيصر إلى نصيره المخلّص الصارم سوبر يوس فلافيوس آمر الحرس الامبراطوري الان، فوقعت عيناه على أمر فائق الخطورة. كان الحاكم العجوز يبدي عينين مغروقتين بالدمع،وقد رفع إصبعه إشارة للرحمة.

في هذه الاثناء بدأ الحشد يعلن الغضب والاستياء، حتى صار وقع الاقدام ينشر غبارا ملأ أرجاء المدرج، وعلت هناوهناك صيحات قائلة : " صاحب اللحيّة الحمراء، قاتل أمه، حارق المدينة ".

ارتعد نيرون. كان الشعب سيد الموقف في الملعب كان القياصرة السابقون كاليغولا خاصة يتحدون في بعض الاحيان إرادة الشعب، لكن ذلك كان دائما يؤدي إلى قيام الشعب، وينتهي أحيانا بإراقة الدماء.

أما حال نيرون فكانت مختلفة. أولا لأنه كممثل ومغنٍ، في حاجة لرحمة الشعب، وثانيا لأنه يريد منه أن يصف إلى جانبه مجلس الشيوخ، والحكام. وثالثا لأنه، بعد حريق روما، كان يسعى بكل ما لديه من قوة، ليحظى بثقة الناس، ويوجه غضبها نحو المسيحيين.

وأخيرا أدرك أن الاستمرار في معاكستها قد يكون من الخطورة،وأن الشعب المتفجر في السيرك قد يطال أنحاء روما، مخلفا نتائج لا يحمد عقباها.

والتفت بنظرة أخرى إلى كل من سوبريوس فلافيوس والحاكم سكافينوس قريب السيناتور، و إلى الجنود، فاصطدمت عيناه في

كل مــكان بجباه مقطبة، ووجوه مترقبة، وعيون قد تسمرت عليه. فقام بإعطاء إشارة الرحمة.

وعلــى إثر ذلك انفجرت عاصفة هادرة من التصفيق، بدأت من الصفوف العليا، حتى بلغت قاع المدرج. ضمن الشعب الان حياة المتهمــين، لأنهما منذ هذه اللحظة، باتا في حمايّة القيصر، حتى أنه لم يعد يجرؤ على ملاحقتهما بعد الإن.

٦٧

قام أربعة عبيد بنقل ليفيـا إلى منزل بترونيوس، بقصد عرضها على الطبيـب الإغريقـي بأقصـى سرعة ممكنـة. وسار كل مـن فينيكوس و أرسوسـ إلى جانبهـا صامتين، بعد أن أرهقتهمـا وقائع هذا اليوم، فلم يحتمـلا تبادل الحديث. و لم يكن فينيكوس قد استعاد وعيه بعد، وبقي أسـيرا لفكرة وحيدة ظل يرددها في دخيلتـه : لقد نجت ليفيا، و لم تعد مهددة بالسجن، أو بالموت في السيرك، وأنهما قد ودعا البؤس إلى غير رجعـة، وها هـو ذا يعود بها إلى البيت، ولن يفترقـا بعد الان. شعر أنه يبـدأ حياة جديدة، وكأنـه في حلم. فكان بين حين وآخر، ينحني نحو الهـودج المشرع، ويلقي نظرة على وجههـا المحبب، تحت نور القمر، كانت نائمة، فقال لنفسه : " إنها هي، والمسيح قد أنقذها ".

غمرتـه السعـادة، وأوشك علـى الاغماء غير مـرة، وكان عليه أن يستند مستعينا بذراعي أرسوس، بعد أن فقد قدرته على متابعة المسير. أما أرسوس فظل رانيا نحو السماء المؤتلقة بالنجوم، يصلي.

عبرا الشوارع التي ائتلقت ابنيتها الجديدة تحت القمر. كانت المدينة خاليّة، الا من بعض التجمعـات التي التقياها هنا وهناك تغني وترقص محتفيّـة، مرحة في هذا الليلة البديعة. كانا قد اقتربا من بيت بترونيوس، حين أنهى أرسوس صلاته. فقال بصوت خفيض لكي لا يوقظ ليفيا :

ـ سيدي، المخلّص أنقذها من الموت. حين لمحتها على قرون الثور، جاءني صوت داخلي يناديني " أنقذها ! " كان صوت الحمل.

السجـن أنهك قـواي، لكن المسيح عـاد وزودني بها من أجل هذه اللحظـة. وهو من دفع هـذا الشعب المظلوم ليقـف في صفها. فلتكنْ مشيئته.

فكان رد فينيكوس :

ـ تبارك اسمه.

ولكنه لم يتمكن من قول المزيد، فقد شعر أن بكاءً مريرًا يضغط على صدره، وانتابه رغبة لا تقاوم بالركوع أرضا، وتقديم امتنانه للمخلص على معجزته وضراعته.

وصلـوا إلى المنزل، وكان الخدم، الذين أرسل أحد العبيد لإعلامهم بقدوم فينيكوس في استقبالهم. كان خدم المنـزل جميعا ممن عمدهم بولس الترسوسي في الأنتيوم.

فهـم على معرفة بمقـدار التعاسة التي المـت بفينيكوس. وكانوا في منتهى السعادة، بإنقاذ الضحيتين من بين يدي نيرون.

وازدات سعاتهـم أكثر حين أخبرهم الطبيـب تيوكليس بعد معاينة المريضـة، أنها لم تتعرض لجروح مؤذيـة، وأنها بعد أن يقدر لها الشفاء مـن الوهن نتيجة مرض الحمى الذي أصابها في السجن، سوف تكون معافاة تماماً.

استعـادت وعيها في تلك الليلة حين أضيئـت الانوار الكورنتوسيّة في الغرفة الفخمة العطرة، لم تعلم أين تكون، وما الذي يحل بها.

وحين لمحت فينيكوس خلفها، ظنت لوهلة أنهما في استراحة على

طريـق الصعود إلى الرب. ابتسمت له وأرادت أن تسأله أين هما الآن، لكـن شفتيهـا لم تفترا الا عن نـبرات كان من الشـاق استخلاص اسم الشاب من بين حروفها.

جثا إلى جوار الفتاة، وقال وهو يضع يده بحنان على جبينها :

ـ أنقذك المسيح، وأعِادك الي !

تحركت شفتا الفتاة مرة أخرى، وافترتا عن حروف غير مفهومة. ثم اهتز جفناها بعد قليل، ونهد صدرها، وأصدرت تنهيدة خفيفة غرقت بعدهـا في نوم عميـق. تنهيـدة كان الطبيب تيوكليسـ في انتظارها، متوسما بها شفاء أكيدا. وهذا ما حصل.

ظـل فينيكوس قربها يصلي راكعاً. ذابت روحه في حب أنساه كل شيء. كان الطبيب يطل عليها كل فينة. ومن وراء الستارة كذلك بانت رأس يونيكي أكثر من مرة. حتى أعلنت ديكة الحديقة قدوم الفجر. أما فينيكوسـ فلـم يكن يشعر بكل ما يجري من حولـه، لأنه كان سارحا يقبـل أقدام المسيح، بقلب قد استحـال إلى شعلة تحترق شكرا وامتنانا، حتى شعر بنفسه وقد أضحى الان في الجنة.

٦٨

بترونيوس، ولكـي لا يثير القيصـر بعد انعتاق ليفيـا، رافقه وباقي الاوغستيـان إلى البالاتينوس. لقـد أراد أن يسمع ما سيجري هناك من أحاديث، وأن يعرف على وجه الخصوص ما إذاكان تيفالنيوس قد دبر تهمـة جديدة لإعدام الفتاة. صحيح أن الفتاة، كما أرسوس قد انضويا تحت حمايّة الشعـب، وأن أحدا لا يجرؤ أن يطالهما بسوء الا إذا أراد إثـارة الفوضى، لكـن بترونيوس، لعلمه كم يضمر لـه قائد الحرس من الكره الشديد، قد افترض أنه سيواصل سعيه للانتقام من فينيكوس.

تذمر نيرون، وتملكه التوتر، لأن العرض قد ال إلى غير ما كان يرومه منـه بترونيوس في البدايّة، لم يشأ حتـى أن يراه، ولكنه التفت اليه الان بكل هدوء، وبرود ليقول :

ـ أتـدري أيها القيصر الالهي، ما الذي يدور في بالي؟ اكتب قصيدة عن الفتاة التي أنقذت بأمر منك، عن قرني الثور، وأرجعتها إلى حبيبها. اليونانيون يتمتعـون بقلب طيب حساس، وأنا على ثقة أن قصيدة مثل هذه ستخلب لب هم.

نالـت الفكرة إعجاب نـيرون لسببين. أولا لأنهـا موضوع أغنيّة، وثانيـا، لأنها تمج د فيـه سيد العا لم الـرؤوف. رمـق بترونيوس بنظرة دامت لوهلة، ثم قال :

ـ أجـل ! قد تكون محقا ! لكن هل مـن المناسب أن أتغنى بحسناتي الشخصيّة؟

- ليس بالضرورة أن تسمي نفسك. فالجميع في روما سيعرفون ذلك. وانطلاقا من روما سينتشر النبأ في جميع أنحاء العالم.

- وهل أنت أكيد من أنه سيلقى استحسانا في أكايا؟

فصاح بترونيوس :

- أقسم ببولوكس !

وانصرف راضيا، لأنه كان على يقين أن نيرون لن يتخلى عن الفكرة. وهكذا سيغدو تيفالنيوس مكبل اليدين.

الا أن الرضا الذي حظي به لم يثنه عن مقصده في إبعاد فينيكوس عن روما، حالما تعافت ليفيا.

فما أن رآه في اليوم التالي حتى قال له :

- خذها إلى سيلسيليا لقد حدث أمر يجعلها في منجى من القيصر، لكن تيفالنيوس لم يتراجع بعد عن بثه السم، إن لم يكن بسببك فبسببي أنا، لأنه يكرهني.

ابتسم فينيكوس :

- كانت ليفيا على قرون الثور، وأنقذها المسيح رغم ذلك.

فأجاب بترونيوس موحيا بفراغ صبره :

- لهذا السبب انذر لها ذبيحة مئة ثور. لكن لا ننتظر منه أن ينقذها مرة أخرى... الالهة لا تحب التكرار، هناك أمثلة على ذلك أوديسيوس مثلا.

فأجاب فينيكوس :

ـ حالما تتعافى، سأذهب بها إلى بومبونيا غريسينا

ـ حسنا تفعل، لأن بومبونيا ترقد مريضة. بلغني ذلك من أحد أقارب أولوس. خلال ذلك سيحصل هنا ما سيجعلهم ينسون أمركما. لتكنْ فورتونا شمسا لكما شتاء، وفيئا لكما في الصيف !

وغادره فينيكوس يخلو مستمتعا بسعادته الغامرة. فيما سارع هو إلى الطبيب يطمئن عن صحة ليفيا وحياتها.

تخطت الفتاة مرحلة الخطورة تماماً، بعدما تلقت كل صنوف الرعايّة والراحة. فلم ينقض يومان حتى صاروا يخرجونها إلى حديقة الفيلا لتمكث فيها ساعات طويلة. قام فينيكوس بتزيين الهودج بالسوسن لكي يذكرها بمنزل أولوس. وكثيرا ما كانا يسيران يدا بيد بين الاشجار، يتحادثان عن الاوجاع والمخاوف السابقة. وأوضحت له ليفيا أن المسيح تعمد أن يبلو فينيكوس بتجارب مؤلمة ومكابدات لكي يخلصه في النهايّة، رافعا روحه إلى جواره. ولقد أحسن الشاب أن هذا صحيح، بعد أن تخلص من فينيكوس القديم الذي لا يعرف ناموسا آخر سوى ما تعلق بهمومه الخاصة. لكنها خلت من المرارة. فقد أحس كلاهما أن ما مضى قد ولى إلى غير رجعة، وأن سلاما لم يستشعراه من قبل، بات يملأ قلبيهما الان.

بدأت حياة جديدة، جذبتهما اليها. لقد ساد القيصر، وماد في روما، وملأ الكون رعبا، لكنهما الان، بشعورهما أن ثمة سلطانا أشد بأسا بأضعاف مضاعفه من سلطان القيصر، لم يعودا يخافان غضبه، وخبله، ولا يحسبان له حسابا، كأنه ما عاد في ما عليهما، ولا سيد

حياتهما وموتهما. ذات مرة عند حوالي الغروب طرق أسماعهما جئير الاسود، والوحوش، قادما من المرابي النائيّة. كانت أصواتا تملأ قلب فينيكوس رعبا، لأنه اعتبرها نذيرا للشؤم آنذاك. والان تقابلت نظراتهما بالابتسام، ثم راحا يتأملان الغروب.

وحين تشعر ليفيا بالوهن كانت أحيانا تختلس سهوة في سكون الحديقة، و إلى جانبها فينيكوس يتأمل وجهها. لقد أذبل المرض جمالها فعلا، فباتت نحيلة الوجه، شاحبة الشفتين، منهكة الجسد، حتى عيناها لم تعودا بمثل تلك الزرقة المعهودة. يونيكي الشقراء الشعر التي خصتها بالازهار، والغطاء الناعم، وقفت قربها كإحدى الهات سيبروس. بترونيوس ذو النظرة الجماليّة، عبثا كان يحاول الوقوف على مواطن جمالها المالوفة.

لكن فينيكوس بات يحب فيها روحها، ولقد أحبها أكثر حين كان ساهرا إلى جانبها، وأحس أنه يملك العالم.

٦٩

سرعان ما انتشر نبأ نجاة ليفيا العجائبيّة بين أوساط المسيحيين المتبقين علـى قيد الحيـاة. بدأ الاتبـاع يتجمعـون لرؤية التي تحـررت بضراعة المسيح. جاء أولا الفتى نازاريوس وأمه اللذان ما زالا حتى الان يخبئان الرسـول بطرس،ولحق بهمـا كثيرون. وبحضـور فينيكوس و ليفيا و بترونيوسـ استمع الجميع إلى حديث أرسوس عن الصوت الذي هتف في روحه، يأمره بقتال الثور.

وانصرفـوا جميعا، تحدوهم الامـال بأن المسيـح لا يسمح بالقضاء التـام على أتباعه قبل قيام الساعة. وهي آمال أنعشت فيهم الروح، لأن ملاحقـة المسيحيين لم تتوقف بعد. فكل من اشـيرت الاصابع اليه بأنه مسيحي جر ه رجال الامن، وزجوه في السجن.

كان أولئـك قلّة، لأن الغالبيّة العظمى كانوا قد اعتقلوا وعذ بوا، أو غادروا المدينة، و لم يجرؤوا على إقامة الصلاة الجماعيّة.

رغم ذلك استمر الجند في اقتفاء آثارهم، وأبقوا على المعتقلين منهم إلى حين إقامة العاب السيرك في المواسم التاليّة.

ورغم أن شعب روما لم يصدق أن المسيحيين هم من أحرق المدينة، إلا أن الناس كما الحكومة قد أعلنوهم أعداء للمج تمع، فبقيت المراسيم الصادرة ضدهم ساريّة الصلاحيّة.

الرسـول بطرس بدوره، لم يجـرؤ لمدة طويلة أن يظهـر عند منزل بترونيوس إلى أن أعلـن نازاريوس ذات مساء قدومه. فهرولت كل من ليفيـا و فينيكوس لمعانقة قدميه، فاحتفى بهمـا أيما احتفاء، خاصة وأن مـا تبقى من الحملان بات عددا قليلا من مجمـوع القطيع الذي كل فه المسيح أن يرعاه.

وهكذا فحين قال فينيكوس : " سيدي، المسيح استجاب لتضرعك، وأعطانيها ".

كان رد بطرس : " لقد أعادها اليك لايمانك، ولكي لا يسكت كل الافـواه التي تذكر اسمـه" ولاحظ فينيكوس و ليفيـا مشيب الحواريّ التـام، وانحناءة ظهره، ومقدار الحزن والمعاناة على وجهه، انعكاسا لما كابده الضحايا من عذاب نتيجة لغضب نيرون وجنونه.

كان فينيكوس يستعد منذ أيام لإبعاد ليفيا إلى نابوليس، فتوسل إلى الحواريّ بطرس أن يغادر روما مرافقا لهما.

لكن الحواريّ وضع يده على راس فينيكوس وقال :

- أسمع كلمات المسيح التي قالها لي عند بحيرة طبريا : " حين كنت يافعـا طوقت نفسك واتجهـت حيثما شئت، لكنـك فيما بعد، وحين تشيخ ستمد يديك ليطوقك شخص آخر، ويأخذك إلى حيث لا ترغب ".

كانا منصتين، لا يدر كان ما يقوله، فتابع يقول :

- رعايتـي ستنتهي قريبا، ولن أحظى بكرم الضيافة، والراحة الا عند السيد.

ثم التفت اليهما مجدّداً :

- فكّرا بي فقد أحببتكما مثلما يحب أب ابناءه. واجعلوا كل سلوك لكم في الحياة تمجيدا للسيد. وبسط يديه المرتعشتين فوق رأسيهما، وباركهما، فاقتربا منه، وقد شعرا أنها قد تكون المباركة الاخيرة من يديه.

لكنه طمأنهما بأنهما سيرانه مرة أخرى. وبعد أيام جاءهما بترونيوس بأنباء خطرة من البالاتينوس. لقد اكتشفوا أن أحد معاتيق القيصر المسيحي، قد وجدوا لديه رسائل من الرسولين بطرس و بولس، ومن ياكاب و يودا و يانوش. كان تيفالنيوس على علم مسبق بأن بطرس مقيم في روما، لكنه ظن أنه قد لقي حتفه مع الالاف الكثيرة من أتباعه.

ولكنه تبين الان أن أهم رجلين من رجال الدين الجديد ما زال على قيد الحياة، ويقومان بتدريس تعاليمه في العاصمة. فتقرر البحث عنهما والقبض عليهما بأي ثمن، أملا في اقتلاع آخر جذور الطائفة الكريهة. وسمع بترونيوس من فستينوس أن القيصر قد أعطى مهلة ثلاثة أيام لاعتقال بطرس و بولس وزجهما في سجن مامرتينوس، فحشدوا لهذا الغرض فصائل الحرس الامبراطوري لتمشيط بيوت الترانستيبريس بالكامل.

فينيكوس بسماعه هذا النبأ، قرر الذهاب إلى الرسول، وتحذيره. وبحلول المساء اصطحب معه أرسوس متنكرين بعباءتين تخفيان حتى الوجوه، وقصدا سالكين أطراف الترانستيبريس، منزل ميريام عند أسفل تلة يانيكولس، حيث يقيم بطرس شاهدا في الطريق بيوتا محاصرة من قبل الجنود بقيادة أشخاص مجهولين كان الاضطراب شديدا في هذه الناحيّة من المدينة، والمشاجرات قائمة هنا وهناك، وقادة المائة

يستجوبون العبيد في غير مكان، بحثا عن بطرس و بولس الترسوسي.

تخطى فينيكوس و أرسوس الجنود، حتى بلغا منزل ميريام، حيث التقيا هناك بطرس وحفنة من أتباعه. تيموسيوس مرافق بولس إضافة إلى لنيوس كانا إلى جوار بطرس.

كان نازاريوس بعد أن جاء النبأ الخطير، قد سار بهم عن طريق سري إلى مقلع حجارة مهجور يبعد مئات قليلة من الخطوات عن بورتا يانيكولا. كان على أرسوس أن يحمل لينوس المضعضع الجسد، المحطم العظام نتيجة التعذيب. وحين وصلوا المغائر شعروا بالامان. اشعل نازاريوس الفانوس، وعلى ضوئه بدأت مشورتهم، كيف سيتمكنون من إنقاذ حياة الرسول الغالية على قلوب الجميع.

قال فينيكوس :

ـ سيدي، غدا عند الفجر سيخرجك نازاريوس من المدينة، باتجاه جبال الالب. سنلتقي هناك، ونأخذك إلى الأنتيوم حيث تنتظرنا السفينة التي ستقلنا إلى نابوليس و سيسيليا. بورك اليوم والساعة حين ستحل عندي، وتبارك منزلي.

كان وقع الكلام سارا للبقيّة، وحاول الجميع إقناع الرسول بالأمر.

ـ اهرب يا راعينا، فلا مكان لك في روما. احرص على العدالة الحيّة كي لا تزول بنا وبك معا، نتوسل اليك كأب لنا أن تستمع الينا.

وتوسل آخرون متعلقين بردائه :

ـ افعل من أجل المسيح !

لكنه أجاب :

ـ يا ابنائي، من يدري كيف قدّر السيد حدود حياتي؟

لكنــه لم يقل أنه لن يغادر روما، هو نفســه كان مترددا، لأن الشك والخــوف كانا قد تسللا إلى قلبه منذ فترة طويلة. رعيته تشتتت. أعماله ذهبــت هباء، والكنيسة التي كانت، قبــل الحريق قد ازدهرت كشجرة بديعــة، حولتها قوة الوحش إلى غبــار. لم يبق الا الدموع، والذكريات الكثيرة، والعذاب المروّع والموت. الـزرع أعطى محصولا وافرا، لكن الشيطــان مرّغه بالوحل. جنــود الملائكة لم تــأت لإسعاف الهالكين، وها هوذا نــيرون ما زال بقمة مجده، يتربّع على عرش الكون، أكثر قوة ورهبة وسلطاناً. كم بسط الصياد يديه بالدعاء إلى الله، وكم تضرّع اليه بالقــول "سيــدي، ماذا أفعل؟ كيف سأقــاوم، وأقف في مواجهة القوة اللامحدودة للشر، وها أنتذا تطلق يديه ليسود وينتصر؟ ".

ومن شدة المه أطلق صرخة هز ت أعماقه " لم يعد هنالك من حملان تكلفنــي برعايتها، ولا كنيسة أحميها، فلا جــود في بلادك الا للدمار والعــراء والحداد. ما الذي تأمرني به الان؟ هــل أبقى هنا، أم أذهب بما تبقى من القطيع إلى مكان ناءٍ وراء البحار، فأمجد اسمك في الخفاء؟

تملكتــه الحيرة، رأى أن زمنها لم يحن، ولن يحين إلا إذا هبط السيد في اليوم الموعود إلى الأرضــ، بكل ما يحوزه من مجد، وسلطان يفوق سلطان نيرون الاف المرات.

وغالبــاً ما خطر له أنه إذا ما غــادر روما فسيلحق به جميع الاتباع. وسيأخذهــم بعيدا حتى شاطــئ بحيرة غانازار الهادئــة، حيث الرعاة الوادعون كالحمائم أو الحمــلان. اشتد به الشوق إلى الهدوء والراحة، فترقرق الدمع في عيني العجوز.

لكـن الحيرة كانت تستحوذ على قلبه كلما نزع آنيا إلى اتخاذ قرار. كيف سيغـادر المدينة بعدما قدم رعاياه كل هـذه التضحيات والدماء. ماذا سيقول للسيد حين يسمعه يناديه :

" رعاياك تضحي بدمائها من أجل معتقدها، وأنت تهرب "؟

وهكذا كانت تنقضي أيامه ولياليه مليئة بالعذاب :

ـ سيدي، هل أرسلتني إلى هنا، لكي أقيم عرشك في عش الوحوش؟

وكان يقول لنفســه أحيانا : " كيف لي أن أصارع قيصر روما الذي لا يتمكن منه الا المسيح بنفسه.

كان الاتباع يتحلقون حوله مرددين :

ـ أهرب، وأخرجنا من سلطان الوحش

وفي نهايّة المطاف أطرق لنيوس أمامه قائلاً :

ـ سيـدي ! لقد أمرك المخلّص أن ترعـى حملانه. لكنهم لم يعودوا هنـا الان. فأذهـب حيث يمكن أن تجدهم. كلمـة الله ما زالت حيّة في أورشليم، و أنطاكيّة ومدن أخرى. لا جدوى من بقائك في روما.

وإذا سقطت، فسـوف تعز ز من سلطان الوحش. والسيد لم يرسم حـدودا لحياة يوحنا. و بولس مواطـن روماني فلا يمكن الحاق العقاب بـه دون تهمة. أما إذا صب نيرون جام غضبه عليك فسيقول أصحاب القلوب المترددة : " لا أحد أعظم من نيرون ".

أنـت تلك الصخرة التي يبنى عليها عرشـ السيد. دعنا نمت نحن،

لكـن لا تسمـح لعدو المسيـح أن ينال من وريـث الله في الأرض، ولا ترجـع إلى هنـا حتى ينتقـم السيد من سـف اك دماء الابريـاء. ورجاه الجميع قائلين :

ـ أقم وزنا لدموعنا

وأغرقت وجنتا بطرس أيضاً بالدمع. نهض ومد يديه فوق الراكعين قائلاً :

ـ تمجد اسم السيد، ولْتكنْ مشيئته !

٧٠

وعند فجر اليوم التالي انطلق شخصان قائمان باتجاه سهول كامباينا. الاول كان نازاريوس، وكان الثاني الرسول بطرس الذي غادر روما، وأخوة المعتقد المكابدين هناك.

كانت قبة السماء شرقـا مغمورة بوشاح مخضر، يتصل أسفله بشريط ضوئي يتسع مع مـرور الوقت. بدأت صفوف الاشجار تتلامح فضيّة الاوراق، ومعهـا رخام الفيـلات الابيض، وأقنيّة صـرف المياه الممتدة نحـو المدينة. بات اخضرار السماء يفتح شيئاً فشيئاً، ويتوشح بالذهبي. ثم ما لبثت جهة السماء الشرقيّة تستحيل إلى لونها الوردي، وتنير جبال الالب التي بدت وكأن قوامها من نور، يخالطه البنفسجي.

انعكس الفجر على قطرات الندى المرتعشة فوق أوراق الاشجار. خـف الضباب، وأتاح مساحة أوسع لرؤيّـة المنبسط السهلي، وبيوته، ومقابره، وبلداته، وغاباته المتفرقة، وأعمدة الكنائس المنتشرة بينها.

كانـت الطريـق خاليّـة. و لم يكـن الفلاحـون قـد بـدؤوا بشحن خضارهـم على العربات، قاصدين المدينة، عبر الطريق المرصوفة ببلاط من الحجارة والممتدة حتى أسافل الجبال.

وفيمـا بعد انبثقت الشمـس بين الجبال، فطلع مشهـد غريب أمام ناظـري الحواريّ كأنه قرص ذهبي بدلا من أن يندفع إلى الاعلى، يهبط من التلة الجبليّة ويتدحرج على طول الطريق.

توقف بطرس وقال :

ـ أترى هذا الضوء الذي يتقدم نحونا؟

فأجاب نازاريوس :

ـ لا أرى شيئاً.

فرفع بطرس يديه حتى عينيه وقال مجدّداً :

ـ طيف يأتي الينا عبر الضوء.

لكــن وقع الخطوات لم يكن مسموعــا. كان السكون شاملا. وكل ما رآه نازاريوس أن الاشجار ترتعش في البعيد، كأن أحدا يقوم بهزها، وأن الضوء يتسع ويذوب في السهل.

رمق نازاريوس الحواريّ باستغراب، وصرخ باضطراب :

ـ أيها الرب ان ! ما خطبك !

سقطت العصــا من يد بطرس، وأصبح فجأة شاخص العينين، فاغر الفم، وقد أوحى وجهه بالدهشــة، والسعادة والاشراق. فركع أرضا، وبسط يديه أمامه، وصدحت من فمه صرخة :

ـ يا مسيحي ! يا مسيحي !

وهوى بوجهه أرضا كأنه راح يقبل قدمي أحدهم.

ساد صمت طويل حتى بادر العجوز يسال بصوت منتحب :

ـ كوفاديس يا سيدي؟

لم يسمــع نازارايوس الجواب، لكن صوتاً وديعًـا حزينًا طرق أذني بطرس :

ـ إن أنــت تخليـت عن شعبــي، فأنا ذاهب إلى رومـا، لأصلب من جديد.

استلقـى الحــواريّ أرضاً، معفر الوجـه بالغبـار، ولا صوت، ولا حركـة. ظن نازاريوس أنه مات، لكنه ما لبث أن نهض، وتناول عصاه بيديـه المرتعشتـين، ودون أن ينبس بحرف، استـدار نحو تلال المدينة السبع.

حين رأى الفتى ما رآه، كر ر مرددا كالصدى :

ـ كوفاديس يا سيدي؟

فأجاب الرسول بصوت خفيض :

ـ إلى روما.

وانطلق راجعا.

استقبله بولس و يوحنا و لنيوس وكافة الاتباع باستغراب، وجزع شديدين. لكنه أجاب عن كل اسئلتهم بهدوء وبشر :

ـ لقد رأيت المسيح !

وفي الصباح الباكر وبعد مغادرته للتو، دهم الجند منزل ميريام بحثا عن الحواريّ.

وكان في مســاء اليوم نفسه قد خرج إلى مقبرة الاوستريانوم، ليقوم بتعميد أولئك الذين رغبوا في البلل بماء الحياة.

ومنـذ تلك اللحظة كان يخرج كل مساء لعمـادة أتباع جدد تزداد أعدادهم يوما بعد يوم.

قيصـر استحم بالدم، و رومـا، ومعها العالم الوثنـي بأسره، أصابها الجنون والخبل، لكن الذين هالتهم أفعال الشر، وسفك الدماء والجنون، والذيـن ساءت أقدارهـم، ومن بينهم البؤسـاء والمحزونون، والفقراء، كلهـم قـد احتشدوا لسمـاع الخطـب الغريبة عن الـرب الذي أحب البشريّة وضحى بحياته مصلوبا ليخلصها من ذنوبها.

وحين عثروا على الرب الـذي أمكنهم أن يحبوه، عثروا أيضاً على ما افتقدوه من العالم القديم : السعادة المنبثقة من المحبة.

أما بطرس فقد أدرك أن العدالة الحيّة، لا يمكن أن يقهرها لا القيصر، ولا جميع فيالقه، وأن زمن انتصارهم قد بدأ الان. وأدرك أيضاً أن هذه المدينـة وهي بؤرة الشر، والانحلال الخلقي، ومركز السلطة، قد بدأت منـذ اللحظة تستحيل إلى مدينته هو، ومحط كرسيه المضاعف. فمن هنا انطلق إلى العالم ملكوت ما فوق الجسد والروح.

٧١

وفي النهايّة حانت ساعة الرسولين. لكن الرب قد ر لصياد السمك أن يمن عليه باصطياد روحين داخل السجن جنديان كانا مكلفين بحراسته في سجن مامر تينوس، هما بروسيسوس ، مارتينيانوس قد اعتنقا المسيحيّة.

ثم جاءت ساعة المكابدة. في أثنائها لم يكن نيرون في روما. قام بإصدار الحكم المعتوقان الحر ان هليوس و بولستيس اللذان كلفهما القيصر بإدارة روما في أثناء غيابه. قاموا أولا بجلد الحواريّ المسن تبعا للقانون الروماني، ثم اقتادوه في اليوم التالي خارج أسوار المدينة باتجاه تلال فاتيكانوس ، ليكابد هناك عقوبة الصلب الصادرة بحقه. لقد ذهل الجند من ضخامة الحشود التي تجمهرت أمام السجن من أجله، لأنه بنظرهم لا يعدو كونه شخصا بسيطا وغريبا، فلا يستحق موته كل هذا الاكتراث.

والذي أثار استغرابهم أكثر أن المتجمهرين كانوا أتباعاً رغبوا في مرافقة الحواريّ الكبير إلى موقع صلبه، و لم يكونوا ممن دفعهم الفضول للحضور.

وعند العصر، بعد انتظار، فتح باب السجن، وظهر بطرس بين فصيل من الجند. كانت الشمس قد جنحت قليلا نحو أوستيا ، وكان الطقس

صحوا، وهادئا. ونظرا لتقدم بطرس في السن، لم يلزموه بحمل صليبه بنفسه، لاعتقادهم أنه يعجز عن ذلك. و لم يقيدوا عنقه بالنير، لكي لا يعيقه في أثناء المسير. سار طليقا، وقد تمكن الاتباع من مشاهدته بوضوح. وحين ظهر رأسه الاشيب من بين خوذات الجند، انفجر نحيب، ما لبث أن خمد على الفور، بعد أن رأوا مقدار ما غمر وجه الحواريّ من سعادة وبشر، فترسخ إيمان الجميع بأن العجوز ليس مجرد ضحيّة ذاهبة إلى ملاقاة حتفها، بل منتصر يسير في موكب الانتصار.

وهذا ما كان حقا. صياد السمك المحني المتواضع، قد استقام الان، حتى بان جليل الهيئة، وأطول قامة من الجند. لم يشاهدوه من قبل بمثل هذه الرفعة والجلال، وكأنه كان حاكما يستعرض شعبه وجنوده. علت الاصوات في كل مكان :

" بطرس يعود إلى سيده " متناسيّة أنه ذاهب إلى العذاب والموت. واكبه الجميع بشغف احتفالي وسلام، لأنهم شعروا أنه منذ صلب المسيح لم تحدث واقعة كهذه، وإذا كان المسيح قد خلّص العالم، فالحواريّ قد خلّص المدينة.

واحتشد الناس في الطريق لرؤيّة الحواريّ، فيما كان الاتباع يربتون بأياديهم على أكتاف الاخرين الذاهلين، ويقولون لهم بهدوء : " انظروا كيف يموت الإنسان الحق، الذي عرف المسيح، ونشر المحبة في العالم ". فصار الجميع يقولون لأنفسهم " لا بد أنه إنسان حق فعلا " وفي أثناء الطريق خمد الزعيق، والصياح. تقدم الموكب عبر المنازل الحديثة البناء، وأعمدة الكنائس البيضاء، التي دنت السماء الزرقاء الهادئة فوق قممها. ساروا بصمت الا من حفيف دروع الجند، وتمتمات الصلوات في بعض الأحيان.

كان بطرس مغموراً بالسعادة لمرأى هذه الالاف من الأتباع. وشعر أنه قد أنهى مهمته، وأن العدالة التي دعا اليها طوال حياته، تنتشر كموج البحر، و لم يعد بمقدور أي من أعدائها أن يوقف مدّها. هذه الفكرة جعلته يرفع عينيه عاليا ويقول : "سيدي، لقد أمرتني، بفتح هذه المدينة، التي تحكم العالم، وهاأنذا قد قمت بفتحها. وأمرتني أن أقيم عرشك هنا، وها أنذا قد أقمته. باتت مدينتك، يا سيدي، وها أنذا عائد اليك بعد شديد عناء".

وحين مروا بالقرب من المعابد، كان يلتفت اليها قائلاً : "ستصبحين كنائس للمسيح". وبمشاهدته للجمموع التي تمرق من أمام عينيه كان يخاطبهم قائلاً "سيصبح ابناؤكم خدما للمسيح". وبإدراكه لنجاح فتوحه، ومعرفته لاستحقاقه، وقوته، كان يتقدم بكل فخار وسلام. عبر به الجند جسر "مواكب النصر" كأنما يعترفون بانتصاره دون دراية منهم، ثم تقدموا نحو ناوماكيا باتجاه السيرك. وفي الترانستبريس انضم الاتباع إلى موكبه. فتضخمت الحشود حتى ذابت في موكب الجند، الأمر الذي أذهل قائد المئة المرافق، خاصة أن صياحا واحدا يعبر عن غضب، أو تذمر، لم يصدرا من قلب الجموع.

قبعت على الوجوه عظمة اللحظة، والترقب. استعاد بعض الاتباع ذكرى انشقاق الأرض هلعا عند موت السيد، وقيام الموتى من قبورهم، واعتقدوا أن إشارة ما ستحصل الان تخليدا لذكرى موت الحواريّ. وفكر بعضهم "عسى أن يختار السيد لحظة موت بطرس ويهبط إلى الأرض ويحكم العالم". وبهذه الفكرة استسلموا لرحمة المخلّص.

كان كل شيء في الانحاء هادئا. والتلال كأنما كانت تستحم في ضوء الشمس، وتأخذ قسطا من الراحة. توقف الموكب أخيرا في

مــكان يقع بين الســيرك وتلــة فاتيكانوس. وفيما عكــف الجنود على تهيئة الحفرة، قام الاخرون بوضع الصليب، والمطارق، والمسامير على الأرض بانتظار نهايّة الحفر.

أما الحشد الذي ظل محافظا علــى الصمت، والاستغراق الداخلي، فقــد تحلق راكعا في خشوع. التفت الحواريّ مــرة أخيرة نحو المدينة. بعيــدا في العمــق، ائتلق نهر التيبر، وميدان مارســ في ضفته الاخرى، وفي الاعلــى ضريح أوغستوس وفي الاسفل المنشآت الحراريّة الضخمة التــي بدأ نيرون الان في بنائها، و إلى جوارها مسرح بومبيوس، وخلفه ما لا يحصى من الاروقة، والمعابد، والعمدان والابنيّة المتراصة، وأخيرا في الاقاصي البعيدة، التلال المــدروزة بالمنازل، قريّة نمل بشريّة عملاقة تداخلــت أطرافها منصهرة في الزرقة الضبابيّة. مدينة الخطيئة، والقوة، والجنون، وموطــن النظام، المدينة الابديّة التــي لا تقهر، المدينة الجائرة التي تتربع على عرش الكون، وصارت قانونه وأمانه.

محاطــا بطرســ بالجنود، رمــق المدينة بنظرتــه الاخيرة قائــلاً " لقد خلصتك، أنت لي ! ". لم يكن لا الجند الذين يهيئون الحفرة، ولا حتى أحد من الاتباع، ليخالجه الظن بأن سيد المدينة الفعلي يقف بينهم الان، وأن عهــد القياصرة، والبرابره قد ولى إلى غير رجعة، وأن قرونا بحالها سوف تنقضي، ويبقى هذا العجوز حاكما دائما عليها.

جنحت الشمس أكثر نحو أوستيا، وارتقت في السماء، واحمرت. وسبــح نصــف السمــاء الغربي بنور وهــاج. تقدم الجنــود من بطرس ليجردوه من ثيابه.

كان يصلي، فاستقام رافعا يمناه عاليا.

ارتعش الجميع جزعين، وكتم الاتباع أنفاسهم يترقبون ما سينطق به الحواريّ.

اعتلى مرتفعا من الأرض، ورسم بيمناه إشارة الصليب، وأنشأ، في ساعة موته يتلو قداسه البابوي :

ـ أبارك المدينة، والعالم !

....

....

وعند هذا المساء البديع ذاته، كان فصيل آخر من الجند يقود الرسول بولس الترسوسي على طريق اوستيا نحو أكوا سلفا.

هو الاخر رافقه حشد كبير من الاتباع الذين عمدهم، وكان على معرفة ببعض منهم، فكان يتوقف أحيانا ويتحدث معهم على مرأى من الجنود، الذين غضوا النظر عن مثل هذه التصرفات، باعتباره مواطنا رومانيا. وبعد عبور مدخل ترغمينا التقى بلاوتيلا ابنة الحاكم فلافيوس سابينوس، وحين لمح وجهها النضير مبللا بالدموع خاطبها قائلاً : " اذهبي بسلام يا بلاوتيلا، يا بنة الخلاص الابدي، لكن أعيريني وشاحك لأعصب به عيني حين أذهب إلى السيد ". تناول منها الوشاح، وتابع مسيره، تغمر وجهه سعادة كالتي ترتسم على وجه عامل كد طوال اليوم، ويعود الان إلى منزله. كان مثله مثل بطرس، هادئا صافي الافكار صفاء السماء في هذه الامسية. كانت عيناه تتأملان المنبسط المترامي أمامه، والجبال الألبيّة السابحة في النور، وقد تناسى أسفاره، ومتاعبه، وأعماله، وكفاحاته الظافرة، والكنائس المكرسة في بلدان ما وراء البحار، وشعر أنه يستحق الان الراحة.

هـو أيضاً ختم أعمالـه وأحس أن زرعه في أمـان، و لم يعد بمقدور الرياح الشريرة أن تعصف به وامتلأت روحه بصفاء لا حدود له.

كان طريقا طويلاً حتى موقع الموت. حل وقت الغروب، واكتست الجبال باللون الارجواني، وقواعدها نامت في الظلمة. وبدأت الاسراب تعود إلى بيوتها، ومن بينها أرقاء على أكتافهم المعاول وأدوات العمل.

وكان أطفـال يلعبون على الطريق أمام البيـوت، راحوا يشاهدون بفضـول الجنـود المتخذين تلـك الوجهـة. في هذا المسـاء، وفي جوه اللطيـف البديع هذا، لم يكن السلم والوداعـة هما السائدان فحسب، بـل كأن لحنا طلع من الأرض نحو السماء لقد سمع بولس هذا اللحن، وطفح قلبه بالسعادة.

شعـر أنه أيضاً قد أضاف إلى هـذا اللحن صوتا كان غائبا عنه، وأن الأرض بدونه كانت مجرد " معدن يصلصل، وصنج يضج ".

وخطـر له كيف قـام بتعليم الناس على المحبة، وكيـف شرح لهم أنهـم حتى لو وزعوا كل ثروتهـم على الفقراء، وأنهـم حتى لوعرفوا كل الالسنة، والعلوم، فهذه كلها لا تساوي شيئاً دون المحبة التي تعني التسامح، والبعد عن الجشع، والافعال الرديئة. كما تعني قوة الاحتمال والامل.

وهكذا أمضى كل حياته بتعليـم الناس هذه الحقيقة. والان قال في نفسـه " أي قوة يمكن أن تقف في وجههـا، ما الذي يمكن أن يقهرها؟ كيـف يمكن للقيصـر أن يضطهدها حتى لو امتلك ضعـف ما لديه من الفيالق، والمدن، والبحار والبلدان، والاقوام ".

وتابع طريقه بفخار لينال جزاءه.

وأخيرا انحرف الموكب عن طريقـه، واتجه شرقا على مسلك ضيق يقود إلى أكوا سلفيا. طلت الشمس الاعشاب بالاحمر أوقف قائد المئة الجنود قرب النبع لأن اللحظة قد حانت.

أما بولس فقد هيّأ وشاح بلاوتيلا، ليعصب به عينيه، لكنه قبل ذلك التفـت مرة أخـرى أخيرة بكل طمأنينـة وسلام نحو الانـوار المسائيّة الابديّة وراح يصلي.

أجـل لقد حانت اللحظـة، أما هو فقد رأى أمامـه الطريق الواسعة الارجوانيّـة التي تقود إلى السمـاء وردد في نفسه تلك الكلمات ذاتها التي كتبها من قبل حين شعر بإتمام مهمته، واقترب نهايته :

" كافحـت كفاحـا نبيـلا، وأنهيت هرولتـي، وأقمـت المعتقد، فاستحقيت في النهايّة تاج الحق ".

٧٢

استمـرت رومـا في عصفها. كان ذلك كأن المدينـة التي أخضعت الكون بأسره، قد بدأت الان تذوب من الداخل على وقع فقدان القادة واحدا بعـد آخر. فحتى قبـل أن تدق ساعة الحواريّـين ظهر إلى العلن مـا يسمى مؤامـرة بيسو، فجاء علـى إثرها إعدام تعسفـي شمل كبار الشخصيّـات في روما، إلى حد جعل حتى مـن كان يؤله نيرون، يرى فيه إلها للموت.

تلفعـت المدينـة بالحداد، والاسـى، وطرق الجزع أبـواب المنازل، والقلـوب، لكن الاروقة ظلـت غارقة بعرائش الليـلات ونبات الزينة والازهـار، لأن الحـداد على الموتـى كان محظورا. وحين أفـاق الناس في الصبـاح تساءلوا في أنفسهم : دور من هـذا اليوم؟ ويوما وراء يوم تكاثرت الاشباح التي تلاحق القيصر.

دفـع بيسو رأسه ثمنـا لمؤامرته. ولقي المصير ذاتـه كل من سينكا و لوكانوس و روفوس ، بلاوتينوس و فلافيوس و أفركيانوس، وكل أصدقاء القيصر الذين شاركوه الفسق والعربدة : سينسيو، بروكولوس، توغورينوس، سيلانوس، بروكسيموس إضافة إلى سوبريوس الكلب الوفي ونصير القيصر روحا ودما.

كان مـن بينهم من قضت عليه سوء سمعتـه، وبينهم من قضى عليه الخـوف، أو الجرأة، أو الـثراء. وخشيّة من العدد الضخـم للمتآمرين، أغرق الاسوار بالجنود، وأخضع المدينة لحصار تام.

فلم يمض يوم الا وكان قادة المئة يبعثون بأحكام الموت إلى المنازل المشبوهة. فكان المتهمون يتذللون في ردودهم للقيصر، يرجونه وقد أوصوا بنصف ثروتهم للقيصر، أن يبقى على نصفها الاخر لابنائهم. كأنما نيرون قد أحكم شد وتر القوس ليقيس مقدار خضوع الناس له، وليعرف كم سيحتملون وطأة هذا الحكم الدموي. وبعد الانتهاء من سحق المتآمرين، قضوا على أقاربهم، وأصدقائهم، وكل من مت اليهم بصلة.

وكانت تهمة البعض أمثال نيبوس و مارتياليس و دوميتوس أنهم لا يحبون القيصر، فاستحقوا الموت. أما نوفيوس فقد استحقه لأنه كان صديق سينيكا، واستحقه الكثيرون لانحدارهم من أصول نبيلة. وحتى بوبيا كانت ضحيّة لثورة غضب آنيّة من القيصر.

تذل ل مجلس الشيوخ، للمستبد الجائر، فأنشأ له المعابد، وأقام له الاحتفالات والنذور إكراما لصوته، ونصبوا له التماثيل، وأحاطوه بالكهنة كأنه بات الها.

وكان السيناتورات مرتعدين حين يؤمون البلاتينوس لإبداء إعجابهم، وثناءاتهم على أغنيّة بريودنيس، ولكي يشاركوه عربدة النبيذ، والاجساد العاريّة.

أما في الاسفل، في هذه الاثناء، فقد كانت الغراس التي زرعها بطرس تنمو سيقانها بهدوء، وجذورها تترسخ في التربة المغمسة بالدم والدموع.

٧٣

من فينيكوس إلى بترونيوس :

" نعرف هنا يا عزيزي ما يحدث في روما، والذي لا نعرفه تخبرنا بـه رسائلك. إن القيـت حجرا في الماء، تنتشر الدوائـر وتتوسع.هكذا تصـل الينا موجـات الاهتياج قادمة مـن البلاتينوسـ. كاريناس الذي أرسلـه القيصـر إلى اليونان، مر مـن هنا ونهب المـدن، والمعابد، ليملأ الخزينـة الفارغة. وعلى حساب عرق الشعب ودموعه، يبنون في روما قصر نيرون الذهبي.

لعـل العـالم لم يشهد بناء مثله، لكنه أيضـاً لم يعهد مثل هذه الجراح والاوجـاع. فأنـت تعـرف كاريناسـ. كان شيلون شبيها بـه قبل أن يستبـدل الموت بحياته. البلدات الصغيرة المجاورة لنا لم يصلها رجاله، ولعـل السبب في ذلك خلو ها من المعابد والثروات. تسالني إن كنا في أمـان. وجوابي علـى سؤالك أنهم قد نسونا. أكتـب لك الان وأنا في الرواق المطل على خليجنـا الهادئ، أرى أرسوس في قارب يلقي لتوه بالشبكة في الماء الصافي.

زوجتي تنسج الصوف إلى جانبي. وأرقائي يغنون في الحديقة تحت ظـلال المندلـين. ياله من سلام، يـا عزيزي، وما أروع أننـا قد تجاوزنا مخاوفنـا وأوجاعنا السابقة. ليس صحيحا ما تقوله. ليست الاقدار هي التـي تنسـج حياتنا الهانئة، لكـن المسيح، الهنا الحبيـب، ومخلصنا هو الذي باركنا.

ليس الألم والدمع بغريبين عنّا، لأن معتقدنا يأمرنا بأن نبكي الامه،ونذرف دموعا فيها أيضاً بذور المواساة، وهذا مالا تعرفونه أنتم.

عندما تحين ساعة موتنا سوف نلتقي أحباءنا الموتى، وكل أولئك الذين يموتون من أجل وصايا الله. أرواحنا تراهما، وما دامت أعيننا تذرف الدمع، فقلوبنا فرحة بسعادتهما. أجل يا عزيزي نحن سعداء وسعادتنا يعجز أحد عن إخمادها، لأن الموت الذي يعني نهايّة كل شيء في نظركم هو بالنسبة لنا، عبور إلى السلام الاكمل، إلى المحبة الانقى، إلى السعادة الاعظم.

هكذا تمضي أيامنا وأشهرنا، وقلوبنا مغمورة بالصفاء. خدمنا، وأرقاؤنا أيضاً يؤمنون مثلنا بالمسيح، وبما أنه يوصينا بالمحبة فنحن جميعا نحب بعضنا. عند غروب الشمس، أو حين يبسم القمر في السماء، ويأتلق فوق الماء، غالباً ما أحادث ليفيا، وتحادثني عن الازمنة الفائتة التي أضحت بالنسبة الينا كالحلم. وحينما أتصور أن ليفيا الغاليّة، التي أهدهدها في أحضاني كل يوم، بعد أن كابدت العذاب، وشارفت على الموت، أتعبد إلى ربي الذي خلصها من تلك الايادي، وأهدانيها إلى الابد.

وتدري يا بترونيوس كم من العزاء والراحة يمنح هذا الدين إذا ما ساء قدر المرء. كم من الصبر، والشجاعة في مواجهة الموت.

تعال، وانظر بأم عينك كم يمنح من السعادة في الاوقات البليدة الفاترة.

وكما ترى، أن البشر لم يعرفوا حتى الان الها أحب وه، لذا فهم لم يحب وا بعضهم، وهذا هو منبع عدم سعادتهم، لأنه كما النور يأتي

من الشمس، كذلك السعادة، تنبع من المحبة. هذه الحقيقة لم يعل مهم إياها لا القانونيون، ولا الفلاسفة، و لم يكن ذلك لا في اليونان، ولا في روما، وحين أقول " ولا في روما " أقصد " ولا في العالم ".

إن تعاليــم الرواقيين الباردة، والجافة التي يميــل اليها ذوو الاخلاق الفاضلــة، تقسي القلوب، كما يقسى الفــولاذ، وتجعلهم خاملين بدلا مــن أن تصلحهم. ولكن لَم أحدثك بمثل هذا، فأنت أدرى مني، وأكثر معرفة.

لقدعرفت بولس الترسوسي وكثيرا ما تحدث معه مطولا، فاستنتجت أن كل مــا جاء بــه فلاسفتكم وخطباؤكم من علوم، ما هي الا فقاعات جوفاء، ذات وقع متغطرس، مقابل الحقيقة التي أفصح عنها.

فهــل تذكر السؤال الذي طرحته عليــك " لو كان القيصر مسيحيا، أمــا كنتم بأمان أكبر، أما كنتم أكثر ثقة بمــا تملكون، أما كنتم متحررين مــن الخوف، وأكثر شعورا بالطمأنينة على مستقبلكم؟ ". أنت قلت أن معتقدنا معاد للحياة، وأنا سأرد على قولك بأني حتى لو ملأت رسالتي هذه من أولهــا إلى آخرها، بكلمتين مكررتين : أنا سعيد، لما كان كافيا للتعبير عن سعادتي.

فيمــا بعــد ستقــول لي إن سعادتي هي ليفيا ! أجل يــا عزيزي. لأني أحــب فيها روحها الخالدة، ولأننا نحــب بعضا من خلال المسيح، فلا انفصــال في مثل هذا الحب، ولا نكران، ولا تبدل، ولا شيخوخة، ولا موت. فحين تولي فــترة الشباب، والجمال، وتشيــخ أجسادنا، ويأتي دور الموت، لا يبقى الا المحبة، لأن الروح باقية.

قبل أن تنفتح عيناي على النور، كنت على استعداد لأحرق حتى منزلي من أجل ليفيا، والان وأقول الان أنني لم أكن أنذاك أحبها، فلم أتعلم الحب الا على يد المسيح. إنه رأس نبع السعادة والسلام. لست أنا من يقول ذلك، بل الواقع والحقيقة.

قارن ما تتلذذون به من متع مشوبة بالخوف، وما يتملككم من قلق وشكوك بالاتي، وما تقيمونه من طقوس عربيدة تفوح فيها رائحة المآدب الجنائزيّة، قارنهُا بحياة المسيحيين، ستجد الجواب. لكن لكي تكون المقارنة ملموسة ندعوك أن تأتي إلى هنا، إلى جبالنا العطرة، إلى أفياء غاباتنا من الزيتون، إلى شواطئنا وعرائش اللبلاب المحاذيّة لها. في انتظارك هنا قلوب دافئة محبة لك فعلا، في انتظار السلام الذي لم تذقه منذ زمن. ولأنك شخص نبيل وطيب، ستسعد بين ظهرانينا. يمكن أن يوجد من هو عدو للحقيقة مثل القيصر، وتيفالنيوس، لكن أحدا لن يتخذ منها موقف الحياد. آه يا بترونيوس، كم نستبشر أنا وليفيا بالامل بأننا سوف نلقاك قريبا. أتمنى لك الصحة والسعادة، وتعال ! ".

استلم بترونيوس الرسالة في كوما، لأنه كان قد لحق بالقيصر مع باقي الاوغستيان. لقد انتهى صراعه الطويل مع تيفالنيوس. صار يدرك الان أنه الخاسر في هذا الصراع، وهو يعرف السبب. وبقدر ما كان القيصر يغرق يوما بعد يوم، في لعب دور الكوميدي، وقائد العربة، والمهرج، كان يتفاقم انحطاطه، وانعماسه في الانحلال المرضي الثقيل الذي لا يحتمله ملك الذوق الرفيع. إذا ما صمت بترونيوس، وجد القيصر التقريع والتوبيخ في صمته، وإذا ما أثنى عليه، شعر القيصر الهزء في كلماته. لقد خدش بترونيوس عبادة الذات لدى نيرون، فتولدت فيه الخصومة. وبرز إلى السطح الان ما يمتاز به بترونيوس من ثراء وخصوبة في أعماله الابداعيّة، فتولد الجشع لدى القيصر وكافة وزرائه من ذوي

النفـوذ. لكنهم الان يسايرونه في رحلـة أكايا لأنه في أمس الحاجة اليه هناك بسبب معرفته الممتازة في الشؤون اليونانيّة.

الا أن تيفالنيوسـ جـد في سعيـه لإقنـاع القيصر بـأن كارينّاس يبز بترونيوسـ معرفـة وذائقة، وقدرة علـى تنظيم الالعـاب والضيافات، ومواكب النصر، في أكايا.

لقد سقط بترونيوس، وهو الان بحكم الميت. لكنهم لم يجرؤوا أن يبلغـوه في روما، حكم الاعدام الصادر بحقـه. ما زال كل من القيصر و تيفالنيوسـ يتذكر أن هذا الفنـان القائل ظاهريا بالمساواة الاجتماعيّة والسياسيّة، والذي كان يقضي الليل جريا وراء المتع، والفنون، والمآدب، حتـى حين كان يشغـل منصب نائـب قنصلي، ثم منصـب قنصل في روما، ويتمتع بطاقة كبيرة، قد أعطى دليلا ملموسا على أنه صالح لكل الاعمال التي يسند اليهـا، فنال ثقة شعب روما، وامتدت شعبيته حتى بين الحرس الامبراطوري. الأمر الذي جعل أتباع القيصر يحارون فيما عليهـم أن يفعلوه إزاء هذه الحقيقـة، فوجدوا أن من الادهى أن يبعدوه عن المدينة، ويقبضوا عليه في الارياف.

مـن أجـل هذا كله، تلقـى دعوة للانضمـام إلى باقـي الاوغستيان الراحلـين إلى كوما. لقد خامره الظـن بأن خداعا ينتظره، فلبى الدعوة للمشاركة رغـم كل شيء، وقد يكون السبـب في ذلك عدم الاجهار في معارضتـه، والاستمرار في إظهار هدوئـه، وبشاشة وجهه للقيصر، والاوغستيـان، في نية منه لتسجيل واحدة علـى تيفالنيوس والنيل منه مرة أخرى قبل موته. في أثناء ذلك كان تيفالنيوس قد اتهمه بأنه صديق حميم للسيناتور سكافينوس وأنه وراء مؤامرة بيسو وقائدها الروحي.

قبضـوا على رجال بترونيوس في روما، وظل الحرس الامبراطوري

يحاصـر منزله. وحـين علم بالأمر، لم يبد أي خـوف أو ارتباك، وقال للأوغستيان الذي قصدوه في زيارة إلى فيلاه الفخمة في كوما :

ـ صاحب اللحيّة الحمراء، لا يحـب الاسئلة الموجهة اليه، وسترون أي اضطـراب سيتملكـه حين أسألـه إذا ما كان اعتقـال من يعمل في منزلي، قد جاء بناء على أوامر صدرت منه.

ثـم أعلـن أنه سيقيـم مأدبـة قبـل " متابعـة الرحلـة ". وكان يهم بالتحضيرات لها حين وصلته رسالة فينيكوس.

حين استلم الرسالة فكر بالأمر قليلا. لكنه سرعان ما استعاد بشاشة وجهه، وصفاءه المالوف، وخط في ذلك المساء رسالة الرد :

" يسرني أنكما سعيدان، وأقدر عاليا عزيمة قلبيكما، يا عزيزي، فما كنـت أظن أن بمقدور عاشقين أن يفكرا بشخص ثالث بعيد. أنتما لا تفكران بي فحسب، بل ترغبان في أن أشاطركما خبزكما، ومسيحكما الذي كما تكتب يجزل السخاء ويغمركما بالسعادة.

إن كان الأمـر كذلك، فاعبداه. أظن يا عزيـزي، أن ليفيا قد أسهم أرسوس قليلا، كما ساعدك الشعب الروماني أيضاً في استعادتها.

لكـن إن كنت تؤمـن بأن المسيح قـد فعل ذلك، فلـن أناقشك في الأمـر. حسنا لا تأسفـا على ما قدمه من تضحيـات. بروفيثيوس أيضاً ضحى بنفسه من أجل الشعب. لكن الفارق كبير.

بروميثيوس من إبداع الشعراء على الارجح، أما المسيح فقد سمعت مـن أشخاص صادقين أنهم قـد رأوه بأم أعينهم. وأنا أصدقكما القول بانه أشرف الالهة.

أذكر تساؤل بولس الترسوسي، وأتفق معه بأنه لو كان صاحب اللحيّة الحمـراء يعيش وفق تعاليم المسيح، لكانت فرصتي سانحة لأسافر اليكما إلى سيسيليا. ولكننا تحت ظلال الاشجار، تحدثنا مطولا عن مجمل الالهة، وكل الحقائق كما فعل الفلاسفة اليونان. لكني الان سأجيبك باختصار.

لا أريـد أن أعـرف الا فيلسوفـين أثنـين. أولهما بيرهـون، والاخر أناكريون. وما تبقى من الفلاسفة سأبيعهم لك بأرخص الاثمان، ومعهم كل المدارس اليونانيّة، ومنها مدرستنا الرواقيّة كذلك.

إنمـا الحقيقـة تقطن في مكان يشق على الالهـة أن يروها من على قمة الاولمـب. ولعلك تعتقد أن جبلكـم أنتم أكثر شموخـا وارتفاعا، وإنك تتربـع على تلك القمة وتناديني من هناك " تعـال، ولسوف ترى آفاقا لم ترهـا مـن قبل". قد يكـون ذلك، لكـن جوابي " يا صديقـي لم يعد لي رجلان ! ".

وعندها تنهي قراءة رسالتي ستصدق ما أقول.

لا، يـا زوج " أميرة الفجـر " السعيد ! دينكم أنتم ليس لي. فأن أحب عبيـدي البثنيـين، الذيـن يحملون هودجـي، أو المصريين الذيـن يعتنون بحمامـي الساخـن، أقسم بركبة كاريسـ البيضاء أننـي لا أستطيع حتى لـو أردت ذلـك. في روما مـا لا يقل عن مئـة الف من البشـر، إما محنيو عظام الكتفين، أو ضخام الركبتين، أو ضامرو بطتي الساقين، أو مكورو العينين، أو ضخام الرأس. وأنت تريد أن أحبهم.

من أين آتي بالمحبة إذا ما كنت لا أستشعرها في قلبي؟

أمـا إذا ما كان الهكم يرغب في أن أحب هؤلاء، كان أولى به، كقادر على كل شيء، أن يريني أشكالا مثل النيوبيد الذين رأيتهم في البلاتينوس. من يحب الجميل، ليس بمقدوره أن يحب القبيح.

مسالـة الايمان بالهتنا شيء آخـر، الا أننا يمكن أن نحبهم، كما أحبهم فيدياس، و براكسيتليس، و ميرون، و سكوباس، و ليسيبوس.

وحتى لو أردت أن أذهب إلى حيث تقودني، فلن استطيع وبما أنني لا أرغب في ذلك فعدم استطاعتي مضاعف. أنت كبولس الترسوسي تؤمن أنـك ذات يوم سوف تلتقـي المسيحيين في مرابع فردوسيّـة على الضفة الاخرى لنهر الجحيم. حسنـا ! فليقل لي إذن كيف له أن يستقبلني هناك برفقـة يونيكي الشقراء، مع كل ما أملك من جواهر، وأقداح. تضحكني مجـرد فكرة أنه ينبغي علي، من أجل المسيح، أن أتخلى عن أكاليل الورد، والمـآدب، واللذائذ. صحيح أنه سيعوضني عن كل ذلك بسعادة من نوع آخـر، لكن ردي هو أني بت عجوزا علـى مثل ذلك، لكن عيني ما زالتا تستمتعـان بالـوردة، وإن عطـر البنفسج أحب لدي مـن رائحة الاخوة القذرين الكريهة.

هذه هـي الأسباب التي تجعل من سعادتكم نوعا لا يناسبني. أمر آخر أرجأتـه إلى النهايّة. بالنسبة لي ها هـوذا ثاناتوس على الابواب، يدعوني اليـه. لكن فجـر الحياة يبـزغ لكمـا الان. شمسي قد هبطـت، ورأسي تأخذني نحو الغروب. بتعبير آخر : علي أن أموت يا عزيزي.

مـن الضير أن نتحدث كثيرا في هذا الأمر. إنهـا النهايّة كما ينبغي أن تكون.

أنـت تعرف صاحـب اللحيّة الحمراء، فسهل عليـك أن تفهم الأمر. تيفالنيوس هو الـذي غلبنـي أم لا ! ليس مهما. لكـن انتصاراتي بلغت نهايتهـا. لقد عشـت كما رغبت في العيش، وسأمـوت كما يحلو لي أن أموت.

لا تحملا قلبيكمـا وطأة ذلك كثيرا. لم يعدني أي اله بالخلود. فليس

هنالـك ما يفاجئ إذن. أنت مخطئ في هذا يـا فينيكوس، فليس الهكم وحـده يوصي بالموت بســلام. لا. عالمنا منذ القدم عــرف مثلنا : بعد تنــاول القدح الاخير، يحين وقت الانصـراف، والراحة، ويمكن القيام بهـذا بصفاء خالص : يقول بلاتو أن الفضيلـة موسيقا، وحياة الحكيم هارمونيـا. فمـا دام الأمر كذلك فسـوف أموت فاضـلا كما عشت فاضلا.

أما بعد.

فإني أود لـو أودع زوجتك بذات الكلمات التـي حييتها بها ذات يوم في منزل الوش :

" لأني لم أر بعمري، مثل هذه الفانيّة ".

ولأن الـروح، إذن، شيء غير ما يعتبرها بيرهون، فإن روحي سائرة على طريق يقود إلى عرض المحيط، لتحط أمام منزلكما فراشة، أو على هيئة صقر كما يقول المصريون.

ليس لي أن أذهب اليكما بطريقة أخرى.

وحتى ذلـك الحين، لتكـن سيسيليا لكما بستانـا تحرسه حوريات التفــاح الذهبي. ولتنثر صغيرات الهات الحقـول، والغابات والينابيع، الزهور في دروبكما، ولتعشعش الحمائم البيضاء في عريشة كل عمود في منزلكما.

٧٤

وفي حقيقـة الأمر، لم يكن بترونيوس مخطئا. بعد يومين أرسل نيرفا معتوقه إلى كوما حاملا اليه أنباء ما يجري في بلاط القيصر.

صار إعدام بترونيوس مسالة محسومة. أرادوا في اليوم التالي إرسال قائد المئة لإبلاغه أن يبقى في كومـا، وانتظار الاجراءات التاليّة. وكان يمكن لهم إطلاق المراسل التالي بعد بضعة أيام مزوّداً بحكم الموت.

أصغى بترونيوس بكل صفاء نفس، لأنباء معتوق نيرفا ثم قال له :

ـ خذ لسيدك إحدى مزهريّاتي، وسوف يعطيك إياها قبل انصرافك. وقل له أيضاً أنني أشكره من أعماقي لأنه أتاح لي استباق الحكم.

ثم ما لبث أن انفجر بالضحك، كمن لمعت في ذهنه فكرة جهنميّة، وكان سعيدا قبل تنفيذها.

وفي مسـاء ذلك اليوم كان أرقّـاؤه يدورون لدعوة كل الاوغستيان المقيمـين في كومـا رجالا ونساء علـى حد سواء، لحضـور مأدبة ملك الذوق في فيلاه الفخمة.

بعد الظهر كان يكتب في المكتبة. وبعدها استحم، ثم ارتدى أحلى أرديتـه، وبكامل أناقته سار كاله، متوجهـا إلى التريسلينوم ليلقي نظرة خبيرة على ترتيبات المأدبة هناك.

ثم خــرج إلى الحديقة حيــث كان الشبان والفتيــات القادمات من الجزر اليونانيّة ينسجون أكاليل الورد الخاصة بالمأدبة.

لم ينعكــس علــى وجهه أثر لخطــب. وكل ما كان يعرفــه الخدم أن المأدبة ستكون واقعــة استثنائيّة لا مثيل لها، لأنه كان قد أوصى بمكافأة جزيلــة لمن يرضيــه عملهم، وببعض الجلدات الخفيفــة للذين لا يرضى عنهــم ذوقه. كمــا أوصى بإكــرام العازفين، والمغنــين مقدما، وبسخاء زائــد. ثم جلس أخيرا تحت شجرة زان، تتخلل فروعها أشعة الشمس، لترسم فوق الأرض بقعا ضوئيّة، ثم استدعى يونيكي.

أقبلــت الفتاة بثيــاب بيضاء، وقد شكل شعرها فــرع من الريحان. كانــت بديعة مثل كاريس، فأجلسها إلى جانبه، وراح يداعب صدغها بحنــان، ويرمقها بنظــرات سعيدة كما يرمق الفنــان الملهم تمثالا الهيا. سألها :

ـ أتدرين يا يونيكي أنك منذ مدة لم تعودي عبدة؟

رفعت الفتاة عينيها الزرقاوين، وهزت رأسها بالسلب.

وأجابت :

ـ أنا دائما كذلك يا سيدي.

فتابع بترونيوس يقول :

ـ لكنــك قــد لا تعلمين بــأن هــذه الفيلا، وأولئــك الأرقّــاء الذين ينسجــون الاكاليل، وكل ما يتبع ذلك من أرض، وقطعان، هي لك من الان فصاعدا.

انكمشت يونيكي لسماعها مـا يقول، وابتعدت عنه قليلا، لتسأله باضطراب بادٍ في نبرة صوتها :

ـ لم تقول لي هذا يا سيدي؟

ثـم اقتربت منه ثانيّـة، ورمقته بعينـين مرتعدتـين، وشحوب دهم وجهها.

فما كان من الرجل الا أن ابتسم ونطق بكلمة واحدة :

ـ أجل !

ســاد صمت لحظي تخلله اهتزاز أوراق شجـرة الزان بفعل النسيم العليل.

لقد أشعرها بترونيوس بأن من تقف أمامه تمثال رخامي، فقال :

ـ يونيكي ! أريد أن أموت نقيا

فرمقته الفتاة بابتسامة تصدّع القلب، وأجابت هامسة :

ـ أسمعك يا سيدي !

مـع حلول المساء بـدأ المدعوون الذيـن غالباً ما حلّـوا ضيوفا على مـآدب بترونيوس، وكانـوا يعرفون أنه حتى مـآدب القيصر مضجرة، وبربريّـة إذا ما قورنـت بها، يتوافدون بالجملـة، دون أن يخطر لأحد منهم أنها ستكون حفلـة الشراب الاخيرة. وكان كثر منهم يعلمون أن سحب البغيضة تحـوّم فوق رأس ملك الـذوق النبيل، لكنهم يدركون أنــه أمر كثير الحدوث، وبمقدور بترونيوس بلفتة فطنة، أو بعبارة جريئة

منــه أن يفلح في تبديدها، فلا تشكل خطرا جديا عليه. ولقد عزز وجه بترونيوســ البشوشــ، وابتسامته اللطيفــة المعهودة، هــذه النظرة عند الجميــع. وفيما يخص يونيكــي الرائعة، كان كل ما يتلفظ به بترونيوس أمــرا من الأوامر في اعتبارها، فحين قال لها إنه يرغب في الموت، نقيا، غلب الهدوء على تقاسيــم الفتاة الفاتنة، وائتلقت عيناها بنور شعشاع فريد، يمكن اعتباره وهجا للسعادة.

التريسلينــوم عند مدخل التريستينــوم راح الفتيان أصحاب الشباك الذهبيّة علــى شعورهــم، يضعون أكاليل الورده فــوق رؤوس القادمين الضيــوف، لافتــين عنايتهم، حسب العــادة، إلى تخطــي العتبة بالقدم اليمنــى. كان عبــير البنفســج يضــوع في القاعــة، واللهــب يتقــد في البللوريــات الاسكندرانيّــة الملونــة. والفتيــات واقفات قــرب مقاعد الجلوســ، يرطبن أقدام الضيــوف بالعطور. وعند الجــدار كان عازفو القيثار، والمغنون في انتظار إشارة من قائد الفرقة الموسيقيّة.

كان حفلا مترفا، لكنه ترف لم يلقِ بظلاله الثقيلة، و لم يخدش كبرياء أحــد، بل اتخذ مساره العادي البسيط كزهرة ستتفتح على هذا النحو. وكما فاح عطر البنفســج في القاعة، كذلك عم المرح والتسليّة، فشعر الضيوف هنا أن لا إرغام،ولا تهديد بالخطر ينوسان فوق الرؤوس، كما في مآدب القيصر حيث يمكن للمرء أن يخسر حياته لقاء إطراء غير موفق صدر منه تجاه أغنيّــة أو قصيدة. خفقت قلوب المدعويين مبغوتة لمرأى أنــواع الاطعمة والنبيذ المعتق في الأباريق والاقداح. جرت الاحاديث مرحة كطنين سرب من النحل حول شجرة تفاح مزهرة.

وسمعــت بين وهلة وأخرى قهقهات أو عبارات مديح صاخبة، أو قبلة رنت عاليا فوق كتف أبيض.

وقبل أن يبدأ الضيوف باحتساء الشراب، أراقوا بعضا من قطرات النبيذ إكبارا للالهة الخالدة، حتى يحوزوا على رعايتها وحسن نواياها تجاه صاحب المنزل، وإن كان الكثيرون هنا لا يؤمنون بالالهة، لكن العادة، والخرافة استدعتا هذا التقليد. استقر بترونيوس إلى جانب يونيكي.

وراح يتحدث عن المستجدات في روما، وأحدث حالات الطلاق، والحب، ومغامرات العشق والمباريات وعن سبيكولوس الذي ذاع صيته باكرا في الميدان، ثم تحدث عن أحدث الكتب الصادرة عند أتراكتوس، و سوسيوس. وعند إراقته النبيذ أعلن أنه يفعل ذلك إكبارا لالهة سيبريس الفاتنة، لا لأحد سواها، لأنها الاكبر سنا، والاعظم بين الالهة، وهي الالهة الوحيدة المهيمنة، والخالدة إلى أبد الابدين.

كان حديثه كشعاع يلقي بضوئه دائما على مادة مختلفة، أو كنسيم صيفي يداعب أزهار الحديقة.

وفي نهايّة المطاف أشار إلى قائد الفرقة، فعزفت القيثارات الحانها الخافته، ترافقها أصوات المغنين الشابة. ثم جاءت راقصات جزيرة كوس بلد يونيكي، بأوشحة تشف عن أجساد ورديّة.

ثم حان أخيرا دور عراف مصري ليقرأ مستقبل الضيوف من خلال حركة الاسماك القزحيّة الالوان داخل وعاء بلوري. وحين أنهوا هذا الجانب من التسليّة، نهض قليلا بنفسه عن وسادته السوريّة، وقال :

ـ أصدقائي ! استميحكم عذرا، وأنا أتقدم اليكم بطلب :

ـ هلا يتقبل مني كل واحد فيكم القدح الذي أراق منه النبيذ أول مرة تمجيدا للالهة، ومن أجل حسن فالي.

تـلالات أقـداح بترونيوس بما يتخلـل قوامها من ذهـب وأحجار ثمينـة، وغمرت السعادة قلـوب المدعوين. بعضهـم كان ممتنا، وأثنى عليـه بصـوت عال، فيما زعم آخـرون أن جوبيتر نفسـه لم يكرم الهة الاولمب بمثل هذه الهدايـا، في حين راح البعض الاخر يثرثر مترددا في قبول الهدايا التي خرجت عن حدود المالوف.

أما هو فقد رفع عاليا القدح المر ي الثمين الذي يتلالا بكل لون من الوان قوس القزح وقال :

ـ من هـذه القدح أهرق النبيذ فداء، وتبجيـلا لالهة سيبريس. ومن الان فصاعـدا لن تلامسها شفـاه أحد، ولن يهرق منهـا النبيذ إجلالا لالهة أخرى.

ورمـى بالقدح على البـلاط المغمـور بأزهار الزعفـران، فتناثرت شظايا صغيرة. وحين لمح وجوه الحضور الذاهلة قال :

ـ متعـوا أنفسكم، يا أعزائـي، ولا تندهشـوا. الشيخوخة والوهن شريـكان حزينان لآخـر سنوات العمر. لكنـي سأتقـدم اليكم بالمثال الصالح، والنصيحة الطيبة :

ـ لا تنظـروا مجيء تلك السنوات، فقبـل أن تأتيكم، لكم أن ترحلوا كما أرحل أنا.

فجاءت أصوات قلقة متسائلة :

ـ ما الذي تنوي فعله؟

ـ المتعـة والمرح، واحتساء النبيذ، وسمـاع الموسيقا، والافتتان بهذه الاجساد الالهيّة التي المحها قربي، ثم الذهاب إلى النوم.

سأودع القيصر إلى غير رجعة. هل ترغبون سماع ما كتبته له مودعا؟

وأخرج الرسالة من تحت وسادته الارجوانيّة وقرأ ما يلي :

" أعلم أيها القيصر، أنك تنتظر قدومي بفارغ الصبر، وأن قلبك الصدوق الوفي في شوق ليل نهار لرؤيتي. أعلم أنك تود لو تغرقني بعطاياك، وتسند الي منصب قائد الحرس الامبراطوري بينما تعين تيفالنيوس، كما خلقته الالهة أهلا لذلك، بغالا في أملاكك التي ورثتها عن دوميتيا، بعد أن سممتها. أرجوك سامحني، لأني، قسما بـ هادس،وأمك، وزوجتك، وأخيك، وطيف سينكا، لا أستطيع الذهاب. الحياة ثروة عظيمة، يا عزيزي، وأنا قد أدركت أن علي أن استخلص منها أثمن أحجارها الكريمة.

لكن ثمة في الحياة أمورا لم أعد أحتملها بسببك. فلا تظن أبدا، فليس ما أزعجني هو قتل أمك وزوجتك، وأخوتك، وإحراقك روما، ولا نفيك لكل رجل شريف في الحكومة. لا. يا بن حفيد كرونوس. الموت قسمة تصيب كل البشر، فلا يمكن انتظار شيء آخر منك. لكن أن تظل أغانيك تهش م أذني، وأن أرى ساقيك الهزيلتين الدوميتيوسيين تتلويان في رقصاتك البيروسيّة، وأن أصغي إلى حواراتك المسرحيّة، وأسمع خطبك واشعارك، أيها الشاعر الرعوي البائس، فهذا هو ما يفوق طاقة احتمالي، وهذا هو ما يدفعني إلى الانتحار. روما تسد آذانها حين تسمعك، والعالم يهزأ منك، أما أنا فلا أريد، ولا أستطيع أن استمر في الاحمرار خجلا. إن نباح كلب السيربيروس ذي ثلاثة الرؤوس وهو نباح يشبه أغانيك يا عزيزي سيكون اليما إلى أدنى حد، لأني لم أكن في يوم صديقا له، كما أني لست مرغما على الخجل إذا ما سمعت صوته. أحرص على صحتك، لكن لا تغن، اقتل، لكن لا تنظم

الشعـر، امزج السم، لكن لا ترقص، احرق، لكـن لا تمسك بالقيثار، هذا ما يتمناه لك، وهذه هي نصيحة الصداقة الاخيرة التي يسديها لك ملك الذوق ".

تجمد الضيوف، وقد كانوا يدركون أن صفعه كهذه اشد وطأة على نيرون من فقدانه ملكة بالكامل. وأدركوا أيضاً أن من كتب هذه الرسالة ينبغي أن يلقى حتفه لا محالة، وانقصمت ظهورهم وهم يسمعونها.

أما بترونيوس فـراح يقهقته مرحا وبكل صدق، وكأن ما قرأه كان نكتة من أطراف النكات. ثم جال بعينيه على الحضور وقال :

ـ امرحوا، ودعوكم من الخوف، ولا ينبغي على أحد أن يتبجح لأنه سمع الرسالة، أما أنا فيمكنني أن أزهو بها أمام كارون عند العبور.

وأومـأ للطبيب اليونـاني، مادا ذراعه نحـوه. وبحركة واحدة منه لف اليوناني الخبير الذراع بشريط ذهبي، وقطع الوريد. تناثر الدم على الوسـادة، وعلى يونيكي التـي انحنت فوق بترونيوس مسندة رأسه، وغمغمت قائلة :

ـ سيدي، هل ظننت أنني سأتخلى عنك؟ لو منحتني الالهة الخلود، والقيصر سلطانه على الأرض، فسأختار اللحاق بك.

ابتسـم بترونيوس، ونهض قليلا، وقال وهـو يلامس بشفتيه شفتي الفتاة :

ـ تعالي !

وأردف :

ـ أنت أحببتني حقا، يا يونيكي الالهيّة !...

أما هي فكانت قد مدت ذراعها الورديّة نحو الطبيب، فتدفق دمها خلال لحظة، ممتزجا بدم بترونيوس.

أومأ بترونيوس لقائد الفرقة، فصدحت الموسيقا والاغاني من جديد. غنـوا أولا هارماديوسـس ثم إحدى أغـاني أناكريون التـي يشكو فيها الشاعـر، أنه ذات مرة وجد أمام بابه طفـل افروديت الباكي المتجمد، فأخذه بين أحضانه، وأدفـأه، وجفف جناحيه الصغيرين، فأبدى ذلك الناكـر للجميل امتنانه بأن طعنه بسهمه طعنة اخترقت قلبه، ومنذ ذلك الحين لا يعرف الطمأنينة...

أمـا بترونيوس و يونيكي فكانا يسمعـان الاغنيّةباسمين متلاصقين كالهـين جميلين، وقد بـدأ وجهاهمـا يشحبان. وبانتهـاء الاغنيّة أمر بترونيوس بتقديم النبيذ والطعام مجدّداً. ثم انبرى يحدث من جلسوا إلى جانبه بأمور بسيطة محببة، مالوفة على العموم في المآدب.

وفي النهايّـة دعا اليه الطبيب، وطلب منـه أن يربط وريده للحظة، بعـد أن شعر بالنعاس، لأنه يحب أن يسلم نفسه لـ هيبنوس قبل أن ينوم ثاناتوس إلى الابد.

ونـام. وحين أفاق كانت رأس الفتاة قد هـدأت كزهرة بيضاء على صـدره. وضعها على الوسادة ليتم عن فيها جيدا، ثم فتحوا وريده من جديد.

خاتمة

لم يبدُ تمرّد الفيالق الغالية تحت قيادة فينيكوس ينطوي على شيء من الخطورة في البداية. فالقيصر لم يتم بعدُ الحادية والثلاثين من العمر، فلم يجرؤ أحد أن يغالي في أمانيه بأن العالم يمكن أن يتحرّر بهذه السرعة من إرهابه الخانق هذا. رجعوا بالذكرى إلى حصول معارضات ضمن دائرة الفيالق حتى في عهود الأباطرة السابقين، لكنها معارضات آلت إلى الزوال من دون أن تفضي إلى تبدل شخص الحاكم. وهكذا على سبيل المثال نجح دروسوس في عهد تيبريوس في قمع تمرد فيالق بانونيا، و جرمانيكوس في قمع فيالق الراين. لكن من الذي يمكن أن يتسلم الحكم بعد نيرون، وقد قضي تماماً في عهده على جميع أقارب أوغستوس؟ " هذا ما قاله الناس. وجنح آخرون إلى التفكير، بعد أن رأوا كل تلك التماثيل العملاقة التي تصور نيرون على هيئة هيركوليس، بأن من المستحيل لقوة مهما عظمت أن تطيح بهكذا سلطان.

في حين هاج في بعضهم الحنين إلى القيصر المقيم الان في أكايا، لأن هيليوس و بولسيتس اللذين أسند اليهما إدارة شؤون روما وإيطاليا، كانا أكثر دمويّة منه في الحكم.

لم يكن أحد مطمئنا على حياته، أو ممتلكاته. فلم تعد القوانين تمنح الحماية. سحقت الفضيلة وديست الكرامة الانسانيّة، واستحالتا إلى لا شيء، وتفكّكت الروابط العائليّة، وكفت القلوب الخانقة عن

شجاعتها في التمنّي. ووصلت من بلاد الإغريق أنباء عما حقق القيصر مـن انتصـارات لا تضاهـى، وعـن الاف الأكاليل التي حـاز عليها، والاف الخصـوم الذين قهرهـم. وكأنما قد استحال العـالم إلى عربدة هزليّـة صاخبة ودمويّـة، وضربت التفاهة والهشاشـة جذورا متشعبة لتعلن هنا نهايّة كل أثر فاضل، ورصين.

وجاء زمن الرقص والموسيقا، والفساد، والانحلال، والدم، لتتخذ الحيـاة مسارها على هذا النحو. لم يكـترث القيصر كثيرا بحالة التمرد السائـدة في الفيالق، ولا بقائدها فينوكس، لا بل غالباً ما جهر بالقول بأنـه مسرور بهذه الوقائع. حتى أنه ظل مقيما في أكايا و لم يغادرها الا حين أعلن هيليوسـ أن الاستمرار في التزام الصمت قد يعرض الحكم لخطر الانهيار، فشد نيرون رحاله إلى نابوليس.

استمر هنالـك، بالغناء والرقص، وطرقت أذنيـه أنباء تتحدث عن المزيد من تدهور الاوضاع. و لم يجدِ معه نفعا كل تحذيرات تيفالنيوس له بأن هناك فروقا كبيرة بين المعارضَات التي حصلت سابقا في غياب مـن يتزعمهـا، وبين التمردات الحاليّـة بزعامة شاب ينتمـي إلى عائلة الملـوك الاكويتانيـين العريقة، ويتمتـع إضافة إلى ذلـك، بخبرة القائد الحربي الذائع الصيت.

فـكان رد نـيرون : " هنا يسمعنـي اليونانيون، وهـم وحدهم من يعـرف كيف يصغـي إلى الموسيقـا، وهم وحدهم الجديـرون بالحاني وأغـاني ". وصرح بأن أهم أولوياته الفن والشهرة. لكنه حين سمع أن فيندكس سمّاه المهرج العاطل، طار صوابه، ونهض قافزًا، وانطلق من فوره متوجّهًا إلى روما.

الجراح التي تلقاها من قبل بترونيوس، وشفي منها خلال إقامته في

بلاد اليونان، تفتّقت الآن من جديد، وأراد أن يقف على حقيقة أمرها في مجلس الشيوخ.

وفي طريق العودة شاهد تمثالا برونزيا يصور مقاتلا من بلاد الغال يقذف به بطل روماني. فاعتبر ذلك دلالة طيبة. ومنذ تلك اللحظة، صار إذا ما أتى على ذكر الفيالق المتمردة، و فيندكس كان يفعل ذلك فقط ليسترسل في الضحك.

كان دخوله المدينة طاغيا على كل ما رأته الأعين قبل ذلك. استقلّ نفس العربة التي عبر بها أوغستوس ذات يوم بموكبه. واضطرهم الأمر أن يفككوا إحدى قناطر السيرك ليشقوا طريقا للموكب.

توافد لاستقباله، مجلس الشيوخ، والفرسان، وحشود لا حصر لأعدادها. اهتزت الجدران من وقع الهتافات : " تحيّة لك،يا أوغستوس، تحيّة لك يا هيركوليس، تحيّة لك أيها القيصر الالهي، الاولمبي، الخالد، الاوحد ". وحملوا من ورائه الأكاليل التي حاز عليها، واسماء المدن التي حقق فيها انتصاراته، وأسماء الابطال الذين قهرهم. كان موكبا أطار صواب نيرون نفسه، وجعله يتساءل بحماس إن كان موكب أوغستوس يرقى إلى مستوى موكبه كقيصر الهي أولمبي لا نظير له. وهذا ما أشعره أنه بأمان ولا خوف عليه من أي تمرد حاصل أو قد يحصل. وكان من شأن حماسة الحشود، وهياجها الشديدين أن يعززا في نفسه مثل هذا الاحساس الابله. وحقيقة الأمر أنه كان موكبا من الفخامة بحيث يخبل القيصر، والمدينة، وحتى العالم بأسره.

لكن أحدا لم يرَ الهاويّة تحت تلال الأزهار والاكاليل. كانت العمدان، وجدران الكنائس في مساء ذلك اليوم مغطاة باللافتات التي تعلن أفعال القيصر القذرة، وتهدده بالانتقام القريب، وتهزأ منه كفنان.

وتـرددت العبارة كقول مأثور : " ظل يغني حتى أيقظ الغالي الديكة ". وسرعان ما انتشرت أنباء الذعر في المدينة. ولعدم معرفة الناس ما الذي تخبئـه الايام التاليّة، فقد لزموا الحـذر، و لم يملكوا شجاعة ليعبروا عما يجول في نفوسهـم من رغبات، وتطلعات، حتـى أنهم فقدوا القدرة على التفكير.

لكـن القيصـر كرّس حياتـه للمسـرح والموسيقـا. وشغلته الالات الموسيقيّـة المبتدعـة حديثا، والأرغن المائي الجديـد الذي اختبروه الان في البلاتينوس.

لقـد توهّم عقله الطفولي العاجز عـن أي فعل أو قرار، أنه إذا ما قام مسبقـا بالتحضـير للعديد من الحفـلات والعروض القابلـة للتنفيذ في المستقبل البعيد، فإن ذلك سيتمكن تلقائيا من تفادي كل خطر.

حـين رأى الواقفون إلى جانبه، أنه بدلا مـن أن يلجأ إلى استحضار الوسائل الضروريّة، و إلى التأهب العسكري، يحصر تفكيره في البحث عـن أشد الكلمات تأثيرا للتعبير عن الفظائع، بدؤوا يفقدون صوابهم. وعلى العكس من ذلك، فقد مال آخرون إلى الاعتقاد أنه بهذه الاقوال المستبقـة بريد فقـط أن يذهل نفسـه ومحيطه، في وقـت يلوك الخوف والقلق روحه من الداخل.

باتـت تصرفاته متسرعة حقا، وعشوائيّـة. لمعت في ذهنه الاف من الخطط كل يوم. خطر له مرة أن يستبق الخطر، فأمر بتجميع القيثارات والاعـواد في العربـات، وتسليـح الفتيـات العبـدات كالمحاربـات الامازونيـات، كما أمر بسحب فيالق من الشرق. وفي مرة أخرى فكر أنه سيقضي على تمرد الفيالق الغالية بالغناء، لا بالحرب.

وابتهجت نفسه مسبقا للمشهد اللاحق وهو يحاول فيه بالغناء أن يردع العساكر عن مواقفهم الحربيّة، ويجنح بهم إلى السلم. ها هم الجنود يلتفون حوله، وهو ينشد لهم أغنيّة النصر، ثم يبدأ بعدها عصر روما، وعصره الذهبيين. وفي مرة ثالثة تعطش للدم مجدّداً، وأعلن أنه سيكتفي بحكم مصر. وأعاد إلى ذاكرته ما قاله العرّافون بأنه سيحكم أورشليم.

واستكان لفكرة أنه سيكون مغنيا جوالا يكسب قوته اليومي من الغناء، وأن المدن والبلدات لن تبج له كقيصر، وكسيد للكون، بل كمغن لم يأت العالم بمثله من قبل.

وهكذا فقد راح يعربد، ويغني، ويعزف، وينتقي رغباته، ويبدل في غاياته، حتى حول حياته وحياة العالم إلى فوضى صاخبة، وفي نفس الوقت إلى حلم مريع من الفنتازيا، حلم بلا معنى هو مزيج من الدم، والدموع، والتنهدات والاشعار التافهة والتعابير الطنانة. وخلال ذلك كانت الغيوم في الغرب تتكاثف يوما بعد يوم، حتى طفح الكيل، وبلغ التهريج نهايته المحتومة.

حين وصلته الاخبار بأن غالياً و هيسبانيا قد انضما إلى حركات التمرد، ركبه غضب وحشي، وأخذ يزبد، و يهتاج. حطم الكؤوس في المأدبة، وقلب الموائد، وأصدر أوامر لا يجرؤ هيليوس ولا حتى تيفالنيوس على تنفيذها. إعدام كل سكان روما الغاليين، وإحراق المدينة من جديد، وإطلاق الوحوش من حظائرها في الميدان، ونقل العاصمة إلى الاسكندريّة، وقد تخيّل أنها جميعا أمور عظيمة، وناجعة، ومن السهل القيام بها. لكن عهد نفوذه كان قد انصرم، وصار شركاؤه في ارتكاب أفعال الترويع والشرور، ينظرون اليه مجنونا فاقد العقل.

لكن مـوت فيندكس، والمعارضات الحاصلة في أوساط الفيالق، جعلت الميزان يبدو وكأنه يميل ثانية لصالحه. وفي الوقت الذي أطلق فيه مـن جديد مواعيد المآدب، والاحتفالات، والمواكب وأحكام الاتهام، جاء النبـأ ذات مساء بأن الجنود رفعوا علـم التمرد في معسكر الحرس الامبراطوري، وأعلنوا غالباً قيصرا.

كان قيصر نائما حين وصل الفارس بالنبأ، وحين أفاق لم يجده نفعا استدعـاؤه لحراسـه المقيمين عادة عند بابه. صـار القصر خاليا، الا من الأرقّـاء الذين عكفوا على سرقة كل ما تطاله أياديهم في أطرافه الابعد، لكنهم جفلـوا لرؤيتهم القيصر الذي يتجـول وحيدا، ويطلق صرخات الجزع والحيرة.

وفي النهايّـة أسـرع ثلاثـة مـن معاتيقه هـم فـاون، و سبورس، و إيبافرودتيوس لنجدتّه طلبوا اليـه أن يهرب في الحال، فلا مجال لمضيعة لحظـة واحدة من الوقـت. لكنه ظل يخادع نفسـه. خطب في مجلس الشيوخ وهو يرتدي ثياب الحداد والحزن، فهل يا ترى سيستطيع مجلس الشيوخ أن يقاوم دموعه وخطابه؟ وإذا ما وضع في الكفة كل مقدراته الخطابيّة، والتعبيريّة، ومواهبـة التمثيليّة، فهل بمقدور أحد في العالم أن يرجحها؟ أفلا يمنحونه على الاقل حكم مصر؟

لم يجـرؤوا علـى مواجهته بالحقيقة، بل اكتفـوا بتحذيره قائلين إن الشعب سوف يقطعه إربا إربا قبل بلوغ منصة الخطابة هناك. وتوجّهوا إليـه بالتهديد أنه إذا لم يمتط صهوة الحصان على الفور فسوف يتخلون عنه بدورهم.

اقـترح فـاون أن يواريـه في الفيلا خاصتـه خارج بورتـا نومنتانا. وخلال لحظات كانوا على ظهور الجياد، متخفـين بالعباءات يُيممون شطر طرف المدينة. كان الليل قد بدأ يحل.

لكن زحام الشوارع كان ينبـئ بالاوقات الاستثنائيّة العصيبة. كان الجنود يدخلون المدينة وحدانا أوفصائل قليلة العدد.

كانوا يقتربـون من المعسكر حـين أجفلت إحـدى الجثث حصان القيصـر، فقفز مذعورا. الأمر الذي جعـل قبعة عباءة القيصر تنزاح عن راسـه. فـكان من الجندي الذي يعـبر قربه أن عرف أنـه القيصر، لكنه لشـدة ارتباكه من هذا اللقاء المباغت قدم لـه التحيّة العسكريّة. وحين كانـوا يعـبرون بالقرب مـن معسكر الحرس الامبراطـوري، سمعوا الهتافات الهادرة التي " تعيش " غالباً. أدرك نيرون أخيرا أن ساعة موته قـد حانت. استولى عليه الجزع وتبكيت الضمـير. قال بأنه يرى أمامه ظلاما على هيئة غمامة سوداء، تنبثق منها وجوه يتعرف فيها على أمه، وزوجته، وأخيه.

اصطكـت أسنانه ذعراً، لكـن روحه الكوميديّة رغـم ذلك، كأنما لمسـت شيئاً من السحر في هول اللحظة. أن يكون أحد سيد العا لم، ثم علـى حين غرة يفقد كل شيء. لقـد اعتبرها نقطة القمة في التراجيديا. ودون أن يستثنـي نفسه قام هو بلعـب دور البطولة فيها. تملكته حمى الـكلام، ورغب بالتواصل مع الحضور لتكون الاقتباسات والحوارات التي سينطق بها غراسا تنمو في ذاكرتهم للزمن القادم. أعلن أنه راغب في الموت، وطلـب أن يأتوه بـ سبيكولوس الـذي كان أمهر المجالدين في القتـل، ثم صاح بصوت عـال " أمي، وزوجتي، وأبي يدعونني إلى المـوت " كان باب نومنتانا مفتوحا. تابعوا تقدمهم على ظهور الجياد، ومر وا بالقرب من الاستيانوم حيث كان الحواريّ بطرس يعلّم ويعمّد. وعندَ الفجر كانوا في فيلا فاون.

وهناك لم يخفِ عنه معاتيقه بأن الوقت قد حان كي يموت.

طلب اليهم أن يحفروا له قبرا، واستلقى على الأرض ليتمكنوا من تحديد المقاس الدقيق. لكنه حين رآى الحدود تملكه الذعر. شحب وجهه، وتفصد جبينه عرقا كندى الفجر. ما طل، وأعلن بصوت تمثيلي مرتجف، أن الوقت لم يحن بعد. وراح يثرثر ويهذي. إلى أن طلب أن يحرقوا جسده.

وأخذ يردّد : يا له من فنان عظيم سيفني هنا.

في هذه الاثناء وصل مراسل فاون ليخبرهم بأن مجلس الشيوخ أقر الحكم، بأن القاتل سيحاكم حسب العادة.

سال نيرون بشفتين قد دهمهما البياض :

ـ وما هي العادة؟

فأجاب إيبا فرودتيوس بفظاظة :

ـ سيثبتون عنقك بالشوكة، ويجلدونك حتى الموت، ثم يلقون بجسدك في نهر التيبريس

فقال وهو ينظر إلى السماء :

ـ لقد حان الوت إذن.

وكرّر قائلاً :

ـ يا له من فنان عظيم سيفني هنا !

وفي هــذه اللحظة سمع وقــع حوافر خيل جاء قائــد مئة على رأس جنوده من أجل رأس صاحب اللحيّة الحمراء.

صاح المعاتيق :

ـ أسرع !

قــرّب نيرون المديّة من عنقه، لكنه لجزعه الشديد، واهتزاز يده، بان أنه لا يجروؤ على غرز مديته عميقا، فنشأ جرح خارجي طفيف. عندئذ قام إيبا فروديتوســ بالضغط على يده فاخترقت المديّة عنقه، فجحظت عيناه الواسعتان ذعرًا.

وبدخوله، قال قائد المئة :

ـ جئت أطلب حياتك

فأجاب نيرون محشرجاً :

ـ لقد فات الوقت.

وأضاف :

ـ إنه الإخلاص !

وخلال لحظات أخذه الموت إلى ملكوته. وكان الدم ينفر من شعاع قائم من عنقه الضخم علــى أزهار الحديقة : ضربت قدماه الأرض، ثم مات. وفي اليوم التالي قامت أكتي الوفيّة بتكفين جثمانه بقماش فاخر، وأحرقته بشعلة مغمسة بالعطور.

هكذا مضى نيرون كما تمضي الزوبعة، والعاصفة، واللهب الناري، والحرب، والطاعون.

لكـن مصلّى بطرسـ المقام على تـلال فاتيكانوس، هـو الذي من هناك، يحكم حتى اليوم المدينة والعالم.

وفي القـرب من بورتا كابينا القديم ما زالت تقـوم إلى اليوم كنيسة صغيرة كتب على واجهتها كوفاديس دومينه.

روايّـة كـو فاديس إلى أيـن ، للكاتـب البولوني هنريك سنكوفيتش .

قصـة حب تدور أحداثها في زمـن نيرون روما. نتعـرف مـن خلالها علـى الاوضـاع السياسيّة والاجتماعيّـة والدينيّة والثقافيّة في ذلك العهد، ونقـف فيها علـى الاسبـاب الحقيقيّـة لإحراق رومـا، وعلـى شخصيّـة نيرون وحاشيتـه الامبراطوريّة من أمثـال بترونيوس بطل الروايّة ، وسينيكا وغيرهما مـن الادباء والمفكرين . ثم وهـذا أهم مـا في الروايّة كيـف تأسس التبشير للديـن المسيحـي من خـلال أهـم حواريين من تلامذة المسيح بولس، بطرس.

مكتبة نوبل ١٩٠٥


ISBN 978-2843090035

9 782843 090035